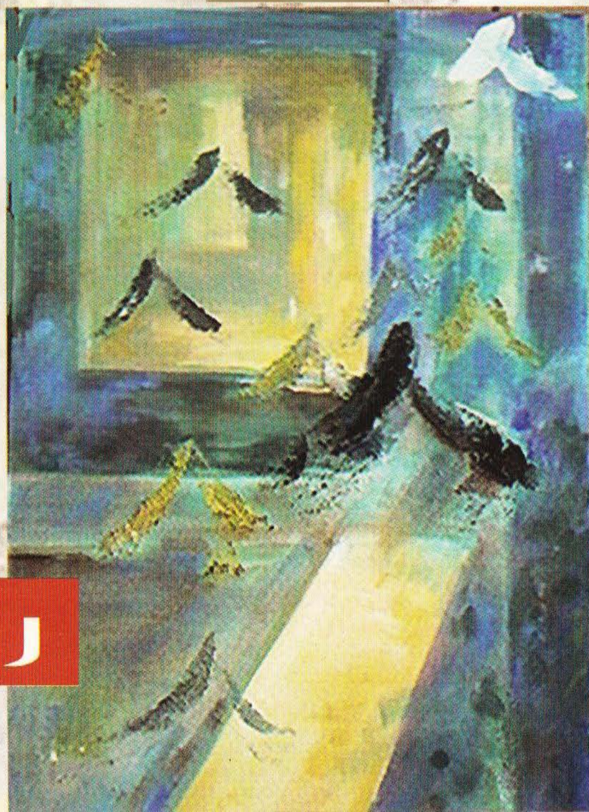
آندريه مالرو

الأمل

علي مولا



رواية

التنوير

الأمل

الكتاب: الأمل

المؤلف: آندريه مالرو

الغلاف: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الطباعة: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت

هاتف: 471357 / 00961/1 خليوي: 728471 / 03

تلفاكس: 00961/1/479505

E-mail: kansopress@hotmail.com

kansopress@yahoo.com

سنة الطبع: 2007

آندريه مالرو

الأمـــل

روايـــة



الجزء الأول

الوهم الغنائي

الفصل الأول :

شملت جلبة سيارات النقل المحملة بالبنادق « مدريد » المتوترة في ليل الصيف ، فقد أخذت منظمات العمال تعلن منذ عدة أيام أن إنقلاباً فاشياً يوشك أن يقع ، وأن ثكنات الجنود قد أغرقت ، وأن الذخيرة بدأت تتدفق ، وكانت مراكش قد تم احتلالها آن ذاك . وفي الساعة الواحدة عقدت الحكومة عزمها - في نهاية الأمر - علّى توزيع الأسلحة على الشعب ، وما أن حانت الساعة الثالثة صباحاً حتى كانت البطاقة النقابية تسمح لصاحبها بالحصول على السلاح . لقد أزف الوقت ، والمكالمات التليفونية الواردة من الأقاليم خلت الآن من كل تفاؤل بعد أن كان يشيع فيها من منتصف الليل حتى الساعة الثانية صباحاً .

طفق المركز التليفوني الرئيسي لمحطة الشمال يتصل بالمحطات الواحدة تلو الأخرى ، وكان راموس Ramos سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، ومانويل Manuel الذي كلف مساعدته هذه الليلة - يقومان بالتوجيه . وباستثناء « نافار » Navare (نبرة) التي انقطع الاتصال التليفوني بها كان الرد لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن الحكومة مسيطرة على الموقف ، وإما أن المنظمات العمالية تتحكم في المدينة إنتظاراً لتعليمات الحكومة . . بيد أن الحوار طرأ عليه الآن شيء من التغيير ، فبدا على هذا النحو :

- « آلو وشقةHuesca ؟ » .

- « من الذي يتحدث ؟» .

- « لجنة العمال بمدريد » .

ـ « لم يعد لها وجود . . يا أكواماً من الأقذار ! فلتحيا أسبانيا ! »

وعلى الجدار ثبت العدد الخاص من صحيفة كلاريداد (الصادر في الساعة السابعة مساء) بالدبابيس : وعلى عرض ستة أعمدة امتد هذا العنوان :

« الى السلاح يا رفاق ! » .

ـ « آلو أبلة[1] ؟ كيف تجري الأمور عندكم ؟ هنا المحطة » .

ـ « تعال ، واشهد بنفسك أيها الوغد . عاش يسوع ـ الملك ! » .

ـ « إلى اللقاء !» .

واستدعي راموس على وجه السرعة .

وكانت خطوط الشمال تتقاطع متجهة صوب سرقسطة وبرغش وبلد الوليد Valladolid .

ـ « آلو سرقسطة ، نريد الاتصال باللجنة العمالية للمحطة ؟ » .

ـ « لقد أعدمت رمياً بالرصاص ، وهذا مصيركم عن قريب ، فلتحيا أسبانيا . » .

ـ « آلو طبلاطة ؟ هنا مدريد الشمال وأنا المسؤول عن النقابة . » .

ـ « إتصل بالسجن ، يا ابن الفاجر ! وسيأتي اليوم الذي نسحبك فيه من أذنيك ! » .

ـ « موعدك على « القلعة » . . . الخانة الثانية على اليسار » .

وكان عمال « السنترال » يحملقون في سحنة « راموس » الذي يشبه بمرحه وشعره المجعد رجلاً من رجال العصابات .

---

(١) أبلة Avila مدينة اسبانية . (المترجم) .

- « آلو . برغش ؟ » .

- « هنا القومندان . » .

لم يعـد ثمة رئيس للمحـطة ، وأنزل « رامـوس » السماعـة ودق جـرس تليفون :

- « آلو مدريد ؟ من أنت ! » .

- « نقابة عمال النقل بالسكك الحديدية . » .

- « هنا ، ميراندا ، المحطة والمدينة في أيدينا . فلتحيا أسبانيا . . » .

- « ولكننا نسيطر على مدريد . . سلام ! »

وهكذا لم يعد في الامكان الاعتماد عـلى معونـة الشمال ، اللهم إلا عن طريق بلدالوليد . ولم يبق إلا إقليم الأشتوريش .

- « آلو ! أوفييدو ؟ من المتحدث ؟ » .

وبدأ راموس يلتزم جانب الحذر .

- « مندوب المحطة » .

- « هنا راموس سكرتير النقابة ، كيف الحال عندكم ؟ » .

- « إن الكولونيل أراندا موالٍ للحكومـة ، وليس لهذا الـولاء وقع حسن في بلد الوليد ، ولقد أرسلنا ثلاثة آلاف من عمـال المناجم المسلحـين لتعزيـز قواتنا . » .

- « متى ؟ . . » .

وأحـاطت براموس جلبة أحـدثتها كـعوب البنادق الخشبيـة ، فلم يعد يسمع شيئاً .

- « متى ؟ » .

ـ « في الحال . . » .

ـ « سلام ! » .

وقال راموس لمانويل : « حافظ على الاتصال التليفوني بهذا القطار ، ثم اتصل ببلدالوليد » .

ـ « آلو بلدالوليد ؟ من المتحدث ؟ » .

ـ « مندوب المحطة » .

ـ « كيف تسير الأمور ؟ » .

ـ « قواتنا محتفظة بالثكنات ،ونحن ننتظر مدداً من أوفييدو ، ابذل كل ما في وسعك ليصل هذا المدد مبكراً على قدر الامكان ، ولكن لا تقلق ، فالحال عندنا على ما يرام ؟ »

وارتفعت أصوات بالغناء أمام المحطة ، فلم يعد راموس قادراً على سماع صوته هو نفسه .

وتساءلت بلدالوليد : « كيف ؟ » .

ـ « على ما يرام . . . على ما يرام . » .

ـ « هل تمردت القوات ؟ » .

ـ « ليس بعد » .

وأنهت بلدالوليد المكالمة .

كان من الممكن تحويل كل معونة تصل من الشمال من هذا الطريق .

ومن خلال الخطوط الحديدية المتحركة التي تقوم بتحويل القطر من خط الى آخر ، وهي لغة لم يكن يفهمها مانويل جيداً ، وبين رائحة الورق المقوى المنبعثة من الكتب ، ومن القضبان الحديدية ومن دخان المحطة (كان الباب

مفتوحاً على ليل قائظ) أخذ مانويل يسجل مكالمات المدن . وفي الخارج كانت تنبعث ضجة تختلط فيها الأناشيد بكعوب البنادق الخشبية ، وكان ينبغي عليه أن يردد بلا انقطاع تلك المكالمات (أما الفاشيون فكانوا يقطعون المكالمات فحسب) ، فشرع يحدد المواقع على خريطة شبكة الخطوط الحديدية الاتصال مقطوع بنبرة ، أما شرق خليج بسكاي كله ، وبلباو وسانتاندر وسان سبستان فكانت موالية، غير ان الاتصال مقطوع بينها وبين ميراندا . ومن ناحية أخرى كانت أقاليم الأشتوريش وبلدالوليد موالية، وتوالى رنين اجراس التليفون دون انقطاع.

- « آلو . هنا شقوبية من أنت ؟ ».

فقال مانويل وهو يرنو الى راموس بنظرة استفهام : « أنا مندوب النقابة » ولكن ماذا كان في حقيقة الأمر ؟ . »

- « سنحضر قريباً لانتزاعها منكم ! ».

- « وسيحدث ذلك دون أن يشعر به أحد . سلام ! ».

وكانت المحطات الفاشية هي التي تطلب الاتصال الآن : ماراسين وليرما ، وأاندا دل دويرو وسبولفيدا ، وبرغش مرة أخرى . ومن برغش حتى جبال سييرا أخذت التهديدات تنهال من قطارات النجدة .

- « هنا وزارة الداخلية ، هل هذا هو سنترال الشمال ؟ أبلغوا المحطات أن الحرس المدني وحرس الهجوم يقفان الى جانب الحكومة ».

- « هنا مدريد ـ الجنوب . كيف تسير الأمور في الشمال يا راموس ؟ ».

- « يبدو انهم قد استولوا على ميراندا ، وليست حالهم أسوأ في الجنوب ».

- « وهنا ثلاثة آلاف عامل من عمال المناجم يهبطون الى بلدالوليد ، وسيحصلون على المدد من هناك . وكيف الحال عندكم ؟ ».

ـ « إنهم يسيطرون على محطتي أشبيلية وغـرناطـة ، أما البـاقي فما زال صامداً ».

ـ « وماذا عن قرطبة ؟ ».

ـ « لا نعلم عنها شيئاً ، وسيحاربون في الضواحي حين يستـولي الأعداء على المحطات ، وثمة مأزق خطير في طريانة وكـذلك في بنيـارويا ، بيـد أنك تذهلني بحكايتك عن بلدالوليد : هل استولوا عليها حقاً ؟ ».

وتحول راموس إلى تليفون آخر ونادى قائلاً :

ـ آلو بلدالوليد ؟ من المتحدث ؟ ».

ـ « مندوب المحطة ».

ـ « آه ! . . . قيل لنا أن الفاشيين كانوا عندكم

ـ « هـذا خـطأ . . . كـل شيء عـلى مـا يـرام . وعنـدكم ؟ هـل تمـرد الجنود ؟ ».

ـ « كلا ».

ـ « آلو مدريد الشمال ؟ من المتحدث ؟ ».

ـ « المسؤول عن النقل . »

ـ « هنا طبلاطة ، ألم تتصل هنا ؟ ».

ـ « لقـد قيل لنـا انكم أعـدمتم رميـاً بـالـرصـاص ، أو بشيء من هـذا القبيل ! » .

ـ « لقد خرجنا من ذلك المكان . . . والفاشيون هم الذين فيـه الآن . سلام ! ».

ـ « هنـا دار الشعب ، أبلغوا جميـع المحطات المـواليـة أن الحكـومـة التي تستند على الميليشيا الشعبية ـ تسيطر على برشلونة دمرسيه وبلنسية وملقة وعلى

الأكستريمادورا وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط كله ».

- « آلو ! هنا توردسياس ، من المتحدث ؟ ».

- « مجلس العمال في مدريد ».

- « لقد أعدم من هم على شاكلتكم من الأوغاد ، فلتحيا أسبانيا ! »

ودار هذا الحوار نفسه في مدينة الريف (دل كامبو) .

وبقي خط بلدالوليد خط الاتصال الوحيد مع الشمال :

- « آلو ليون ؟ من المتحدث ؟ ».

- « مندوب النقابة . . . سلام ! ».

- « هنا مدريد الشمال هل مر عليكم قطار عمال مناجم أوفييدو ؟ . »

- « أجل ».

- « هل تعرف أين هو الآن ».

- « إنه يتجه صوب ميورقة على ما أظن ».

وفي الخارج . . . في شارع مدريد كانت تنبعث دائماً ضجة الأناشيد وكعوب البنادق .

- « آلو ميورقة ؟ هنا مدريد . . . من المتحدث ؟ ».

- « من أنت ؟ ».

- « مجلس عمال مدريد ؟ ».

وقطعت المكالمة . . والآن ؟ أين ذهب القطار ؟ ».

- « آلو بلدالوليد ؟ هل أنتم واثقون من الصمود حتى يصل عمال المناجم ؟ ».

- « تمام الثقة ».

- « ميورقة لا تجيب ! ».

- « لا أهمية لذلك ».

- « آلو مدريد ؟ هنا أوفييدو . لقد ثارت آراندا منذ برهة . والقتال دائر ».

- « أين قطار عمال المناجم ؟ ».

- « بين ليون وميورقة ».

- « لا تقطع الاتصال ! ».

وأخذ مانويل في النداء ، على حين انتظر راموس .

- « آلو ميورقة ؟ هنا مدريد ».

- « من ؟ ».

- « مجلس العمال ، من الذي يتكلم ؟ ».

- « رئيس وحدة الفلانج الأسبان ، لقد مرَّ قطاركم أيها الحمقى ، وأصبحت المحطات جميعاً تحت سيطرتنا حتى بلدالوليد ، بلدالوليد نفسها قد وقعت في أيدينا منذ منتصف الليل ، أما عمالكم فنحن في انتظارهم بالمدافع الرشاشة . ولقد ظهرت أراندا . . . الى اللقاء ! ».

- « إلى لقاء قريب ! ».

وشرع مانويل في الاتصال بجميع المحطات التي بين ميورقة وبلدالوليد الواحدة اثر الأخرى .

- « آلو سپولفيدا ؟ هنا مدريد - الشمال . لجنة العمال ».

- « لقد مر قطاركم أيها الأقذار . . . وسنذهب هذا الأسبوع لجز

رؤ وسكم ! ».

- « هراء . . . سلام ! ».

واستمر الاتصال :

- « آلو مدريد ؟ آلو ! آلو ! مدريد ؟ هنا نافالبيرال دي بنارس المحطة . لقد أستعدنا المدينة مرة أخرى . والفاشيون - أجل - قد جردناهم من السلاح . . أبلغوا هذه الأنباء . . واتصلوا بهم تليفونياً كل خمس دقائق لمعرفة احتمال أن المدينة لا تزال تحت سيطرتهم . . . آلو ! آلو !» .

وقال راموس : « ينبغي أن نبعث بأنباء كاذبة في كل مكان ».

- « سوف يتحرون عن صدقها ».

- « ومع ذلك فسوف يشغل ذلك أذهانهم دائماً ».

- « آلو . . مدريد - الشمال . . . هنا الاتحاد العام للعمال . . . من المتحدث ؟ ».

- « راموس ».

- « قيل لنا : أن قطاراً للفاشيين في طريقه الينا محملاً بأحدث الأسلحة ، وهو قادم من برغش . . . ألديكم معلومات ؟ . »

- «سنعرف ذلك هنا، فإن المحطات جميعاً تحت سيطرتنا حتى سييرا (أقليم الشارات) ، ومع ذلك فلا بد من اتخاذ الاحتياطات . . . لحظة من فضلك ».

- « اتصل بسييرا يا مانويل ».

واتصل مانويل بالمحطات الواحدة بعد الأخرى ، كان يمسك بيده مسطرة كأنه يضبط بها ايقاعاً معيناً - وكانت سييرا كلها موالية ، ولم يلبث أن اتصل بالمركز الرئيسي للبريد ، فتلقى نفس المعلومات ، وهي لا تخرج فيما

يتعلق بالمنطقة المجاورة لسييرا عن أحد أمرين : إما أن الفاشيين لم يحاولوا شيئاً على الاطلاق ، أو أن الهزيمة قد حاقت بهم .

ومهما يكن من أمر فقد كانوا محتفظين بنصف المنطقة الشمالية ، وفي نافارا (نبرة) كان القائد هو « مولا » Mola الرئيس السابق لقوات الأمن في مدريد ، وكان ثلاثة أرباع الجيش ضد الحكومة كما هي العادة ، والى جانب الحكومة يقف حرس الهجوم والشعب ، وربما الحرس المدني أيضاً .

ـ « هنا الاتحاد العام للعمال . . . هل هذا راموس ؟ » .

ـ « أجل . . » .

ـ « ماذا عن القطار ؟ » .

ونقل راموس الانباء في إيجاز ، ثم سأل بدوره :

ـ « وما الموقف بوجه عام ؟ » .

ـ « حسن ، حسن جداً ، اللهم إلا في وزارة الحرب ، فقد قالوا في الساعة السادسة : ان كل شيء قد ضاع ! فقيل لهم : ان هذا غير صحيح ، على حين زعموا هم أن رجال الميليشيا سوف يفلتون . . . بيد أننا لا نعبأ بحكاياتهم ، إنني أسمعك في مشقة . . فالناس يغنون في الشارع » .

ومن السماعة تناهت الى راموس تلك الأغاني التي اختلطت بالأصوات المنبعثة من المحطة » .

ومع ان الهجوم يكاد يكون قد بدأ دون شك في كل مكان في نفس اللحظة . فقد بدا أن جيشاً سائراً هو الذي يقترب ، وأصبحت المحطات التي استولى عليها الفاشيون أشد قرباً من مدريد ، ومع ذلك فقد كان الجو منذ أسابيع متوتراً أشد التوتر والجمهور شديد القلق من هجوم ربما كان عليه أن يواجهه دون سلاح ، حتى لقد بدت ليلة الحرب هذه تحريراً هائلاً من هذا

القلق وذلك التوتر .

وسأل راموس مانويل : « أما زالت سيارة الانزلاق على الجليد هناك دائما ؟ » .

- « بلى » .

وعهد بالاشراف على السنترال الى واحد من المسؤولين عن المحطة ، وكان مانويل قد ابتاع منذ بضعة شهور في أحد « الأوكازيونات » سيارة صغيرة ليذهب بها الى جبال سييرا لممارسة رياضة الانزلاق على الجليد ، أما راموس فقد كان يستخدمها في أيام الآحاد في أغراض الدعاية ، وفي هذه الليلة وضعها مانويل مرة أخرى تحت تصرف الحزب الشيوعي ، وعاد للعمل ثانية مع زميله راموس .

قال راموس : « لا أظن أننا سنعيد عام ١٩٣٤ مرة أخرى ، فلنذهب الى تطوان عن طريق لاس فيكتورياس ؟ » .

- « وأين هي ؟ » .

- « عند كواترو كامينوس (الطرق الأربعة) » .

وما أن ابتعدا حوالي ثلاثمائة متر حتى أوقفهم أول مركز للتفتيش .

- « أوراقكم ! » .

وكانت أوراقهم لا تزيد عن البطاقة النقابية ، ولم يكن مانويل يحمل معه قط بطاقة عضويته بالحزب الشيوعي ، ولما كان يعمل باستديوهات السينما (كان مهندساً للصوت) فإن أسلوباً غامضاً تميز به سكان حي مونبارناس في لباسهم جعله يتوهم أنه قد أفلت من تأثير الطبقة البورجوازية ، وكان حاجباه الكثيفان - في ذلك الوجه الشديد السمرة المنتظم التقاطيع الثقيل نوعاً ما - هما وحدهما اللذين يمكن أن ينتميا في شيء ما الى طبقة العمال (البروليتاريا) ، وما كاد جنود الميليشيا يلقون بنظرهم اليه حتى تعرفوا على رأس راموس المرح

المجعد ، واستأنفت السيارة سيرها بين الخبطات المتبادلة على الاكتاف والقبضات الملوحة وصيحات « السلام » . . . لقد كان الليل اخاءاً كله .

ومع ذلك فقد كان الصراع بين الاشتراكيين اليمينيين والاشتراكيين اليساريين ، ومعارضة كاباليرو لأية حكومة يؤلفها بريبتو ـ لم يكن هذان شيئاً ضعيفاً في الأسابيع الأخيرة ـ . . . وفي المركز الثاني للتفتيش كان رجال « الاتحاد الفوضوي الأيبيري » يسلمون شخصاً مشبوهاً الى جماعة من عمال الاتحاد العام للعمال أعدائهم القدماء ، وقال راموس في نفسه : إن هذا شيء حسن ولم يكن توزيع الأسلحة قد انتهى ، فقد وصلت سيارة نقل محملة بالبنادق .

وقال راموس : « إنها أشبه بكعوب الأحذية ! » .

والواقع انه لم يكن يظهر من البنادق سوى اللوح المعدني الذي في نهاية الكعب .

فقال مانويل : «هذا حق . . . إنها أشبه بالأحشية » . .

ـ « بماذا تهرف ؟ » .

ـ « لقد كسرت إحدى أسناني في أثناء الأكل . . ولم يعد لساني يهتم إلا بهذه السن المكسورة ، فهو لا يعبأ بمكافحة الفاشية » .

ـ « وماذا كنت تأكل ؟ » .

ـ « شوكة !» .

وكانت ثمة أطياف تحتضن ما تسلمته لتوها من بنادق . . . . أطياف يلعنها الآخرون الذين كانوا ينتظرون دورهم في العتمة متلاصقين كأنهم أعواد الثقاب ، ومرت بعض النسوة يحملن سلالاً مملوءة برصاص البنادق .

وهتف صوت : « ليس الوقت مبكراً جداً . . . هذا إذا وضعنا في اعتبارنا الوقت الذي انتظرنا فيه انقضاضهم علينا ! » .

ـ « لقد اعتقدت أن الحكومة سوف تتركنا تحت رحمتهم ».

ـ « لا تنزعج ، فسوف يرون عن قريب ما يمكن أن نصنعه بهم . . هؤلاء العصبة من الأوغاد ! ».

ـ « الشعب هو حارس مدريد ، هذه الليلة ».

وبين كل خمسمائة متر ـ كان يقوم مركز تفتيش جديد ، والسيارات الفاشية تطوف بالمدينة مسلحة بالمدافع الرشاشة ، نفس القبضات المرفوعة ، ونفس الاخاء . . دائماً . . ودائماً نفس الحركة الغريبة للحراس الذين لا يكفون عن تحسس بنادقهم ، وكأنهم لم يلمسوا هذه البنادق منذ قرن من الزمان . . . !

وحين وصلا ألقى راموس سيجارته وداسها بقدمه ».

ـ «كف عن التدخين ».

واختفى مسرعاً ، ثم عاد بعد عشر دقائق يتبعه ثلاثة من الرفاق ، وكانوا يحملون جميعاً لفافات مغطاة بورق الصحف وملفوفة بالحبال .

وفي هدوء أشعل مانويل لفافة تبغ جديدة ، فقال راموس بلهجة جدية :

ـ « دع سيجارتك ، فهذا الذي تحمله ديناميت » .

ووضع الرفاق اللفافات ، نصفها على مقدمة السيارة ، ونصفها الآخر على المؤخرة ، ثم عادوا الى المنزل ، وكان مانويل قد ترك مقعد القيادة ليسحق سيجارته دون أن يقذف بها . ورفع إلى راموس وجهاً مذعوراً .

فسأله راموس : « ما هذا ؟ ماذا دهاك ؟ ».

ـ « أنت تضايقني يا راموس ».

ـ « هذا حق . . والآن ، هيا بنا » .

ـ « ألا تستطيع العثور على سيارة أخرى ؟ إنني أستطيع قيادة سيارة

أخرى .

ـ « إننـا سننسف الجسـور ، وسنبـدأ بجسـر أبلة ، ونحـن نحـمـل الـديناميت ، وسيـذهب الى حيث ينبغي أن يـذهب . . . الى بيجـو . . . ينوس . . . الخ . . وليس في نيتـك أن تضيع سـاعتـين ، أليس كـذلـك ، ونحن نعلم على الأقل أن هذه السيارة تسير ؟ » .

فقال مانويل حزيناً مذعناً : « بلى » . . .

ولم يكن مانويل متمسكاً بسيارته تمسكه بالأشياء الاضافية البديعة المركبة فيها . . . واستأنفت السيارة سيرها : مانـويل عـلى عجلة القيادة ، وراموس في الخلف يحتضن حزمة من القنابل اليـدوية ، وبغتـة ، أحس مانـويل أنـه لم يعد يبالي بهذه السيارة . . . بل لم تعد ثمـة سيارة . . . لم يكن هنـاك سوى هذه الليلة المشحونة بأمل غامض لا حدود له . . . هذه الليله التي لا بد لكل إنسـان أن يصنع فيهـا على الأرض شيئـاً . . . وسمع رامـوس دقـات طبـول بعيدة ، كأنها نبضات قلبه . . .

وكانت مراكز التفتيش تتصدى لهم كل خمس دقائق .

وكان رجال الميليشيا ـ وأكثرهم لا يعرفون القـراءة ـ يخبطون عـلى اكتاف راكبي السيارة حين يتعـرفون عـلى راموس ، ولا يكـادون يسمعونـه يصيح : « لا تدخنوا ! » ويرون السيارة محملة باللفائف حتى يـدقوا الأرض بـأقدامهم فـرحاً ، فقـد كان الـديناميت هـو السلاح الـرومـانتيكي القـديم في اقـاليم الأشتوريش .

وواصلت السيارة سيرها .

وعند « القلعة » داس مانويل على البنزين ، فعن يمينه برزت سيارة نقـل من سيارات الفاشين غاصة بالعمال المسلحين ، ولكنهـا استدارت فجـأة الى اليسار ، وكانت السيارات جميعاً تسير في تلك الليلة بسرعـة ثمانـين كيلو متراً في الساعة ، وحاول مانويل أن يتفادى سيارة النقل ، فأحس بسيارته الخفيفـة

ترتفع عن الأرض ، وقال في نفسه :

ـ « انتهينا » .

ووجد نفسه منبطحاً على بطنه وسط لفائف الديناميت التي كانت تتدحرج كثمار الكستناء على الرصيف ، لحسن الحظ ، وتحت وجهه كانت دماؤه تلمع ، وقد أضاءها المصباح الكهربي ، لم يتألم ، وإن كان أنفه ينزف دماً ، وسمع راموس يصيح : « لا تدخلوا . . أيها الرفاق ! » وصاح مرة أخرى ، ثم التفت أخيراًفرأى صديقه وقد صلب ساقيه وتدلت خصلات شعره المجعد على وجهه ، وأمسك بين يديه بقنابله اليدوية وهو يضمها الى حضنه حانقاً محوطاً بحاملي البنادق الذين أخذوا يدورون حول اللفائف دون أن يتجاسروا على لمسها ، وفي الوسط كان يلمع عقب سيجارة ألقاه راموس (الذي استغل فرصة وجوده في المؤخرة لكي يشعل سيجارة أخرى) ، وكان الدخان يرتفع من هذا العقب الوحيد ، فأطفأه مانويل بقدمه وشرع راموس بصف اللفائف على طول الحائط ، أما فيما يتعلق بسيارة الانزلاق على الجليد فمن الأفضل ألا نتحدث عنها .

وصاح مكبر الصوت : « القوات المتمردة تسير وسط برشلونة ، والحكومة مسيطرة على الموقف » .

وأخذ مانويل يعاون على رص اللفائف ، أما راموس الذي كان جم النشاط دائماً فلم يتحرك من مكانه .

ـ « ماذا تنتظر لكي تمد لنا يد المساعدة ؟ » .

ـ « آلو ! القوات المتمردة تسير وسط برشلونة » .

ـ « لا أستطيع أن أحرك ذراعي ، فلقد كانت الصدمة قوية جداً . . . ولكنه سيعود الى حالته الطبيعية ، فلنوقف أول عربة خالية . . . ولنواصل السير » .

الفصل الثاني

وبين الطراوة المنبعثة من الطرقات المرشوشة بزغت على برشلونة تباشير فجر الصيف ، وفي الحانة الضيقة التي ظلت مفتوحة طوال الليل في مواجهة الشارع الواسع المهجور كان سيلز الشهير باسم « النجاشي » وعضو الاتحاد الفوضوي الأيبيري ونقابة عمال النقل - يقوم بتوزيع المسدسات على رفاقه .

كانت القوات المتمردة قد بلغت ضواحي المدينة ، والجميع يتحدثون في آن واحد :

- « ماذا ستفعل القوات التي هنا ؟ » .

- « ستعمل على إهلاكنا ، ونستطيع أن تكون على يقين من ذلك » .

- « والضباط قد حلفوا أيضاً يمين الولاء للشركات أمس » .

- « المذياع يجيبك » .

وكان المذياع الصغير الذي في آخر الحجرة الضيقة يردد الآن كل خمس دقائق : « القوات المتمردة تجتاح منتصف المدينة » .

- « وهل ستوزع الحكومة أسلحة ؟ » .

- « كلا » .

- « لقد قبضوا أمس على اثنين من زملائنا أعضاء الأتحاد الفوضوي الأيبيري لأنهما كانا يتنزهان وهما مسلحان بالبنادق ، وكان لا بد من اللجوء

إلى دوروتي وأوليفر لاطلاق سراحهما » .

- « وماذا يقولـون في الترانكليـداد[1] ؟ هل سيحصلون عـلى البنادق أو لا ؟ » .

- « الأرجح لا » .

- « والمسدسات ؟ » .

واستمر « النجاشي » في توزيع مسدساته .

- « هذه المسدسات قد وُضعت تحت تصرف الزملاء الفوضـويين بفضل السادة الضباط الفاشيين . إن لحيتي توحي بالثقة » .

وكان قد استطاع بمعونـة صديقـين وبعض المتآمـرين أن يجرد ليـلاً مخازن السـلاح في سفينتين من سفن الحـرب ، وما بـرح يحتفظ بعفريتـة الميكانيكي الزرقاء التي ارتداها ليستطيع التسلل الى السفينة .

قال وهو يناول المسدس الأخير: « والآن ، فلنجمع نقودنا ، وعلينـا أن نشتري الرصـاص من أول مخزن للسـلاح يفتح هـذا الصباح . مـع كل منـا خمس وعشرون طلقة . . . وهذا لا يكفي » .

- « القوات المتمردة تجتاح منتصف المدينة » .

- « مخازن السلاح لا تفتح اليوم . . لأن اليوم يوم الأحد » .

- « لا داعي للقلق ، سنفتحها بأنفسنا » .

- « على كل واحد أن يبحث عن رفاقه وأن يصحبهم معنا » .

وبقي ستة ، على حين رحل الآخرون .

« القوات المتمردة . . . »

(١) هو المشرب الذي يجتمع فيه الفوضويون . (المؤلف)

وكان النجاشي يصدر الأوامر ، لا بسبب وظيفته في النقابة ، ولكن لأنه أمضى خمسة أعوام في السجن ، ولأنه حين طردت شركة الترام في برشلونة أربعمائة عامل عقب قيامهم بإضراب ـ أشعل ذات ليلة بمعاونة عشرة من رفاقه ـ النار في عربات الترام التي في المخازن عند هضبة تيبيدابو ، وقذف بها مشتعلة محلولة الفرامل ، حتى منتصف برشلونة وسط « كلاكسونات » السيارات المذعورة ، أما فيما يتعلق بالتخريب الأقل أهمية الذي تولى قيادته بعد ذلك فقد كلفه سنتين فحسب .

وخرجوا في ضوء الفجر المتشح بالزرقة ، وكل منهم يسائل نفسه كيف سيكون الفجر المقبل ، وعند كل ركن من أركان الشارع توافدت جماعات يصحبها أولئك الذين سبقوا الى مبارحة الحانة ، وحين بلغوا الشارع الرئيسي شاهدوا القوات تخرج مع مطلع النهار .

وتوقفت دمدمة الخطوات ، إذ انهمر سيل من الرصاص على الشارع مكتسحاً إياه من أوله إلى آخره على التوالي ، ومن أكبر شوارع برشلونة المستقيم تمام الاستقامة كان جنود ثكنات « بدرالبس » وعلى رأسهم ضباطهم يسيرون صوب مركز المدينة .

وأحتمى الفوضويون بأول شارع متقاطع مع الشارع الرئيسي ، أما « النجاشي » فقد عاد اليه مع اثنين آخرين .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقع أعينهم فيها على هؤلاء الضباط ، فقد كانوا هم أنفسهم الذين اعتقلوا ثلاثين ألف سجين في « الآشتوريش » (الأقاليم الشمالية الغربية) ، وهم أنفسهم الذين قاموا بدورهم عام ١٩٣٣ في سرقسطة ، وهم بأعينهم الذين سمحوا بتخريب الثورة الزراعية ، والذين بفضلهم ظلت مصادرة ممتلكات اليسوعيين التي أمرت الدولة بها ست مرات خلال قرن من الزمان ـ ظلت بفضلهم هذه المصادرة حبراً على ورق ست مرات أيضاً ، وهؤلاء الضباط هم أنفسهم الذين طردوا أبوي النجاشي . والقانون القطالوني يقضي بطرد زارعي الكروم حين لا تؤتي الكروم

ثمارها ، وحين اجتاح وباء الفلقسير (نوع من الحشرات يصيب النبات) اعتبرت الكروم التي أصيبت به عقيمة ، وطرد الزارعون من كرومهم التي زرعوهاوتعهدوها برعايتهم منذ عشرين أو خمسين عاماً ، أما هؤلاء الذين حلوا محلهم فلم تكن لهم أية حقوق على هذه الكروم ، ومن ثم كانوا يتقاضون أجوراً زهيدةً . . ولعلهم كانوا يتقاضونها من أولئك الضباط الفاشيين أنفسهم .

وتقدموا الى منتصف الشارع محاصرين الجنود ، تتقدمهم دوريات الحماية على الرصيفين ، وعند كل ركن كانت الدوريات تطلق رصاصها من أقصى الشارع قبل العبور ، ولم تكن مصابيح الشارع الكهربائية قد أُطفئت بعد ، وأخذت أعلانات النيون تسطع سطوعاً أقوى من نور الفجر ، واستدار النجاشي على عقبيه متجهاً صوب رفاقه .

- « ليس من شك في أنهم قد رأونا ، فلا بد من أن نقوم بدورة ، ولنهبط عليهم من عل » .

وشرعوا في العدو دون ضجة ، فقد كانوا جميعاً ينتعلون نعالاً من الكتان ، واحتموا تحت أبواب شارع متقاطع من الشارع الرئيسي في حي من الأحياء الغنية له أبواب جميلة عميقة ، وكانت أشجار الشارع مثقلة بالطيور ، ورأى كل منهم في مواجهته على الجانب الآخر من الشارع رفيقاً لا يريم ، وبيده مسدس .

وامتلأ الشارع الخالي شيئاً فشيئاً بضوضاء خطوات منتظمة ، وسقط أحد الفوضويين إذ أُطلق عليه الرصاص من نافذة . . . ولكن أي نافذة ؟ الجنود على بعد خمسين متراً . ومن كل نافذة من النوافذ المطلة على الشارع كان من الممكن رؤية أبواب الرصيف المقابل جميعاً . وتحت الأبواب المسقوفة في الشارع الخالي الذي امتلأ بخطوات الجنود المنتظمة - وقف الفوضويون بلا حراك ينتظرون إطلاق الرصاص عليهم من النوافذ كأنهم أرانب في ميدان للرماية !

وانهمر وابل من الرصاص عن الدورية ، وكانت الرصاصات تئز في عبورها كسرب من الجراد ، ورحلت الدورية من جديد ، وما كاد القسم الرئيسي من الجنود يمر أمام الشارع حتى انهالت طلقات المسدسات من جميع الأبواب .

ولم يكن الفوضويون رماة سيئين .

وصاح الضباط « الى الأمام » ، ولم يقصدوا التقدم ضد هذا الشارع ، وإنما ضد مركز المدينة ، فلكل شيء أوانه ، ولم يكن النجاشي ـ وهو قابع تحت زخارف المدخل الأثري الذي يحميه ـ يرى من الجنود سوى الجزء الممتد من الوسط حتى القدمين ، فما كان يستطيع أن يرى الأسلحة ، وكانت البنادق جميعاً تطلق الرصاص ، غير أنه لاحظ تحت السترات العسكرية سراويل مدنية . . . وهذا معناه أن ميليشيا الفاشيين قد انضموا الى الجنود . .

ومرت الدوريات التي تحمي المؤخرة ، وخفتت ضجة الخطوات .

وجمع النجاشي رفاقه ، وسار بهم في شارع آخر ، ثم لم يلبث أن توقف . . إن ما يفعلونه شيء لا جدوى منه ، فسوف يدور القتال الخطير في وسط المدينة ، في ميدان قطالونيا بلا شك . وكان ينبغي الانقضاض على الجنود من الخلف . . ولكن كيف ؟

وكانت الفرقة قد تركت كتيبة في الميدان الأول . . على سبيل الحذر . . وهذه الكتيبة مسلحة ببندقية سريعة الطلقات .

ومر عامل وهو يجري ، وقد أمسك بيده مسدساً .

ـ « انهم يسلحون الشعب ! » .

وسأله النجاشي : « ونحن أيضاً ؟ » .

ـ « قلت لك : انهم يسلحون الشعب ! » .

ـ « وكذلك الفوضويون ؟» .

بيد أن العامل لم يلتفت اليه .

وبحث النجاشي عن مشرب ، واتصل تليفونياً بصحيفة الفوضويين . كانوا يسلحون الشعب حقاً ، غير أن الفوضويين لم يتسلموا حتى الآن سوى ستين مسدساً « الأفضل أن يبحث الانسان بنفسه عنها في سفن الحرب ! » .

في الصباح انطلقت صفارة أحد المصانع . . انطلقت كما تنطلق في الأيام التي لا تتحدد فيها سوى المصاير الصغيرة . . في الأيام التي يسمعها فيها النجاشي ورفاقه ، فيهرولون أمام جدران طويلة رمادية وصفراء . . جدران لا نهاية لها . . وفي نفس هذا الفجر ، في هذه الأنوار الكهربائية التي ما تزال مضاءة ، والتي تبدو كأنها معلقة بأسلاك الترام . وانطلقت صفارة أخرى . . . عشرة . . عشرون . . . مائة . . .

وتسمرت الجماعة كلها في منتصف الطريق ، كأنما مستها صاعقة ، فما من رفيق من رفاق « النجاشي » قد سمع أكثر من خمس صفارات تنطلق في وقت واحد ، وكما كانت مدن أسبانيا التي يهددها الخطر تقرع في الماضي أجراس كنائسها جميعاً أجاب عمال برشلونة على طلقات المدافع باطلاق صفارات المصانع اللاهثة .

وصاح رجل يعدو نحو المركز يتبعه شخصان آخران يحمل كل منهما بندقية ! :

ـ « بويج في ميدان قطالونيا » .

فقال أحد رفاق النجاشي : « لا أظن أنه خرج من المستشفى . »

وفقدت هذه الصفارات جميعاً ـ حين انطلقت معاً ـ رنتها الحزينة التي تتسم بها سفينة تشرع في الرحيل ، لكي تصبح كأنها إبتهاج اسطول ثائر .

وقال النجاشي وهو ينظر الى فصيلة الجنود والى البندقية السريعة

الطلقات :

- « توزيع الأسلحة . . سنفرغ لهذا الأمر نحن أنفسنا » .

وابتسم ابتسامة غاضبة ، وكانت أسنانه تبرز قليلاً بين شاربه ولحيته الأسودين . ومن المصانع المحتلة جميعاً ، ملأ زئير الصفارات ، الطويل تارة ، المتعجل تارة أخرى ، ملأ الشوارع والمنازل والجو والخليج كله . . حتى بلغ الجبال !

* * *

وهبط جنود ثكنات الحديقة - كغيرهم من الجنود - متجهين صوب مركز المدينة .

وكان « بويج » الذي يرتدي صديرية سوداء - يحتل ميداناً مع ثلاثمائة شخص ، وكان أقصرهم وأضخمهم في آن معاً . . . لم يكونوا جميعاً من الفوضويين ، ففيهم أكثر من مائة قد تسلموا بنادق وزعتها الحكومة . . أما هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يطلقون الرصاص فقد شرحت لهم طريقة استخدام البندقية ، وقال بويج وهو يوزع البنادق على أفضل الهدافين : « الملكية الخاصة لا تنفع اليوم هنا » وعلى هذا الكلام آمن الجميع .

ووصل الجنود من أوسع طريق ، فقسم رجاله على الشوارع المقابلة بعضها للبعض الآخر ، وكان النجاشي قد وصل لتوه مع رفاقه ومعهم البندقية السريعة الطلقات . . . التي يعرف النجاشي وحده كيف يستخدمها ، وانقطعت الأصوات جميعاً حتى وقع أقدام الميليشيا الذين ينتعلون نعالاً من الكتان . . . وحتى عربات الترام . وخطوات الجنود الذين ابتعدوا الآن تماماً ، ومنذ أن صمتت صفارات المصانع خيم على برشلونة صمت رهيب .

وتقدم الجنود متأهبين لاطلاق بنادقهم تحت أعمدة ضخمة للاعلان عن فندق وعن محل للعطور. وتساءل بويج بينه وبين نفسه : « هل أصبح

الاعـلان أثراً من آثـار الماضي ؟ » وكـان الفوضـويون قـد رفعوا بنـادقهم إلى اكتافهم .

وأطلق الصف الأول من الجنود الذين يرتدون سراويل مـدنية النـار على أحد الشوارع ، ثم انتشروا تحت سرب من الحمام الأبيض ، سقط الكثير من أفـراده ، على حـين أطلق الصف الثاني النـار على شـارع آخر ، ثم أخـذ في التفرق ، وأطلق رجال بـويـج المحتمـون النـار هم ايضـاً لا عـلى قـطاع من الشارع ، كما فعل رجال النجاشي ، وانما على الميدان كله من زوايا مختلفة ، ولم يكن الميـدان واسعاً ، واتخـذ الصف الأول خطوة الـركض حتى وصل الى بندقية النجاشي السريعـة الطلقـات ، وكما تنحسـر موجـة من الأمواج تـاركة حصاها ـ كذلك أسفرت موجـة الرصـاص الذي أنـطلق صوب الشـارع عن خط متعرج من الأجسام المنبطحة أو المتكومة

وفي نوافذ أحد الفنادق كان عدد من الأشخاص يرتدون قمصانـا قصيرة الأكمام يصفقون (للمـدنيين أو للجنـود) وهؤلاء كانوا جماعـة من الريـاضيين الأجانب جاؤوا لمشاهدة الألعاب الأوليمبية ، وواصلت صفارة أحد المصـانع صفيرها كأنها نداء تطلقه سفينة .

واندفع العمال متعقبين الجنود :

فصاح بويج : « إلزموا مراكزكم ! » ولوح بذراعيه القصيرتين بيد أن أحداً لم يسمعه .

وفي أقل من دقيقة كان ثلث المطاردين قد تساقـطوا ، وكان الجنـود الآن يحتمون تحت المداخل المطلة على الشارع ، على حين ألقى العمال أنفسهم في نفس الموقف الذي اتخذه الجنود منذ خمس دقائق . وفي مؤخرة الشارع كـانت هناك جثث ملقاة ، وجرحى يرتدون الزي العسكري ، وفي المقدمة جثث وجـرحى يرتدون زياً أسود أو أزرق . وبين هاتين المجموعتين حمامـات مقتولـة ، وفوق هذا كله أستأنفت عشرون صفارة زئيرها في وجه الشمس .

وكان بويـج ورجالـه الذين أخـذوا في الازدياد عـلى الرغم من الجـرحى الذين تناثـروا في المكان ـ يشـاغبون الجنـود بين ضجـة الرصـاص المقتضبة ، وزئير الصفارات الخافت . أما الجنود فكانوا يقاتلون قتـال المنسحب في خطوة رياضية ، كأنهم إن لم ينسحبوا فقد يحيط بهم محاربـو الجبهة الشعبيـة من أحد الشوارع الموازية للشارع الـرئيسي ، ليشنوا عليهم هجـوماً تحت حمـاية أحـد المتاريس . . .

وأغلقت أبواب الثكنات من جديد في صليل .

ـ « أين بويج ؟ » .

ـ « إنه أنا ، ماذا تريد ؟»

وكان مقاتلون جدد يصلون بلا انقطاع ، ورجال الحرس المـدني ورجال حـرس الهجوم يقـاتلون في الوسط ، ولمـا كان الشيـوعيـون شـرذمـة قليلة في بـرشلونة فقـد وجد الـزعماء الفـوضـويـون أنفسهم قـادة المعـركـة ، ولم يكن « بـويـج » معـروفـاً الى حـد مـا ، إذ لم يكن يكتب في صحيفــة « التضـامن العمـالي » ، بيـد أنـه كـان من المعـروف عنـه أنــه نـظم المعــونـة لأطفــال « سرقسطة » ، ولهذا السبب كان غير الفوضـويين يؤثـرون التعامـل معه عـلى التعامل مع زعماء « الاتحاد الفوضوي الآيبيري » (قام عمال سرقسطة بقيـادة دوروتي بـأكبر اضـراب عرفتـه اسبـانيـا في ربيـع عـام ١٩٣٤ استمـر خمسـة أسابيع ، وقد رفضوا كل مساعدة مالية مطالبـين بأن يـظهر العمـال تضامنهم من أجل أطفالهم ، وكان أكثر من مائة ألف شخص قد قدموا أموالاً ومؤونة إلى « هيئة التضامن العمالي » ، وقام بويج بتوزيعها عـلى الفور ، وأعـد صفاً من عربات النقل حملت أطفال عمـال سرقسـطة الى برشلونة) ، ولما لم يكن الفوضويون يدفعون أي اشتراكـات فقد هـاجم بويـج ـ شأنـه في ذلك شـأن دوروتي ، وكل جماعة « المتضامنين » ـ هاجم السيارات التي تنقل الـذهب من بنك اسبانيا واستولى عليها لمساعـدة المضربـين « والمكتبة الفـوضويـة » ، وكم كانت دهشة أولئك الذين يعرفون سيرة حياته الرومانتيكية حين وقعت أعينهم

على هذا القزم الربعة ذي الأنف الأقنى ، والنظرة الساخرة ، والـذي لم يكف منذ هذا الصباح عن الابتسام ، اذ لم يكن فيه ما يتفق مـع تلك السيرة اللهم إلا صديريته السوداء .

وترك هناك ثلث رجـاله الـذين أخذوا يتـزايدون شيئـاً فشيئاً ، وشـرعوا يقيمون المتاريس ، وينصبون المدفـع سريـع الطلقـات ، وكان أحـد الرجـال الجدد مدربـاً على استعمـاله ، ووصـل في هذه الآونـة كثير من الجنـود الذين انضمـوا الى الشعب وقد خلعـوا ستـراتهم خشيـة اللبس ، ولكنهم احتفـظوا بخـوذاتهم ، وكان الضبـاط الفاشيـون قـد أعـطوهم في الصبـاح أكـوابـاً من الروم ، وقالوا لهم : إنهم ذاهبون لإخماد مؤامرة شيوعية .

واتجه بويج مع الآخرين صوب ميدان **قطالونية** ، كـان مقصدهم سحق المتمردين في مركز المدينة ، والعودة فوراً الى الثكنات .

ووصلوا الى هناك عن طريق شارع **قطالونية** . وفي مـواجهتهم كان يقـوم فندق « كولون » يسيطر على الميدان ببرجه الذي يشبه ثمـرة أنانـاس وبمدافعـه الـرشاشـة ، وكان جنـود ثكنات بـدرالبيس المعزولـون يحتلون المباني الثـلاثـة الـرئيسية : الفنـدق في المؤخرة ، ومـركز التليفـون الـرئيسي عـلى اليمـين ، والألدورادو على اليسار ، لم يكن الجنود يقاتلون بيد أن المدافع الرشاشة كانت تسمح للضباط وللفاشيين المتنكـرين ولأولئك الـذين « أصبحوا جنـوداً » منذ خمسة عشر يوماً ـ أن يسيطروا على الميدان .

واندفع ثلاثون عاملاً عبر المربع المرتفع الذي يؤلف مركز الميدان محاولين الانتفاع ببعض الأشجار المحيطة به. وبدأت المدافع الرشاشة في اطلاق النـار ، فتساقطوا كحبات المسبحة . . وعبرت ظلال طيور الحمام التي كـانت تحلق في دوائر وعلى ارتفاع قريب ـ دون أن تبتعد ـ على الأجسـام المنبطحـة ، وعلى رجل أخذ يترنح أيضاً ، وقد رفع بندقيته فوق رأسه على امتداد ذراعه .

وحول « بويج » كانت هناك لافتات من جميـع أحزاب اليسـار ، وحشود

مؤلفة من الناس .

ولأول مرة ، كان الأحرار ورجال الاتحاد العام لعمال النقل والاتحاد القومي للعمل والفوضويون والجمهوريون ، والنقابيون ، والاشتراكيون ـ يركضون معاً صوب مدافع الأعداء ، ولأول مرة أدلى الفوضويون بأصواتهم من أجل تحرير المعتقلين في الآشتوريش ، وهذه الدماء التي امتزجت اليوم هي التي حققت وحدة برشلونة ، وحققت لبويج أمله في أن يرى أخيراً تلك الراية ذات اللونين الأحمر والأسود رفاقه بعد أن لم تكن حتى الآن سوى علم سري .

وهتف رجل ملتح حاملاً ديكاً تحت أبطه : « لقد عاد الجنود الذين كانوا في الحديقة الى ثكناتهم ؟ »

وصاح آخر : « لقد وصل جوديد لتوه من جزر البليار » .

وجوديد هذا كان من أفضل القواد الفاشيين .

ومرت سيارة تحمل هذه الحروف U. H. Pمكتوبة باللون الأبيض على غطائها . وقال بويج في نفسه : « هذا شعارنا » وقد خطرت له الاعلانات القائمة في الميدان الصغير .

وحاول بعض المهاجمين أن يتسللوا بمحاذاة الجدران ، وأن يستغلوا الافاريز والشرفات والتي كانت هدفاً لنيران وكرين على الأقل من أوكار المدافع الرشاشة ، وكان بويج يراقبهم ـ وهم يسقطون بعضهم وراء البعض الآخر ، وقد أحس بحلقه جافاً ملتهباً وكأنما دخن ثلاث علب من السجائر !

كانوا يتقدمون لأن من تقاليد الثوار أن يحملوا على العدو ، فإذا أوقفوا أمام الفندق على ذلك الرصيف الذي تزاحمت عليه مناضد المشرب المستديرة أطلقت عليهم النار في وهج الشمس . والبطولة المحاكية للبطولة لا تفضي الى شيء . وكان بويج يعجب بالرجال الأشداء المراس ، ولهذا كان معجباً بأولئك الرجال الذين يتساقطون ، غير أنه كان في هذه اللحظة مذعوراً ،

ذلك أن مقاتلة حفنة ضئيلة من الحرس المدني للاستيلاء على ذهب الدولة لم تكن شيئاً بالقياس الى الاستيلاء على فندق « كولون » . وكانت تجربته المتواضعة تكفيه لكي يدرك أن المهاجمين لا يجمعهم تنسيق واحد ، أو أهداف محددة .

وعلى اسفلت الشارع العريض الذي يحيط بالميدان كانت الرصاصات تتواثب كالحشرات . وما اكثر عدد النوافذ ! وأخذ بويج يحصي نوافذ الفندق : ما يربو على المائة ، وخيل اليه أن هناك مدفعين رشاشين وراء حرفي « الواو » في الاعلان الضخم القائم على برج فندق (كولون) .

- « بويج ؟ » .

- « ماذا ؟ » .

وكانت إجابته على هذا الرجل الأصلع ذي الشارب الذي وخطه الشيب تكاد تنطوي على شيء من العداء : إنهم سيطلبون منه أن يصدر أوامره ، وكان كل ما في نفسه من عمق يأبى عليه أصدار الأوامر .

- « هل نهاجمهم ؟ » .

- « انتظر » .

ثمة جماعات قليلة تحاول دائماً التقدم صوب الميدان ، وطلب بويج من رجاله أن ينتظروا ، وكانوا على ثقة منه : فانتظروا . . . ولكن ماذا كانوا ينتظرون ؟

وها هي ذي موجة أخرى قادمة مؤلفة من عدد من الموظفين ذوي الياقات البيض ، بل والقبعات ، يخرجون بخطوات راكضة من شارع « دي كورتيز » .

ولكن سرعان ما يتساقطون في شارع « دي جراسيا » بعد أن تحصدهم المدافع الرشاشة من برج كولون وأبراج « الألدورادو » .

وتكدست جثث أخرى فوق الجثث الراقدة ، وسالت دماء أخرى فوق الدماء المسفوحة .

وسمع « بويج » أول طلقة مدفع .

لو أن العمال كانوا يملكون هذه المدافع لاستطاعوا الاستيلاء على الفندق ، أما إذا نزل الجنود من الثكنات صوب الميدان يحميهم المدفع فسيكون مصير المقاومة الشعبية هو مصيرها سنة ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ . . .

وهرول بويج للاتصال بالتليفون : كان هناك مدفعان ، ولكنهما كانا ملكاً للفاشيين .

وجمع رجاله ، ودخل أول حظيرة للسيارات ، ثم كدسهم في عربات النقل ، وشرع في الرحيل تحت أشجار الصيف التي تطير عنها العصافير .

وكان المدفعان ـ وهما من عيار ٧٥ ـ منصوبين على جانبي شارع واسع يكتسحانه اكتساحا. ووقف أمامهما جنود يرتدون كلهم سراويل مدنية هذه المرة ، وقد حملوا بنادقهم ومدفعاً رشاشاً ، وخلفهما وقف جنود أكثر عدداً ـ دون مدفع رشاش على ما يبدو . . وكان الشارع ينتهي على بعد مائتي متر يعترضه شارع آخر يتعامد عليه . ووسط حرف T هذا مدخل باب يغطيه إفريز ، وتحت هذا الأفريز مدفع من عيار ٣٧ يطلق نيرانه .

وأرسل بويج جماعة صغيرة لمعرفة مدى الحماية التي يتمتع بها رجال المدفعية في فرعي T ، ووضع رجاله في شارع متعامد على الطريق الرئيسي .

ولم يلبث أن وصلت خلفه سيارتان من طراز كاديلاك تسيران في خط متعرج كما تسير السيارات في أفلام العصابات بين ضجة مختلفة من أصوات النفير وآلات التنبيه (الكلاكسون) . . . وكان يقود السيارة الأولى الرجل الأصلع ذو الشارب القصير الذي اقتحم النيران المتقاطعة من البنادق والمدفع الرشاش وتحت القنابل التي كانت تعبر فوق رأسه من بعيد ، واندفع في المكان الممتد بين المدفعين ، فقذف الجنود كأنه كاسحة جليد ، ثم اصطدم

بالجدار القائم على جانب الأفريز الذي نصب عنده المدفع عيار ٣٧ ، وكان هذا مقصده بلا شك . ولم يتخلف عنه غير حطام أسود بين بقع من الدماء . . وكأنه ذبابة سحقت على جدار . .

وواصل المدفع عيار ٣٧ إطلاق نيرانه على السيارة الأخرى التي غاصت بين المدفعين . وكان الكلاكسون يزمجر ، واندفعت تحت الأفريز بسرعة ١٢٠ كيلومتراً في الساعة .

وانقطع المدفع عيار ٣٧ عن اطلاق نيرانه ، ومن الشوارع كلها كان العمال يحملقون في فجوة الأفريز السوداء بعد أن صمتت آلة التنبيه ، وانتظروا أن يظهر راكبو السيارة . . بيد أن هؤلاء لم يظهروا .

وانطلق زئير الصفارات مرة أخرى ، وكأنما تضخم صوت آلات التنبيه الذي ما برح معلقاً في الجو حتى ملأ المدينة بأسرها ، وكأنه يحتفل بالاستشهادات البطولية الأولى للثورة ، وأخذت حلقة كبيرة من الحمام الذي ألف هذه الضجة اليومية ـ تحوم فوق الشارع . وأمتلأ بويج حسداً لرفاقه الذين استشهدوا ، ومع ذلك فقد كان متلهفاً على رؤية الأيام القادمة ، وكانت برشلونة حبلى بأحلام حياته جميعاً .

قال النجاشي : « لا داعي للوقوف طويلاً عند هذا العمل . . . لقد كان عملاً محترماً . . ولكنه لم يكن جاداً ! » .

وعاد أولئك الذين أرسلهم بويج للكشف وقالوا : « هناك على اليمين خلف المدافع ليس أكثر من عشرة أشخاص » .

ولم يكن من شك أن الفاشيين أقل من أن يحتفظوا بكل الشوارع المحيطة بهم . وبرشلونة مدينة أشبه برقعة الشطرنج .

قال بويج للنجاشي : « تولَّ القيادة ، أما أنا فسأحاول العبور في اتجاه عكسي بأن أذهب الى الخلف : ولتقترب مع الآخرين من المدافع على قدر الامكان ، ولتنقضوا عليهم بعد أن نكون قد مررنا » .

وانصرف مع خمسة من الرفاق .

وتقدم « النجاشي » ومن معه من الرجال .

ولم تكد تنقضي عشر دقائق حتى استدار الجنود على أعقابهم مذعورين ، وحاول رجال المدفعية تغيير مدافعهم الى الجهة المضادة ، أما سيارة بويج التي اقتحمت مركز الحراسة الصغير فقد تدحرجت على المدافعين ، على حين أطلت فوهة البندقية السريعة الطلقات من بين شرفتي حاجب الريح ، وأخذت مؤخرة السيارة تهتز من اليمين الى اليسار كأنها بندول مختل ، وشاهد بويج رجال المدفعية الذين لم يعد درع المدفع يحميهم يتضخمون كما تتضخم اللقطات القريبة في السينما ، وأطلق فاشي نيرانه ، ثم تضخم . وهناك في الزجاج ذي الطبقات الثلاث كانت ثقوب ثلاثة مستديرة ، وانحنى بويج الى الأمام ، وقد تملكه الحنق على ساقيه القصيرتين ، وداس بكل قوته على جهاز السرعة وكأنه يريد أن يسحق أرضية السيارة لكي يصل الى رفاقه على الجانب الآخر من المدافع . وأضيف ثقبان آخران في الزجاج ذي الطبقات الثلاث ، وأحس بتصلب في قدمه اليسرى ، وتشنجت يداه على عجلة القيادة ، وتناثر بارود المدفع على حاجب الريح ، وضجة المدفع الرشاش في أذنيه ، والمنازل والأشجار تتراقص أمام ناظريه ـ وسرب الحمام يبدل لونه في نفس الوقت الذي يبدل فيه اتجاهه ـ . . وصوت النجاشي الذي يصيح . . .

ولما أفاق من اغماءته وجد أن الثورة قائمة على قدم وساق ، وانه قد تم الاستيلاء على المدافع . . ولم يكن قد تلقى سوى صدمة قوية على عنقه حين تأرجحت السيارة . ولقي اثنان من رفاقه مصرعهما ، أما النجاشي فقد كان يضمد جراحه .

ـ « بهذه الهيئة تكون كمن يرتدي عمامة . . أنت الآن عربي . . . وهذا شيء يناسبك ! » .

وفي الطرف الآخر من الشارع الرئيسي ، كان يمر رجال من الحرس المدني ، ومن حرس الهجوم يقتادون الضباط والرجال الذين يرتدون سراويل

مدنية الى مركز الأمن ، أما الجنود الذين جردوا من السلاح فكانوا يسوقونهم الى إحدى الثكنات ، وهؤلاء كانوا يسيرون وهم يتحدثون مع العمال الذين أخذوا أسلحتهم ، وتولوا حراستهم ، أما الآخرون فقد يمموا جميعاً شطر ميدان قطالونيا .

وهناك ، لم يكن الموقف قد تغير ، كل ما في الأمر أن الجثث كانت أكثر عدداً . . ووصل بويج هذه المرة عن طريق شارع « جارسيا » الذي يحتل فندق « كولون » إحدى نواصيه ، وكان ثمة مكبر للصوت يصيح :

ـ « ولقد انضمت فرقة طيران « برات » الى المدافعين عن الحريات الشعبية » .

هذا حسن ، ولكن أين هم ؟

ومرة أخرى خرج من جميع الشوارع المقابلة للفندق ، فوضويون واشتراكيون . . وبورجوازيون بياقات منشأة ، وبعض جماعات الفلاحين . وكان الوقت ضحى ، لهذا بدأ الفلاحون في الوصول . . وأوقف بويج رجاله . . ذلك أن موجة الهجوم التي اكتسحتها أركان المدافع الرشاشة الثلاثة قد تراجعت بعد ان تركت وراءها خطاً متعرجاً من القتلى .

وكسرب آخر من أسراب الحمام تساقطت على مهل أوراق هيئة فاشية ألقيت من النوافذ ، واستقر بعضها على الأشجار .

ولأول مرة أحس بويج أنه قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ، وأنه لا يقدم على محاولة يائسة كما كان الحال سنة ١٩٣٤ ، بل كما كانت الحال دائماً ، وعلى الرغم مما يعرفه عن باكونين (وقد كان بلا شك الشخص الوحيد في جماعته كلها الذي قرأ باكونين السطور) فقد كانت الثورة في نظره دائماً لا تعدو أن تكون ثورة فلاحين فاشلة . ولما كان يقف في مواجهة عالم يخلو من الأمل فإنه لم ينتظر من الفوضوية سوى تمردات نموذجية ، وعلى هذا كان يرى أن الجرأة والشخصية تحلان كل مشكلة سياسية .

وتـذكر لينـين حين جعـل يرقص عـلى الجليد يـوم أن زاد عمر المجـالس السوفياتية بأربع وعشرين ساعة من عمر « كومـيون باريس » ، أما اليوم فلم يعد الأمر يتعلق بضـرب الأمثلة ، ولكن بأن يكـون المرء منتصـراً ، واذا كان رجاله رحلوا كالآخرين فإنهم سيسقطون مثلهم ، ولن يتم لهم الاستيلاء على الفندق .

ومن الشارعين اللذين يتفرعان من الميدان على شكـل حرف ٧ متجهـين الى « كولون » ، ومن شارع « دي كورتيز » الذي يتعرض طريقهـما ـ وصلت معاً في وقت واحد تماماً ـ ثـلاث كتائب من الحـرس المدني . ونـظر بويـج الى الخوذات ذات الطرفـين المدببـين التي يضعها اعـداؤه القدمـاء وهي تلمع في الشمس . وكــان واضحـاً من الهتــافـات التي احــاطت بهم أنهم مـوالسون للحكومة ، ولم يلبث الصمت أن سـاد الميدان بحيث كـان المرء يسمـع رفيف أجنحة الحمام .

وأُصيب الفـاشيون هم أيضـاً بالتـردد ، وقد اعتـراهم الذهـول لـرؤ يـة البوليس منضماً الى جانب الحكومة ، فما كانوا يجهلون أن رجال الحرس المدني هدافون من أبرع طراز .

وصعد الكولونيل اكسمينيز وهو يـطلع درجات الميـدان ، وتقدم مبـاشرة صـوب الفندق ، لم يكن يحمـل سلاحـاً ـ وقطع ثلث طـول الميدان دون أن يـطلق النيران أحـد . وفجـأة ، انـطلقت المـدافـع الـرشـاشـة من الجـوانب الثلاثة ، وجرى بويج الى الطابق الأول من المنـزل الذي ألفى نفسـه أمامـه ـ وكان رجال الحـرس المدني هم أبغض أعـداء الفوضـويين الى نفـوسهم . أما الكولونيل اكسيمنيز فكان كاثوليكياً متحمسـاً ، وها هم أولاء يحـاربون اليـوم معاً في أخوة عجيبة .

واستدار اكسيمينيز على عقبيه ، ورفع عصا قيادة الحرس المدني ، فاندفع من الشـوارع الثلاثـة الرجـال الـذين يضعـون عـلى رؤ وسهم خـوذات ذات حافتين مدببتين . وسار « أكسيمينز » الذي كان يطلع دائماً (تـذكر بـويج أن

رجال الكولونيل كانوا يسمونه بالبطة العجوز) سار وحده من جديد متجهاً نحو الفندق بين سيل من الرصاص المنهمر وسط الميدان الواسع ، هذا على حين تقدم حرس السيارة على طول المركز الرئيسي للتليفونات الذي لم يكن يستطيع اطلاق النار رأساً عليهم ، أما حرس اليمين فساروا بمحاذاة « الألدورادو » . وكان ينبغي أن يطلق رجال المدافع الرشاشة في « الألدورادو » على الرجال المرابطين على اليسار ، غير أن كل جماعة فاشية كانت تحاول الدفاع عن نفسها في مواجهة رجال الحرس المدني بدلاً من الدفاع عن حلفائها .

وكانت المدافع الرشاشة المنصوبة فوق فندق « كولون » تسدد نيرانها ذات اليمين وذات الشمال ، في كثير من العناء ، ولم يكن رجال الحرس يتقدمون في جبهة واحدة ، وإنما يتقدمون في طابور ضئيل مستخدمين في حذر حماية الأشجار لهم ، يتبعهم الشيوعيون الذين خرجوا الآن من جميع الشوارع . وفي الوقت نفسه مر أمام بويج رجال الحرس القادمون من شارع « دي كورتيز » بخطوة هجومية وفي ضجة أحدثتها أحذيتهم الثقيلة ، بيد أن أحداً لم يطلق عليهم النيران ، وفي وسط الميدان كان الكولونيل يطلع أمامه تماماً .

وبعد عشر دقائق ، تم الاستيلاء على فندق كولون .

* * *

احتل رجال الحرس المدني ميدان قطالونيا ، وامتلأت برشلونة تلك الليلة بالأغاني والصيحات وطلقات البنادق .

وكان المدنيون المسلحون ، والبورجوازيون والعمال والجنود وحرس الهجوم يمرون في النور المنبعث من مشرب الجعة ، وعلى الموائد استقر رجال الحرس جميعاً حيث أخذوا يحتسون الجعة .

وكان الكولونيل « اكسيمنيز » يشرب هو أيضاً في صالون صغير من الطابق الأول الذي تحول الى مركز للقيادة ، وكان يشرف على الحي كله ،

ومنذ ساعات وفد عليه كثيراً من قواد الجماعات ليتلقوا منه التعليمات .

ودخل بويج . كان يرتدي الآن صديرية من الجلد ويحمل مسدساً ضخماً . . وبدا هذا الزي رومانتيكياً تحت عمامته المتسخة الملطخة بالدماء . وعلى هذا النحو ، تبدى أصغر وأضخم في آن واحد .

وتساءل : « أين يمكن أن نكون أكثر نفعاً ؟ فلديَّ ألف من الرجال . »

ـ « لا في أي مكان ، فالأمور تسير في هذه اللحظة على ما يرام ، وسيحاولون الخروج من الثكنات ، من ثكنات « أتاراثاناس » على أقل تقدير ، وخير ماتفعله هو أن تنتظر نصف ساعة ، وليس من العبث أن يكون الاحتياطي من رجالك أكبر من عدد رجالي في هذه اللحظة بالذات . . . إذ يبدو أنهم منتصرون في اشبيلية وبرجوس وشقوبية وبالما دون أن نذكر مراكش . . . ولكنهم هنا سيهزمون » .

ـ « وماذا تصنع الآن بالجنود الأسرى ؟ » .

كان الكولونيل الفوضوي منطلقاً على سجيته وكأنه قد قاتل مع بويج منذ شهر ، وكان يريد بموقفه أن يشعر بويج ـ عن طريق خفي ـ بأنه يطلب منه النصيحة ، ولا ينتظر منه أوامر .وكان اكسيمنيز يعرف ملامح بويج إذ فحصها مرات عدة في ملفات تحقيق الشخصية ، ولكنه كان مأخوذاً بقامته القصيرة الربعة التي تشبه قامة القرصان ، ومع أن بويج كان قائداً من الدرجة الثانية فإنه كان يجذب اهتمامه أكثر من الآخرين بسبب المعونة التي قدمها لأطفال سرقسطة ، وقال الكولونيل :

ـ «تعليمات الحكومة تقضي بتجريد الجنود من أسلحتهم واطلاق سراحهم ، أما الضباط فسيقدمون للمحاكمة أمام مجلس عسكري » .

ـ « إنك أنت الذي كنت في الكاديلاك ، وهذا ما سمح بالاستيلاء على المدافع ، أليس كذلك ؟ » .

وتـذكر بـويج أنـه شاهـد في أقصى الشارع خـوذات الحرس المـدني التي كانت تمر مع كاسكتات حرس الهجوم المفلطحة .

- بلى .

- «كان عملاً طيباً . فلو أنهم وصلوا الى هنا بالمدافع ، فلربمـا تغير كـل شيء» .

- « لقدواتتك الفرصة في أثناء عبورك الميدان . . . »

وكان الكولونيل الذي يعشق اسبانيا عشقاً مبرحاً - معترفاً بجميل الـرجل الفوضوي ، لا من أجل الثناء الـذي وجهـه اليـه ، ولكن لأنه تكلم بـذلك الأسلوب الذي يقدر عليه كثير من الأسبانيين ، ولأنـه أجابـه كأنـه كابتن من ضباط شارل الخامس ؛ فقد كان من الواضح أنه سمع كلمة « شجاعة » بدلاً كلمة « فرصة » .

قال بويج : « كنت أخشى ألا أصل الى المدفع . . وكنت أُريد أن أصل اليه حياً أو ميتاً . . وأنت . . . ماذا جال بخاطرك ؟ »

وابتسم اكسيمنيز . . كان عاري الرأس ، وشعـره الأبيض القصير يشبـه زغب البـطة ، والبـطة هـو الأسم الـذي أطلقـه رجـالـه عليـه بسبب عينيـه الضيقتين السوداوين جداً وأنفه المفلطح .

- « في مثل هذه الحالة ، تقول الساقـان : « هيا بنـا . . ماذا أنت فـاعل أيها الأحمق ! » وعلى الأخص تلك السـاق التي تظلع » . . . وأغمض إحـدى عينيه ، ورفع سبابته :

« ولكن القلب يقول : « أقدم . . » ، ولم أر قط الـرصاص يهمي كـما يهمي الغيث ، ومن الممكن في ذلك المكان المرتفع أن يخلط المـرء بين الـرجل وظله ، وهذا يقلل من فعالية التصويب » .

قال بويج في حسد : « كان الهجوم حسناً » .

ـ «أجل . . . إن رجالك يعرفون كيف يقاتلون . . ولكنهم لا يعرفون كيف يحاربون » .

ومرت تحتهم على الرصيف محفات (نقالات) خالية ، ولكنها ملطخة بالدماء .

قال بويج : « إنهم يعرفون القتال » .

وكان بعض باعة الزهور قد ألقوا بأزهار القرنفل على المحفات ، وكانت الزهرات البيض ملقاة على الأحزمة الى جانب بقع الدماء .

وقال بويج : « حينما كنت في السجن لم أكن أتصور وجود كل هذا الاخاء » .

وعند كلمة « سجن » أدرك اكسيمنيز أنه ـ وهو الكولونيل في حرس برشلونة المدني ـ على وشك أن يعاقر الخمر مع زعيم من زعماء الفوضويين ، فابتسم مرة أخرى . وكان رؤساء هذه الجماعات المتطرفة يتحلون جميعاً بالشجاعة ، والكثيرون منهم قد قتلوا أو أصيبوا بجراح ، وكانت الشجاعة بالنسبة لأكسيمنيز كما هي بالنسبة لبويج شيئاً كحب الوطن ، ومر المقاتلون الفوضويون في ضوء الفندق بوجناتهم السود ، إذ لم يكن فيهم حليق واحد ؛ لأن القتال بدأ في وقت مبكر . ومرت محفة أخرى تدلت زنبقة من إحدى قضبانها الخشبية .

وارتفع وهج أحمر فيما وراء الميدان ، ووهج آخر بعيد على الهضبة .

ثم ارتفعت هنا وهناك كرات مرتعشة حمراء صافية ، وكما طلبت برشلونة النجدة في ذلك الفجر بما أطلقته من زئير صفاراتها فقد أحرقت هذه الليلة كنائسها جميعاً . واقتحمت رائحة النيران ذلك الصالون الرحب المفتوح على ليل الصيف ، وألقى أكسيمنيز ببصره الى سحب الدخان الهائلة وقد أضيئت من أسفل ، وخيمت فوق ميدان قطالونيا ، فنهض ورسم علامة الصليب . . لم يقم بهذه الحركة علانية كأنما ليشهد الناس على إيمانه ، بل قام بها وكأنه وحده .

وسأله بويج : « هل تعرف الثيوصوفية ؟ »

وأمام باب الفندق ، كان عدد من الصحافيين يصخبون ويتحدثون عن حياد رجال الدين الأسبان ، أو يتحدثون عن رهبان سرقسطة الذين صرعوا جنود نابليون بضربات الصلبان . وارتفعت أصواتهم واضحة في الليل على الرغم من طلقات المدافع والصيحات البعيدة .

وغمغم أكسيمنيز دون أن يحول نظراته عن الدخان : « آه ! إن الله لم يوجد لكي يقحم في ألاعيب الناس كما تدس علبة القربان في جيب سارق ! »

ـ « ممن استمع عمال برشلونة الى ما يقال عن الله ؟ لقد استمعوا الى ذلك من أولئك الذين يدعون باسمه الى فضائل اضطهاد الأشتوريش . . . أليس كذلك ؟ » .

ـ « كلا ، بل عرفوه عن طريق الأشياء الوحيدة التي يسمعها الانسان حقاً في حياته عن طريق الطفولة والموت والشجاعة . . لا عن طريق أقوال الناس ! فلنفترض أن الكنيسة الاسبانية لم تعد بعد جديرة بمهمتها ، ولكن كيف يمنعك القتلة الذين ينتمون الى أسرتك ـ ولا شك في وجودهم ـ من أن تسلك سَبيلك الخاص ؟ من الخطأ الحكم على الناس بمعيار دناءتهم . . » .

ـ « حين نرغم جمهوراً من الناس على أن يحيا حياة منحطة لا يدفعهم هذا الى أي سمو في التفكير ، ومن الذي كان « مسؤولاً عن هذه النفوس » كما تقول ، منذ أربعة قرون ؟ لو أنهم لم يتعلموا البغض على هذا النحو الجيد فلربما تعلموا الحب . . أليس كذلك ؟» .

ونظر « أكسيمنيز » إلى ألسنة اللهب البعيدة :

ـ « هل تأملت صور الأشخاص الذين دافعوا عن أنبل القضايا ؟ كان ينبغي أن تكون مرحة . . أو على الأقل رزينة . . بيد أن أول تعبير يرتسم عليها . . هو دائماً الحزن . . . » .

ـ « القساوسة شيء . . . والقلب شيء آخر . . . ولكنني لا أستطيع أن أشرح نفسي لك . . . ومن عـادتي أن أتكلم ، ولست جاهـلاً ، فأنـا أعمل جامعاً للحروف . . . ولكن ثمة شيئاً آخر : لقـد تحدثت في أحيـان كثيرة الى كتّاب في المطبعـة ـوكان الأمـر أشبه بمـا دار معك : فـأنا أتحـدث اليك عن رجال الدين ، وأنت تحدثني عن القديسة تريزا ، وأنا أتحدث اليك عن كتاب تعليم الـديـانـة المسيحية . . . وأنت تحـدثني عن . . مـاذا ؟ عن القـديس تـومـا الأكويني » .

ـ « كتاب تعليم الديانة المسيحية أهم عندي من القديس توما » .

ـ « إن كتـابك في تعليم الـديانـة المسيحيـة يختلف عن كتـابي ، وحيـاتي وحياتك مختلفتان كل الاختلاف . وقد قرأت ذلك الكتاب للمرة الثـانية وأنـا في الخـامسـة والعشـرين ، عثـرت عليـه هنـا في جـدول مـاء (وهــذه قصـة أخـلاقية) . ولا معنى لتعليم النـاس أن يعطوا خـدهم الآخر أنـاساً لم يتلقـوا سوى الصفعات منذ ألفين من الأعوام ! » .

وأشاع بويج القلق في نفس اكسيمنيز ، إذ كـان الذكـاء والغباء ممتـزجين فيه امتزاجاً يختلف عما ألفه الكولونيل في غيره من الناس .

كان آخر الزبائن الذين أطلقوا من المخـازن والمحال والكهـوف ودورات المياه حيث سجنهم الفاشيون ـ يخرجون وقد انعكست ظـلال النار البـرتقاليـة على وجوههم الذاهلة ، وتكاثفت سحب الدخان تكاثفاً شـديداً ، وأصبحت رائحة النار من القوة بحيث بدا وكأن الفندق نفسه هو الذي احترق .

ـ « أما عن رجال الدين . . . فاسمع ، أولاً : أنا لا أحب الناس الذين يتحدثون ولا يفعلون شيئـاً . . . بـل أنـا من الجنس الآخـر . بيـد أنني من جنسهم أيضاً ، ولهذا فأنا أمقتهم ، ونحن لا نعلم الفقراء ، ونعلم العمال أن يرضوا بـاضطهـاد الأشتوريش وهؤلاء القسـاوسة يصنعـون ذلـك بـاسم . . بـاسم الحب ! وكم يبعث ذلك على الأشمئزاز ! هناك من الرفاق من يقول : يا لنـا

من حمقى ، فالأفضل أن نحرق البنوك ! أما أنا فأقول : كلا . فان يفعل بورجوازي ما يفعله . . هذا شيء منتظر منه . أما القساوسة فكلا . وتلك الكنائس التي وافقت على اعتقال ثلاثين ألف شخص ، وعلى التعذيب ، وبقية هذا كله . . . فلتحترق ، هذا حسن ، أما أعمال الفن فلا بد من المحافظة عليها من أجل الشعب ، والكاتدرائية لم تحترق » .

ـ « والمسيح ؟» .

ـ « المسيح في نظري فوضوي ظفر بالنجاح . . . وهو الوحيد في هذا المضمار ، وبمناسبة الحديث عن القساوسة ، أقول لك : انك لن تفهم جيداً لأنك لم تكن فقيراً . . . وأنا أبغض الرجل الذي يريد أن يصفح عني لأني فعلت خير ما يمكن أن أفعله » .

ونظر اليه متثاقلاً ، وكأنه عدو له هذه المرة !

ـ « أنا لا أريد أن يصفح عني أحد» .

وصاح مكبر الصوت في ذلك الميدان الذي ألقى الليل عليه غلالته :

« قوات مدريد لم تستقر على حال بعد .

« النظام يسود اسبانيا .

« الحكومة مسيطرة على الموقف .

« القي القبض على الجنرال فرانكو في اشبيلية .

« انتصر شعب برشلونة على الفاشيين وعلى لجنود المتمردين انتصاراً كاملاً » .

ودخل النجاشي ملوحاً بذراعه وصاح مخاطباً بويج :

ـ « لقد خرج الجنود من المتنزه مرة أخرى ! وأقاموا متراساً » .

وقال بويج لاسكيمنيز : « إلى اللقاء » .

وأجابه الكولونيل : « إلى اللقاء » .

وفي سيارة من سيارات الحكومة رحل بويج والنجاشي بأقصى سرعة وسط ليل متوهج بالحمرة زاخر بالأناشيد . وفي حي « كاراكول » ، ومن نوافذ المواخير كان رجال الميليشيا يقذفون بالحشايا على عربات النقل التي وصلت فوراً صوب الثكنات .

وكان هناك في تلك المدينة الليلية حشايا واحجار للرصف ، وقطع الأثاث مكدسة على هيئة متاريس ، وكان أحد هذه المتاريس غريب الشكل صنع من أوراق الأعترافات ، وآخر سقطت أمامه بعض الجياد ، فبدا في نور الفنار السريع أشبه بكوم من رؤوس الخيل الهالكة .

لم يفهم بويج الغرض من المتاريس التي أقامها الفاشيون الذين يقاتلون الآن وحدهم يحاصرهم عداء الجنود ، وكانوا يطلقون النيران الآن من وراء حطام مؤلف من سيقان المقاعد ، وقد اختلط عليهم الأمر في الظلمة الحالكة بعد أن تحطمت مصابيح الشارع الكهربائية برصاص البنادق ، وما أن تعرف الثوار على بويج بعمامته حتى ردد الشارع هتافات مرحة . . ففي كل معركة يطول أمدها . . تبدأ الرغبة في تمجيد الزعماء ، وتوجه بويج - بصحبة النجاشي دائماً - إلى أول حظيرة للسيارات واستقل سيارة نقل .

كان الشارع طويلاً ، تحفه أشجار زرقاء في عتمة الليل ، وكان الفاشيون يطلقون النار دون أن يراهم أحد ، إذ كانوا يملكون مدفعاً رشاشاً ، والفاشيون يملكون دائماً المدافع الرشاشة .

وقاد بويج سيارة النقل بأقصى سرعة ، وقد ضغط على دواسة السرعة كما فعل بسيارة الصباح ، وتلاشت ضجة تغيير السرعة ، فاستمع النجاشي الى طلقة وحيدة بين طلقتين متباعدتين ، ولمح بويج ينهض فجأة وقد ارتكز بقبضته على عجلة القيادة كما يرتكز على منضدة ، مطلقاً صيحة رجل حطمت الرصاصة أسنانه .

فقد غاص دولاب بمرآة موضوع بين المتاريس كأنه قذيفة في مصباحي العربة اللذين عكستهما مرآته ، بيد أن كومة الأثاث لم تلبث أن انفتحت على مصراعيها كالباب المخلوع تحت الطلقات المتشنجة التي أطلقها النجاشي من بندقيته الرشاشة .

وتجاوز رجال الميليشيا الذين خرجوا من تلك الفجوة سيارة النقل التي عطلتها قطع الأثاث . أما الفاشيون فقد لاذوا بالفرار الى أقرب ثكنة ، ونظر النجاشي الى بويج دون أن يكف عن اطلاق النار ، على حين تداعى بويج على عجلة القيادة تحجبه عمامته ـ صريعاً .

الفصل الثالث

٢٠ من يوليو :

بين الأجسام العارية من الخصر حتى الرأس ، أو تلك التي ترتدي قمصاناً ذات أكمام قصيرة ، وبين النسوة اللواتي يطردن ثم يعدن من جديد ـ حاول رجال الحرس المدني بخوذاتهم ذات الطرفين المسحوبين ورجال حرس الهجوم ـ حاولوا عبثاً تنظيم الجمهور الذي تناثر أفراده في المقدمة وتكاثروا في الخلف ، وصدرت عنه ضوضاء عميقة متصلة ، واقتاد ضابط الى حانة جندياً استطاع الهرب من ثكنات الجبل ، ورآهما جيم الفير وهما يتجهان الى الحانة ، فسبقهما الى الدخول . وكان المدفع ينطلق بانتظام كقلب هذا الحشد ، فيطغى صوته الضخم على طلقات البنادق النحيلة التي كانت تصدر عن النوافذ والأبواب جميعاً ، وعلى الصيحات وعلى رائحة القار والصخور الساخنة المتصاعدة من مدريد .

وتكأكأت رؤوس الزبائن حول الجندي كالذباب فقال لاهثاً : « لقد قال الكولونيل: . . . يجب إنقاذ . . . الجمهورية . » .

ـ « الجمهورية ؟» .

ـ « أجل ؟ حين رأى أنها وقعت في أيدي البلاشفة واليهود والفوضويين » .

ـ « وبم أجابه الجنود ؟» .

- « قالوا . . . مرحى !» .

- « مرحى ؟» .

- « أجل . . لماذا ؟ أنهم لا يعبأون بشيء ! وينبغي أن أقول : إن الجنود الجدد - على الأخص - هم الذين كانوا يجيبون . . . ولقد كانت الثكنات منذ أيام . . . مملوءة بالجدد » .

وسأل صوت : « وماذا عن جنود اليسار ؟ »

كان الكونياك والمانثانيلا يرتعشان في الأكواب الثابتة على وقع القتال . . وتجرع الجندي كأسه ، واسترد أنفاسه رويداً رويداً .

- « ولم يبق إلا أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الموضوع ، أما الآخرون جميعاً فقد نقلوا منذ أسبوعين . وربما كان عدد اليساريين عندنا حوالي الخمسين . ولكنهم لم يكونوا هناك : ويقال أنهم وضعوا جميعاً كحزمة واحدة في أحد الأركان ! » .

وكان المتمردون مقتنعين بأن الحكومة لن تقوم بتسليح الشعب ؛ ولهذا كانوا ينتظرون الفاشيين القادمين من مدريد ، بيد أن هؤلاء لم يحركوا ساكناً بعد .

وساد الصمت بغتة ؛ فقد هُيىء مكبر الصوت للعمل ، وكانت الصحف لا تصدر إلا مرة واحدة في اليوم ، وهكذا كان مصير اسبانيا يتم التعبير عنه باللاسلكي .

« ثكنات برشلونة مستمرة في الاستسلام » .

« استولى النقابيون بقيادة أسكاسو ودورروتي على ثكنة أثارازاناس ، ولقي أسكاسو مصرعه في أثناء الهجوم على الثكنة» .

« استسلمت قلعة مونتويتش للشعب دون قتال » .

وهتفت الحانة كلها من فرط الحماس ، فلم يكن هناك اسم أكثر دلالة من مونتويتش في ارتباطه بالذكريات الأليمة - حتى في أقاليم الأشتوريش .

« . . . وبعد أن رفض الجنود تنفيذ الأوامر الصادرة من ضباطهم ، وبعد أن استمعوا الى مكبرات الحكومة الشرعية لأسبانيا - اعلنوا أنهم لا يدينون بالطاعة للضباط المتمردين » .

وسأل الضابط : « من الذي يحارب في الثكنة في هذه اللحظة ؟ »

- « الضباط ، والجنود الجدد ، أما رفاقنا فيحملون عليها بكل ما في وسعهم ، ولا بد أن الكهف ممتلىء بهم ، وحين شرع مدفعكم في اطلاق نيرانه كف الجميع عن السير ، وعرفنا معنى هذه الطلقة : فنحن نعلم جيداً أن الفوضويين والبلاشفة لا يملكون أي مدافع . وقلت للرفاق : « إن تلك الخطبة التي ألقاها الكولونيل . . . ما هي إلا طلقة أخرى من طلقات الفاشيين . وحين أراد أن نطلق النار على الشعب . . . قفزت اليكم » .

ولم يتوصل الجندي الى التحكم في رجفة كتفيه ، وكان المدفع يطلق نيرانه باستمرار . . ودوي القنابل يتردد صداه .

وكان جيم قد شاهد المدفع الذي اشرف على استخدامه ضابط من حرس الهجوم برتبة كابتن ، ولم يكن هذا الضابط من رجال المدفعية ؛ ولهذا فقد كان يطلق المدفع دون أن يتمكن من تصويبه . وكان الى جانبه المثال لوبيز ، وهو قائد الميليشيا الاشتراكية التي ينتمي اليها جيم . ولم يكن الموقع يسمح بوضع المدفع في مواجهة الباب ، ولهذا كان الكابتن يطلق النار على الجدران كيفما اتفق ، وانفجرت القنبلة الأولى - وكانت عالية جداً - في الضواحي ، وأما الثانية فانفجرت عند جدار من الطوب الأحمر ، فأثارت غباراً عالياً أصفر اللون ، وكان المدفع الذي لم يكن مثبتاً في مكانه - يتراجع تراجعاً عنيفاً كلما أطلق إحدى قنابله فيعيده الى مكانه رجال الميليشيا الذين يقودهم لوبيز وقد شمروا عن سواعدهم وكأنهم رسوم في لوحات الثورة

الفرنسية ، ومع ذلك فقد اخترقت قنبلة إحدى النوافذ ، وانفجرت داخل الثكنات .

قال الجندي : « انتبهوا . . حين تدخلون . . ذلك أن الرفاق لم يطلقوا عليكم نيرانهم . . وقد فعلوا ذلك عمداً ! » .

ـ « وكيف يمكن المرء أن يتعرف على الجدد ؟» .

ـ « على الفور ؟ لا أعرف . . . ولكن فيما بعد أستطيع أن أقول لكم : انهم بلا عائلات . . . دائماً» .

وكان يريد أن يقول : إن الفاشيين المنضمين إلى الجيش لمحاربة الثورة كانوا يخفون زوجاتهم الأنيقات جداً ، وقد كانت الشوارع القريبة مملوءة بزوجات الجنود اللواتي ينتظرن ، كن الجماعة الوحيدة الصامتة بين هذا الحشد .

وعلى حين غرة ارتفع ضجيج طلقات البنادق فوق جلبة سيارات النقل : هذا عدد جديد قد وصل من رجال حرس الهجوم .

وكانت هناك فعلاً سيارة مصفحة من سياراتهم. والمدفع يرج النبيذ في الأكواب دائماً ، وهؤلاء أشخاص يتأبطون بنادقهم ، ويحملون الأنباء ، وكأنهم ممثلون بثياب التمثيل جاؤوا ليعاقروا الخمر في مشرب الأستوديو في فترة الراحة بين منظرين . ولكن ها هنا آثاراً تركتها النعال الملطخة بالدماء على أرضية المشرب البيضاء المخططة كرقعة الشطرنج .

ـ « هذا كبش آخر ! » .

والواقع أن لوحاً ضخماً من الخشب كان يتقدم كأنه وحش هندسي ، يحمله خمسون رجلاً في صفين متوازيين ، وقد انحنت قاماتهم الى الأمام كأنهم نواتية يشدون مركباً ، وكان بعضهم يرتدي ياقة ، والبعض الآخر بدونها . ولكنهم كانوا جميعاً يضعون بنادقهم فوق ظهورهم .

واجتاز هذا الموكب انقاض الطابق الأرضي المكونة من الجبس وقطع الحديد ، ثم قرع الباب كأنما بصناجة هائلة ، وانسحب ، ومع أن الثكنات كانت مملوءة بالصيحات والانفجارات والدخان فقد تردد الصوت خلف بابها كما يتردد الرنين في دير للرهبان . وسقط ثلاثة ممن يحملون اللوح برصاص الفاشيين ، فحل جيم محل أحدهم . وفي اللحظة التي شرع فيها الكبش في التحرك من جديد أمسك نقابي ضخم الجثة ذو حاجبين كثيفين رأسه بين راحتيه وكأنما يريد أن يسد أذنيه ، وهبط على المحفة الساثرة وقد تدلى ذراعه من ناحية ، وساقاه من الناحية الأخرى ، ولم يفطن اليه معظم الحاملين ؛ ومع ذلك استمر الكبش في حركته بطيئاً متثاقلاً ، وقد انثنى الرجال نصفين على الخشب . أما جيم الذي كان عمره ستة وعشرين عاماً فقد كانت الجبهة الشعبية تعني عنده الاخاء في الحياة والموت على السواء ، وكان أمله الذي وضعه في المنظمات العمالية يزداد بمقدار يأسه من أولئك الذين حكموا بلاده منذ عدة قرون ، وكان يعرف على الأخص أولئك « المحاربين » المجهولين المستعدين لكل عمل ، والذين يجسدون روح التفاني في اسبانيا ؛ ولهذا كان يحارب من كل قلبه تحت تلك الشمس الحارقة ، وتحت رصاص الفلانجيين دافعاً تلك الكتلة الخشبية الضخمة التي تحمل رفيقهم الصريع نحو مصراعي الباب . . . وقرع الكبش ثانية الباب الذي تأرجحت أمامه جثة القتيل ، وهنا أخذه زميلاه ـ وكان راموس أحدهما ـ ليحملاه ، وتراجعت الكتلة الخشبية الى الخلف في بطء أشد ؛ فقد تساقط خمسة رجال آخرون ، وهناك حيث مر الكبش بين صفين من القتلى والجرحى ـ كان ثمة طريق أبيض خاوٍ .

وارتفع نهار يوليو ، فالتمعت الوجوه عرقاً ، وتحت طلقات المدفع المكتومة وضربات اللوح الخشبي التي كانت توقع على أصوات الهجوم جميعاً ، وفي الشوارع المنحدرة ، وعند درجات السلم المؤدية الى الثكنات ـ كان حشد من الموظفين والعمال والبورجوازيين الصغار يقبضون على بنادقهم بأيديهم ـ وكانت الحكومة قد وزعت البنادق ، ولكنها لم توزع حمالاتها ـ

ويضعون خزانات الرصاص مدلاة وسط صـدورهم في عقود قصيـرة جداً . . كان هؤلاء ينتظرون الهجوم ، وقد شخصت أبصارهم الى الباب .

وخفف الكبش من سرعته ، وانقطع المدفع عن اطلاق نيـرانه ، ومـالت الـرؤوس العاريـة والخوذات الى الـوراء ، وحتى الفاشيـون كفوا عن اطـلاق النار ، وترامى الى الأسماع الصوت العميق لمحرك طيارة :

ـ « ما هذا ؟ » .

واتجهت الأنظار صوب جيم ، وكان رفاقه في الميليشيا الاشتـراكية يعـرفون أن هذا العملاق ذا الجلد الأحمر وخصلات الشعر السوداء المتهدلة على محياه ـ كـان مهندسـاً في مصنع « هسبـانو » وكـانت الطيـارة إحدى طيـارات الجيش الأسبـاني العتيقة من طـراز بريجيت . ولم تلبث أن هبـطت في خط منحنٍ كبير فـوق الصمت الكثيف الـذي خيم عـلى الحشـد ، وانفجرت قنبلتـان في فنـاء الثكنـات ، وتطايـرت منشورات متنـاثرة في الجـو ظلت معلقة لحـظة في سماء الصيف فوق هتافات الجمهور .

ومن الشوارع المحيطة بالثكنات اندفع الحشد مهاجماً من خلال درجـات السلم ، ودق الكبش مـرة أخـرى عـلى الباب ، فقـابله وابـل يـائس من الرصاص . وفي اللحظة التي تراجـع فيها بـرزت من إحدى نـوافذ الـواجهة ملاءة عقدت في آخرها عقدة ضخمة حتى يمكن القاؤها . ولم يـرها الكبش، فعاود اندفاعته وحطم الباب الذي كان الفاشيون قد فتحوه لتـوهم في ضربـة واحدة .

وكان الفناء الداخلي خالياً تماماً .

ووراء هذا الخلاء وخلف نوافذ الفناء وأبوابه بدأت عملية الأسر .

* * *

خرج الجنود في أول الأمـر وهم يبرزون بـطاقاتهم النقـابية ، وقـد تعرى

جـدع الكثيرين منهم . وكـان واحد من الفـوج الأول يتـرنـح ، وبينـما كـان الحشد ينهال عليه بالأسئلة انطرح على أربـع ، وأخذ يعب من مـاء الجدول . ثم جاء الضباط ، رافعين أيديهم في الهواء ، وكان بعضهم يبدو غير مكتـرثٍ أو يتـظاهر بعـدم الاكتـراث عـلى حـين أخفى أحـدهم وجهـه داخـل قبعتـه العسكرية ، وابتسم آخر كأنما لا يعدو الأمـر أن يكون مجـرد دعابـة لطيفـة ، لم يكن هذا الأخير يرفع يديه إلا الى مستوى كتفيه ، فبـدا وكأنـه يتقدم نحـو رجال الميليشيا لمعانقتهم .

وفوقهم سقط آخر مصراع من إحدى النـوافذ الـوسطى كـان قد أصـابه المدفع ، ومن اطار النافذة على الشرفة التي كـان نصفها مفقـوداً اندفـع شاب أخذ يطلق ضحكـات عاليـة ، وعلى ظهـره بنادق ثـلاث ، وفي يده اليسـرى اثنـان يجرهمـا من الماسـورة كما يجـر المرء كلبـاًبسلسلة،وألقى بهـما في الشـارع صائحاً : « سلام ! » .

وهـرعت زوجات الجنـود ، وميليشيـا الكبش ، ورجـال الحـرس المـدني وركضت النسوة وهن ينادين في دهاليز الثكنات الشبيهة بدهاليـز الأديرة وقـد سـادها صمت غـريب منذ أن كف المـدفـع عن اطـلاق نيـرانـه . وبلغ جيم ورفاقه الطابق الأول ـ حاملين بنادقـهم على أكتافهم ، على حـين دخل بعض رجـال الميليشيا من فتحـة ما وتقـدم بعض الضباط تـزفهم جماعـة مـرحـة من المدنيين التفت خزانات الذخيرة حول صديرياتهم ، وقـد امسكوا بنـادقهم في وضع التصويب .

ولم يكن من شـك في أن الفتحة كـانت واسعة . . إذ تكـاثر عـدد جنود الميليشيا ، ومن الخارج ترامت هتافات جمهورضخم هـزت الجدران وأطل جيم من النافـذة : فشاهد آلافاً من الأذرع العارية بقبضـات مطبقـة تبرز من الحشـد دفعـة واحـدة كأنـها في تمـرين ريـاضي ، وبـدأ تـوزيـع الأسلحــة التي تم الاستيلاء عليها .

كان الجدار الذي رصت أمامه البنادق الحديثة وسيوف المسرح يخفي عن الشارع فناء رحباً لمحه جيم ، وفي مؤخرة هذا الفناء كان هناك مصنع للدراجات . نهب هذا المصنع على حين كان رجال الميليشيا يقاتلون ، وأضحى الفناء مفروشاً بمساحات كبيرة من أوراق اللف ومن موجهات الدراجة ، وتذكر جيم النقابي الذي كان مثنياً نصفين فوق الكبش الخشبي .

وفي القاعة الأولى كان يجلس ضابط ، وقد وضع رأسه على يده فوق بقعة من الدم كان لا يزال يسيل على المائدة . وعلى الأرض ضابطان آخران . وبالقرب من يد كل منهما مسدس .

أما في القاعة الثانية ـ وهي مظلمة الى حد ما ـ فكان ثمة جنود راقدون ، وكانوا يزمجرون قائلين : « سلام ! سلام ! » دون أن يتحركوا من أماكنهم وكان هؤلاء هم الذين يرتاب الفاشيون فيهم لولائهم للجمهورية أو لتعاطفهم مع الحركات العمالية . وعلى الرغم من الحبال التي أوثقوا بها فقد كانوا يضربون الأرض بكعوبهم اغتباطاً ، وعانقهم جيم والميليشيا على الطريقة الأسبانية وهم يحلون وثاقهم .

قال أحدهم : « هناك رفاق لنا أيضاً في أسفل الثكنات » .

فهرع جيم وصحبه عن طريق سلم داخلي الى حجرة أشد إظلاماً ، وسارعوا الى الرفاق المقيدين وهم يعانقونهم أيضاً : وكان هؤلاء قد أعدموا بالرصاص الليلة البارحة .

الفصل الرابع

(١) من يـوليو

قـال« شاد » مخاطباً قطاً أسود ينظر اليه مرتاباً : « مساء الخير ! » . وغادر مـائدتـه في مشرب « لاجـرانجا » وبسط يـده ، غير أن القط اختفى في ثنـايا الحشد والليل .

واستطرد « شاد » : « والقطط أيضاً قد أصبحت حرة منذ قيام الثـورة ، ولكنني ما زلت أشمئز منها ، أما أنا فما زلت دائماً واحداً من المضطهدين » .

فقال لوبيز : « تعال واجلس أيها السلحفاة ، القطط حيوانات معاديـة ، وربما كانت فاشية ، أما الكلاب والجياد فلا تزيد على امعاء خنـزير محشـوة ، لن تستـطيع أن تستخلص منهـا شيئاً للنحت . الحيـوان الوحيـد الـذي يعـد صديقاً للإنسان هو نسر البـرانس . وفي المرحلة التي كنت مـولعاً فيهـا بنحت الوحوش كنت أملك نسراً من جبال البرانس . وهو طـائر لا يتغـذى إلا على الثعابين . والثعابين تكلف كثيراً ، ولما كنت لا أستـطيع سـرقتها من حـديقة النباتات فقد كنت أشتري لحـماً رخيصاً ، وأقـطعه مـزقاً طـويلة أحركهـا أمام النسـر ، فيتظاهـر ـ عـلى سبيـل اللطف منـه ـ بـالانخـداع ، ثم لا يلبث أن يلتهمها في شراهة ! »

وقاطعهما مكبـرالصوت قـائلاً : « هنـا راديو بـرشلونة . . . المـدافع التي استولى عليها الشعب اتخذت مواقعها ضد « الكابيتانيـا » حيث التجأ الـزعماء المتمردون » .

وبينما كان « شاد » يراقب « القلعة » وهو يـدون ملاحـظات لمقالتـه التي سينشرها غـداً ، لاحظ أن النحات بـأنفه البـوربونيـة يشبه الـزعيم الأمريـكي « واشنطن » ، على الرغم من غلظة شفته السفـلى وشعره الـذي يشبه عـرف الديك ، بل يشبه على الأخص نوعاً من الببغاوات الضخمة ، إذ كـان في هذه اللحظة بالذات يحرك ذراعيه كأنهما جناحان .

وهتف قـائلاً : « إلى المنـظر . . في الداخـل ! فنحن نلتقط الآن مناظـر الفيلم ! » .

وكانت مدريد ـ في ضوء المصابيح الكهـربية السـاطع ـ مـدريد المكتسيـة بكل ما ألقته عليها الثورة من ثياب تنكرية ـ كانت عبارة عن استديو ليلي .

بيـد أن « لوبيـز » ثـاب الى الهـدوء ، فقـد أقبـل عليـه رجـال الميليشيـا يصافحونه ، وكانت شهرته بين الفنانين الذين يترددون على مشرب لاجرانجا لا ترجع الى أنه كان يطلق البارحة نيران مدفع الجبل كما كان الجنود يطلقونـه في القرن الخامس عشر ، بل انها لا ترجع الى موهبته بقـدر ما تـرجع الى أنـه أجاب عن ملحق السفارة الـذي طلب منه أن ينحت تمثـالاً نصفياً لـدقة آلبـا بقوله : « من الممكن أن أصنع ذلك في حالة واحـدة : إذا وقفت أمامي كـما تقف جاموسة البحر ! » وكان « لوبيز » من أكثر الناس جدية في العالم ، قابعاً دائـماً في حديقـة النباتـات ، أكثر معـرفة بـالحيوانـات من القـديس فـرانسـوا (الأسيسي) وهو يؤكد أن جاموس البحر يقبل على المرءحين يصفر له ويـظل ساكناً ، وينصرف حين لا نكون في حاجة اليه .

وكـان لـوبيـز ينحت تمـاثيله من معـدن الـدوريت ، وبعـد أن استمعت الدوقة اليه عدة ساعات وهو يطرق المعدن كالحداد رأت أن تمثالهـا النصفي لم « يتقدم » أكثر من سبعة ملليمترات .

ومر الجنود تحـوطهم الهتافـات ويزفهم الأطفـال . . وكان هؤلاء الجنـود يؤلفـون الكتيبة التي تخلت عن الضبـاط الفاشيـين المتمردين في قلعـة هنارس

(قلعة عبد السلام) لينضموا إلى الشعب .

قال شاد : « أنظر إلى هؤلاء الصبيان الذين يمرون ، لقد جن جنونهم زهواً . ثمة شيء أحبهنا . . فالرجال أشبه بالأطفال . وكل ما أحبه يشبه الأطفال من قريب أو بعيد ، وأنت تنظر الى رجل وترى الطفل فيه ـ بطريق المصادفة ـ فتتعلق به ، فإذا فعلت هذا بالنسبة لامرأة ـ أصبحت لهاعاشقاً . انظر اليهم : إنهم يظهرون الآن الطفل الذي يخفونه عادة في نفوسهم ، وها هم أولاء جنود الميليشيا يهرجون ، على حين يموت آخرون في اقليم الشارات . . والأمر سيان .

« وفي أمريكا يصورون الثورة على أنها انفجار للغضب . . وحين ذاك لا يسيطر على الجميع سوى المرح » .

ـ « لا وجود لشيء سوى المرح ! » .

لم يكن « لوبيز » يلتزم الدقة إلا حين يتحدث عن الفن . . . ولما لم يجد الكلمات التي يبحث عنها اكتفى بأن قال :

ـ «أنصت » .

كانت السيارات تنهب الأرض بأقصى سرعتها في الاتجاهين مغطاة بحروف ضخمة بيضاء هي الحروف الأولى من اسماء النقابات ، وكان راكبوها يحيون بقبضات أيديهم ويصيحون : « سلام ! » ووحدت هذه الصيحة بين هذا الحشد الظافر كأنها نشيد ولاء أخوي .

وقال : « كل انسان في حاجة الى أن يعثر يوماً على ما فيه من غنائية » .

ـ « يقول جرنيكو ان الأمر هو أعظم قوى الثورة » .

ـ « يقول جارسا مثل هذا القول . . بل ان العالم كله يقول هذا . . غير أن جرنيكو يبعث في نفسي الملل . . المسيحيون جميعاً يبعثون في نفسي الملل . . . استمر »

كان « شاد » يشبه قسيساً من مقاطعة بريتانيا الفرنسية ، وهذا ما أخذه لوبيز على أنه السبب الجوهري في عدائه للنزعة الكهنوتية .

- « ومع ذلك ، فإن هذا حق ، أيها السلحفاة ! أنظر . . أنا مثلاً - ماذا أُريد منذ خمسة عشر عاماً ؟ إحياء الفن . حسن . . إن كل شيء هنا على استعداد لذلك . هذا الجدار الذي يقف قبالتنا . . هؤلاء الأوغاد . إنهم يمرون فوقه بظلالهم ، ومع ذلك فإنهم لا ينظرون اليه . وهنا مجموعة كبيرة من المصورين ، وكأنهم ينبشون بين أحجار الأرصفة ، وفي الأسبوع الماضي اصطدمت بأحدهم تحت بواكي الأسكوريال . . . وكان نائماً . هؤلاء يجب إعطاؤهم الجدران لكي يعملوا عليها . وحين نحتاج الى جدار نجده دائماً قذراً ضارباً الى الصفرة ، أو في لون الأطلال . وهنا ينبغي أن تجعله أبيض اللون وتعطيه مصوراً ! » .

كان شاد يدخن غليونه كأنه زعيم الهنود الحمر وهو يصغي في اهتمام ، اذ كان يعلم الآن أن لوبيز يتحدث حديثاً جدياً . والمجنون يحاكي الفنان ، والفنان يشبه المجنون ، وكان شاد لا يثق في النظريات الفنية التي تهدد كل ثورة ، ولكنه كان على معرفة بأعمال الفنانين المكسيكيين وبفريسكات لوبيز الوحشية الزاخرة بالمخالب والقرون الأسبانية التي كانت في الواقع لغة انسان مشتبك في صراع .

واتجهت سيارتان للركاب محملتان بالميليشيا . ومكدستان بالبنادق شطر طليطلة . . فهناك لم يكن التمرد قد انتهى بعد .

- « نحن نعطي المصورين الجدران - يا صديقي . . الجدران العارية ، ونقول لهم : هيا ارسموا وصوروا . . . وأولئك الذين سيقدمون على مثل هذا العمل في حاجة الى أن تتحدث اليهم ، فليس من المستطاع أن تصنع فناً يتحدث الى الجماهير حين لا يكون لديك ما تقوله لهم ، بيد أننا نكافح معاً ، ونريد أن نضع حياة جديدة معاً . . ولدينا الكثير مما يمكن أن نقوله . إن الكاتدرائيات تكافح من أجل الجميع - مع الجميع ضد الشيطان . .

وعندهم بالإضافة الى ذلك حلق فرانكو . إننا . . » .

- « الحديث عن الكاتدرائيات يجعلني أتصبب عرقاً . فثمة اخاء هنا في الشارع - أكثر من الاخاء الذي بأية كاتدرائية قائمة في الطرف الآخر . إستمر » .

- « ليس الفن مشكلة موضوعات ، ولا وجود لفن ثوري عظيم . لماذا ؟ لأنهم يناقشون توجيهات طيلة الوقت بدلاً من الحديث عن وظيفة الفن ، ولهذا ينبغي أن يقال للفنانين : هل أنتم في حاجة الى مخاطبة المحاربين ؟ (أعني الى شيء محدد ، لا إلى شيء مجرد كالجماهير مثلاً) تقولون : لا ؟ إذن افعلوا شيئاً آخر . نعم ، إذن اليكم هذه الجدران ، الجدران يا صديقي . . وهذاهو كل شيء ، فسوف يمر أمامها ألفان من الأشخاص كل يوم وأنتم تعرفونهم . وأنتم « تريدون » الحديث اليهم . . والآن . . رتبوا أنفسكم . ولديكم الحرية والحاجة الى استخدامها . وهذا كل ما في الأمر ، نحن لا نبدع روائع ، فهذا لا يمكن أن يتم تحت الطلب ، بل نبدع أسلوباً » .

وكانت القصور الأسبانية التي تحتلها البنوك وشركات التأمين تشرف من عل في الظلام ، وهناك ، في مكان أدنى من ذلك قليلاً ، كانت أبنية الوزارات تبدو ساكنة في هذا الليل الذي لا نسمة فيه بكل ما فيها من فخامة مفرطة . وبعرباتها المطهمة وبلألاءالأندية ، وبالثريات القديمة المعلقة في فناء وزارة البحرية .

وغادر المشرب رجل عجوز ، وفي أثناء عبوره ترامت الى سمعه بضع كلمات ، فوضع يده على كتف لوبيز قائلاً :

- « سأرسم لوحة لرجل عجوز يحبو ولشاب يغتسل ، والأحمق الذي يغتسل رياضي سخيف لا يستقر في مكانه . . . إنه فاشي . . . ! » .

ورفع لوبيز رأسه ، كان الشخص الذي يتحدث اليه مصوراً أسبانياً

مرموقاً ، وقال لوبيز في نفسه مكملاً : « أو هو شيوعي » .

ـ « . . فليكن فاشياً إذن . . والعجوز الذي يحبو . . هو اسبانيا العجوز . . . أحييك يا عزيزي لوبيز » .

وانصرف ظالعاً بين الهتافات التي تملأ الليل ، فقد كان رجال حرس الهجوم الذين هزموا متمردي « القلعة » عائدين الى مدريد . . ومن الموائد ومن الأرصفة كانت القبضات المرفوعة تلوح في الليل ، ومرَّ رجال الحرس رافعين قبضاتهم هم أيضاً .

واستأنف لوبيز كلامه منطلقاً : « من المحال ألا يتولد أسلوب عن قوم في حاجة الى الحديث وقوم في حاجة الى الانصات . فلنتركهم هادئين ولنزودهم بفرشاة الهواء ، ومسدسات الماء ، وكل ذلك التكنيك الحديث ، ثم لنعطهم فيما بعد قطعة من السيراميك (الفخار) ولننتظر قليلاً ! » .

قال شاد متفكراً وهو يشد أطراف رباط عنقه المعقود على هيئة فراشة : « إن خير ما في مشروعك هو أنك معتوه . . وأنا لا أحب سوى المعتوهين . . . أو ما كان يسمى في الزمن الخالي بالبراءة . . . ولأغلب الناس رؤوس كبيرة ولكنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بها . . أما هؤلاء فهم معتوهون مثلنا » .

وطغت الأقوال على صوت تغيير السرعة في الشارع ، يصحبها وقع خطوات على نشيد « العالمية » . ومرت أمام المشرب امرأة تحمل آلة خياطة تضمها الى صدرها كأنها حيوان مريض .

وظل « شاد » بلا حراك ، واضعاً يده على أنبوبة الغليون ، وازاح شاد قبعته الصغيرة اللينة ذات الحواف المرفوعة الى الوراء وتصافح لوبيز في اثناء عبوره وضابط يحمل نجمة من الجلد على قميصه الأزرق . وسأله لوبيز قائلاً :

ـ « كيف الحال في سييرا ؟ » .

ـ « انهم لا يستطيعون اجتيازها ، ورجال الميليشيا يتدفقون بلا انقطاع » . فقال لوبيز على حين واصل الضابط سيره : « رائع . . . وسيأتي يوم يسود فيه هذا الأسلوب أسبانيا كلها . . كما توجد كاتدرائيات في أوروبا ، وكما يسود أسلوب المصورين الفريسك في المكسيك » .

ـ « أجل . . . ولكن أرجو ألا تذكر لي هذه الكاتدرائيات مرة أخرى » .

وكانت سيارات المدينة التي تم الاستيلاء عليها والتي تسير بأقصى سرعة في خدمة الحرب أو السلم تتلاقى بين الهتافات الأخوية ، ومنذ الصباح كانت الصور التي التقطها في الجبل مصورو الصحف الفاشية القديمة المؤممة تنتقل في الشرفة من يد الى يد ، وفيها تعرف رجال الميليشيا على أنفسهم . وسأل شاد نفسه : هل يكرس مقالته هذه الليلة لمشروع لوبيز أو لمناظر « لاجرانجا » الرائعة ، أو للأمل الذي يزخر به الشارع ؟ . ربما كرسها لهذا كله ، (كانت تقف خلفه إحدى مواطناته وهي تأتي باشارات ، وعلى صدرها وضعت علماً أمريكياً مساحته أربعون سنتيمتراً مربعاً . وعلم فيما بعد أنها صماء بكماء) .

أجل . . من الممكن أن يولد أسلوب من هذه الجدران المتناثرة ، ومن هؤلاء الرجال الذين يمرون أمامه . . نفس هؤلاء الرجال الذين يمرون أمامه في هذه اللحظة ، تهزهم نشوة الحرية . إن بينهم وبين مصوريهم ذلك التواصل الخفي الذي هو في الواقع الدين المسيحي والثورة ، وهم قد اختاروا نفس طريقة الحياة . . والموت . . ومع ذلك . . .

وقال شاد : « هذا مشروع خيالي . . أو لعله شيء ينبغي أن تقوم أنت بتنظيمه أو تقوم به رابطة الفنانين الثوريين أو الوزارة . . . أو جمعية النسور وعجول البحر . . أو ماذا ؟ » .

ومر أناس يحملون لفائف من الثياب ، وأعلاماً مطوية في عناية يضمونها تحت أذرعهم كأنها حقائب المحامين الجلدية ، ومر بورجوازي صغير يضم الى صدره لحافاً بدا أحمر قانياً في ضوء المشرب ، تماماً كما كانت تضم المرأة التي قبله آلة الخياطة ، ومر غير هؤلا يحملون مقاعد مقلوبة فوق رؤوسهم .

وأجاب لوبيز : « سنرى . . وإن كـان ذلك لن يتحقق بـوساطتي الآن عـلى كـل حـال . . ففـرقتي راحلة الى سييـرا . . . ولكن تستـطيـع أن تطمئن ».

ونفث شاد دخان غليونه :

ـ « عزيزي لوبيز : ليتك تعرف كم أمقت البشر جميعاً ! » .

ـ « ليست هذه أنسب لحظة لذلك . . » .

ـ « لا تنس أنني كنت في برغش أول أمس . . . كان الأمـر وأسفاه . . ممـاثـلاً . . كـان الأمر ممـاثـلاً . . . فـالحمقى المسـاكـين يتآخـون مـع الجنود . . . ! » .

ـ « ولكن الأمر هنا على خلاف ذلك أيها السلحفاة ، فالجنـود هم الذين يتآخون مع الحمقى المساكين ! » .

ـ « أما في الفنادق الكبرى فقد شاهدت الكونتيسات بـظهورهن العـارية يعـاقرن الخمـر مـع الفـوضـويـين الفـلاحـين الـذين يضعـون البيـريـه فـوق رؤوسهم ، والبطاطين على أكتافهم . . » .

ـ « والفلاحون يموتون في سبيل هاته الكونتيسات اللواتي لا يمتن من أجل الفلاحين . . ولكن . . . لا بد من النظام ! » .

ـ « وهم يبصقـون حين تصـل الى آذانهم كلمات مثـل : الجمهـوريـة أو النقابة . . هؤلاء الحمقى التعسون . . ولقد رأيت قسيساً يحمل بنـدقية كـان يعتقد أنه يدافع عن إيمـانه . . وفي حي آخـر شاهـدت رجلاً أعمى ، وعـلى عينيه عصابة جديدة كتب عليها هذه الكلمات بحبر بنفسجي : « يحيا المسيح الملك » وأعتقد أنه كان يظن نفسه متطوعاً هو أيضاً » .

- « لقد كان أعمى ! » .

ومرة أخرى ساد حولهم الصمت . كما يحدث دائماً حين تصيح مكبرات لصوت « آلو » بأصواتها المكتومة :

- « هنا راديو برشلونة . . تستمعون بعد لحظة الى الجنرال جوديد» .

وكان الناس جميعاً يعرفون أن جوديد هو زعيم الفاشيين في برشلونة وأنه يقود التمرد من الوجهة العسكرية ، وبدا الصمت كأنه يمتد حتى الحدود المحيطة بمدريد .

وقال صوت يشيع فيه التعب ولكنه لا يخلو من وقار : « هنا . . . الجنرال جوديد ، وأنا أخاطب الشعب الأسباني لأعلن اليه أن القدر كان ضدي وإنني الآن اسير . . وأقول ذلك حتى يشعر كل أولئك الذين لا يريدون مواصلة القتال بأنهم في حل من كل التزام نحوي » .

كان هذا أشبه باعلان الشركات المنهزمة عام ١٩٣٤ ، وشاعت في المدينة الليلية بهجة غامرة .

وأستطرد لوبيز وهو يفرغ كأسه دفعة واحدة علامة على الابتهاج : « هذا يدعم ما كنت على وشك أن أقوله . . وحين قمت بنحت تلك الرسوم البارزة التي تسميهاأنت «تفاهاتي السكيثية» لم تكن لديَّ أحجار والحجر الجيد يكلف غالياً ، والمدافن وحدها هي التي تمتلىء به ، في داخلها بالطبع ، ومن ثم سطوت على الجبانة ليلاً ، ولهذا فقد صنعت تماثيلي جميعاً في تلك الفترة وضروب الندم الأبدية تلتهم نفسي ، وعلى هذا النحو هجرت النحت بالدوريت ، والآن سننتقل الى درجة أعلى : فأسبانيا الآن عبارة عن جبّانة ملأى بالأحجار ، وسنصنع منها تماثيل هل تسمعين أيتها السلحفاة ؟ » .

ومر رجال ونساء يحملون لفائف مغطاة بالساتان الأسود ، ثم سيدة عجوز تمسك ساعة حائط ، وطفل يحمل حقيبة ، وآخر زوجاً من الأحذية ،

وكان الجميع ينشدون ، وعلى بعد خطوات الى الوراء كان ثمة رجل يجر عربة يد محملة بحانوت كامل للعاديات ، وهو يصاحب الأغنية متأخراً عنهم ، وأخذ شاب منفعل يلوح بذراعيه كطاحونة الهواء ، وأوقفهم لكي يلتقط صورة لهم . . وكان هذا الشاب صحافياً ومعه آلة تصوير بالمغنسيوم .

وتساءل «شاد» وهو يعيد قبعته الصغيرة الى الأمام : « ما كل هذا العزال . . أتراهم يخشون الغارات ؟ » .

ورفع لوبيز عينيه ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينظر فيها الى شاد دون تظاهر أو احتداد . . « أنت تعرف أن هناك محال كثيرة للرهون في أسبانيا وقد أصدرت الحكومة عصر هذا اليوم أمراً بفتحها ، وبرد الأشياء المرهونة كلها دون مقابل ، وخرج بؤس مدريد كله دون اندفاع على الاطلاق ، بل على مهل . (وليس من شك في أنهم لم يكونوا يصدقون أن أوامر الحكومة ستنفذ) ، وها هم أولاء يعودون بما رهنوه من سلاسل للساعات وآلات للخياطة ، وألحفة . . فالليلة ليلة الفقراء » .

كان « شاد » في الخمسين من عمره . . ولما كان قد طوف ببلاد كثيرة واجتاز محناً عدة (من بينها البؤس الأمريكي ، وعلة طويلة قاتلة ، أصابت المرأة التي أحبها) فإنه لم يكن يعلق أية أهمية إلا على ما يسميه بالحماقة أو الحيوانية ، أعني على الحياة الجوهرية التي نسيجها الألم والحب والتواضع والبراءة . وهبطت الى الشارع جماعات تجر وراءها عربة محملة بأرجل المقاعد يتبعها آخرون يحملون ساعات الحائط ، وكانت فكرة محال الرهون المفتوحة ليلاً للفقر الذي أنقذ ولو مرة ، ومنظر هذا الحشد المتناثر العائد إلى أحيائه الفقيرة بحاجاته التي استردها ، كان هذا المنظر هو ما جعل شاد يفهم ما يمكن أن تعنيه كلمة « الثورة » لبني البشر .

وفي مقابل العربات الفاشية المنطلقة عبر الشوارع المظلمة بمدافعها الرشاشة كانت تنحدر العربات التي استولت عليها الحكومة ، وعلى هذه

الضجة كلها طغت صيحات التحية « سلام » مسيطرة تـارة . . متلاشيـة تارة أخرى ، ثم متصلة من بعد ، وموزونة ، ثم ضائعة من جديد . . عاملة على التوحيد بين الليل والناس في أخوة المهادنة . . أخوة أشد قسوة بسبب المعركة المقبلة . . فقد وصل الفاشيون الى « سييرا » .

الفصل الأول

الأول من أغسطس :

باستثناء أولئك الذين يرتدون عفريتة الميكانيكية ذات « السوستة » التي أصبحت الزي الموحد للميليشيا كان المتطوعون في فرقة الطيران العالمية يرتدون ـ وقد استخفهم المرح ـ قمصاناً مفتوحةً بسبب حرارة شهر أغسطس في أسبانيا ، فبدوا كأنهم عائدون من رحلة صيد أو سياحة ولم يكن بسبيل القتال سوى الطيارين المدربين ، وجنود المدافع الرشاشة الذين حاربوا من قبل في الصين أو مراكش ، أما الآخرون ـ وكانوا يصلون يومياً ـ فكان عليهم أن يجتازوا اختباراً في أثناء النهار .

ووسط مطار مدريد المدني القديم كانت طيارة ذات محركات ثلاثة يتألف هيكلها المصنوع من الألومنيوم في وهج الشمس (حين استمع قائدها إلى إذاعة أشبيلية وهي تعلن الاستيلاء على مدريد هبط المطار مفعماً بالثقة) .

واشتعلت عشرون سيجارة على الأقل دفعة واحدة . وكان « كاموتشيني سكرتير الفرقة قد قال منذ لحظة :

ـ « ليس لدى » « ب » إلا ما يكفي ساعتين وربع الساعة فحسب » .

وكان يريد أن يقول ان طائرة « ب » ليس لديها من الوقود إلا ما يكفي ذلك الوقت المذكور ، وكان الجميع من « لكلير » Leclere الجالس جلسة

القرد على منضدة الحساب حتى أولئك الذين هم أشد صرامة ممن عكفوا على تنظيف أجزاء المدفع الرشاش ـ كانوا يعلمون جميعاً أن الطيارة قد طارت برفاقهم إلى « سييرا » منذ ساعتين وخمس دقائق .

ولم يعد الدخان يتصاعد من الحانة في سحب طويلة متكاسلة ، بل على دفعات صغيرة متلاحقة . ومن خلال قضبان النوافذ كانت الأنظار جميعاً مسددة على قنة التلال .

لن تعود أول طيارة سواء أكان ذلك اليوم أو غداً أو قريباً ، وكان كل منهم يعلم أن موته ـ بالنسبة لأولئك الذين سينتظرونه ـ لن يكون شيئاً آخر سوى دخان تلك السجائر التي أشعلت في عصبية هنا حيث يناضل الأمل نضال شخص يختنق .

وغادر الحانة بولسكي ـ الشهير ببول ـ وريمون جارديه دون أن تتحول أبصارهما عن التلال . . .

ـ « الرئيس في طيارة « ب » » .

ـ « أواثق أنت ؟ » .

ـ « لا تكن أحمق ؟ لقد رأيته راحلاً » .

وكان الجميع يتذكرون الرئيس في تعاطف ، فقد كان في تلك الطائرة .

ـ « الساعة الآن الثانية والدقيقة العاشرة » .

ـ « انتظر لحظة . ان ساعتك ليست مضبوطة ، كانت الساعة الواحدة حين رحلوا . . وهذا معناه أن الساعة الآن الثانية والدقيقة الخامسة » .

ـ « كلا يا عزيزي ريمون . . لا تحاول . . . إنها الثانية والدقيقة العاشرة كما أخبرتك! إصعد ببصرك إلى « إسكالي » هناك . . إنه معلق الى التليفون » .

- « من إسكالي هذا ؟ هو إيطالي ؟ » .

- « على ما أظن » .

- « من الممكن أن يكون أسبانياً ، أنظر اليه » .

والواقع أن وجه « اسكالي » المهجن كان مألوفاً في الشطر الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

- « أنظر اليه . . . كيف يناضل ! » .

- « الأمور تسير على ما يرام . . لا تسير على ما يرام ، وأنا ، أقول لك . . . »

وأستأنفا النقاش بصوت هامس كأنهما يخشيان أن يسمعهما الموت .

* * *

أخطرت الوزارة « اسكالي » ان طائرتي المطاردة الأسبانيتين وقاذفتي القنابل التابعتين للفرقة العالمية أُجبرت على الخروج من المعركة بوساطة سرب مؤلف من ست طيارات من طراز فيات . وقد سقطت إحدى قاذفتي القنابل داخل خطوط الجمهوريين ، أما الأخرى التي أُصيبت اصابةخفيفة - فإنها تحاول العودة ، وهبط اسكالي ركضاً صوب سمبرانو وقد تبعثره في كل الجهات تقريباً .

وكان الرئيس مانيان يقود فرقة الطيران العالمية ، أما « سمبرانو » فكان مسؤولا عن المطار المدني وعن طيارات الركاب التي تحولت الى طيارات مقاتلة ، وكان سمبرانو يشبه ڤولتير . . فيكاد يكون نسخة شابة طيبة منه . . . وكانت الطيارات الجديدة من طراز دوجلاس التي اشترتها الحكومة من الخطوط الجوية تستطيع بمساعدة الطائرات العسكرية العتيقة الرابضة في مطارات مدريد أن تُقاتل الطائرات الحربية الايطالية . . . مؤقتاً . . .

وفجأة توقفت الضوضاء التي أحدثها رجال طائـرات البليكان Pelicans ومـع ذلك لم يسمـع أي صوت لمحـرك أو أية صفـارة نداء ، غـير أن أولئـك الرجال كانوا يشيرون الى شيء ما بـأذرع ممدودة ، وهنـاك على قمـة من قمم التلال كانت إحدى قاذفـات القنابـل قد عـطلت محركيهـا . . . وفوق المـطار الرملي اللون الذي أضفت عليه الساعةالثانية بعد الظهر طابعاً من الوحشة كأنه كوكب مهجور . انـزلق في صمت جسم الطائـرة مليئاً بـالرفـاق الأحياء منهم والأموات .

قال سمبرانو : « الربوة ! » .

فـأجاب اسكـالي وهو يحـك أنفه بسبـابته : « إن داراس طيـار من الخط المدني » .

فردد سمبرانو : « الربوة ! الربوة ! . . . »

وقفزت الطيارة من عل كما يقفز الجواد ، وبدأت تحوم حول المطار وهناك على أرض المطار كتم الجميع أنفاسهم حتى لم تعد تتحرك في كوب من الأكواب قطعة ثلج واحدة .

وقال اسكالي : « أنـظر الى أغطيـة الأطارات . . . لم تعـد ثمة اطـارات بكل تأكيد » . . .

وأخذ يحرك ذراعيه القصيرتين وكأنما يريـد أن يساعـد الطائـرة ، وكانت هذه قد لامست الأرض ، ومالت على أحد جانبيهـا ، فاستنـدت على طـرف جناحها ، دون أن تنقلب ، وجرى رجال المطار صائحين حول جسم الـطائرة المغلق .

ونظر « بول » ـ وكأنما وقفت قطعة من الحلوى في حلقه ـ إلى باب الطائرة الذي لم يرفع ، وكان في الداخل ثمانية من الرفاق ، وأخـذ جارديـه ـ بشعره المصفف الى الأمـام ـ يهـز مقبض البـاب بكـل قـواه دون جـدوى ، واتجهت

الوجوه جميعاًناحية تلك القبضة الغاضبة التي تناضل الباب المعاند . . . وأخيراً ارتفع الى منتصف علوه العادي وظهرت أقدام ، ثم النصف السفلي من بذلة ملطخة بالدماء . . . وكان من الواضح بالنظر الى بطء حركاته أن الرجل مجروح . وأمام هذه الدماء التي لم يعرف صاحبها بعد ، وأمام هاتين الساقين اللتين تتحركان في حذر في الطائرة المملوءة بالرفاق . . . أمام هذا كله خطر لِبنول الذي أوشك أن يختنق بقطعة الحلوى المتوقفة في حلقه ـ أن الجميع بسبيل أن يدركوا معنى التضامن إدراكاً يسري في خلايا أجسامهم .

وجعل الطيار يمد قدميه شيئاً فشيئاً خارج الطائرة ، وقد أخذت قطرات من الدم الأحمر القاني تتساقط منها تحت ضوء الشمس الذي يغشي الأبصار ، وأخيراً ظهرت رأسه التي تشبه رأس زارع للكروم من « اللوار » تحت قبعة بستاني ، هي تميمته . . .

وصاح سمبرانو بصوته الخجول : « لقد أحضرت الزنك ! » .

فهتف اسكالي : « ومانيان ؟ » .

وقال داراس وهو يحاول الاستناد على حافة الباب لكي ينزلق :

ـ « لم يحدث له شيء » .

وأسرع سمبرانو نحوه . . وعانقه فسقطت قبعة كل منهما .

وهنا ظهر رأس « داراس » الذي اشتعل شيباً ، على حين أخذ رجال المطار يتحركون في عصبية .

وما أن خرج داراس ، حتى وثب « مانيان » الى الأرض . كان يرتدي حلة الطيار ، وقد أضفى عليه شارباه المتدليان الأشقران شقرة رمادية ، والسماعة التي تمسك برأسه مظهر محارب من الفيكنج أصابته الدهشة بسبب نظارته المصنوعة من البلاستيك .

وصاح مخاطباً اسكالي : « والطائرة س ؟ » .

ـ « ما زالت في خطوطنا . معطلة . . غير أن الجروح طفيفة » .

ـ « اهتم بهؤلاء الجرحى ، حتى أتمكن من الاتصال بالتليفون لتقديم تقريري ».

وعندما وثب الرفاق الذين لم يصابوا بسوء الى الأرض أخذو يغدون ويروحون بين رفاقهم الذين امطروهم بوابل من الأسئلة، وهم يحاولون الصعود الى الطائرة لمساعدة الجرحى . . . وكان جارديه وبول قد صعدا الى الطائرة . . .

ـ « وهناك في الداخل ، كان فتى صغير السن راقداً وسط البقع الحمراء والآثار الدامية التي تركتها نعال الأحذية . كان يدعى « هاوس » « الكابتن هاوس » ، ولم يكن قد تسلم بعد حلة الطيار . وكان مسؤ ولا عن المدفع الرشاش الذي في مؤخرة الطيارة ، وعاد من خرجته الأولى بست رصاصات في ساقه . وهو لا يتكلم إلا الانكليزية . وربما كان يعرف اللغات القديمة ، ذلك أن نسخة للجيب من مؤلفات أفلاطون باليونانية ، سرقت هذا الصباح من اسكالي الذي أخذ يصيح كما تصيح بنت آوى (العرسة) وهذه النسخة خرجت الآن من الجيب الدامي في الصديرية الحمراء الزرقاء التي يرتديها ذلك الفتى .

أما قاذف القنابل الذي أُصيب برصاصتين في فخذه فكان يجلس منتظراً الى جانب مقعد الملاحظة ، وكان هذا الرجل بحاراً من مقاطعة بريتاني ، وعمل قاذفاً للقنابل بمراكش ، واشتهر بأنه شاب صلب شديد المراس ، وكان يصر على أسنانه دون أن يتغير بذلك التعبير المرح الذي يظهر برغم جراحه على وجهه الباش ، على حين أخذ جارديه يجره متمهلاً من الطائرة .

صاح بول بلهجة آمرة وبعينين محملقتين : « انتظروا أيها الرفاق ! سأذهب للبحث عن محفة « نقالة » وإلا أرهقنا الفتى إرهاقاً شديداً » .

واستنـد « لكلير » النحيل الـذي يشبه القـرد والـذي كـان يـرتـدي حلة طيـار ، وإن وضع عـلى رأسه قبعـة رماديـة ـ استند عليهـا زميله سيـروزييـه Séruzier الشهير باسم « الدهشة الطائرة » نظراً لدهشتـه الدائمـة ، ثم شرع ينشد اغنية عن مغامراته .

ـ « عليـك أن تنظر يـا صديقي قبـل أن تسحب على عـربـة العـذاب ، وسـأقص عليـك حكـايـة للتسـريـة عنـك ، وهي عن آخـر مضـايقـاتي مـع البورجوازيين : كان ذلك بسبب أحد الرفاق . ولم يكن بـواب عمارتـه يطيق رؤ يتـه ، فذلـك الوغـد يلعق أحذيـة المستأجـرين الأثريـاء ، ويستأسـد على العمال البائسين! وكان يسب رفيقي قائلاً . . . « حسن . . فلينتظر لحظة . » وفي الساعة الثانية صباحاً حللت حصاناً عجوزاً وحيداً من إحدى العربات ، وسحبته الى مدخل العمارة أمام حجرة البواب وأعلنت بصوت أجوف قائلاً : « حصان » ـ ثم وبلا مؤاخذة ـ انسحبت في هدوء . . ! »

ونظر قاذف القنابل الى لكلير وسيروزييه دون أن يهز كتفيه ، وألقى عـلى رجال المطار نظرة ملكية ، وأمرهم قائلاً :

ـ « فليبحث لي أحد عن نسخة من صحيفة « لومانيتيه » .

والتزم الصمت من جديد ، حتى وصلت « المحفة » .

الفصل الثاني

ظهرت سحابة صغيرة مستديرة فوق قمة جبل سييرا ، وانتفضت الأكواب ، وصلصلت داخلها الملاعق الصغيرة بعد حدوث الانفجار بلحظة تكاد تكون عشراً من الثانية ، وكانت القذيفة الأولى قد سقطت عند طرف الشارع ، ولم تلبث قطعة من القرميد أن هوت من السقف على منضدة ، فتدحرجت الأكواب وتصاعد وقع خطوات تركض في شمس الظهيرة ، فلا بد أن القذيفة الثانية سقطت في منتصف الشارع ، وتزاحم الفلاحون المسلحون في قاعة المشرب وهم يتحدثون حديثاً خاطفاً وإن كانت عيونهم حافلة بالتوقع .

وعندما سقطت القذيفة الثالثة (على بعد عشرة أمتار) تطاير زجاج النوافذ الكبيرة شظايا متناثرة في أوجه الرجال الذين تمنطقوا بأحزمة مملوءة بالرصاص . . . فألصقتهم بالحائط ، مشلولين .

وانغرزت شظية من الزجاج في اعلان للسينما لطخته قطرات من النبيذ المتطاير .

وحدث انفجار آخر . . وآخر أبعد كثيراً . . . على اليسار هذه المرة ، وانتشرت الصيحات في القرية ، وكان مانويل يمسك بيده ثمرة كستناء ، فرفعها بين أصبعيه فوق رأسه ، وانفجرت قذيفة أخرى ، أقرب هذه المرة .

قال مانويل وهو يبرز ثمرة الكستناء مفتوحة : « شكراً » (وكان هو

الذي كسرها بين أصابعه) .

وتساءل فلاح بصوت خفيض : « ولكن ماذا يصنع الانسان لكي يزيح تلك القنابل عن طريقه ؟» .

فلم يجبه أحد . وكان « راموس » يركب القطار المصفح ، ومكث الجميع في أماكنهم وهم يبتعدون عن الحائط ثم يعودون اليه منتظرين القنبلة القادمة .

قال الأب « باركا» بصوته المتعجل : « ليس لما نفعله هنا أي معنى ولو أننا مكثنا هنا لأصبحنا مجانين . . . ينبغي أن نعود الى الداخل » .
وتفحصه مانويل ، فلم يكن على ثقة من لهجة صوته قال : « هناك سيارات نقل في الميدان » .

ـ « هل تعرف القيادة ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « قيادة سيارة نقل ضخمة ؟ » .

ـ « أجل » .

وهتف باركا : « يا لكم من فتيان !»

وكان الانفجار شديداً بحيث انبطح الجميع على الأرض ، وحين نهضوا ثانية ، كان المنزل المواجه للمشرب قد فقد واجهته ، وأخذت هياكله الخشبية تتساقط بعد برهة قصيرة في الفضاء ، ودق جرس التليفون ، وأستأنف باركا حديثه قائلاً : « إذن فهناك سيارات نقل . . . فلنركبها، ولنحطم رؤوسهم ! » .

وأخذ الجميع يتحدثون في نفس واحد :

ـ « حسن جداً ! » .

ـ « بل سوف نتحطم نحن جميعاً » .

ـ « لا أوامر لدينا » .

ـ « سأعطيك إياها . . . تلك الأوامر . . إذهب الى السيارات بدلاً من الصياح ! » .

وخرج مانويل وباركا راكضين . . وكان الجميع تقريباً يركضون خلفهما . . أي شيء أفضل من البقاء هنا . . والقذائف لا تنقطع . . وعلى مسافة بعيدة نوعاً ما . . . وقف المتخلفون الذين يؤمنون بالتأمل . . .

وتسلق ثلاثون رجلاً سيارة النقل ، وكانت القنابل تتساقط حول أطراف القرية ، وأدركا باركا أن رجال المدفعية الفاشيين يرون القرية ، ولكنهم لا يرون ما يجري فيها (لم تكن في الجو طائرة في هذه اللحظة) ، وانطلقت السيارة محملة بالمدنيين الذين ينشدون النشيد العالمي (الانترناسيونالي) . ويلوحون ببنادقهم فوق ضوضاء تحويل السرعة .

كان الفلاحون يعرفون مانويل منذ ان كان « راموس » يقوم بالدعاية في اقليم الشارات . وكانوا يشعرون نحوه بتعاطف متحفظ يزداد بازدياد طول لحيته ومع تحول وجهه الروماني الثقيل نوعاً ذي العينين الخضراوين الصافيتين تحت حاجبين شديدي السواد الى وجه بحار من بحارة البحر الأبيض المتوسط .

وتابعت السيارة طريقها في وهج الشمس ، ومن السماء تساقطت القنابل على القرية في زفيف كزفيف الحمائم ، وكان مانويل يقود السيارة متوتر الأعصاب ، ومع ذلك رفع عقيرته بأغنية من أوبرا مانون :

ـ « وداعاً . . . يا مائدتنا الصغيرة . . . »

* * *

أما الآخرون وكانت أعصابهم لا تقل عنه توتراً فقد قاطعوه بالنشيد العالمي ، ووقعت أبصارهم على جثتين لقتيلين من المدنيين داست عليهما العربة بكل سرعتها ، فثار في نفوسهم ذلك الشعور بالزمالة القلقة الذي يشعر به أولئك الذين يسيرون الى القتال نحو الشهداء الأوائل ، وتساءل باركا : « ترى أين المدافع ؟ » .

- « إن موضع الدخان ليس محدداً » .

- « لقد سقط أحد الزملاء » .

.« قف ! » .

وصاح باركا : « هيا . . هيا . . الى المدافع ! » .

وسكت الآخر . . فباركا هو الذي يصدر الأوامر الآن . . وغيرت السيارة من سرعتها ، فبدت كأنها ترد على الانفجار بصرخة من محركها المجروح . ومرت أمام جثث القتلى .

- « هناك ثلاث سيارات تتبعنا ! » .

والتفت رجال الميليشيا جميعاً حتى مانويل الذي كان يقود السيارة . وهتفوا : « مرحى ! » .

وشرعوا ينشدون بالأسبانية وهم يدقون الأرض بأقدامهم :

« وداعاً ! يا مائدتنا الصغيرة ! » .

وعند مدخل نفق تبرز منه قاطرة القطار المصفح كما تبرز الأنف من الوجه أشرف راموس على سيارات النقل المرصوصة على بعد أربعمائة متر من السفوح المغطاة بأشجار الصنوبر .

قال لسالازار : « إن لديهم - يا صديقي - تسع فرص من عشر للنجاح » ، وكان راموس قد حل قائد القطار المصفح الذي انضم الى

الفاشيين ، أو لعله ذهب الى حانات مدريد .

كانت سيارات النقل تبدو ضئيلة الحجم وسط منظر الجبل الشامخ ، وتألقت الشمس على خوذاتهم ، فكان من المستحيل ألا يراهم الفاشيون .

وتساءل سالازار وهو يفتل شاربه الجميل في عكس اتجاهه :

ـ « لماذا لا نساندهم ؟ » وكان قد خدم قبل ذلك جاويشاً في مراكش .

ـ « الأوامر الصادرة الينا هي ألا نطلق النار . . . ومن المحال أن نحصل على أمر آخر ، وتليفونك الموصول بالخيوط يعمل جيداً ، ولكن لا يوجد أحد في الطرف الآخر من الخط » .

وكان ثلاثة من رجال الميليشيا بسبيلهم الى وضع حلتين من حلل القداس ومسوح للرهبان فوق القضبان على بعد بضعة أمتار من القاطرة ، دون أن يحولوا أنظارهم عن سيارات النقل التي أخذت تتقدم على طريق الأسفلت الأزرق الفاتح ، وهو الطريق الذي تعترضه جثتا القتيلين .

وصاح أحدهم : « هل نمضي في طريقنا؟ » .

فأجاب راموس : « كلا . . . الأوامر هي ألا نتحرك . . . »

وظلت سيارات النقل تتقدم دائماً ، وكان صوتها مسموعاً بوضوح برغم طلقات المدفع ، وما هي إلا ثوان حتى غادر أحد رجال الميليشيا صهريج القاطرة ، وذهب ليجمع ثياب الكهنة ثم طواها ، وكان ذلك الرجل من فلاحي قشتالة ذوي الوجوه النحيفة التي تشبه وجوه خيولهم ، ولحق به راموس .

ـ « ماذا تفعل يا ريكاردو ؟ » .

ـ « هذا شيء اتفقت فيه مع الرفاق . . . »

وبسط مسوح الرهبان قليلاً ، وقد بدت عليه الحيرة ، وتألق الوشي

الذهبي (القصب) في النور .

وما فتئت السيارات تصعد دائماً ، ولاح رأس السائق الذي أبـرزه خارج القـاطرة وضـاء في الشمس على خلفيـة النفق الأسـود ، وأخـذت السيـارات تقترب من موقع المدافع .

استأنف ريكاردو قائلاً : « ينبغي أن نكون على حـذر ، فهؤلاء الأوغاد قد يحاولون اخراجنا عن القضبان أو قد يحملون شراً لرفاق السيارات ! »

قال راموس : « أعطها زوجتك فقد تستطيع أن تصنع منها شيئاً » .

كان هذا الفتى العمـلاق المرح الجعـد الشعر يـوحي بالثقـة للفلاحـين ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون قط هل هو جاد أو مازح !

ـ « هل هذا الثوب ترتديه زوجتي ؟ »

وقذف الفلاح بكل قوته الربطة الموشاة بالذهب إلى أعماق الوادي .

وبدأت مدافع الأعداء الرشاشـة في اطلاق نيـرانها تصحبها تلك الجلبـة المحددة التي تحدثها عادة .

وانزلقت السيارة الأولى ، ودارت في ربع دائرة ، ثم سكبت رجالها كأنها سلة ، ولم تلبث أن أنقلبت ، وظل أولئك الذين لم يموتـوا ولم يصابـوا بجراح يطلقون النـار محتمين خلفهـا ، لم يكن رجال القـطار يرون من «رامـوس» سوى نظارته المكبرة وخصـلاته المتموجة ، وفي هذيانهم كان شخص يغني أغنية أندلسية ، وملأت الجو الذي أخذ يرتجف كأنما تهزه المدافع الرشاشة ـ رائحة الصمغ المنبعثة من أشجار الصنوبر المقتلعة كأنها رائحة نعش .

وعـلى جانبي السيـارة المقلوبة كـانت تحف اشجار الـزيتـون ، ومن تلك السيـارة خرج واحـد . . اثنان . . خمسـة من رجال الميليشيـا وشرعوا يعدون صوب الأشجار ، وسقـطوا الواحـد تلو الآخر ، ولمـا كانت السيـارة تعترض

الطريق فقد توقفت السيارات التي كانت تتبعها .

قال سالازار : « لو انبطح الفتيان أرضاً . . . فالأرض صالحة للاستعمال . . » .

ـ « دعك من الأوامر . . عد الى القطار وأطلق النار » .

وجرى سالازار بقامته العسكرية يعوقه حذاؤه الضخم . ولم يعد رجال الميليشيا قادرين الآن على التقدم ، ولهذا لم يخاطر (راموس) باطلاق النار عليهم ، ذلك أن فرصة أصابته لمدافع الأعداء الرشاشة التي يجهل مكانها ضئيلة الى أبعد حد . . .

وفي الطريق الى مخزن القطر كانت بعض عربات البضاعة ما زالت تحمل هذه الكلمات : « يحيا الاضراب ! » وخرج القطار المصفح من النفق يهدد بالخطر ، دون بصيرة ، وأدرك راموس مرة أخرى أن القطار المصفح لا يعني اكثر من مدفع وبضع بنادق رشاشة .

* * *

ووراء المدفع كان الرجال يطلقون النار على المصدر الذي تنبعث منه الأصوات . فقد بدأوا يدركون أن الاقتراب في الحرب أهم من القتال نفسه وأصعب ، وأن المسألة ليست مسألة صراع بين أفراد وإنما هي أشبه بالاغتيال .

واليوم ، كان العدو هو الذي يقوم باغتيالهم .

وصاح باركا : « لا تطلقوا النار ما دمتم لا ترون شيئاً . . . وإلا فلن نجد معنا ذخيرة حين يحيطون بنا ! »

كم كانوا يودون أن يروا الفاشيين وهم يشنون هجمتهم ! والقتال أرحم من هذا الانتظار الذي يشبه انتظار المرضى ! وركض أحد رجال الميليشيا ـ

الى الأمام صوب المدفعية ، وما كاد يخطو الخطوة السابعة حتى سقط صريعاً كأولئك الرجال الذين حاولوا الاحتماء خلف أشجار الزيتون .

وقال مانويل مخاطباً باركا : « لو أن مدافعهم أطلقت نيرانها علينا . . . »

وكان هذا مستحيلاً بالطبع لسبب ما ، وإلا فعلوا . . . وصاح صوت امرأة : « أيها الرفاق ! »

واستدار الجميع تقريباً مبهوتين . لقد وصلت سيدة من سيدات الميليشيا .

قال باركا : « ليس هذا المكان بالمكان الصالح لك » وكان قوله ذاك من غير اقتناع ، إذ كان الجميع مغتبطين لوجودها معهم

وكانت تجر حقيبة ضخمة قصيرة مملوءة بعلب التموين وسألها باركا : « أخبريني إذن : كيف أتيت الى هنا ؟ » .

وكانت تعرف هذه البقعة ، لأن أبويها فلاحان من هذه القرية . وسدد باركا بصره في انتباه : كان الطريق يمتد أمامهم مكشوفاً حوالي أربعين متراً .

قال أحد رجال الميليشيا : « إذن . . . نستطيع أن نمر ؟ » .

فقالت الفتاة : « أجل » ، وكانت الفتاة ذات وضاءة،وفي السابعة عشرة من عمرها .

وقال باركا : « كلا . . . انظروا . . إن الأرض المكشوفة أوسع مما ينبغي . . وسيهبطون عليها بقضهم وقضيضهم » .

ـ « لقد وصلت سالمة . . فلماذا لا نصل نحن أيضاً ؟ » .

ـ « انتبهوا ، فمن المحتمل أن يكونوا قد تركوها تمر عامدين . . ونحن في مأزق . . فلا داعي للمزيد » .

ـ « في رأيي أننا نستطيع بلوغ القرية . »

فصاحت الفتاة مرتاعة : « لا أظنكم طلبتموني لكي تعودوا على أعقابكم » .

« إن جيش الشعب ينبغي أن يحتفظ بمواقعه . قالت الاذاعة ذلك منذ ساعة ! » .

وكانت قد اصطنعت ذلك الصوت المسرحي الذي تصطنعه النساء الأسبانيات دون عناء ، كما شبكت يديها دون أن تشعر ، واستطردت قائلة :

ـ « سنحمل اليكم كل ما تطلبون . . . »

وكأنها تقدم لعباً لأطفال ابتغاء تهدئتهم . وأمعن « باركا » في الفكر ، ثم قال : « أيها الرفاق . . . المسألة ليست هنا . . فالصبية تقول . . » .

ـ « لست صبية . . » .

ـ « فليكن . . الزميلة تقول : إننا نستطيع أن نرحل . . ولكن ينبغي علينا البقاء . . . أما أنا فأقول : إنه ينبغي لنا الرحيل ، ولكننا لا نستطيع . فلنحاول أن نستخلص من هذا الخلط شيئاً » .

قال مانويل للفتاة بصوت هامس : « إن لك شعراً جميلاً . . أعطني واحدة منه » .

ـ « أيها الرفيق ، أنا لم أحضر للاستماع الى سخافات » .

ـ « حسن . . احتفظي بشعرك . . أيتها الشحيحة ! »

وبينما كان يتحدث الى الفتاة ـ دون افراط منه في الاقتناع ـ لم يكف عن ارهاف سمعه .

وهتف قائلاً : « أنصتوا . . . انصتوا . . . »

وأرهف الجميع أسماعهم للصمت الـذي لم يكن يعكره حفيف أجنحـة طائر ، وكانت مدافع العدو الرشاشة تطلق وابلاً من الرصاص تلو وابل . . . وتوقف مدفع منها . . كلا . . هذا مجرد أعطال . . فقد استأنف اطلاق نيرانه من جديد . . . بيد أن الرصاص لم يعد يصل الى السيارة . . .

ـ « أخفض رأسك أيها الأحمق ! »

وخفض رأسه هناك في الاتجاه الذي اشـار اليه ، كـانت ثمة بقـع زرقاء تصعـد صوب المدفعية الفاشية موازية للطريق ، ولكنها محمية ومنتفعه من رقعـة الأرض : وكانت هذه البقع هي رجال حرس الهجوم .

قال باركا : « من الواضح اننا لو فعلنا مثل هذا » .

وكلما صعدوا . . . قل عددهم .

قال رجل من الميليشيا : « هذا عمل رائع ! هل نمد لهم يـد المعونـة ؟ » وهتف مانويل : « حذار ! لا داعي لأن نبدأ في الاستعجال مـرة أخرى . . . تجمعوا عشرة ، عشرة . . وأول كل مجموعة مسؤول عنهـا . . . ولتتقدم كـل مجموعة عن الأخـرى بحوالي عشـرة امتار عـلى الأقل ، ينبغي أن يتقـدموا في مجمـوعات أربـع ، كما ينبغي أن تصلوا جميعـاً معاً . . . وستكـون المجموعـة الأولى في المقدمة . . . بيد أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، لأنها سوف تنتشر على مسافة أبعد من الأخرى » .

قال باركا : « ليست المسألة واضحة » .

ومع ذلك فقد أصغى الجميع ، وكأنهم يصغون الى درس في الاسعافات الأولية التي يجب اجراؤ ها للجرحى .

ـ « حسن . . كونوا مجموعات كل مجموعة من عشرة أشخاص » .

وفعلوا كما أمرهم . . . ثم اقترب المسؤ ولون من مانويل .

وهناك من أعلى الجبل ـ كانت المدافع تطلق قذائفها على القرية دون انقطاع ، أما المدافع الرشاشة فلم تكن تطلق رصاصها إلا على رجال حرس الهجوم الذين أخذوا يصعدون دائماً . وكان مانويل قد تعود قيادة رجال حزبه . بيد أنهم كانوا شرذمة قليلة في هذا المكان .

ـ « عليك أنت أن تقود الستة الأوائل » .

« سوف ننتشر جميعاً على يمين الطريق ، ولا داعي لأن نجازف بأن نشطر شطرين إذا هبط هؤلاء الأوغاد في سيارة مصفحة . . أو في شيء من هذا القبيل . . . وهذا يقربنا من رجال حرس الهجوم .

« وليذهب عشرة من الرفاق على بعد مائة متر » .

« وأنت « رقم واحد » انصرف ورفاقك العشرة . . وعلى بعد ثلاثمائة متر إترك واحداً منهم كل عشرة أمتار .

وحين تلمح أن الجماعة التي على يسارك تتقدم ـ تقدم أنت أيضاً . . . فإذا لم تسر الأمور على ما يرام فسلم القيادة الى جارك ، وعد مسرعاً ستجد وراءك . . . »

يجد من ؟ كان مانويل يريد أن يرسل باركا لتنظيم سيارات النقل الأخرى . . أما فيما يتعلق بنفسه فقد كان ينبغي أن يكون في النصف الأول في مثل هذا الجو . . . ولكن . . .

« . . . ستجد وراءك باركا » .

وقرر أن يبعث شخصاً آخر لتنظيم سيارات النقل .

ـ « وحين أصفر فليجتمع الجميع حول باركا . . مفهوم ؟ »

ـ « مفهوم » .

ـ « أعيدوا ما قلته » .

ـ « سيسير كل شيء على ما يرام » .

ـ « من المسؤولون : نقابيون أم سياسيون ؟ » .

ـ « أيها الرفاق ، القطار المصفح يطلق نيرانه ! »

وأحس الجميع برغبة في أن يعانق بعضهم البعض الآخر ، وكان القطار يطلق نيرانه جزافاً على الموقع الذي يعتقد أن المدفعي والبنادق والرشاشات قائمة فيه ، غير أن رجال الميليشيا حين سمعوا مدافعهم ترد على مدافع الفاشيين بارحهم الشعور بأنهم في مأزق ، ولهذا هتف الجميع هتافاً عالياً تحية للطلقة الثانية .

وأرسل مانويل أحد الشيوعيين لتحذير راموس ، كما أرسل أحد رجال اتحاد نقابات النقل الى حرس الهجوم ، وكذلك بأكبر الفوضويين سناً الى رجال السيارات الأخرى ليدلهم على ما ينبغي أن يفعلوه .

وقالت الفتاة : « خذ معك من باب الحذر شيئاً لتأكله . . » .

ـ « هيا بنا . . أيها الرفاق ! »

وقالت الفتاة وقد بدا عليها الشعور بالمسؤولية : « سأحمل لكم طعامكم ».

وفي نفس الوقت الذي انصرفوا فيه ركض باركا نحو سيارات النقل ، وكانوا يطلقون من البنادق نيرانهم على تلك السيارات . . . ورحلت المجموعة الثانية ، ثم الثالثة ، فالأخيرة التي يقودها مانويل .

كانت العين تستطيع أن تكشف صفوف أشجار الزيتون المتراصة دون أن يعوقها عائق . وفي طريق من تلك الطرق الرحبة الساكنة رأى « باركا » رجلاً من رجال الميليشيا يتقدم ، يتبعه عشرة آخرون ثم طابور طويل . . ولم يكن يستطيع أن يرى الى أبعد من خمسمائة متر ، وملأ هذا الطابور كل مجال،

رؤ يته ، واحتل الغابة المرئية متقدماً على ايقاع المدافع الراعد ، وعلى السفح المجاور الذي اختفى عن نظر باركا منذ أن وقف تحت الأشجار ـ وكان رجال حرس الهجوم يطلقون نيرانهم ، ولم يكن من شك في أنهم يملكون بندقية سريعة الطلقات إذ كانت ضجة الاطلاق الميكانيكية تطغى على صوت طلقات البنادق متصاعدة صوب الضوضاء الثابتة الصادرة عن مدافع الفاشيين الرشاشة ، وتقدم طابور الميليشيا ، وأطلقت بنادق الفاشيين نيرانها عليهم دون طائل . وركض مانويل ، فتبعه الطابور كله في منحن أشبه بمنحنى سلك يسحب في الماء . وجرى باركا أيضاً منتشياً مستغرقاً في اضطراب محموم يسميه الشعب . . . اضطراباً نسيجه القرية التي أُلقيت عليها القنابل ، والفوضى اللانهائية ، وسيارات النقل المقلوبة ، ومدفع القطار المصفح الذي أخذ رجاله يصعدون الآن كجسم واحد للهجوم على مدافع الفاشيين .

وحطموا في ركضهم أغصاناً مقطوعة ، فقد أطلقت المدافع الرشاشة نيرانها على غابة الزيتون قبل وصول حرس الهجوم ، وحلت رائحة أرض الصيف الجافة محل رائحة الصمغ ، وتساقطت أوراق الشجر من أثر الرصاص كما تتساقط أوراق الخريف ، وطابور الميليشيا الذي يجري على ايقاع طلقات المدفع يظهر تارة في ضوء الشمس ، ويختفي تارة أخرى تحت ظلال أشجار الزيتون ، وكان باركا يستمع الى صوت البندقية السريعة الطلقات وإلى صوت موقع القطار المصفح كأنما يستمع الى صوت البشرى ، فلن يستطيع أحد بعد اليوم أن ينتزع الكروم ممن زرعوها .

وكان عليهم أن يعبروا عشرين متراً من الأرض المكشوفة ، وفي اللحظة التي غادروا فيها غابة الزيتون أدار الفاشيون واحداً من مدافعهم الرشاشة ، وكانت الرصاصات تلسع الهواء حول باركا مما ينبعث منها من أزيز كأزيز النحل ، وجرى صوب البنادق تحيط به ألوان من الطنين الحاد دون أن يمس بسوء ، وتدحرج وقد تقاطعت ساقاه ، وعلى الرغم من الألم ظل ناظراً

أمامه . كـان نصف رجال الميليشيـا قد سقـطوا ولم ينهضوا مـرة أخرى ، أمـا النصف الآخر فقد استطاع المرور ، والى جواره كان بقال القرية يرقد صريعـاً وعلى جثته يحوم ظل فـراشة ، وكـان الصف الأول من رجال سيـارات النقل الأخرى ما برح متردداً على حافة غابة الزيتـون . وبدا بـاركا يسمـع أصوات محركات الطائرات . هل هي طائراتنا أو طائراتهم ؟ وبالقرب من المكان الذي تطلق فيه البندقية السريعة الطلقات نيرانها نصاعد صاروخ الى صفحة السماء الرائعة ، وانقطع القطار المصفح عن اطلاق نيرانه .

* * *

وتسـاءل سـالازار : « هـل وصـل رجـال حـرس الهجـوم الى مـوقـع المدفعية ؟ »

وكانوا قد بعثوا أحد رجالهم الى القطار ليخبر من فيه أنهم سوف يطلقون صاروخاً « عندما يصلون الى المدفعية » . ولم يكن من شك أنهم قريبـون منها الآن ، وعلى هذا فقد توقف راموس عن اطلاق النار .

قال : « أعتقد ذلك » .

ـ « وماذا حدث لرجال الميليشيا ؟ » .

ـ « لم نعـد نراهم ، ويبـدو أنهم لم يمروا ، مـا دامت المـدفعيـة والبنـادق السريعة الطلقات تطلق نيرانها » .

ـ « أتريدني أن أذهب الى هناك ؟ » .

ـ « يبـدو أن مانـويل يقـوم بعمل رائـع بمعونـة باركـا . . وقـد بعث اليَّ رسولاً » .

واستطاع راموس بالنظارات المكبرة أن يقرب اليه منظر الصخور وأشجار الصنوبر والزيتون ومـا خيم عليه من هـدوء . . هدوء مـليء بالجـرحى ، وكان

من المحال معرفة أي شيء ، كل ما كان يستطيعه هو أن يرهف سمعه .

قال : « إن أسوأ ما في الأمر هو أنهم هم الذين يشنون الحرب . . لا نحن . »

وكان الفاشيون يلقون قنابلهم ، ويطهرون المناطق ، ثم يبعثون رجالهم الى أرض ممهدة . أما الشعب فكان بلا زعماء ، ويكاد يكون مجرداً من السلاح ، وعلى هذا لم يكن أمامه سوى القتال . . .

ـ « لا شك في أن أولئك الرجال المساكين الذين عند اسفل الوادي يخوضون مذبحة في هذه اللحظة » .

ـ « ولكن ما داموا قد هاجموا ـ فربما أُتيحت لرجال حرس الهجوم فرصة الاستيلاء على المدفعية » .

وكان راموس يتحدث في انفعال ، واستحال فمه الشهواني الى خط نحيل ، وتلاشت ابتسامته ، وبدا شعره المتموج أشبه بالباروكة ! .

ـ « ومهما يكن من أمر فلن يمر الفاشيون ! » .

ـ « لقد توقفت مدفعية اليسار عن الاطلاق » .

وأصيب الاثنان بصداع في جبينيهما بسبب ما بذلاه من جهد في الانصات . واقتربت طائرة صفراء اللون في السماء المضيئة . كانت طائرة سياحية سريعة الى حد ما ألقت بقنبلة على بعد خمسمائة متر من القطار ، ولم يكن فيها بالطبع جهاز لإصابة الهدف أو القاء القنابل ، وكانت تلقي بقنابلها من النافذة ، وقاد السائق الذي أصدر اليه راموس أوامره ـ القطار في هدوء تحت نفق قريب ، وما أن القت الطائرة كل حمولتها من القنابل على أشجار الصنوبر حتى أنصرفت راضية ، واشتدت رائحة الصمغ المنبثقة من الغابة.

لم يكن من الممكن رؤية شيء من القطار ، وبين هزات الصلب التي

كانت تسري في عربات القطار بين كل طلقة مدفع وأخرى ، كان« بيب »وهو من أقاليم الأشتوريش ـ يشرح لزملائه المتصببين عرقاً العراة الصـدور تركيب القطار .

ـ « وهنا استخدمنا الأسمنت بدلاً من الصلب . . ومـع أن منظره مقـزز فإنه متين صلد ، وقد يبدو القطار كأنـه مصنوع من الـورق المقوى ، ولكنـه يستطيع الدفاع عن نفسه ، وكنا في بلادنا نقوم بتصفيح العربات سنة ١٩٣٤ تصفيحاً بديعـاً أيها الـرفاق . . . كـان عملاً كـاملاً حقـاً ! أما اليـوم فيبـدو أن الجميع قد أصابهم شرود الذهن : الثورة شاردة الذهن ! ومن ثم فقد نسي الأولاد أن يصفحوا القاطرة ، ولكم أن تتخيلوا القطار المصفـح الذي يقتحم بكل سرعة خطوط « ترثيو » بقـاطرة عـادية ، فـما أن قطع خمسين كيلومتراً حتى أصيب بما لا أستطيع أن أحصيه من الرصاص ، ولا أذكر ما أصيب بـه الميكانيكي ، أما نحن فقد استطعنـا أن نتسلل ليلاً عن طـريق قطار آخـر ، وقـاطرة أخـرى ـ مصفحة هـذه المرة ـ والتقـطنا الـرفاق قبـل أن تهيىء ترثيـو مدفعيتها » .

ـ « بيب ؟ » .

ـ « ماذا ؟ » .

ـ « لم تعد المدفعية تطلق نيرانها بعد ! »

وأخذ « راموس » الذي خرج من النفق ـ يحـرك نظارتـه المكبرة ليـرى ما يدور في صفوف المتمردين ، وكأنه أعمى يتحسس طريقه بيديه .

قال : « إن رجالنا يهبطون القرية » .

وكان رجال الميليشيـا ينسحبون وهم يـطلقون نيـرانهم دون جدوى ، ولم يلبثوا أن اختفوا في الخندق ، وكان على الفاشيين أن يجتازوا خلفهم ثلاثمائة

متر من الأرض العراء .

ووثب راموس الى القاطرة ، وتقدم بالقطار حتى استطاع الاشراف على المكان الخالي من الأشجار الذي يختفي مع ذلك عن مدفعية الفاشيين التي واصلت اطلاق نيرانها .

وتقدم الفاشيون ـ كأنهم آلات ـ عقب الفوضى التي أحدثها رجال الميليشيا . ودخلت مدافع القطار الرشاشة الى المعمعة .

وبدأ الفاشيون يتساقطون يميناً وشمالاً في تراخ رافعين أذرعهم في الهواء ، أو واضعين قبضاتهم على بطونهم .

وعقدت موجتهم الثانية التي كانت مترددة على حافة الأشجار الأخيرة عزمها ، وأخذت تعدو ، فسقط رجالها صرعى من اليمين الى اليسار هذه المرة ، وكان رجال المدافع الرشاشة القابعون في القطار جنوداً سيئين ، ولكنهم كانوا رماة مهرة . . ولأول مرة في ذلك النهار رأى راموس تلك الحركة الغريبة تتكرر أمامه من العدو المقتول في أثناء ركضه : « ذراعاً مرفوعة في الهواء ، وساقين مضمومتين » وكأنه يريد أن يمسك بالموت في أثناء وثوبه ! أما أولئك الذين لم يصابوا بسوء فقد حاولوا بلوغ الغابة حيث يستطيعون الافلات من مدافع القطار الرشاشة .

ومن اليمين انهالت طلقات البنادق . . كان هؤلاء رجال الميليشيا وأخذ الفاشيون ينسحبون وهم يطلقون بنادقهم عبر الغابة .

وغمغم راموس متخللاً خصلات شعره بأصابعه : « إن لهم زعماءهم وعندهم الأسلحة ، ولكنهم لن يمروا . . هذا أمر واقع: لن يمروا » .

الفصل الثالث

واستمر اختبار الطيارين .

واقترب من مانيان متطوع يرتدي صديرياً صديرياً صوفيـاً برغم شـدة الحرارة في وهج الصيف الهادىء ، وقال :

ـ « أنا الكابتن شراينر » .

وكان يشبه ثعلباً عصبياً صغيـراً ، وله أنف مـدبب ، وعينان صلبتـان ، وقد عمل نائباً لرئيس فرقة ريختهوفن سابقاً ، وتأمله مانيان من فوق شاربيه في مودة :

ـ « منذ متى لم تقد طائرة ؟ » .

ـ « منذ الحرب » .

ـ « يا للشيطان ! كم من الوقت تحتاج اليه لكي تعود الى لياقتك ؟ » .

ـ « بضع ساعات على ما أظن » .

ونظر اليه « مانيان » دون أن يقول شيئاً .

وأعاد شراينر قوله : « بضع ساعات ، على ما أظن » .

ـ « وهل كنت تعمل في الطيران ؟ » .

ـ « كلا ؛ وإنما كنت أعمل في مناجم أليس » .

ولم يكن شراينر ينظر الى « مانيان » في أثناء إجابته له ، وإنما كان ينظر الى طائرة الاختبار التي كانت محركاتها دائرة، على حين أخذت أصابع يده اليمنى ترتجف ، قال :

ـ « لقد وصل إذن متأخراً . . . ولهذا جئت الى تولوز في سيارات للنقل ».

وأغمض عينيه الضيقتين ، وأنصت للمحرك ، وجعلت أصابعه التي لم تكف قط عن الأرتعاش تشد جانبي صديريته ، وكان شغف « مانيان » بالطائرات من القوة بحيث أحس أنه مرتبط بهذا الرجل عن طريق تلك الصديرية التي أعمل فيها أنامله بحركة تشنجية . وطفق « شراينر » يتنفس الهواء المختلج بالضجة دون أن يفتح عينيه ، وحدث « مانيان » نفسه قائلاً : « لا شك أننا نتنفس على هذا النحو حين نخرج من السجن . . وهذا الرجل يمكن أن يكون قائداً (كان مانيان يبحث عن أشخاص يحلون محله) : وصوته يتميز بذلك الوضوح المشترك بين المسؤولين من الشيوعيين والعسكريين ».

وعاد المدرب الأول ـ ويدعى « سيبيرسكي » عبر المطار المرتعش بالضوء، ونادى المدرب الثاني شراينر الذي أتجه صوب طائرة الاختبار دون تسرع ، وإن تكن أصابعه متشنجة دائماً .

وأخذ الطيارون جميعاً ينظرون من مشرب المطار أو من ممراته .

كان عدد كبير قد خاضوا غمار الحرب ، بيد أن نفس « مانيان » لم تكن تخلو من القلق ، ولم يكن أولئك الذين يقفون أمامه الآن ، وهو الذي أسقط اثنتين وعشرين طائرة ، ويتابعون الطائرات لحظة بلحظة ـ يشعرون بغير شعور واحد هو شعور المنافسة المهنية .

وعلى مقربة من المشرب ، كان « اسكالي » و « مارسيلينو » و « جيو

آلفير » ـ يتبادلون النظارة المكبرة واحداً بعد الآخر ، وكان جيم آلفير الذي درس في فرنسا ـ قد عيّن مترجماً محارباً بفرقة الطيران العالمية . هذا الرجل الطويل الذي يشبه زعيماً من زعماء الهنود الحمر ، تتدلى خصلات شعره الأسود على وجهه دائماً؛ وقف الآن الى جوار رجل آخر أقصر منه شبيه بالهنود الحمر أيضاً يدعى « فيجاس » اشتهر بين أخوانه باسم القديس انطوان ، وكان هذا الأخير يوزع على رجال المطار السجائر والأسطوانات في سخاء باسم الاتحاد العام للعمال ، وبين هذين الأثنين كان كلب جيم الأسود « رابلاتي » الذي أصبح باروكة الفرقة يدس أنفه ، وقد كان والد جيم مؤرخاً للفن مثله في ذلك مثل « اسكالي » .

ومن الطرف الأقصى للمطار ، هناك حيث كا ن « كارليتش » يضع رجال المدافع الرشاشة في مواقعهم ـ صدرت جلبة متلاحقة من الرصاص وارتفعت الطائرة عن أرض المطار على نحو لا بأس به .

وقال سيبرسكي لمانيان : « سيكون الأمر صعباً مع المتطوعين . . »

وكان مانيان يعلم أنه ليس من اليسير أن يشرف المتطوعون على رجال الطيران التجاري ، وخاصة اذا كان الأولون أقل مرتبة من الناحية المهنية .

ـ « شكراً يا سيد « مانيان » على الثقة التي أوليتني إياها بأختيارك لي مرشداً . . . »

وتقدما بضع خطوات دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر ، وإنما أخذ الاثنان ينظران إلى أعلى ، حيث حلقت الطائرة .

ـ « هل تعرفني ؟ » .

ـ « أظن ذلك . . » .

وقال مانيان في نفسه في اللحظة التي كان يتكلم فيها وهو يمضغ شاربه المتدلي كشوارب الغاليين : الحق أنني لا أعرف شيئاً على الاطلاق . وكان

يشعر بتعاطف نحو سيبيرسكي على الرغم من شعره الأشقر المتموج وشاربه الصغير ، ذلك أن الحزن الذي يتمشى في صوته يدفع المرء الى الاعتقاد في ذكائه ، أو على الأقل في خبرته ، ولم يكن « مانيان » يعرف عنه حقاً إلا قيمته الفنية ، وهي قيمة لا جدال فيها .

ـ « أريد أن أخبرك يا سيد مانيان بأنهم يقولون عني هنا : انني هندي أحمر . . ! وعلى كل حال . . . ربما كان لذلك بعض النفع . . . شكراً . . . وما أريد أن تعرفه هو أنني لست رجلاً أبيض ، إنهم لا يعرفون الكثير عن الحياة . . أقصد هؤلاء الطيارين جميعاً ، حتى أولئك الذين تخطوا سن الشباب . . . ! » .

ونظر سيبيرسكي الى قدميه من فرط ارتباكه ، ثم رفع عينيه صوب الطائرة ، وجعل يتابعها بنظراته حوالي دقيقة :

ـ « وأخيراً . . ها هو ذا يطير . . هذا كل ما يمكن أن نقوله . . . » .

كان يتحدث دون سخرية ، وإن شاب صوته شيء من قلق . كان شراينر من أكبر الطيارين سناً ، ولم يكن في المطار طيار واحد لا ينتظر في قلق ما يمكن أن تصنعه ست وأربعون سنة بطيار عظيم أمضى منها عشر سنوات في مصنع . قال مانيان قلقاً : « لا بد لمعركة سييرا غداً من خمس طائرات على الأقل » .

ـ « كنت أمقت الحياة التي أحياها عند عمي في سيبيريا ، إذ كنت لا أسمعهم يتحدثون دائماً إلا عن المعارك . . ورحلت للالتحاق بالمدرسة . . وحين حضر البيض . . رحلت معهم . ثم ذهبت بعد ذلك الى باريس ، اشتغلت سائقاً في بداية الأمر ، ثم ميكانيكياً ، وطياراً من جديد . . . وأنا الآن ملازم في الجيش الفرنسي » .

ـ « أعلم ذلك . . . وأنت تريد العودة الى روسيا ، أليس كذلك ؟ »

وكان كثير من الـروس ـ البيض سابقـاً ـ الذين يخـدمون الآن في أسبـانيا يفعلون ذلك لإثبات ولائهم ، على أمل الرجوع بعد ذلك الى أوطانهم .

وابل جديد من طلقات المدفع الرشـاش يصدر عن الـطرف الأقصى من المطار عبر الضوء .

ـ « أجل . . . ولكن لا أريد الرجوع بوصفي شيوعياً ، فما أبغي الانتماء إلى أي حـزب . إنني هنا من أجـل العقـد الـذي أبـرمتـه ، ولكنني مـا كنت لأنضم الى الآخرين نظير ضعف هذا المبلغ ؛ فأنا من يمكن أن تسميه شخصاً متحـرراً (ليبرالي) . أمـا كارليتش فكـان يعشق النظام ، وكـان حينئذٍ من البيض . لدينا الآن النظام والقوة ، ومع ذلك فهـو الآن من الحمر ، أمـا أنا فـلا أعشق سـوى الـديمقـراطيـة ، كـل مـا في الأمـر ، أن روسيـا . . . هي وطني . . ».

ولم يجـرؤ مانيـان على سؤالـه : هل مـركز القيـادة والمدرسـة المانيـان أو بلشفيان ؟

ـ « اسمح لي أن أطلب منك شيئاً . . لا أريد بأية حـال أن ألقي قنابـل على أهداف داخل مدينة ، أما فيـما يتعلق بالمـطاردة فلعلني لم أعد شـاباً لمثـل هــذا العمـل . . ولكن « الاستكشــاف » أو القـاء القنــابــل عــلى جبهــة القتال . . » .

ـ « الاغارة على المدن أمر استبعدته الحكومة الاسبانية » .

ـ « لقد حدث ذات مرة أن كلفت الاغارة عـلى مركـز للقيادة ، غـير أن القنابل سقطت على مدرسة . . ».

ولم يجرؤ مانيان على سؤاله: هل مركز القيادة والمدرسة ألمانيان أو بلشفيان ؟

واتخذت طائرة شراينر وضع الهبوط .

وزمجر « مانيان » وهو يضع يديـه على ذراعي نـظارته : « هـذا أطول ممـا

ينبغي ! ».

والواقع أن « شراينر » داس على جهاز السرعة مرة أخرى . . . فتوقف « مانيان » و « سيبيرسكي » عن السير ، لا يحولان أنظارهما عن الطائرة ، كان المطار واسعاً غاية الاتساع ، ومع هذا لم يستطع شراينر أن يقوم بأول هبوط له على هذا النحو . . وقد كان « مانيان » معتاداً الاختبارات ، إذ كان رئيساً لإحدى شركات الطيران الفرنسية .

وعادت الطائرة ، وإن جاء هبوطها قبل المكان المحدد لها بمسافة قصيرة ، وشد الطيار جهاز التوقف ، فقفزت الطيارة كما تقفز صخرة فوق سطح الماء ، ثم سقطت بكل ثقلها محطمة .

وحدث مانيان نفسه قائلاً : من حسن الحظ أن طيارة الاختبار لا تستخدم في الحرب .

وجرى سيبيرسكي صوب الطائرة ، ثم عاد يتبعه شراينر والمدرب الثاني .

قال شراينر : « أرجو المعذرة » .

قالها بلهجة جعلت « مانيان لا يجرؤ على النظر الى وجهه .

ـ « قلت لك : إنني احتاج الى ساعتين ، والواقع أنه لا ساعتين ولا يومين يكفيان . . لقد اشتغلت طويلاً في المناجم . . ففقدت أفعالي المنعكسة سلامتها ».

وابتعد سيبيرسكي والمدرب الثاني .

وقال مانيان : « سنتحدث عن ذلك فيما بعد » .

ـ « لا فائدة . . شكراً . . . لم أعد استطيع أن أرى طائرة بعد ذلك . الحقني بالميليشيا . . أرجوك . . . » .

ووسط الضجة المنبعثة من طلقات المدافع الرشاشة التي أخذت تتقارب

شيئاً فشيئاً شرع رجال الميليشيا يدفعون على أرض المطار طائرة اختبار أخرى كانت ذات يوم طائرة سياحية يملكها أحد الأثرياء . . .

وانصرف شراينر ، وقد شردت عيناه في الفضاء . . . وابتعد عنه الطيارون كأنما يربأون بأنفسهم أن يروا طفلاً يتعذب كما يحدث عادة عقب الكوارث التي تعجز حيالها الكلمات الانسانية . وكانت الحرب بما فيها من عنصر رومانتيكي قد وحدت بين الطيارين التجاريين والمتطوعين ، أما الطيران فقد وحد بينهم كما توحد عاطفة الأمومة بين النساء ، وكف « لكلير » و « سيروزبيه » عن سرد الحكايات ، وكان كل من هؤلاء الطيارين يعلم أن ما شاهده سيكون مصيره يوماً ما ، ولهذا لم تكن أية نظرة تجرؤ على الالتقاء بنظرة الطيار الألماني الذي كان يتحاشاهم جميعاً .

غير أن هناك نظرة كانت مسددة على مانيان وهي نظرة الطيار الذي سيعقب شراينر في الاختبار ويدعى « مارسلينو » .

وردد مانيان مرة أخرى : « لا بد لسييرا غداً من خمس طائرات » . وأطلق المدفع الرشاش سبع رصاصات ، عشر رصاصات ، ثم توقف ، وحين رأى كارليتش - رئيس المدافع الرشاشة ، مانيان قادماً هرع اليه وحياه ، وانتحى به جانباً ، ودون أن ينطق بكلمة واحدة أخرج من جيبه ثلاث رصاصات ، وكان خزان البارود فيها يحمل آثار الزناد ، ومع ذلك فإنها لم تنطلق .

قال كارليتش وهو يشير بظفره الى الآثار : « هذه صناعة طليطلة » .

- « تخريب ؟ » .

- « كلا . . ولكنها صناعة رديئة . . واذا أطلقنا ذلك في الهواء في أثناء القتال . . . » .

كان كارليتش قد وصل الى إنجلترا خائب الرجاء ذليلاً ، قد حطمت

تجـربة الشقـاء كل مـا آمن به حتى الآن من معتقـدات ، وبعد بضعـة أعوام يائسة انضم الى حركة « العودة الى الوطن » وهي الحركة التي كـانت تتعاطف مع الاتحاد السوفييتي منتشرة بـين المهاجـرين ، إذ كان بـطلاً قديمـاً من أبطال المدافع الـرشاشـة في جيش « رانجل »(*) ولعله المتـطوع الوحيـد الذي كـان يمقت العدو لأنه عدو فحسب .

وسأل مانيان : « وماذا عن المدافع الرشاشة المنصوبة على الأرض ؟ إننـا في حاجة الى عدد منها بأسرع ما يمكن من أجل سييرا » .

وكان رجال الميليشيا لا يستطيعـون استخدام أي نـوع من أنواع المـدافع الرشاشة ، بله اصلاحه ، ذلك أن مانيان قد حول أمهر رجاله الذين يحسنون استخدام تلك المدافع الى مدربين تحت اشراف كـارليتش . وفي نفس الوقت الذي كانوايدربون فيه رجال المدافع الرشاشة الأرضيين عـلى اطلاق النـار من الجو ـ كانـوا يدربـون بعض رجال الميليشيـا المختارين عـلى استخدام المـدافع الـرشاشـة الأرضية وصيـانتها ، وكـان مانيـان يأمـل تكوين فـرقـة من راكبي الموتوسيكلات الذين يجيدون استخدام المدافع الرشاشة .

وقـال كارليتش : « إن رجـال الميليشيـا ممتازون . . وكـان اختيـارهم موفقاً . . فهم محبون للنظام ، جـادون ، متيقظون . وهـذا حسن . . حسن جد اً . . أما « فوتس » ـ أيها الرفيق مانيان ـ فليس حسناً على الاطلاق ، إنه دائـماً في الحـزب ، ولكنــه لا يعمـل أبــداً . . . « وجـارديــه » هـو وحــده الذي يساعـدني ، ورجالنـا يعرفـون الآن كيفية استخـدام مدافـع الطائـرات الرشاشة . . أما عن التجربة فلا أستطيع أن أقــول شيئاً ، إذ لا أستطيـع أن أقوم بتدريبهم في الجو ، فليس هناك غاز الأيثيل ، ولا آلات تصوير للمـدفع الـرشاش ، ولا أهـداف نسوقهم اليهـا . والذخيـرة تكاد تكـو ن معدومـة . استطيع أن أضع أهدافاً ، أما البنزين فلا أستطيع أن أصنعه ، وهم يعرفـون

(*) بيير نيقولا يفتش رانجل جنرال روسي (١٨٧٨ ـ ١٩٢٨) كان يحارب البلاشفة سنة ١٩٢٠ على رأس الجيش الأبيض . (المترجم) .

كيف يستخدمون برج الطائرة ، ولن أضع في البرج الخلفي إلا أولئك الـذين جاؤ وا من الطيران ، حتى لا يصيبوا ذيل الطائـرة . . وأعتقد انهم سيكملون تدريبهم حينما يلتقون بالعدو » .

وأطلق كارليتش ضحكة حادة . . ضحكة صبيانية الى حد ما ، وقد رفع حاجبيه وخصلة شعره في الهواء ، واختلج أنفـه مرحـاً . . لقد وجـد مدافعـه الرشاشة ، كما وجـد شرايـنر طائـرته . . واكتشف « اسكـالي » الذي حضـر خاتمة هذا الحوار أن للحرب جانبها الفسيولوجي أيضاً .

***

كان على جميع الطـارين الثوريين الذين تركوا تـدريبهم العسكري بسبب نزعتهم السلمية أن يختاروا بين أحد أمرين : إما أن يعودوا الى التدريب ، أو أن ينسحبوا من الخدمة . . ولكن لم يكن ثمة مجال للانتظار حتى العام القـادم لمواجهة فرانكو ، ولم يكن مانيان يستطيع الاعتماد إلا على الـطيارين المـدنيين القدامى وإلا على أولئك الذين أنهوا فترات تدريبهم .

وكان قد قـام لتوه بتصفيـة عدد من الـطيارين الـذين اشتركـوا في حرب مراكش ، والذين تعودوا استخدام طائرات عتيقة ، وعلى مقاتلة عدو لا دفاع له ، وكانت رؤ يتهم للجرحى الأوائل العائدين قد رفعت روحهم المعنويـة . « . . . ومهما يكن من أمر فسوف نشاغب أولئك الأشخاص الـذين لم يلحقوا بنا أي أذى . . . » ومع ذلك فإنهم لم يتخلوا تماماً عن عقودهم . . . فليعودوا الى فرنسا . . جميعاً !

وكان « دوجيه » أول متطوع طلب مقابلة مانيان على انفراد . . وكـان في الخمسين من عمره وله شارب أبيض ، أشد نصاعة من محياه .

قال : « لا تنبغي إعادتي الى فـرنسا أيهـا الرفيق مـانيان . . . صـدقني لا تنبغي إعـادتي . . . لقد كنت مـدرباً خـلال الحـرب ، ولكنني أعجـز من أن أكون طياراً . . هـذا حق . . أعطني خـرقة من قمـاش واحتفظ بي كمساعـد

ميكانيكي . . . أو كأي شيء تشاء . ولكن لا تبعدني عن الطيارات . . .لا تبعدني عنها . . ».

ووصل سمبرانو بأقصى سرعته وهو يلوح بذراعه الأيمن .

ـ « اسمع يا مانيان ، لا بد من طائرة فوراً للذهاب الى سان بنيتو . . إنهم يزحفون على بطليوس . . . . » .

ـ « طبعاً . . ولكنك تعلم أن الطيارين قد رحلوا جميعاً . . . فهل تريد طائرة بلا طيارين ؟ » .

ـ « لقد تلقيت الأوامر . . . لا بد من ثلاث طائرات وليس لديَّ سوى اثنتين من طراز دوجلاس . . . . » .

ـ « حسن . . حسن . . وهل هذا الطراز مجرد أسطوانة بمحرك ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « فليكن » .

وذهب ليتصل بالتليفون ، وانصرف سمبرانو وقد برزت شفته السفلى الى الأمام .

وقال دوجيه : « والآن . . . ايها الرفيق مانيان . . ماذا قررت بشأني ؟ » .

ـ « ايه . . فليكن . اتفقنا . تستطيع البقاء . . ماذا نسيت ؟ » .

ولكنه لم ينس شيئاً ، كل ما في الأمر أن تظاهره « بالاستغراق » قد أصبح عادة لديه . كتلك الجملة التي يرددها دائماً . . أما تصرفه فكان دقيقاً .

وما أن انصرف دوجيه حتى وفدت عليه مجموعة جديدة ، وكان أفرادها

جميعاً من الحاصلين على مؤهلات في الطيران السياحي وعلى استعداد للتدريب ، وتلت هذه المجموعة طائفة أخرى من صغار البورجوازيين المرتزقة الذين يسعون وراء الكسب أياً كان ، وهؤلاء جميعاً رفضهم « مانيان » فاستأنفوا سيرهم صوب جبال البرانس .

ودخل « جيم » وبين ساقيه « رابلاتي » . . ولم يكن مانيان ينتظره .

ـ « أيها الرفيق مانيان ، أُريد أن أقول : إنني لم أحضر هنا بوصفي مترجماً . . ولكن . . أخيراً ، أصبح الأمر على هذا النحو : لا بد أن يجتاز مارسيلينو الاختبار بالطبع . . كل ما في الأمر أنك ربما لا تعلم ـ أيها الرفيق مانيان أن مارسيلينو قضى سنتين في السجن في أثناء حكم الفاشية . . ».

وكان مانيان يصغي في مودة الى هذا العملاق ذي الجبين والذقن البارزين ، والأنف المقوس غاية التقويس الذي يرتدي عفريتة ضيقة . وكان يبدو أن الصداقة لا تستطيع أن تظهر على هذه الملامح البارزة الصلبة ، وإنما كل ما تستطيعه هو أن تبدل من نظرته فحسب .

ـ « لقد كان طياراً في الخطوط المائية ، وبعد وفاة « لاورو دي بوسيس» ذهب لالقاء منشورات على ميلانو ، ومن الواضح أنه أُجبر على النزول بطائرات بالبو ، وكان يقود طائرة سياحية . وحُكم عليه بالسجن ستة أعوام ، ولكنه تمكن من الهرب من جزائر ليباري . ومنذ محاكمته لم يتول قيادة طائرة ثقيلة ، أو طائرة مطاردة منذ رحيله عن الجيش الايطالي . . وهو انسان . . . محطم . . . وأُريد أن أقول لك أيها الرفيق مانيان ـ دون أي تدخل في قرارك ، ودون إسناد قيادة أية طائرة اليه بالطبع ـ إننا إذا أردنا أن نسدي صنيعاً فسوف يدخل ذلك السرور على رفاقه الأسبان الذين هنا » فقال مانيان :

ـ « وهذا يدخل السرور على نفسي أنا أيضاً » .

وانصرف جيم ، فدخل الكابتن مرسيري ، وكان هو أيضاً في الخمسين

من عمره تقريباً ، وله شاربَ وخطه الشيب يمتـد بطول ثغـره ، وترتسم عـلى وجهه نظرة صارمة كنظرة القرصان العجوز (كـان يتعمد أن يـزيدهـا حدة) وينتعل حذاء ذا رقبة طويلة على حلة مدنية .

ـ « المسألة مسألة تكنيك يا سيد مانيان . . . وهل تريدهـا أن تكون غـير ذلك ؟ والتكنيك يقول . . . » .

ـ « هل ستعود الى فرنسا ؟ . » .

ورفع مرسيري ذراعيه مشيراً إلى السماء .

ـ « لقد كانت زوجتي هنا ـ يا سيـد مانيـان ـ في السادس عشـر في مؤتمر هـواة طوابـع البريـد ، وكتبت لي في اليوم العشـرين قـائلة : إن الانسـان لا يستطيع أن يحتمل العار الذي يحدث هنا . امرأة تقول هذا يـا سيد مـانيان ! إمرأة ! ولكنني كنت قد رحلت فعلاً ، وأنا الآن في خدمة اسبـانيا ! لا أهميـة للوظيفة ، ولكنني في خدمة أسبانيا . ولا بد من القضاء على الفـاشية . وكـما قلت للمحافظين منا في « نوازي ليسيك » : ليست المومياءات ايها السادة هي التي حافظت على مصر ، وإنما مصر هي التي تحافظ على المومياءات ! . » .

ـ « كل هذا حسن . . أنت بـرتبة كـابتن ، فهل تـريد أن أضعـك تحت تصرف وزارة الحرب ؟ » .

ـ « أجل . . أعني . . أنني كابتن أليس كذلك ؟ ويمكن أن أكون ضابطاً احتياطياً . . غير أنني رفضت الالتحاق بالجيش بسبب معتقداتي . . » .

وكانوا قد أخبروا مانيان بأن مرسيري قد خـاض الحرب بـرتبة صـول ، وأنه كان يدعى قائد (كابتن) المطافىء . . ومن ثم فقد أخـذها مـانيان عـلى أنها دعابة .

ـ « أجل . . بكل تأكيد . » .

ـ « ولكن اسمـح لي ! إنني أعـرف مـا الخنـدق ؟ لقـد خضت غمـار

الحرب » .

وكانت السماحة واضحة وراء المبالغة . . وقال مانيان في نفسه : « وعلى كل حال فإن صولاً جاداً ينفع هنا أيضاً كأي كابتن . . » .

وجاء دور مارسيلينو . . وكان قد وصل بعفرية لا حزام لها وهو ينظر الى قدميه متحسراً . . . ثم رفع عينيه في حزن وقال :

ـ « أنت تعرف أن السجن ضار بالنسبة لردود الفعل المنعكسة . . . » .

وأسكتته عاصفة من طلقات المدافع الرشاشة ، وكان كارليتش يطلق مدافعه في الطرف الأقصى من المطار .

وأستأنف مارسيلينو حديثه : « أنا أعرف كيف أسقط القنابل جيداً . . وأعتقد أنني ما زلت صالحاً » .

وكان مانيان منذ خمسة عشر يوماً مضت في تلك الفترة ما بين ندائه للمتطوعين وتعبئته للمرتزقة ـ حين كان يحاول أن يشتري للحكومة الاسبانية كل ما يمكن أن يعثر عليه في السوق الأوروبية ـ كان قد وجد ذات يوم حين عاد الى شقته هذا الشاب المتدلي الشارب الذي يزيح قبعته الى الوراء ، ويضع على عينيه نظارات غائمة . . . وجده واقفاً بين مصراعي الباب ، وما أن دخلا الشقة حتى دقت التليفونات جميعاً ، وجعل عدد من الزوار يجهل بعضهم البعض الآخر يجوسون خلال الحجرات كلها ، وكان قد أجلس مارسيلينو على سرير طفله الصغير ، وظهره الى صوان مفتوح ، ولكنه سرعان ما نسيه . وحين عاد مرة أخرى في الساعة الثانية مساء وجده محوطاً بكل العرائس التي أخرجها الطيار الايطالي من الصوان وهو يروي لنفسه عنها حكايات .

ـ « اذا صعدت الى الجو بوصفي قاذفاً للقنابل فربما استطعت أن أؤدي مع ذلك عملاً آخر . . . وأنا على ثقة من أنني سأعود الى لياقتي

سريعاً . . . ».

وأخذ مانيان يراقب ذلك الوجه بشعره المتموج كأنه ميدالية من فينيسيا ، وينظر الى ثوبه الفضفاض .

ـ « سنقوم غداً باختبار لالقاء قنابل من الاسمنت » .

وفي هذه اللحظة وصلت طائرات سمبرانو من طراز دوجلاس ، وطائرة مانيان لنقل الجنود الى أقصى المطار .

وكانت عدة حكومات قد وافقت ـ بعد سقوط الطائرات الحربية الايطالية في الجزائر ـ على بيع طائرات حربية ـ من طرز قديمة مجردة من السلاح ، بيد أن هذه الطائرات التي تسير الآن نحو الطرف الأقصى من المطار لن تصمد طويلاً ضد طائرات « سافوا » الحديثة ، هذا إذا عقد الطيارون الايطاليون عزيمتهم .

واستدار مانيان صوب شرايز الذي حل مكان مارسيلينو . ولم يكن صمت هذا الأخير هو عناد الخجل الذي يتصف به الشاب الايطالي ، كما لم يكن نتيجة لاضطراب دوجيه ، وإنما كان صمتاً أشبه بصمت الحيوان .

ـ « لقد ترويت في الأمر ، أيها الرفيق مانيان . . وأقول لك : إنني لم أعد أطيق رؤية الطائرات . . لم أعد أطيق رؤيتها . . ولكنني هداف ماهر . . وهذه خبرة لم أفقدها . بسبب أعياد القرية ، ولأنني أملك مسدساً . . ».

كان وجهه جامداً ، أما صوته المتقطع فلم يكن يخلو من الكراهية . ثبت عينيه الضيقتين على مانيان ، وغاص رأسه بين كتفيه كما يفعل النسر . ونظر « مانيان » الى سيارة من سيارات الفوضويين تمر أمام حظائر الطائرات وكانت هذه أول مرة يشاهد فيها العلم الأسود .

ـ « الطائرات لم تعد تريدني . فليكن ، ولكن أدخلني في الدفاع ضد

الطائرات » .

وانطلقت المدافع الرشاشة ثلاث مرات أو أربع مرات وقال شراينر : « أرجوك ! » .

* * *

هل هناك أسلوب للثورات ؟ ففي المساء كل رجال الميليشيا الذين يشبهون رجال الثورات المكسيكية ورجال كوميون باريس في وقت واحد - كانوا يمرون وراء أبنية « ليكوربيسييه » المقامة على أرض المطار . وكانت الطيارات كلها مربوطة . . أما مانيان وسمبرانو وصديقه « ڤالادو » فكانوا يحتسون الجعة الفاترة ، فلم يكن ثمة ثلج في المطار منذ أن نشبت الحرب .

قال سمبرانو : « الأمور لا تسير على ما يرام في المطار الحربي . . . وجيش الثورة يحتاج الى تنظيم من البداية الى النهاية . . وإلا فسيملأ فرانكو المقابر بضحايا النظام ، ماذا تعتقد أنهم صنعوا في روسيا ؟ » .

وكانت شفته النحيلة السفلى التي تبرز من صورته الجانبية على ضوء المشرب تزيده شبهاً بفولتير ، ولكنه يتسم بالطيبة ، ويرتدي عفريتة طيار بيضاء .

- « انهم يملكون بنادق ، بالاضافة الى أربع سنوات من النظام والقتال في الجبهة ، و « كان » الشيوعيون هم أيضاً يخضعون للنظام » .

وتساءل ڤالادو : « لماذا أنت ثوري يا مانيان ؟ » .

- « أوه ! لقد توليت ادارة عدة مصانع ، والشخص الذي يهتم - مثلنا - بعمله ، ربما لا يدرك معنى أن تمضي حياة بأكملها في عمل يستغرق ثماني ساعات يومياً . . أريد أن يعرف الناس : لماذا يعملون ؟ » .

وكان سمبرانو يعتقد أن رجال الأعمال في اسبانيا عاجزون في مجموعهم

عن إدارة مصانعهم ؛ ومن ثم سيطر عليها الفنيون ، ولما كان سمبرانو فنياً متخصصاً ، فإنه يؤثر أن يعمل من أجل المجموع لا من أجل صاحب المصنع (وهذا ما كان يعتقده أيضاً جيم آلفير ، وكل الفنيين الذين ينتمون الى اليسار) .

أما ڤالادو فكان يريد إحياء اسبانيا ، ولا ينتظر شيئاً من الجناح اليميني الأسباني . وڤالادو بورجوازي كبير ، وكان هو الذي ألقى المنشورات على ثكنات «الجبل » ووجهه شبيه بوجه « سنيوريتا » ما عدا شاربيه الصغيرين اللذين أزالهما منذ قيام الثورة .

وكان « مانيان » يتعجب من التبريرات التي يقدمها عقل الناس لما يعتمل في قلوبهم من عواطف .

قال : « ثم ماذا ؟ لقد كنت يسارياً لأنني يساري . . ولم تلبث أن أنعقدت بيني وبين اليسار كل صنوف الأواصر وضروب الولاء ، وأدركت ما يريدون ، وعاونتهم على بلوغه ، وكنت أقترب منهم باطراد كلما حاولوا منعهم . . . » .

قال سمبرانو : « حين يكون المرء متزوجاً من سياسة فحسب فليس للأمر أية أهمية . . ولكن حين ينجب منها أطفالاً . . . » .

- « وبالمناسبة ، ماذا كنت ، هل كنت شيوعياً ؟ » .

- « كلا . . وإنما أنا اشتراكي من الجناح اليميني . . وأنت ، هل كنت شيوعياً ؟ » فأجاب مانيان وهو يجذب شاربه جذبات صغيرة : « كلا . . وإنما أنا إشتراكي أيضاً ، وإن كنت من اليسار الثوري » .

وقال سمبرانو بابتسامة حزينة تتناسب مع الليل الذي شرع في ارخاء سدوله : « أما أنا . . فقد كنت على الأخص من أنصار السلام . . . » .

قال ڤالادو : « الأفكار تتغير . . . » .

ـ « ولكن الناس الذين أُدافع عنهم لم يتغيروا . . وهذا هو المهم . »

وأخذ البعوض يحوم حولهم . . وما برحوا يتجاذبون اطراف الحديث ، وكان الليل قد استقر فوق المطار جليلاً ، كما يكون دائماً فوق المساحات المترامية الأطراف . . . حاراً كليالي الصيف جميعاً .

الفصل الرابع
أغسطس / آب

هبط عشرون من رجال الميليشيا من أقليم الشارات لتناول الغداء . . ولم يكن بينهم ضباط ، وكان من الواضح أن المسؤولين ـ لأنهم لا يعتمدون كثيراً على حراسة المراكز القائمة عند ممرات الجبال في أثناء وجبة الغداء ـ قد قاموا هم أنفسهم بهذا العمل . وقال مانويل في نفسه : من حسن الحظ أن الأمور تجري على هذا النحو في معسكر الأعداء ! .

وكان خمسة من رجال الميليشيا الذين وصلوا يضعون على رؤوسهم قبعات نسائية من طراز سنة ١٩٣٥ أشبه بأطباق فستقية اللون أو زرقاء فاتحة ، وقد نمت لحاهم نمواً عمره ثلاثة أيام ، ورشقوا في تلك القبعات زهور النسرين الأخيرة التي اقتطفوها من إقليم سييرا الشارات .

قال مانويل وهو يحاكي لهجة راموس الآمرة : « من الآن فصاعداً ـ سيكون الرفاق المندوبون عن منظمات العمال والفلاحين هم وحدهم المكلفين بتقديم الموضات . وستكون أعمار معينة هي المفضلة مع بطاقات ضمان من نقابتين على الأقل . . فلتضعوا ذلك في أذهانكم جيداً » .

ـ « لقد كانت الشمس في أعيننا حين هاجمناهم . . فلم نكن نراهم . . وكان هناك محل للقبعات . . مغلق بالطبع ، ولكننا أستطعنا تدبير الأمر ، وأحتفظنا بعد ذلك بالقبعات » .

وكانت القرية التي اتخذوها ذلك اليوم قاعدة لهم وللقطار المصفح قائمة على بعد ستمائة متر ، وهي تتألف من ميدان تطل عليه شرفة خشبية كأنه فناء داخلي في مزرعة ، ومن برج له قمة مدببة كمبنى الأسكوريال ، ومن بعض الحوانيت المطلية باللون البرتقالي أو القرمزي ومنها حانوت تزينه مرآة ضخمة .

وأستأنف رجل الميليشيا كاملا قائلاً : « إنها تناسبنا الى حد ما . . . ولكننا سنلقيها على كل حال ! » .

وجلسوا الى موائد الحانة ، وقد وضعوا بنادقهم متقاطعة مع ظهورهم ، وقبعاتهم النسائية فوق رؤوسهم ، وخلفهم على سفوح الجبال التي تمتد ثلاثين كيلومتراً ـ كانت زهور الجلجل التي تغطي صخور سييرا قبل موعدها بشهرين قد تحولت فوق حقول القمح الصفراء إلى اللون البني . واقتربت ضجة سيارة تسير بأقصى سرعتها ، وفجأة ظهرت من الرواق سيارة من طراز فورد عسكرية اللون ، وأرتفعت منها ثلاث أذرع تلوح بالتحية الفاشية ، وتحت الأذرع المرفوعة كانت القبعات النابليونية ذات الطرفين المدببين ، والخطوط الصفراء فوق الحلة العسكرية الخضراء ، إنهم من رجال الحرس المدني ، ولم يكن قد لمحوا رجال الميليشيا الذين يتناولون طعامهم على يمين الباب ، وخيل اليهم أنهم قد وصلوا الى قرية فاشية ، ونهض الفلاحون المسلحون الذين يجلسون الى المائدة الثانية في تؤدة .

وصاح رجال الحرس وهم يوقفون السيارة بغتة : « أيها الأصدقاء نحن معكم ! » .

وأستعد الفلاحون لاطلاق بنادقهم ، وكان بعض رجال الميليشيا قد أطلقوا النار فعلاً . والواقع ان كثيراً من رجال الحرس الوطني كانوا يخرجون من صفوف الأعداء ، ولكنهم لم يكونوا يحيون بالتحية الفاشية ، وانطلقت ثلاثون رصاصة على أقل تقدير . ومن خلال هذه الضجة استطاع مانويل أن

يميز صوت انفجار اطارات السيارة ، وكان أقل حدة من صوت اطلاق النار ، وكان معظم الفلاحين قد سددوا بنادقهم على السيارة ، ومع ذلك فقد أصيب أحد رجال الحرس ، وملأت الريح الميدان برائحة الزهورالمحترقة .

وجرد مانويل رجال الحرس من أسلحتهم ، وقام بتفتيشهم بعناية ثم ساقهم الى قاعة العمدة تحت حراسة رجال الميليشيا (فقد كان الفلاحون يمقتون رجال الحرس المدني) ، واتصل تليفونياً بالمركز العام للكولونيل مانجادا .

وسأله الضابط القائم بالخدمة : « هل هناك خطر أو المسألة عاجلة ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « إذن لا داعي لعقد « محكمة عاجلة » . سنرسل ضابطاً للمحكمة العسكرية وسيصدر عليهم الحكم في خلال ساعة » .

ـ « بكل تأكيد . . . شيء آخر ـ إن وصولهم يدل على أنه من الممكن الوصول من أحد المراكز الفاشية حتى مكاننا هذا ؛ ولهذا وضعت مجموعة للحراسة على مدخل القرية ومجموعة أخرى على الطريق ـ وهذا لا يكفي . . . » .

وانعقد المجلس العسكري في دار العمدة . وفي تلك القاعة ذات الجدران البيضاء وقف الفلاحون خلف المتهمين ـ بقمصانهم الرمادية والسوداء ، كما وقف رجال الميليشيا . . الجميع يقفون صامتين ، وفي الصف الأول وقفت النسوة اللواتي قتل الفاشيون أزواجهن ، وبدا على الرجال وقار المحاربين المسلمين .

وتكلم اثنان من رجال الحرس المدني ، فأعترفا بأنهما قد حييا بالتحية الرومانية ، هذا حق ، ولكنهما كانا يعتقدان أن هذه القرية فاشية فأرادا أن يجتازاها لكي ينضما الى صفوف الجمهوريين . وهذه الكذبة ـ ككل كذبة

واضحة ـ كان الاستماع اليها من العسر بقدر ما كان النطق بها ، وكـان يبدو عـلى رجال الحرس الثـلاثة أنهم يتخبـطون في أكـاذيبهم ويلهثـون تحت ثيـابهم الصلبة كأنهم يختنقون بها . واقترت فلاحة من هيئة المحكمة ، كان الفاشيون قد احتلوا قريتها ـ وهي قرية قريبة ، ثم أستعادهـا الجمهوريـون ، وقالت : إنها شاهدت رجال الحرس حين وصلوا في سيارتهم :

ـ « حـين طلبوا مني الحضـور من أجل ولـدي . . أنا ، حـين طلبوا مني الحضور ، اعتقدت أن ذلك لدفن ولدي . . . ولكنهم استدعوني لسؤالي . . هؤلاء الأوغاد . . . » .

وتراجعت خطوة ، وكأنما تريد أن تحسن النظر :

ـ « وكان هناك . . ذلـك الرجـل . . . كان هنـاك ـ لو أنهم قتلوا ابنـه ـ فماذا كان يقول ؟ ماذا كان يقول ؟ ماذا كنت تقول أيها التعس ؟ » .

وحاول الرجل الجريـح أن يدافـع عن نفسه وقـد أخذ لهـاثه يشتـد شيئاً فشيئاً ، وشرع يأتي بحركات تشنجية كأنه سمكـة أخرجت من المـاء ، وخطر لمانويل أنه ربما كان بريئاً ، فالإبن قـد أعدم قبـل استجواب الأم ؛ فهي تـرى فيهم جميعاً قتلة ابنها . وتحـدث رجل الحـرس عن ولائه للجمهـورية ، وبـدأ العرق يتفصد قليلاً قليلاً على وجنتي جاره الحليقتين ، وسالت القـطرات على جانبي شاربـه المدهـون بالشمـع ، وبدت تلك الحيـاة التي تتحدث في ذلـك السكون كأنها حياة الخوف وقد تجسدت في كيان مستقل .

قال رئيس المجلس : « لقد أتيتم للانضمام الينا ، فهل لديكم معلومات تدلون بها الينا ؟ »

والتفت صوب الرجل الثالث الذي لم ينبس بكلمة . . فنظر اليه باصرار مؤكداً بذلك أنه لا يتحدث الى أحد سواه :

ـ « استمـع . . أنت ضـابط ، وإن كنت قـد أنضممت إلي هؤلاء

الناس . وقد استمعت الى ما يكفي من هذين الرجلين . وبطاقتي رقم ١٧ عند الفلانجيين في شقوبية . من واجبك أن تأمر بإعدامي رمياً بالرصاص . . فليكن . . وأعتقد أن ذلك سيتم اليوم ، ولكن قبل أن أموت أريد أن أشفي غليلي برؤية اعدام هذين النذلين امامي. إن بطاقتيهما رقم ٦ و١١ . إنهما يبعثان التقزز إلى نفسي . والآن أتحدث اليك حديث جندي الى جندي : أما أن تأمر بإسكاتهما ، أو تأمر بإخراجي » .

قالت العجوز : « يا لهذا الرجل من شخص متكبر . . بالنسبة لقاتل أطفال ! . . » .

وصاح الحرس المدني الجريح في وجه الرئيس : « إنني معكم ! » .

وتفرس الرئيس في الضابط الذي انتهى لتوه من الكلام : كان انفه مفلطحاً وفمه مكتنزاً ، وشاربه قصيراً ، وشعره مموجاً ، وله رأس أبطال الأفلام المكسيكية ، وخيل للرئيس في لحظة من اللحظات أنه سيصفع ذلك الحارس الجريح ، ولكنه لم يفعل شيئاً فلم تكن يداه كأيدي رجال الشرطة . أترى قد بث الفاشيون جواسيسهم بين رجال الحرس المدني ، كما فعلوا في ثكنات الجبل ؟ » .

ـ « متى التحقت بالحرس المدني ؟ » .

ولم يجب الرجل ، غير عابىء بالمجلس العسكري .

وصاح الجريح من جديد بلهجة مقنعة لأول مرة : « إنني معكم ! أقول لكم إنني معكم ! » .

* * *

لم يصل مانويل الى الميدان إلا بعد أن سمع طلقات الرصاص ، وكان الرجال الثلاثة قد أعدموا في شارع مجاور ، وسقطت أجسادهم على بطونها ، وأستقرت رؤوسهم في الشمس ، وأقدامهم في الظل ؛ وكان قط صغير يعلو

الزبد فمه يغمس شواربه في بركة الدماء التي أحاطت بالرجل ذي الأنف المفلطح . واقترب صبي أبعد القط ، وغمس سبابته في الدماء ، وشرع يكتب على الحائط . وأخذ مانويل يتابع هذه الأصبع ، وكأن يداً تضغط على مخنقة : « الموت للفاشية » ، وشمر الفلاح الصغير أكمامه ، وذهب ليغسل يديه من ماء النافورة .

ونظر مانويل الى الجسد المسجى ، والى القبعة الملقاة على بعد خطوات والى الفلاح المنحني على الماء ، والى الكتابة التي ما زالت حمراء وقال لنفسه : « ينبغي أن تصنع اسبانيا الجديدة ضد هذا وضد ذاك وليس أحدهما بأيسر من الآخر » .

وألقت الشمس بكل لهيبها على الجدران الصفراء .

الفصل الخامس

سار راموس ومانويل على الرصيف ، وكان المساء شبيهاً بالأمسيات الأخرى التي تخلو من قصف المدافع ، وكانت جبال سييرا تنحدر بسفوحها المزخرفة حتى تبلغ وادي مدريد الذي هبط عليه الليل كما يهبط على البحر ، ووراءها خلفية من الشفق كأنها مرسومة في لوحة من لوحات الفرسان القديمة . وفي الجو شاعت رائحة أشجار الصنوبر وأعشاب الصخور ، كان الشيء الشاذ الوحيد في هذا المنظر هو القطار المصفح القابع في النفق كأنما نسيته حرب غربت مع الشمس الغاربة .

قال راموس : « لقد قضيت نصف ساعة أتشاتم فيها مع الرفاق ، فهناك أكثر من عشرة يريدون أن يتناولوا عشاءهم في منازلهم ، وثلاثة يريدون تناوله في مدريد ! » .

ـ « إنه موسم الصيد الآن . . وهم يخلطون بين الأمور ، ولكن ما نتيجة مفاوضاتك بعد كل تلك الشتائم ؟ » .

ـ « رحل سبعة ، ومكث خمسة . . ولو أنهم كانوا شيوعيين لمكثوا جميعاً » .

وانطلقت بضع رصاصات متفرقة ، وزأر مدفع بعيد ، جعل السلام السائد على الجبال يبدو أكثر عمقاً ، وأشارت الدلائل جميعاً الى أن الليل سيكون جميلاً .

« لماذا أصبحت شيوعيا ، أي راموس ؟ » .

وأمعن راموس في الفكر ثم قال : « لأنني صرت عجوزاً » . . .

« اثنان وأربعون عاماً ليست معناها أنني عجوز جداً . . ولكن ، عندما كنت فوضوياً كان حبي للناس أكبر ، والفوضوية عندي هي النقابة ، ولكنها على الأخص علاقة الانسان بالإنسان . والتكوين السياسي لعامل ما ، لا يصبح شخصياً إلا في وقت متأخر ، أما في البداية فالمسألة مسألة مؤثرات » .

« أخبرني إذن يا مانويل ، اشرح لي إذا كنت تفهم في هذا الأمر شيئاً . . هناك في مواجهتنا الجيش الأسباني . . فلنفترض أنهم الضباط على وجه أخص . وفي جزر الفيليبين حاقت بهم الهزيمة . . وفي كوبا أيضاً . . فهل هذا بسبب الاميركان ؟ فليكن لك ما تشاء : بسبب الانتاج الضخم على أحدث طراز . وفي مراكش ـ هُزموا أيضاً . . . وفي المرة كان السبب هو الأمير عبد الكريم ، لا الأميركان . . لماذا يفر سادتنا الصغار ذوو الشوارب اللامعة أمام عبد الكريم ؟ ولماذا لا يواجهونه الآن ؟ لقد قالوا دائماً انه « جيش هزلي » ، فلماذا لاذوا بالفرار في مليلة ، ولم يفروا هنا » .

وكانت العلاقة بين مانويل وراموس قد بدأت في التحول ، كانت حتى الآن علاقة نقابي ذي خبرة في الثلاثين من عمره ، جاء برغم دعاباته يجتهد في معرفة العالم الذي وضع فيه أمله دون أن يخلط بين واقعه وأحلامه ، ولكنه يفتقر الى الخبرة السياسية . وهذه الخبرة بدأ في اكتسابها . وكان راموس يعلم أن معلومات مانويل أوسع كثيراً من معلوماته .

وكما كان مانويل يحرك مسطرة في مبنى السنترال ، فقد كان يحرك هذا المساء فرعاً من شجرة صنوبر ما زالت الأشواك في طرفه وكأنه يحرك منفضة ، فما كان يستطيع الشعور بأن يده اليمنى خالية :

ـ « لا وجود لجيش هزلي يا عزيزي راموس ، وإنما هناك هزليات تحاك

عن الجيش . وما نسميه جيشاً هزلياً إنما هو في الواقع جيش يقوم بحرب أهلية ، وجيشنا ـ الذي هو في نهاية الأمر الجيش الأسباني ـ فيه ضابط لكل عشرة جنود ، فهل تعتقد أيها الساذج أن ميزانيته مكرسة للحرب ؟ إطلاقاً . . وإنما هي مكرسة لمرتبات الضباط ، وهم جميعاً من الملاك ، أو في خدمة الملاك ، كما أنها مكرسة لشراء الأسلحة الأوتوماتيكية ، وهي غير كافية للحرب ، ولكنها كافية كل الكفاية للبوليس : ولأضرب على ذلك مثلاً بمدافعنا الرشاشة طراز سنة ١٩١٣ ، وبطائراتنا التي مضى عليها الآن أكثر من عشر سنوات : طائرات لا وزن لها بالنسبة لأمة من الأمم ، ولكنها حاسمة ضد الثورات ، من المستحيل الدخول في حرب أجنبية بمثل هذه الأسلحة أو حتى في حرب استعمارية ومن منا سمع عن الجيش الأسباني إلا بمناسبة الحديث عن الهزائم أو الاختلاسات ، أو إخماد الحركات الشعبية ، ولكنه ليس جيشاً هزلياً ، وإنما هو تزوير سيىء لجيش الرايخ » .

وارتفعت من الوديان طلقات مدافع بعيدة ، وكانوا يحملون بعض رجال الميليشيا الجرحى على أغطية يمسكون بها من أطرافها الأربعة .

وقال مانويل ناظراً الى قمم الجبال التى احتمى وراءها الفاشيون في شقوبية : « الشعب ينقذ مدريد كل يوم » .

ـ « أجل ، ثم يذهب للنوم بعد ذلك » .

ـ « ولكنه يبدأ من جديد في اليوم التالي » .

ـ « أنت الآن في سبيلك الى تكوين نفسك يا مانويل . . . وهذا أفضل . . . لقد قدت رجالك قيادة حسنة ضد المدفعية . . » .

ـ « لعل شيئاً قد تحول في نفسي ، وسيظل كذلك الى آخر أيام عمري ، غير أن هذا لم يأت من هجوم المدفعية أول أمس ، لقد ولد في نفسي اليوم حين رأيت ذلك الصبي يكتب على الحائط بدم الفاشي المقتول ، فلم أكن أشعر بالمسؤولية سواء حين كنت أصدر الأوامر في غابة الزيتون ، أو حين

كنت أقود عربة النقل ، أو حتى حين كنت أقود سيارة الانزلاق في تلك الأيام الخوالي » . .

فردد راموس : « في تلك الأيام الخوالي ! » .

ولم يكن قد مضى على تلك الأيام أكثر من شهر .

ـ « ليس الماضي مسألة زمن فحسب . . . ولكنني أحسست أمام الصبي الذي يكتب على الجدار هناك . . . أحسست أننا مسؤولون . هذه بكارة القيادة يا عزيزي راموس . . » .

وهنا بعيداً في أرض الحكومة كانت ألسنة من النار لا دخان لها ترتفع من كوخ راعٍ أو فلاح .

وأخذت أشرعة الضباب الهائلة في ذلك الليل المتصاعد تتلاقى حول تلك النيران . وأختفت الأرض ، وأصبحت النيران هي وحدها البقعة الظاهرة في تلك السفوح ، وبدأ السلام الذي طرد من قنن الجبال وأُلقي على الأرض كالقطار المصفح القابع تحت النفق ـ بدا كأنه ينبثق من خلال هذه النار المرحة ، وتصاعدت نار أخرى ، أبعد كثيراً ، في أقصى اليمين .

وتساءل مانويل : « من الذي يهتم بالجرحى ؟ » .

ـ « رئيس أطباء المصحة . . وهو رجل صبور الى أقصى حد » .

ـ « هل هو من اليسار الجمهوري ؟ » .

ـ « إنه اشتراكي من الجناح اليميني على ما أظن . . . وفتيات الميليشيا يقدمن معونة قيمة أيضاً » .

وقص مانويل عليه وصول الفتاة وراء عربات النقل ، وابتسم راموس وهو يضع يديه في خصلات شعره المتموج .

ـ « ما انطباعك يا مانويل عن فتيات الميليشيا ؟ » .

ـ « من حيث القتـال الفعلي : صفـر ، وكل مـا يفلحن فيه هـو اضعاف اعصاب الرجال ، أما في القتال السلبي فهن صالحات جداً . إن شجـاعتهن تـأتي على نـوبات ، وهـذا ما يحـدث كثيـراً بـالنسبـة للرجـال أيضـاً ، وهـذه الشجاعة تكون عظيمة أحياناً » .

ـ « اليك . ثمة شيء يعجبني : في كل قرية استولى عليها فرانكـو أصبح الجميع أكثر عبودية ، ولا أقصد رجالنـا وحدهم ؛ فهـذا لا يحتاج الى فضـل بيـان ، بـل الأطفـال الـذين يـرسلونهم الى القسيس كـما نـرسـل النسـوة الى المـطبخ ؛ ولهـذا فإن جميـع المضطهـدين بأيـة طـريقـة ـ ينضمـون للقتـال في صفوفنا . . . » .

واكتسبت النيران قوة غريبة صاعدة هابطة في ايقاع منتظم ، وكأنها تحرق أجساد الموتى الـذين سقطوا في أثنـاء النهار ، وتنشـر على حمـاقة النـاس رداء الليل الصاعد .

وأحس رامـوس أن ابتسامتـه تتلاشى ، ولاحظ النـار الأخرى ، فتنـاول نظارته المكبرة .

هذه ليست نيران الرعاة، إنها إشارات .

أتراه بدأ يعتقد كرجال الميليشيا أنه يرى اشارات في كل مكان ؟

بيد أن هذه الأشـارات الناريـة مألوفة لديه ، وفضـلا عن ذلك فإنهؤلاء الأنـذال (وأخذ يحصي الأشـارات) يستخدمـون طريقـة مورس ، ولكن في لغة غير واضحة .

وكـانت النار الأخـرى عبارة عن إشـارات أيضاً ، هؤلاء الفـاشيون قـد تهيئوا لعملهم جيداً . كم من نيـران مماثلة تـرتفع الآن في هـذه السـاعـة وراء صفوف الجمهوريين ؟ وعلى هـذه السفوح جميعـاً ، والى أبعد مـدى يمكن أن تصل اليه عينا راموس . كان رجال الميليشيـا راقدين أو نـائمين وقـد سكتت

صيحاتهم ، ودخل موق النهار الجائمون بكـل ثقلهم على أسفلت الـطريق أو بين أحراج السفوح ومن يلتصقون بـالأرض ـ دخلوا في ليلهم الأول بوصفهم أمـواتاً . وفي ذلـك الهدوء الشفـاف المخيم على سييـرا ، كانت لغـة الخيـانـة الصامتة هي وحدها التي تملأ الظلمة المتصاعدة .

الفصل الأول

أدرك « مانويل » أن الحرب معناها أن يفعل المرء المستحيل لكي يدخل قطعاً من الحديد في اللحم الحي .

وكانت صرخات رجل أو امرأة (في الدرجة القصوى من الألم لا يمكن التمييز بين الجنسين) تشق لاهثة قاعة مستشفى سان كارلوس ، ثم لا تلبث أن تتلاشى .

وكانت القاعة مرتفعة جداً ، مضاءة من أعلى بفتحات صغيرة مستديرة تكاد تسدها تماماً نباتات ذات أوراق عريضة ينفذ منها ضوء الصيف الساطع . وكان ذلك النهار الأخضر وتلك الجدران الهائلة التي لا تتخللها أية ثغرات اللهم إلاحين يرفع المرء رأسه الى أعلى ، وأولئك الأشخاص الذين يرتدون المنامات ، والذين ينسابون على عكازاتهم بأجسادهم المعقودة في ذلك الهدوء القلق الذي يسود المستشفى ، وتلك الظلال التي تغطيها الضمادات كأنها ثياب في حفلة تنكرية ـ كان هذا كله يبدو وكأنه مملكة الجرحى الأبدية وقد استقرت ها هنا خارج الزمان والعالم .

وكان يتصل بهذه القاعة الشبيهة بحوض اللأسماك حجرة المصابين بجراح خطيرة ، ومنها كانت تنبعث الصرخات ، وكان سقفها على ارتفاع عادي ، وتضم خمسة من الأسرة ، ونوافذ حقيقية . ولم تقع عينا مانويل حين دخلها إلا على ناموسيات من الموسلين مسدلة على هيئة مكعبات ، وعلى ممرضة

جالسة الى جانب الباب ، وبدت الحجرة خالية وسط ذلك النهار الساطع . . . حجرة مستشفى مضيئة تختلف كل الاختلاف عن كهف التفتيش الذي تنساب فيه أشباح ملفوفة في ضمادات ، بيد أن الأصوات المنبعثة من تلك الحجرة كانت كافية لرده إلى حياته الواقعية .

وكانت تلك التأوهات تصدر بلا انقطاع عن سرير وسط الحجرة . . . تأوهات تعبر عن ألم أقوى من كل تعبير إنساني ، حين لا يعود الصوت سوى صرخة عامة تعبر عن العذاب . . . صرخة مشتركة بين الانسان والحيوان : انها مجرد أنات تتبع إيقاع التنفس ، ويخيل إلى من يسمعها أنها ستتوقف عن التنفس . وحين تتوقف ـ في الواقع ـ فإن صرير الأسنان بصورته الوحشية المريعة الشبيهة بصرخات النساء في اثناء الوضع ـ يحل محل تلك الأنات ، وأحس مانويل أن الصرخات سوف تتصل مع التنفس العائد .

وسأل الممرضة هامساً : « ماذا به ؟ » .

ـ « حادثة طيران . . لقد هبط مع قنابله ، فأنفجرت حين سقوطها . وفي جسده خمس رصاصات من مدفع رشاش ، وسبع وعشرون شظية . ! » .

وتحرك ستار الكلة تدفعه يد من الداخل وكأن الجريح قد جلس على فراشه .

قالت الممرضة : « هذه أمه . . وهو في الثانية والعشرين من عمره » .

قال مانويل في مرارة : « لقد تعودت مثل هذه المواقف » .

ـ « ليس لدينا ما يكفي من الممرضات . . أما أنا فطبيبة جراحة » .

وعادت الصرخات مرة أخرى ، وكانت هذه المرة أشد ارتفاعاً ، وكأن الجريح يريد أن يفقد رشده بأن يضاعف من ألمه ، ثم انقطعت الصرخات فجأة ، ولم يعد مانويل يسمع صرير الأسنان ، ولكنه لم يجرؤ على التقدم .

ماذا جعله يشعر بأن الجريح يتشبث بأصابعه في الملاءة ؟ وبدأت ضجة جديدة ، ولكنها خافته في بداية الأمر الى درجة جعلت مانويل يتساءل : ماذا يمكن أن تكون ؟ حتى اتضحت تماماً . . انها صوت شفاه ، ماذا تجدي الكلمات في مواجهة جسد ممزق ؟ فالآن حين بلغ الصبي بألمه الى حد الصمت أقدمت أمه على الشيء الوحيد الذي يمكن أن تفعله وهو أن تعانقه .

وأنصت مانويل الى صوت القبلات الذي أخذ يزداد سرعة ، وكأنما أرادت الأم حين أحست بالألم معلقاً وعلى استعداد للعودة أن توقفه بقوة الحنان ، وأمسكت يد بالكلة وجعلت تمزقها في قبضتها ، وأحس مانويل بذلك العذاب المعلق في الهواء الخالي كأنه يحدث في ذراعه نفسها ، وأنفتحت اليد ثانية واتصلت الصرخات من جديد .

وسأل مانويل : « منذ متى ؟ » .

ـ « منذ أول أمس . »

وأخيراً نظر الى الممرضة : كانت صغيرة غضة السن ، ولم تكن تضع غطاء رأس الممرضات ، فبدا شعرها أسود لامعاً .

وترددت ، ثم قالت أخيراً : « ونحن أيضاً . . قد نألف صرخات الجرحى ، ولكننا لا نألف صرخات أهليهم . . . وهؤلاء إذا لم نبعدهم لم يعد في الامكان اجراء العمليات » .

وسأل مانويل في الفترة التي تمتد ما بين صرختين : « ألا يزال باركا هنا ؟ » وكان يبدو أن تلك الصرخات قد استقرت في القاعة الى الأبد .

ـ « نعم ، انه في الحجرة المجاورة » .

وأحس مانويل أن عبئاً أزيح عن صدره ، وكان مرهف الحس بآلام الآخرين ، ولكنه كان عاجزاً في الوقت نفسه عن التعبير عن تعاطفه ، ولهذا

أحس بارتباكه ، وضيقه بهذا الارتباك .

وكانت الحجرة التي بها « باركا » متصلة بتلك الحجرة التي غادرها مانويل وبحوض الأسماك في وقت واحد . وفتح مانويل الباب ، وتردد لحظة وكأنما كان إغلاقه للباب إغلاقاً لغطاء التابوت على الجريح ، وأخيراً تركه نصف مفتوح .

وكان « باركا » جالساً على سريره . . . كلا . . . انه لم يكن يريد أكثر مما هو فيه ، فلديه عدة برتقالات ، وبعض المجلات المصورة ، والصداقة ، وكان أشنع ما في الأمر أنهم لم يكونوا يريدون حقنه بالمورفين ، فاذا كانوا يخشون أن يصبح مدمناً للأفيون في مثل سنه فأحري بهم أن يتركوه في سلام ، ولما كانوا قد وضعوا الثقل على طرف ساقه التي أُصيبت في موضعين منها بكسور فإنه لم يكن يستطيع النوم ، ولو أنهم تمكنوا من تنويمه لأضحى كل شيء على ما يرام .

ـ « هل تستطيع أن تنام مع كل . . . » .

وكان مانويل يشير الى صرخات الجريح التي كانت تبلغ أسماعهم عن طريق الباب نصف المفتوح .

ـ « ما كان ينبغي أن أكون معه في نفس القاعة . . وليس لهذا تفسير . وربما استطعت في حجرة أخرى . . . ولكن ينبغي أن يضعوا المرضى الهادئين معاً ، أغلق الباب . . . ففي تلك الحجرة الأخرى . . لا يصرخ أحد . . . » .

وسأل مانويل : « ماذا كان يعمل ؟ » وكأنه بالحديث من جديد عن الجريح يفتح الباب الذي أُغلق عليه مرة أخرى .

ـ « كان ميكانيكياً . . وانضم الى الميليشيا ، ثم الى الطيران قاذفاً للقنابل . . » .

ـ « ولماذا انضم الى صفوفنا ؟ » .

ـ « أكنت تريده أن يظل ميكانيكياً مع الفاشيين ؟ » .

ـ « كان يمكن ألا ينضم الى أحد » .

ـ « أوه ! أما هذا . . . » .

وعقد باركا حاجبيه ورفع رأسه : لقد استولى عليه الألم من جديد ، واسند رأسه الى الوسادة ، واكتسى وجهه العجوز بتعبير الألم الملح ـ فبدت عيناه أشد تجويفاً ، وملامحه مهيأة دائماً للتحول ـ ذلك التعبير الذي تتسم به طفولة هشة حزينة في وقت معاً ، وفي هذا التعبير ينتزع الألم من كل وجه ما يخفيه من نبل . وفي سييرا لاحظ مانويل عيني باركا ، فرأى أن كل ما في هذا الوجه ذي القسمات المبتذلة من تعبير ببشرته التي هي أدكن من شعره ، وشاربه الأنصع من عينيه الصافيتين ـ رأى أن هذا التعبير يأتي من جفنيه الثقيلين الكثيفين المشحونين بتجربة مريرة تخلو من الاستسلام ، تكسوها عدة غضون صغيرة كأنها شروخ في اناء من الخزف ، فتضفي على وجهه طابعاً من المرح الريفي . وكان يبدو حين يغمض عينيه ، كأنه يبتسم .

ـ « ماذا حدث للقطار المصفح ؟ » .

فقال مانويل : « كل خير على ما أعتقد . . . ولكنني لست أدري ، فلم أذهب الى هناك ، إذ عُينت قائداً للكتيبة الخامسة » .

ـ « وهل أنت مسرور ؟ » .

ـ « أمامي الكثير مما ينبغي أن أتعلمه . . » .

وتناهت اليهما الصرخات ، على الرغم من الباب الموصد .

ـ « هذا الشاب . . كان معنا . . لأنه كان معنا . . » .

ـ « وأنت يا باركا ؟ . . » .

ـ « لعدة أسباب . . . »

وقطب وجهه . ثم حاول أن يتحرك ، وأستدار صوب مانويل وكأنه يتوقع منه أن يفسر نفسه .

واستطرد مانويل : لا شيء يرغمك على ذلك » .

ـ « لقد كنت نقابياً . . كما تعلم ! » .

ـ « أجل . . ولكنك لم تكن مناضلاً . . ولم يكن ثمة ما يهددك مباشرة » .

ـ « أخبرني إذن أيها الصبي : هل كان وباء الفلقسير يرضيك أنت ؟ » .

وقد كان « باركا » من زارعي الكروم في قطالونيا ، كما كان أبوه وجده . وسمح وباء الفلقسير الذي أصاب الكروم للملاك بطرده هو أيضاً من عمل دام خمسين عاماً .

ـ « ولكنك صنعت حياتك من جديد ، وتستطيع أن تعيش . . . » .

ومن اللهجة التي يتحدث بها مانويل أدرك « باركا » أنه لا يسعى الى الجدال ، ولكن إلى مزيد من الفهم .

ـ « تريد أن تقول : لماذا لم أقف على الحياد ؟ » .

ـ لا .

وابتسم « باركا » إبتسامة أضفى عليها الألم تجربة غريبة .

ـ « ثمة أناس لا يستطيعون أن يقفوا على الحياد . . . ومتى كنت محايداً ؟ » .

وتسلل من الباب المفتوح الى « حوض الأسماك » أشخاص يتوكأون على عكازات الواحد وراء الآخر .

ـ « ومع ذلك فالمسألة لا تحتمل المزاح ، إنها مسألة جدية ؛ ذلك أن أبشع أنواع الفاشية أفضل من أن يموت المرء ! . . . »

وأغمض عينيه ثم قال :

ـ « إن ساقي تؤلمني أكثر مما يضايقني أي فاشي . . . ومع ذلك . . . فأنا . . . »

ودهمه الوهن فأوقف حركته ، قبل أن يدهمه الألم .

ـ « كلا . . . ليس الأمر على هذا النحو ، كلا . . . فإنني برغم هذا كله على استعداد لأن أبدأ من جديد نفس البداية : ماذا اذن ؟ » .

وبلغتها صرخات الجريح مرة أخرى . هل يمكن أن يعيش هذا الجريح حياته نفسها مرة أخرى ؟ وكان هذا هو ما خطر ببال « باركا » .

ـ « إن ما سألته الآن ليس فكرة جديدة عليَّ ، فعندما اعتقدت أنني سأموت . . . هناك تحت أشجار الصنوبر . . فكرت في الأمر . . كما يفعل كل الناس . . لا كما تفعل أنت . . ربما . . ولكنني أمعنت في التفكير . . فإن أتعلم ما لا أعرفه فهذا شيء أستطيعه إذا تذرعت بالصبر ، ولكن أن أفهم من أنا . . فهذا . . . ! إنها الكلمات التي أعجز عن الافصاح بها ، هل تتابع حديثي ؟ » .

ـ « بكل تأكيد » .

ـ « هذا لأنك ذكي . . ومجمل القول هو : إنني لا أريد أن يحتقرني الناس . . . إستمع إليَّ يا بني » .

ولم يرفع صوته ، وإنما كان يتحدث بلهجة أشد اتئاداً . . بنفس اللهجة التي يصطنعها حين يجلس الى مائدة ، ويرفع سبابته .

ـ هذه هي المسألة . . أما الباقي فيدور حولها ، وأنت على حق فيما

يختص بالنقود ؛ فربما أستطعت أن أسوي الأمر معهم ، ولكنهم يريدون أن يحترمهم الناس . وأنا لا أريد أن أحترمهم ؛ لأنهم ليسوا قوماً محترمين ، وأنا أحب أن أحترم الناس ، ولكن لا أحترم هؤلاء ، أحترم السيد جارسيا مثلاً لأنه عالم ، أما هؤلاء فلا » .

وكان جارسيا من خيرة علماء الأجناس الأسبان ، وهو يقضي الصيف في سان رافائيل ، وقد لاحظ مانويل الى أي حد يحبه المحاربون في هذا الجزء من إقليم الشارات .

واستطرد باركا قائلاً : « ثم هناك شيء آخر : سأروي لك ذكرى ، وربما وجدتها غير جادة ، ولعلها كذلك حقاً : عندما كنت زارعاً قبل أن أذهب الى بريتيان ، حضر المركيز عندنا ، وكان يتحدث مع رجاله ، كان يتحدث عنا ، وقال هذا القول ، وأنا أعيده عليك كلمة كلمة : « هل شاهدتم مثل هؤلاء الناس ؟ إنهم يفضلون الانسانية على عائلتهم ! » كان يقول ذلك في احتقار ، وما كنت أستطيع أن أناقش هذا القول في تلك اللحظة ، ولكنني أخذت أفكر في تلك المرة أيضاً ، وأدركت أننا حين نريد شيئاً للإنسانية فإن ذلك يعود بالنفع « أيضاً » على عائلتنا . وهذا شيء واحد ، أما هم فإنهم يختارون بين أحد الأمرين . . . هل تتابع حديثي ؟ إنهم يختارون . »

وسكت برهة ثم قال :

ـ« وجاء السيد جارسيا ليراني ، كنت أعرفه منذ زمن طويل وهو رجل يهتم دائماً بالأشياء ، ولما كان الآن في المخابرات العسكرية فإنه يريد أن يعرف كل ما يجري في القرى . ولكنه سألني : ما معنى المساواة ؟ اسمع يا مانويل ، أريد أن أقول لك قولاً طيباً لا تعلمان عنه شيئاً ، أنتما الأثنين . . لأن لديكما . . لديكما الكثير . . الكثير من الفرص ، كما يقولون . ورجل مثله ـ أعني مثل جارسيا ـ لا يعرف جيداً معنى أن يكون المرء مضطهداً . واليك ما أردت

أن أقوله لك : إن عكس ذلك أعني المذلة - كما يقول - ليست هي
المساواة ، وإن أولئك الفرنسيين قد فهموا شيئاً ما حين نقشوا فوق مبانيهم
تلك الكلمات . . لأن عكس الاضطهاد هو الاخاء . » .

ومن خلال باب القاعة الكبرى المفتوح سار الجرحى الذين وضعت
أذرعهم في الجبس ، فبدوا كعازفي الكمان الذين يسندون آلاتهم الى
رقابهم . . وكان هؤلاء هم أتعب الجميع : ذلك أن الذراع التي في الجبس
كانت تتخذ شكل حركة من الحركات ، وإن هؤلاء العازفين الأشباح الذين
يحملون أذرعاً ثابتة منتفخة يتقدمون كتماثيل يدفعها شخص من الخلف في
ذلك السكون الذي يسود حوض الأسماك ، والذي لا يشوبه شيء سوى
طنين خفي يحدثه الذباب .

الفصل الثاني

١٤ من أغسطس

وسط الحماس العام ، والحرارة الخانقة ـ اصطفت ست طائرات حديثة للشروع في الرحيل ، وسار الطابور المغربي الذي قام بالهجوم على اكستريمادورا من ميريدا قاصداً « ميدلان » . وكان طابوراً قوياً مجهزاً بالسيارات المصفحة ، يضم بلا شك صفوة القوات الفاشية ، وأبلغ سمبرانو ومانيان تليفونياً تجاه هذه العمليات ،وأن فرانكو يقودها شخصيا .

أما رجال الميليشيا في اكستريمادورا فقد عقدوا عزمهم على المقاومة دون قواد ، ودون أسلحة . ومن « مدلان » خرج الفلاح وصاحب الحانة أو الفندق والعمال الزراعيون وبضعة آلاف من أشد الناس بؤساً في اسبانيا ـ خرجوا يحملون بنادق الصيد ليواجهوا البنادق السريعة الطلقات التي تملكها المدفعية المغربية .

وكانت ثلاث طائرات من طراز دوجلاس ، وثلاث طائرات مقاتلة مزودة بمدافع رشاشة طراز سنة ١٩١٣ تحتل نصف عرض المطار ، ولم تكن طائرات مطاردة ، إذ كانت كلها في اقليم الشارات . وحول هذه الطائرات وقف سمبرانو وصديقه فالادو ، والطيارون المدنيون الأسبان ومانيان ، وسيبيرسكي ، وأراس ، وكارليتش ، وجارديه ، وجيم ، وإسكالي ، وبعض المستجدين ، والأب دوجيه ؛ ووقف العمال الميكانيكيون أمام حظائر الطيارات ومعهم الكلب رابلاتي .

وطفق جيم يغني أغنية من أغاني الفلامنكو .

واتجهت الطائرات صوب الجنوب الشرقي وقد اتخذت شكل مثلثين .

وعلى الرغم من رطوبة الجو داخل الطائرات فقد كان في استطاعته أن يرى القيظ محيطاً بالأرض ، كما يرى الهواء الساخن الذي يرتجف فوق الأفران ، وكانت قبعات الفلاحين العريضة المصنوعة من القش تظهر في حقول القمح هنا وهناك . ومن جبال طليطلة حتى جبال اكستريمادورا وفيما وراء ميدان القتال ـ كانت الأرض التي اتخذت لون الحصاد تغفو إغفاءة ما بعد الظهيرة ، يغلفها السلام من أفق الى آخر . وفي الغبار الذي يصاعد صوب الشمس المتوهجة ، كانت سفوح الجبال وصخورها الناتئة تبدو جميعاً أطيافاً مسطحة ، وفيما وراء ذلك كانت بطليوس وميريدا اللتان استولى عليهما الفاشيون يوم ٨ ، وميدلان ما زالت غير مرئية ، وكأنها نقاط تافهة في السهل الرحب المرتعش .

وتكاثرت الصخور رويداً رويداً ، وأخيراً لاحت بطليوس بسوقها وحلبات مصارعة الثيران الخاوية مريرة كأرضها الصخرية ، وسقوفها الخالية من الأشجار ، وقرميدها العتيق الذي حولته الشمس الى اللون الرمادي ، وكأنها هيكل رجل من البربر مسجى على أرض افريقية ، والقى الطيارون نظرة على خرائطهم ، وقاذفو القنابل على أهدافهم ، ورجال المدافع الرشاشة على علامات التصويب الصغيرة التي كانت تدور بأقصى سرعتها خارج الطائرة . وتحتهم كانت ترقد مدينة عتيقة من مدن اسبانيا المتآكلة بنسائها السمراوات القابعات خلف النوافذ ، وبزيتونها وينسونها الموضوعين في دلاء مملوءة بمياه الآبار ، وبآلاتها للبيانو التي يعزف عليها الأطفال بإصبع واحدة ، وبقططها الهزيلة التي ترهف آذانها للنغمات التي تتلاشى واحدة أثر الأخرى في حمارة القيظ ، وكان انطباع الجفاف يخيل إلى المرء أن أحجار القرميد والصخور والمنازل والشوارع ستنهار وتتداعى عند أول قنبلة في قرقعة هائلة للعظام والحطام ، وفوق الميدان كان كارليتش وجيم يلوحان بمناديلهما ،

وألقى الطيارون الأسبان بأوشحة في لون علم الجمهورية .

والآن ها هي ذي مدينة فاشية : وهنا تعرف المراقبون على مسرح ميريدا القديم ، وعلى الأطلال ، إنها مدينة شبيهة ببطليوس ، وبكل مدن الأكستريمادورا . وأخيراً ، لاحت « ميدلان » .

من أي طريق يصل الطابور ؟ لقد كانت الطرقات العارية من الأشجار تبدو صفراء تحت وهج الشمس وإن كانت أنصع من الأرض ، ولكنها خالية تماماً على امتداد البصر .

وحام السرب فوق الميدان المربع في « ميدلان » ثم شرع يتجه في الطريق المؤدية الى صفوف الأعداء ، ولكنه صعد أيضاً صوب الشمس ، بيد أن هذه الشمس التي كانت تسطع في الساعة الخامسة مساء بهرتهم جميعاً وأعشت أبصارهم ، فلم يروا من الطريق سوى شريط يتوهج من النور .

وبدأت الطائرتان من طراز دوجلاس اللتان تسيران خلف طائرة سمبرانو في تهدئة السرعة ، ثم سارتا في الصف ، فقد وصل طابور الأعداء .

وكان « داراس » الذي أسلم مهمة الأشراف الى الطيار الأول ، يطل بجماع جسده ، وقد أنحنى بجذعه كله في ممر الطيارة ، كان في اثناء الحرب لا يبحث إلا عن هذه الفرقة الألمانية أو تلك ، ولكنه يبحث الآن عما كان يناضله طيلة تلك السنوات متخذاً عديداً من الأشكال سواء في صورة العمدية ، أو في المنظمات العمالية التي أسست بصبر والتي لحقتها الهزائم ، ولكنها لم تلبث أن بعثت من جديد ، وهذا العدو هو الفاشية . وبعد أن كافح في روسيا جاء دور إيطاليا والصين والمانيا . . ولكن ما كادت الفرصة تتاح لأمله الذي وضعه في العالم حتى وجد الفاشية جاثمة هنا على أسبانيا تحت طائرته ، وكان كل ما يراه الآن هو طائرات رجاله وهي بسبيل تغيير خط سيرها .

واستدارت الطائرة التي كان فيها « وهي طائرة مانيان قائد الفرقة

العالمية » لكي تحدد خط السير . الطريق الممتدة أمامهم تتناثر عليها نقاط حمراء على أبعاد منتظمة ، تمتد على مسافة كيلومتر على اليمين ، وحامت الطائرة فوقها ، فظهرت الشمس مرة أخرى ، هذه النقاط أصغر من أن تكون سيارات ، كما أن طريقة سيرها الآلية جداً تستبعد احتمال أن تكون جنوداً . . . بيد أن الطريق أخذ يتحرك .

وفجأة فطن داراس الى الأمر ، وكأنه يرى بفكره لا بعينيه ، فميز الأشكال : لقد كان الطريق مغطى بسيارات النقل ذات السقف المصنوع من قماش سميك يكسوه غبار أصفر ، أما النقط الحمراء فكانت خوذات الجنود المدهونة بأوكسيد الرصاص الأحمر دون محاولة للتعمية .

وكانت تحيط بالمدن الثلاث طرق تمتد حتى الأفق البعيد الغارق في سكون الريف وسلامه ، وكأنها آثار خلفتها مخالب طيور هائلة الحجم ، وبين هذه الطرق الثلاث الثابتة كان هناك ذلك الطريق المتحرك ، وتمثلت الفاشية ـ في عيني داراس ـ في هذا الطريق المرتجف .

وعلى جانبي الطريق أنفجرت القنابل . . وكانت زنة الواحدة منها عشرة كيلو غرامات ، فاندلعت ألسنة من اللهب الأحمر ، وانداحت سحب الدخان على الحقول . . . ولم يكن ثمة ما يشير الى أن الطابور الفاشي قد أسرع في سيره ، غير أن الطريق كان ما يزال نابضاً بالحركة .

وتقدمت السيارات والطائرات بعضها للقاء البعض الآخر ، ولم يستطع داراس أن يرى ـ في وهج الشمس ـ القنابل في أثناء سقوطها ولكنه شاهدها وهي تنفجر الآن في الحقول دائماً كحبات المسبحة ، وعادت قدمه المضمدة الى إيلامه ، من جديد . . وكان يعلم أن إحدى الطائرات من طراز دوجلاس غير مزودة بجهاز لقذف القنابل ، ولهذا كانت تلقي بقنابلها من فتحة المرحاض بعد أن تم توسيعها ، وبغتة ثبت جزء من الطريق « المتحرك » لقد توقف الطابور ، إذ لمست قنبلة إحدى عربات النقل التي سقطت عبر

الطريق دون أن يراها « داراس » .

وكما يواصل رأس الدودة طريقه بعد انفصاله عن الجسد فكذلك اتجه الجذع الذي يتقدم الطابور بعد أن مزق الى الثلث ـ صوب « ميدلان » واستمرت القنابل في السقوط ، على حين وصلت طائرة « داراس » فوق ذلك الجذع .

ولم يعد الطيار الثاني يرى ما يدور تحته .

* * *

ونظر « اسكالي » ـ وهو الذي يتولى قذف القنابل في الطائرة العالمية الثالثة ـ الى القنابل وهي تدنو من الطريق ، وكان مدرباً أحسن تدريب في الجيش الايطالي ، وأكمل فيه ـ قبل أن يهاجر ـ فترة من الخدمة الاحتياطية كان يقضيها كل عام ، واستعاد دقته في التصويب بعد ثلاث غارات قام بها في جبال سييرا ، وفي خلال خمس عشرة ثانية كان فيها سيبيرسكي يحلق عمودياً فوق الطريق ـ رأى القنابل تنفجر مقتربة أكثر فأكثر من سيارات النقل . بيد أن الوقت قد فات لضرب الجزء الرئيسي من الطابور ، وحاولت السيارات الأخرى أن تعبر الى يمين وشمال السيارة المقلوبة وسط الطريق الذي حطمته القنبلة بلا شك . وبدت العربات ـ منظوراً اليها من الطائرات كأنها وهي مثبتة في الطريق دبابات ملتصقة بورق مصمغ ، وكأنما كان « اسكالي » ينتظر أن يراها تطير أو تنطلق عبر الحقول ، لأنه داخل طائرة ، غير أن الطريق كان محوطاً برصيفين طبعاً ، وحاول الطابور الذي كان متماسكاً منذ لحظة أن ينقسم على جانبي السيارة المقلوبة كما ينشطر نهير على الجانبين إذا اعترضته صخرة . وشاهد اسكالي في وضوح ـ القمم البيضاء للعمامات المغربية ، وذهب فكره الى بنادق الصيد التي يتسلح بها رجال « ميدلان » المساكين ، وفتح فجأة صندوقي القنابل الخفيفة حين دخلت مجموعة السيارات في مجال تصويبه ، ثم استند على الفتحة ، وانتظر وصول

قنابله : تسع ثوانٍ من المصير تفصل بينه وبين هؤلاء الرجال ! .

« اثنان .. ثلاثة » من المحال أن يرى من الفتحة مسافة بعيدة الى الوراء ، ومن ثغرة جانبية كان بعض الأشخاص يجرون على الأرض رافعين أذرعهم في الهواء ، يحاولون دون شك استنقاذ حياتهم بالاتجاه صوب الرصيف «خمسة . . ستة » وانطلقت مدافع رشاشة تجاه الطيارات « سبعة . . ثمانية» انهم يركضون تحت ركضاً شديداً ! « تسعة » لقد كفوا عن الجري تحت عشرين بقعة حمراء انفجرت في وقت واحد ، وواصلت الطائرة سيرها ، كأنما لا يعنيها هذا كله في شيء ! .



ودارت الطائرات دورة كاملة لتبلغ الطريق مرة أخرى . وعادت طائرة « مانيان » في اللحظة التي انفجرت فيها قنابل « اسكالي » بحيث شاهد « داراس » في وضوح لا مزيد عليه ـ الدخان وهو يتبدد فوق حطام العربات التي انقلبت رأساً على عقب . . وما عدا لحظة الانفجار الأحمر للقنابل لم يكن يبدو أن الموت يؤدي أي دور في هذه المسألة ، ولم ير « داراس » سوى بقع من الكاكي تعلوها العمامات كنقط بيضاء تلوذ بالفرار كأنها نمال مذعورة تحمل بيضها ! .



كان سمبرانو هو أوضحهم رؤية ، وعادت أولى الطائرات من طراز دوجلاس وراء آخر طائرات الفرقة العالمية ، وبذلك أغلقت الدائرة ، وكان يعرف معرفة أفضل من معرفة « اسكالي » كيف كان نضال رجال الميليشيا في « الاكستريمادورا » ويعرف أنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً ، وأن الطيران هو وحده الذي كان يستطيع مساعدتهم ، وعبر مرة أخرى فوق الطريق حتى يستطيع قاذفو القنابل الذين احتفظوا بقنابل خفيفة تحطيم مزيد من السيارات ، فقد كانت هذه السيارات هي العنصر الأول الذي تتألف منه

القوة الفاشية ، ولكن كان لا بد من الوصول الى رأس الطابور الذي سار صوب « ميدلان » قبل وصول طيران العدو .

وأسرعت بضع سيارات أخرى الى الحقول ، وما أن أزيحت عن الطريق ولم تعد في مواجهة الشمس حتى أطال الضوء الساقط عليها ظلالها وراءها ، وبذلك ظهرت حين تحطمت ، كالسمك الميت لا يطفو على سطح الماء إلا بعد أن يصاد بالديناميت ! .

وكان الوقت كافياً أمام الطيارين لاتخاذ أماكنهم المناسبة فوق الطريق . . . وكانت ظلال العربات المحطمة تستطيل الآن عند رأس الطابور وذيله كأنها حواجز .

وقال سمبرانو في نفسه وهو يمط شفته السفلى : « أمام فرانكو أكثر من خمس دقائق لترتيب ذلك » : واتجه بدوره صوب « ميدلان » .

ومع بقائه من دعاة السلام في أعماق قلبه ، فقد كان يلقي بالقنابل خيراً من أي طيار اسباني ، ولكنه كان يلقيها ـ حين يكون وحده ـ من ارتفاع منخفض ، حتى يخفف من هواجس ضميره : فالخطر الذي يتعرض له كان يحل مشاكله الأخلاقية . كان شجاعاً بطبيعته مثل مارسيلينو ومثل غيره ممن يسيطر عليهم الحياء ، وقال في نفسه : إما أن تكون العربات في المدينة ، وهنا ينبغي الاطاحة بها جميعاً في الهواء ، أو أن تكون خارج المدينة وحينئذٍ ينبغي الاحاطة بها جميعاً حتى لا تحدث مذبحة لرجال الميليشيا ، وهكذا انطلق تجاه « ميدلان » بسرعة مائتين وثمانين كيلومتر في الساعة .

وكانت السيارات التي تؤلف رأس الطابور متجمعة في ظل الميدان ، فلم تكن تجرؤ على التفرق لأن سكان القرية من الأعداء، وهبط سمبرانو الى آخر ما في وسعه ، تتبعه خمس طائرات أخرى .

الشمس الآن تملأ الشوارع بالظلال . . ومع ذلك فقد كان من الممكن تمييز المنازل على بعد ثلاثمائة متر ، فهذا قرمزي وذاك أزرق فاتح ، أو

أخضر بلون الفستق ، وكذلك كان من الممكن تمييز أشكال العربات ، وكان بعضها يختبىء في الشوارع المجاورة للميدان .

واتجهت إحدى طائرات « دوجلاس » صوب سمبرانو بدلاً من أن تتبعه ، لا شك في أن الطيار ضل عن خط السير .

وشرعت الطيارات في تكوين دائرة جديدة مماسة لميدان ميدلان ، وتذكر سمبرانو أول غارة له ، كان قد قام بها فارجاس الذي هو الآن رئيس العمليات ، وتذكر عمال « بينياروبا » الذين حاصرهم الفاشيون فعلقوا من النوافذ وفي الأفنية ، ستائرهم وأغطية الأسرة ، وأجمل ثيابهم لتحية الطيارين الجمهوريين .

وتألقت القنابل المنطلقة في أشعة الشمس ، ثم اختفت ، وواصلت سيرها مستقلة كالطوربيدات . وبدأت السنة برتقالية هائلة من اللهب تنفجر كالألغام في الميدان الذي ملأه الدخان . وفي دوامة ضخمة ، وفوق أعلى شعله من النيران ـ اندفع دخان أبيض وسط الدخان البني وفجأة وثب طيف أسود لسيارة نقل فوق هذا الدخان ، ثم سقط داخل السحابة المتعددة الألوان . وفي أثناء انتظاره حتى تتلاشى تلك السحابة ألقى سمبرانو نظرة أمامه ، فرأى الطائرة الدوجلاس التي خرجت على التشكيل ، كما شاهد طائرتين غيرها ، وكانت تشترك في القتال ثلاث طائرات دوجلاس بما فيها طائرته ، فكيف يمكن أن يرى ثلاث طائرات أمامه ؟

وحرك جهاز اللاسلكي لكي تتخذ الطائرات تشكيل القتال .

كان مستغرقاً فيما يدور على الأرض فلم يمعن في النظر : ذلك أن هذه الطائرات لم تكن من طراز دوجلاس ، بل كانت من طراز يونكرز .

وكانت هذه هي اللحظة التي عرف فيها « اسكالي » ان الطيران سلاح يبعث على التقزز . فمنذ أن أخذ المغاربة في الهرب أحس برغبة قوية في الرحيل ، ومع ذلك لم يمنعه من أن ينتظر كالقطة دخول الميدان في مجال

تصويبه تبقت لديه قنبلتان زنتهما خمسون كيلوغراماً ولم يعبأ، بالمدافع الرشاشة التي تطلق عليه من الأرض، بل أحس أنه قاضٍ وقاتل معاً ، وكان شعوره بأنه قاضٍ أبعث على تقززه من شعوره بأنه قاتل ، غير أن الطائرات اليونكرز الست ـ ثلاثاً في مواجهته وهي التي شاهدها سمبرانو ، وثلاثاً تحته ـ أعفته من هذا التأمل الباطني .

وحاولت الطائرات « الدوجلاس » الفرار ، فلم يكن من الممكن بمدفعها الرشاش التعس القائم الى جانب الطيار أن تخوض المعركة مع الطائرات الألمانية بمدافعها الرشاشة الثلاثة من أحدث طراز ، وكان سمبرانو يعتقد دائماً أن السرعة خير وسيلة للدفاع عن قاذفات القنابل ، والواقع أن الطائرات الدوجلاس أنطلقت بأقصى سرعتها ، على حين حملت الطائرات العالمية على الطائرات اليونكرز الثلاث التي تحتها : أي ثلاث طائرات ضد ست ولكن بلا طائرات مطاردة لحسن الحظ .

واذا كان الهدف قد أُصيب فلا معنى الآن للقتال ، وإنما المهم هو الافلات . واختار « مانيان » أن يهاجم أدنى الطائرات اليه لأنها سوف تتضح بالنسبة للون السماء ، على أن طائراته تكاد تكون غير مرئية فوق الحقول . . وربما لم تستطع الطائرات اليونكرز الثلاث الأخرى أن تجد متسعاً من الوقت تستعد فيه للقتال ، وهكذا طار هو أيضاً بأقصى سرعته .

ووصلت الطائرات التي كانت تحته مغلقة كأنها غواصات ، وخزاناتها تتذبذب كالبندول بين الأطر الحافظة للعجلات ، وحاولت إحداها الدوران ، وكانت الطائرات العالمية تشاهد بوضوح هوائي اللاسلكي فيها ، والصفحة الجانبية من وجه ضارب المدفع الرشاش القابع في المؤخرة فوق جسم الطائرة ، وأخذ « جارديه » ينتظر في برجه الأمامي واضعاً بندقية فوق ظهره ، مشيراً باصبعه الى اليونكرز وملوحاً بذراعه اليسرى ، إذ كان من البعد بحيث لا يمكن أن يسمعه أحد . ورأها مانيان ـ وكان يجلس الى جانب داراس ـ وهي تتضخم كأنهم ينفخون فيها .

وأدرك الطاقم كله أن طائرة يمكن أن تسقط .

وأدار جارديه برج المراقبة محدثاً ضجة غير مألوفة السرعة ، وصلصلت المدافع الرشاشة في اصطدامها بجسم الطيارة ، وتقاطعت خطوط سير الطائرات بعضها مع البعض الآخر ، ولمن تكن الطائرات العالمية قد تلقت سوى بضع رصاصات قلائل من المدافع الرشاشة المنطلقة من طائرات الأعداء ، وبقيت طائرات اليونكرز في الخلف ، وهبطت إحداها دون أن تتحطم . ومع أن المسافة لم تكف عن الاتساع بين طائرة مانيان والطائرات اليونكرز فقد اخترق جسم طائرته فجأة ما يقرب من عشر رصاصات . وظلت المسافة في الاتساع ، على حين عادت الطائرات اليونكرز الخمس الى صفوفها تحت نيران المدافع الرشاشة المنطلقة من مؤخرات الطائرات العالمية ، وسقطت السادسة منقضة فوق الحقول .

وما أن عاد مانيان حتى قدم تقريراً بالتليفون وطلب جارديه :

قال كاموتشيني : « إنه في الطائرة اليونكرز التي هبطت هنا معتقدة أنه قد تم الاستيلاء على مدريد ! » .

ـ « وهذا سبب آخر يدعوني إلى طلبه » .

وكم كانت دهشة مانيان ، حين وجد أن مندوباً من الأمن ينتظره .

قال المندوب بعد أن جالت عيناه بنظرة فاحصة في جميع أركان حجرة المكتب البيضاء :

ـ « أيها الرفيق مانيان ، لقد كلفني رئيس مكتب الأمن ابلاغك أن ثلاثة من المتطوعين الألمان » .

وأخرج ورقة من جيبه :

« كريفلد وفورتس وشرايـ . . نر ، أجل . . شراينر . . هم من

جواسيس هتلر » .

وهم « مانيان » أن يقول له : إنه مخطىء ، بيد أن المرء يؤمن دائماً بالخطأ في مثل هذه الحالات . . وقد لاحظ كارليتش أن كريفلد يلتقط صوراً باستمرار (ولكن هل يلتقط الجاسوس صوراً ؟) ودهش مانيان حين سمعه يذكر ذات يوم اسم أحد الموظفين في المكتب الفرنسي للمخابرات .

ـ « حسن . كريفلد . . هل أنت على ثقة ؟ وعلى كل حال ، هذا عملكم ، أما بالنسبة لشراينر فأنت تدهشني دهشة بالغة ، ذلك أن فورتس وشراينر من الشيوعيين القدامى على ما أظن . . . وحزبها يشهد بذلك » .

ـ « الأحزاب كالأشخاص ـ أيها الرفيق مانيان ـ تؤمن بأصدقائها . . ونحن نؤمن بالمعلومات التي وصلتنا » .

ـ « وماذا يريد رئيس مكتب الأمن ؟ » .

ـ « ألا يضع أي واحد من هؤلاء الثلاثة قدمه في المطار مرة أخرى » .

ـ « ثم ماذا ؟ » .

ـ « ثم انه مسؤول بعد ذلك » .

وأمعن مانيان في الفكر وهو يشد شاربه .

ـ « إن مسألة شراينر مفزعة حقاً . . وأخيراً . . أجل . . . إنني أعتقد أنه بريء ! هل يمكن أن يجري استكمال للتحقيق ؟ » .

ـ « لا مبرر للعجلة على الاطلاق . . وسيتصل تليفونياً في الحال ، ولكن ليؤكد ما أبلغتك إياه .

ووصل جارديه ببندقيته الصغيرة ، وخصلة شعره المتدلية الى الأمام ، ونظرته الهازئة .

وخرج رجل البوليس .

وأضفت عليه خصلته الطويلة ، ووجنتاه البارزتان هيئة قط يلعب به الأطفال ، ولكنه ما أن يبسم حتى تضفي أسنانه الصغيرة المنفصلة بعضها عن البعض الآخر ـ طاقة حادة على وجهه المثلث .

ـ « ماذا كنت تفعل في الداخل ؟ ولماذا جلست في مكان ضاربي المدافع الرشاشة ؟ » .

ـ « كنت أعتقد أنني واسع الحيلة . . وكنت قد دخلت فيها من قبل . . بيد أن ثمة إنطباعاً كان لديَّ بأن هناك شيئاً لا أفهمه . . وفهمت جيداً ما أريد ! وما داموا قد أطلقوا علينا الآن فقد أصبحت على يقين من الأمر . . إن الطائرة تكاد تكون عمياء تماماً من الأمام ، ولهذا لم يلمسونا من أول دورة ، وإنما استطاعوا ذلك فيما بعد عندما كنا في الخلف » .

ـ « كان لديَّ هذا الانطباع أيضاً » .

كان مانيان قد درس تركيب تلك الطائرة في المجلات المتخصصة ، فوجد أن المحرك الثالث في طائرة اليونكرز موضوع مكان البرج الأمامي في الطائرة ذات المحركين ، وكان يشك في أنه من الممكن الدفاع عن مقدمة الطائرة بمدفعي يطلق نيرانه بين العجلات ، ومدفعي في المؤخرة ، ولهذا شن هجوماً على اثنين منها .

ـ « أخبرني يا مانيان : هل طاروا بأقصى سرعة عندما كانوا خلفنا ؟ » .

ـ « طبعاً » .

ـ « إذن . . ما أشد سخرية هؤلاء الألمان منا طيلة هذين العامين ! إنهم يتخلفون عن طائراتنا العتيقة بحوالي ثلاثين كيلومتراً على الأقل . . واذن ، هذا هو أسطول جيرنج الشهير ؟ » وأستطرد قائلاً :

ـ « ولكن انتظر لحظة ، إن مدافعهم الرشاشة تختلف تماماً عن مدافعنا

الأسبانية . . فهي لم تتعطل مرة واحدة . . لقد كنت أنصت اليها » .

- « لو أن الروس أو مواطنينا الأبقار قرروا تزويدنا بشيء منها . . . »

وانصرف مانيان الى ادارة العمليات ، وقد استبدت الحيرة به .

وكان يريد أن يزور المستشفى أولاً .

كان قاذف القنابل البريتوني يجادل جاره الفوضوي الأسباني - في غير اكتراث ، وإن تقلصت ملامح وجهه ، وقد تناثرت على سريره أعداد صحيفة « لومانيتيه » ومؤلفات « كورتلين ». وكانت قد أفردت لهاوس حجرة خاصة بالطابق الأعلى مما لا يبشر بأي خير .

وفتح مانيان الباب ، وحياه الانكليزي بقبضة مرفوعة ، وهو يبتسم غير أن عينيه لم تكونا تبتسمان .

- « كيف حالك ؟ » .

- « لا أدري ، فإن أحداً هنا لا يعرف الانكليزية . . . » .

ولم يجب « الكابتن » عن السؤال ، وإنما أجاب عن الفكرة المسيطرة عليه ، وكان ما لا يعرفه هو: هل تبتر ساقه أو لا ؟ .

وكان منظره بشاربه الأصفر الدقيق تحت أنفه الحاد يوحي بمنظر تلميذ حمل الى فراشه ولف بعناية في الأغطية . وكم بدت تلك القبضة المرفوعة مصادفة مجرد حادث عارض ! وربما كان أنسب الى الحقيقة ذلك الوضع الذي اتخذته يداه اللتان استقرتا في وداعة فوق الملاءة ، ووجهه - الذي من المحتمل جداً أن تفكر فيه مسز هاوس في كوخ ما - مستنداً على هذا النحو بين الوسادة ، والملاءة ، ثم حقيقة أخرى تجهلها مسز هاوس هي تلكما الساقان اللتان استقرت فيهما خمس رصاصات ، والملفوفتان بعناية تحت الملاءة . وقال مانيان في نفسه : « إن هذا الفتى لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد . ماذا

أقول ؟ ان فكرة أياً كانت لا تستحق أن تقال أمام ساقين على وشك أن تبترا .

قال مانيان وهو يشد شاربه : « أوه . ! أجلَ . . ماذا نسيت ؟ لديَّ تحت بضع برتقالات . »

وخرج إذ كان العجز يؤثر في نفسه اكثر من الموت ، ولم يكن يحب الكذب ، ولا يعرف إلا أن يجيب بما يتراءى له ، وكان ينشد المعرفة قبل كل شيء ، فصعد الى حجرة كبير الأطباء .

وقال له هذا : « كلا . . إن الطيار الانكليزي محظوظ ، فالعظام سليمة ، ولم نفكر قط في مسألة البتر » .

ونزل « مانيان » راكضاً ، وكان ثمة رنين للملاعق يملأ السلم ، ويصلصل في قلبه .

قال له وهو يدخل الحجرة : « العظام لم تمس » ونسي حكاية البرتقال .

وحياه « هاوس » مرة أخرى بأن رفع قبضة يده ، ولم يكن في المستشفى من يفهم لغته ، ومن ثم فقد أعتاد هذه الحركة التي تعبر عن مودته .

واستطرد مانيان متلعثماً ، وقد أحس بالارتباك في محاولته لنقل ما قاله الطبيب بالأسبانية الى الانكليزية : « أما مسألة البتر فلم يفكر فيها أحد . . . » .

وخفض « هاوس » عينيه متأرجحاً بين الأمل والخوف من أن تكون هذه كذبة إختلقها صديق ، ولكنه ما لبث أن سيطر على تنفسه ، وتساءل : « متى أستطيع المشي ؟ » .

ـ « سأذهب لسؤال كبير الأطباء » .

وحدث مانيان نفسه قائلاً وهو يصعد درجات السلم البيضاء مرة أخرى : « سيظن كبير الأطباء أنني معتوه ! »

وقال للطبيب : « أرجو المعذرة ، ولكن ذلك الفتى يسأل متى يستطيع المشي ، وأعتقد أنه من الصعب التمويه عليه » .

- « بعد شهرين » .

ونزل مانيان ثانية ، وما أن نطق بعبارة : « بعد شهرين » حتى ارتفعت من السرير نشوة سجين أطلق سراحه ، نشوة غامضة لا سبيل الى التعبير عنها ، لم يكن « هاوس » يستطيع أن يحرك ساقيه ، وكانت ذراعاه فوق السرير ، ورأسه على الوسادة ، كل ما حدث هو أن تقلصت أصابعه في طرفي ذراعيه الساكنتين ، وأخذت تفاحة آدم الظاهرة تمام الظهور في عنقه ، ترتفع وتنخفض ، وحركات هذا السرور الذي لا حد له هي نفسها حركات الخوف . . .

وفي ضواحي مدريد كان رجال الميليشيا الذين يطوحون ببنادقهم أقل عدداً في سيارات أقل تغطيها شعارات أقل ، وهناك صوب بوابة طليطلة أخذ شابان يتدربان على المشي بخطى عسكرية ، فتذكر مانيان فرنسا ، لقد كانت طائرات اليونكرز هي التي تؤلف - حتى نشوب هذه الحرب - الجزء الجوهري في أسطول الطيران الألماني ، وكانت عبارة عن طائرات تجارية تحولت الى طائرات حربية ، وأوروبا تثق في الصناعة الألمانية الى درجة أنها رأت فيها أسطولاً حربياً . بيد أن تسليحها وإن يكن ممتازاً - لم يكن فعالاً وها هي ذي تعجز عن ملاحقة طائرات الدوجلاس ، مع أنها طائرات تجارية اميركية . حقاً . . . إنها صفقة ممتازة جديرة بما بذله « مانيان » من جهد في أسواق أوروبا ، ولكنها لا تستطيع أن تصمد أمام الطائرات الفرنسية الحديثة ، أو أمام الطيران السوفييتي . . وهذا كله سوف يتغير ، فقد بدأت المناورات الدامية الكبرى في العالم كله ، وانسحبت أوروبا - طيلة العامين الأخيرين - أمام تهديد هتلر المستمر بحرب لا يستطيع - من الناحية الفنية - أن يشنها .

الفصل الثالث

عندما وصل « مانيان » الى الوزارة ، كان « فارجاس » مدير العمليات يصغي الى جارسيا الذي أخذ يقرأ عليه تقريراً .

ـ « صباح الخير يا مانيان ! »

ونهض فارجاس ، ولكنه لم يبرح طرف الأريكة ، وكان قد خلع سرواله الطويل بسبب الحرارة ، ولكنه لم يخلص منه ساقيه تماماً « اما لفرط الكسل ، أو لكي يصبح مستعداً في أية لحظة » كأنه أرنب بقي جلده لاصقاً بمخالبه ، فأعاقه ذلك عن الحركة ، وجلس مرة أخرى ، وقد مد ساقيه الطويلتين في حذائه ذي الرقبة ، وارتسم على محياه النحيل البارز العظام كوجه دون كيشوت ـ اذا خلا من اللحية ـ تعبير حافل بالمودة . وكان «فارجاس » واحداً من الضباط الذين نظم معهم مانيان الخطوط الجوية الأسبانية قبل الثورة ، كما اشترك معه هو وسمبرانو في نسف الخط الحديدي بين أشبيلية وقرطبة وقام بتقديم جارسيا ومانيان كل منهما الى الآخر ، ثم طلب لهما شراباً وسجائر .

قال جارسيا : « تهاني . . لقد أحرزت أول انتصار في الحرب » .

ـ « أوه . . حقاً ؟ . . يسعدني ذلك . . . وسأنقل تهنئتك الى من يستحقونها ، لقد كان سمبرانو قائد الجماعة » .

وتفرس كل منهما في الآخر بنظرة ملؤها الود ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتصل مانيان فيها مباشرة بواحد من رؤساء المخابرات العسكرية ،

أما جارسيا فكان يسمع المحيطين به يتحدثون كل يوم عن مانيان .

كل ما في جارسيا يبعث على دهشة مانيان ، فلم يكن يتخيل أن يكون هذا الأسباني بتلك البدانة ، وبهذا الوجه الذي يشبه وجه مالك من ملاك الأرض الانكليز أو النورمانديين ، وبذلك الأنف القوي المرفوع في الهواء ، كما لم يكن يتخيل أن يكون هذا المثقف مرحاً ودوداً ، وله أذنان مدببتان ، وبأن عالم الأجناس هذا الذي عاش طويلاً في بيرو والفيليبين لم تلوح الشمس وجهه أو تضفي عليه ذلك اللون البرونزي ، وفضلاً على ذلك فقد كان يتخيل جارسيا دائماً ممن يضعون نظارات .

وأستطرد مانيان قائلاً : « لقد كانت غارة صغيرة كما تعلم قامت بها ست طائرات . . . واستطعنا أن نحطم بعض العربات على الطريق . . » .

قال جارسيا : « لم تكن قنابلكم التي ألقيتموها على الطريق هي التي ألقت بهم أكبر الخسائر ، وإنما قنابل « ميدلان » فقد سقطت قنابل كثيرة من الحجم الكبير على الميدان ، ولا تنسوا أن هذه أول غارة جوية على المغاربة ، وقد عاد الطابور على أعقابه الى نقطة بدايته . . وهذا هو انتصارنا الأول » .

« غير أن بطليوس وقعت في أيدي الأعداء ، وهذا معناه أن جيش فرانكو قد انضم الآن الى جيش مولا » .

ونظر اليه مانيان نظرة تساؤل . .

وأدهشه موقف جارسيا أيضاً، فقد كان ينتظر منه موقفاً متحفظاً بدلاً من هذا الموقف الودي الصريح .

قال جارسيا : « وبطليوس مجاورة للحدود البرتغالية . . » .

وقال فارجاس : « لقد أحضر « المونتسارمينتو » Montesarmiento في السادس من هذا الشهر الى لشبونة أربع عشرة طائرة المانية ومائة وخمسين خبيراً . وفي اليوم الثامن غادرت ايطاليا ثماني عشرة قاذفة قنابل ، ووصلت

أشبيلية أول أمس عشرون طائرة » .

- « من طراز سافوا ؟ » .

- « لست أدري . . وقد رحلت عشرون طائرة إيطالية أخرى » .

- « ومنها الثماني عشرة التي أشرنا اليها ؟ » .

- « كلا . . . وبهذا ستقف ضدنا قبل أسبوعين مائة طائرة حديثة » .

* * *

فاذا كانت الطائرات اليونكرز رديئة فإن قاذفات القنابل من طراز سافوا تفوق كل ما يستخدمه الجمهوريون .

ومن النافذة المفتوحة دخل النشيد الجمهوري صادراً عن عشرين مذياعاً تصحبه رائحة الأوراق المحترقة .

قال جارسيا مستأنفاً قراءة تقريره : « سأستمر . . وقال موجهاً كلامه الى مانيان : « إنها أنباء بطليوس هذا الصباح » .

الساعة الخامسة : دخل المغاربة قلعة سان كريستوبال التي حطمتها الغارة تقريباً .

الساعة السابعة : أخذت مدفعية الأعداء التي استقرت في قلعة سان كريستوبال تصلي المدينة وابلا من قنابلها دون انقطاع ، وقد صمد لها رجال الميليشيا ، وتحطمت صيدلية المستشفى الأقليمي بسبب غارة جوية .

الساعة التاسعة : تحول السور الشرقي الى رماد ، وفي الجنوب اشتعلت النيران في الثكنات ، ولم يتبق لنا سوى مدفعين رشاشين ، وما زالت مدفعية سان كريستوبال ، وما زال رجال الميليشيا صامدين .

الساعة الحادية عشرة : ظهرت دبابات الأعداء .

ووضع الورقة المكتوبة بالاختزال ، وتناول ورقة أخرى ، ثم قال في مرارة :

ـ « أما التقرير الثاني فشديد الإيجاز » .

الساعة الثانية عشرة : وصلت الدبابات الى الكاتدرائية ، تتبعها المدفعية ، ولكنها صدت .

قال : « إنني أتساءل : بماذا أمكن صدها ، فليس في بطليوس سوى أربعة من المدافع الرشاشة ! » .

ـ الساعة ١٦ : « قوات العدو تدخل المدينة » .

ـ الساعة ١٦ وعشر دقائق : « القتال يدور من منزل الى منزل » .

وسأل مانيان : « في الساعة الرابعة ؟ ولكن قيل لنا : اننا ما زلنا مسيطرين على بطليوس حتى الساعة الخامسة » .

ـ « لقد وصلت الينا الأنباء تواً » .

وتذكر مانيان شمس الساعة الخامسة بظلالها الطويلة الممتدة في شوارع تلك المدينة الصخرية الهادئة ، وكان قد اشترك في بداية الحرب سنة ١٩١٤ ، بأن التحق بالمدفعية ، وهناك عرف أنه لن يعلم شيئاً عن سير المعركة ، لأنه لم يكن يرى منها شيئاً ، وتلك المدينة التي كانت الدماء تجري فيها أنهاراً لم يكف عن رؤيتها مدينة هادئة صديقة . . كان يشرف عليها من عل . . كالإله ! « لقد دخلت الدبابات إلى الكاتدرائية » . .الكاتدرائية بظلها الهائل الممتد الى جوارها . . والشوارع الضيقة ، وحلبات مصارعة الثيران .

ـ « متى انتهت المعركة ؟ » .

قال فارجاس : « قبل مروركم بساعة باستثناء القتال الدائر داخل المنازل . . »

وقال جارسيا : « اليكم التقرير الأخير . . حوالي الساعة الثامنة . وربما كان قبل ذلك ، وهو منقول الينا من صفوفنا . . اذا كان هناك صفوف . . .

« تم تسليم المعتقلين الفاشيين السياسيين أصحاء سالمين ، أما رجال الميليشيا والمشبوهون المقبوض عليهم فقد تم إعدامهم ، وبذلك يكون عدد الذين أعدموا رمياً بالرصاص حتى الآن حوالي مائتين وألف ، وتهمتهم هي « المقاومة المسلحة » ونفذ حكم الاعدام في اثنين من رجال الميليشيا في الكاتدرائية ، على درجات سلم المذبح المقدس ، وكان المغاربة يحملون الألواح والقلب المقدس وظل الجنود منهمكين في تنفيذ أحكام الاعدام طيلة العصر . . وما برح إطلاق النار مستمراً » .

وتذكر مانيان منديلي « كارليتش وجيم » اللذين كانا يلوحان بهما في مودة فوق أولئك الذين يعدمون .

واتصلت من جديد الحياة الليلية في مدريد ، وتعالى النشيد الجمهوري من أجهزة الراديو جميعاً ، وترددت الأغاني من كل نوع ، وارتفعت «التحيات » عالية أو خافتة وفقاً لقربها أو بعدها ، مختلفة كأنها أنغام البيانو ، وامتزجت أصوات الأمل والحماس التي يتألف منها نسيج الليل ، فملأت الكون .

وهز فارجاس رأسه قائلاً : « خير لهم أن يغنوا » ثم بلهجة أشد همساً : « ستطول الحرب . . والشعب متفائل ، والزعماء السياسيون متفائلون . . والقائد جارسيا وأنا ينبغي أن نكون كذلك بما جبلنا عليه من مزاج . . . » .

وخفض حاجبيه في شيء من القلق . . وحينما يخفض فارجاس حاجبيه يتخذ هيئة رجل ساذج ، ويبدو شاباً على حين غرة ، ولاحظ مانيان أنه لم يخطر له قط أن دون كيشوت يمكن أن يكون قد مر بمرحلة من الشباب ! .

« تفكر في هذا النهار يا مانيان : لقد استطعت بطائراتك الست ، وبغارة

صغيرة على حد قولك أن توقف طابوراً بأكمله ، واستطاع ذلك الطابور بمدافعه الرشاشة أن يكتسح رجال الميليشيا ويستولي على بطليوس . ولاحظ أن رجال الميليشيا لم يكونوا جبناء ، إن هذه الحرب ستكون حرباً فنية ، ونحن نخوضها دون الحديث عن شيء سوى العواطف » .

- « ومع ذلك لا تستطيع أن تنكر أن الشعب هو الذي حافظ على أقليم الشارات ! » .

وأخذ جارسيا يراقب « مانيان » بنظرة فاحصة ، كان يعتقد شأنه في ذلك شأن فارجاس - أن الحرب تعتمد على التكنيك ، ولم يكن يعتقد أن زعماء العمال سيتحولون بقدرة قادر إلى خبراء ، ويؤمن بأن مصير الجبهة الشعبية يتوقف في جزء منه على الخبراء الفنيين ، وكل ما يصدر عن مانيان يثير إهتمامه : افتقاره الى الروح الاجتماعية مع الآخرين ، وشروده الظاهري ، وتكلفه ، وشعوره بالتفوق (كان في الواقع مهندساً من خريجي مدرسة السنترال) ، وطاقته الواضحة المنظمة التي كانت تتأرجح تحت نظارته المستديرة المحيرة ، وكان في مانيان شيء يجعله أشبه بصانع أثاث على الطراز القديم في ضاحية سان أنطوان ، وربما كان ذلك بسبب شاربه ، وكذلك في شفتيه المقلوبتين اللتين تدلان على سنه ، وفي نظرته حين يخلع نظارته ، وفي حركاته وابتسامته - يتبين المرء في هذا كله تلك السمة المعقدة التي تميز الرجل المثقف - ولقد أشرف مانيان على إدارة خط من أكبر الخطوط الجوية الفرنسية ، غير أن جارسيا الذي كان يجتهد في ألا يقيس المرء بمعيار وظيفته - حاول أن يستشف في مانيان طبيعته نفسها كإنسان .

قال فارجاس : « الشعب عظيم يا مانيان . . . عظيم حقاً ! ولكنه عاجز » .

فقال جارسيا : « لقد كنت في أقليم الشارات » وأشار الى مانيان بفم غليونه « فلنبحث الأمر في نظام ، إن رجال سييرا قد « باغتوا » الفاشيين ،

وكانت المواقع صالحة بالذات لشن حرب العصابات ، والشعب يملك القدرة على احداث صدمة كبيرة جداً ، ولكنها قصيرة جداً .

« ونحن يا عزيزي مانيان تؤيدنا وتدس لنا السم في الوقت نفسه أسطورتان أو ثلاث على جانب كافٍ من الخطورة : الأسطورة الأولى هي الفرنسيون : فالشعب (مكتوباً بحروف التاج) هو الذي قام بالثورة الفرنسية ، فليكن ، ولكن لا يمكن أن نستنتج من ذلك أن مائة حربة يمكن أن تهزم بضع غدارات فاسدة ، وأن مائة بندقية صيد يمكن أن تهزم طائرة جيدة . وجاءت الثورة الروسية ، فزادت الأمور تعقيداً ، فهي تعد من الناحية السياسية الثورة الأولى في القرن العشرين ، ولكن لاحظ أنها تعد من الناحية العسكرية آخر ثورة في القرن التاسع عشر . فلم يكن أعوان القيصر يملكون طائرات أو دبابات ، ولكن الثوار يستخدمون المتاريس ، كيف وُلدت المتاريس إذن ؟ للقتال ضد فرسان الملك ، لأن الشعب لم يكن لديه فرسان قط ، وأسبانيا مغطاة اليوم بالمتاريس ضد . . . طائرات فرانكو ! .

« وما أن سقط رئيس مجلس الوزراء العزيز حتى رحل الى جبال سييرا حاملاً بندقية . . وربما كنت لا تعرف أسبانيا يا سيد « مانيان » معرفة جيدة ؟ لقد قتل « جيل » صانع الطيارات الوحيد في اسبانيا في الجبهة ـ قتل بوصفه نفراً بين الجنود » .

ـ « اسمحوا لي . . إن الثورة . . » .

ـ « نحن لسنا الثورة . . والأحرى أن تسأل فارجاس عنها ، نحن الشعب ، أجل ، ولكننا لسنا الثورة ، وإن كنا لا نتحدث إلا عن ذلك . . . إنني أسمي ثورة ما كان نتيجة لحركة موجهة بوساطة تنظيمات (سواء أكانت سياسية أم تكنيكية . . أو ما شئت) تشكلت في أثناء الصراع ، وقادرة على أن تحل بسرعة محل النظم التي حطمتها » .

وقال فارجاس وهو يرفع سرواله الضيق : « ولا سيما أننا لسنا نحن

الذين قمنا بالمبادأة ، كما لا يخفى عليك يا مانيان . . ولم نؤلف تنظيماتنا بعد ، وفرانكو لا يملك أي تنظيمات على الاطلاق اللهم إلا التنظيمات العسكرية ، ولكنه يعتمد على الدولتين اللتين تعرفهما . . لقد هزم الجيس الأحمر رانجل وأعوانه ، ولم يهزمهم الوطنيون المتحمسون » .

وكان جارسيا يؤكد جملته بضربات من غليونه :

ـ « لم تعد هناك من الآن فصاعداً تغيرات اجتماعية أو بالأحرى ثورة دون حرب ولا حرب بلا تكنيك . إذن . . »

وأيد ڤارجاس هذا القول بإنحناءة من رأسه في نفس الوقت الذي كان جارسيا يحني فيه غليونه .

قال مانيان : « الناس لا يموتون من أجل التكنيك أوالنظام » .

ـ « في مثل هذه الظروف لا أعبأ بالأسباب التي يضحي الناس من أجلها بأرواحهم قدر اهتمامي بالوسائل التي يقتلون بها أعداءهم . . ومن ناحية أخرى أرجو أن تنتبهوا : أنت تظن أني حين أتحدث عن النظام أقصد ما تسمونه في بلادكم باستبداد السلطة ، كلا مطلقاً ، وإنما أعني بالنظام مجموعة الوسائل التي تعطي الجماعات المناضلة اعظم فعالية ممكنة (كان جارسيا مولعاً بتعريف الأشياء) . وهذا تكنيك لا يختلف عن غيره ، ومن العبث أن أقول لك : إنني لا أعبأ مطلقاً بالتحية العسكرية ! » .

ـ « إن ما نسمعه الآن من النافذة شيء إيجابي ، وأنت تعلم مثلما أعلم أننا لا نستغله أحسن استغلال . وأنت تقول : « نحن لسنا الثورة . إذن لنكن الثورة ! ولكن ألا تعتقد مع ذلك أن الديموقراطية ستهرع لمساعدتكم ؟ » .

قال مانيان : « لا تكن واثقاً الى هذا الحد يا مانيان ! » .

وسدد جارسيا فم غليونه الى الاثنين كأنه فوهة مدفع ، وقال :

ـ « لقد رأيت أن الدول الديموقراطية تتدخل ضد كل شيء تقريباً إلا ضد الدول الفاشية ، والدولة الوحيدة التي تستطيع أن تساعدنا إن عاجلاً أو آجلاً ـ بغض النظر عن المكسيك ـ هي روسيا ، ولكنها لن تساعدنا ، لأنها بعيدة عنا غاية البعد .

« أما فيما يتعلق بما يصل الى أسماعنا عن النافذة فإنه يا سيد مانيان رؤ يا الاخاء ، وهي شيء يؤثر على مشاعرك ، وإني لأفهم ذلك جيداً ، فهي من أشد الأشياء على الأرض تأثيراً في النفس ، وإن كنا لا نراها كثيراً ، ولكن ينبغي أن تتحول خوفاً من الموت » .

ـ « هذا ممكن تمام الامكان . . ولكن . اسمحوا لي . . . انني لا أوافق من جانبي ، ولا أريد أن أوافق على أن يقوم أي صراع بين ما يمثل النظام الثوري ، وأولئك الذين لا يفهمو ن بعد ضرورته . والحلم بالحرية الشاملة السلطة في أيدي أنبل الناس ، وما شاكل ذلك ، كل هذا يؤلف جزءاً في عيني من السبب الذي من أجله أوجد هنا ، وإنني أريد للجميع ولكل فرد حياة لا تتحدد بما يتطلبه من الآخرين ، أظن أنكم تفهمون ما أعنيه ؟ » .

ـ « أخشى أنهم لم يجعلوك تحيط بالموقف إحاطة تامة » .

ـ « نحن بصدد انقلابين منفصلين ، ولكنهما يحدثان معاً يا عزيزي السيد مانيان :

« . . الأول : ليس أكثر من صديقنا القديم العصبية العائلية . برجوس ، بلدالوليد ، يامبلونا ـ سييرا ، ولقد كان الفاشيون يسيطرون في اليوم الأول على حاميات اسبانيا جميعاً ، ولكنهم لا يسيطرون الآن إلا على ثلثها . . وقصارى القول أن هذا الانقلاب قد أصابته الهزيمة . . هزمته الرؤ يا .

« بيد أن الدولة الفاشية التي ليست حمقاء قد حسبت حساباً لإخفاق ذلك

الانقلاب ، ومن هنا تبدأ مشكلة الجنوب . . . فخذوا حذركم ، لأنه ليس من نفس الطبيعة .

« ولكي نتبين ما نتحدث عنه فلنطرح كلمة فاشية جانباً . « أولاً » فرانكو لا يعير الفاشية أي اهتمام ، فهو صبي ديكتاتور من الطراز الفنزويلي ؛ « ثانياً » : موسوليني نفسه لا يهتم بإقامة الفاشية في اسبانيا أو عدم إقامتها ، والمشاكل الأخلاقية شيء والسياسة الخارجية شيء آخر ، وكل ما يريده موسوليني حكومة يستطيع أن يتصرف فيها ، ولهذا الغرض جعل من مراكش قاعدة للعدوان ، ومن هذه القاعدة خرج جيش حديث بأسلحة حديثة ، ولما كانوا لا يستطيعون الاعتماد على الجنود الأسبان (فقد رأوا ما حدث في مدريد وبرشلونة) . فإنهم يعتمدون على قوات قليلة العدد ولكنها ذات قيمة فنية ، كالمغاربة والفرقة الأجنبية و . . . »

فقاطعه فارجاس قائلاً : « ليس في مراكش غير اثني عشر الفاً من المغاربة يا جارسيا » .

ـ « أؤكد لك أن عددهم أربعون ألفاً ، إن أحداً هنا لم يدرس ـ ولو أقل دراسة ـ الرابطة الحالية بين السلطات الروحية للإسلام وبين موسوليني . انتظروا لحظة فسوف تفاجأ انكلترا وفرنسا بمفاجآت ، واذا لم يكف فسيبعثون بالايطاليين يا صديقي الطيب » .

وسأل مانيان : « وماذا تريد ايطاليا ، في رأيك ؟ » .

ـ « لا أعلم . . . وفي رأيي أنهم يتطلعون إلى امكانية السيطرة على جبل طارق ، أعني القدرة على تحويل حرب انكليزية إيطالية ـ بطريقة تلقائية ـ الى حرب أوروبية ، بإرغام انكلترا على شن هذه الحرب عن طريق حليف أوروبي . وقد كان نزع السلاح النسبي في انكلترا من العوامل التي جعلت موسوليني يفضل الالتقاء بها وحدها . غير أن إعادة تسليحهاأبدل السياسة الايطالية تبدلاً عميقاً ، ولكن هذه كلها افتراضات . . . تدور في « مقهى

التجـارة » ، والمهم هو أن جيش فـرانكـو سيحـاول الاستيـلاء عـلى مـدريـد بسياراته المصفحة ومدافعه الرشـاشة وتنـظيمه الإيـطالي ـ الألماني ، وطيـاراته الايطالية الألمانية معتمداً على البرتغال بصورة ملموسه جداً وبمعـونة الـدولتين الفاشيتين ! وسيلجأ الى الارهاب الجماهيري كما بدأه في بطليوس لكي يحمي مؤخرته ، ولكن بماذا سنواجه ـ عملياً ـ هـذه الحرب الثـانية التي لا تشبـه في شيء حرب سييرا (اقليم الشارات) ؟ . . . هذا هو السؤال » .

وتـرك جارسيـا مقعده ، واقتـرب من مانيـان وقد ظهـرت ظلال أذنيـه المذببتين أمام المصباح الكهربي المضاء على المكتب .

ـ « والمسألة بـالنسبة لي ـ يـا سيد مـانيان ـ تتلخص في هـذا : إن حركـة شعبيـة كهذه أو ثـورة ، أو حتى تمرداً ـ لا يمكن أن تحـافظ على انتصـارها إلا بإتخاذ تكنيك « مضاد » للوسائل التي أتاحت لها لهذا الانتصار . . بـل أحيانـاً يكون هذا التكنيك « مضاداً » للعواطف . تأمل هذا القول في ضوء خبـرتك الخاصة . . فأنا أشك في أنك تؤسس فرقتك للطيران على الاخاء وحده . . .

« إن « الرؤ يا » تريد كـل شيء . وفي الحال ، أمـا الثورة فتحصـل على القليل على مهل وفي اصرار ، ويكمن الخطر في أن كل إنسان ينطوي في ذاته على الرغبة في تحقيق « الرؤ يـا » وهذه الـرغبة تتحـول في الصراع ـ بعـد زمن قصير ـ الى هزيمة محققة لسبب بسيط ، هو طبيعتها نفسها . لأن « الرؤ يا » لا مستقبل لها . . . حتى لو ادعت أن لها مستقبلاً » .

وأعاد غليونه الى جيبه ، واستطرد قائلاً بلهجة حزينة :

ـ « ووظيفتنا المتواضعة ـ يا سيد مانيان ـ هي تنظيم « الرؤ يا . . . »

٢ ـ تمرين على الرؤيا

الفصل الأول

دخل جارسيا ـ يتقدمه أنفه وغليونه ـ إلى مركز القيادة في طليطلة ، وكان هذا المركز ـ من قبل ـ حانوتاً للأحذية .

وعلى يمين الباب ألصقت صورة فوتوغرافية كبيرة انتزعت من مجلة مصورة ، وكانت تمثل الرهائن التي ساقها الفاشيون الى القصر Alcazar ، تلك الرهائن التي كان ينبغي حمايتها حين تهجم القوات الجمهورية على الأنفاق ، وكان تحت كل شخص اسم : السيدة س . . . ، الشاب س ، والطفل س . . . » وكأنه من الممكن أن يتذكر المتحاربون تلك الوجوه في معمعات القتال ! ودخل جارسيا . . . ترك الشمس الساطعة والصدور العارية والقبعات المكسيكية ، فبدت له الحجرة في ظلام دامس .

وكانت ثمة أصوات تتصايح : « المدفعية تطلق نيرانها علينا ؟ » .

ـ « أي مدفعية يا نجاشي ؟ » .

ـ « مدفعيتنا . » .

ـ « لقد اتصلت بهم تليفونياً وأخبرتهم أنهم يطلقون النار على مسافة قصيرة جداً ! فاجابني الضابط : « يكفيني الآن ما أطلقته على رجالي ! والآن ساقوم بتغيير الهدف » .

فقال صوت يخلو من كل بساطة وبلكنة فرنسية واضحة : « هذا تحد

لأقدس مبادىء المدنية » .

وقال الكابتن بصوت أكثر خفوتاً يتسم بالمرارة والتعب في آن واحد : « هذا وجه خائن آخر» وبدأ جارسيا في تمييز ملامح وجهه ، ثم أضاف مخاطباً أحد الضباط برتبة ملازم : « خذ عشرين رجلاً ومدفعاً رشاشاً وتعقبهم » . وأخيراً قال للسكرتير :

ـ « أطلع الكولونيل على الأنباء » .

قال النجاشي : « فيما يتعلق برجل المدفعية فقد أرسلت ثلاثة من الزملاء لتسوية حسابه » .

ـ « ولكنني قد فصلته . . . ماذا كنت تريد . . ؟ فاذا لم يكن الاتحاد الفوضوي الأبيري قد أعاده . . . » .

ولم يسمع جارسيا نهاية الجملة ، ومع ذلك فقد كانت الضجة في الداخل أقل كثيراً منها في الخارج . وكانت بعض الانفجارات تصعد عن الأرض من حين الى آخر فتقاطع « موكب الفالكيري »[1] التي كانت تنبعث من مذياع الميدان ، واعتادت عيناه العتمة ، فاستطاع الآن أن يميز الكابتن « ارنانديث » : كان يشبه ملوك اسبانيا في اللوحات الشهيرة ، وهؤلاء جميعاً يشبهون شارل الخامس في شبابه .

وكانت النجوم المذهبة فوق كتفه تلمع في الظل لمعاناً خافتاً ، وأخذت تتضح حوله بقع منتظمة على الجدار شيئاً فشيئاً حتى أحاطت به كما تحيط بتماثيل بعض القديسين الأسبان شعاعات « قصيرة » ، ولم تكن هذه البقع سوى نعال ونماذج تركها صانع الأحذية في حانوته ، والى جانب الكابتن كان يجلس « سيلز » وهو أحد الفوضويين المسؤولين من لشبونة .

---

(١) مقطوعة موسيقية في إحدى أوبرات فاغنر . (المترجم) .

وأخيراً التقت نظرة ارنانديث بجارسيا الذي تدلى غليونه من ركن ابتسامته .

ـ « القومندان جارسيا ؟ لقد اتصلت المخابرات الحربية تليفونياً . . . » وضغط على يده ثم سحبه الى الشارع .

ـ « ماذا تريدني أن أفعل ؟ » .

ـ « أن أصحبك بضع ساعات ، إذا سمحت . . ثم سنرى . . » .

ـ « أنا ذاهب الآن الى سانتا ـ كروز . وسنحاول تفجير الديناميت في مباني الحكومة العسكرية . . » .

ـ « هيا بنا » .

ونظر النجاشي ـ الذي كان يتبعهما ـ الى جارسيا في تعاطف ، فلأول مرة تبعث اليهم مدريد بمندوب وسيم ، وكان جارسيا يرتدي صديرياً من الجلد ولا يبدو عليه أنه من البورجوازيين بأذنيه المرحتين ، وجسمه القوي ، وإلى جانب النجاشي كان ثمة رجل يلوح بيديه ، وقد أرتدى سترة من « الألباجا » وبنطلون ركوب ، وبدا وجهه مؤلفاً يلوح من عظام وغضون ، وتهدل شعره المموج الذي وخطه الشيب على جانبي وجهه . كان هذا الرجل هو الكابتن « مرسيري » الذي أرسله مانيان الى وزارة الحرب ، ووضعه تحت تصرف قائد طليطلة الحربي .

وصاح صوت بالحانوت : « أيها الرفيق أرنانديث ، لقد ابلغنا الملازم لاريتا بالتليفون أن ضابط المدفعية قد لاذ بالفرار . . . » .

ـ « فليحل هو مكانه » .

وهز ارنانديث كتفيه في اشمئزاز ، وتخطى آلة خياطة تعترض الشارع ، وكانت كوكبة من الحراس تتبعهما .

وتساءل جارسيا في شيء من السخرية : « من القائد هنا ؟ » .

- « ومن تريده أن يكون ؟ الجميع ، ولا أحد . أنت تبتسم ؟ . . » .

- « إنني أبتسم دائماً . . وهي حركة عصبية مرحة . من الذي يصدر الأوامر ؟ » .

- « الضابط . . والمجانين . . ومندوبو المنظمات السياسية . . وآخرون لست أذكرهم . . . » .

ولم يكن ارنانديث يتحدث بلهجة عدائية ، وإن كانت هزة من شاربه الأسود فوق شفته الرقيقة توحي بشيء من القنوط .

وسأله جارسيا : « ما العلاقات القائمة بين ضباطكم المحترفين والمنظمات السياسية ؟»

ونظر اليه ارنانديث دون أن يأتي بحركة ، أو ينبس بحرف ، كأن شيئاً لا يستطيع أن يعبر عما يكتنف تلك العلاقات من كوارث ، وصاحت الديكة في وضح النهار .

وتساءل جارسيا : « لماذا ؟ لأن كل أحمق يزعم أنه يملك السلطة ؟ والثورة تبدأ دائماً بأن تكون ادعاء عريضاً للسلطة » .

- « هذا أولاً . . ثم يأتي بعد ذلك الجهل المطلق الذي يتصف به أولئك الذين يأتون لمناقشتنا في المسائل الفنية . . إن من الممكن سحق رجال الميليشيا هؤلاء بألفين من الجنود الذين يعرفون مهنتهم ، وعلى الجملة فإن نفس الزعماء السياسيين الحقيقيين يؤمنون بالشعب بوصفه قوة عسكرية ! » .

- « أما أنا فلا اؤمن بذلك ، على الأقل ليس الآن ، ثم ماذا ؟» .

وفي الشوارع التي أقتسمتها الظلال كانت الحياة تجري على وتيرتها المألوفة ، والبنادق وسط سلال الطماطم ، وتوقف جهاز الراديو عن اذاعة

مقطوعة « موكب الفالكيري » . وارتفعت مكانها أغنية من أغاني الفلامنكو ينشدها صوت أجش جياش بالعاطفة يمزج بين لوعة الحزن وصيحة رجال القوافل اليائسة . وكان رائحة الجثث تتشبث بالمدينة كما تتشبث أيدي القتلى بالأرض .

- « ولا بد أولاً - يا قائدي - لكي تكون اشتراكياً أو شيوعياً أو عضواً في أي حزب من أحزابنا الليبرالية - من حد أدنى من الضمانات ، بيد أن المرء يدخل كما يدخل طاحونة ، وهذا شيء آخر ، وفي كل مرة نلقي القبض على شخص من الفلانجيين معه بطاقة عضوية الاتحاد القومي للعمال » .

« وهناك فوضويون ممن لهم قيمة ، كهذا الرفيق الذي يسير خلفنا مثلاً ، ولكن ما دام مبدأ الباب المفتوح قائماً فإن الكوارث جميعاً تدخل من هذا الباب ! وهأنتذا قد رأيت ما حدث بالنسبة لضابط المدفعية » .

- « ما الأسباب التي تدفع بالضباط المحترفين إلى أن يكونوا معكم ؟ » .

- « إن منهم من يعتقد أنه ما دام فرانكو لم ينجح الآن فالهزيمة محيقة به ، ومنهم من يرتبط بهذا الضابط العظيم أو بذاك من أعداء فرانكو ، مثل مولا أو غيره ، ومنهم من لم يتحرك سواء بسبب التردد أو الخوف . . » .

« وقصارى القول أنهم وجدوا أنفسهم معنا ، فظلوا معنا . . ولكن منذ أن شرعت اللجان السياسية في الحملة عليهم تراهم يأسفون لأنهم لم يرحلوا . . . » .

وكان جارسيا قد رأى في سييرا ضباطاً يزعمون أنهم جمهوريون ، ويؤيدون ما يقوم به رجال الميليشيا ولوكان مايقدرون به خالياً من أي معنى ، ولكنهم يبصقون على الأرض حالما ينصرفون ، كما شاهد ضباط أحد المطارات العسكرية يسحبون المناضد والمقاعد من مطعمهم حين يصل متطوعون أجانب يرتدون ثياباً بالية ، ولكنه شاهد من ناحية أخرى ضباطاً محترفين يصححون أخطاء رجال الميليشيا في صبر لا يكل ، ويعلمون وينظمون وهو

يعرف مصير الضابط الجمهوري الذي عين قائداً للفرقة الثالثة عشرة للفرسان ، وهي إحدى الفرق المتمردة في بلنسية ، وكان قد ذهب ليتولى قيادتها داخل الثكنة المتمردة . ودخل وهو يعلم تمام العلم المخاطرة التي يقدم عليها ، وأغلق الباب وراءه ، وسمع الناس طلقات رصاص .

ـ « ألا يتعاون أحد من ضباطك مع الفوضويين ؟ » .

ـ « أسوأ الضباط هم الذين يتعاونون معهم جيداً . . . والوحيد الذي يطيعه الفوضويون أو الذين يزعمون أنهم فوضويون ـ هو الكابتن الفرنسي . . انهم لا يأخذونه مأخذ الجد ، ولكنهم يحبونه » .

ورفع جارسيا غليونه متسائلاً ؟ وقال ارنانديث :

ـ « إنهم يسدون اليَّ نصائح تافهة في التكنيك ، ونصائح ممتازة في النواحي العلمية . . » .

وكانت الشوارع جميعاً تتلاقى في الميدان الذي يفصل المحاصرين عن «القصر» Alcazar ، ولما لم يكن جارسيا وأرنانديث يستطيعان أجتيازه فقد دارا حوله ، وأخذت خطوات جارسيا ترن على أرض شارع شارل الخامس على حين كان ارنانديث يجر رجليه ، غير أنهما كانا ـ يجدان الميدان مرة ثانية عند نهاية كل شارع تسده الحشيات ، وكل حارة اقيمت فيها متاريس واطئة من الحقائب .

وكان الرجال يطلقون الرصاص وهم رقود دون أن تنتظمهم تشكيلات فأصبحوا بذلك هدفاً واضحاً للمدافع الرشاشة .

وسأل جارسيا وهو يراقب زميله بطرف عينيه : « ما رايك في هذه المتاريس ؟ » .

ـ « هو نفس رأيك . . ولكنك سترى » .

واقترب أرنانديث من الشخص الذي كان يبدو عليه أنه يشرف على المتاريس : وكان له وجه حوذي وشوارب . . ويا لها من شوارب ! وعلى رأسه قبعة مكسيكية من أجمل طراز ، ويكسو الوشم جسده كله ، وقد ثبت على ذراعه اليسرى بحبل من المطاط رأس ميت من الألومنيوم .

ـ « كان ينبغي رفع المتاريس بحوالي خمسين سنتيمتراً ، وتفريق الرماة أكثر من ذلك ، ووضع بعضهم في النوافذ ، على هيئة الرقم « سبعة » .

وزمجر المكسيكي وسط ضجة قريبة أحدثتها طلقات الرصاص قائلاً : « أوراقك ؟ » .

ـ « ماذا ؟ » .

ـ « أوراقك التي تثبت شخصيتك ! » .

ـ « أنا الكابتن أرنانديث قائد قطاع زوكو دوفر » .

ـ « إذن فأنت لست من أعضاء الاتحاد القومي للعمال ، فهل يعنيك متراسي في شيء ؟ » .

وتفحص جارسيا القبعة العجيبة : كان يحيط بقبتها تاج من الورود الصناعية ، وتحتها شريط من القماش يحمل هذه العبارة مكتوبة بالحبر : « مرعب بانشو فيلا » .

وسأله جارسيا : « ما معنى هذا : مرعب بانشو فيلا » .

فأجاب الآخر : « معناه واضح بما فيه الكفاية » .

فقال جارسيا : « طبعاً » .

ونظر اليه ارنانديث صامتاً . وانصرفوا . وكانت الأغنية الرائعة قد انتهت من المذياع ، وفي أحد الشوارع أمام حانوت لبيع اللبن اصطفت أوعية اللبن ، والى جانب كل وعاء بطاقة من الورق المقوى كتب عليها اسم من

الأسماء ، فقد كـان تكوين طـابور يضـايق السيـدات ، ومن ثم فقـد تـركن أوعيتهن لكي يملأها بائع اللبن ، وسيعدن لأخذها . . اللهم إلا إذا . . .

وانقطع اطلاق النار . . . وظلت خطوات الحارس وحدها ترن لحظة في السكون . وتناهى الى جارسيا صـوت يقول : « كما كانت تكتب الى مـدام مرسيري وهي سيدة مثقفة جداً . . أيها الرفاق . . وهم يخطئون إذا اعتقدوا انهم يستطيعون محو وصمات هزائمهم في افريقيا بدماء العمال !» ولم تلبث ان طغت على هذا الصوت ضجة أحدثتها طفلة بقبقاب الانزلاق .

وعـاد اطـلاق النـار . . . وهـذه شـوارع اخـرى في حمى من رصـاص « القصر » وما برحت تتقاسمها الظلال . . . وهناك على الجـانب المظلم كـان أناس يتحدثون أمام الأبـواب : منهم من كان واقفـاً ، ومنهم من استند عـلى بنادق الصيد ، على حين جلس الباقون ، وفي زاويـة من زوايا الحـارة ، كان ثمـة رجل يـرتدي قبعـة لينة وصـديريـاً برغم حـرارة الجو ، ويعـطي الناس ظهره ، ويطلق النار وحده .

وكانت الحارة تمتد حتى جدار مرتفع جداً هو ظهر أحد الأبنية المطلة على الميدان . . . ولم تكن فيه ثغـرات أو نوافـذ يتربص منهـا عدو . وطفق ذلـك الرجل يطلق على الجدار رصاصة تلو رصاصة محوطـاً بالـذباب ، ولما استنفد دخان الرصاص وضع خزاناً آخر ، وسمع وقع خطوات التي تـوقفت خلفه ، فالتفت ناحيتها ، كان في الأربعين من عمره وله وجه تلوح عليه سيماء الجد .

- « إنني أطلق الرصاص » .

- « على الحائط » .

- « على أي شيء أستطيع » .

ونظر الى جارسيا في وقار .

- « ألك أطفال في الداخل ؟ » .

فنظر اليه جارسيا دون أن يجيب .

ـ « أنت لا تستطيع أن تفهم » .

واستدار الرجل ، ثم شرع يطلق النيران من جديد على الأحجار الضخمة ، وأستأنفوا سيرهم .

وسأل جارسيا ارنانديث وهو يربت بغليونه ربتة خفيفة على ظهر يده اليسرى :

ـ « لماذا لم نستولِ حتى الآن على القصر ؟ » .

ـ « وكيف نستولي عليه ؟ » .

ومضوا في سيرهم .

« إن أحداً لم يستول على قلعة ما باطلاق النيران على نوافذها . . . هناك شيء اسمه الحصار . . . ولكن لا هجوم . فماذا تنتظر ؟ . . . » .

ونظروا الى الأبراج .

ـ « هناك شيء غريب في هذه الرائحة . . ايها القائد ، القصر « لعبة » ولم أعد أشم رائحة العدو ، كنت أشمها في البداية ، أما الآن فقد اختفت ، فاذا اتخذنا اجراءات حاسمة فسنشعر بأننا مجرد قتلة . هل ذهبت الى سرقسطة ؟ » .

ـ « ليس بعد ، ولكنني أعرف وشقة » .

ـ « حين يحلق المرء فوق سرقسطة يرى الأحياء محفورة بقنابل الطائرات أما النقاط الاستراتيجية كالثكنات وغيرها فقد قذفت بالقنابل عدداً من المرات يقل عشراً عن المدينة المفتوحة . . . ولم يكن ذلك نتيجة للارتباك أو الجبن ، وإنما لأن الحرب الأهلية أسرع في عملها من البغض الذي يتولد في كل لحظة بين الناس . لابد مما ليس منه بد . . هذا شيء مفهوم ، ولهذا لا أحب أن

أرى تلك المصفاة المحيطة بسرقسطة . . كل ما في الأمر انني اسباني ، وأستطيع أن أفهم . . . »

وقاطعت الكابتن ضجة هائلة من التصفيق لم تلبث أن تلاشت في ضوء الشمس ، وكانوا يمرون أمام قاعة متواضعة للموسيقى تغطيها الإعلانات ، وهز ارنانديث كتفيه في شيء من الكلال ، كما فعل من قبل ، وأستأنف سيره بخطوة أبطأ قليلاً

ـ « ليس رجال الميليشيا في طليطلة هم وحدهم الذين يهاجمون القصر ، وإنما اكثر المهاجمين من طليطلة نفسها ، والأطفال الذين سجنهم الفاشيون ، هم ابناء رجال الميليشيا في طليطلة . . فماذا تريد ؟ » .

ـ « كم عدد الرهائن ؟ » .

ـ « من المحال معرفة هذا العدد . . . وجميع التحريات عنه تذهب أدراج الرياح . هو عدد كبير على كل حال ، معظمه من النساء والأطفال ، وفي البداية اعتقلوا كل من استطاعوا اعتقاله ، وليست الرهائن هي ما يشل حركتنا ، وإنما أسطورة الرهائن . . . وربما لم يكونوا بالكثرة ، التي نظنها جميعاً . . . » .

ـ « من المستحيل إذن معرفة العدد ؟ » .

وكان جارسيا قد شاهد ـ كما شاهد الكابتن ـ صورة النساء والأطفال معروضة في « الجيفاتورا » (وكان هؤلاء رهائن بلا أدنى جدال) وصور الحجرات الخالية واللعب التي تركها الأطفال .

ـ « لقد حاولنا ذلك أربع مرات . . . »

ووصلوا الى « سانتا كروز » وسط غبار أثارته جماعة من الفرسان الفلاحين الذين يشبهون قافلة مغولية . ووراءها كانت نوافذ أعداء الحكومة العسكرية يشرف فوقها « القصر » .

ـ « هل هذا هو المكان الذي تريد أن تجرب فيه الديناميت ؟ » .

ـ « أجل » .

واجتازوا ركاماً مختلطاً من الحدائق المحترقة ، ومن القاعات الرطبة ومن السلالم ، حتى بلغوا قاعة المتحف ، وكانت النوافذ مسدودة بزكائب من الرمل وبحطام التماثيل ، وأخذ رجال الميليشيا يطلقون نيرانهم في جو أشبه بجو الأفران ، وقد تناثرت على صدورهم العارية بقع من الضوء فبدوا كالفهود ذوي النقط السوداء . وكان رصاص الأعداء قد جعل الجزء الأعلى من الحائط مثل المصفاة، ووراء جارسيا كانت أحزمة رصاص المدافع معلقة على ذراع أحد الرسل الممدودة كأنها قطع من الثياب نشرت لتجف ! .

وأقترب مرسيري منه لأول مرة وقال وهو يعدل قامته :

ـ « يا قائدي ، أحب أن أخبرك بأن أجمل التماثيل قد وضعت في مكان أمين » . فحدث جارسيا نفسه قائلاً : « فلنأمل ذلك » . ووضع يده في يد أحد القديسين .

وتوالت الدهاليز ، والحجرات المظلمة ، حتىوصلواالى برج . وفيها وراء أحجار القرميد التي حال لونها بفعل الشمس كانت الحقول القشتالية التي يكسوها قمح الحصاد مشتعلة بزهورها الحمراء حتى تلتقي بالأفق الأبيض ، واكتشف جارسيا الجبانة وقد استبدت به كل تلك الانعكاسات من النور الباهر والحرارة الشديدة حتى أوشك أن يقيء ، وأحس بشيء من التواضع ، وكأن هذه الأحجار وتلك الأضرحة الناصعة البياض في ذلك الخلاء الضارب الى الحمرة قد جعلت من كل صراع شيئاً تافهاً لا غناء فيه ، وعبرت بضع رصاصات في أزيز ناعم كطنين النحل ، على حين أحدث بعضها الآخر في الوقت نفسه رنيناً صلباً من ارتطامه بقوالب القرميد ، وتقدم أرنانديث قابضاً على مسدسه ، وقد انحنى جسده ، وتبعه جارسيا ومرسيري ورجال الميليشيا الذين يحملون الديناميت ، وقد أحرقت الشمس ظهورهم

جميعاً ، وأحرقت قوالب القرميد بطونهم بانعكاس الحرارة المتجمعة فيها ، وكان الفاشيون يطلقون نيرانهم على بعد عشرة أمتار ، وقذف أحد رجال الميليشيا بلفافة انفجرت فوق أحد الأبراج ، فتناثرت قوالب القرميد حتى بلغت الجدار الذي احتمى فيه حاملو الديناميت وارناند يث وجارسيا وانتشرت فوقهم شبكة هائلة من الرصاص .

قال مرسيري : « هذا عمل رديء » .

وانضم مدفع رشاش الى المعمعة . وقال جارسيا في نفسه : « لو أن قنبلة يدوية واحدة سقطت في هذا الديناميت . . ! ونهض مرسيري وقد ظهر نصفه الأعلى فوق الحائط ، ولم يكن الفاشيون يرون من جسمه إلا ذلك النصف الأعلى ، فأخذوا يطلقون على هذا الجسم الغريب الذي يرتدي صديرية، من « الألباجا » (الصوف) ورباط عنق أحمر ، ويلقي بحملة من الديناميت في حركة رامي القرص ، وقد سد أذنيه بالقطن .

وطار البرج كله في الهواء في جلبة وحشية ، وفيها كانت قوالب القرميد تتطاير عالياً وتتساقط بين الصرخات جلس مرسيري القرفصاء وراء الحائط الى جنب ارنانديث .

قال مخاطباً رجال الميليشيا الذين تسللوا وراء الحائط بحمولتهم : « افعلوا مثل هذا ! » .

وكان وجهه على بعد عشرين سنتيمتراً من وجه الكابتن الذي سأله :

ـ « كيف كانت حرب سنة ١٩١٤ ؟ » .

ـ « نعيش . . . لا نعيش . . ننتظر . نوجد هناك من أجل شيء . . . نخاف . . » .

والوا قع أن مرسيري أحس بالخوف آتياً لأنه تسمر في مكانه ، وأمسك بمسدسه مصوباً ورأسه كله في العراء ثم أطلق النار ، ها هو ذا يتصرف من

جديد ، وعلى هذا النحو تبدد خوفه ، وأنفجرت الشحنة الثانية من الديناميت .

وكانت شرابة الطاقية التي يلبسها ارنانديث في مواجهة شرخ في الجدار فطوح بها الهواء الى الجانب الآخر من وجهه ، فسقطت الطاقية ، وكان رأس أرنانديث أصلع فأعاد الطاقية اليه ، وبذلك عاد شاباً .

وأخترقت الجدار بضع رصاصات أمام أنف جارسيا الذي قرر أخيراً اطفاء غليونه ووضعه في جيبه . وفي هذه اللحظة انفجر الجزء الأمامي من المبنى الفاشي وكأنه نُسف ، وبدت الدماء كأنها تنبثق من رأس أحد رجال الميليشيا الذي تداعى الى يمين جارسيا وما زالت يده التي قذفت بالديناميت مرفوعة في الهواء . وفي الفراغ الذي ظهر بسقوط هذا العنق الذي انبجس منه الدم ، وعلى البعد من أمام الجبانة ، وعلى شرفة من القصر، ووسط خط النار - كانت تقف سيارة سليمة في مظهرها في نور الشمس الحاد ، وجلس اثنان في المقاعد الأمامية ، وثلاثة في الخلف ، لا يتحركون . وعلى بعد عشرة أمتار . . إلى أسفل ، رقدت امرأة ، وقد وضعت رأسها الذي يعلوه شعر ملفوف على هيئة خصلات من تجويف ذراعها ، ومدت يدها (بيد أن رأسها كان يشير الى أسفل الوادي) . . . وكان يخيل لمن يراها أنها نائمة لولا أن ثوبها كان لاصقاً بالأرض التصاق الجثث ، ولم تكن تلك الأشباح المشتعلة بالشمس أشباح أموات إلا بما ينبعث منها من رائحة .

وسأله أرنانديث : « ألا تعرف في مدريد خبراء في المفرقعات ؟ » .

- « كلا » .

وكان جارسيا لا يرى أمام ناظريه سوى الجبانة ، وقد استولى على أحشائه ذلك الشعور بما في اشجار السرو وتلك الصخور من طابع أبدي ، ونفذت رائحة الجثث العفنة حتى بلغت دقات قلبه ، وشاهد ضوء النهار الباهر وهويمزج بين الموتى والقتلى في شعلة واحدة ، وانفجرت الشحنة الأخيرة

من الديناميت في الجزء الأخير من المبنى الفاشي .

* * *

وفي قاعة المتحف ، كانت الحرارة هي نفسها ، والضجة لا تتغير أبداً . وطفق رماة الديناميت ورجال الميليشيا الذين يعملون في السراديب ، والذين يعملون في المتحف يهنئون بعضهم بعضاً .

واستعاد جارسيا صديريته من سبابة القديس ، وكانت البطانة قد تعلقت بها ، ورفض القديس أن يتخلى عنها ، ومن سلم يفضي الى قبو ما صعد رجال الميليشيا بصدورهم العارية يحملون ثياب القداس التي أخذ الذهب الضارب الى الخضرة والحرير الوردي الفاتح فيها يتألقان تألقاً خافتاً ، وكان رجل آخر من رجال الميليشيا يضع على مؤخرة رأسه قبعة من طراز القرن السادس عشر ، وقد دق وشماً على ذراعه ، يسجل تلك الثياب .

وتساءل جارسيا : « ما معنى هذا الذي صنعناه ؟ » .

ـ « إن تدمير هذه المباني يجعل كل خروج للمتمردين أمراً مستحيلاً . هذا كل ما في الأمر . . وهذا أقل الأشياء حماقة . . . وكنا حتى الآن نستخدم قنابل تحتوي على البنزين وعلى حامض الكبريت محوطة بغلاف من كلورات البوتاسيوم والسكر . . . ومع ذلك . . » .

ـ « أفما زال طلبة الكلية الحربية يحاولون الخروج ؟ » .

ورفع مرسيري ـ الذي كان الى جانبه ـ ذراعيه وقال :

ـ « أنت الآن تقف أمام أعظم افتراء في التاريخ ! » فنظر اليه جارسيا مستفسراً .

ـ « سأقدم لك أيها القائد تقريراً عن ذلك » .

ووضع ارنانديث يده على ذراع جارسيا ، وابتعد مرسيري احتراماً

لتدريج الـرتب . ونظر ارنـانديث الى القـومندان وكـأنه يقـول : « هذا شيء تجاوز كل حد » وهو نفس التعبير الذي ارتسم عـلى وجهه حـين أثير مـوضوع العلاقات بين الضباط والمنظمات الفـوضويـة ـ مع إضـافة شيء من الـدهشة عليه ، وسمع الجميع صوت طائرة .

ـ « وأنتم أيضاً ! يا رجال المخابرات العسكرية ! . . . »

وأنصت جارسيا بأنفه مشرعاً في الهواء وعينه الجاحظة متنبهة :

ـ « إن كلية القصر اختـراع بديـع من اختراعـات الدعـاية ، فـلا وجود لأكثر من عشرين طالباً في الداخل ، وحين قامت الثـورة كان طـلاب الكلية العسكرية جميعاً في العطلة الصيفية ، ويقوم بالدفاع عن القصر الحرس المدني بقوة ضباط المدرسة الحربية ، مثل موسكاردو وغيره . . . »

ووصل عشرة من رجال الميليشيا راكضين ، يصحبهم النجاشي .

ـ « ها هم أولاد يحملون مرة أخرى قاذفة اللهب ! » .

ومن دهاليز ذات سلالم وصل أرنانديث وجـارسيا والنجـاشي ومرسيـري ورجـال الميليشيا الى قبـو له قبـة عاليـة مليء بـالدخـان وطلقات الـرصاص ، ومفتوح أمامهم على دهليز كبـير تحت الأرض تحولت فيـه سحب الدخـان الى اللون الأحمر . وكان رجال الميليشيا يجتازونه راكضين حاملين بـأيديهم أو بـين أذرعهم دلاء مملوءة بالماء . ولم تكن ضجـة القتال في الخـارج تصل اليهم إلا في صعوبة ، وفي إصرار حلت رائحة البنزين محل رائحـة الجثث النتنة ، لقـد كان الفاشيون داخل الدهليز ، كانت فتحة قاذفة اللهب التي تلمع في الظلام كالفوسفور قد وصلت عن طـريق الدهليـز ، وأخذت تـرش السقف والجدار المواجه ، والأرض في حركـة بطيئـة نوعـاً ما ، وكـان الفاشي الـذي يمسك بها مضطراً الى رفع خرطوم طويل مليء بالبنزين . ولما كان اطار البـاب يعـوق الخـرطـوم الملتهب ، فـإنـه لم يكن يستـطيـع أن يبلغ يمـين الحجـرة أو شمالها . وعلى الرغم من الفورة التي كان يلقي بها رجال الميليشيا جرادل الماء

على الجدار ، وعلى البنزين الزاحف ، فقد أحس أرنانديث أنهم ينتظرون اللحظة التي يظهر فيها الفاشيون من الباب ، ومن الطريقةالتي كان بعضهم يلتصق بها بالجدار ـ أحس أنهم على استعداد للفرار ، ولم يكن للحرب أي دخل في هذا الصراع بين الانسان وعنصر من عناصر الطبيعة ، وزحف البنزين على حين أخذ حماس رجال الميليشيا الذين يرشون الماء على الجدران في الفتور ، وأختلط أزيز البخار بسعال الرجال الذين اختنقت حلوقهم برائحة البترول الحادة ، وما ينبعث من قاذفة اللهب ومن روائح أخرى لاذعة ، وتقدمت رقعة البنزين الزاحفة خطوة خطوة ، فضاعفت ألسنة اللهيب الزرقاء المتشنجة من هياج رجال الميليشيا ، وألقت تلك الألسنة عناقيد من الظلال المخبولة طفقت تتراقص على الحائط كأنها قطيع من الأشباح يدور حول حماقة بني البشر الأحياء ! وكان الرجال في هذه اللحظة أتفه من تلك الظلال الملتاثة ، وأتفه من ذلك الضباب الخانق الذي يحيل كل شيء إلى أطياف ، وأتفه من هذا الأزيز الوحشي الذي يحدثه الماء وألسنة اللهب ، وأتفه من الأنات الصغيرة التي أنبعثت من شخص محترق ، ارتفع صياحه من الأرض قائلاً :

ـ « لم أعد أرى شيئاً . . لم أعد أرى شيئاً . . أخرجوني ! ».

وأمسك به ارنانديث ومرسيري من كتفيه ، وسحباه ، ولكنهظل يصرخ قائلاً : « إسحبوني » .

ووصلت قاذفة اللهب الى مدخل الحجرة ، وكان النجاشي واقفاً بطول الباب ، ملتصقاً بالحائط قابضاً على المسدس بيده اليمنى ، وفي اللحظة التي بلغ فيها الجزء النحاسي من قاذفة القنابل زاوية الجدار قبض عليه براحة يده اليسرى . وقد أحاط شعره الناعم بوجهه في هالة زرقاء على خلفية لهب البنزين ، ولكنه تركه في الحال بعد أن أحرق جلده ، وكان الرصاص ينهال من كل جانب ، وقام الفاشي بقفزة مائلة لكي يصوب تيار اللهب على النجاشي الذي كان يضع يده على صدره فعلاً ، وأطلق النجاشي النار ،

وسقطت قاذفة اللهب المشتعلة وهي ترن على بلاط الحجرة ملقية بالظلال كلها على السقف ، وترنح الفاشي فوق الضوء الصادر من القاذفة على الأرض ، وقد أضيء وجهه من أسفل ـ وكان ضابطاً كبير السن الى حد ما ـ فبدا واضحاً تمام الوضوح في ضوء البنزين الفوسفوري . وسقط أخيراً الى جوار النجاشي في بطء كحركة السينما البطيئة ورأسه في المكان الذي يتدفق منه اللهيب المغلي ، فلفظه اللهب كرفسة بالقدم ، وأدار النجاشي قاذفة اللهب الى الناحية المضاءة ، فغرقت الحجرة كلها في ظلام تام على حين بدا القبو مليئاً بسحب تهرب منها الظلال .

واندفع رجال الميليشيا راكضين الى الدهليز المستطيل حيث تدفق الآن تيار اللهب الأزرق محدثين جلبة هائلة من الصيحات وطلقات البنادق . . . وفجأة ، انطفأ كل شيء ما عدا مصباحاً من مصابيح العاصفة ، وشعلة كهربائية ، وقال صوت في الحجرة :

ـ « لقد قطعوا البنزين حين رأوا أننا قد استولينا على قاذفة اللهب » . ثم قال الصوت نفسه بعد لحظة : « إنني أعرف ما أقول ، فقد كنت قائداً لفرقة مطافىء » .

وصاح ارنانديث من الدهليز أيضاً : « توقفوا ! فهناك متراس في نهاية الدهليز ! » .

وعاد النجاشي من الدهليز ، وكان رجال الميليشيا قد شرعوا في إشعال مصابيح العاصفة ، وقال النجاشي لارنانديث :

ـ « لا يستطيع المرء أن يتخلى عن طبيعته الوحشية . . . ولم يكن الأمر يتطلب اكثر من ربع ثانية . . وقبل أن أطلق النار كان لديه من الوقت ما يكفي لتوجيه القاذفة نحوي . . » .

« ونظرت اليه . . . إنها لعجيبة تلك الحياة . . . » .

« لا بد أنه من الصعب أن تحرق رجلاً حياً ينظر اليك . . . »

وكان دهليز الخروج يسبح في ظلام دامس اللهم إلا في نهايته عند المستطيل الذي يلقي عليه الباب ضوءاً خافتاً ، وأشعل النجاشي لفافة تبغ ، وفعل كل من كان يتبعه مثل فعله في نفس الوقت ، فهذه هي العودة الى الحياة ، وظهر كل رجل منهم لحظة وجيزة في ضوء الثقاب أو الولاعة ، ثم عادوا جميعاً الى العتمة ، وساروا متجهين صوب قاعة متحف سانتا كروز .

وهتفت صوات في القاعة : « هناك طائرة فوق السحب »

وأستأنف النجاشي حديثه قائلاً : « من الواضح ان الشيء الصعب هو ألا تتردد ، والمسألة كلها مسألة ثوان . ومنذ يومين صوب الرجل الفرنسي قاذفة لهب مثل هذه . . . وربما كانت هي نفسها . . ولم يحترق ، ولكنه لم يقتل عدوه أيضاً . والفرنسي يقول : انه يعرف المسألة ، وأن المرء لا يستطيع بكل تأكيد أن يصوب قاذفة اللهب على شخص ينظر اليك . . . الانسان لا يجرؤ على ذلك . . . لا يجرؤ بأية حال ! » .

يمر كل يوم ضابط من ضباط الطيران العالمي على ادارة العمليات ، وأحياناً على ادارة الأمن ، وكان « مانيان » يبعث بأسكالي دائماً تقريباً ، إذ كانت ثقافته تجعل اتصالاته يسيرة بهيئة قيادة الطيران التي تكاد تتألف كلها من ضباط الجيش القديم . (كان سمبرانو وطياروه يؤلفون جماعة خاصة) ، وكانت بشاشته ورقته ـ وهو الرجل الربعة ، الذي يميل الى السمنة كلما تقدمت به السن ـ تجعلان علاقاته طيبة بالناس جميعاً ، بما فيهم من رجال الأمن . وكان زميلاً بصورة ما لجميع الايطاليين بالفرقة الجوية ، وهم الذين اختاروه مسؤولاً عنهم وعن معظم الطيارين الآخرين ، وأخيراً فإنه يتكلم الاسبانية بطلاقة .

وكان البوليس قد استدعاه على عجل .

أبواب ادارة الأمن تحرسها المدافع الرشاشة ، وحول المقاعد الوثيرة الخالية المغطاة بالصدف المذهب تقف وجوه الشقاء المتواضعة التي تظهر في كل الحروب . وفي حجرة صغيرة للطعام (لم يتغير شيء في هذا الفندق منذ أن استقر فيه هذا الملحق العسكري لادارة الأمن) وبين حارسين ، كان سيروزوبيه زميل « لكلير » يتحرك في عصبية ، وقد بدت عليه تلك الدهشة الطائرة اكثر من أي وقت مضى .

ـ « آه . . . اسكالي ! هل هذا هو أنت اسكالي صديقي العزيز ! . . . »

وانتظر اسكالي حتى يفرغ من هذا الطنين .

ولما كان سكرتير من ادارة الأمن هو الذي صحب إسكالي فقد ابتعد الحارسان اللذان أحاطا بسيروزييه قليلاً ، بيد أن هذا الأخير لم يجرؤ على الشعور بأنه حر .

- « فجرة على هذه الشاكلة . . . يا عزيزي . . . لا يمكنك أن تتصور تماماً ! . . . » .

وعلى الرغم من أنه كان جالساً فقد كانت عيناه السوداوان كعيني المخبول تدوران في وجهه الذي يخلو من الحاجبين ، فتضفيان عليه منظر فراشة مذعورة في حجرة مغلقة .

قال اسكالي رافعاً سبابته : « لحظة من فضلك . . . إبدأ من البداية » .

- « أنت فاهم . . . واليك القصة : كانت إحدى بنات الهوى تتسكع في الشارع الكبير . . ولم أعرف ماذا قالت لي ؟ ولكنني فهمت أنها تستطيع أن تقوم بحيل وألاعيب فقلت لها : « هل تمارسين الحب على الطريقة الايطالية ؟ » فأجابت : « نعم » . . . وصعدت معها . . وأرادت أن تخدعني . . فقلت لها : كلا ، لقد إتفقنا على الطريقة الايطالية ، لا على طريقة أخرى . ولم تكن تريد أن تفهم . . فقلت لها ان هذا خداع ، وذهبت لأرتدي ملابسي ، ولكنها تحدثت في التليفون بالأسبانية وحضرت سيدة أخرى بدينة . . بيد أننا لم نتفاهم . . . وحاولت أن أشرح لها ، ولكنها اعتقدت أنني كنت أنوي سوءاً ، وليس معنى ذلك أنني كنت متمسكاً بالطريقة الإيطالية . . لا تظن ذلك على الاطلاق ! . . ولكنني كنت أريد أن تتركاني . . . ومع ذلك لم تفعلا قط . أنت تفهم . . أليس كذلك ؟ » .

- « ولكن ، ماذا تصنع هنا ؟ هل أُلقي القبض عليك بسبب الدعارة ؟ » .

ـ « حين وجدت الفتاة انني لم انصرف ، أتصلت بالتليفون أيضاً . . فقلت . . » .

ـ « . . . وحضرت سيدة أخرى أشد بدانة . . . »

وهنا توقف سيروزييه : وعادت البشاشة الى اسكالي ، فالمسألة قد تمخضت عن لا شيء . . وحين يبتسم اسكالي فكأنه يضحك ويضيق المرح من عينيه ويبرز طابع وجهه المهجن .

ـ « ماذا حدث ؟ ستة رجال من الاتحاد الفوضوي الأيبيري يحملون غداراتهم ! ماذا يريد هؤلاء أيضاً ؟ وحاولت أن أشرح موقفي . لم أكن أنا الذي طلبتها ، وإنما هي التي عرضت عليَّ تلك الطريقة ، ومن ناحية كنت أعلم أنهم ضد الدعارة ، أي أنهم ضد هذه المرأة ، ومن ناحية هم أناس فضلاء ، ومن ثم لا بد أن يكونوا جميعاً ضد الطريقة الايطالية على الأقل من حيث المبدأ ، هؤلاء النباتيون جميعاً ! وكان أسوأ ما في الأمر أنني لم أكن أعرف الأسبانية ، وكلما مضيت في الشرح ازدادت المسألة تعقيداً . بل أن أحدهم انتهى به الأمر الى أن أخرج مسدسه ، وكلما صحت قائلاً : إنني لم أفعل شيئاً على الطريقة الايطالية . يا الهي . . ازدادت الأمور سوءاً ، وكانت المرأتان تصيحان : أيطاليانو . . ايطاليانو ، ولم يعد أحد يسمع إلا هذه الكلمة . وانتهى بي الأمر الى أن أحسست يا عزيزي بالارتباك ، وخطرت لي فكرة أن أظهر لهم بطاقتي التي تثبت أنني من رجال الأتحاد الفوضوي الأيبيري وهي باللغة الأسبانية ، فلما فعلت ذلك اقتادوني الى هنا ، فاتصلت تليفونياً بالمطار » .

وسأل اسكالي السكرتير باللغة الأسبانية : « ما التهمة الموجهة اليه ؟ » .

والقى الآخر نظرة على البطاقة ثم قال : « ليست بالتهمة الخطيرة . . إن المومستين تتهمانه . . انتظر لحظة ، أجل هذه هي التهمة : تنظيم التجسس لحساب ايطاليا . . »

ولم تمض خمس دقائق حتى أطلق سراح سيروزييه وسط عاصفة من التهليل والتهريج .

وقال السكرتير : « ثمة شيء أشد من ذلك خطورة ، لقد سقط بيننا اثنان من الطيارين الفاشيين الايطاليين ، جنوب طليطلة ، وقد مات أحدهما ، وما زال الآخر هناك ، المخابرات العسكرية تطلب منك أن تفحص أوراقهما » .

وأخذ اسكالي يقلب ـ بإصبعه الصغير وهو في حالة من الارتباك ـ خطابات وبطاقات زيارة وصوراً وايصالات وبطاقات اشتراك في جمعيات وجدت في المحفظة ، وكذلك بعض الخرائط التي وجدت في الطائرة ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها اسكالي بعدو ايطالي ويطلع على حياته الخاصة . . . بيد أن هذا الذي التقى به كان قد مات ، واسترعت ورقة اهتمامه . . كانت طويلة ، كأنها خريطة طيران مطوية ، ولم يكن من شك أنها كانت ملصوقة بخريطة الطيار . . وكان يبدو أنها قد استخدمت كمفكرة صغيرة ، وبها عمودان « من . . والى » وبعض التواريخ : ١٥ من يوليو (أي قبل ثورة فرانكو) . . ثم كلمة سهزيا ، وليلة يوم ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ثم أشبيلية وشلمنقة . وفي الهوامش دونت الأغراض :الاغارة ، والملاحظة والمصاحبة والحماية . وأخيراً ـ وهو اليوم السابق على سقوط الطائرة من شقوبية « الى » . . . وكان مكان « الموت » خالياً .

ولكن تحت هذه العبارة كتبت كلمة طليطلة بقلم أبنوس آخر «وقبل ذلك بعدة أيام بحروف كبيرة بحيث تغطي العمودين ، وبتاريخ اليوم التالي ، إذن فقد كانوا على وشك القيام بحملة هامة على طليطلة .

ومن الحجرة الأخرى ارتفع صوت يصيح في التليفون :

ـ « أنا لا أجهل يا سيدي الرئيس ضعف تنظيماتنا ! ولكنني لن أضم إلى حرس الهجوم بأية حال . . بأية حال . . أتسمعني . . أشخاصاً لا تضمنهم

منظمة سياسية ! » .

ـ « . . . . . . »

ـ « وماذا عن اليوم الذي ينبغي أن نخمد فيه تمرداً فاشياً بحرس هجوم ينتشر فيه الجواسيس ؟ لن آخذ تحت مسؤوليتي رجالاً بغير ضمان ، لقد امتلأت ثكنات الجبل بما يكفي من الفلانجيين ، ولا أريد أحداً منهم في إدارة الأمن ! » .

وتعرف اسكالي منذ البداية على صوت مدير الأمن الساخط .

قال أحد رجال السكرتارية : « إن حفيدته أسيرة في قادش » .

وأغلق الباب ، فلم يسمعوا بعد ذلك شيئاً ولم يلبث باب حجرة الطعام أن فتح ، وعاد منه السكرتير .

ـ « هناك أوراق أخرى في المخابرات ، ويقول القومندان جارسيا : إنها أوراق هامة . أما بالنسبة للأوراق التي معك فهو يرجوك أن تفرزها . فتفصل أوراق الطيار الميت عن أوراق الملاحظ ، على أن تعهد إليَّ بها كلها بعد ذلك ، وسأحملها فوراً اليه ، وستقدم تقريراً عنها الى الكولونيل مانيان » .

ـ « معظم هذه الأشياء عبارة عن أوراق مطبوعة أو خرائط ، ومن المستحيل معرفة صاحبها . . . » .

ـ « الملاحظ هنا ، وتستطيع أن تستجوبه » .

فقال اسكالي في فتور : « كما تشاء » .

وكانت مشاعره تجاه الأسير متناقضة كتلك المشاعر التي أحس بها في أثناء فحصه للأوراق ، ولكنها لم تكن خالية من حب الاستطلاع ، وكان طيار الماني قد سقط أول امس في اقليم الشارات على مقربة من مركز القيادة

(حيث تصادف وجود وزيرين يقومان بالتفتيش) ، وسيق للاستجواب . . وكم كانت دهشته حين رأى جنرالا . إذ كان يعتقد أن « الحمر » ليس لديهم جنرالات ، ولما ذكر المترجم أسماء الحاضرين منهم هتف الأسير الألماني قائلاً : « يا إلهي ! وقد حلقت خمس سنوات فوق هذا الوكر دون أن ألقي عليه قنبلة واحدة! » .

قال اسكالي للسكرتير : « لحظة واحدة ، قل للقائد انني وجدت بين ما فحصته من الأوراق وثيقة يمكن أن تكون ذات أهمية . » وكان يفكر في قائمة مرات الطيران نتيجة لتاريخ الرحيل عن ايطاليا وهو سابق على تاريخ قيام حركة فرانكو .

وذهب الى المكتب الذي وضع فيه « الملاحظ » تحت الحراسة ، وكان الأسير يجلس الى مائدة مغطاة بمفرش أخضر مستنداً على مرفقيه مولياً ظهره الى الباب الذي دخل منه « اسكالي » . ولم يلمح « اسكالي » في أول الأمر سوى طيف مدني وعسكري في آن واحد ، فالسترة من الجلد والسروال ازرق ، ولكن ما أن سمع الطيار الفاشي صوت الباب حتى نهض ملتفتاً بوجهه ناحيته ،وكانت حركات ساقيه وذراعيه الطويلتين النحيفتين ـ وظهره الذي ظل مقوساً ـ كانت كلها حركات مسلول عصبي المزاج !

وسأله اسكالي دون أدنى إنفعال : « هل أنت جريح ؟ » .

ـ « كلا . . مجرد كدمات » .

ووضع اسكالي مسدسه والأوراق التي كان يحملها على المنضدة ، وجلس ، ثم أشار الى الحارسين بالانصراف ، وكان الفاشي يقف أمامه الآن وجهاً لوجه ، كان محياه شبيهاً بوجه العصفور ، وله عينان صغيرتان وأنف مشرع في الهواء ، وهي ملامح شائعة بين الطيارين ، ولكنها كانت لديه اكثر حدة بسبب بروز عظامه ، وشعره المرتب ، ولم يكن يشبه « هاوس » ، غير أنه كان من نفس الأسرة ، ولكن لماذا تبدو عليه الحيرة الى هذا الحد ؟

واستدار اسكالي ، فشاهد وراءه تحت لوحة « ازانا »[1] Azana كومة من الفضيات المكدسة يبلغ ارتفاعها متر وتحتوي على أطباق وأباريق للشاي وصوان إسلامية ، وساعات للحائط ، وأوانٍ للزهور ، وأغطية ، تم الاستيلاء عليها بعد المصادرات .

- « هل هذا ما يبعث الدهشة الى نفسك ؟ » .

فتردد الآخر ، ثم قال :

- « هذا . . ما هذا الذي تعنيه ؟ الـ . . . »

وأشار باصبعه الى كنوز السندباد :

- « أوه . . كلا ! . . . »

وبدا عليه كأنه وقع في فخ .

وربما كان ما يدهشه هو اسكالي نفسه : بهيئته التي تشبه أحد رجال الكوميديا الأميركيين والتي لا ترجع الى وجهه بشفتيه الغليظتين بقدر ما ترجع الى قسماته المنتظمة ، برغم ما يغطيها من نظارات مستديرة ، وبقدر ما ترجع الى ساقيه القصيرتين بالنسبة الى جذعه ، مما يجعله يمشي مشية تشارلي تشابلن ، والى صديريته المصنوعة من جلد الغزال ، وهي ثوب قليل الشيوع بين الحمر ، وإلى القلم الذي يضعه خلف أذنه .

قال اسكالي بالايطالية : « لحظة من فضلك . . . إنني لست من رجال البوليس ، بل أنا طيار متطوع ، قد استدعيت الى هنا للإجابة عن أسئلة فنية ، وطلبوا مني فرز أوراقك عن أوراق زميلك الميت . هذا كل ما في الأمر » .

(١) من رجال السياسة الأسبان (١٨٨٠ - ١٩٤٠) تولى رئاسة الجمهورية الأسبانية سنة ١٩٣٦ ، واستقال عقب انتصار فرانكو سنة ١٩٣٩ . (المترجم) .

- « سيان عندي ! » .

- « ضع ما يخصك على اليمين ، والباقي على اليسار » .

وشرع الملاحظ يؤلف حزمتين من الأوراق دون أن ينظر الى اسكالي ، وإنما كان ينظر الى النقط المضيئة التي كانت تنعكس من الفضيات المكدسة على السقف بفعل المصابيح الكهربية .

وسأله اسكالي : « هل سقطت بسبب خلل في الطيارة ، أو في أثناء القتال ؟ »

- « ليس في هذا المكان طائرات روسية ... ولكن ، لا عليك فلنأمل أن توجد » .

ولم تكن استمارة الطيران تحتوي على أية أوامر للكشف ، وإنما كانت الأوامر للإغارة ، وأحس اسكالي في حدة بذلك التفوق الذي يأتي من معرفتنا بأن الشخص الذي يقف أمامنا كاذب ، ومع ذلك فلم يكن يعلم أن في الجبهة الأسبانية قاذفات قنابل ايطالية ذات مقعدين ، وهذه معطلة بالنسبة لرجال البوليس ولكنه سجل هذه الملاحظة في مفكرته ، ووضع الملاحظ على مجموعة الأوراق التي على اليمين إيصالاً ، وبعض أوراق النقد الأسبانية ، وصورة فوتوغرافية صغيرة . قرب اسكالي نظارته لفحصها (لم يكن اسكالي قصير النظر ، ولكنه كان بعيد النظر) إنها جزء تفصيلي من أحد فريسكات بييرو دلافرانشسكا .

- «هل هذه تخصك أو تخصه ؟ » .

- « لقد قلت لي ، ضع على اليمين ما يخصك » .

- « حسن ، إذن استمر » .

بييرودلافرانشسكا . وفحص اسكالي جواز السفر : طالب ، من

فلورنسا ، ولم لم تكن الفاشية ، فلربما كان هذا الرجل من تـلاميذه ، وتخيـل اسكـالي لحظة أن الصـورة ملك للطيار المتـوفي الذي شعـر بشيء غامض من المشاركة معـه . . فلقد نشـر تحليلاً عـلى اكبر جـانب من الأهمية لفـريسكات بيرو .

(في الأسبوع السابق ، انتهى تحقيق قـام بـه طيـار اسبـاني ، ولم يقم بـه مكتب الأمن انتهى الى مناقشة عن أرقام الطيران القياسية) .

ـ « وهل قفزت من الطائرة ؟ » .

ـ « لم تحترق الطائـرة . . وإنمـا هبـطنـا في الـريف . . هـذا كـل مـا في الأمر » .

ـ « وانقلبت الطائرة ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « ثم ؟ » .

وتردد الملاحظ في الاجابة ونظر اسكالي الى التقرير : خرج الطيار أولاً ، أما الملاحظ الذي يتحدث اليه الآن فقد ظل متعثراً في حطام الطائـرة واقترب فلاح ، فأخرج الطيار مسدسه ، واستمر الفلاح في الاقتراب ، وحـين وصل عـلى بعد ثـلاث خطوات من الـطيار القى اليـه هذا الأخـير من جيبه الأيسـر بحفنة من الأوراق المالية ، وكانت من الورقات البيضاء ذات الألف بيزيتـا ، وتقدم الفلاح عـلى حيث أضاف الـطيار حفنـة من الدولارات ، ولم يكن من شك أنه على استعداد لكل الاحتمالات ـ كل ذلك بيده اليسرى ، عـلى حين قبضت يده اليمنى على المسدس دائماً ، وعندما اصبح الفلاح قريباً من الـطيار الى درجة الملامسة ، سدد بندقية الصيد وقتله .

ـ « لم يكن زميلك هو الذي أطلق النار أولاً . . فلماذا ؟ » .

ـ « لست ادري . . . »

وكـان « اسكـالي » يفكـر في العمـودين اللذين في استمـارة الـطيـران : الذهاب والإياب . . . والإياب كان هو الموت على يد الفلاح .

- « حسن . . وماذا فعلت أنت ؟ » .

- « انتظرت . . »

حضر عدد كبـير من الفلاحـين ، وأقتادوني الى دار العمـدة . ومن هناك الى هنا . . .

« فهل سأحاكم ؟ » .

- « لماذا ؟ »

وصاح الملاحظ :

- « بلا محاكمة ! انتم تعدمون الناس بلا محاكمة ! » .

وكـانت هذه الصيحـة أشبه بـالاعتراف منهـا بالجـزع ، فهذا الفتى كـان يعتقد أن أقصى ما يمكن أن يتمناه منذ أن سقط هو أن يعدم بلا محـاكمة ، وكان قد نهض وأمسك مسند كرسيه بكلتـا يديـه ، وكأنـه يخشى أن ينتزعـوه منه .

وأعاد اسكالي نظارته بدفعة خفيفة ، وهز كتفيه في حزن لا حد له .
وكانت تلك الفكرة الشـائعة بـين الفاشيـين بأن عـدوهم بطبيعتـه جنس أحط منهم، وخليق بالاحتقار ، وهذا الاستعداد للازدراء الذي يتسم به كثير من الحمقى ، لم تكن تلك الفكرة ولا ذلك الاستعداد هما أقـل الأسباب التي دفعته الى مغادرة وطنه .

قال اسكالي : « لن تعدم بأية حال » واسترد لهجة الأستـاذ الذي يؤدب تلميذه .

ولم يصدق « الملاحظ » كلامه ، وكان تألمه من عدم التصديق هذا يرضي

اسكالي من حيث انه عدالة مريرة .

قال : « انتظر لحظة » ، وفتح الباب ثم قال للسكرتير : « صورة الكابتن فالادو من فضلك . » وأحضرها له السكرتير ، فناولها اسكالي بدوره للملاحظ .

ـ « أنت طيار . . أليس كذلك ؟ أذن فأنت تعرف : هل داخل طائرة لكم أو لنا . . أليس كذلك ؟ » .

وكان صديق سمبرانو الذي أسقط طائرتين من طرازفيات قد هبط بطائرة ركاب على مقربة من قرية في اقليم الشارات . فلما استولى رجال الميليشيا على القرية في اليوم التالي وجدوا ركاب الطائرة دون أن يبرحوا أماكنهم ، وقد فقئت أعينهم . وكان قاذف القنابل هو قائد فرقة حرس الهجوم الذي أطلق المدفع على ثكنة الجبل دون أن يكون على معرفة بتصويب المدفع .

ونظر « الملاحظ» الى الوجوه التي فقئت أعينها ، فصر على أسنانه ، غير أن وجنتيه كانتا ترتعشان .

ـ « لقد شاهدت كثيراً من الطيارين الحمر الذين أُسروا ، ولكنهم لم يعذبوا قط » .

ـ « ما زال عليك أن تتعلم أنه لا أنت ولا أنا نعرف الكثير عن الحرب . . . نحن نخوضها ، وليس هذا هو نفس الشيء . . » .

وكرت نظرة الملاحظ الى الصورة مرة أخرى ، وكأن شيئاً يجتذبه فيها ، وكأن في هذه النظرة شيء صبياني يتفق مع الأذنين الصغيرتين المتباعدتين عن الوجه ، أما الوجوه التي في الصورة . . فكانت بغير نظرات .

وسأل قائلاً : « وماذا يثبت أن الصورة لم ترسل اليك . . بعد أن زيفت ؟ » .

ـ « إنها مزيفة فعلاً . . فنحن نفقأ عيون الطيارين الجمهوريين لكي

نلتقط لهم صوراً . . ولدينا لهذا العمل جلادون صينيون شيوعيون ! » .

وكان اسكالي يفترض لأول وهلة حين تعرض عليه الصورة المزعومة عن « جرائم الشيوعيين » أن في الأمر خداعاً ، فمن الصعب على الناس أن يعتقدوا خسة أولئك الذين يحاربون الى جانبهم .

واستأنف « الملاحظ » عملية الفرز وكأنه يلوذ بها من شيء يخشاه . وسأله اسكالي : « هل أنت واثق من أنني لو كنت مكانك في هذه اللحظة فإن قومك . . . ؟ »

وتوقف عن الكلام . . . فقد خرجت عن تلك الكومة الفضية دقات . . « واحد ، اثنين ، ثلاث ، أربع » كأنها فيران . . دقات فضية خفيفة . وكأنها ليست صادرة عن ساعة حائط مدفونة في ذلك الكوم المأساوي ، بل صادرة عن كنوز علاء الدين نفسها . . وهذه الساعات - (ترى كم من الوقت تستغرقه لكي ينفذ زمنها ؟) التي دقت - وسط هذا الحديث بعيداً عن أصحابها أوحت إلى اسكالي بانطباع بعدم الاكتراث وبالأبدية ، وبدا له أن ما يمكن أن يقوله عبث لا طائل وراءه حتى لم يعد يريد شيئاً سوى الصمت ، فهو وهذا الرجل قد اختار كل منهما طريقه .

وألقى اسكالي نظرة شاردة على خريطة الميت ، وتابع بعض سطورها بقلمه الذي كان يضعه وراء أذنه ، والى جانبه كان « الملاحظ» قد قلب صورة فالادو ، وفجأة أدنى اسكالي نظارته مرة أخرى ، ونظر الى الملاحظ ، ثم الى الخريطة من جديد .

كانت استمارة الطيران تبين ان الطيار قام من قصرش Caceres وهي في الجنوب الشرقي من طليطلة . وكان مطار قصرش الذي يراقبه الطيارون الجمهوريون يومياً - خلو من الطائرات بكل تأكيد ، وكانت الخريطة من خرائط الطيران الأسبانية الممتازة ، والمطارات مبينة بمستطيل صغير مليء باللون البنفسجي . . وهناك على بعد أربعين متراً من كاسيريس ، مستطيل

اخر خالٍ من اللون لا يكاد المرء يتبينه ، رسم بالقلم الرصاص ، ولما لم يكن القلم الرصاص يتضح على المادة اللامعة التي صنعت منها الخريطة ، لم يتبق منها إلا آثار السن المحفورة . وثمة مستطيل آخر متجه صوب شلمنقة مستطيلات أخرى جنوب منطقة الأستريمادورا في اقليم الشارات ، وكلها تشير الى مطارات الفاشيين السرية ، ومنها أيضاً مطارات منطقة نهر تاجة التي تقوم منها الطائرات قاصدة جبهة طليطلة .

وأحس « اسكالي » ان اعصاب وجهه قد أصابها التوتر ، والتقت عيناه بعيني العدو ، كان كل منهما يعلم أن الآخر قد فهم ، ولم يتحرك الرجل الفاشي ، ولم ينطق بكلمة ، وإنما غاص رأسه بين كتفيه ، وأخذت وجنتاه ترتعدان ، كما ارتعدتا حين حدق في صورة « ڤالادو » .

وطوى « اسكالي » الخريطة . .

* * *

كانت سماء عصر يوم من أيام الصيف الأسباني تسحق المطار كما سحقت طائرات داراس الساقطة اطاراتها الجوية بعد أن مزقها الرصاص كل ممزق . . . وهناك خلف اشجار الزيتون كان فلاح ينشد أغنية اندلسية .

وكان مانيان الذي عاد لتوه من الوزارة قد عقد اجتماعاً لمعاونيه في المشرب .

ـ « أريد طاقماً متطوعاً لقصر طليطلة » .

وخيم عليهم صمت طويل ، حافل بطنين الذباب ، وكانت الطائرات تعود الآن يومياً حاملة جرحاها ، وخزاناتها مشتعلة في السماء أو في وقدة الشمس ، تجر أذيالها في صمت بعد أن أوقفت محركاتها ، أو ربما لا تعود على الاطلاق ، أما الطائرات المائة التي تكهن بها ڤاراجاس فقد وصلت الى الفاشيين ، كما وصل غيرها ، ولم تتبق للجمهوريين طائرة واحدة من

طائرات المطاردة الحديثة ، في الوقت الذي يقوم فيه العدو بمطارداته على نهر تاجة .

وأعاد مانيان قوله : « أريد طاقماً متطوعاً للقصر » .

الفصل الثالث

كان مارسيلينو يعتقد ـ كما يعتقد مانيان ـ أنه لا مفر من الاحتماء بالسحب بسبب العجز في الطائرات المقاتلة ، وكثيراً ما عاد من المعارك التي كانت تنشب فوق الجبهة جنوب نهر تاجة مع غروب الشمس ، حين تبدو طليطلة وسط حقول القمح كعقد كبير يزين جيدها ، ويلوح القصر منتصباً على قرط النهر ، وتتصاعد سحب الدخان من المنازل المحترقة في خط مائل على الصخور الصفراء ، وقد توهجت في بقاياها الأخيرة ذرات من النور كأنها أشعة من الشمس تخترق الظلال . كانت المنازل تحترق في هدوء مدافىء القرية وقت غروب الشمس ، في تلك الساعات الهامدة من الحرب بين معركة وأخرى ، ولم يعد مارسيلينو الى قيادة الطائرات برغم إحاطته بهذا العمل مما يجعل في استطاعته التكهن بحركات رفاقه الذين يقودون الطائرات ، ولكنه كان أحسن قاذف للقنابل في الفرقة العالمية ، كما كان رئيساً ممتازاً لطاقم الطائرة واليوم كان قتالاً سجالاً في طليطلة تحت هذه السحب ، وطائرات المطاردة التي يملكها الأعداء قريبة غاية القرب .

وفوق السحب كانت السماء صافية صفاء غير مألوف ، فما من طائرة من طائرات الأعداء تحلق صوب المدينة ، وثمة سلام كوني يسود ذلك الخضم الأبيض . وكان من الممكن معرفة أن الطائرة تقترب من طليطلة بعملية حسابية بسيطة ، إذ كانت تسير بأقصى سرعتها ، وكان جيم يغني ، أما الآخرون فكانوا يشرئبون بكل قواهم للنظر ، وقد ثبتت نظراتهم فصارت

أشبه بنظرات الشاردين . وهناك في الأفق البعيد كانت قمم بعض الجبال تخترق وادي السحب الأبيض ، ومن فروج السحب كانت حقول القمح تظهر من حين إلى آخر .

لا بد أن تكون الطائرة قد وصلت الآن فوق المدينة ، ولكن لم يكن بالطائرة جهاز يشير الى الانحراف الذي انحرفته نتيجة لريح متعامدة على خط سيرها ، فلو أنها هبطت من خلال السحب لأصبحت على يقين تقريباً من أنها فوق طليطلة ، ولكن اذا كانت بعيدة عنها فإن طائرات العدو المطاردة تملك من الوقت ما يكفي للوصول قبل القاء القنابل .

وانقضت الطائرة .

وفي انتظار رؤ ية الأرض ومدافع القصر وطائرات العدو نظر الطيار ومارسيلينو الى جهاز تحديد الارتفاع في لهفة لم ينظرا بها قط الى وجه انساني . . وكانت الطيارة على ارتفاع ٨٠٠ ـ ٦٠٠ ـ ٤٠٠ على التوالي ، وما زالت السحب تحاصرهم ، لا بد من الصعود مرة أخرى ، وانتظار فجوة تنفتح تحتهم .

وعادوا الى السماء مرة أخرى ، السماء الساكنة فوق السحب التي بدت كأنها تتبع حركة الأرض ، وكانت الريح تدفعها من الشرق الى الغرب ، والفجوات كثيرة نسبياً ، فشرعوا في التحويم وحدهم في الفضاء العريض ، وفي دقة نجم من النجوم .

وأشار جيم ـ المسؤ ول عن المدفع الرشاش الأمامي ـ إلى مارسيلينو :

لقد أحس الرجلان في وقت واحد بتأثير حركة الأرض على جسميهما ، وكانت الطائرة التي تدور كأنها كوكب صغير ضائع في جاذبية العوالم التي لا تبالي شيئاً تنتظر أن تمر تحتها طليطلة وقصرها المتمرد ، ومحاصروها ، يصحبهم ارتفاع الأشياء الأرضية الخالي من كل معنى .

وما أن ظهرت أول فجوة ـ وكانت صغيرة جداً ـ حتى استولت عليهم جميعاً من جديد غريزة الطائر الجارح . وكما يحوم الصقر في دائرة حامت الطائرة انتظاراً لفجوة اكبر ، وقد انخفضت عيون الرجال مترقبة للأرض ، وبدا كأن منظر السحب كله يدور في بطء كوكبي حول الطائرة الثابتة .

وفجأة ظهرت الأرض من فرجة في السحاب ، وعلى بعد مائتي متر من الطائرة كانت فقاعة صغيرة جداً تطلق نيرانها : إنها القصر .

وانقضت الطائرة من جديد .

وانكمش الفضاء ، ولم تعد ثمة سماء ، فالطائرة تحت السحاب الآن . . . وانطوى ذلك الامتداد الرحب . . . ولم يعد هناك سوى القصر .

وكانت طليطلة على اليسار ، وتحت زاوية الهبوط كان الأخدود الذي يحيط بنهر تاجة أظهر من المدينة كلها ، بل من « القصر » الذي استمر في اطلاق النار ، وكان الهدافون ضباطاً في مدرسة المدفعية ، بيد أن الخصم الحقيقي لطاقم الطائرة كان طائرات العدو المطاردة .

وبعد ان كانت طليطلة مائلة اصبحت أفقية رويداً رويداً ، وكأن لها دائماً طابع زخرفي بدا غريباً في هذه اللحظة ، وتصاعدت أشرطة طويلة من دخان الحرائق مرة أخرى ، وشرعت الطائرات في الدوران مماسة للقصر .

وكان هذا التحويم الذي يشبه تحويم الصقر ضرورياً لدقة التصويب ، فقد كان المحاصرون قريبين أشد القرب ، بيد أن كل تحويمة كانت تتيح لطائرات العدو المطاردة مزيداً من الوقت ، وكانت الطائرة الآن على بعد ثلاثمائة متر ، وفي أسفل أمام « القصر » كانت تتراص نمال ترتدي مستديرة ناصعة البياض !

وفتح مارسيلينو باب خزان القنابل ، وسدد علامة التصويب ، ولكنه لم يطلق أية قنبلة ، وإنما تحكم في جهاز القذف ، وكان التصويب جيداً في

تقـديره . ولما كان القصـر صغيراً ، وكـان مارسيلينـو يخشى أن يشتت تأثـير القنابل الخفيفة ـ فقد أراد أن يقـذف بالقنـابل الثقيلة وحـدها ، ولم يعط أيـة اشـارة ، فبقي أعوانـه في حالـة انتظار ، وللمـرة الثانيـة صدرت الأوامـر الى الطيار بالدوران ، ذلك أن سحب الدخان الصغيرة كانت تقترب .

وصاح مارسيلينو : « استعدوا ! » .

وبدا وهو واقف في مكان الركاب بعفريتته التي لا حزام لها دائماً ، اشبه برجل مخبـول . . ولكنه لم يحـول عينه عن القصـر ، وفي هذه المرة فتح بـاب خزان القنابل على سعته ، جثا عـلى ركبتيه ، ومـع الهواء البـارد الذي اقتحم الطائرة ادرك الجميع أن المعركة قد بدأت .

وكانت هذه أول ريح باردة في الحرب الأسبانية .

ودار القصر ثم اقترب ، وكان مارسيلينـو منبطحـاً الآن على بـطنه رافعـاً قبضته في الهواء محصيـاً للثواني . . وتتـابعت القبعات تحت الـطائرة ، وبـدت ذراع مارسيلينو وكأنها تمزق ستاراً . . . ومضى القصر على حين أحـاطت به ـ من فوق ـ بعض القنابل الطائشة وكأنها كواكب تابعة تـدور في فلكه ، ثم دار ومضى الى اليمين ، وتصاعد دخان غامض وسط فنائه الرئيسي ، هـل كانت هذه هي القنبلة ؟

وواصل الطيار تحليقه في دائـرة متخذاً من « القصـر » هدفـاً . . وكانت القنبلة وسط الفنـاء ، وتعقبت قنابـل القصر الـطائـرة التي مـرت فـوقـه مـرة أخرى ، وألقت بقنبلتها الضخمة الثانية ، ثم ابتعدت واقتربت من جديـد ، ولم تنزل ذراع مارسيلينو المرفوعة ثانية ، وفي الفناء ارتفعت ملاءات بيضاء في كثير من العجلة ، لقد استسلم « القصر » .

وتلاحم جيم وبول من شدة الفرح ، وأخذ الطاقم كله يـرقص طربـاً في المكان المخصص للركاب .

وفي مستوى السحب ظهرت طائرات العدو المطاردة .

الفصل الرابع

كان « لوبيز » يستكمل استجوابه في مركز القيادة - وهي كلية قديمة حولت الى ثكنات - بطريقته الودية البوربونية (الارستقراطية) لجماعة من الهاربين من القصر ، ومنهم سيدة أخذت كرهينة واستطاعت الفرار بتصريح مزيف للخروج سلمه لها صانع للأسلحة ، استطاع أن يهرب هو أيضاً ، وعشرة من الجنود أُسروا في اليوم الأول ، بيد أنهم تمكنوا من القفز الى أخدود من الأخاديد المحيطة بالقصر .

وكانت السيدة امرأة طيبة سمراء متينة البنيان في الأربعين من عمرها ، لها أنف مستدير وعينان متيقظتان ، ترك عليهما الضعف آثاره .

وسأل لوبيز : « كم كان عددكم ؟ » .

- « لا أستطيع أن قول لك يا سيدي القومندان ، لأننا لم نكن جميعاً معاً ، وكان المساجين متناثرين هنا وهناك ، أما في الزنزانة التي كنا فيها فقد كان عددنا حوالي خمسة وعشرين . . . بيد أنها لم تكن اكثر من حجرة صغيرة على ما يبدو . . . » .

- « أكان لديكم ما تأكلونه ؟» .

ونظرت المرأة الى لوبيز ، وقالت :

- « أكثر مما يلزمنا . . . »

ومر عدد من الفلاحين أمام الجيفاتورا وقد وضعوا شوكاتهم الخشبية الضخمة الشبيهة بالشمعدانات على أكتافهم اليسرى ، وتأبطوا بنادقهم تحت أذرعهم اليمنى ، وخلفهم كان المحصول الوافر يدخل طليطلة ، تجره ثيران زينت قرونها بالزهور .

ـ « معي هنا أناس يقولون : انهم لم يكونوا يصيبون شيئاً من الطعام في القصر ! لا تصدقهم يا سيدي القائد . . كانوا يقدمون لنا لحم الخيول وخبزاً رديئاً ، ولكنه كان طعاماً على كل حال . . لقد شاهدت ما شاهدت . . . وأنا أعرف شؤون المطبخ أكثر مما يعرف الرجال . . . فأنا صاحبة حانة ! وكان هناك ما يأكلونه ! » .

وصاح جندي من الهاربين : « وكانت طائراتهم تلقي بالجامبون والسردين . بيد أن الجامبون كان يخصص للضباط أما نحن فلم نأكل منه مرة واحدة طوال تلك الأسابيع ! هذا عار ! ومع هذا ما زال بعض الحراس يقفون الى جانب أولئك الأوغاد ! » .

فقالت المرأة : « وماذا تريد أن يفعل الحرس يا بني ؟ » .

ـ « أن يفعلوا مثلنا ! » .

ولكنها سألته متمهلة : « أجل . . ولكن أخبرني . . . ألم تقتل أحداً في طليطلة . . أنت ؟ » .

وكان هذا هو ما يفكر فيه لوبيز ، فإن رجال الحرس المدني كانوا عملاء القمع والارهاب في اقليم طليطلة حينما كان اليمينيون في الحكم ، ولهذا السبب كانوا يخشون ألا يحترم أولئك الذين يعرفونهم شخصياً شروط التسليم .

ـ « وزوجات الفاشيين ؟ » .

فقالت المرأة : « يا لهن من نساء ! . . . »

وفجأة انقلبت سحنتها التي كان يعلوها الاحترام في أثناء حديثها مع لوبيز . . .

ـ « ولكن ماذا بكم أيها الرجال . . بحيث تخافون أن تمسوا النساء بأذى ! إنهن لسن جميعاً أمهاتكم ! وكن يعاملننا معاملة أسوأ من الرجال ! ولكن اذا كانت النسوة يخفنكم فأعطونا تلك القنابل ! » .

فقال لوبيز ولكن في شيء من الارتباك : « لن تعرفي كيف تقذفين بها » .

والتفت الى اثنين من الصحافيين وصلا في هذه اللحظة وقد أمسك كل منهما بدفتر المذكرات :

ـ « لقد اقترحنا اجلاء جميع المدنيين ، غير أن المتمردين رفضوا هذا الاقتراح ، وقالوا : زوجاتهم ، يردن البقاء معهم » .

واستطردت المرأة : « آه ! صحيح تلك التي وضعت في الداخل تريد البقاء ، وتلك التي همت باطلاق النار على زوجها تريد البقاء ، لكي تبدأ من جديد على ما أعتقد ، وتلك التي تئن طوال الليل ساعة بعد أخرى ، حتى لو أصبحت مجنونة تريد البقاء ؟ »

فقال أحد الجنود : « ولا يستطيع المرء أن يصم عنهن أذنيه ! » .

وواصل حديثه وهو يسد أذنيه بقبضتيه في حركة هستيرية : « ونحن نسمعهن ! ونحن نسمعهن ! » .

وصاحوا من الخارج : « الرفيق لوبيز ، التليفون يطلبك من مدريد ! » .

ونزل لوبيز وقد تملكه القلق ، وكانت المناظر البديعة تستهويه ، لا العذاب ، وبدأت رؤ ية هذا « القصر » المليء بالبغضاء دائماً ، حيث يعدم

الناس في افنيته رمياً بالرصاص ، ويولد الأطفال ـ بدأت هذه الرؤية تثير سخطه .

وذات صباح دون أن يلمح وجهاً واحداً سمع أصواتاً تصيح في القصر : « نريد أن نسلم أنفسنا ! نريد أن . . . » أعقبتها طلقات الرصاص . . . ولا شيء غير ذلك » .

وفي التليفون ، أوجز ما سمعه من الرهائن ، وكان شيئاً قليلاً . وقال : « وأخيراً لا خطأ فيما ينبغي أن نقوم به من انقاذ هؤلاء الناس ! » .

ـ « في اسبانيا بأسرها ، أخذ الفاشيون رهائن » .

ولم يكن الصوت يصل واضحاً الى لوبيز ، ففي الفناء كان أحد الضباط يعزف على بيانو على الرصيف ، وروميا قديمة تدور فوق فونوغراف ، ومكبر للصوت بالقرب من هذا المكان يذيع انباء كاذبة .

واستطرد الصوت المتحدث من مدريد قائلاً في وضوح أشد : « أوافق على أنه ينبغي أن نفعل المستحيل لانقاذهم ، ولكن يجب أن نفرغ من القصر ، وأن نرسل رجال الميليشيا الى طلبيرة ، كما ينبغي أن تتيح لأولئك الأوغاد الذين هم فوق فرصة أخرى ، وحاول أن ترتب الوساطة بأسرع ما يمكن ، ونستطيع أن نتصرف معهم نحن أنفسنا عن طريق السلك الدبلوماسي » .

ـ « لقد طلبوا قسيساً . . وهناك قساوسة في مدريد » .

ـ « وساطة دينية . . . فليكن ، سنستدعي فوراً قائد المكان . . . شكراً » .

وعاد لوبيز الى الطابق العلوي .

قال أحد الجنود : « النساء السراديب بسبب الطائرات ، فاذا كن نسوتنا

فإنهم يضعونهن بالقرب من الاصطبلات هناك حيث القوا بنا ، أما نساؤهن فيوضعن في مكان آخر ، وذلك المكان فظيع بسبب الرائحة ، إذ هناك نحو ثلاثين جثة قد دُفنت بالقرب من سطح الأرض ، هذا بالأضافة الى جثث الخيول التي لا ينتزع جلدها جيداً . . شيء بشع ! والجثث هي جثث أولئك الذين أرادوا التسليم . . . وهكذا يمكن أن تتصور حالنا بين أولئك المدفونين تحت أقدامنا ، وأولئك الذين نشروا الملاءات في الفناء أمام الاصطبل ، حيث كنا حين جاءت الطائرات . . ومع أن الطائرات قد أصابتنا بالأذى فإننا كنا مسرورين مع هذا كله . . كان ذلك حين نشروا الملاءات البيضاء » .

- « ومن الذي فعل ذلك ؟ رجال الحرس المدني ؟ » .

- « كلا . . بل هم جنود ، أما الآخرون فقد تركوهم يفعلون ذلك . . ولكن حين رحلت الطائرة ، بدأت المدافع الرشاشة في اطلاق نيرانها ، وشوهد الزملاء وهم يتساقطون هنا فوق الملاءات ، وفي أي مكان وحين عاد رجال لأخذ الملاءات لم تكن بيضاء ! . . . وحملوها بأن سحبوها من أطرافها كالمناديل ، وفي هذه اللحظة ، تجمعنا ، ثم قفزنا مخاطرين بكل شيء . . . » .

وسأل صوت :

- « هل تعلم انهم قتلوا أونباشياً ، يسمى موراليس أو لا ؟ إنه أخي . . . وهو اشتراكي ذو ميول . . . »

ولم يجب الجندي .

وقالت المرأة في استسلام : « ألا تعلم أن هؤلاء يقتلون الجميع . . . » .

وعندما خرج « لوبيز » من مركز القيادة كان بعض الأطفال عائدين من المدرسة وقد تأبطوا حقائبهم ، ومضى في طريقه بذراعين كجناحي الطاحونة شارد النظر ، وكادت قدماه تغوص في بركة سوداء ، فأبعده أحد

الفوضويين ، وكأنه أوشك أن يسحق حيواناً جريحاً ، وقال :

ـ « انتبه الى موضع قدمك » ثم أردف في احترام : « انها دماء الرفاق ! » .

الفصل الخامس

كان نصف رجال طائرات البليكان يرقد في اغفاءة على أرائك المقصف ، والنصف الآخر ـ ويتألف من الميكانيكيين ـ يقوم بالعمل ، أما ربع الطيارين ورجال المدافع الرشاشة فلا يعلم غير الله أين هم الآن .

وطالما تساءل مانيان كيف يمكن أن يؤسس هو نظاماً أياً كان دون وسيلة للقهر ، وعلى الرغم من تهريجهم واستهتارهم وفوضاهم واستظرافهم كان الواحد منهم يعادل سبعة في حومة القتال ، وهذا القول نفسه ينطبق على رجال سمبرانو من الأسبان ، وعلى رجال بريجيه من كواترو ـ ڤينتوس الرياح الأربع ، ومن خيتافي ، وكانوا قد فقدوا جميعاً نصف فاعليتهم الحربية ، وطلب كثير من رجال الطيران التجاريين ـ ومنهم سيبيرسكي ـ السماح لهم بالقتال على أن يتقاضوا مرتب شهر كل شهرين ، وبهذا لا يحرمون من المال ، ولا الاخاء حرماناً تاماً .

وكان « سان ـ أنطوان » يعود يومياً محملاً بالسجائر ، وبالنظارات المكبره ، والأسطوانات ، وحزنه يزداد يوماً بعد يوم ، ذلك أن الطائرات المغيرة دون حراسة من الطائرات المطاردة (ومن أين تأتي طائرات المطاردة تلك ؟) ـ كانت تجتاز اقليم الشارات بفضل الفجر والحذر أو نشوب معركة في مكان آخر ، كانت تعود أو لا تعود ، واذا عادت تكون في حالة يرثى لها . . وفي المقصف كان استهلاك المشروبات الروحية في ازدياد .

وبدا أولئك الذين يرقدون على الأرائك واسكالي يتبعه « رابلاتي » ـ

يجولون في شرفة المقصف كأنهم مساجين ، ومع أن الرجل الذي يدفع عربة القنابل لم يعلنهم بالوقت فقد كانوا يعرفون جميعاً أن طائرة مارسيلينو لم تعد بعد ، وكان ما تبقى له من البنزين لا يكفيه على اقصى تقدير أكثر من ربع ساعة أخرى .

وكان انريك ـ وهو احد قوميساريي اللواء الخامس[1] ويزعم أنه مكسيكي « وربما كان صادقاً في هذا الزعم» ـ يمشي مع مانيان على أرض المطار ، وكانت الشمس قد غربت خلفهما ، ورجال المطار يرون شاربي مانيان كطيفين ـ في آخر شعاع من أشعة الشمس بحيث يتجاوزان جانباً من وجه القوميسير الحاد الملامح .

وسأل هذا الأخير : « كم عدد الطائرات الباقية لديكم فعلاً ؟ » .

ـ « من الأفضل ألا أتحدث عن هذا الموضوع ، إذ لم يعد لنا وجود بوصفنا قوة طيران منظمة . . . ونحن ننتظر دائماً وصول مدافع رشاشة مناسبة ، بالله عليك ماذا يفعل أولئك الروس ؟ » .

ـ « وبالله عليك ماذا يفعل الفرنسيون ؟ » .

ـ « دعنا من هذا ، المهم هو ما يمكن عمله ، وبغض النظر عن مواتاة الحظ سأقوم بالإغارة ليلاً ، فلم يعد أمامي إلا أن ألعب بين السحب ، وها هو ذا الخريف يقبل لحسن الحظ . . . »

ورفع عينيه فرأى أن الليل سيكون بديعاً :

ـ « وأنا الآن مشغول بالجو ، قبل أي شيء آخر . . . فنحن قوة طيران نقوم بحرب عصابات . . . ولما أن تصل الينا طائرات من الخارج ، أو لا يبقى أمامنا إلا أن نموت أفضل ميتة ممكنة . . . ماذا نسيت ؟ آه ! أجل

(١) هؤلاء هم رجال الميليشيا الشيوعيون الذين كان هدفهم انشاء جيش منظم في اسرع وقت ممكن . (المؤلف) .

أخبرني ما حكاية تلك الطائرات الروسية التي وصلت الى برشلونة ؟ » .

- « كنت في برشلونة أول أمس ، وشاهدت في إحدى حظائر الطائرات المفتوحة طائرة جميلة ، تكسوها النجوم الحمراء في كل مكان ، ومنجل ومطرقة على الذيل ، وكتابات على كل جانب من جوانبها . وفي المقدمة كلمة « لينين » غير أن حرف I الروسي « ورسمه بأصبعه » كان مقلوباً كحرف N الأسباني . . . وفي نهاية الأمر ذهبت لأشاهد عن كثب ، فتعرفت على طائرة النجاشي . . . » .

وكان « مانيان » قد عثر في السوق الانكليزية على طائرة الامبرطور هيلاسلاسي الخاصة . . وهي طائرة سريعة الى حد ما مع خزانات احتياطية للوقود ، ولكن من الصعب قيادتها ، وكانت قد أرسلت للتصليح في برشلونة بعد أن أفسدها أحد الطيارين . . .

- « فليكن . . ولكن لماذا كل هذه التعمية ؟ » .

- « عبث صبياني . . أو لعلها عملية سحر لاجتذاب الطائرات الروسية الحقيقية أو ربما كان نوعاً من الاستفزاز في نهاية الأمر . . » .

- « محتمل جداً . . . وكيف حالكم ؟ » .

- « على ما يرام . . . ولكن في بطء » .

وتوقف أنريك ، ثم أخرج من جيبه مشروعاً للتنظيم أضاءه بمصباحه الكهربي ، اذ كان الليل قد هبط ، ثم قال :

- « تستطيع منذ الآن أن تعتبر هذا المشروع كله قد تحقق فعلاً » .

وكان هذا المشروع مشابهاً تقريباً لخطة «كتائب العاصفة » وتذكر مانيان رجال الميليشيا في سرقسطة الذين ذهبوا الى القتال دون ذخيرة ، ودون اتصال تليفوني على طول جبهة أرغون كلها وفي طليطلة كانوا يستبدلون

الإسعافات الأولية بالكحول أو اليود .

- « وهل نجحت في اقرار النظام ؟ » .

- « أجل » .

- « بالوسائل القهرية ؟ » .

- « كلا . . » .

- « إذن ، ماذا فعلت ؟ » .

- « الشيوعيون منظمون فعلاً ، وهم يطيعون سكرتارية الخلايا ، كما يطيعون المندوبين العسكريين ، وهؤلاء وأولئك هم نفس الأشخاص في أغلب الأحيان ، وكثير من الناس الذين يودون القتال يقبلون علينا حباً في التنظيم الجوي ، وفي الماضي كان رجالنا منظمين لأنهم شيوعيون ، أما الآن فإن كثيرين يصبحون شيوعيين لأنهم يحبون النظام ولدينا في كل وحدة عدد كبير نوعاً ما - من الشيوعيين يلتزمون النظام ويحرصون على أن يحترمه الآخرون ، وهم يؤلفون نواة متماسكة ينتظم حولها المنضمون الجدد الذين يؤلفون بدورهم نواة أخرى . وفي نهاية الأمر ينضم الينا عشرة أضعاف ما نطلبه فعلاً من الرجال الذين يفهمون أنهم يؤدون معنا عملاً مفيداً ضد الفاشية » .

وبهذه المناسبة أريد أن أتحدث معك أيضاً عن الألمان . . »

وكان هذا الموضوع يزعج مانيان على الرغم من كثرة عدد المرات التي حاول فيها معالجته . . .

وكان « أنريك » قد تأبط ذراع « مانيان » وهي حركة أدهشت مانيان ، لأنها صادرة عن ذلك المحارب الصلب . . . وكان يقسم الزعماء الشيوعيين الى نوعين هما : الشيوعيون من النمط الحربي ، والشيوعيون من النمط الديني ، أما أن يدرج في النمط الأخير هذا الرجل الذي خاض خمس حروب

أهلية ، والذي لا يقل قوة وضخامة عن جارسيا ـ فكان أمراً يحيره ، ومع ذلك فقد كان يرى أن شفتيه اللتين تشبهان شفتي تمثال مكسيكي تبرزان الى الأمام أحياناً كشفتي تاجر للسجاجيد .

ماذا تريد ادارة الأمن ؟ ألا يطأ الألمان الثلاثة بأقدامهم أرض المطار بعد ذلك أبداً . وكان مانيان يرى أن كريفلد شخص مشبوه ، وأنه يفتقر فضلاً عن ذلك الى الكفاية ، وضارب المدفع الرشاش الذي أراد أن يعمل بوصفه مرشداً لا يعرف بدوره كيف يستخدم المدفع الرشاش ! كما أنه يذهب دائماً الى الحزب الشيوعي حين يحتاج اليه كارليتش وهذا الأخير كان يقوم بالعمل كله بمفرده ، أما سيرة شراينر فكانت مأساوية ، ولم يكن من شك أنه بريء ، ولكن أياً كان الأمر فلا بد أن يترك الدفاع ضد الطائرات .

ـ « إن المسألة كلها ـ يا انريك ـ مؤلمة من الناحية الانسانية ، ولكنني لا أملك حجة واحدة صحيحة معقولة للامتناع عن اجابة طلب ادارة الأمن ، في استطاعتها الإصرار عليه ، وأنا لست شيوعياً ، وعلى هذا لا أستطيع التظاهر بأنني أذعن لنظام الحزب الذي أنتمي اليه . . . والعلاقات الطيبة بين قوة الطيران وادارة الأمن والمخابرات ذات أهمية عملية عظيمة بالنسبة لنا في الوقت الحاضر الذي نتصرف فيه معتمدين على قبضاتنا بحيث لا أستطيع أن أعرض هذه العلاقات للخطر بسبب تلك المسألة . . وقد أبدو حينئذٍ عنيداً . . وأعتقد أنك تفهم ما أعنيه » .

وقال أنريك : « لا بد من الاحتفاظ بهم . والحزب مسؤول عن تبرير موقفهم . . . وأنت تعلم أن هذا الرحيل سيبدو في نظر زملائهم جميعاً بمثابة اعتراف بالشبهات التي حامت حولهم . . والواقع أنه لا ينبغي معاملة أشخاص ظلوا محاربين جيدين طيلة أعوام ـ على هذا النحو » .

وكان ضارب المدفع الرشاش منتمياً الى الحزب ، أما مانيان فلم يكن منتمياً إليه .

ـ « أنا مقتنع بأن شراينر بريء ، ولكن ، ليست هذه هي المسألة ، ولديك معلومات من الحزب الألماني في باريس ، وأنت تعتقد تلك المعلومات . . حسن ، خذ المسؤولية على عاتقك أمام الحكومة ، أما أنا فلا أملك أية وسيلة للتحري ، لا أستطيع أن أبت في موضوع يمكن أن تكون له نتائج خطيرة ، وفق هواي . . وفضلاً على ذلك أنت تعلم أنهم غير كفاة تماماً بوصفهم طيارين » .

ـ « من الممكن ترتيب حفل عشاء انقل اليه فيه تحية الرفاق الاسبان وتحيي أنت فيه الرفاق الألمان . . وقد بلغني أن ثمة روحاً من العداء منتشرة في الفرقة ضد الألمان . . . أو إن شئت شيئاً من التعصب القومي . . . » .

ـ « لا أشعر بأية رغبة في أن أشرب نخب قوم يحملون اليك أنباء من هذا القبيل » .

وكان تقدير مانيان ـ وإن يكن ذلك التقدير للعمل الذي يقوم به أنريك ، لا لشخصه « فهو لا يكاد يعرفه شخصياً » ـ عاملاً من العوامل التي زادت من حنقه ، وكان قد حضر تكوين كتائب الفرقة الخامسة ، وهذه الكتائب في جملتها أفضل كتائب الميليشيا ، ومن الممكن تكوين جيش الجبهة الشعبية كله بنفس المنهج ، ذلك أن هذه الكتائب قد حلت مشكلة النظام الثوري حلاً حاسماً ، وعلى هذا كان مانيان يعتبر « أنريك » واحداً من خيرة المنظمين للجيش الأسباني الشعبي ، غير أنه كان مقتنعاً بأن هذا الرجل الحاد الحذر المجتهد لا يمكن أن يوافق على الطلب الذي تقدم به الآن إذا وضع نفسه موضع مانيان .

قال أنريك : « لقد تروى الحزب في دراسة المسألة ، ورأى أنه ينبغي الاحتفاظ بهم » .

واستعاد « مانيان » أشجانه حين كان الصراع ناشباً بين الاشتراكيين والشيوعيين .

ـ « أرجو المعذرة . . الثورة أهم عندي من الحزب الشيوعي » .

ـ « أنا لست متعصباً . . . أيها الرفيق مانيان ، وقد كنت من قبل منتمياً الى حركة تروتسكي . وقد أصبحت الفاشية اليوم سلعة للتصدير فهي تصدر منتجات جاهزة من جيوش وطيران . وفي مثل هذه الظروف أقول : إن خط الدفاع الأول عما نريد الدفاع عنه لا يقوم في المحل الأول على البروليتاريا العالمية ، وإنما على الاتحاد السوفييتي وعلى الحزب الشيوعي ، ومائة طائرة روسية تساوي بالنسبة لنا أكثر من خمسين ألفاً من رجال الميليشيا الذين لا خبرة لهم بالحرب ، ومن ثم فإني أدعو الى التعاون مع الحزب ، والتعاون بلا تحفظ ، فالحزب كتلة واحدة » .

ـ « أجل . . . ولكن لا وجود لطائرات روسية بعد . . أما فيما يتعلق برفقائك الثلاثة اذا أخذ الحزب الشيوعي على عاتقه أن يكون مسؤولاً عنهم فليتحمل هذه المسؤولية أمام ادارة الأمن ، أو فليضمهم للعمل في خدمته . . . فلا اعتراض لي على ذلك » .

ـ « إذن فأنت تريدهم في نهاية الأمر أن يرحلوا ؟ » .

ـ « أجل . » .

وتخلى أنريك عن ذراع مانيان .

كانا قد دخلا الآن في منطقة الأضواء المنبعثة من المباني ، وظهر وجه القوميسير الشبيه بوجوه الهنود الحمر في النور بعد أن كان خافياً في الظلام ، وحين تخلى عن ذراع مانيان استطاع هذا الأخير أن يراه رؤية أوضح بسبب ابتعاده عنه ، وتذكر « مانيان » جملة لأنريك أوردوها أمامه ، ولكنه نسيها ، قال أنريك : « ان رفيقاً واحداً في الحزب أهم عندي من جميع الأشخاص الذين في العالم كله من أمثال مانيان وجارسيا » .

واستأنف مانيان حديثه قائلاً : « لا تنس انني اعلم ما معنى الحزب ،

وأنـا أنتمي الى حزب ضعيف هـو حزب اليسـار الثوري الأشتـراكي ، وحين يدوس الانسان على عاكس التيار فلا بد أن تضاء الأنوار جميعاً في آن واحد ، ولا بد طبعاً من وجود بعض المصابيح الفاسدة ، وفضلاً عـلى ذلك قـد تكون المصابيح الكبيرة رديئة . . . إذن فالحزب يأتي في المقام الأول » .

وسأله أنريك بصوت محايد ـ لا لكي يتظاهر بعدم الاكتراث ـ وإنما ليبين أنه لا يريد التأثير على مانيان : « إذن فستحتفظ بهم ؟ » .

ـ « كلا » . . .

وكان القوميسير يهتم بالقرارات أكثر من اهتمامه بالعمليات النفسية .

فقال : « سلام » !

ولم يعد ثمة ما يمكن أن يفعله مانيان في هذه المسألة ، لقد قام بتنظيم فرقة الطيران هذه ووجد الرجال ، وخاطر بحياته باستمرار ، وأخذ على عاتقه أكثر من عشر مرات مسؤولية القيام بعمليات لم يكن من حقه القيام بها ، ولكنه لم يكن منهم ، ولم يكن عضـواً في الحـزب وهـا هـو ذا يـرى أن كـلام ضـارب للمدفع الـرشاش لا يعـرف كيف يستخدمـه أرجح وزنـاً من كلامـه ، ويرى رجـلاً يحترم عمله وقيمتـه على استعـداد لأن يطلب منـه اتخاذ مـوقف صبياني ارضـاء لنزوة رفيق من حـزبه ، وكـان من الممكن الدفـاع عن هذا كله بهـذه الجملة : « لا بـد من وجود مصـابيح في كـل حجرة ! » ومـع ذلك فقـد كان أنـريك هـو الذي قـام بتنظيم خيـرة القوات الأسبـانيـة . وهـو نفسـه ـ أعني مانيان ـ يوافق على طرد شرايـنر . . فالعمـل هو العمـل ، وهو شيء يختلف عن العدالة .

وكان الظلام الآن تاماً . . .

ولكن لم يأت الى اسبانيا من أجل الظلم . . .

ومرت عدة رصاصات بعيدة فوق المطار . .

كم يبدو هذا كله تافهاً إذا قيس بجماهير الفلاحات الهاربات بحميرهن من القرى التي اندلعت فيها النيران !

وأحس لأول مرة في أعماق نفسه بالعزلة التي تفرضها الحرب ، فأخذ يجر قدميه فوق أعشاب المطار الجافة ، إذ كان يريد أن يصل بأسرع ما يمكن الى حظيرة الطائرات ، هناك حيث كان الرجال الذين تجمعهم روح واحدة يقومون باصلاح الطائرات .

* * *

ووصل الظلام الدامس قبل وصول مارسيلينو ، ولم يكن الهبوط الليلي شيئاً مستحباً بالنسبة للطيارين الجرحى ، وكان يبدو أن العمال الميكانيكيين يراقبون هبوط المساء . وكان هذا الذي ينظرون اليه مشدوداً في هدوء الغسق القلق هو ذلك السباق غير المرئي بين الطائرة والليل ، ووصل أتينييس ، ونظرته شاخصة الى التلال .

قال مانيان : « الشيوعيون يزعجونني يا عزيزي زيجفريد » .

وكان الأسبان وأولئك الذين يحبون اتينييس يسمونه زيجفريد فيما بينهم ، وكان أشقر الشعر وسيماً ، وهذه هي المرة الأولى التي ينادى فيها بهذا الأسم في حضوره . . ولكنه لم يلحظ شيئاً وقال :

ـ « في كل مرة أرى توتراً بين الحزب وبين شخص يريد ما نريده ـ مثلك ـ يكون ذلك مدعاة لأساي » .

وكان مانيان يحمل لاتينييس أعظم تقدير يحمله لواحد من الشيوعيين في فرقته ، وكان يعرف أنه من أعداء كريفلد وكورتس ، بيد أنه ـ أي مانيان ـ كان بحاجة الى الكلام ، وكا ن يعلم أن أعصابه متوترة مثله ، لأنه ينتظر مارسيلينو الذي يحبه .

قال أتينييس : « أعتقد أن الحزب مخطىء في هذه المسألة . . ولكن

هل أنت واثق من أنك لست مخطئاً أنت أيضاً ؟ » .

- « الرجل المندفع يخطىء كثيراً يا عزيزي » .

ولم يكن يتحدث اليه بلهجة شخص يحمي شخصاً آخر ، ولكن بلهجة أبوية .

- « وهناك بلا شك أشياء يمكن أن تقال في تأييد كل جانب » .

ولم يكن مانيان يود أن ينكأ أشجانه ، ولكنه لم يملك نفسه من أن يضيف قوله :

- « أتعتقد أنني أجهل مدى هجوم الشيوعيين عليّ منذ أن كان كورتس يقوم بدور التجسس القذر من أجل الحزب ؟ » .

- « انه ليس جاسوساً ، لقد حارب في المانيا الهتلرية ، وربما كان رجالنا الذين حاربوا عند هتلر هم أفضل الرجال . . وهذه المسألة في جملتها غير معقولة ، وليس ثمة ما يمكن أن يفعل ، ولكن وأنت الرجل الثوري صاحب الخبرة لماذا لا تتجاوزها ؟ » .

وتروى مانيان قبل أن يجيب :

- « اذا كان أولئك الذين ينبغي أن أحارب معهم ، والذين أحب أن أحارب معهم لا يثقون فيَّ - فلماذا أقاتل يا عزيزي ؟ الأفضل أن أموت . . . » .

- « إذا أخطأ ابنك فهل تتخلى عنه بسبب هذا الخطأ ؟ » .

وكانت هذه أول مرة يلتقي فيها بتلك الرابطة الفسيولوجية العميقة التي توحد بين صفوة الشيوعيين وحزبهم .

وسأل أتينييس : « إن جيم في الطيارة . أليس كذلك ؟ » .

- « بلى . . وهو مسؤول عن المدفع الرشاش الذي في المقدمة » .

وكان الظلام يهبط سريعاً كلما تقدم الوقت .

واستأنف الشاب كلامه قائلاً :

- « إن حساسيتنا بل حياتنا نفسها أشياء تافهة في هذه الحرب » .

- « أجل . . ولكن إذا أخطأ أبوك » .

- لم أقل « أبوك » ، وإنما قلت « إبنك » .

- « ألديك ابن يا أتينييس ؟ » .

- « كلا . . وأنت ، لديك ابن ، أليس كذلك ؟ » .

- « بلى » .

وتقدموا بضع خطوات وأنظارهم شاخصة الى أعلى بحثاً عن مارسيلينو ، وكان مانيان يعلم أن أتينييس يريد أن يقول شيئاً :

- « أتعلم من أبي ، أيها الرفيق مانيان ؟ » .

- « نعم . . ولهذا السبب فإنني . . . »

وما كان اتينييس (وهذا اسم مستعار) يعتقد انه سر كانت الفرقة كلها تعرفه ، فقد كان أبوه زعيماً فاشياً في بلاده .

قال : « ليست الصداقة أن يقف المرء الى جانب أصدقائه حين يكونون على صواب ، وإنما هي أن يقف الى جانبهم حين يخطئون . . . »

وصعدوا الى حيث كان سمبرانو .

كان الفنار على أهبة الإستعداد ، وكانت السيارات الموجودة قد أرسلت كلها حول المطار وصدرت اليها الأوامر بإضاءة مصابيحها عند أول اشارة

قال مانيان : « هيا . . أضيئوا في الحال ! » .

قال سمبرانو : « ربما كنت على حق ، ولكنني أؤثر الانتظار ، فلو أنهم كانوا فاشيين ما كان ثمة داعٍ لاضاءة المطار لهم ، ثم اني أفضل الانتظار ! » .

وكان « مانيان » يعلم أن سمبرانو يؤثر عدم اضاءة الأنوار بسبب تطيره ، فلقد أصبح الآن جميع الطيارين تقريباً متطيرين .

وكانت النوافذ مفتوحة ، وفي مثل هذه الساعة ، قبل نشوب الحرب اعتاد رئيس المطار أن يحتسي الويسكي ، ومن الأرض كان يصاعد ظلام ليلة من ليالي نهاية الصيف .

وصاح ثلاثتهم بصوت واحد : « الأنوار ! » .

فقد سمعوا صفارة النداء تطلقها الطائرة .

وبين الخطوط القصيرة المنبعثة من مصابيح السيارات كان عمود الضوء المنبعث من منار ارشاد الطائرات يمتد عبر المطار الخالي . . وهرول مانيان نازلاً من السلم يتقدمه شاربه ويتبعه أتينييس .

وفي أسفل ، اشارات الرؤوس المتوازية الى الطائرة . . لم يكد أحد قد شاهدها في اثناء اقترابها ، أما الآن فكان الجميع يرونها مهتدين بصوتها ، وهي تدور استعداداً للهبوط . . . وعلى صفحة السماء التي أخذ لونها يميل الى الدكنة لحظة بعد أخرى ـ كان طيف الطائرة ينزلق محدداً كورقة مقصوصة وسط اطار من الزرقة الخافتة ، واضحاً كأنه صرح سلطت عليه أضواء ساطعة .

وقال صوت : «المحرك الخارجي مشتعل » .

وتضخمت الطائرة وتوقفت عن الدوران ، وأخذت تهبط مواجهتهم ، وتحولت أجنحتها الى خطوط ، ثم اختفت في ظلمة المطار وتكدست العتمة فوق سطح الأرض ولم تعد العيون تتابع سوى بقعة غامضة من جسم الطائرة

تمزقه ـ كما يمزق الطير الجارح فريسته ـ شعلة من اللهب الأزرق ، كأنها صادرة عن أنبوبة ضخمة من أنابيب اللحام بالأوكسجين ، وبدا كأنها لن تهبط أبداً الى الأرض ، والطائرات التي تحمل أمواتاً تهبط على مهل .

وزمجر مانيان وقد وضع كلتا يديه فوق ذراعي نظارته : « القنابل ! » ففي اللحظة التي لمست فيها الطائرة تقاربت ألسنة اللهب وجسم الطائرة كأنما ليدخلا في صراع رهيب حتى الموت ، ووثب جسم الطائرة وسط السنة اللهب التي انكمشت على نفسها وانسحقت ، ثم انبثقت من جديد وهي تئز ازيزاً ، ولم تلبث الطائرة ان انكفأت على وجهها ! . . .

واندفعت سيارة الإسعاف التي كانت تقف متأهبة كالموت نفسه ، وقفز اليها مانيان . . . وكان رجال المطار الذين شرعوا في العدو منذ أن رأوا الطريقة التي ستهبط بها الطائرة ، « يتبعهم الطيارون وهم يسبونهم » يركضون الآن حول النار العظيمة التي ارتفعت مستقيمة ، وقد سقطت ظلالهم حولهم كأنها أسلاك عجلة ، ولم تصل النار مرة أخرى الى الطائرة بل اضاءتها الآن بنور راعش لا لون له . وانفلق جسم الطائرة الى نصفين كأنه بيضة ، فأخذ رجال المطار يخرجون الجرحى من الطائرة في حذر شديد ، كما يفصل الطبيب ضمادة عن جرح وكأنما التصق أولئك الجرحى بدمائهم في جسم الطائرة ، وكانوا يعملون في صبرٍ محموم تهددهم رائحة البنزين ، وبينما كان رجال المطافىء يخمدون النيران ، أبعد الجرحى والموتى عن الطائرة ، وقد التف رفاقهم حولهم في خليط من الظلال ، وفي هذا النور الذي يشيع فيه الموت كان الأحياء يبدون كأنهم أموات متحركون يحرسون أمواتاً ساكنين !

وكان عدد الجرحى ثلاثة ، وعدد القتلى ثلاثة بينهم مارسيلينو . . . المجموع سبعة . . فأين ضارب المدفع الرشاش ؟ أنه جيم الذي نزل بعد الآخرين . . وكانت يداه ممدودتين الى الأمام وهما ترتفجان ، يقوده زميل من زملائه . . . لقد انفجرت رصاصة أمام عينيه فحرمته نعمة البصر .

وحمل الطيارون الموتى من أكتافهم وأقدامهم الى المقصف ، حتى تحضر عربة نقل الموتى ، ولما كان مارسيلينو قد قتل برصاصة في عنقه فقد نزفت منه الدماء . وعلى الرغم من الثبات الفاجع الماثل في عينيه اللتين لم يغلقهما أحد ، وعلى الرغم من الضوء الكئيب ، فقد كان القناع جميلاً . . .

ونظرت اليه إحدى خادمات المقصف ، ثم قالت :

ـ « لا بد من ساعة على الأقل ، قبل أن تبدأ الروح في الظهور » .

وكان مانيان قد شاهد كثيراً من الموتى لكي يعرف السكينة التي يضفيها الموت على كثير من الوجوه . . فالغضون والتجاهيد الصغيرة تختفي مع اختفاء القلق والتفكير . . وأمام هذا الوجه الذي اغتسل من الحياة ، وإن ظلت العينان المفتوحتان ومساكة الرأس الجلدية تحتفظ له بإرادته ـ استعاد مانيان الجملة التي سمعها لتوه ، والتي سمعها من قبل بصور كثيرة في اللغة الأسبانية وهي : « أن أقنعة الرجال لا تبدأ في الكشف عن وجوههم الحقيقية إلا بعد انقضاء ساعة على موتهم ! » .

الفصل الأول

كـان الفاشيـون يحتلون ثلاث مـزارع منازلها من الصخور الصفـراء ، وسقـوفها من نفس اللون يحتضنها جميعـاً تجـويف واحـد ، وكـان ينبغي أولاً أجلاؤ هم عن هذا المكان .

ولم تكن هذه العملية عسيرة ، ذلك أن تلك المنـاطق الصخريـة المحيطة بنهر تاجة بين طلبيـرة وطليطلة كـانت تسمح لـرجال الميليشيـا أن يبلغوا تلك المزارع دون أن يكشفهم أحد، هذا إذا تصرفـوا في نظام وحيـطة ، وكان « أكسيمينيس » قد طلب قنابل يدوية في أثناء الليـل ، وكان الضـابط المكلف بتوزيع الأسلحة مهاجراً المانيـاً . وفي الفجر شـاهد أكسيمينيس ـ وقـد بهرتـه تلك الكفاية ـ سيارات النقل تصل محملة بثمار الرمان .

وأخيراً ، وصلت القنابل الحقيقية المطلوبة .

وكـانت إحدى جماعات اكسيمينيس مؤلفـة من رجـال الميليشيـا الـذين وصلوا منـذ عدة أعـوام ، ولم يخوضـوا أي قتال بعـد ، فعهد اكسيمينيس الى أفضل صولاته بتدريبهم . . وهو يشرف عليهم اليوم بنفسه .

بدأ بتدريبهم على القاء القنابل اليدوية .

وكشفت الجمـاعـة الثـالثـة المؤلفـة من رجـال الميليشيـا الجـدد عن قلة خبرتها ، وظل أحد أفرادها محتفظاً بالقنبلة في يـده بعد أن أشعلهـا ـ دون أن يقـذف بها . . ! وصـاح فيـه الشـاويش : « ألقهـا ! » . . وكـادت القنبلة

تنفجر وهي في يده فلا تبقي على شيء من الشاب المسكين لولا أن ضربه اكسيمينيس بقبضته تحت مرفقه ، فاطاح بالقنبلة في الهواء وسقط رجل الميليشيا ، وسالت الدماء على وجه « اكسيمينيس » .

وأصيب الرجل لحسن حظه بجرح في الكتف ، وما أن تم تضميده وحمل بعيداً حتى بدأ اعداد الضمادات لاكسيمينيس الذي قال : دعوا العمامات للمغاربة ، وناولونا « البلاستر » (المشمع) الانكليزي . وكان منظره بعد وضع ذلك البلاستر أقل بطولة ، فكأنما كسا وجهه طوابع البريد .

ووقف الى جانب من جاء دوره لالقاء القنابل ، ولم تقع حادثة أخرى ، وإن تم استبعاد عشرين رجلاً .

وكان اكسيمينيس قد بعث بمانويل لكشف المنطقة ، وكان حزب هذا الأخير من الذكاء بحيث أرسل معه واحداً من الضباط يستطيع أن يفيد منه أعظم فائدة ممكنة ، وأحس ذلك الضابط بميل الى مانويل ، ولم يكمن مانويل حريصاً على النظام حباً في الطاعة أو حباً في الرياسة ، ولكنه كان كذلك بطبيعته ، وباحساسه بما ينبغي أن تكون عليه الكفاية وفضلاً على ذلك كان مثقفاً ، وهذا شيء لمسه الكولونيل المرافق له ، بل كان من بواعث دهشته أن هذا الموسيقي الممتاز ، والمهندس للأصوات البارع ، ضابط بالسليقة ، ولم يكن الكولونيل يعرف الشيوعيين إلا عن طريق الأساطير السخيفة التي تحاك حولهم ، أو يعلم أن واجبات الشيوعي المحارب من الصف الأول تلزمه اتباع نظام صارم واصطناع وسائل الاقناع ، وأن جمعه بين مواهب الاداري والمنفذ الصارم والداعية يتيح له فرصاً كثيرة ليكون ضابطاً ممتازاً .

وبدأ الهجوم على المزرعة الأولى ، وكان ذلك في صباح يوم هادىء سكنت فيه أوراق الأشجار كأنها أحجار ، ومن حين الى آخر كانت تهب نسمة خفيفة ، تشوبها البرودة وكأنها تعلن مقدم الخريف ، وشن رجال الميليشيا هجومهم بالقنابل اليدوية محتمين بالصخور وبرجال المدافع الرشاشة حتى أصبح الموقع لفاشي ضعيفاً ، وعلى حين غرة وثب ثلاثون من رجال

الميليشيا على الصخور، وهاجموا المكان المكشوف وهم يتصايحون كأنهم قبيلة زنجية .

وزأر أكسيمينيس : « لقد فعلوها ! » وخبط بقبضة يده على باب السيارة .

وسقط عشرون رجلاً من الميليشيا على الصخور متكورين أو شابكين أذرعهم على هيئة صليب ، أو واضعين أكفهم على الوجه كأنما يحمون أنفسهم ، وكانت الدماء المنبثقة من إحدى الجثث تتألق في الشمس ، وتغطي شيئاً فشيئاً صخرة منبسطة بيضاء في نقاء السكر .

ولحسن الحظ استطاع رجال الميليشيا الآخرون أن يصلوا من جانبي المزرعة الى الصخور الأخيرة ، فلم يشاهدوا رفاقهم وهم يتساقطون ، وبدأت قوالب القرميد تتطاير في الهواء كالنافورة بفعل القنابل اليدوية ، ولم تنقض ربع ساعة حتى تم الاستيلاء على المزرعة .

وجاء دور رجال الميليشيا الجدد للهجوم على المزرعة الثانية ، وكانوا قد رأوا كل ما حدث

قال لهم اكسيمينيس معتلياً سقف السيارة الفورد : « يا ابنائي ، لقد استولينا على المزرعة ، وهؤلاء الذين خرجوا من الصخور ـ مخالفين للأوامر سواء أكانوا قد دخلوا المزرعة قبل غيرهم أم لا ـ مبعدون عن الطابور . ولا تنسوا أن ذلك الذي يتأملنا ـ وأعني به التاريخ ـ والذي يحكم علينا وسيحكم علينا ، في حاجة الى شجاعة المنتصر لا الى شجاعة الشخص الذي يقدم العزاء .

« وباتباع الطرق التي حددت لكم لن يكون ثمة خطر حتى مسافة مائتي متر من العدو ، والدليل على ذلك أنني سأذهب معكم في هذه السيارة ، ولا ينبغي أن يصاب جريح واحد قبل ذلك .

ثم سنبدأ القتال ونستولي على المزرعة . . . فلنلتمس العون من الله . . . (ولم يكمل الكلمة) من الحظ ! وليقف معنا من يرى كل شيء . . أعني الأمة الأسبانية فنحن أبناؤها الذين نحارب في سبيل ما نعتقد أنه الحق . . . » .

وراء رجال الميليشيا الجدد الذين يحملون القنابل اليدوية أختار صاربي المدافع الرشاشة من بين أفضل جنوده .

وقبل أن يصلوا الى المزارع لمحوا الفاشيين وهم يجلون عنها .

* * *

وكان بعض الجنود الفاشيين قد انضموا اليهم في الأسبوع السابق : عين منهم ثلاثون في جماعة مانويل ، وكان زعيمهم - وإن لم ينتخب لهذا المنصب - رجلاً يدعى ألبا ، وهو محارب شجاع ، ولكنه يتصيد الأخطاء حتى لقد حسبه الكثيرون جاسوساً .

واستدعاه مانويل .

وشرعوا في المسير عبر الصخور ، ويمم مانويل صوب الخطوط الفاشية ولم تكن ثمة جبهة ، بيد أن العدو أستقر بعد انسحابه من المزارع على بعد ثلاثة كيلومترات في ذلك الإتجاه الذي سار فيه مانويل .

وسأله مانويل : « هل لديك مسدس ؟ » .

- « كلا » .

وكان آلبا كاذباً ، إذ يكفي أن ينظر مانويل الى سرواله ليتبين به ثقيل عند الخصر .

« خذ هذا » .

وأعطاه المسدس الذي كان يضعه في جيبه ، واحتفظ في خاصرته بغدارة

أوتوماتيكية طويلة في غمدها المغلق .

ـ « لماذا لم تنضم الى الاتحاد الفوضوي الأيبيري ؟ » .

ـ « لا أريد » .

وراقبه مانويل ، كانت ملامحه متورمة أكثر من أن تكون ناضجة نضج الرجولة : أنفه المستدير ، وثغره ذو الشفتين الغليظتين ، وشعره الذي يكاد يكون متموجاً ، ولكنه غزير على جبهة ضيقة . . وتصور مانويل أن أمه كانت تراه في طفولته « طفلاً غندوراً » .

قال مانويل : « أنت تلهث كثيراً » .

ـ « ثمة أشياء كثيرة تجعل المرء يلهث » .

ـ « ثمة بالأحرى أشياء كثيرة على المرء أن يفعلها ، ولو أنك كنت في مكان اكسيمينيس ، أو كنت أنا ـ ما سارت الأمور أفضل من ذلك ، بل ربما كانت أسوأ ، ومن ثم ينبغي أن نساعده فيما يصنع . . وسنرى النتيجة فيما بعد » .

ـ « قد تصبح الأمور أسوأ ، ولكن في هذه الحالة لن يكون الشخص الذي يأمر عدواً لطبقتي ، وهذا ما أفضله » .

ـ « أنا لا أهتم بطبائع الناس ، وإنما أهتم بما يفعلون ، ولينين لم يكن من العمال على كل حال ، واليك ما أريد أن أقوله لك : أنت تملك قيمة ما ، وهذه القيمة يجب أن تستخدم ، فلتستخدم بأسرع ما يمكن ، وفي شيء آخر غير اللهاث ، أمعن في الفكر ، وأخبرني بعد ذلك : أي الأحزاب تناسبك ، سواء أكان الاتحاد الفوضوي الأيبيري أم الحزب الشيوعي أم الاتحاد القومي للعمال أيها تشاء ، وستجمع الأشخاص الذين يشملهم تنظيمك ، وتكون بذلك مسؤولاً عنهم . . فنحن في حاجة الى ملازمين . . . هل جرحت ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « أما أنا فقد جرحت في تلك القصة الحمقاء . . . قصة الديناميت . خذ هذا ، فإنه يؤلمني في الكليتين » . وخلع حزامه ، ثم استطرد قائلاً : « لكل لذته . . ولذتي هي أن أبدو معتوهاً يمسك بغصن شجرة ! » .

وكسر غصناً وجده ملقى على حافة الطريق ، وعاد الى جانب البا . وكان في هذه اللحظة أعزل ، وربما كان الفاشيون على بعد كيلومتر واحد . . ومهما يكن من أمر فآلبا الى جانبه . . « إن رأيي هو أنك لا تنتمي الى هذا المكان . . . وربما لن تنتمي أبداً . . . ولكن يجب أن تعطي كل شخص فرصته » .

ـ « حتى ولو كان مفصولاً من الحزب ؟ » .

وتوقف مانويل مذهولاً ، فلم يكن قد فكر في هذه المسألة .

ـ « اذا أصدر الحزب تعليمات رسمية عن هذا الموضوع فسأنفذها أياً كانت ، ولكن ما دامت لا توجد مثل هذه التعليمات فإنني أقول : « حتى من فصلوا من الحزب . فإن كل رجل ذي كفاية يجب أن يساعد الجمهورية في هذه اللحظة على الانتصار » .

ـ « وأنت لن تبقى في الحزب ؟ » .

ـ « لا »

ونظر اليه مانويل ، وابتسم ، وكان مانويل عندما يضحك يبدو كالأطفال ، ولكنه يبتسم ابتسامة تخفض ركني فمه ، وتضفي طابعاً مريراً على ذقنه !

وسأل دون أن يتوقف عن السير ، وكأنه يريد أن يثبت مقدماً أن السؤال الذي سيضعه لا أهمية له : « هل تعرف ما يقولون عنك ؟ »

ـ « ربما . . . »

وكان آلبا ما زال قابضاً بيده على حزام مانويل ، وكان جراب المسدس يرتطم بسمانتي ساقيه ، والوحشة تامة بين الصخور ، وتساءل بضحكة استهزاء خفيفة : « وما رأيك أنت فيما يقولونه عني ؟ » .

ـ « لا يستطيع المرء القيادة إن لم يثق في الناس » .

وكان مانويل يضرب الأحجار الصغيرة في اثناء سيره بالغصن الذي يمسك به .

ـ « قد يستطيع الفاشيون ذلك . أما نحن فلا بد من الثقة ، وإلا لم يعد ثمة مبرر للعناء ، ومن الممكن أن يصبح الرجل الايجابي المتشائم فاشياً ، إلا اذا كا ن ثمة ولاء يدين به لأحد » .

ـ « يقول الشيوعيون عن اعدائهم دائماً : انهم فاشيون » .

ـ « أنا شيوعي » .

ـ « ثم ماذا ؟ » .

ـ « ولا أعطي الفاشيين مسدساتي » .

ـ « هل أنت واثق ؟ » .

ونظر آلبا الى مانويل وقد ارتسمت الحيرة على وجهه :

ـ « أجل » .

وتلاشى اقتناع مانويل بأنه لا يجازف بشيء حين أضحى ارتباك محدثه واضحاً ، وقال مانويل لنفسه في شيء من التهكم : إن القاتل الذي يتحدث إلى من ينوي قتله يشعر ـ دون شك ـ بالارتباك ، وأحس أن موته قد يكون إلى جانبه في هذه اللحظة متخذاً هيئة ذلك الفتى العنيد ذي الوجه الطفولي السمين .

قال آلبا : « إنني أرتاب في أولئك الذين يسعون الى القيادة » .

ـ « أجل ، ولكنهم ليسوا أفضل من أولئك الذين لا يسعون اليها » .

وعاد الى القرية ، ومع أن عضلات مانويل كانت متوترة فإنه شعر بثقة صماء بين هذا الرجل وبينه ، كما يشعر أحياناً بمشاعر الحب بينه وبين عشيقته ، وقال في نفسه : ربما كانت مضاجعة جاسوسة شبيهة الى حد ما بهذا الشعور .

ـ « إن كراهية السلطة (في ذاتها) يعد مرضاً ، أي ألبا . . . ذكريات راسبة من أيام الطفولة . . ولا بد من تجاوزها » .

ـ « ما الاختلاف الذي ترى أنه قائم بيننا وبين الفاشيين إذن ؟ » .

ـ « « أولا » أن ما يحلم به ثلاثة أرباع الفاشيين الأسبان ليس هو السلطة ، وإنما هو المتعة .

« ثانياً » إن الفاشيين يؤمنون دائماً في أعماق نفوسهم بالجنس الذي ينتمي اليه الزعيم ، وليس الألمان فاشيين لأنهم يؤمنون بالتفرقة العنصرية ، فإن كان فاشي يحكم بالتفويض الإلهي ، ولهذا السبب فإن مسألة الثقة لا توضع بالنسبة له ، كما توضع بالنسبة لنا » .

وضغط البا الحزام حول خصره ، وتساءل دون أن ينظر الى مانويل :

ـ « أخبرني اذن . . . ماذا تفعل حين ترغم على تغيير رأيك في الأشخاص ؟ » .

ـ « إن أسبانيا الآن بلد لا يفتقر المرء فيه الى مناسبات للموت » .

ووضع ألبا يده على القراب ، وفتحه ، ثم جعل يسحب المسدس في بطء دون أن يحاول إخفاء حركته ، لن تنقضي ثلاث دقائق حتى يصبحا على مرأى من القرية مرة أخرى ، وحدث مانويل نفسه قائلاً : « لقد وضعت

نفسي في موقف أحمق . . . ولكن ـ في الوقت نفسه اذا مت على هذا النحو فلا بأس » وأعاد ألبا السلاح الى مكانه .

ـ « أنت على حق . . إنها بلد لا يعدم فيها المرء مناسبات للموت » .

وتساءل مانويل : أكان ألبا قد سحب المسدس ليقتل نفسه ؟ من يدري ربما كانت المسألة كلها مهزلة !

وأستأنف كلامه : « تدبر في الأمر ، وأمامك ثلاثة أيام انضم بعدها الى التنظيم الذي يعجبك ، وإلا فاعمل دون تأييد من الحزب ، وتزعم رجالاً لا حزب لهم . . . ستجد في ذلك متعة ، ولكن هذا شأنك » .

ـ « لأن . . . » .

ـ « لأن من الواجب أن يعرف المرء معتقداته إذا أراد أن يقود أناساً يختلفون فيما بينهم تمام الاختلاف ، ولست أعرف الكثير . . . ولكنني أحاول أن أتعلم . . . ومهما يكن من أمر فهذه مسألة تخصك ، أما مسألتي أنا فهي أنك قد أخذت على عاتقك هنا نوعاً من السلطة الأخلاقية ، وعليك أن تتحمل مسؤولية عملية ملموسة ، وبالطبع سوف أراقب ذلك » .

ولو أن « ألبا » أجاب بالنفي لاستبعده مانويل في الحال، فهل يدل سكوته على الرضا ؟ ومع ذلك فإنه يبدو معادياً .

وفي القرية استعاد مانويل حزامه ، وطوق به خصره ، ووضع يده على ذراع ألبا ، وهو ينظر في وجهه :

ـ « هل فهمت ؟ » .

فقال الآخر بوجه متجهم : « ربما » ثم انصرف .

***

كانت الشمس على وشك المغيب ، وكانت القرى الثلاث التي تم الاستيلاء عليها قد حصنت على قدر الامكان ، وأرسل الى طليطلة رجال الميليشيا الذين هاجموا في العراء ، وبعد أن أصدر اكسيمينيس تعليماته الى

الضباط سار مع مانويل وقد ألصق صليباً من الشمع الانكليزي على الجانب الأيسر من رأسه الحليق ـ قاصداً سان ايزودورو ، هناك حيث يتم تنظيم اقامة الطابور ، وكان الطريق بلون البلاط تكسوه الحصباء ، وعلى امتداد الأفق لم تكن العين تقع إلا على صخور ، وكانت الشجيرات الشوكية المتناثرة هنا وهناك تبدو وكأنها تتمشى بأعضائها المدببة مع الصخور الناتئة الصفراء .

وطفق مانويل يفكر في بعض العبارات التي ألقاها اكسيمينيس لتوه على ضباط الطابور ، قال : « إن شجاعة الزعيم الشخصية تكون أعظم ـ بوجه عام ـ كلما كان شعوره بزعامته من أسباب تنغصات ضميره ، وتذكروا أننا أشد احتياجاً الى النتائج منا الى الأمثلة » وسار مانويل متمهلاً حتى لا يتقدم على الكولونيل الذي كان يجر ساقه ، وكان هذا العرج سبباً من أسباب تسميته « بالبطة » .

وسأل مانويل : « لقد أبلى الجدد في القتال أليس كذلك ؟ » .

ـ « لا بأس » .

ـ « لقد فر الفاشيون دون قتال » .

ـ « سيعودون » .

وكان اكسيمينيس يجب أن يتحدث في اثناء سيره ، وأن يناجي نفسه بسبب سمعه الثقيل .

« والحالة في طلبيرة أقرب الى الكارثة . فهم يهاجمون بدبابات ايطالية » .

« الشجاعة شيء ينظم ، شيء يحيا ويموت ، ولا بد من صيانته كما تصان البنادق ، وليست الشجاعة الفردية سوى المادة الخام الصالحة لشجاعة الجماعات ، ولا يوجد شخص واحد من عشرين يكون جباناً حقيقياً . وهناك شخصان من كل عشرين شخصاً يتصفان بالشجاعة من الناحية العضوية ، ولتكوين فرقة ينبغي استبعاد الشخص الأول ، واستخدام الإثنين

الآخرين أفضل استخدام ممكن وتدريب السبعة عشرة الباقين . . . »

وتذكر مانويل مغامرة اصبحت من التراث الشعبي للطابور ، ومؤداها أن اكسيمينيس ـ وقد اعتلى ظهر سيارته الفورد ـ أخذ يردد لرجال كتيبته الذين ألتفوا حوله تعليماته ضد اغارة الطائرات ،وكانت فرقة طيران من فرق الأعداء وصلت حديثاً من ايطاليا ، قد غادرت طلبيرة ذلك الصباح قاصدة طليطلة ، قال لهم : « إن قنبلة الطيارة تنفجر كما يخرج الماء من رأس رشاشة المياه » . وكان رجال الميليشيا في حالة يرثى لها من توتر الأعصاب ، اذ كانت سبع من قاذفات قنابل الأعداء تحرسها طائرات المطاردة على وشك تكوين تشكيل للتحليق فوق الميدان . . . فإذا كان الكولونيل مصاباً بالصمم فإن الكتيبة كانت تسمع صوت المحركات « وأذكركم بانه في هذه الحاله لا جدوى من الخوف أو الشجاعة على السواء . ولا شيء يمكن أن يلحق به أذى اذا كان على ارتفاع أقل من المتر . . . فاذا انبطح رجال الفرقة أرضاً فلن تستطيع قنبلة الطائرة أن تصيب منهم إلا من كان في المكان الذي سقطت فيه فعلاً » .

وقال المستمعون لأنفسهم : « الأمر اذن على هذا النحو دائماً » وهم يختلسون النظر نحو السماء ، وصك أسماعهم أزيز المحركات العميق الذي أخذ يتضخم لحظة بعد أخرى ، وكان لا بد من سلطة كسلطة اكسيمينيس لكي تمنع رجال الميليشيا من الانبطاح على بطونهم . . . وكانوا يعلمون جميعاً كيف استولى على فندق كولون . . . وفجأة ارتفعت الأنوف في الهواء بشكل ظاهر ، إذ أشار مانويل الى السماء دون أن يتحرك وصاح اكسيمينيس : « انبطحوا جميعاً على الأرض !» وكما فعلوا لتوهم في التدريب اختفى المربع الذي أحاط بالسيارة في ثوانٍ

ولما رأت قاذفة القنابل الأولى أن التجمع قد اختفى من مجال التصويب القت قنابلها على القرية كيفما اتفق ، على حين احتفظت الطائرات الأخرى بقنابلها لإلقائها على طليطلة . . . وأسفرت الغارة عن جريح واحد . . ومنذ

هذه اللحظة انتهى رعب الطيارات بالنسبة لرجال اكسيمينيس .

« شيء عجيب هذه الحرب ! فحتى بالنسبة لأشد القواد وحشية يمكن أن يتحكم الاقتصاد في القتل ، فهو ينفق أقصى ما يمكنه من الحديد والمفرقعات لكي يوفر أقصى ما يمكنه من اللحم الحي . . أما نحن فلا نملك كثيراً من الحديد »

وكان مانويل يعلم أن كل ما قرأه من لوائح المدفعية الأسبانية (وهي لوائح لا سبيل الى فهمها) ومن كلاوزفيتش الى المجلات الفرنسية المتخصصة لم يتعلم من هذا كله عن الحرب إلا أجروميتها ، على حين كان أكسيمينيس يعرف لغتها الحية ، ومن وراء القرية ، أشعل رجال الميليشيا نيرانهم الأولى ، فنظر إليها أكسيمينيس في شيء من المرارة :

ـ « ومن العبث مناقشة مواطن ضعفهم ، ففي اللحظة التي يقدم فيها الناس على القتال تصبح كل أزمة تحيق بالجيش ترجع إلى أزمة في القيادة . . . ولقد خدمت في مراكش . . فهل تعتقد أن المغاربة حين يصلون الى الثكنات يصبحون رائعين ؟ من الأيسر بالطبع تكوين جيش في ظل النظام العسكري ! ونحن مرغمون بالطبع على وضع نظام جمهوري لقواتنا جميعاً ، أو لا مناص لنا من أن نموت ، ولكن حتى في هذه المرحلة ـ وأرجو ألا تسيء فهمها يا بني ـ إن أزمتنا العميقة أزمة في القيادة ، ومهمتنا أصعب من مهمة خصومنا . . هذا كل ما في الأمر .

ـ « وما يقوم أصدقاؤك الشيوعيون بتنظيمه الآن ـ من كان يصدق منذ عام أنني سأتنزه نزهة ودية مع أحد البلاشفة ـ إن ما يقوم أصدقاؤك بتنظيمه ـ أعني اللواء الخامس ـ عمل خطير حتى وإن لم يصل الى مستوى جيش الرايخ . . . ولكن بأي أسلحة سوف يزودونه حين يصبح جزءاً من الجيش ؟ » .

ـ « لقد وصلت السفينة المكسيكية الى برشلونة » .

- « عشـرون ألفا من البنـادق . . . والطائـرات تكـاد تكـون معـدومـة » والمدافع أيضاً ، والمدافع الرشاشة . . . ليس منها في جناحنا اليميني كما رأيت يا بني سوى واحد لكل كتيبتين ، وفي حـالة الهجـوم يتبادلـون إعارتهـا . وليس الصراع قائماً بين مغاربة فرانكو وجيشنا الذي لا وجود له ، وإنما هو بين فرانكو وتنظيم الجيش الجديد ، وكل ما يستطيع أن يفعله رجال الميليشيا - وأسفاه - هو أن يقتلوا لكسب الوقت . . . ولكن هذا الجيش أين تجد بنـادقه ومـدافعه وطائراته ؟ نحن نرتجل جيشاً بأسرع مما نرتجل صناعة من الصناعات » .

قـال مانـويل في حـزم : « سنحصل إن عـاجـلاً أو آجـلاً عـلى المعـونـة السوفييتية » .

وأنغض اكسيمينيس رأسه ، وتقدم بضع خطوات صـامتاً ، إن الأمـر لم يعد مقصوراً على التنزه مع أحد البلاشفة ، ولم يعد ينتظر شيئـاً من فرنسـا . وكـان ينتظر منهـا كـل شيء . . . ولا منـاص من أن ينقـذ الـروس بـلاده أو تضيع . . .

وأخذ شعاع أخير من الضوء يتراقص حول شعره المصفف الذي تقـاطع عليه صليب كبير من المشمع الانكليزي على حين جعل مانويل يراقب النيران المنبعثـة من معسكـرات الميليشيـا ، وأضفى المـاء الهـابط طـابعـاً من الغـرور اللامتناهي على مجهود البشر الابدي الذي لفته ظلمـة الأرض وعدم اكتـراثها رويداً رويدا .

قال الكولونيل أن روسيا بعيدة ....

وكانت الأماكن المحيطة بالـطريق قد ضـربتها الـطيارات الفـسيه ضـربـاً شديداً . . . وعلى اليمين واليسار انتشرت قنابل لم تنفجر بعد ، وتناول مانويل احداها بين يديه ، ونزع عنها كبسولتها ، فوجد ورقة مكتوبة بالإختزال ، ناولها لأكسيمينيس . وقرأها هذا باللغة البرتغالية : « أيها الرفـاق ، هذه القنبلة لن

تنفجر . . هذا كل ما في الأمر ـ في الوقت الحاضر » .

ولم تكن هذه أول ورقة من نوعها يعثرون عليها .

قال مانويل : « حتى ولو ! » .

ولم يكن اكسيمينيس يحب إظهار عواطفه ، فسأل قائلاً :

ـ « ماذا فعلت مع ألبا ؟ » .

وقص عليه مانويل الحديث الذي دار بينهما .

وبدت الصخور كأنها تعود الى حياة تعسة كأن النور قد خلصها منها ، وفي كل مرة كانت أشكال الصخور تعود بالكولونيل الى طفولته ، فيتذكر شبابه . قال : « وقريباً جداً سوف يكون من واجبكم أنتم تكوين ضباط من الشبان . . وهؤلاء الضباط يريدون أن يكونوا محبوبين . هذا شيء طبيعي في الانسان ، ولا شيء أفضل من ذلك ، على شرط أن يفهموا هذه الحقيقة وهي أن الضابط يجب أن يكون محبوباً من حيث طبيعة قيادته ، أي من حيث أنه عادل كافٍ أفضل لا من حيث الصفات الخاصة بشخصه . . هل تفهمني يا بني ـ حين أقول لك أن الضابط لا ينبغي له أن « يغوي » رجاله أبداً ؟ » .

وكان مانويل يصغي اليه وهو يفكر في الزعيم الثوري ، وخطر له أن الانسان حين يجعل نفسه محبوباً دون اغواء يختار حين ذاك مصيراً جميلاً من مصائر الانسان .

واقتربوا من القرية ، وكانت بيوتها المستوية البيضاء ملتصقة بفجوة في الصخور كأنها دبابيس في ثغرة شجرة .

قال اكسمينيس بلهجة يتقاسمها الجد والسخرية معاً : « من الخطر دائماً أن يريد المرء أن يكون محبوباً » وكان كعب ساقه الجريح يرن بانتظام على الأحجار ، وسارا لحظة صامتين ، وقد تلاشى من الجو كل طنين للحشرات .

واستطرد الكولونيل قائلاً : « أنبل كثيراً للانسان أن يكون زعيماً من أن يكون فرداً . . فهذا أصعب » .

* * *

وكانوا قد وصلوا الى القرية .

وصاح اكسيمينيس مجيباً عن بعض الهتافات : « أحييكم يا أبنائي ! » وكان رجال الميليشيا في شرقي القرية التي لم يحتلوها ، وإن كانت مهجورة تقريباً . . واجتازها الضابطان ، وفي مواجهة الكنيسة كان يقوم قصر ذو شرفات .

- « أخبرني يا سيدي الكولونيل : « لماذا دعوتهم « ابنائي » ؟ » .

- « هل أدعوهم رفاقي ؟ لا أستطيع ، فانا أبلغ من العمر ستين عاماً ، وهذا لا يتناسب معهم ، بل يشعرني أنني أمثل في مهزلة . . ولهذا فإني أدعوهم فتياناً ، أو ابنائي . . والأمر يسير على هذا النحو» .

ومرا أمام الكنيسة ، وكان الحريق قد التهمه ، ومن بابها المفتوح انبعثت رائحة القبو والرماد ، ودخل الكولونيل على حين أخذ مانويل يتأمل الواجهة .

كانت إحدى الكنائس المبنية على الطراز الباروكي الطراز الشعبي الأسباني في آن واحد ، وكان استخدام الحجارة في بنائها بدلاً من الرخام الايطالي يضفي عليها طابعاً يكاد يكون قوطياً ، وكانت النيران قد شبت من الداخل ، ولعقت ألسنة اللهب الهائلة السوداء المتشنجة كل نافذة لكي تنسحق فيها فيما بعد عند أقدام التماثيل العالية التي ترنحت في الفراغ .

ودخل مانويل . . كانت الكنيسة سوداء من الداخل ، ولم تكن الأرض الغائرة تحت ثقل الحديد المتساقط سوى أكوام من الحطام ، وكانت التماثيل الداخلية المصنوعة من الجبس ، والتي صقلتها النار حتى أضحت في لون

الطباشير تبدو كأنها بقع عالية باهتة متناثرة عند اقدام الأعمدة المتفحمة ، وكانت حركات القديسين الهاذية تعكس أضواء المساء الزرقاء الصادرة عن نهر تا جة ، إذ تلج عن طريق المدخل المحطم ، وامتلأ مانويل إعجاباً ، وأحس أنه فنان مرة أخرى ، فهذه التماثيل المسورة قد وجدت في الحريق الذي أخمد عظمة وحشية ، وكأن رقصها قد ولد هنا بين ألسنة اللهب ، وكأن هذا الأسلوب قد أصبح فجأة هو أسلوب الحريق نفسه .

وأختفى الكولونيل ، وأخذ مانويل يفتش عنه بنظراته في أعلى الكنيسة ، ولكنه كان راكعاً يصلي وسط الأطلال .

كان مانويل يعرف أن اكسيمينيس كاثوليكي متحمس ، ومع ذلك لم تخفف هذه المعرفة من دهشته ، وخرج لينتظره ، وسارا لحظة صامتين .

- « هل تسمح لي بسؤال يا سيدي الكولونيل : كيف انضممت الينا ؟» .

- « أنت تعلم أنني كنت في برشلونة ، وهناك تلقيت رسالة الجنرال جوديد التي يدعوني فيها الى الاشتراك في الثورة ، فمنحت نفسي مهلة خمس دقائق للتفكير . . ولم أكن قد حلفت يمين الولاء للحكومة ، غير أنني كنت أعلم بيني وبين نفسي - أنني وافقت على خدمتها ، ولهذا اتخذت قراري بالطبع ، ولكنني لم أكن أريد - وأنا في هذه السن أن يراودني الاحساس فيما بعد بأنني قد تصرفت عفو الخاطر . . وبعد الدقائق الخمس ذهبت الى كومبانيز وقلت له : « سيدي الرئيس ، الفرقة الثالثة عشرة ، وقائدها رهن تصرفك » .

ورفع بصره الى الكنيسة مرة أخرى ، وقد بدت شيئاً خيالياً في هدوء المساء المفعم برائحة التبن ، وبواجهتها الممزقة وتماثيلها المحترقة المحطمة على مهاد من السماء .

قال بصوت هامس : « لماذا يخلط الناس دائماً بين الدعوة المقدسة لمن

يرانا في هذه اللحظة ، وبين أفعال قساوسته الأرديـاء ، أو أفعال الأرديـاء من قساوسته ؟ » .

ـ « ولكن من أين سمع الناس الحديث عنه يا سيدي الكولونيـل إلا من قساوسته ؟ » .

وأشار اكسيمينيس بحركة بطيئة الى الهدوء الريفي ، ولم يقل شيئاً .

ـ « اليك مثلاً يا سيدي الكولونيل : لقد كنت عاشقاً ذات مرة في حياتي عشقاً مبرحاً ، ولكنني كمن أحب جداراً ، وكان من الممكن أن أكون عـاشقاً لتلك المرأة ، بيد أن ذلك لم يكن ليغير من الأمر شيئاً ، فبيني وبينها جدار هو الكنيسة الأسبانية ، لقد أحببتها ، وحين افكرالآن في هذا الحب أحس وكأنني أحببت امـرأة مجنونـة ، مجنونـة وديعة وطفلة . . انـظر . . هذه هي بـلادنا يـا سيـدي الكولـونيل ، مـاذا فعلت الكنيسة بهـا سـوى أن جعلتهـا ضـربـاً من الـطفولـة المروعـة ؟ وماذا صنعت بنسـائنا وبشعبنـا ؟ لقـد علمتهم شيئـين : الطاعة والتناسل » .

ووقف اكسيمينيس فـوق ساقـه الجريـح وامسك بـذراع مانـويـل وغمـز بإحدى عينيه قائلاً :

ـ « لـو انك كنت يـا بني ـ عاشقـاً لتلك المرأة فلربمـا كفت عن أن تكون صماء مجنونـة ، وفضلاً عن ذلـك كلما كان الهـدف عظيـماً أفسح مكـاناً كبيـراً للنفاق والكذب . . . »

ودنا مانويل من جماعة من الفلاحين سـود مستقيمين عـلى حائط مـا زال يبـدو أبيض في الظلام ، وقـال لهم متـودداً : « أخبـروني أيهـا الـرفـاق : إن مدرستكم ذات هيئة قبيحة ، فلماذا لم تحولوا الكنيسة الى مدرسـة ـ كما فعلوا في مرسية ـ بدلاً من إحراقها ؟ »

ولم يحر الفلاحون جواباً ، وكان الليل قد أرخى سدوله تقريباً ، وبـدأت

تماثيل الكنيسة في الاختفاء ، ورأى الضابطان الأطياف الثابتة الملقاة على الحائط ، بقمصانهم السود ، وقبعاتهم العريضة . . . ولكن دون أن يلمحا وجوههم .

ـ « يريد الكولونيل أن يعرف : لماذا أحرقوا الكنيسة ؟ ما الذي يأخذونه على القساوسة هنا ؟ ما جريرتهم الملموسة ؟ » .

ـ « لماذا يقف القساوسة ضدنا ؟ » .

ـ « كلا ، العكس هو الصحيح » .

وبقدر ما كان يستطيع التخمين في الظلمة ادرك أن الفلاحين مرتبكون قبل كل شيء : هل هذان الضابطان شخصان يمكن الوثوق فيهما ؟ ربما كان للأمر كله علاقة بحماية الآثار الفنية .

ـ « ما من أحد هنا حاول أن يعمل لمصلحة الشعب إلا كان هدفاً لاضطهاد القساوسة . . . فلماذا إذن ؟» .

كان الفلاحون يأخذون على الكنيسة انها كانت تقف دائماً في صف السادة الأغنياء ، وأنها أيدت الاضطهاد الذي أعقب ثورة المقاطعات الأشتورية وأيدت نهب القطالونيين ، ولقنت الفقراء باستمرار الخضوع للظلم ، وها هي ذي تشن الآن حملة صليبية ضدهم ، وكان أحدهم يأخذ على القساوسة صوتهم « الذي لم يكن يشبه صوت البشر » ، وكثيرون كانوا يشكون من النفاق أو القسوة التي أتصف بها الرجال الذين كان القساوسة يعتمدون عليهم في القرى وفقاً لمراتبهم ، وكلهم قد وشوا الى الفاشيين في القرى التي استولى عليها هؤلاء بأسماء أولئك الذين « يفكرون تفكيراً سيئاً » ، وهم لا يجهلون انهم بذلك يحكمون عليهم بالاعدام رمياً بالرصاص . . . كما كانوا يلومونهم جميعاً على ثرائهم .

وأستطرد أحد الفلاحين قائلاً : « انهم كل ذلك . . . اذا شئتم ! ولقد

كنتم تتسألون الآن : لماذا لم نحول الكنيسة الى مدرسة ؟ يا أطفالي هيه . . وإنكم لاطفالي حقاً . . . الجو ليس دافئاً هنا دائماً في الشتاء . . وبدلاً من أن أرى اولادي يعيشون في الداخل أفضل أن أراهم يتجمدون من البرد . . أتفهموني ؟ »

ومد مانويل يده بسيجارة ، ثم أشعل ولاعته ، وكان الرجل الذي تحدث لتوه فلاحاً في الأربعين من عمره ، حليق اللحية ، لا يتميز بشيء غير عادي ، وانتزعت الشعلة القصيرة وجه جاره الأيمن لحظة من العتمة . وكان وجهاً أشبه بثمرة الفاصولياء ، والأنف والفم لا حدود واضحة لهما بين جبين وذقن بارزين الى الأمام ، وها هم أولاء حين سُئلوا عن الأسباب قد أوضحوها ، بيد أن الرنين الصادق الصادر من القلب كان هو الرنين الشائع في الصوت الأخير .

وأنبعث صوت فلاح آخر من الظلام قائلاً : « هؤلاء الأشخاص جميعاً محتالون » . فسأله اكسيمينيس : « هل هم يسعون الى المال ؟ » .

ـ « إن كلا منهم يسعى الى مصلحته . . . وهم يقولون : إن الأمر على خلاف ذلك . أعلم هذا . . ولكنهم كاذبون . . وأنا لا أعني ذلك . . . إنني أعني أعماق الضمير . . . وهذا شيء لا يمكن تفسيره ....إنهم دجالون ... هؤلاء الناس ! » .

ـ « القساوسة . . المسألة هي أن سكان المدن لا يستطيعون فهمهم ، ونبحت الكلاب من بعيد . . ترى أي الفلاحين هو الذي يتكلم ؟ قال صوت آخر :

« لقد حكم الفاشيون عليه بالاعدام . . . يا جوستافيو . . . » .

وكان يبدو أن الجميع يريدون من هذا الشخص أن يبدي رأيه

وقال صوت آخر هو صوت جوستاف بلا شك : « لا تخلطوا الأمور :

كولادو وأنا من الأشخاص الذين يؤمنون ، ولكننا ضد القساوسة . . الناس كلهم ضد القساوسة . . كل ما في الأمر هو أنني أؤمن . . . » .

- « هذا هو . . . انه لا يتورع عن تزويج عذراء بيلييه الى القديس جاك دي كومبوستل ! » .

- « القديس جاك دي كومبوستل ؟ إنني أؤثر أن تصبح فاجرة قبل ذلك . . . أجل ! » .

ثم أردف بصوت أكثر انخفاضاً . وبلهجة الفلاح الوئيدة حين يحاول أن يشرح شيئاً : « فتح الفاشيون باباً . . عن عمد . . وأخرجوا شخصاً كان يقول : ماذا ؟ وتكرر ذلك مرة أخرى ، أما إطلاق النار ، فلم نسمعه قط . وأما جرس القسيس فقد سمعناه : فعندما يدق جرس ذلك الوغد فهذا معناه أن أحدنا سوف يعدم ، وهم يحاولون بذلك إرغامنا على الاعتراف . . وقد نجح ابن العاهرة احياناً . . وكان يقول : إنه جاء ليمنحنا الغفران . . . عن ماذا ؟ لأننا دافعنا عن أنفسنا ضد الجنرالات ! وظللت أسمع صوت الجرس خلال خمسة عشر يوماً ، فكنت أقول في نفسي : هؤلاء هم لصوص الغفران ! . . .

إنني أعرف ما أقول . . . ليست المسألة مسألة أموال . . . افهموا ما أعنيه جيداً ، ماذا يقول لك القسيس حين يتلقى اعترافك ؟ انه يطلب منك أن تندم على ما فعلت . . فلو استطاع قسيس واحد أن ينتزع من أحدنا اعترافاً بأنه نادم على الدفاع عن نفسه أعتقد أن هذا يكفيه ، لأن الندم يكون عن أفضل ما في الأنسان . . هذا ما اعتقده » .

وتذكر اكسيمينيس بويج .

- « كولادو ، يريد أن يقول شيئاً ! » فقال جوستافو :

- « تقدم ! » .

فلم يقل الفلاح شيئاً .

ـ « ماذا . . ألم تحزم أمرك بعد ؟ » .

فقال ذلك الذي لم يتحدث بعد :

ـ « لا يستطيع المرء أن يتحدث على هذا النحو » .

ـ « قص علينا قصة الأمس . . وألقِ علينا الموعظة » .

ـ « انها ليست قصة . . » .

وفي هذه اللحظة وصل بعض رجال الميليشيا محدثين ببنادقهم ضجة في الظلام ، وكانت الظلمة الآن تامة .

قال أخيراً في لهجة ساخرة : « كل هذه الضجة لأنني رويت لهم أن الملك قد مر ذات مرة على اقليم الأوردس Hurdes ، في اثناء رحلة صيد . . وسكان تلك البلاد مصابون بتضخم الغدة الدرقية بلهاء مرضى ، يعيشون في فقر مدقع الى درجة أن الملك لم يصدق أنه من الممكن أن يكون الناس على مثل هذا الفقر . وكانوا أقزاماً ، فقال الملك : لا بد أن نصنع شيئاً من أجل هؤلاء الناس ؟ فقالوا له : أجل يا مولاي كما جرت بذلك العادة ؛ ولم يصنعوا شيئاً كما جرت بذلك العادة . . . ولما كانت تلك البلاد في غاية التعس فقد أرادوا أن ينتفعوا منها ، ومن ثمن جعلوها مكاناً للسجناء . . . كما هي العادة . . ثم . . . »

من المتحدث ؟ إن نبرة هذا الصوت القوي الأداء لا يمكن أن تكون إلا لرجل ألف الكلام في المحافل ، على الرغم مما شاب حديثه من تعبيرات ريفية . وأنصت اليه اكسيمينيس دون أن يجد في ذلك مشقة على الرغم من أنه لم يكن يتحدث بصوت جهير . .

« ووجد المسيح عيسى أن الأمر لا يمكن أن يمضي على هذا النحو ، فقال في نفسه : سأذهب الى هناك ، وبحث الملاك عن أفضل امرأة في

المنطقة ، ولم يلبث أن ظهر لها ، فأجابته المرأة : أوه ! لا داعي للعناء ، فالطفل سينزل قبل موعده ، ما دمت لا أجد ما آكله ، وهناك في الشارع الذي أعيش فيه فلاح ذاق اللحم منذ أربعة شهور ، فقد ذبح قطته » .

كانت السخرية قد تخلت عن مكانها لمرارة يائسة ، وكان اكسيمينيس يعلم أن هناك في بعض الأقاليم منشدين يرتجلون القصص في أثناء السهر على الموتى ، ولكنه لم يسمعهم قط .

« وذهب المسيح الى امرأة أخرى . . فلم يجد حول المهد سوى فئران؛ فإذا كانت قد اجتمعت للتدفئة فهي تدفئة ضعيفة ، أما إذا كان اجتماعها للصداقة فإنها صداقة حزينة . . وهكذا قال المسيح في نفسه : إن الأمور لن تكون على ما يرام أبداً في اسبانيا » .

وارتفعت من منتصف القرية ضوضاء سيارات النقل والفرامل ، تصحبها طلقات بنادق بعيدة ونباح الكلاب ، وحملت الريح من الكنيسة المحترقة رائحة الصخور والدخان . . . وكانت ضجة العربات من القوة بحيث لم يستطع الضابطان متابعة الكلام .

« . . . وأرغموا اصحاب الأراضي على تأجير اراضيهم للفلاحين وولول أصحاب الأبقار قائلين : إن أصحاب الفئران قد جردوهم من أملاكهم . . . واستدعوا الجنود الرومانيين .

« ثم ذهب السيد المسيح الى مدريد ، ولكي يسكته ملوك العالم أخذوا يذبحون أطفال مدريد . . فقال المسيح في نفسه : حقاً لا يوجد ما يمكن أن يفعله المرء من أجل البشر . . وانهم ليبعثون على التقزز الى درجة انني لو نزفت دماً ليلاً ونهاراً الى الأبد فلن أتمكن من تطهيرهم » .

ضجة سيارات النقل لا تنتهي أبداً وهناك في الادارة كانوا ينتظرون اكسيمينيس . وكان مانويل مأخوذاً وحانقاً في الوقت نفسه .

« ولم يحضر نسل الحكماء مولده ؛ لأنهم صاروا اما جائلين أو موظفين . . ولأول مرة في تاريخ العالم ، ومن كل البلاد ـ شرع أولئك الذين كانوا قريبين ، ومن كانوا بعيدين ، ومن كانت أوطانهم حارة ، أو متجمدة ، ومن كانوا شجعاناً أو تعسين ـ شرع أولئك جميعاً في المسير يحملون بنادقهم » .

وكان في ذلك الصوت اقتناع يطغى عليه الشعور بالوحدة الى درجة أن اكسيمينيس أحس ـ برغم الظلام ـ بأن ذلك الذي يتحدث قد أغمض عينيه .

« وادركوا بأفئدتهم أن المسيح حي في مجتمع الفقراء والمساكين الذين يعيشون بين ظهرانينا ، وهكذا اجتمع في صفوف طويلة ومن كل البلاد ـ أولئك الذين يعرفون الفقر الى الدرجة التي يضحون فيها بأرواحهم لمحاربته ، وبعضهم كان يملك بنادق ، وبعضهم يتخذ من يديه بنادق اذا لم يكن يملكها . . جاؤوا جميعاً ، ورقدوا الواحد الى جنب الآخر فوق أرض أسبانيا . . .

« وكانوا يتكلمون بكل اللغات ، بل كان بينهم أيضاً تجار صينيون يبيعون أربطة الأحذية » .

وزاد الصوت خفوتاً ، كان الرجل يتحدث من بين أسنانه منكمشاً على نفسه في الظلام كمن أصيبوا في بطونهم ، وقد أحاطت به حلقة من الرؤوس ، ومن بينها رأس اكسيمينيس بصليبه من المشمع الانكليزي .

« وحين قتل الناس أكثر مما ينبغي ، وحين شرع الصف الأخير من الفقراء في المسير . . . »

وكان ينتزع الكلمات بصوت خفيض ، في شدة الساحر الهامسة .

« . . وارتفعت فوق رؤوسهم نجمة لم يرها أحد من قبل . . . »

ولم يجرؤ مانويل على اشعال ولاعته ، وكانت أبواق السيارات تعوي في

الليل ساخطة كأنما سدت دونها المنافذ .

قال صوت يكاد يكون همساً : « ما هكذا رويتها أمس ؟ » .

أعقبه جوستافو بصوت أكثر ارتفاعاً :

ـ « أنا لم أخلق لرواية مثل هذه القصص ، وما أن تشرع فيها حتى لا تدري ما أنت صانع . . ولا بد أن يعرف المرء ما يريد . . هذا كل ما في الأمر » .

قال صوت آخر متمهل مكدود : « لا داعي للعناء ؛ فإن سكان المدن لا يمكنهم أن يفهموا عن القساوسة شيئاً . . . » .

ـ « انهم يعتقدون ان هذا هو الدين » .

ـ « ساكن المدينة لا يستطيع أن يفهم » .

وسأل اكسيمينيس : « ماذا كان عمله قبل الثورة ؟ » .

ـ « هو ؟ » .

وانقضت برهة قصيرة من الصمت .

وقال صوت ما : « . . . لقد كان راهباً . . . »

وجر مانويل الكولونيل صوب جحيم الضوضاء الصادرة عن أبواق السيارات .

وسأل اكسيمينيس حين عادوا المسير : « هل رأيت الشارة التي يعلقها جوستافو حين أشعلت السيجارة ؟ انها شارة الاتحاد الفوضوي الأيبيري على ما أظن ؟ » .

ـ « هي أو غيرها فالأمر سيان . . . وأنا لست فوضوياً يا سيدي الكولونيل ، ولكنني تلقيت تربيتي على أيدي القساوسة ، مثل كل واحد منا ،

ومع ذلك ثمة شيء فيَّ (وخاصة من حيث أنني شيوعي ، فأنا ضد كل هدم) ثمة شيء فيَّ يفهم هذا الرجل .

ـ « أكثر من الرجل الآخر ؟ » .

ـ « أجل » .

وقال اكسيمينيس : « أنت تعرف برشلونة ، هناك بعض الكنائس التي بدلاً من أن تحمل للّلافتة المعتادة المكتوب عليها عبارة « تحت اشراف الشعب » تحمل هذه العبارة : « من الأملاك الخاصة بانتقام الشعب » . . . ومع ذلك . . . إنني لأتذكر كيف ترك الموتى طويلاً في ميدان قطالونيا في اليوم الأول ؛ وبعد ساعتين من توقف النيران عادت الحمائم الى الميدان ، وحامت فوق الأرصفة وفوق الموتى . . . إن بغض البشر يلتهم نفسه . . . »

ثم أردف بصوت أبطأ ، وكأنه يلخص أعواماً من القلق :

ـ « يملك الله وقتاً كافياً للإنتظار . . . »

وأخذت أحذيتهما الثقيلة ترن على أرض جافة صلبة ، وقد تخلفت ساق اكسيمينيس الجريح عن خطوة مانويل .

واستكمل الكولونيل كلامه قائلاً : « ولكن لماذا . . ؟ لماذا ينبغي أن يكون انتظاره هو هذا كله ؟ » .

الفصل الثاني

كانت ثمة محاولة جديدة للتوسط على وشك أن تبذل ، وكـان من المقرر أن يصل الى طليطلة قسيس في اثناء الليل ؛ ليدخل إلى « القصر » بالـطبع - صباح اليوم التالي .

وكـانت مصابيـح الغاز المنتشـرة في الميـدان الصغـير قـد أُطفئت والضـوء الـوحيد ينبعث من مصبـاح للعاصفـة مغلق في مكان منخفض نـوعاً مـا أمام حـانة « القـطة » (الجاتـو) El Gato . وأغرى « شـاد » القط المرسـوم عـلى مدخل الحانة ، وكـان يجلس الى منضدة قـريبة من البـاب ، منهمكاً في الفـاء ظلال مختلفة الصور من غليونه على جدار كاتدرائية طليطلة .

وكان « شاد » يستطيع أن يبرق الى صحيفته حتى الساعة الثانية صباحاً ، ولا بـد أن يكون لـوبيز قـد عاد من مـدريد قبـل هـذه السـاعـة فهـو الـذي سيصحب القسيس . . . فيـا له من مـوضوع صـالح لمقـالة بـديعة ! ولم تكن السـاعة قـد بلغت العاشـرة بعد ، وجعلت الـوحدة التـامة من ذلـك الميدان بدرجاته وقصوره الصغيرة القابعـة تحت أوراق الشجر الصفـراء ، « ديكوراً » أضفت عليه طلقات الرصاص الأخيـرة الصادرة عن « القصـر » جواً خـرافياً غامضاً ، وأخذ « شاد » يحلم - مسحوراً - بمحطات الإذاعة الكبيرة المنسيـة في الهند في القصور المطلية بلون العقيق ، والتي تغزوها أشجار الجوز وهي تنقـل كـل ضـوضـاء الحـرب الى الـطواويس والقـرود ، وكـانت رائحـة الجثث في طليطلة شبيهة برائحة مستنقعات آسيا . « ترى : هل هناك أجهزة للراديو في

القمر ؟ من الجميل أن تحمل الموجات جلبة القتال الغامضة الى هذه الى الكواكب الميتة ! . . . » وكانت الكاتدرائية المهجورة التي لم يلحقها ضرر والمملوءة - بلا ريب - في هذه الساعة برجال الميليشيا - ترضي عداءه للكنيسة الكاثوليكية ، وغرامه بالفن في آن واحد ، وفي داخل الحانة ترامت الى سمعه أصوات تقول :

- « لقد اكتسحتهم طائراتنا اليوم ، ومدافع الفاشيين الرشاشة استقرت في مواضع جيدة في حلبات بطليوس ، ولكنها لم توضع في الوسط تحت البرج ».

- « ينبغي الاحتراس بالنسبة للثكنات ؛ فقد وضعوا فيها كثيراً من المعتقلين » .

وقال صوت آخر أكثر شباباً - يسري فيه التهكم وتشوبه لكنة انكلوسكسونية واضحة :

- « بعد المعركة حدث هرج ومرج كثير في الميدان . . . وكنت أراقب ما يحدث إذ كنت على ارتفاع خمسمائة متر ، وكانت النسوة جميعاً شابات وفاتنات . وأخذت كل منهن تقول : من ذلك الشاب الاسكتلندي الجميل الذي يطل علينا من عل ؟ » .

وكان « شاد » يدون ملاحظاته حين وصل لوبيز أخيراً بهيئته الملكية وذراعيه المرفوعتين في الهواء ، وعرفه المهتز ، ولم يلبث أن جلس في تؤدة رافعاً ذراعيه من جديد . ثم تركهما تسقطان ، فارتطمت يداه بفخذيه في السكون الذي ساد الميدان ، وتجاوبت اصداء بضع طلقات نارية ، وانتظر شاد وقد ازاح قبعته الصغيرة إلى مؤخرة رأسه .

- « إنهم يطلبون قساوسة . . حسن ، ينبغي إعطاؤهم قساوسة ! ولكن يا إله السموات ! » .

ـ « هل تقصد انهم هم الذين يطلبون قساوسة ، أو أنتم الذين تطلبون رهائنكم ؟» .

واتخذ لوبيز هيئة شخص شاهد الكثير في يومه حقاً .

ـ « هذا كله سيان . أيتها السلحفاة ! لقد طلبوا قساوسة . . وهذه مسألة تخصهم ، ومن ناحية أخرى لا يريد أولئك الأوغاد أن يسمحوا بإجلاء النساء والأطفال ، سواء أكانوا نساءهم وأطفالهم ، أم نساءنا وأطفالنا . وهم يعلمون جيداً أن هذا خيراً لهم ، وخلاصة القول انهم ما داموا يريدون قساوسة فأنا أعرف منهم اثنين ، وهكذا اتصلت تليفونياً بمدريد ، وأمرتهم باعداد هذين القسيسين ، على أن أصل الى مدريد حوالي الساعة الثالثة .

وكأنهم يعتقدون أن هناك في كل ركن قساوسة لم يلوذوا بالفرار ! ووصلت الى مدريد ، ولكي أبدأ أقول : إنني لم أجد وسيلة للاتصال بجرنيكو . . وكان في الخارج مع عربات الأسعاف ، وأخيراً حصلت على عنوان القسيس الأول ، وهو رجل شهم كان يزورنا في السجن حين كنا فيه سنة ١٩٣٤ ، ووصلت اليه مع أربعة من رجال الميليشيا (كنا نرتدي سراويل الميدان) ، وكان المنزل كاثوليكياً ، والبواب كاثوليكياً والسكان كاثوليكيين ، والنوافذ كاثوليكية ، والجدران كاثوليكية ، وفي كل ركن من أركان السلم كانت هناك تماثيل من الجبس للسيدة العذراء ، ولم تكد السيارة تقف حتى بدأ السكان يتصايحون من الطوابق جميعاً ! فقد اعتقد أولئك الرعاديد أننا جئنا لقتلهم ! وشرحت الأمر للبواب ، ولكن دون جدى ، كان يفكر طبعاً في المذابح الشهيرة ، وما أن رأى القسيس السيارة حتى لاذ بالفرار عن طريق الحديقة . . هذه قصة القسيس « رقم واحد » .

واختفى ضوء القمر من الميدان ، وكان لوبيز قد ملأه بحضوره ، كما يفعل في كل مكان يحل فيه .

ـ « واليك قصة الآخر . . . كنت أعرف أن له اتصالات بالادارة العامة

للميليشيا ، فوصلت الى هناك ، ووجدت الضباط جميعاً على وشك التهام طعامهم ، فناديت أحدهم ، وشرحت له المسألة فقال :

ـ « حسن ، سيكون هذا القسيس لديك في الساعة الرابعة . » وكان عليَّ أن أفعل الكثير ، وأن أحث الناس جميعاً للحصول على الذخيرة ، وعدت في الساعة الرابعة .

« وقال لي الزميل : لقد كان القسيس موجوداً حين حضرت وكان يأكل معنا ، ولكنني أردت أن أحذره ، حتى يبدو الأمر وكأنني أجد مشقة في العثور عليه ؛ فبهذا يخفف من غلوائه . كيف يخفف من غلوائه ؟ إنهم عصابة من الأوغاد ، ولا يريدون حتى أن يقوموا بواجبهم ! وأخيراً أخبروني أنه كاهن بالكاتدرائية ، وأنت تعرف مرتبته في النظام الكنسي ، ولو أنه كان كاهناً ريفياً ما دارت حوله كل هذه الحكايات ، وأخيراً جاء دور قساوسة الريف ، والواقع انني لا أعرف منهم أحداً : فهم لا يهتمون بالنحت ! « فليكن ، ولكن قل له : « إنني أريد أن أتحدث اليه ، فلو أن ثمة فرصة لابعاد أولئك الأطفال عن الحرب ينبغي أن نبعدهم عنها » . وكدت أموت ظمئاً ، وزجاجات من البيرة في الثلاجة . . فتسللت الى المطبخ ، وهناك وجدت رجلاً يرتدي قميصاً قذراً بلا ياقة ، وصديرياً مفتوحاً ، بنطلوناً مخططاً ، وهو يحاول أن يفتح صنابير البيرة . (وينبغي أن أذكر أن الجو لم يكن بارداً) . وكان هو صاحب العظمة القسيس الذي أبحث عنه » .

ـ « أشاباً كان أم عجوزاً؟ » .

ـ « لم يكن حليق الذقن ، وكان شعر لحيته أبيض ، مكور الجسم ، له سحنة قذرة عليها شيء من وسامة ، ويدان خليقتان بالرسم . وشرحت له المسألة (وأنت تعرف معنى ذلك !) فأجابني إجابة استغرقت عشر دقائق . ونحن نسمي هنا الشخص الذي يجيب في ربع ساعة على ما ينبغي أن يجاب عنه في نصف دقيقة بأنه مهرج ، وكان هذا القسيس مهرجاً ، وقلت له شيئاً

لا أتذكره ، فأجابني قائلاً : « لقد تعرفت فيما تقوله على لغة الجنود » ولا بد أنهم قالوا له : إنني ضابط مسؤول وإن كنت ارتدي سروالاً عسكرياً ولكن دون شارة . وقال لي : « إن ضابطاً مثلك ! . . . » أجل قال لي ذلك أنا النحات المسكين ! وأخيراً أجبته : « سواء كنت ضابطاً أم لم أكن فإنهم لو طلبوا مني أن أقاتل في مكان ما لذهبت اليه ، وأنت رجل دين ، وثمة أناس يستنجدون بك ، وأنا أريد انقاذ الأطفال ، فهل ستأتي معي أو لا ؟ » فأستغرق في التفكير ثم قال في وقار : « هل تضمن لي حياتي ؟ » وكان الضيق قد بلغ مني أقصى مداه فأجبته قائلاً : « حين حضرت الى هنا - منذ لحظة كنت تتناول طعامك مع رجال الميليشيا ، فماذا تظن . . ؟ أتظن أنهم سوف يتعشون بك في طليطلة ؟ » وكنا جالسين نحن الإثنين الى مائدة واحدة ، فنهض ثم قال في نبل واضعاً يده على صديريته : « لو كنت تعتقد أنني استطيع انقاذ روح واحدة . . فسأذهب » « أنت رجل شهم ، والآن ما دمنا بسبيل انقاذ أرواح فلننقذها فوراً : السيارة تقف في الخارج » : « ألا تعتقد أنه من الأفضل أن أضع ياقة وألبس سترة ؟ أنا لا أهتم شخصياً بذلك ، ولكن ربما سر الآخرين أن تكون في ردائك الديني » . « لا أملك واحداً هنا » ، « ولم أكن أعرف هل كان صادقاً أو حذراً ؟ ، والأرجح أنه كان صادقاً ، ولم يلبث أن اختفى ، ونزلت ، فوجدته واقفاً بعد بضع دقائق امام السيارة ، وقد وضع ياقة ورباط رقبة أسود وسترة من الجلد . وهكذا بدأنا الرحلة ! » .

وهبت على الميدان ريح مشحونة برائحة الحريق ، وكان دخان القصر يصل حتى ذلك المكان ، وبدت المدينة فجأة بعد أن تخلصت من رائحة الجثث المتعفنة في صورة جديدة .

- « وكانت السيارة توقف طوال الرحلة للتفتيش عليها ، فقال لي القسيس بلهجة الشخص الذي فكر في الأمر ملياً : « من الجلي أن الخروج من مدريد أمر عسير » .

« وكان همه ـ طوال الطريق ـ أن يشرح لي كيف يمكن أن يكون الحمر على صواب كالبيض ، « بل ربما كانوا أكثر صواباً » ، كما أراد أن يعرف كيف ستكون المقابلة ، فكنت أردد له طوال ثلاثة أرباع الساعة : « ان المسألة بسيطة ، وشبيهة بمسألة الكابتن روجو ، سنخطرهم بوجودك ، ثم نصحبك الى مندوبيهم ، وسيعصبون عينيك ، ثم يصحبونك الى مكتب الكولونيل موسكاردو قائد القصر ، وهناك يرفعون العصابة عن عينيك ! » « في مكتب الكولونيل موسكاردو ؟ » ، أجل وشرحت له ـ من جهتي ـ أن من واجبه أن يرفض منح الغفران لكل أولئك الأشخاص وكذلك التعميد ، وكل شيء ، اذا رفض موسكاردو اطلاق سراح النساء والأطفال ».

وقال شاد : « وهل وعد بذلك ؟ » .

ـ « فلتذهب وعوده الى الجحيم ! فلو أنه يريد أن يفعل شيئاً فسيفعله أما وعوده فلن تغير من الأمر شيئاً ، وشرحت له ما وسعني الشرح . . . وأخيراً وصلنا إلى طليطلة ، وعند المدفعية نزلت من السيارة ، فقد كنت أريد أن أتحدث الى الكابتن . وكان يصيح : « كوجون ! » وهو يقفز فوق سلم السيارة دون أن يترك لي فرصة للتفوه بكلمة : « أين القنابل ؟ لقد وعدونا بالقنابل . . . لن تكون لدينا ذخيرة مساء غد ! » فأتيت بحركات حذرة كحركات طاحونة الهواء لكي يغلق فمه ؛ فإن القليل الذي يعرفه قسيس هنا يعد دائماً شيئاً كثيراً . . ولكنه لم يفطن الى اشاراتي ، وأخيراً انتهى الأمر بهذا القدم الى الفهم ، وقمت بواجب التعريف : « الرفيق ـ القسيس » . وأشار الكابتن وهو يضرب على فخذيه الى برج « القصر » الذي بدأ يتداعى ، « أنظر الى منظر مكتب موسكاردو ! » قال ذلك وهو يشير الى ثغرة مثلثة الشكل : « ولكن يا عزيزي القومندان (كنا على هذه الدرجة من الألفة !) : هل تظن أنه من الممكن في مثل ذلك المكان المتهدم أن يتم اللقاء بيني وبين الكولونيل موسكاردو ؟ وكيف يمكن أن أصل الى هناك ؟ » كان القسيس يقول ذلك وقد ارتسمت على سحنته تلك النظرة العنيدة التي ترتسم

على وجوه الصبيان حين يحرنون ، وهنا صاح الكابتن مؤكداً : « حاول أن تشق طريقك . . . وإن كنت أعرف أن في ذلك صعوبة أيما صعوبة ! » .

« وكان من الجلي أن الأمور تزداد تعقيداً ، ولكنني أفهمته أخيراً أننا نستطيع تدبير الأمر مع موسكاردو ، وأرسلته مع ثلاثة من الحراس لحمايته . . . وهو بسبيله الآن الى التمتع باغفاءة قصيرة » .

ـ « ولكنه : هل سيذهب في النهاية أو لا ؟ » .

ـ « سيذهب غداً في الساعة التاسعة ، وسوف تستمر الهدنة حتى الظهر » .

ـ « هل تعلم شيئاً عن موضوع الأطفال ؟ » .

ـ « لا أعلم شيئاً ، وعلى المسؤولين أن يشرحوا الأمر للقسيس . . أو على من يعتقدون أنهم مسؤولون . . فلنأمل ألا يلقوا الرعب في نفسه ؛ فهناك بين الفوضويين شخص مغطى بالوشم ، وقد ينجح في اخافته » .

ـ « فلنصعد لنرى ما يدور هناك » .

وصعدوا في صمت ميممين شطر ميدان « زوكو دوفر » ، معجبين في اثناء عبورهم « برعب بانشو فيلا » الذي بدت قبعته أجمل في أثناء الليل ، وكان الشارع يزداد ازدحاماً كلما صعدوا ، ومن الطوابق الأخيرة في المنازل كانت بعض البنادق ومدفع رشاش تطلق نيرانها من حين إلى آخر ، وكان « شاد » قد استمع في هذه الساعة منذ ثلاثة شهور مضت الى صوت حوافر حمار غير مرئي ، وبعض عازفي الغيتار الذين يعزفون النشيد العالمي عزفاً خفيفاً في أثناء رجوعهم ليلاً من حفلة مسائية ، ولاح القصر قائماً بين برجين تضيئه المصابيح الكشافة .

قال : « فلنذهب حتى نبلغ الميدان ، وسأكتب مقالتي في الدبابة » .

وكان الصحافيون قد اعتادوا الالتجاء الى دبابة غير مستعملة ، ليكتبوا

على ضوء شمعة .

ووصلوا أخيراً الى المتاريس ، وعلى اليسار كان بعض رجال الميليشيا يطلقون نيرانهم ، وعلى اليمين رقد آخرون على الحشايا يلعبون الورق ، على حين استقر فريق ثالث فوق مقاعد من الخيزران ، في الوقت الذي انبعثت اغنية أندلسية من مذياع في الوسط ، وفوقهم في الطابق الثاني كان مدفع رشاش يطلق نيرانه ، وأقترب شاد من ثغرة في الاستحكامات .

وكان منظر الميدان المهجور تماماً يضيئه مصباح قوي . . ذلك الميدان الذي كان ملوك قشتالة يصارعون فيه الثيران ممتطين صهوات جيادهم ـ كان منظره أشد بعداً عن الواقع من منظر الكاتدرائية ، فهو أشبه بميدان في كوكب ميت منه بأي مكان آخر في العالم بما فيه من خليط عجيب من رائحة الحريق ، ورطوبة الليل . وتحت أضواء منبعثة من استوديو انتشرت اجزاء من حطام كأنها أطلال معبد آسيوي ، وانتصب قوس للنصر ، وحوانيت خدشتها الرصاصات مغلقة ومهجورة ، وعلى جانب آخر مقاعد حديدية من إحدى الحانات متناثرة أو مكدسة أو فريدة وهناك عالياً فوق المنازل ـ كان يتوهج اعلان ضخم عن الفرموت على هيئة حرف Z ، وعلى الجانبين المظلمين اللذين يضيئهما نور واهن تناثرت حجرات المراقبين ، وفي الجانب المقابل كانت المصابيح الكشافة ترسل أضواءها المسرحية على الأزقة المتصاعدة جميعاً ، وفي نهاية تلك الأزقة وفي ضوء ساطع أيضاً كان القصر يطلق سحابات من الدخان ، وقد بدا مضيئاً للموت أكثر مما كان للسائحين ومسطحاً بصورة غريبة على صفحة السماء الليلية .

وبين حين وآخر كان أحد الفاشيين يطلق رصاصة ، وأخذ « شاد » يراقب رجال الميليشيا الذين يردون على طلقات العدو، والآخرين الذين يلعبون الورق ، وتساءل: « ترى من منهم الذين يعلمون أن زوجاتهم وأطفالهم في القصر ؟ » .

وكـانت الأغطيـة الريفيـة المخططة كحشـايا المتـاريس والتي أخرجت في الليل تضفي على المدينة وحدة غريبة ملونة ، وانـدفع بغـل الى الطريق العـام فقال« شباد»في نفسه: « في منتصف الليل يحسن بهم أن يستبدلوا بالبغال الحمر الوحشية حتى ينسجم منظرها مع تلك الوحدة المخططة » . وكـانت مصابيـح السيارات المصفحة الواقفة أمام الدبابة العتيقة في الشارع المعتم الضيق ترسل بقعاً صغيرة من النور ، وعلى مقربة من الميدان كانت هناك واجهة شبه مضيئة لمحل من محال الأزيـاء الحديثـة ، وقفت أمامهـا سيدة عجـوز تضع قبعـة من الريش دون أن تبدي حراكاً وقـد بهرتهـا القبعات الحـديثة الـظاهرة في ضـوء المصابيح الكشافة التي أنارت « القصر » المدخن .

ومن حين الى آخر كـانت إحدى رصـاصات الأعـداء ترن عـلى الجوانب المصفحة لأحدى السيارات التي تحمل مـدفعاً رشـاشاً ، وصعـد لوبيـز صوب مركز القيادة على حـين دخل « شـاد » الى الدبـابة ، حيث أفسـح له ضـارب المدفع الرشاش مكاناً . وما كاد يتناول مفكرتـه حتى أطلق المدفـع والسيارات المصفحة ورجال الميليشيا نيرانهم في وقت واحد ، وأحدث هذا كله ضوضـاء شديدة ، وأستولت على الشارع فيما وراء ذلك حالة من الهرج والمـرج ، وقفز «شاد» من الدبابة. . لعله هجوم مضـاد قام به « القصر » ؟

وكان الفاشيون قد اطلقوا صاروخاً مضيئاً ، فأخذت المـدينة كلهـا تطلق النار عليه .

الفصل الثالث

دخل القسيس الى القصر منذ نصف ساعة ووراء المتاريس كان الصحافيون والمسؤولون من كل نوع يجولون في تؤدة وبخطوات قصار انتظاراً لنزول طلائع الأعداء الى الميدان لمراقبة الهدنة ، وكان «شاد» ـ بأكمام قميصه ، وبقبعته المنزلقة الى الوراء ـ يسير بين موظف من الحزب الشيوعي هو « براداس » ، وصحافي روسي هو « جولوفكين » وصحافي ياباني ، وكلما تناهى الى سمعه وقع خطوات ، اختلس النظر من الفتحات التي تتخلل المتاريس . . غير أن الميدان لم يكن آهلاً إلا بمقاعد المقهى التي ترفع سيقانها في الهواء . . . وعلى حسب الريح كانت تسود رائحة الموت تارة ، ورائحة الحريق تارة أخرى .

وبرز ضابط فاشي في ركن من الميدان عند زقاق من الأزقة المحيطة بالقصر ، ولكنه لم يلبث أن انصرف ، فبدا الميدان خالياً من جديد . . . بيد أن خلوه هذا لم يكن اقفراراً كما كان كل ليلة تحت ضوء المصابيح الكاشفة . . وإنما كان في هذه المرة مهجوراً . . وكان النهار يعيده الى الحياة . . الحياة المتأهبة للرجوع ، المتربصة عند اركان الشوارع كالفاشيين ورجال الميليشيا .

وبدأت الهدنة . . . ولكن لما كا ن هذا الميدان قد ظل طويلاً المكان الذي لا يستطيع أن يعبره محارب دون أن تستقبله مدافع الأعداء الرشاشة فقد بدا وكأنه يحمل الشر في طياته .

وأخيراً عقد ثلاثة من رجال الميليشيا عزمهم على مبارحة المتاريس . ويحكى أنه بعد الاستيلاء على بعض مناطق القصر وجدت حشايا تحت الدهاليز ورزم من أوراق اللعب شبيهة بتلك التي كان يستعملها رجال الميليشيا خلف المتاريس ؛ ومع أن أجزاء كثيرة من القصر قد تم الاستيلاء عليها ـ اصبح مكاناً غامضاً لأنه ضم العدو يوماً بين جدرانه ـ وكان رجال الميليشيا يعلمون أنهم لن يدخلوه في اثناء الهدنة ، ولكنهم كانوا يريدون الاقتراب منه ؛ ومع ذلك لم يبتعدوا عن المتاريس التي كانوا يسيرون بمحاذاتها جماعات جماعات .

« هؤلاء وأولئك أكثر تأهباً للانقضاض بعضهم على البعض الآخر » هذا ما قاله « شاد » في نفسه وهو يختلس النظر من فتحة بين زكائب الرمل ، واضعاً جبينه على نسيج ساخن ، وقد انزلقت قبعته الى الوراء أكثر من أي وقت آخر ، وأردف قائلاً : « وانهم لأشبه بالقطط ! » .

وظهرت جماعة من الضباط الفاشيين في الجانب الآخر الذي اختفى منه الضابط الأول ، بيد أنهم ترددوا قليلاً حين شاهدوا الميدان الخالي ، ووقف رجال الميليشيا والفاشيون يحملق بعضهم في البعض الآخر دون حراك ، وفي هذه اللحظة اجتاز المتاريس عدد جديد من رجال الميليشيا ، وتناول«شاد» نظارته المكبرة .

وتوقع«شاد»أن يجد الحقد مرتسماً على وجوه الفاشيين التي كان يتبينها في عناء ، ولكنه لم يتبين على وجوههم غير شيء من الحرج زاد حدة الارتباك في طريقة السير ، وخاصة في حركة الذراعين التي كانت واضحة جداً عند هؤلاء الرجال الذين يرتدون ثياب الضباط الضيقة ، واقترب رجال الميلشيا .

وسأل الشخص الذي كان يختلس النظر من الفتحة المجاورة :

ـ « ما رأيك ؟ » .

- « إن رجالنا يجدون حرجاً في الكلام . . . »

ولم يكن استهلال الحديث أمراً يسيراً بين أناس حاول بعضهم أن يقتل البعض الآخر طيلة شهرين ، ولم يكن ما يفصل بين هؤلاء الرجال ، وما جعل بعضهم يترصد وراء الأعمدة ، والبعض الآخر ، وراء المتاريس - هو ذلك الميدان المحرم عليهم الدنو منه بقدر ما كانت تفصل بينهم تلك الفكرة : وهي أنهم حين يقتربون بعضهم من البعض الآخر فإنهم سيتخاطبون !

نزل فاشيون آخرون من القصر ، وغادرت المتاريس طائفة أخرى من رجال الميليشيا .

وسأل جولوفكين : « إن أربعة أخماس الحامية من رجال الحرس المدني . أليس كذلك؟ » .

فقال شاد : « بلى » .

- « أنظر الى الثياب : إنهم لم يسمحوا بالخروج إلا للضباط » . ولم يعد هذا القول صادقاً ؛ فقد وصل عدد من جنود الحرس بقبعاتهم الجلدية ذات الطرفين المدببين ، وحللهم الصفراء ، وأحذيتهم المصنوعة من المطاط الأبيض » .

قال شاد : « يبدو أن رجال الميليشيا قد أعدموا الأحذية جميعاً » .

بيد أن الحديث كان قد دار بين الطرفين في أسفل الميدان ، وإن كانت المسافة التي تفصل بينهما لا تقل عن عشرة أمتار .

وأشعل «شاد» غليونه بين زكيبتين . وسار صوب الجماعتين ، يتبعه جولوفكين وبراداس .

وكان الطرفان قد شرعا في تبادل السباب .

ولما كانت عشرة امتار تفصل بينهما كأنها مكان مقدس فقد كانت

حركاتهم غريبة كل الغرابة ؛ إذ أخذوا يلوحون بأذرعهم تأييداً لما يقولون دون أن يتقدم أحد منهم خطوة واحدة .

وكان الفاشيون يقولون في اللحظة التي وصل فيها «شاد» : . . « ذلك لأننا نحارب على الأقل في سبيل مثل أعلى أيها الأوغاد! . . . »

- « ونحن ؟ لعلنا نقاتل من أجل خزائننا يا أولاد العاهرات ! والدليل على أن مثلنا الأعلى هو الأعظم أنه المثل الذي يؤمن به العالم أجمع ! » .

- « سحقاً للمثل الأعلى الذي يؤمن به العالم أجمع ! المهم في المثل الأعلى أن يكون هو الأفضل . . . يا جهال ! » .

لقد كانوا يتراشقون بالرصاص خلال الشهرين الأخيرين ، وهم لا يزالون متمسكين بعلاقاتهم في أثناء الحرب ما داموا لا يجدون غيرها . . . ومع ذلك . . .

- « هل تسمون اطلاق الغازات السامة على الأحباش مثلا أعلى ، والقاء العمال في معسكرات الاعتقال مثلاً أعلى ، وإعطاء العامل الزراعي بيزيتا في اليوم . . مثلاً أعلى ، ومذابح بطليوس . . مثلاً أعلى . . . أنتم يا أبناء السفاحين ؟ » .

- « وهل روسيا مثل أعلى ؟ » .

- « وماذا في ذلك ؟ »

- « ألهذا السبب يبغضها رؤساؤكم ؟ ولو كنتم من ذوي الضمائر النزيهة لقلت لكم : إن كل ما هو مقزز في العالم يقف معكم . . . وكل ما هو في حاجة الى العدل يقف إلى جانبنا . . حتى النساء : أروني نسوتكم اللواتي انضممن الى الميليشيا أنت حارس ، ولست أميراً ! فلماذا لا تقف نساؤكم معكم ؟ » .

- « من الأفضل أن يغلق النساء أفواههن ، أيها القواد ! ومن المضحك

حقاً أن يتحدث مشعلو النار في الكنائس عن المثل العليا ! » .

ـ « لو أن عدد الكنائس كان أقل ما كانت هناك حاجة الى احراقها » .

ـ « كنائس كثيرة حافلة بالذهب ، وقرى كثيرة لا تجد الخبز ! »

وكان « شاد » قد وصل الى جانب رجال الميليشيا ، فأزعجه أن يشعر بالاحساس الذي يذكره بسباب السائقين الفرنسيين والحوذية الايطاليين الذي لا طائل وراءه .

وسأل أحد رجال الميليشيا مشيراً الى جولوفكين : « من ذلك الرجل الواقف هناك ؟ » وكانوا قد رأوا شاد أمس بصحبة لوبيز ، فاعتبروه زميلاً . وأجاب «شاد»:

ـ « مراسل صحيفة سوفييتية » .

وكان لجولوفكين وجنتان بارزتان ، ووجه شبيه بوجوه الفلاحين الذين يشاهدهم المرء في النقوش القوطية ، وقد لاحظ «شاد» في أثناء عبوره موسكو لاجراء تحقيق صحافي أن الروس ـ وهم قريبون جداً من أصلهم الريفي ـ يشبهون في كثير من الأحيان وجوه الأوروبيين الغربيين في العصر الوسيط ، وحينئذٍ قال في نفسه : إنني أشبه رجلاً هندياً ، وهذا الرجل يشبه الفلاح الروسي ،وهؤلاء الأسبان يشبهون الخيول . . . ! » .

وظل رجال الميليشيا الثلاثة الذين كانوا أول من خرج من المتاريس ـ واقفين بمعزل دون أن يتقدموا صوب الميدان . . .

واستمرت المقارنات بين المثل العليا .

وصاح ضابط من الفاشيين : « وهذا لا يمنع من أن القتال من أجل المثل الأعلى وأنتم رقود في منازلكم شيء ، والقتال من أجله في الخنادق شيء آخر ! أنتم الذين تعيشون كالخراف ونحن لا نجد حتى ما ندخنه » .

ـ « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » .

واجتاز أحد رجال الميليشيا الأرض الحرام وقد شمر كم قميصه عن ساعد أزرق من الوشم ، وألقت الشمس العمودية تقريباً ظل قبعته المكسيكية عند قدميه ، وكان يتقدم كأنه ينزلق على قاعدة سوداء ، واتجه صوب الفاشين ممسكاً في يده بعلبة من السجائر ، وكأنه يريد أن يبطش بهم . وكان «شاد» يعلم أن قواعد السلوك الأسبانية لا تسمح بتقديم علبة السجائر للآخرين ، فانتظر ليرى ما سيفعله الفوضوي . . وتناول هذا الأخير السجائر واحدة واحدة ، وأخذ يوزعها دون أن يفارقه الغضب ، كان يقدمها الى الفاشيين على أنها أدلة ، وكأنه يقول : « أنتم على صواب اذا لمتمونا على سجائرنا ! فاذا كنتم لا تجدونها فهذا بسبب تعقيدات الحرب أيها الأوغاد . . ولكننا لا نعترض على السجائر ، يا جماعة من البقر ! » . واستمر في توزيعه متخذاً من النوافذ شهوداً عليه ، وحين خلت علبته من السجائر واصل رجال الميليشيا الذين كانوا قد انضموا اليه توزيع سجائرهم .

وسأل براداس : « كيف تفسر هذا التوزيع الأحمق ؟ » .

وكان يشبه مازاران ، ولكن بعد أن جعل له لحية مدببة ليشبه لينين .

ـ « في جلسة من أعنف جلسات البرلمان البلجيكي رأيت كيف اتحدت الأحزاب جميعاً اتحاداً أخوياً لرفض ضريبة على حمام الزاجل ؛ فقد كان ٨٠٪ من الأعضاء عشاقاً للحمام . . وهنا نوع من الرابطة التي تجمع بين المدخنين كتلك التي تجمع بين أفراد طائفة البنائين الأحرار » .

ـ « هذه أعمق من تلك . . . أنظر ! » .

وهنا صاح أحد الفاشيين : « هذا لا يمنع من أنكم قد حلقتم لحاكم ! » والغريب في الأمر أن رجال الميليشيا لم يكونوا قد أزالوا لحاهم ، بيد أن واحداً منهم ـ كان فوضوياً أيضاً ـ شرع يعدو صوب شارع التجارة . وتعقبه الصحافيان بنظريهما ، وكان قد توقف للحديث مع أحد رجال الميليشيا الذين

ظلوا بالقرب من المتاريس ، وأطلق هذا الأخير مسدسه في اتجاه الفاشيين ، وأخذ يحركه وكأنه يتحدث في غضب ، ولم يلبث الفوضوي أن عاد على أعقابه راكضاً .

وسأل شاد جولوفكين : « هل كان الأمر على هذا النحو عندكم ؟ » .

- « سنتحدث عن ذلك فيما بعد . . . هذا أمر لا تفسير له . . . . »

وعاد رجل الميليشيا وهو يمسك بيده علبة من أمواس جيليت فتحها في أثناء ركضه ، وكان هناك على الأقل اثنا عشر ضابطاً فاشياً . وتوقف عن الجري ، وكان من الواضح أنه لا يعرف كيف يوزع الأمواس . وأتى بحركة لكي يقذف بها ، كما يقذف المرء بقطع من الحلوى الى الأطفال ، ولكنه تردد قليلاً ثم أعطى العلبة أقرب الفاشيين اليه في حركة يشوبها العداء . وهرول الضباط الآخرون نحو ذلك الذي تلقاها ، ولكن واحداً منهم أصدر أمراً ، حين تعالت ضحكات رجل الميليشيا . وفي اللحظة التي ابتعدوا فيها وصل فاشي آخر من القصر ، ومن الناحية الأخرى من الميدان جاء رجل الميليشيا الذي أطلق مسدسه في أثناء عبور موزع الأمواس ، وأنضم الى الجماعة :

قال وهو ينظر الى الفاشيين واحداً بعد الآخر : «هذا كله تمر ، فيللا » .

وظل صوته معلقاً فانتظر الجميع أن يواصل كلامه :

- « . . والرهائن ؟ إن أختي هناك . . . أختي أنا ! »

وفي هذه المرة كان صوته مشوباً بالبغض ، ولم تعد المسألة مسألة مقارنة بين المثل العليا .

وأجاب أحد الفاشيين : « ليس من حق ضابط اسباني أن يتدخل في قرارات رؤسائه » .

وكاد رجال الميليشيا لا يسمعون قوله إذ تحدث في الوقت نفسه آخر من وصل من الفاشيين فقال :

ـ « أريد أن أرى القائد . . . إنني موفد من الكولونيل موسكاردو » .

فقال أحد رجال الميليشيا : « اتبعني » .

وتبعه الضابط ، وتبعه أيضاً شاد وبراداس ، وقد تضاءلا الى جانب جولوفكين العملاق ، ووسط الحشد الذي يتكاثف شيئاً فشيئاً ، فاتخذت مسيرته هيئة أناس يتنزهون يوم الأحد لولا أن نظرات أولئك الصاعدين جميعاً كانت مسددة على القصر في اصرار .

وخرج أرناند يث من الحانوت يتبعه النجاشي ومرسير واثنان من الملازمين ، وذلك في اللحظة التي هم فيها الضابط الفاشي بالدخول ، وأدى هذا التحية ، ثم قدم مجموعة من الرسائل :

ـ « انها من الكولونيل موسكاردو . . . لزوجته » .

وأحس «شاد» فجأة بأن كل ما رآه في طليطلة منذ أول أمس ومنذ أيام في مدريد ـ قد التقى في هذين الرجلين اللذين أخذا يتبادلان النظرات في بغض نافذ وسط رائحة الحريق المنبثقة من القصر ، تلك الرائحة التي نشرت الريح دخانها على المدينة كأسمال من راية ممزقة ، وكانت السجائر الموزعة والأمواس هي التي أدت الى تلك الرسائل ، وكذلك أدت اليها الرهائن والمتاريس المضحكة والهجمات والانسحابات . وعندما تبددت رائحة الحريق لحظة أضحت رائحة الخيول الميتة كأنها رائحة الأرض نفسها ، وهز ارنانديث ـ كعادته كتفه اليمنى ، وناول ضابطاً برتبة ملازم الرسائل مشيراً بحركة من ذقنه الطويلة ، الى الاتجاه الذي عليه أن يتخذه .

قال النجاشي بلهجة يمازجها الود : « يا للندم الكئيب ! » . . وهز ارناند يث كتفيه الاثنتين هذه المرة بالفتور نفسه ، وأشار الى الملازم بالانصراف .

وسأل براداس وهو يصحح وضع نظارته : « هل في طليطلة زوجة

موسكاردو ؟ » .

فأجاب ارناندیث : « في مدريد » .

وسأل « شاد» في دهشة بالغة : « طليق ؟ » .

ـ « في إحدى العيادات » .

وهز النجاشي كتفيه بدوره ، ولكن في غضب .

وعاد ارنانديث صاعداً الى الحانوت الذي تحول الى مكتب للادارة ، وهناك كانت تنبعث في الشارع الساكن منذ قيام الهدنة جلبة من آلات الكتابة وصلت حتى «شاد»، وعبر الأزقة المتعامدة بدأت الكلاب تجازف بالخروج وقد أدهشها بلا شك توقف اطلاق النار ، واستولت ضجة الخطوات والأصوات من جديد على المدينة ، كما استولى عليها السلام بعد أن أضحت شيئاً مسموعاً منذ أن توقف القتال ، ولحق براداس بالكابتن، وخطا الى جانبه بضع خطوات ممسكاً لحيته بيده .

ـ « ما معنى ارسال هذه الرسالة ؟ هل هو نوع من المجاملة ؟ » .

وسار الى جانب الضابط مقطب الحاجبين حائر النفس اكثر منه ساخراً على حين طفق الضابط ينظر الى أرض الشارع حيث كانت ظلال القبعات المكسيكية تلقي دوائر ضخمة .

وأجاب أرنانديث أخيراً ، مديراً ظهره : « على سبيل الكرم » .

* * *

وسأل براداس أن يعود حاجباه الى وضعهما الطبيعي : « أتعرف هذا الكابتن معرفة جيدة ؟ » .

فأجاب شاد : « هل تعني أرنانديث ؟ كلا » .

ـ « ماذا يدفعه الى أن يفعل ذلك ؟ » .

ـ « وماذا يدفعه إلى ألا يفعل ؟ » .

قال جولوفكين : « هذا ! » وأشار الى سيارة ـ يقال أنها مصفحة ـ كانت تمر ، وعلى سقفها جثة رجل من رجال الميليشيا يمكن أن يتكهن المرء من الطريقة التي ربطت بها أن صاحبها صديق لأولئك الذين يصحبونه في السيارة ، وشد الصحافي طرفي رباط عنقه وهذا يعبر ـ عنده ـ على الشك . وسأل جولوفكين : « هل يحدث ذلك كثيراً ؟ » .

ـ « أجل ، على ما أظن . . . ولقد أمر قائد الميدان بحمل رسائل من هذا القبيل » .

ـ « هل هو ضابط من النظاميين ؟ » .

ـ « أجل . . وأرنانديث أيضاً » .

وسأل براداس : « وما نوع تلك المرأة ؟ » .

ـ « لا داعي للسؤال ، يا رفيق السوء . لا أعرفها ، ولكنها ليست شابة » .

فقال جولوفكين : « إذن ماذا في الأمر ؟ هل هي نزعة اسبانيولية ؟ » .

ـ « أيرضيك هذا النوع من الكلمات ؟ انه يتناول غداءه في سانتا ـ كروز فاذهب الى هناك ، ولن تجد مشقة في أن يدعوك أحد : فهناك شيوعيون » .

وبين رجال الميليشيا من كل صنف ـ كان يجول « رعب بانشوفيلا » . وفطن شاد الى أن طليطلة مدينة صغيرة سواء في الحرب أو في السلم ، والى أنه سوف يلتقي فيها يوماً بعد يوم بنفس الأشخاص ذوي الشخصيات الأصيلة ، كما التقى فيها في الماضي بنفس الأدلاء والمتقاعدين .

قال : « في الجانب الفاشي لا يشن هجوم فيما بين الثانية والرابعة

بسبب اغفاءة القيلولة . . . فلا تسارع الى اتخاذ رأي عما يدور هنا » .

وكانت زكائب الرمل والحشايا المخططة التي تتألف منها المتاريس والتي تبدو متماسكة اذا نظر اليها المرء من جانب المدينة ـ تبدو مملوءة بالثقوب كأنها خشب أفسدته الديدان اذا نظر اليها المرء من جانب القصر ، وكان الدخان يغطي الظلال جميعاً ، وواصلت الحرائق حياتها اللامبالية ، ففي ذلك الهدوء العجيب الذي نشأ عن توقف القتال اشتعلت النار في منزل آخر بالقرب من « القصر » .

الفصل الرابع :

منضدتان تؤلفان زاوية قائمة ، وتحتلان ركناً من قاعة متحف سانتا ـ كروز . . وبضعة أشخاص استخفهم المرح يتحركون بين الظلال ، وتعلقت نقاط من الضوء تتسرب من الفجوات التي تتخلل قوالب الطوب بالبنادق المتقاطعة على الظهور ، وتألقت حبات العرق على الوجوه وسط تلك الرائحة الأسبانية المتميزة التي تنبعث من زيت الزيتون الخام ، ومن أكوام الفاكهة وأوراق الشجر . . وكان رعب « بانشو فيلا » يجلس على الأرض ، منهمكاً في اصلاح البنادق .

وكانت هيئة ارناننديث أبسط ما تكون : فقامته المحدودبة لم تكن تسمح له باتخاذ اوضاع عسكرية ، على حين كان حراسه الجالسون على المائدة الأخرى يشعرون شعوراً قوياً بوضعهم كحراس ، ولم يكن أحد من الجرحى قد اعتنى بتغيير ضماداته ، وعلق براداس على ذلك بصوت خفيض قائلاً : « إنهم سعداء بدمائهم ! » وكان جولوفكين وبراداس قد جلسا في مواجهة ارناننديث الذي جعل يتحدث في تلك اللحظة الى ضابط آخر ، وكانت هناك بقعة من الضوء على جبين الكابتن ، وبقعة أخرى على ذقنه ، حتى ليظنه المرء رفيقاً من رفاق كورتيز ، فلم يبد عليه أنه من أمة أخرى غير أمة الصحافي الروسي ، بل بدا كأنه من عصر آخر ، وكانت بقع الضوء متناثرة على رجال الميليشيا جميعاً .

قال مانويل : « الرفيق براداس من اللجنة الفنية للحزب » . ورفع

ارنانديث رأسه مجيباً : « أعرف ذلك » .

واستطرد مانويل مواصلاً حديثه السابق : « وأخيراً . . أخبرنا بالضبط : لماذا طلبت تلك الرسالة ؟ » .

ـ « لماذا قام رجال الميليشيا بتوزيع السجائر ؟ » .

وزمجر براداس قائلاً : « هذا ما تهمني معرفته » ، وبدت عليه الحيرة وهو يضع يده خلف أذنه ، وقد تعلقت بلحيته بقعة من الضوء .

أكان يجد عناء في الاستماع ، ولهذا استعان بيده ؟ ولكنه لم يضعها وضعاً ثابتاً في مقابل أذنه ، بل أخذ يمسح بها خلفها كما تفعل القطة التي تقوم بتنظيف نفسها ، وأجاب ارنانديث على مانويل بحركة من أصابعه الطويلة تدل على عدم المبالاة ـ وكانت ضوضاء أجهزة الراديو الضائعة في أعماق أشعة الشمس المتوهجة تتسرب من خلال فجوات الرصاص ، وتتدحرج حول « بانشو فيلا » الذي نام الآن وسط البنادق ، وتحت قبعته العجيبة .

ـ « الرفيق السوفييتي يقول (كان براداس يترجم واضعاً يده على رأسه) : لو أن زوجة موسكاردو كانت في بلادنا لألقي القبض عليها في الحال . . . وأريد أن أفهم لماذا ترى أنت رأياً آخر ؟ » .

وكان جولوفكين يعرف الفرنسية ، ويفهم من الأسبانية نزراً يسيراً . وسأله النجاشي : « هل ذقت طعم السجن ؟ » .

فلم يجب ارنانديث .

ـ « كنت صغيراً جداً في عهد القيصرية » .

ـ « هل اشتركت في الحرب الأهلية ؟ » .

ـ « بوصفي فنياً . » .

ـ « ألديك أطفال ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « أما أنا . . فكان عندي » .

ولم يستمر « شاد » في الموضوع .

وقال مرسيري في وقار : « السخاء من علامات الشرف في الثورات الكبرى » .

واردف براداس : « بيد أن أبناءنا في القصر » .

وحمل أحد رجال الميليشيا قطعة ضخمة من الجامبون (لحم الخنزير) محلاة بالطماطم ومطهية بزيت الزيتون ، غير أن منظرها أفزع « شاد » ، وكذلك أحجم النجاشي عن الاشتراك في أكلها .

وسأل شاد ـ وكان يهتم بكل ما يمس شؤون المطبخ : « أتنفر من هذا اللون ، وأنت الرجل الأسباني ؟ » .

ـ « أنا لا آكل اللحم أبداً ، فأنا نباتي » .

وتناول شاد شوكته ، وكان عليها شعار الأسقفية ، وانهمك الجميع في الأكل ، وفي واجهات المتحف الحديثة صفت المعروضات المصنوعة من الزجاج والصلب والألومنيوم في نظام اللهم إلا بعض الأشياء الصغيرة التي حطمها الرصاص ، وأمام كل منها كان هناك ثقب واضح في الزجاج تحيط به شروخ كالأشعة .

قال النجاشي مخاطباً براداس : « أصغ إليَّ جيداً : عندما يخرج الرجال من السجن فإن تسعة من عشرة منهم ـ لا تستقر نظراتهم ؛ فهم لا ينظرون كما ينظر الناس . وفي البروليتاريا أيضاً ثمة نظرات كثيرة لم تعد تعرف الاستقرار ؛ ولهذا ينبغي لكي نبدأ أن نغير هذا كله ، أتفهمني ؟ » .

وكان يوجه كلامه لجولوفكين كما يوجه لبراداس ، غير أنه لم يكن يود

قيام براداس بالترجمة .

قال « شاد » هامساً في شيء من الإرتياح : « يبدو لي جلياً أن هذا الرجل يملك عقلاً كبيراً » .

وأقترب منه أحد رجال الميليشيا ممسكاً بقبعة كقبعة الكاردينال :

ـ « لقد عثرنا على هذا الشيء . . . ولما لم يكن نافعاً للجماعة فقد قررنا أن نعطيك إياه » .

قال شاد في رزانة : « شكراً . . فأنا بوجه عام تحبني الأطهار والكلاب ذات الشعر الطويل والأطفال . . . ولكنني واأسفاه لا تحبني القطط ! شكراً » .

ووضع القبعة على رأسه ، وربت على شرابات القبعة ، ثم استمر في تناول طعامه من لحم الخنزير .

ـ « هناك شرابات شبيهة بهذه عند جدتي في « أيوا ـ سيتي » في أسفل المقاعد . . . شكراً » .

وأشار النجاشي بسبابته القصيرة إلى لوحة لصلب المسيح مرسومة بأسلوب « بونيه » : لون باهت على خلفية سوداء داكنة ، ويبدو أنها ظلت معرضة لرصاص الأعداء طيلة الأيام الأخيرة ؛ فقد كادت الثقوب التي تجمعت بفعل الرصاص تنتزع الذراع اليمنى ؛ أما الذراع اليسرى التي كانت تحميها صخور الجدران فكانت محفورة في مواضع متناثرة هنا أو هناك ، ومن الكتف حتى أعلى الفخذ رسم وابل من رصاص المدافع الرشاشة خطاً منتظماً واضحاً كأنه ثقوب أحدثتها آلة للحياكة .

ـ « وحتى لو هزمنا هنا ، وفي مدريد ـ فقد عاش الرجال يوماً بقلوبهم ، أتفهمني ؟ على الرغم من البغض . انهم أحرار ، وهذا شيء لم يشعروا به قط . وأنا لا أعني الحرية السياسية وإنما أعني شيئاً آخر . . أتفهمني ؟ »

فأجاب مرسيري : « تماماً . . أو كما تقول مدام مرسيري : القلب هو الشيء الجوهري » .

وقال شاد هادئاً تحت قبعته الحمراء : « أما في مدريد فالأمر أخطر من ذلك . . . ولكنني أوافقكم . . الثورة هي اجازة الحياة . . وعنوان مقالتي اليوم هو : « إجازة » .

ومسح براداس رأسه براحته حتى بلغ منتصفه الذي يشبه الكمثرى ، وهو في غاية من الإنتباه . ولم يكن قد سمع نهاية جملة شاد التي ضاعت في ضوضاء المقاعد ؛ اذ كانوا يفسحون مكاناً لجارسيا الذي وصل لتوه واضعاً غليونه في ركن فمه .

واستطرد النجاشي قائلاً : « ليس من اليسير أن يعيش الناس معاً ، ولكن لا وجود لقدر كبير من الشجاعة في العالم ، بالشجاعة يمكن أن نصنع شيئاً ! ولا داعي للجدال ؛ فإن الرجال الذين عقدوا عزمهم على الموت يبرزون من بين الناس ، ولكن لا داعي « للديالكتيك » ، ولا داعي للبيروقراطيين مكان المندوبين ، ولا داعي لجيش للقضاء على جيش آخر ، ولا داعي للظلم للقضاء على الظلم ، ولا داعي للتواطؤ مع البورجوازيين ، بل علينا أن نحيا الحياة كما ينبغي أن نحياها . . . منذ هذه اللحظة ، أو فلنذهب الى الجحيم . . فاذا فشلنا فيها ونعمت فلسنا نملك تذاكر للذهاب والاياب ! » .

واشتعلت عينا جارسيا اليقظتان الشبيهتان بعيني السنجاب ، وقال في مودة : « يا عزيزي النجاشي ، حين يريد المرء أن تكون الثورة في ذاتها طريقة للحياة فإنها تصبح وسيلة للموت في أغلب الأحيان ، وفي هذه الحالة يرضى الانسان ـ يا صديقي العزيز ـ بالاستشهاد كما يرضى بالانتصار » .

ورفع النجاشي يده اليسرى على طريقة المسيح حين كان يلقي تعاليمه :

ـ « الذي يخاف الموت لا يهدأ له ضمير » .

وقال مانويل رافعاً شوكته في الهواء : « وفي اثناء ذلك ، يوجد الفاشيون في طلبيرة . . ولو استمرت الحال على هذا المنوال فستفقدون طليطلة » .

وقال براداس في لهجة الأستاذ : « ومجمل القول انكم مسيحيون . . . وفي أثناء . . . » .

وحدث جارسيا نفسه : « هذه فرصة جميلة للصمت قد ضاعت » . قال النجاشي حانقاً : « فليسقط القساوسة . . ولكن ثمة شيئاً حسناً في الثيوصوفية » .

فقال شاد وهو يلعب بالكرات الصغيرة المتدلية من قبعته :

ـ « كلا . . . ولكن استمر » .

ـ « لسنا قساوسة على الاطلاق ! أما أنتم فقد أصبحتم قساوسة . . أنا لا أقول ان الشيوعية قد أصبحت ديناً ، ولكني أقول ان الشيوعيين بسبيلهم الى أن يصبحوا قساوسة ، وأن يكون الناس ثوريين معناه في نظركم ـ أن يصيروا خبثاء . لم يكن الأمر على هذا النحو بالنسبة لباكونين أو كروبوتكين ، لم يكن على هذا النحو اطلاقاً . لقد التهمكم الحزب ، والتهمكم النظام ، والتهمكم التآمر ، ومن لم يكن منكم فإنه لا أمانة عنده ولا واجبات ولا أي شيء . . لم يعد من المخلصين . أما نحن فقد قمنا منذ عام ١٩٣٤ بسبعة اضرابات لا لغرض سوى التضامن . . . ودون أي هدف مادي ! ».

وكان الغضب يدفع النجاشي الى الكلام بسرعة ، وهو يلوح بذراعيه ، ويعبث بيديه المنفعلتين حول شعره الثائر ، وفقد جولوفكين القدرة على الفهم ، غير أن بعض الكلمات التي يدركها هنا أو هناك أثارت قلقه ، وخاطبه جارسيا ببضع كلمات بالروسية .

قال براداس : « من الأفضل ـ في الواقع ـ أن يكون الناس غير أوفياء من أن يكونوا عاجزين » .

وسحب النجاشي مسدسه ، ثم وضعه على المنضدة .

وعلى هذا النحو نفسه وضع جارسيا غليونه .

وكانت الأطباق والقناني ذات الأعناق الرفيعة تعكس آلاف النقط من الضوء المتسرب من الفجوات التي تتخلل قوالب الطوب ، فتحيلها الى ديدان متألقة تتلوى . وكانت ثمار الفاكهة تلمع على الأغصان ، وكذلك تلمع مواسير المسدسات القصيرة الزرقاء .

قال مانويل : « الجبهة في حاجة الى جميع الأسلحة » .

وقال براداس : « عندما كان من الواجب أن نكون جنوداً . . . كنا جنوداً . ثم اقتضى الأمر أن نكون منظمين فأصبحنا منظمين ، وكان لا بد أن نكون اداريين ومهندسين . الخ ، فأصبحنا هذا كله . . . واذا كان من الضروري في نهاية الأمر أن نكون قساوسة فسنكون قساوسة . . . ولكننا انشأنا دولة ثورية ، أما هنا فنحن ننشىء جيشاً . . هذا هو الواقع . . . بكل فضائلنا ورذائلنا . . والجيش هو الذي سينقذ الجمهورية والعمال (البروليتاريا) » .

وهنا قال شاد بلهجة عذبة وهو يمسك بكلتا يديه الكرات المتدلية من قبعته :

ـ « أما أنا . . . فلا أعبأ بشيء . إن ما تفعلونه جميعاً ـ أبسط وأفضل مما تقولونه ، وإنكم لتملكون جميعاً عقولاً كبيرة . . والواقع يا جولوفكين أن كل فرد في وطنك بدأ يعتقد أن له عقلاً كبيراً . . وهذا ما يمنعني من أن أكون شيوعياً . وربما وجدت أن النجاشي خبيث الى حد ما . . ولكنه يعجبني » .

وتراخى التوتر الذي ساد الجو .

ونظر ارنانديث الى ساعته مرة أخرى ، ثم ابتسم ، وكانت أسنانه طويلة ، مثل يديه ووجهه .

واستأنف براداس حديثه واضعاً لحيته في يده : « إن ما يحدث في كل ثورة شيء واحد لا يختلف أمره : ففي عام ۱۹۱۹ طلب شتاينبرج الاشتراكي الثوري وقوميسير وزارة العدل اغلاق قلعة بطرس وبولس اغلاقاً نهائياً ، واستطاع لينين أن يحصل من الأغلبية على موافقة بوضع المعتقلين البيض في تلك القلعة ، وكان لدينا في المؤخرة من هذا الطراز ما يكفي من الأعداء . وقصارى القول ان النبل ترف لا يستطيع المجتمع أن يدفع ثمنه إلا فيما بعد ! » .

قال مرسيري بلهجة قاطعة : « وكلما دفعته مبكراً كان ذلك أفضل » .

واستطرد النجاشي قائلاً : « غداً سيحلق الناس أذقانهم مجاناً . . . ولا داعي للحكايات . . لقد خلقت الأحزاب من أجل الناس ، ولم يخلق الناس من أجل الأحزاب . . اننا لا نريد أن نصنع دولة أو كنيسة أو جيشاً . . . بل نريد أن نصنع رجالاً » .

قال أرنانديث وقد عقد أصابعه الطويلة أمام ذقنه : « فليبدأوا بأن يسلكوا سلوكاً نبيلاً حين تتاح لهم الفرصة . . وهناك فعلاً عدد كافٍ من الأوغاد والسفاحين الذين يعلنون أنهم معنا . . . » .

قال مرسيري واضعاً يده على المنضدة ، وقلبه على راحته : « اسمحوا لي أيها الرفاق . . علينا أن نختار أحد أمرين : إذا انتصرنا فإن التاريخ سيدين أعداءنا بما صنعوه مع الرهائن ، وسيمجدنا لأننا منحنا مدام موسكاردو الحرية . وأياً كان الأمر فإنك تضرب - أي ارنانديث - مثلاً يتسم بالنبل والعظمة ، باسم حركة « السلام والعدالة » التي كان لي شرف الانتماء اليها . . . أرفع لك . . أخيراً . . . قبعتي ! » .

وكانت شخصية مرسيري تثير حيرة جارسيا منذ أن التقيا للمرة الأولى يوم معركة قاذفات اللهب ، وكان جارسيا يسائل نفسه : ألا تنفصل الملهاة عن المثالية ؟ وكان يشعر في الوقت نفسه بأن شخصية مرسيري تنطوي على

شيء أصيل ، يدخل في تكوينه عداؤه للفاشية .

واستطرد النجاشي قائلاً : « ولا تتظاهروا بأنكم تنظرون الى الفوضويين بوصفهم عصبة من المجانين ؛ فلقد قامت الحركة النقابية خلال الأعوام الأخيرة بعمل جاد . . . دون أن تتلوث بأحد ، ولسنا سبعين ألفاً مثلكم ، ولكن اذا كانت قيمة الفكرة تقاس بعدد انصارها فإن عدد النباتيين في العالم أكبر من عدد الشيوعيين بما في ذلك من الروس جميعاً . الاضراب العام موجود : نعم أو لا ؟ لقد هاجمتموه سنوات طويلة ، أعيدوا قراءة انجلز ، فإن هذا يفيدكم . . . الاضراب العام : هذا ما يدعو اليه باكونين . لقد شاهدت مسرحية شيوعية وفيها . . شخصيات فوضوية ، فماذا كانوا يشبهون ؟ كانوا يشبهون الشيوعيين كما يراهم البورجوازيون » .

وكان يبدو أن تماثيل القديسين تشجعه ـ في الظلال ـ بحركاتها المنتشية .

قال مانويل : « فلنرتب قليلاً في الأحكام العامة . . فلعل النجاشي قد مر بتجارب تعسة ـ في نهاية الأمر : والواقع أن الشيوعيين جميعاً ليسوا كاملين . . . بغض النظر عن رفيقنا الروسي الذي نسيت اسمه . . معذرة ، براداس ، واعتقد انني عضو الحزب الوحيد الذي يجلس الى هذه المائدة . . . هل تعتقد يا ارنانديث أنني قسيس ؟ وأنت . . يا نجاشي ؟ » .

ـ « كلا : فأنت رجل شهم . كما أنك تحارب ، وأن معك لكثيراً من الشجعان ولكنهم لا يزيدون شيئاً على ذلك » .

ـ « ثمة شيء آخر . . هو انكم تتحدثون وكأنكم قد احتكرتم الأمانة وتعاملون كل من يخالفكم في الرأي على أنه بيروقراطي ، ومع ذلك تعلمون جيداً أن « ديمتروف » ليس بيروقراطياً ! هناك أخيراً ديمتروف ضد دوروتي . . مذهب الأخلاق ضد مذهب آخر ، لا مجرد عصابة ضد مذهب أخلاقي ! نحن زملاء . . . فلنكن مخلصين إذن » .

فقال براداس للنجاشي : « وهذا الدوروقي الذي تتحدث عنه أليس هو القائل : أننا ننزل عن كل شيء . . . إلا الانتصار » .

فزمجر النجاشي من بين أسنانه البارزة : « بلى . . . ولكن ، لو أن هذا الدوروقي قد عرفك لركلك بحذائه على كفلك! »

واستأنف براداس حديثه قائلاً : « ولكنك سوف تكتشف سريعاً لسوء الحظ أن مذهبك الأخلاقي لا يفيد السياسة في شيء . . . وعلى هذا النحو . . . » .

فقال صوت آخر: « . . . أو أي مذهب أخلاقي آخر » . . .

وقال جارسيا : « إن المشكلة العويصة . . أو ربما كانت مأساة الثورة - هي أنها لا تستطيع أن تقوم دون مذهب أخلاقي » .

ورفع أرنانديث رأسه .

وتألقت نقطة من الضوء على مدية مانويل الذي كان يمضغ أشعة الشمس .

قال النجاشي : « هناك شيء حسن عند الرأسماليين . . . شيء هام ، وإن كنت في دهشة من أنهم استطاعوا أن يكتشفوه . ولا بد أن نصنع شيئاً مثله لكل نقابة بعد أن تنتهي الحرب . . الشيء الوحيد الذي احترمه عندهم . . هو « الجندي » المجهول . . بيد اننا نستطيع أن نصنع ما هو أفضل من ذلك . . ففي جبهة أرغون رأيت كثيراً من القبور بلا أسماء . . . وإنما نقش على الحجر أو حفرت على الخشب الحروف الأولى من الأسماء ف . أ . ي أوس . ن . ت . . وهذا قد كان شيئاً حسناً . وفي برشلونة حين كانت الطوابير تتجه الى الجبهة مارة بمقبرة أسكاسو - كان الصمت يخيم على الجميع . . هذا شيء حسن أفضل من الكلام المنمق » .

وجاء أحد رجال الميليشيا باحثاً عن أرنانديث .

وغمغم براداس في لحيته : « مسيحيون . . . »

وسأل مانويل ، كان قد نهض فعلاً : «هل خرج القسيس ؟ » .

- « ليس بعد ، والقائد هو الذي يستدعيني » .

وخرج أرنانديث يصحبه مرسيري ، والنجاشي الذي تناول قبعته ، ولم تكن القبعة المكسيكية التي كان يضعها أمس على رأسه ، وإنما كانت القبعة الحمراء والسوداء التي يضعها أعضاء الإتحاد الفوضوي ، وسادت لحظة صمت لا تقطعها سوى الجلبة المبعثرة التي تميز نهاية الوجبات العسكرية .

وسأل جولوفكين جارسيا . « لماذا حمل الرسالة ؟ » .

وكان يشعر أن جارسيا هو الوحيد الذي يحترمه الجميع ، حتى النجاشي ، بالأضافة إلى أنه يتحدث بالروسية .

- « فلنبدأ بالترتيب :

- أولاً : لأنه يرفض ، وكان ضابطاً وفقاً لقرار أبوي ، وجمهورياً منذ سنوات لاعتناقه المذهب الليبرالي ، وهو على درجة لا بأس بها من الثقافة .

النقطة الثانية : تذكروا أنه من الضباط النظاميين (وليس هو الوحيد هنا) وأياً كان رأيه في أعدائه من الناحية السياسية فان لهذا الرأي دوره الذي يقوم به .

والنقطة الثالثة : نحن في طليطلة وأنتم تعلمون أن هناك ميلاً الى الميلودراما في بداية كل ثورة ، وليست أسبانيا في هذه اللحظة سوى مستعمرة مكسيكية . . . » .

- « وماذا عن الجانب الآخر ؟ » .

- « إن الخط التليفوني الموصل بين القيادة العامة والقصر لم يقطع ، وإن الطرفين يستخدمانه منذ بدأ الحصار ، وقد أصبح من المفهوم بعد المحادثات

الأخيرة أن يكون المتحدث باسمنا هو القومندان روجو . . وقد نشأ روجو هنا . . . وأمام أحد الأبواب رفعوا العصابة التي وضعت على عينيه ، فإذا به أمام مكتب موسكاردو . هل رأيتم من الخارج الجدار القائم على اليسار ؟ لقد أصبح مجرد فجوة ، وأصبح المكتب مكشوفاً دون سقف ، وكان موسكاردو في كامل بزته الرسمية جالساً في مقعد وثير ، وروجو على المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه . ومن ناحية أخرى كانت هناك على الحائط المتماسك وفوق رأس موسكاردو تماماً صورة « أزانا » Azana التي نسوا أن يرفعوها » .

وسأل جولوفكين في صوت أكثر إنخفاضاً : « وماذا عن الشجاعة ؟ » .

- « من الأفضل أن تسأل شخصاً أُتيحت له فرصة ملاحظة ذلك على نحو أقرب مني ، وربما كانت قوات حرس الهجوم هي أفضل قواتنا في هذه اللحظة . مانويل ؟ » .

وترجم سؤال جولوفكين الى الأسبانية . . .

وأمسك مانويل شفته السفلى بين أصابعه :

- « لا تستطيع أية شجاعة جماعية أن تقاوم الطائرات والمدافع الرشاشة . ومجمل القول أن رجال الميليشيا حتى يكونوا منظمين تنظيماً حسناً ومسلين لا تنقصهم الشجاعة ، وإلا فإنهم يلوذون بالفرار ، ولو أن لدينا عدداً كافياً من رجال الميليشيا ومن الطوابير لأمكن انشاء جيش ، وما الشجاعة سوى مشكلة تتعلق بالتنظيم . . . ويبقى أن نعرف من أولئك الذين يريدون التنظيم . . . ؟ » وهنا سأل براداس جارسيا :

- « أتظن أن هذا الكابتن يمكن أن يحتفظ بشيء من التعاطف مع الطلبة بوصفه ضابطاً نظامياً ؟ » .

- « لقد تحدثنا عن ذلك معاً ، وهو يقول : إنه ليس في القصر خمسون

طالباً ، وهذا حق ، وإنما يدافع عن القصر رجال الحرس المدني والضباط . . والأبطال الشبان المنحدرون من جنس أعلى ، والذين يدافعون عن مثلهم ضد شعب ثائر هم رجال البوليس الأسباني . . هذا كل ما في الأمر . . . »
وسأل مانويل :

- « وباختصار ، كيف يمكن أن تفسر - أي جارسيا - ما حدث في الميدان ؟ »

- « إنني أعتقد أن الشخص الذي قدم السجائر والمهرج الذي حمل شفرات الحلاقة ، وأولئك الذين تبعوه وأرنانديث حين أخذ الرسائل - أعتقد أن هؤلاء جميعاً قد خضعوا دون ادراك لنفس الشعور ، وهو أن يثبتوا لأولئك الذين يطلون عليهم من علٍ أن ليس من حقهم أن يحتقروهم ، وقد يبدو ما أقوله مزاحاً ، ولكنه على اكبر جانب من الجدية . ان ما يفصل بين اليمين أو اليسار الأسبانيين هو الاحساس أو الفزع من المذلة ، والجبهة الشعبية هي مجموع أولئك الذين يشعرون بالفزع وإن تكن لها صفات أخرى : خذوا مثلاً حالة شخصين من البورجوازيين الفقراء في قرية من القرى قبل الثورة ، أحدهما معنا والآخر ضدنا ، الأول يريد الأخوة والمودة والآخر يريد التعالي . الحاجة الى الإخاء في مقابل الإحساس بالطبقية ثمة تضاد خطير بينهما في هذه البلاد . . . وربما في بلاد أخرى . . . » .

وكان مانويل يرتاب - في هذا المجال - فيما ينتمي الى علم النفس ، ولكنه تذكر ما كان يقوله الأب باركا : « ليست المساواة - يا بني - هي ما يضاد المذلة . . . وإنما الإخاء» .

وأجاب براداس : « حين أعلم من الواقع الملموس أن الجمهورية قد رفعت المرتبات الى ثلاث أمثالها ، وأن الفلاحين من ثم استطاعوا أخيراً شراء قمصان ، وحين أعلم أن الحكومة الفاشية قد عادت إلى المرتبات القديمة ، وأن آلاف محال القمصان التي فتحت نتيجة لذلك قد أغلقت - حينئذٍ أدرك

ارتباط البورجوازية الصغيرة بالبروليتاريا . . . إن المذلة لا تستطيع تسليح مائتين من الرجال ».

وبدأ جارسيا يردد عبارات الحزب النمطية : مثل كلمة : « الواقع الملموس » التي تعد من الكلمات المحببة لدى الشيوعيين ، وكان يعرف فضلاً عن ذلك ارتياب براداس ، بل حتى مانويل في علم النفس ، بيد أنه اذا كان يعتقد أن وجهات النظر في الصراع ضد الفاشية ينبغي أن تنتظم حول الاقتصاد فقد كان يعتقد أيضاً أنه لا وجود لأي خلاف من الناحية الاقتصادية بين الفوضويين (أو بين أصدقائهم) وبين الجماهير الاشتراكية أو الجماعات الشيوعية .

ـ « أوافق على هذا الرأي يا صديقي العزيز ، ومع ذلك فإن أفضل جنودنا أو أكثرهم عدداً لا يأتون من أقاليم الأستريماورا هناك حيث يأكلون ثمار البلوط ، ولكن أرجوك ألا تجعلني أضع نظرية عن الثورة يكون المحرك الأول فيها هو الإذلال ! كل ما في الأمر هو أنني أحاول أن أفهم ما حدث هذا الصباح ، ولا شأن لي بالموقف العام في اسبانيا ، والواقع أن أرنانديث ليس تاجر قمصان ـ على حد قولك ـ ولو على سبيل الرمز . . .

والكابتن رجل أمين جداً يعتقد أن الثورة وسيلة لتحقيق أمانيه الأخلاقية . وهو يرى أن الدراما التي نعيشها عبارة عن « رؤ يا » شخصية . وأخطر ما في أنصاف المسيحين هؤلاء هو ولعهم بالتضحية ، وهم على استعداد لاقتراف أشنع الأخطاء بشرط أن يدفعوا ثمنها من حياتهم » .

وكان جارسيا يبدو في نظر بعض من مستمعيه حاد الذكاء ، وذلك لأنهم كانوا يخمنون ما يقوله اكثر مما يفهمونه .

واستأنف حديثه قائلاً : « ومن الواضح أن النجاشي ليس ارنانديث ، بيد أن الفرق بين الليبرالي والمتحرر لا يزيد عن فرق في المصطلح والمزاج ؛ لقد قال النجاشي : ان رجاله على استعداد للموت دائماً ، وهذا القول ينطبق على

أفضلهم : ولاحظوا أنني أقول « أفضلهم » . انهم سكارى باخاء يعرفونه أنه لا يمكن أن يدوم على هذه الحال ، وهم على استعداد للموت بعد بضعة أيام من النشوة أو من الانتقام على حسب الأحوال . . . انها لحظات يحيا فيها الناس وفقاً لأحلامهم ، واذكروا ما قاله عن « حماسهم » . . . كل ما في الأمر أن هذا الموت يبرر - في نظرهم - كل شيء » .

قال براداس : « إنني لا أحب الأشخاص الذين يقفون للمصور شاهرين مسدساتهم » .

- « قد يكونون أحياناً - هم أنفسهم الذين انتزعوا أسلحة الأغنياء يوم ١٨ من يوليو بأن وضعوا قبضاتهم في جيوبهم لتبدو كأنها مسدسات ! » .

- « الفوضويون » . . .

قال مانويل : « الفوضويون كلمة تستخدم للتضليل على وجه الخصوص . . النجاشي عضو في الاتحاد الفوضوي الأيبيري ، هذا شيء مفهوم . . . ولكن المهم - باختصار - ليس هو ما يفكر فيه زملاؤه ، وإنما ما يفكر فيه ملايين الناس . . . الملايين التي ليست من الفوضويين » .

قال براداس بصوت متحشرج : « تعني رأيهم عن الشيوعيين ؟ »

فقال جارسيا : « كلا يا صديقي العزيز ، وإنما أعني رأيهم عن الصراع ، عن الحياة . . اعني أفكارهم المشتركة . . فلنقل - مع الكابتن الفرنسي . . تذكر أنني قد عرفت هذا الموقف في روسيا سنة ١٩١٧ وفي فرنسا منذ ستة شهور . . والأحزاب شيء آخر . هذه حقيقة تجلت لنا منذ ١٨ يوليو ! » .

ورفع أنبوبة غليونه : « ليس هناك أصعب من اقناع الناس بالتفكير فيما يفعلونه » .

فقال براداس : «ومع ذلك ،فليس ثمة ما هو أهم من ذلك » .

وقال جولوفكين في لهجة حزينة : « لقد قضي على الناس : إما التغيير وإما الموت » .

وكان جارسيا قد أخلد الآن الى الصمت ، والى التفكير . . ففي رأيه أن عبارة « النقابية ـ الفوضوية » تضم لفظتين هما النقابية والفوضوية ، ولقد كانت التجربة النقابية التي قام بها الفوضويون هي العنصر الايجابي لديهم ، أما الايديولوجية فكانت عنصرهم السلبي ، وكانت حدود الفوضوية الأسبانية « إذا جردناها من فخامتها » هي نفسها حدود النزعة النقابية ، وأذكى الفوضويين لا ينسبون أنفسهم الى الثيوصوفية ، بل الى سوريل ، ومع ذلك فقد تطورت هذه المناقشة كلها وكأن الفوضويين جنس خاص ، وكأنهم يتحددون بطبعهم قبل كل شيء ، وكأنما من الواجب على جارسيا أن يدرسهم لا من الناحية السياسية ، ولكن بوصفه مختصاً في علم السلالات .

وناجى نفسه قائلاً : « ما أغرب أن يدور هذا الحديث نفسه ساعة الغداء في اسبانيا كلها ! من الأهم كثيراً معرفة الأسس التي يمكن بها تنفيذ قرارات الحكومة عن طريق العمل المشترك الذي تقوم به المنظمات التي تسمى الاتحاد الفوضوي الأيبيري أوالحزب الشيوعي أو غيرهما من المنظمات . وما أغرب ولع الناس بمناقشة أشياء أخرى في الوقت الذي تتعلق فيه الحياة بمناقشة الأحوال المحيطة بما يقدمون عليه من أفعال ! يبدو أنه لا مفر من أن أبحث عما يمكن فعله مع كل واحد من هؤلاء الرجال على انفراد » .

واقترب أحد رجال الميليشيا الذي كان قد سأل مانويل لتوه ، وقال :

ـ « أيها الرفيق جارسيا ، انهم يطلبونك في الخيفاتورا (مركز القيادة أو الرئاسة) . تليفون من مدريد » . واتصل جارسيا بمدريد .

وسأله صوت : « ماذا تم في تلك الوساطة ؟ » .

- « لم يخرج القسيس بعد ، وسينتهي الوقت المتفق عليه بعد عشر دقائق » .

- « اتصل بنا مباشرة اذا علمت شيئاً جديداً . ما رأيك في الموقف ؟ » .

- « سيء ».

- « سيء جداً ؟ » .

- « سيء » .

الفصل الخامس

انتظر أرنانديث الذي كان يعلم أن جارسيا قد استدعي بالتليفون . . انتظر عودته الى المتحف .

ـ « لقد قلت شيئاً استرعى انتباهي ، وهو أن الأخلاق لا تصنع السياسة ومع ذلك فلا يمكن أن تقوم السياسة بلا أخلاق ، هل قدمت تلك الرسالة ؟ » .

ـ « كلا » .

وكانت جلبة الأسلحة في اثناء فترة الراحة ولمعان أواني الطعام العسكرية في شمس الظهيرة ، ورائحة الموق ـ كان هذا كله يستحضر في النفس الاضطراب الذي حدث نهار أمس ، حتى بدا انتهاء الحرب أمراً مستحيلاً . وكان السلام قد أصبح فعلاً ذكرى عتيقة من ذكريات الماضي الفخمة بعد أن لم يتبق على انتهاء الهدنة سوى ربع ساعة ، وانزلقت خطوات أرنانديث الصامتة الطويلة الى جانب خطوات جارسيا الراسخة .

ـ « لماذا ؟ » .

« «أولاً» : لأنهم لم يردوا الرهائن ؛ « ثانياً » : في اللحظة التي تقبل فيها مسؤولية ما لا بد أن تكون منتصراً لكي تستطيع تنفيذها . . هذا كل ما في الأمر » .

ـ « ولكن اسمح لي . . . لم أكن أنا الذي اخترتها . . لقد كنت ضابطاً

وقمت بواجبي كضابط » .

ـ « ولكنك قبلتها » .

ـ « كيف تريدني أن أرفضها ؟ أنت تعلم جيداً أننا نفتقر الى الضباط . . . »

ولأول مرة نعمت المدينة الراقدة في نعاس قلق ، بقيلولة لا يتخللها اطلاق النار .

ـ « ما فائدة الثورة إن لم تجعل الناس أفضل مما كانوا ؟ أنا لست من البروليتاريا يا قائدي ، والبروليتاريا من أجل البروليتاريا لا تهمني أكثر مما تهمني البورجوازية من أجل البورجوازية ، ومع ذلك فأنا أُقاتل بكل ما في وسعي . . فماذا تريد ؟ » .

ـ « هل البروليتاريا هم الذين يقومون بالثورة أو الرواقيون ؟ » .

ـ « ولماذا لا يقوم بها الناس الذين هم اكثر إنسانية ؟ » .

ـ « لأن الناس الذين هم اكثر انسانية لا يقومون بالثورة يا صديقي العزيز : إنهم يصنعون المكتبات والمقابر لسوء الحظ . . » .

ـ « المقابر لا تمنع القدوة من أن تكون قدوة . . بل على العكس » .

ـ « وفي انتظار ذلك ، لدينا فرانكو » .

وأمسك أرنانديث جارسيا من ذراعه بحركة تكاد تكون أنثوية .

ـ « اسمع يا جارسيا ، فلندع لعبة من منا على صواب ، فليس هناك من أستطيع أن احادثه سواك . مانويل رجل أمين ، ولكنه لا يرى شيئاً إلا من وجهه نظر الحزب . أما الآخرون فأنت تعرف خيراً مني أنهم سيكونون هنا قبل ثمانية أيام . إذن : فإما أن تكون أنت على حق أو أنا . . . » .

ـ « كلا » .

- « أجل . . . »

ونظر ارنانديث الى القصر : لا جديد .

- « كل ما أريده لو لم يكن ثمة مفر من أن أموت هنا - ألا تكون الأمور على هذا النحو . . »

«في الأسبوع الماضي اتهم أحد رفاقي من الفوضويين أو من الذين يدعون ذلك - بسرقة الخزانة . . . وكانهذا الرفيق بريئاً ، وقد طلب الادلاء بشهادتي وبالطبع دافعت عنه ، ولكن يبدو انه فرض النظام الجماعي على القرية التي كان مسؤولاً عنها ، وشرع رجاله في تطبيق ذلك النظام على القرى المجاورة . . وأنا أعترف بأن هذه الاجراءات سيئة ، وأن الفلاح الذي ينبغي له أن يملأ عشر استمارات للحصول على منجل لا بد أن يستشيط غضباً ، واعترف على العكس من ذلك بأن برنامج الشيوعيين من هذه المسألة برنامج سليم . . .

وقد ساءت علاقاتي معهم منذ أن أدليت بشهادتي . . . فليكن ! فماذا كنت تريد ؟ إنني لن أترك رجلاً يطلب شهادتي وأعلم أنه بريء يعامل على أنه لص » .

- « يعتقد الشيوعيون (وأولئك الذين يحاولون تنظيم شيء ما في هذه الأونة) أنّ نقاء قلب صديقك لا يمنعه من أن يمد فرانكو بمعونة موضوعية إذا أدى به ذلك الى اشعال ثورات الفلاحين .

« إن الشيوعيين يريدون أن يفعلوا شيئاً ، أما أنتم والفوضويون فتريدون - لأسباب مختلفة - أن تكونوا شيئاً . . هذه هي مأساة كل ثورة كثورتنا . . والأساطير التي نعيش عليها متناقضة : النزعة الى السلام ، وضرورة الدفاع والتنظيم والأساطير المسيحية والفعالية والعدالة ، هلم جرا . . علينا إذن أن نرتب هذه المتناقضات وأن نحيل رؤانا إلى جيش . . . وإلا كان هلاكنا حتماً مقضياً . . . هذا كل ما في الأمر » .

ـ « ولاشك أيضاً أن الرجال الذين تنطوي أنفسهم على هذه المتناقضات عينها لا بد أن يهلكوا هم أيضاً . . . هذا كل ما في الأمر . . . على حد قولك» .

وتذكر جارسيا قول جولوفكين : « أما أن يتغيروا أو يموتوا . . . » قال : « إن كثيراً من الناس ينتظرون من الرؤ يا أن تحل مشاكلهم الخاصة . . . غير أن الثورة تتجاهل آلاف الكمبيالات المسحوبة على حسابها . . وتمضي في طريقها . . » وسأله أرنانديث باسماً :

ـ « أتظن أنني مقضي عليَّ بالموت ؟ أليس كذلك ؟ » .

ولم تكن ابتسامته تحمل أي معنى من معاني التهكم .

ـ « ثمة راحة في الانتحار . . . »

واشار باصبعه إلى الاعلانات القديمة عن الفرموت وعن الأفلام ، تلك الاعلانات التي كانوا يسيرون تحتها ، واتسعت ابتسامته ، فكشفت عن أسنانه الطويلة الشبيهة بأسنان الحصان الحزين : « الماضي . . . » ثم أردف بعد بضع ثوانٍ : « ولكن ، بمناسبة الحديث عن موسكاردو . . لقد كانت لي زوجة ، أنا أيضاً » .

فقال جارسيا :

ـ « أجل . . . ولكننا لم نكن رهائن . . . إن خطابات موسكاردو ، وشهادتك . . . إن كل مشكلة من المشكلات التي تضعها تعد مشكلة أخلاقية ، والحياة طبقاً لمذهب أخلاقي مأساة دائماً . . . وهذا القول يصدق على الثورة صدقه على أي شيء آخر » .

ـ « والناس يعتقدون عكس ذلك ما دامت الثورة لم تحدث بعد ! » . .

وفي الحدائق المنهوبة كانت شجيرات الورد ونبات البقس تبدو كأنها

تشارك في الهدنة ، وقال جارسيا :

ـ « من الممكن أن تكون بسبيلك الى الالتقاء بـ . . . مصيرك ؛ والتخلي عما أحببناه ، وعما عشنا من أجله . . . ليس ذلك شيئاً يسيراً . . . إنني أريد أن أساعدك يا أرنانديث . . بيد أن الدور الذي تؤديه خاسر مقدماً ، وذلك لأنك تحيا حياة سياسية ، وتقوم بعمل سياسي ، وفي قيادة عسكرية تتصل فيها كل دقيقة بالسياسة ، مع أن دورك ليس سياسياً ، وإنه مقارنة بين ما تراه رأي العين ، وما تحلم به ، ولا يمكن التفكير في الفعل إلا في اطار الفعل ، ولا وجود لتفكير سياسي إلا في المقارنة بين شيء ملموس وشيء آخر ملموس ، بين امكانية وإمكانية أخرى . اما أن تنضم إليَّ أو إلى فرانكو ، أن تختار بين منظمة أو منظمة أخرى ، لا بين منظمة أو رغبة ، وحلم ورؤ يا ! » .

ـ « لا يموت الناس إلا من أجل شيء لا وجود له . » .

ـ « ارنانديث ، إن التفكير فيما ينبغي أن يكون بدلاً من التفكير فيما يمكن فعله حتى ولو كان ما يمكن فعله شيئاً رديئاً ـ مثل هذا التفكير سم زعاف ، لا علاج له كما يقول جويا ! إن هذا الدور خاسر مقدماً بالنسبة لكل إنسان . . . إنه دور يائس يا صديقي العزيز ، والكمال الأخلاقي والنبل مشكلتان فرديتان أبعد من أن تتصل بهما الثورة إتصالاً مباشراً . . . والجسر الوحيد الذي يوصل بينهما في نظرك ـ وأسفاه ـ هو التضحية بنفسك ! » .

ـ « هل تعرف فرجيل عندما قال : لا معك ، ولا بدونك . . . » . . والآن ، لن أخرج من هذا . . »

وهدر مدفع من طراز ١٥٥ ، تلاه أزيز القنبلة الحاد ، ثم انفجار وضوضاء تكاد تكون بللورية من جراء تساقط قوالب القرميد وحطام الجدران ، وقال جارسيا :

ـ « لقد أخفق القسيس ! » .

الفصل السادس

كان جيش « ياج »Yague يسير من طلبيرة متجهاً صوب طليطلة .

وكـان المواطن « لكلير » في حلتـه البيضاء المتسخة تمـاماً ، وبقبعتـه الـرمادية فوق رأسـه ، وزجاجـة « الترمـوس » تحت ابطه ـ يقتـرب من باب طائرته المفتوح .

قال بأعـذب ما في صـوته الأجش من نغمـات وكأنه يحـدث نفسه : « يـا إلهي ، من ذا الذي كان يعبث بطيارتي الأوريون ! » .

فقال اتينييس في هدوء وهو يدخل في صديرية من الصوف :
ـ « كل شيء على ما يرام . على ما يـرام . . . لقد قمت بتـركيب جهاز للتصويب » .

فأجاب لكلير نازلاً عن شكواه : «رائع . . يا عزيزي » .

ولم يكن لكلير يحب أتينييس ، لم يكن يحب فيه شبابه الجاد ، أو أسلوبـه في السلوك ، الذي يشعره بأنه بورجوازي متعالٍ ، على الرغم مما يتصف بـه من مـودة ؛ كما لم يكن يحب ذخيـرته من المعـرفة (كـان أتينييس متخرجـاً من الكلية الحربية) أو شيوعيته المتقشفة ، وإن لم يكن اتينييس يصـطنع التقشف قـاعدة لحيـاته ، بـل على العكس ، وعـلى حـين كـان المتـطوعـون يشعـرون بـالامتنان للفنيـين كـانـوا يضمـرون الغيـرة للطيـارين التجـاريـين من أمثـال « لكلير » . وكان لكلير مولعاً بالنساء .

وأدار محرك الطارة .

عمال المطار والجرحى يدورون حول الطائرة ، ورابلاتي يسير في أعقاب « اسكالي » . و« جيم » ـ منذ أن فقد بصره ـ يأتي الى المطار كمألوف عادته ، وقد شطرت وجهه نصفين ضمادة كبيرة . بعض الأطباء يقولون : إنه سيستعيد بصره ؛ ولكنه لم يكن يطيق وجود كلب الى جانبه . وكان « هاوس » يقيم هو أيضاً في المطار متكئاً على عكازين ، مستبدأ ينضح بالدروس والأوامر ، لا يطاق من أن منحته جروحه تلك السلطة ، أما سيبيرسكي فكان قد غادر اسبانيا .

والواقع انه منذ أن عاد رجال المطار الى الطيران ليلاً لمواصلة الكفاح تغير جو المطار اذ استطاعت هذه الوسيلة أن توقف نشاط طائرات الاعداء المطاردة ، ولم يكن هبوط الطائرات في الريف أمراً ممتعاً كما لم يكن الهبوط نهاراً في صفوف الأعداء أكثر من ذلك متعة . وكان القدر هو الذي يتحكم الآن في القتال . وإذا كان الفرسان يرتبطون بجيادهم في أثناء الحرب فإن تلك الجياد لم تكن عمياء أو مهددة كل يوم بالشلل ، وقد كان الجيش الفاشي أهون في عدائه لأولئك الطيارين من محركات طائراتهم المغطاة بالرقع كأنها سراويل بالية ، ومع ذلك فقد كانت الحرب عبارة عن طائرات لا ينقطع اصلاحها ، طائرات تطير في ظلام الليل .

وارتفعت الطائرة مخترقة السحب .

ـ « أيها الفتى الصغير ؟ » .
ـ « ماذا ؟ » .

ـ « أنظر إليَّ ؛ ربما كنت أمثل دور العبيط طيلة الوقت . . . ولكنني رجل ! » ولم يكن يحب أتينييس ، غير أن كل طيار محارب كان يحترم الشجاعة ، وكانت شجاعة أتينييس فوق كل جدال .

وعادوا مرة أخرى تحت السحاب

وأحس « لكلير » وقد وضع قبعته الرمادية فوق رأسه تحوطه تلك الضوضاء المنبعثة من المحرك المطمئنة المهددة بالتوقف في كل لحظة - أحس بحرية تكاد تكون إلهية ، حرية تعلو على النوم وعلى الحرب ، وعلى الآلام والعواطف جميعاً ، حرية أحس بها من قبل في الحرب العظمى ، وفي الصين .

ومضت فترة من الزمن . ولم يلبث « لكلير » أن قال بلهجة القرارات الناضجة : « وأنت أيضاً . . . رجل » .

ولم يكن اتينييس يريد أن يجرح شعور الطيار ، بيد أن أمثال هذه المناقشات كانت تثير أعصابه . . . فأجاب بزمجرة دون أن يكف عن النظر تحته الى الطريق الذي تغمره الأنوار ، غائصاً أمامهم حتى يختلط بأعماق الليل ، مرتعشاً تحت ضربات الريح التي كانت تهب بلا شك على الأرض ، وأحس أتينييس أن القلق يربطه بهذا الأثر الوحيد للانسان في الظلام المعادي وفي العزلة المتوعدة : ما من ضوء ! وهذا معناه أن أي هبوط يؤدي الى الهلاك ، ولما كانت غريزته أرهف إحساساً من وعيه بدا أنها كانت أسبق الى الفهم ؛ إذ أدرك فجأة سبب قلقه : لقد كان المحرك يدق .

فهتف قائلاً لكلير : « صمام ! »

وصرخ الآخر : « إلى الجحيم : نستطيع أن نقوم بالمحاولة » وأحكم أتينييس مساكة الشعر ؛ فقد كان على استعداد دائماً للمحاولة .

كانت « طلبيرة » تلوح في الأفق ، وقد ضخمتها العزلة والظلمة ، وفي مستوى التلال كانت انوارها تتلاشى في النجوم ، وتبدو وكأنها تبلع الطائرة ، وأشاعت ضجة المحرك المختل الحياة في المدينة وجعلتها مفعمة بالخطر ، وبين الأضواء التي تنبعث من مدينة من مدن الأقاليم ، وضروب البريق المحمومة المتحركة المصاحبة للحرب كانت البقعة السوداء التي تدل على وجود مصنع للغاز انطفأت أنواره - هادئة هدوءاً يبعث على القلق كهدوء الوحوش

النـائمة ، وكـانت الطائـرة تحلق الآن فوق طـريق ممهد بـالأسفلت تبلله ميـاه امـطار حديثـة تعكس على صفحتهـا مصـابيـح الغـاز ، وكـانت كتلة أضـواء تتضخم كلما اقتربت الطائرة من طلبيرة ، وفجأة شاهدها اتينييس من جـانبي الطائرة العتيقة الغائصة كأنها نجوم حول طائرة صاعدة .

وفتح باب الطائرة المسحور ، فاندفع هواء الليل البارد الى داخلها وجثـا عـلى ركبتيـه مشـرفـاً عـلى المـدينـة منتظراً ، وقـد تحـدد مجـال بصـره بجهـاز التصـويب ، كما تتحـدد نظرة الجـواد بالمئمتـين . أما لكلير فقـد وضع مقـدم الطائرة على المربع الأسود للمصنع، وأرهف أذنيه ، وأخذ يتقدم فـوق هيكل « طلبيرة » المضيء .

وتجاوز البقعة السـوداء . واستدار غـاضباً نحـو اتينييس ، ولم يكن يرى منه سوى شعره الأشقر المتألق في عتمة الطيارة .

ـ « ماذا أنت صانع ، بحق السماء ؟ » .

ـ « أغلق فمك ! »

ومال لكلير بالطائرة : وكانت القنابل الساقطة تصاحبها بفعل السـرعة ، وإن تكـن أدنى منها قليلاً ، وأبطأ منها قليلاً ، وقد أخذت تلمع كالأسماك في ضوء القمر ، وكـما يختفي سرب من الحمـام يغير اتجـاهه فـلا يبين منـه سوى الجوانب النحيلةاختفت القنابل فجأة ، وأصبح سقوطها عمودياً ، وعلى حافة المصنع انبثق صف من الانفجارات الحمراء .

وأخطأوا الهدف .

ودار لكلير دورة قصيـرة ، ثم انقض هابـطاً مرة أخـرى عـلى المصنـع ، وصاح أتينييس : « راقب الارتفاع ! » ذلـك أن حركـة الهبوط هـذه يمكن أن تغير من زمن التصويب فألقى لكلير نظرة عـلى جهاز تحـديد الارتفـاع ، وعاد الى الباب المسحور : هذه طلبيرة تبـدو الآن معكوسـة كأنها رجـل يدور عـلى

عقبيه ، وتخلى النور المضطرب الساقط على الشوارع من المكاتب العسكرية عن مكانه للمستطيلات التي تضيئها النوافذ ، وأصبحت بقعة المصنع أقل تحديداً . . . وكانت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها من الأرض ، بيد أنه لم يكن من المحتمل أن الرجال الذين يصوبون نيرانهم يتبينون الطائرة في وضوح ، وأطفأت المدينة أنوارها جميعاً ، ولم يبق في الليل الزاخر بالنجوم سوى اللوحة المعدنية المضيئة وظل قبعة « لكلير » على ميناء جهاز قياس الارتفاع .

كانت المدينة قد عاشت تلك الحياة الصماء التي أضفتها عليها أنوارها المنتشرة ، ثم عاشت تلك الحياة المحددة التي أضفتها اضواؤها المكشوفة حين عادت الطائرة على اعقابها ، ولم يكن من شك أنها الآن ـ وقد أطفأت أنوارها ـ قد أصبحت أكثر حياة . وكانت ألسنة اللهب القصيرة المنبعثة من المدافع الرشاشة تظهر وتختفي كأنها شرارات تتطاير من حجر الصوان ، وكانت المدينة المعادية في حالة ترقب ، وكأنها تتحرك وفقاً لكل حركة تقوم بها الطائرة المنقضة عليها ، حيث كان لكلير يحملق بعينين مسددتين وبقبعته الرمادية التي أزاحها الى الوراء ، فظهرت خصلتان من شعره على جانبي رأسه في حين كان أتينييس منبطحاً على بطنه وقد ألصق أنفه بجهاز التصويب ، ومنه كان يرى أصغر انعطافة للنهر زرقاء في ضوء القمر :

وكان المصنع ما زال قائماً في مكانه . . وأطلق الحمولة الثانية من القنابل .

وفي هذه المرة لم يروا القنابل وهي تهوي تحتهم ، فقد انقضت الطائرة وسط ضجة لا حد لها فوق كرة بلون البرق . . ولكي يتقي لكلير تلك النار الزرقاء التي كادت تبتلعهم ضغط في جنون على جهاز الارتفاع بالطائرة ، فصعدت حتى بلغت نطاق الهدوء غير المكترث الذي يحيط بالنجوم ، ولم يعد يشتعل تحتهم سوى حريق زاحف أحمر ، لقد تمزق المصنع شر ممزق !

واخترقت بضع رصاصات جسم الطائرة : فمن المحتمل أن يكون الانفجار قد جعل الطائرة مرئية ، وأخذ مدفع رشاش يتعقب طيف الطائرة التي كانت قد دخلت لتوها في الهالة المحيطة بالقمر ، وشرع لكلير يسير بالطائرة في خط متعرج . . وحين استدار اتينييس لمح شبكة الحريق الحمراء ، وكانت القنابل التي أسقطت على هيئة مسبحة قد أصابت الثكنات أيضاً ، لقربها من المصنع .

وحال بينهم وبين الأرض كثيب من السحب .

وأمسك لكلير بزجاجة الترموس التي كانت الى جانبه ، وتوقف مذهولاً وقد رفع الكوب في الهواء ، وأشار الى اتينييس : كانت الطائرة تشع نوراً ضارباً الى الزرقة ، وأشار اتينييس الى السماء ، فقد كانوا حتى هذه اللحظة ينظرون الى الأرض مستغرقين في القتال دون أن ينظروا الى الطائرة نفسها ، والواقع أن القمر المحتجب عن أنظارهم كان يضيء من فوقهم الألومنيوم الذي يكسو جناحي الطائرة . وأعاد لكلير الترموس الى مكانه ، ما من حركة إنسانية يمكن أن تكون الآن على مقياس الأشياء ، وجعلتهم تلك النشوة التي تعقب القتال بعيداً عن آلتهم الحربية التي كانت هي وحدها المضيئة في ذلك الفضاء الرحب ـ ولكنها لم تلبث أن تبددت في ذلك السكون الكوني ، وفي ذلك التوافق بين القمر وبين ذلك المعدن الشاحب الذي يلمع كما تلمع الأحجار فوق الكواكب الباردة منذ ملايين السنين . وعلى السحب الممتدة تحتهم كان ظل الطيارة يتقدم على مهل . ورفع لكلير سبابته ، وقطب جبينه كأنه يتذوق شيئاً جديراً بالتقدير ثم هتف في وقار : « هذا شيء عليك أن تتذكره ! . . . » ثم تناول الترموس مرة أخرى ، ولاحظ أن المحرك ما زال يدق .

وأخيراً تجاوزوا السحب ، وكانت بعض الطرق تتحرك على الأرض .

وكان أتينييس يعلم الآن ما يعنيه اهتزاز تلك السبل الليلية : انها السيارات الفاشية تتقدم صوب طليطلة .

الفصل السابع

ظل مانويل يقوم بعمل المترجم حتى هبط الليل ؛ فقد كان هينريش أحد قواد الفرق العالمية التي تألفت في مدريد يتفقد جبهة نهر تاجة (إن صح هذا التعبير) ، ومن طلبيرة حتى طليطلة باستثناء المناطق التي يعسكر فيها اكسيمينيس واثنان أو ثلاثة آخرون ، ولم يكن ثمة خطوط للمراقبة أو الاستماع ، والقوات الأحتياطية تفتقر الى التنظيم والحماية ، والمدافع الرشاشة في حالة رديئة ، وفي مواقع سيئة .

وكان مانويل قد تعلم من اكسيمينيس كيف يقود ، وها هو ذا الآن أخذ العرق يسيل على صلعته التي حلقها بالموسى حتى لا يرى أحد شعيراته البيضاء ، وطفق حذاؤه الثقيل يرن على الأرض التي تشققت بفعل صيف أشرف على نهايته ؛ ولم يكف طوال الجولة التفتيشية التي قام بها عن إصلاح الأمور ، يدفعه ذلك التفاؤ ل العنيد الذي يتميز به الشيوعيون .

وكان مانويل قد تعلم من اكسيمينيس كيف يقود ، وها هو ذا الآن يتعلم كيف يقوم بالتوجيه ، وكان يعتقد أنه تعلم فن الحرب ، ولكنه تعلم في الشهرين الأخيرين الحذر والتنظيم والعناد والصرامة ، وتعلم على الأخص كيف يملك هذا كله بدلاً من أن يكتفي بتصوره ، وفي أثناء صعوده ليلاً صوب القصر حيث كانت كتلة سائلة من اللهب تتموج مثل « ميدوزا » هلامية متألقة أدرك أنه بعد إحدى عشرة ساعة من التعديلات التي أدخلها هينريش ـ بدأ يشعر شعوراً ملموساً بما ينبغي أن تكون عليه فرقة محاربة ،

وأخذت تطن في رأسه عبارات قواد الجيش العظام ، وقد اختلطت بضجة النيران وضاعت وسط الارهاق : « الشجاعة لا تسمح بالنفاق » - « انك تنصت الى ما تسمعه وما تراه تحاكيه » العبارة الأولى لنابليون ، والعبارة الأخرى لكيروجا . وكان اكسيمينيس هو الذي كشف له عن كلاوزفتش ، واتجهت ذاكرته الى المكتبة العسكرية والواقع انها لم تكن مكتبة رديئة ، وانعكس أتون القصر على صفحة السحب الواطئة كما تنعكس سفينة مشتعلة على ثبج البحر . وبين كل دقيقتين كان مدفع من المدافع الثقيلة يطلق نيرانه على ذلك الأتون .

وكان هينريش يريد ما يريده أنشط جناح في هيئة القيادة الأسبانية : وتتلخص خطته في الاحتفاظ بحرس الهجوم لاستخدامه كقوات لمباغتة العدو ، والتوسع على قدر الامكان في تدعيم الكتيبة الخامسة انتظاراً لاشتراك الفرق العالمية في القتال ، وحين تصل وحداته الى العدد الكافي يمكن بعد ذلك ضمها الى الجيش النظامي لتؤلف نواته ، ولتسمح بادخال النظام الثوري كما سمحت العناصر الشيوعية الأولى بتنظيم اللواء الخامس ، وكانت كتائب « انريك » قد تحولت الى فرقة من فرق الجيش ، أما مانويل فقد بدأ بسرية ميكانيكية مدرعة ، وقاد كتيبة وفقاً لأوامر اكسيمينيس ، وسيتولى في مدريد قيادة لواء ، ولكنه لم يكن هو الذي أرتقى في الرتبة ، بل الجيش الأسباني .

وبوجه ألقت عليه نيران القصر القصيرة الثائرة وهجاً برتقالياً أخذ يصعد صوب سانتا كروز تسفعه الرياح ، وقد أمسك بيده عوداً من أعواد الشمرة ؛ ليرى كيف يسير العمل في وضع اللغم ؛ اذ كان هينريش - وهو أشبه بالضباط الألمان بعنقه المحلوق الذي تكسوه الغضون كأنه جبين - ينتظر في المدينة مكالمة تليفونية من مدريد .

وكلما هدأت الريح وصمتت معها ضجة المدافع والبنادق استمرت جلبة أخرى خافتة ولكنها قابضة للنفس ، وهي الطقطقة المخنوقة المنبعثة من ألسنة اللهب المشتعلة ببرج القصر . وكانت هذه الجلبة تتفق مع الرائحة التي

جعلت المدفع والصيحات البعيدة وكل ما ينشأ عن حركة البشر جعلت من هذا كله شيئاً جديراً بالسخرية ، وكانت رائحة النار التي اختلطت برائحة الجثث من الكثافة بحيث لم يكن القصر يكفي وحده تبرير مصدرها ، بل بدت كأنها لا يمكن أن تكون إلا رائحة الريح والليل نفسه .

وأصبح من الضروري القاء رجال الميليشيا في طليطلة في معركة تاجة ، وكان لا بد للقصر أن ينسف ليلاً باستثناء سراديبه ؛ ولهذا بدأ اجلاء سكان المدينة . وكان الفلاحون يمرون بخنازيرهم وعنزاتهم في صفوف طويلة صامتة عبر ليل أحمر لا يضيئه القصر وإنما تضيئه السحب المشتعلة .

وعندما وصل مانويل الى قاعة سانتا ـ كروز ، وجد هناك قائداً من قواد طليطلة ، وكان هذا القائد في الأربعين من عمره ، وقد أزاح قبعته العسكرية الى مؤخر رأسه .

ـ « وبعد ! وبعد ! فماذا هناك ؟ ماذا هناك ؟ » .

وتقدم صوب مانويل ، في مودة وحرارة لا تخلوان من خشونة واضعاً يديه في جيوبه ، وسأله مانويل :

« متى ينتهي العمل في اللغم ؟ » .

ونظر اليه القائد ثم قال :

ـ « عندما ينتهون من العمل . . . غداً . . . »

قال ذلك بلهجة توحي بأنه يريد أن يقول : ان المرء لا يستطيع مع هؤلاء الحمقى أن يعرف شيئاً ، وكان في عينيه بريق ينم عن السخرية ، وكأن المسألة كلها غريبة غاية الغرابة ، ومع أن شعور مانويل لم يكن يخلو من تعاطف مع أحزان ارنانديث ، فإن سخرية ذلك القائد المتعالية التي تتسم باللامبالاة كانت تضايقه ، ومنذ تلك السقطة التي حدثت له مع راموس كان الديناميت يبدو له سلاحاً رومانسياً ومن ثم يبدو سلاحاً مشكوكاً فيه .

وتوقفت ضوضاء الحرب لحظة ، وأصبح من الممكن للمرء أن يسمع في ذلك السكون ضربات منتظمة معدنية ومكتومة في آن معاً ، كأنها صادرة عن الأرض والجدران .

وتساءل مانويل : « هل هذا هو اللغم ؟ » .

وأشار رجال الميليشيا بالإيجاب ، وخطر لمانويل أن الفاشيين الذين في القصر يسمعون هذه الأصوات في نفس اللحظة ، وبنفس الطريقة .

ووصل رئيس العمال الذين يضعون اللغم .

- « في أي ساعة تأمل الانتهاء ؟ حدد أقرب وقت وأبعده » .

- « ما بين الساعة الثالثة والرابعة » .

- « بالتأكيد ؟ » .

وتروى الرجل ثم قال : « بالتأكيد » .

- « وما الأجزاء التي ستنسف ؟ » .

- « لا يستطيع المرء أن يؤكد » .

- « في رأيك أنت ؟ » .

- « الجزء الأمامي كله » .

- « ولا شيء اكثر من ذلك ؟ » .

وتروى الرجل مرة أخرى ثم قال : « انهم يقولون : إنه من الممكن نسف جزء أكبر . . أما أنا فلا أظن ذلك ، لأن الأقبية لا يقع بعضها فوق البعض الآخر ، بل إنها مرصوصة الواحد بعد الآخر وفقاً لشكل الصخر » .

- « شكراً » .

وانصرف رئيس العمال ، فأمسك مانويل القائد من ذراعه ، دون أن

تتخلى يده اليسرى عن غصن الشمر .

ـ « خذ حذرك أيها الرفيق في حالة وقوع اشتباك غداً ، فإن أوكار المدافع الرشاشة واطئة أكثر مما ينبغي ، ولا شيء يخفيها ، بل يستطيع المرء أن يراها في وهج النيران » .

وخرج الى الظلمة المتوهجة ، فحاصرته رائحة الجثث والصخور الساخنة ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت لحظة بفعل الريح ، ثم تصاعدت من جديد ، واستولت على الحديقة المملوءة بالمعاطف .

وقام بتفتيش المراكز واحداً بعد الآخر ، حتى وصل الى مناطق القصر التي استولى عليها الجمهوريون ، وهناك ، كان كل شيء قد اصابه التغيير ، فوجد رجالاً من حرس الهجوم والحرس المدني ، والميليشيا المدربين ، بيد أن القلق لم يفارقه ؛ فالهجوم الذي سيتلو الانفجار لم يشرف أي خبير عسكري على تنظيمه .

وبين طلقات المدفع ـ تناهت الى سمعه ضوضاء العمل في وضع اللغم ، وكانت هذه الضوضاء تصعد الآن من الأرض ، لتتمشى في مفاصله ، ولم يكن من شك أن الأعداء يسمعونها في سراديبهم في وضوح أكبر .

وكان هينريش ينتظر الى جانب التليفون الرد الخاص بالدفاع عن مدريد ، وكان يريد الدفاع عن طليطلة ، ولكن سواء قاومت طليطلة أو سقطت فقد طلب التخلي عن نظام الوحدات الصغيرة ، وانشاء احتياطي قوي تدعمه الفرقة الخامسة ، أما فرانكو الذي بدأ في البحث عن خيول بيضاء ليدخل بها دخول الفاتحين فكان ينتظر الكثير من الانقلاب الذي سيقوم به الفاشيون في مدريد على حين أخذت قواته تتقدم في سرعة فائقة .

* * *

بعد أن انتهى ارنانديث من نوبته اليومية جلس مع صديقه مورينو الى

إحدى الموائد في مركز قيادة المليليشيا ، وهو المكان الوحيد في طليطلة الذي يستطيع فيه المرء أن يحتسي كوباً من الجعة الباردة ، وكان الملازم مورينو الذي سجنه الفاشيون يوم نشوب الثورة ، وحكموا عليه بالاعدام ، ولكنه تمكن بمصادفة سعيدة من الفرار في أثناء نقله من سجن الى سجن اخر ـ كان قد استطاع الوصول الى مدريد منذ ثلاثة أيام ، وقد استدعي من فوره لإعطاء بعض المعلومات ، وكان ارنانديث من طلبة المدرسة الحربية في طليطلة ، وفي هذه اللحظة كان بعض رجال الميليشيا يروحون ويغدون أمام النوافذ المفتوحة على مصاريعها كأنهم قلب النيران الأزرق في الشطر الأسفل من الحريق .

قال مورينو : « إنهم جميعاً مجانين » . وكان شعره الأسود الكثيف المفروق من الوسط يتهدل فوق وجهه ويخفيه ، ونظر اليه ارنانديث مستفهماً . وكانت تربط بينهما منذ خمسة عشر عاماً صداقة فاترة قوامها الذكريات والأسرار العاطفية .

قال مورينو : « لم أعد أؤمن بشيء مما كنت أؤمن به . . . لم أعد أؤمن بشيء على الاطلاق ، ومع ذلك فسأرحل مساء غد لانضم الى الصفوف الأولى » .

وأزاح شعره . . . كانت وسامته ذائعة الصيت في طليطلة : أنف مستقيم ، وعينان واسعتان جداً ، القناع التقليدي للجمال اللاتيني . . . ذلك الجمال الذي تحول في هذه الليلة الى شيء فريد بعد أن أطلق شعره وكأنه يريد أن يجعله شاهداً على السجن الذي هرب منه ، ولم يكن حليق الذقن ؛ اذ كان شعره القصير رمادياً .

وكانت المنازل تحجب القصر ، ولكنها لم تكن تحجب ما يدور فيه من حركة ، وتحت ذلك الضوء المنبعث من السحب والذي كان يتخذ كل ألوان العنب الأسود ـ كان رجال الميليشيا يمرون وسط طلقات المدافع المنتظمة ، وقد تساقطت ظلالهم على الأرصفة .

ـ « أي الأشياء تطلب منك أقصى ما فيك من قوة في اثناء سجنك ؟ » .

ـ « أن أتعلم كيف أتمزق . . . »

وكان ارنانديث يشك ـ منذ مدة طويلة ـ في أن مورينو مولـع ولعاً فـريداً بـالجانب المـأسـاوي من الحيـاة . بيـد أن قلقـه ، ذلـك القلق الـذي لم يكن ارنانديث يتبين طبيعته ـ كان جلياً .

وأخلد الى الصمت لحظة في انتـظار طلقـات المـدفـع ، وكـان خــروج السكان ـ الذي لا تراه الأبصار ـ يملأ الليل بصرير العربات .

ـ « كان وجودي في السجن أقـل أهمية ـ يـا صديقي العـزيز ـ من الحكم باعدامي . إن ما أصابه التغيير . . . كنت أعتقـد أنني أؤمن بالبشـر ، وكنت مـاركسياً ، أول ضـابط ماركسي عـلى ما اعتقـد . . . وليس معنى ذلـك انني أعتقد العكس . . . كلا . . . وإنما لم أعتقد شيئاً . . . »

ولم يكن ارنانديث يشعر بأيـة رغبة في منـاقشة المـاركسية ، وكـان بعض رجال الميليشيا يركضون وسط جلبة البنادق .

واستـطرد مورينـو قائـلاً : « أصغ جيـداً : عندمـا حكم عليَّ بـالإعـدام سمحـوا لي بالنـزول الى فنـاء السجن ، وكـان كـل من فيـه محكـومـاً عليهم بـالاعدام لمعتقـداتهم السياسيـة . . . بيد أن أحـداً لم يكن يشير الى السيـاسة مـطلقاً . . . مـطلقاً : . . ولـو أن أحداً فعـل ذلك لـوجـد حـولـه فـراغـاً في الحال ».

وحملت فتـاة حدبـاء من فتيات الميليشيـا رسالـة الى ارنانـديث ، وانفجر مورينو ضاحكاً في عصبية ، ثم قال :

ـ « ما رأيك ـ من وجهة نظر الثورة ـ في كل هذه المهزلة ؟ » .

ـ « انها ليست مهزلة فحسب » .

وتابع ارنانديث بنظره الفتاة الحدباء التي انصرفت، ولكنه لم يكن يرى فيها - على عكس مورينو - سوى حماسها ، ولهذا كان ينظر اليها في مودة ، وكذلك كان ينظر اليها رجال الميليشيا ، على قدر ما يستطيع أن يحكم بذلك من خلال الظلمة القاتمة . انها تشترك أخيراً في اللعبة بعد ان كانت تعاني بلا ريب من العزلة حتى الآن . واستقرت عينا ارناانديث القصيرتا النظر على مورينو ، لقد بدأ يفقد الثقة في صديقه .

- « هل سترحل الى الجبهة مساء غد ؟ . . . » .

وتردد مورينو ، وأسقط كوبه دون أن يعبأ بذلك ، وظلت عيناه مستقرتين على ارنانديث .

وأخيراً قال : « سأرحل الليلة الى فرنسا » .

ولزم الكابتن الصمت ، وألقى أحد رجال الميليشيا الغرباء قطعة من النقود في كوبه ، دون أن يعلم أنه معفى من الدفع . وتناول مورينو من جيبه قطعة من النقود ، وقذف بها كأنه يريد أن يلعب بها القرعة ، وغطاها بيده دون أن ينظر الى الوجه الذي سقطت عليه ، وابتسم ابتسامة حائرة ، وكانت كل عاطفة عميقة تضع تعبيراً طفولياً فوق ذلك القناع المنتظم تمام الانتظام .

- « لم نكن - يا صديقي - في سجن أول الأمر ، وإنما كنا في دير قديم : مكان مقصود ، وهذا شيء جلي ، ولم نكن في السجن السابق نرى شيئاً ، أو نسمع شيئاً (كان الأمر دائماً على هذا النحو) ، أما في الدير فلدينا فرصة ؛ إذ كنا نسمع كل شيء . . . طلقات الرصاص في أثناء الليل ! » .

ونظر الى ارنانديث بعينين قلقتين ، وكان في تعبيره الطفولي نوع من السذاجة ، ولكنه لا يخلو أيضاً من وحشية .

- « هل تعتقد انهم كانوا يعدمون الناس رمياً بالرصاص مع تسليط الأنوار الكاشفة ؟ » .

ودون أن ينتظر رداً ، اندفع قائلاً :

ـ « تخيل انك تعدم ، وقد سلطت عليك الأضواء الكاشفة . . كانت هناك طلقات الرصاص أعقبتها ضجة أخرى ، وكانوا قد أخذوا نقودنا ، ولكنهم تركوا لنا قطعاً نقدية صغيرة ، ومن ثم كان الجميع يلعبون بها القرعة ! هل نساق غداً الى الفناء مثلاً ، أو الى ساحة الإعدام ؟ وما كانوا يلعبون على رمية واحدة ، بل على عشر أو عشرين ! وكانت الطلقات تصل الى أسماعنا ، من بعيد مكتومة بسبب الجدران والحشايا الهوائية القائمة بينها ، وبيني وبينها كان الليل ، وتلك الجلبة التي يحدثها رنين القطع النحاسية على اليمين وعلى الشمال . وحولي من كل جانب . . . كنت أستطيع أن أقيس يا عزيزي ـ اتساع السجن ببعد الرنين المنبعث من قطع النقود ! » .

ـ « والحراس ؟ » .

ـ « ذات ليلة سمع أحد الحراس رنيناً ، ففتح باب زنزانتي وصاح : خسران ! ثم أغلقه ثانية ، وكان بعض حراسي أوغاداً . . أوغاداً بكل ما في الكلمة من معنى . . ولكن ، لم يكونوا في ذلك السجن . . هل نسمع ضوضاء الشوك ؟ كانت الأصوات عالية الى هذا الحد ، وربما وصل الأمر بنا الى أن نسمع أصواتاً لا وجود لها . . . وهذا شيء يثير الأعصاب . وكم مرة أحسست أنني غارق بين أصوات النقود كما يغرق المرء في الجليد ، ولم يكن الرفاق الآخرون قد اعتقلوا مثلي في اليوم الأول ، فقد كانوا من المحاربين . . وكانت تلك اللعبة مؤثرة بلهاء وباختصار كانوا يلعبون القرعة مع الموت . . . أخبرني إذن يا عزيزي : أين البطولة في مثل هذا العمل ؟ » .

وتناول قطعة النقود التي تحت راحته ، ثم قذف بها ، وقال مدهوشاً :

ـ « الوجه ! » .

وأعادها الى جيبه . وكان ارنانديث قد شاهد مورينو في الماضي وهو

يقاتل ضد قوات عبد الكريم ، فوجده شجاعاً ، وواصل المدفع اطلاق نيرانه على القصر على حين أخذ صرير العربات الحاد يقاطع ازيز النيران بين آونة وأخرى .

- « اسمع يا صديقي ، لا وجود لأبطال دون نظارة . . . وما أن يكون الانسان وحده حقاً حتى يفهم معنى ذلك . يقول الناس ان للأعمى عالمه الخاص ، تستطيع أن تصدقني فيما أقول ، وفي اللحظة التي تدخل فيها هذا العالم تدرك أن تفكيرك عن نفسك ينتمي الى العالم الآخر ، العالم الذي تركته . . . فردوس الحمقى ، وربما استطعت في ذلك العالم أن تفكر في نفسك ، ولكنك ستشعر ببساطة أنك مجنون ، هل تتذكر اعتراف باكونين ؟ هذا هو تفسير ما أقول . إن هذين العالمين لا إتصال بينهما : هناك العالم الذي يموت فيه الناس معاً وهم ينشدون ، أو وهم يصرون على أسنانهم ، أو على أي شكل يريدون ، ولكن وراء هذا العالم . . . هناك يا عزيزي ذلك الدير الذي . . . »

وتناول قطعة النقود من جيبه ، ثم جعلها ترن على المائدة ، وانتابته رعدة ، ثم التقطها مرة أخرى دون أن ينظر على أي الوجهين سقطت ، وإنما ظلت نظرته مثبتة على الشارع .

- « انظر اليهم . . . كلا . . . ولكن انظر اليهم ! البعض وراء البعض الآخر . إني أعانقك ، وأعجب بك ، إنني رجل تاريخي ، وأنا أفكر ! ولكن ضعهم جميعاً في زنزانة ، وهناك لن تجد غير قطع من النقود يقذفون بها الى الهواء . . . » .

- ستوجد على الأرض بلاد تخلو من الفاشيين قبل أن أموت ، وعندما تمكنت من الفرار كنت أتلهف على العودة ، وقدمت نفسي للرجوع الى الخدمة العسكرية . . . ولكنني أرى الآن في وضوح أن كل انسان تهدده حقيقته ، تذكر ذلك . . . وحقيقته ليست هي الموت ، أو حتى عذابه ، انها

قطعة من النقود يا عزيزي . . . قطعة من النقود . . . » .

ـ « أريد أن اعرف : لماذا كانت لحظة الموت ـ بالنسبة للمحد مثلك ـ اكثر دلالة ـ أو أهم إن شئت ـ في حكمه على الحياة من أية لحظة أخرى؟ » .

ـ « يستطيع الانسان أن يتحمل كل شيء : يستطيع أن ينام وهو يعرف أنه يفقد بهذا النوم ساعات من الحياة التي سيفقدها بالاعدام غداً ، ويستطيع الانسان أن يمزق صور أولئك الذين يحبهم ، لأنه شبع من عذاب النظر اليها ، ويستطيع أن يلاحظ في لذة كيف يثب كالكلب ليختلس نظرة لا جدوى منها من ثقب في الجدار . . . اقول أنه يستطيع أن يحتمل كل ذلك . أما ما لا يستطيع أن يحتمله فهو أن يكون متيقناً من أنه بعد أن يصفع ويركل بالأقدام سيقتل ، وأنه بعد ذلك لن يوجد شيء ! » .

وأشاع الأنفعال توتراً في وجهه الوسيم الذي تعاقبت عليه ألوان ذلك الأتون الخفي من الأحمر القاني الى البنفسجي . . فكان جماله رائعاً .

ـ « ولكن ، حاول يا عزيزي ـ أن تتخيل ذلك بنفسك ! لقد قضيت في بالما أسبوعين في زنزانة . . أربعة عشر يوماً . وكان ثمة فأر يأتي كل يوم في ساعة بعينها ، فكنت أحدد الوقت بمجيئه ، ولما كان الانسان ـ كما يعرف ذلك الناس جميعاً ـ هو الحيوان الذي يفرز الحب فقد أحببت ذلك الفأر ، وفي اليوم الرابع عشر سمحوا لي بالخروج الى فناء السجن ، فكنت أستطيع التحدث مع المساجين الآخرين ، وما كدت أعود في ذلك المساء نفسه الى زنزانتي حتى بدأت أشعر بالضيق من الفأر ! » .

ـ « لا يخرج المرء من محنة كالمحنة التي عانيتها دون أن يحتفظ بشيء ، وماعليك الآن أولاً إلا أن تأكل وتشرب وتنام ، وأن تفكر أقل تفكير ممكن . . . »

ـ « ما أيسر القول ، وأصعب الفعل ! فالانسان لم يتعود الموت ، ضع ذلك في ذهنك جيداً . . . لم يتعود قط الموت ، ومن ثم عندما يحدث له ذلك فإنه يتذكره » .

ـ « وحتى حين لا يكون الانسان محكوماً عليه بالاعدام فإنه يتعلم هنا

أشياء ، لعله لم يخلق لتعلمها . . . ولقد تعلمت ـ أنا ـ شيئاً بسيطاً : يتوقع الانسان كل شيء من الحرية ، وعلى الفور ، ولكن لا بد من أن يموت الكثيرون لكي يتقدم الإنسان سنتيمتراً واحداً . . هذا الشارع لا بد أنه كان ذات ليلة مثلما هو الآن في عهد شارل الخامس . . . ومع ذلك كم تغير العالم منذ عهد شارل الخامس ! وهذا لأن الناس قد أرادوا للعالم أن يتغير على الرغم من قطع النقود ، ـ وربما لم يكونوا ـ يجهلون أن هذه القطع النقدية في مكان ما . . . ما من شيء يمكن أن يكون أشد تثبيطاً من القتال هنا . . . وهذا لا يمنع أن الشيء الوحيد الذي يعادل ذكرياتك وزناً هو المعونة التي يمكن أن تقدمها الى أولئك الأشخاص الذين يمرون أمامنا الآن دون أن يقولوا شيئاً » .

ـ « كنت أحدث نفسي بمثل هذه الأشياء في زنزانتي عند مطلع النهار ، فإذا هبط المساء عادت إليَّ الحقيقة يا صديقي : المساء هو أسوأ ما في الأمر ، عندما يكون الانسان قد جال كثيراً في حجرة طولها ثلاثة أمتار ، وبدأت الجدران تتقارب ، هذا شيء يجعل الانسان ذكيا ! إن مقابر الثورة لا تختلف عن غيرها من المقابر . . . » .

ـ « تفسد الحبوب جميعاً في بداية الأمر ، بيد أن بعضها ينبت . . . والعالم عندما يخلو من الأمل لا يصلح للتنفس . . . أو ربما أصبح عالماً فيزيائياً صرفاً ، ولهذا يتكيف معه كثير من الضباط تكيفاً حسناً ، لقد كانت الحياة فيزيائية دائماً بالنسبة للجميع ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لنا » .

ـ « ولقد كان ينبغي أن تطلب أسبوعين لعلاج نفسك . . . وإذا نظرت بعدها في هدوء الى رجال الميليشيا دون أن ترى فيهم سوى جانب الملهاة ، ودون أن يرتبط في نفسك شيء بالأمل الذي يعتمل في نفوسهم ، فارحل عندئذٍ الى فرنسا ، فماذا تريد أن تصنع هنا . . .؟ » .

ووراء الجماعات الصامتة كانت تسير العربات مملوءة بالسلال

والحقائب ، وبين حين وآخر كانت تتوهج زجاجة نبيذ أرجوانية تنعكس عليها الأضواء ، وعلى الحمير كانت تركب فلاحات لا يتبين المرء وجوههن ، وإن كان يستطيع أن يتبين من نظراتهن الثابتة ذلك الحزن القديم الذي لا بد قد ارتسم على الوجوه في اثناء الخروج من مصر . وانساب هذا الموكب الهارب متلفعاً بأغطيته بين رائحة النيران ، تصاحبه طلقات المدفع العميقة التي تعاقبت في ايقاع رتيب .

* * *

ومن النجوم الهادئة انحدرت التلال جميعاً صوب منخفض لن تلبث أن تتقدم منه دبابات العدو ، وعلى مسافات متباعدة انتظرت جماعات الناسفين بالديناميت في مزرعة أو في غابة صغيرة أو خلف صخرة .

وكانت صفوف الجمهوريين في طليطلة وراء هؤلاء على بعد كيلومترين .

وتحت أشجار الزيتون رقد عشرة من الناسفين بالديناميت ، وكان أحدهم منبطحاً على بطنه وقد وضع ذقنه بين يديه ، لا تتحول نظرته عن قمة الجبل التي وقف عندها المراقب الذي سيعطي الاشارة ، أما الآخرون فكان في أفواههم سجائر دون أن يشعلوها .

وكانت منطقة سييرا صامدة ، وكذلك جبهة أرغون ، وجبهة قرطبة ، وملقة والأشتوريش ، غير أن سيارات فرانكو كانت تتقدم بأقصى سرعتها على طول نهر تاجة ، أما الحالة في طليطلة فكانت سيئة وحين تسوء الأحوال يتحدث رجال الديناميت دائماً عن سنة ١٩٣٤ في مناطق الأشتوريش ، وكان بيب يصف « أوفييدو » لجنود التعزيزات الذين وصلوا من قطالونيا ويقول : إن تلك الهزيمة أعقبها تكوين الجبهة الشعبية .

« كانوا قد استولوا على الترسانة البحرية ، وحينئذٍ اعتقدوا انهم قد نجوا وأنهم أصبحوا في مأمن ، بيد أننا لم نستطع أن نصنع شيئاً بما وجدناه فيها . .

وكان الرصاص بلا بارود والقنابل بلا فتيـل ، أما القنـابل فقـد استخدمنـاها للمدافع ، فما كنا نستطيع أن نفعـل بها شيئـاً آخر . . . وعـلى أية حـال فإن الضوضاء تمنحنا الثقة ، وهذا شيء غير قليل النفع » .

وانقلب بيب عـلى ظهره ، وكـان ضوء القمـر يتلألأ فـوق العمال كـأنـه الغبار الدقيق العالق بأوراق الشجر .

ـ « أجل . . . هذا يمنح الثقة . . وكانت الثقة تدفعنا . . بل لقد دفعتنـا حتى زجت بنا في السجن ! » .

وأضاء القمر رأسه التي تشبه رأس جواد لطيف .

ـ « هل تعتقد انهم سيدخلون طليطلة ؟ » .

ـ « وأختك ؟ » .

ـ « لا تكن على هذه الثقة يا بيب ! أنا أعتقد أن الأمور في طليطلة على أسوأ حال . . أما مدريد فهي التي اعتمد عليها » .

ـ « أو لم تكن الأحوال عندنا على أسوأ ما تكون ؟ » .

فقال صوت آخر .

ـ « لو لم يكن لدينا ديناميت لتمت تصفيتنا في أيام ثـلاثة ، وقـد حاولنـا تدبير أمورنا في الترسانة البحريـة مع الـزملاء الـذين يعرفـون كل شيء عن الذخيرة ، ولكننا كنا مخطئين ! وأخيراً ذهب الأولاد الى الجبهة ومـع كل منهم خمس رصاصات . . . تصور خمس رصاصات ! أخبرني يـا بيب ، هل تـذكر النسـوة اللواتي يحملن سلال السـلاطة والـزكـائب ! لقـد رأيت نسـوة يجمعن القمامة ، ولكنني لم أشاهد في حياتي قط نساء يجمعن الـرصاص . . . كـانت هـذه أول مرة ! وكن شديـدات الحرص عـلى ما يجمعن من رصـاص . . وقد وجدنا أننا لا نطلق بالسرعة الكافية ! فوأسفاه ! » .

ولم يلتفت أحد برأسه ، فقد كان الصوت صوت جونثالث ، ويبدو أن ضخام الأجسام من الرجال يتميزون بصوت مرح لا يخطئه المرء . وكان الجميع ينصتون في الوقت الذي أرهفوا فيه حواسهم في انتظار جلبة الدبابات البعيدة .

واستطرد بيب قائلاً : « واستطعنا بالديناميت أن نحدث ضجة وأن نجد عملاً يشغلنا ، هل تذكر رماة أحجار مركادر ؟ » .

وكان قد استدار صوب القطالونيين الذين يعرفون من يكون مركادر ؟

ـ « كان فتى أريباً اخترع أنواعاً من الآلات تقذف شحناً ضخمة من الديناميت . . . باختصار آلات لرمي القنابل . . وكانت تعمل بالحبال كآلات الحروب القديمة ، وتتطلب ثلاثة من الرجال ، وحين وصلت الى المغاربة في بداية الأمر شحنات حقيقية من مسافة مائتي متر استولى عليهم الذهول والانبهار ، واخترعنا أيضاً أنواعاً من الدروع ، ولكنها لم تكن جيدة ، فقد كانت هدفاً للعدو » .

ومن مسافة بعيدة انطلق مدفع رشاش ، ثم توقف ، ثم انطلق من جديد ، وتلاشى كأنه صوت ضائع لماكينه خياطة في فضاء الليل الواسع . . . أما صوت الدبابات فلم يظهر له أثر .

وقال صوت تشوبه المرارة : « أما هم ، فقد صنعوا طائرات » .

وفي ذلك الوادي أخذوا يتبادلون الحكايات الملحمية والقصص الساخرة منتظرين ظهور الدبابات ، ولم يكن من شك أن رجال الديناميت آخر طائفة يعتمد عليها الانسان لمواجهة الآلة ، وكان وجود القطالونيين هنا وجوداً عرضياً ، أما الأشتوريون فكانوا يتبعون تقليداً من تقاليد ماضيهم ، فهم استمرار لتراث ، وهم أقدم جماعة ثورية في أسبانيا ، وها هم أولاء أخيراً يخضعون للتنظيم ، وربما كانوا الوحيدين الذين تزداد عندهم أسطورة الثورة الذهبية عظمة مع تجربة الحرب بدلاً من أن تتحلل بها .

ـ « والآن يملك الفرسان المغاربة بنادق سريعة الطلقات . . . » .

ـ « سحقاً لهم ! » .

ـ « وأشبيلية غاصة بالألمان ، وكلهم من الخبراء » .

ـ « وبمديري السجون أيضاً » .

« ويقولون : إن فرقتين ايطاليتين شرعتا في المسير . . . » .

« لأنهم لم يألفوا ذلك . . . » .

ها هم أولاء يعودون الى مكافحة الخطر بذكريات الماضي ! واستطرد بيب قائلاً :

« وكانت النهاية هي أشد الأشياء جنوناًعندنا ، لم يكن الأولاد سيئين في لجنة الفلاحين المركزية ، ولكنهم كانوا بلا جدوى ، اذ تفوق عليهم العدو من حيث العدد . وأقبل المغاربة ، ومكثوا ثلاث ساعات صامدين حتى أستطاعوا أن يحكموا علينا الحصار ، وكان الأولاد ما زالوا صامدين ولدينا الديناميت ، ولكن دون أن نجد شيئاً نضعه فيه ، فصنعنا أنواعاً من القنابل اليدوية بأوراق الصحف والمسامير ، أما فيما يختص بالأسلحة فالأفضل ألا أتحدث عنها : فقد كانت فاسدة تماماً ، وكان أحد الزملاء قد أرسل الى الترسانة في اليوم السابق ، وعاد يحمل قصاصة من جريدة كتب عليها المسؤول بالقلم الرصاص : أنه لا داعي لإرسال من يبحث عن الذخيرة ، اذ لم يبق منها خرطوشة واحدة . وقد أقتسم الرفاق آخرها بعد أن ملأوها بأنفسهم . وكان نصيب كل منهم خمساً ، فرحلوا الى الجبهة ببنادقهم ، هكذا كانت الحال ، وتستطيع أن تتصورها تماماً ، أما أعضاء لجنة الفلاحين المركزية فكان شغلهم الشاغل هو التصايح حول مائدة ما داموا لا يجدون شيئاً آخر يشغلهم ، وكان هناك كثير من الرفاق حولهم ، ولكنهم لم يقولوا

شيئاً ، بل لزموا الصمت ، وأخذت مدافع الأعداء الرشاشة في الاقتراب ، كما تقترب في هذه اللحظة . . ثم أعقب ذلك نوع من الهرج والمرج . . . كيف أصفه ؟ ضجة مكتومة . . . ضوضاء بلا ضوضاء ، إذ بدأت الأكواب والسكاكين التي على المائدة ، والصورة المعلقة على الحائط . . . بدأت كلها تنتفض . . ما هذا ؟ أدركنا فيما بعد ان ما حدث كان بسبب الأجراس : ذلك أن قطعان الماشية تدفقت من الريف بعد أن أفزعتها طلقات الرصاص في كل مكان . . وها هي ذي تنتشر في الشارع . . . وما لبث أحد أعضاء اللجنة من الأذكياء الحكماء أن صاح بهم : أن أقيموا متراساً ، بأن تخلعوا الأجراس من رقاب الأبقار (ولم تكن أجراساً صغيرة ، وإنما كانت أجراساً ثقيلة من النوع الذي يوضع في رقاب قطعان الجبل) ، وفعلاً ، أراحوا تلك الحيوانات من أجراسها ، وصنعوا منها قنابل يدوية ، وبهذه الطريقة صمدوا ثلاث ساعات ، واستطاعوا إجلاء كل ما ينبغي إجلاؤه وإرساله بعيداً . . .

« أما فيما يتعلق بالدبابات فإننا نستطيع الآن بما لدينا أن نقف في وجهها مدافعين عن أنفسنا » .

وتذكر « بيب » أيضاً القطار المصفح . . لقد حاربوا دائماً بأيديهم ولكنهم يستطيعون منذ أن تم تنظيمهم إيقاف الدبابات حتى دون أن يزودوا بالبنادق المضادة للدبابات .

ونبح كلب من بعيد .

ـ « وماذا حدث للحمار ؟ الحمار يا جونثالث ! » .

ـ « من الغريب ان الانسان حين يتذكر الحرب لا يتذكر منها إلا جوانبها المرحة . . لسوء الحظ ! » .

وكان معظم رجال الديناميت صامتين ، أو لعلهم كانوا لا يحسنون الرواية ، أما بيب وجونثالث ، وبعض الرجال الآخرين ـ فكانوا من محترفي القصة والتهريج ، ولم يكن من شك ان الدبابات لا تستطيع أن تهاجم في اثناء

الليل ، ذلك أن راكبيها لا يعرفون المنطقة جيداً ، ويخشون الحفر . . . ولن يلبث النهار أن ينشر ضياءه . . . لا مانع إذن من سرد قصة الحمار !

ـ « كانت فكرة إرسال الأتان فكرة مدهشة . وضعنا عليه حمولة من الديناميت ، وأشعلنا الفتيل ، ودفعناه إلى الأمام . . . هوب ! صوب المغاربة ، وأخذ الحمار يخب ، رافعاً أذنيه في الهواء دون أن يعرف شيئاً مما ينتظره . . وشرع الآخرون في إطلاق النار عليه . وما أن انهالت عليه الرصاصات حتى جعل يحرك أذنيه كأنه يهش عنه ذباباً ، ثم توقف ، وأخذ يسأل نفسه أسئلة ، وعندما لم يجد حلاً عاد أدراجه . . آه ! ولكن كلا ! وشرعنا نحن أيضاً في اطلاق النار عليه . . . ولكنه كان يعرفنا . . . ويبدو أنه بعد أن تدبر أمره بما فيه من الكفاية ، قرر العودة الينا ما دام الرصاص ينهال عليه من الطرفين . . . » .

وحدث انفجار كانما انشقت الأرض من أعماقها في مكان ما وأمطرت السماء سيلاً من الأوراق والغصون الجافة .

وعلى ضوء اللهيب الأحمر الهائل الذي تصاعد من طليطلة ـ كان المرء يستطيع أن يرى في الوجوه البنفسجية الفاغرة الأفواه الذاهلة النظرة ما يمكن أن تكون عليه الوجوه بعد الموت .

وسقطت السجائر من الأفواه .

وكانوا يستطيعون تمييز الانفجارات بعضها من البعض الآخر ، فلم يكن هذا انفجار لغم ، أو ديناميت أو مخزن مفرقعات .

ـ « هل هو طوربيد جوي ؟ » .

لم يكن أحد منهم قد سمع أو شاهد شيئاً من هذا القبيل ، فأرهفوا أسماعهم ، وتخيلوا أنهم يسمعون أزيز طائرة صادراً من السماء ، ولكن ، ربما كان هذا الصوت ، صوت سيارات المغاربة .

وسأل جونثالث : « هل هناك مصنع للغاز في طليطلة ؟ » .

ما من أحد يعرف شيئاً عن هذا الموضوع ، بيد ان الجميع كانوا يفكرون في القصر .

الواضح ان شيئاً سيئاً قد حاق هناك بالفاشيين ، وظلت السماء حمراء حيث انطفأ عود اللهب المختلج : هل هو الفجر أو الحريق ؟ .

كلا ، ان الفجر يشرق من الجانب الآخر . . . وها هو ذا يبزغ الآن ، ويبدو أن ندى الأوراق يتساقط من أشجار الزيتون .

لا مجال للذكريات ، ولم يبق الآن أمام رجال الديناميت الذين قبعوا في مراكزهم سوى الانتظار . . . انتظار العدو ، وانتظار النهار . .

واستعادوا سجائرهم التي لم يشعلوها قط ، وخيم سكون الريف الأسباني ، ذلك السكون الذي ساد عند وصول طلائع المغاربة الأولى ، وساد في أيام السلم وأيام الشقاء على السواء ، وطفق عمود الفجر الأبيض يمتد على صفحة الأفق ، على حين أخذت الظلمة تنحسر شيئاً فشيئاً عن رؤوس الرجال الراقدين ، ولن يلبث النهار أن يعلن نداءه العميق ، أما الآن فلا شيء سوى حزن الفجر الدفين ، وشحوب لونه ، وفي الحقول ارتفعت صيحات الديكة الموحشة .

صاح بيب : « ها هو ذا ريكاردو يعود ! » .

وعاد المراقب راكضاً ، ومن ذلك المكان الموحش نفسه ، تقدمت دبابات العدو متجاوزة الجبل ، منتصبة كأنها لا تهدد الأرض ، وإنما تهدد السماء الشاحبة .

وأشعل جونثالث سيجارته ، ثم حذا بيب حذوه ، وتبعه الآخرون وبدأ الرجال يزحفون من كل مكان لملاقاة الدبابات .

لعل راكبي الدبابات يعلمون انهم هناك ، وإن كانوا لا يرونهم ، إذ كان

رجال الديناميت يختفون راقدين أو منبطحين في أعماق الوادي ، على حين كانت الدبابات بارزة تحت قبة السماء .

وعلى يمين جونثالث رقد شاب من قطالونية ، لم يقل شيئاً تقريباً منذ أن رقد في ذلك المكان ، وعلى يساره كان بيب . وكان جونثالث لا يكاد يتبينهما ، ولكنه أحس في الفجر بخطواتهما الخفيفة . . خطواتهما التي تنم عن الرجولة . وكان أصدقاؤه يبدون له في بداية كل معركة كأنهم حيوانات رخوية انتزعت دروعها ، فأصبحت طرية مرنة ، لا تستطيع عن نفسها دفاعاً ، وكان يشعر بأنه أضخم الجميع ، وبأنهم ضعفاء ، أما الدبابات التي لم تكن بلا دروع فكانت تتقدم في ضجيج ، انقلب الى ضوضاء هائلة ، على حين أخذ الصف المرتجف الذي يمثل رجال الديناميت يزحف صوبهم في صوت غير مألوف .

كانت الدبابات تسير في صفين ، ولكنها كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى الى درجة لم يلحظها رجال الديناميت ، فتولت كل مجموعة دبابة واحدة ، كأنهم مربوطون في خيط واحد ، ولم يكن بعض القطالونيين قد أخفوا سجائرهم جيداً في أيديهم ، فهمس جونثالث لنفسه قائلاً : « يا لهم من حمقى ! » وكان يسير خلفهم فرأى أنهم مجرد نقاط غير مرئية ، ولعلهم من الأمام أشد من ذلك اختفاء ، وتقدم معهم ، يدفعه نفس ذلك المد ، وتلك النشوة الأخيرة الصلبة ، وفي فؤاده كان يتغنى بنشيد الأشتوريش العميق دون أن تفارق عيناه الدبابات المقبلة عليه ، وما كان يستطيع أن يعرف إلا في هذه اللحظة معنى أن يكون الانسان رجلاً .

لن يلبث أن يظهر في العراء ، النهار يرتفع ، وبيب يتغطى على حين تمدد جونثالث على الأرض ، الدبابة على بعد أربعمائة متر ، غير ان الحشائش كانت تخفيها عن عينيه ، نوع من الحشائش له سنبلة كان يلقيها وهو طفل في أكمام رفاقه ، وضرب من الشوفان الشيطاني ، وزهرة اللؤلؤ التي تتوج ساقاً طويلة ، أخذت النمال تجول عليها ، كما شاهد عنكبوتاً

صغيراً ، مخلوقات تدب على الأرض في تلك الغابة من الأعشاب بعيداً عن الحياة والحرب . . . ووراء نملتين منهمكتين إنهماكاً شديداً وصلت بأقصى سرعة دبابة مزمجرة يهتز كل ما فيها ، ولم يكن جونثالث يرقد على الأرض المستوية ، فلو أن الديناميت ألقي بعناية لتعثر فيه ، ولهذا تقلب بجسمه على الجانب الآخر .

لا بد أن تمر الدبابة على اليمين ، وكان يحمي جونثالث من ابراج الدبابة كثيب صغير ، وذلك الى حين وصول الدبابة الى مستوى ارتفاعه ، والغلبة لمن يسدد ضربته قبل الآخر . ومهما يكن من أمر فسوف تكون الشمس المشرقة أمام عينيه ، ويتقن جونثالث أن لا شيء يعوق حركة ذراعه اليمنى .

أين ذهب ذلك القطالوني بحق الجحيم ؟ ان الدبابة التي أقبلت على يمينه تطلق نيرانها . وكانت الدبابة الموكل أمرها الى جونثالث تقترب بأقصى سرعتها في اتجاه جونثالث ، ثم ألقى بالديناميت بين ضجة المحركات والمدافع الرشاشة ، ثم ارتمى على الأرض بنفس الحركة ، وكأنه يغوص في الانفجار .

ورفع رأسه وسط ضجة الحصباء المتساقطة ، وتهاوت الدبابة على رأس برجها ، بعد أن رفعت بطنها في الهواء ، ولم تكن تنفتح إلا من قمة البرج ، وطلع النهارعلى احدى الدبابات التي استمرت في الدوران .

كان جونثالث راقداً على الأرض لا يحميه شيء ، ومدفع البرج المقلوب قد أخلد الى الصمت ، وأرهف جونثالث سمعه ممسكاً بقنبلة في يده .

وفي أشعة الشمس المائلة ، أخذ « جنزير » الدبابة يبطىء رويداً رويداً ، كأنه عجلة الميسر .

وكان جونثالث يمسك سيجارته بالقرب من القنبلة الأخيرة ، وهمد مدفع الدبابة الرشاش هموداً تاماً ، ويبدو أن راكبي الدبابة قد قتلا أو جرحا وإلا فإنهما لا يستطيعان الخروج منها بعد أن انقلبت رأساً على عقب ، وأصبحت تستند بثقلها كله على البرج . ولو انقلب خزان البنزين لكان مصيرهما

الاحتراق قبل مضي خمس دقائق ، وهذه هي الحرب الأهلية .

ولم يحدث شيء . . وتوقف جنزير الدبابة عن الدوران .

وتلفت جونثالث . إن مدفعية الجمهوريين لا تطلق نيرانها . . ولكن هل هناك مدفعية للجمهوريين ؟ ونهض فوق ركبتيه ، وفي الوادي الذي حفرت فيه الأخاديد جنازير الدبابات ، كما تشق السفن عباب الماء تناثرت الدبابات : ثلاث أو أربع أو خمس . . الدبابات التي خرجت من المعركة ، وكأنها بعد أن تحطمت وانقلبت قد صارت أشبه بالعربات التي كانت تستخدمها قبائل ما قبل التاريخ . (خيل اليه حين شاهد أول دبابة مقلوبة انه بازاء طراز جديد من الدبابات !) ، وأشتعلت النار في دبابتين . . . وفيما وراء ذلك بمسافة بعيدة وفي ضوء النهار الذي غمر الآن كل شيء ـ كانت الدبابات الأخيرة التي أخذت تختفي شيئاً فشيئاً وراء مرتفع من الأرض تتوغل في صفوف الجمهوريين ، وهي الصفوف الأخيرة قبل الوصول الى طليطلة .

وهكذا مرت الدبابات .

وسأل جونثالث : « أين القطالوني ؟ « فأجابه بيب » :

ـ « قتل . » .

وعلى الرغم من ارتفاع النهار لم يكن يستطيع المرء أن يتبين القتلى وسط الحشائش ، وبدأ الرصاص حول الرجلين ، وأخرج بيب صوتاً ليحاكي به أزيزالرصاص الأحمق ، ثم اندس تحت الغطاء مرة أخرى .

وفوق قمة التل تقدمت البقع البيضاء التي تمثل عمائم المغاربة .

* * *

كان الدخان الذي عقب الانفجار يغلف القصر المنخوب ، وقد انبعثت منه مع أنداء الفجر رائحة رطبة ثقيلة امتزجت بها رائحة الجثث ،وكانت

الريح قد جمعتها على سطح الأرض ، فغطت الجدران التي ما زالت قائمة كأنها بحر تناثرت في قاعه الصخور .

وقوست هبّة قوية من الريح سطحه الراكد ، فبرزت منه أحجار ذات أسنان مدببة . وعلى اليمين في مستوى أدنى من ذلك انتشرت لا على هيئة كتل مندفعة ، بل كالماء حين يسيل متسرباً في الشقوق والفجوات . وحدث مانويل نفسه قائلاً : إن القصر يشح كأنه خزان للمياه ! .

وغمر الدخان مراكز الجمهوريين شبراً شبراً ، بعد أن احتل الشوارع المملوءة بالحطام ، كأنه هو نفسه قد شن الحرب ، وكان المهاجمون الآن متباعدين بعضهم عن البعض الآخر ، فقد نسف اللغم المراكز المتقدمة للفاشيين ، ولكنه لم ينسف السراديب .

وسكنت كل ضروب الضوضاء لحظة ، فسمع مانويل شخصاً وراءه يدق على الأرض بقدمه ، كان هينريش وقد سقط شعاع من الفجر على عنقه الغليظ المتغضن كأنه جبين .

وسأله مانويل وهو ما زال ممسكاً بعود الشمر في يده : « ماذا عن مدريد ؟ » .

فأجابه الجنرال دون أن ينظر اليه : « الجواب بالنفي » . وكانت نظرته مركزة على أشد الصخور ارتفاعاً ، وهي تظهر رويداً رويداً من سحب الدخان ، كأنما ينحسر عنها المد .

وسأله مانويل : « لماذا ؟ » .

ـ « الجواب بالنفي . . . كان رجالنا في مواجهة المبنى . . . أليس كذلك ؟ » .

ـ « ولكنهم أخلوا المكان قبل الأنفجار » .

ـ « ألم تكن هناك طريقة للوصول الى الجزء المنسوف سوى القصر

نفسه ؟ . . . » .

ومن نظارات الميدان التي وضعها أمام وجهه العجوز الأملس الذي يشبه وجه فلاحة بولندية ـ أخذ ينظر الى القمة الممزقة التي انجاب عنها الدخان ، وناول مانويل النظارات متسائلاً :

ـ « ألدينا مدافع رشاشة على السفوح ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « لم يكن الغرض منها ايقافهم ، بل إعاقتهم فحسب ! » .

وعبرت نقط على صفحة الصخرة ملتصقة بها كالذباب ، وفي كل مرة تمر نقطة على جزء بارز منها ، لا تلبث أن تختفي ، لتظهر من جديد على جزء أدنى قليلاً . ومن بعيد كان الدخان يجتاز للآن المراكز الأساسية القديمة التي أخلاها حرس الهجوم قبل حدوث الانفجار على حين أخذ الفاشيون يتقدمون وراء الدخان .

وكانت المراكز التي تم الاستيلاء عيها خلال عشرة أيام ، قد فقدت مرة أخرى .

قال هينريش : « لا بد من وضع المدينة في حالة الدفاع » .

ولم يكن تليفون الخيفاتورا يحير جواباً ، أما في سانتا ـ كروز فقد أبلغوا أن المغاربة على بعد عشرة كيلومترات .

وذهبوا الى الحانوت الذي اتخذه ارنانديث مركزاً له .

وفي شارع كان الزحام فيه شبيهاً بالزحام الذي يلمسه المرء في المحطات في اثناء اندفاع الطلبة اليها في الأيام الأولى من العطلة الصيفية ، قدم أحد رجال الميليشيا بندقيته ـ وهي من طراز موزر ـ الى مانويل قائلاً : « أتريد بندقية ، أيها القائد ؟ » .

فأجابه هينريش بالألمانية : « ستحتاج اليها قبل مضي وقت طويل . » .

ـ « أريد أن أتخلص منها ، فربما ، لو أنك أخذتها . . . »

وأضفى حاجبا هينريش الأبيضان تعبيراً بالدهشة على عينيه الزرقاوين . وتحولت نظرته التي ثبتت في وجه حليق حتى الرأس بحاجبيه غير المرئيين ، فاكتسبت ضراوة تامة ، بيد أن عشرين شخصاً حالوا بينه وبين رجل الميليشيا .

وشرعت منازل مغلقة النوافذ في اطلاق النار على رجال الميليشيا من البنادق المتروكة تحت الأبواب .

وأحس مانويل بالضيق الذي كان يشعر به عادة في الأماكن المغلقة . . . أحس به لأول مرة في الشارع : فلم يعد يستطيع أن يضع قدمه قبل أن يتحسس الأرض بإبهام قدمه . ما من حشد رآه في طليطلة ، أو في المواكب الدينية ، أو في أيام مدريد التاريخية ـ يمكن أن يداني الحشد الذي يراه اليوم ، كان رجال الميليشيا يحملون القبعات المكسيكية على أطراف أذرعهم كأنها أطواق السيرك . عشرون ألفاً من الرجال محشورون في هذا الحشد المجنون ، وعند عتبة كل باب بنادق متروكة .

كان حانوت ارنانديث مفتوحاً على مصراعيه ، وكان ثمة رجل يضع على رأسه قبعة حمراء وسوداء يسأل قائلاً :

ـ « من المسؤول هنا ؟ » .

ـ « أنا ، القائد أرنانديث » .

ـ « إذن أخبرني أيها القائد : لقد كنا في المنزل رقم ٣٥ بشارع التجارة ، وأغاروا علينا ، فانتقلنا منه الى رقم ٤٥ ، فأغاروا علينا أيضاً ، فهل أنت الذي تخطرهم حين نغير مكاننا لكي يهبطوا علينا هبوطاً أفضل أولئك القواد الذين في الجانب الآخر ؟ »

فنظر أرنانديث الى الرجل ممتعضاً ، ثم قال :

ـ استمر » .

ـ « ذلك لأن الكيل قد طفح بنا ، فأين طائراتنا ؟ » .

ـ « وأين تريدها أن تكون ؟ في الجو طبعاً » .

ولم تكن الحكومة تملك سوى عشر طائرات صالحة للطيران في مواجهة الطائرات الايطالية والألمانية ! . . .

ـ « واذا لم تظهر طائراتنا في خلال نصف ساعة فسوف نرمي بنادقنا ! فلسنا هنا لكي يتخذ منا البورجوازيون أو الشيوعيون طعاماً لمدافعهم ، سنتخلى عنها . هل فهمت ؟ » .

وكان يحملق في نجمة مانويل الحمراء الكبيرة من وراء الكابتن ، وأتخذت عينا هينريش مرة أخرى نظرتها الثابتة .

وأمسكه أرنانديث بيديه من قلابتي سترته ، وقال له دون أن يرفع صوته : « تخل عنها فوراً ! » ودفعه الى الخارج دون أن يتمكن الآخر من أن يضيف حرفاً ، ودار أرنانديث على عقبيه ، وحيا هينريش ، وصافح مانويل .

ـ « هذا الرجل إما أن يكون معتوهاً . . . أو وغداً . . . أو الاثنين معاً إن شئت . . . إن فكرة الخيانة تسيطر عليهم . . . وربما لم يكن ذلك بلا سبب . . . وما دامت الحال على هذا المنوال فلا حيلة للإنسان في الأمر . . » .

ـ « هناك دائماً ما يستطيع الانسان أن يفعله » .

وترجم مانويل هذه العبارة ، وكانت يداه عصبيتين ، بعد أن أسقط عود الشمر بين الجموع ، وهز ارنانديث كتفيه :

ـ « أوامرك يا سيدي » .

ـ « اذا ترك هذا الرجل مكانه فلا بد من إعدامه » .

ـ « ومن الذي يطلق عليه الرصاص ؟ » .

ـ « انت اذا اقتضت الحاجة . . . وهل هناك من نستطيع الاعتماد عليه ؟ » .

ـ « لا أحد ، وما من شيء نستطيع أن نفعله في هذا المكان . ومع ذلك . . . وأخيراً الأفضل ألا تدع القوات الصالحة تدخل المدينة ، فسوف تفسد في خلال ساعة ! إنها وكر للهاربين من الجندية . . . فلنقاتل في الخارج اذا استطعنا مع قوات أخرى . . . فما القوات التي تستطيع استخدامها ؟ » .

فقال هينريش : « لدينا آلاف من الرجال ومن البنادق . . . وينبغي أن نفيد من هذا الموقف » .

ـ « ليس هنا جندي نظامي واحد ، . . . وإنما لدينا ثلاثمائة من رجال الميليشيا يستطيعون القتال حتى الموت . . . وحفنة من الأشتوريين ، اذا أردت . . أما الآخرون ، فإنهم هاربون يريدون أن يبرروا فرارهم بانتقاد كل شيء ، وهم يرمون بنادقهم تحت الأبواب ، وقد بدأ الفاشيون في استخدامها ضدنا ، وحتى النساء لم يعدن يشعرن بالخوف من توجيه الشتائم الينا من خلال النوافذ ! » .

ـ « حاولوا اكتساب خمس ساعات من الوقت أو ست ساعات » .

ـ « من الممكن الدفاع عن بوابة فيسارجا ، ولكنهم لن يدافعوا عنها » .

فقال هينريش : « من واجبنا أن ندافع نحن عنها . هيا بنا » .

وبعد لفة طويلة جاسا فيها خلال الأزقة وصلا الى البوابة . . . وهناك

كان المكان أشبه بسوق للسلاح .

وكـان عشرة من رجـال الميليشيا يلعبـون الورق عـلى الأرض ، فـانحنى هينـريش في أثناء عبـوره وجمع أوراق اللعب وهـو ينظر الى الـلاعبـين . . ثم وضعهـا في جيبـه ، وواصـل سيـره ، واجتـاز البـاب ، وفحص المـوقـع من الخارج ، وعثر مانويل عـلى غصن مستقيم استبدلـه بعود الشمـر : فقد كـان يريد أن يهدىء من ثائرته ، وكانت البنادق المتروكة قد أثارت سخطه .

قال هينريش : «هذا جنون مطبق . . فمن الأسطح والشرفات نستـطيع أن نقاوم حتى يحضروا مدفعيتهم على أقل تقدير ! » .

ودخلا المدينة ، دون أن يكف الجنرال عن النظر الى الأسطح .

ـ « ما أشد أسفي لأنني لا أعرف الأسبانية ! »

فقال مانويل : « ولكنني أعرفها » .

وشرع هو وأرنانديث في وضع الرجال في أماكنهم واحـداً واحداً وأرسـلا بعضهم لإحضار الذخيرة ، وزودا الرماة الذين اتخـذوا أماكنهم فعـلاً بأفضـل الأسلحة المتروكة وكانوا قد وجـدوا ثلاث بنـادق سريعـة الطلقـات . . . ولم تمض ساعة حتى كانت البوابة على استعداد للدفاع .

قال هينريش مخاطباً مانويل : ربما اعتقدت انني معتوه . . . ولكن ينبغي الآن أن تـأمرهم بـإنشاد نشيـد « العالميـة » . ولأن كلاً منهم قـد اختفى عن عيون الآخرين فلا بد أن يشعر بعضهم بالبعض الآخر » .

ولم تنقص هـذه الألفة الشيـوعية شيئـاً من سلطة هينريش ، وهنـا صاح مانويل : « أيها الرفاق ! » .

ومن جميـع الأركان والـزوايا والنـوافذ أطلت رؤ وس . وبـدأ مانـويل في إنشاد نشيد « العـالمية » يعـوقه ذلـك الغصن المورق الـذي لم يكن يـريـد أن يتركه ، وإنما كان يـود أن يقود بـه الايقاع ، وكـان صوتـه جهيراً ، ولمـا كان

اطلاق الرصاص على القصر قد توقف تقريباً فقد أنصت اليه الجميع غير أن رجال الميليشيا لم يكونوا يعرفون كلمات النشيد .

واعترى هينريش شيء من الذهول ، أما مانويل فقد أخذ يردد المقطع المتكرر .

وقال هينريش في مرارة : « الأمر دائماً على هذا النحو ، سنكون في مدريد قبل الساعة الرابعة ، وسيملأ هذا النشيد وقتهم حتى نصل الى هناك » .

وابتسم ارنانديث ابتسامة حزينة .

وعين مانويل رؤساء للكتائب ، ثم اتجه الضباط الثلاثة شطر « بوابة الشمس » .

وفي ثلاثة أرباع الساعة كانت البوابة محوطة بالحراس .

وقال هينريش : « فلنعد الى باب شقرا » .

ومن النوافذ نصف المفتوحة أخذت طلقات بنادق الفاشيين تتكاثر شيئاً فشيئاً ، بيد أن الحشود كانت قد تفرقت . ففي خلال ساعة رحل عن المدينة ما يزيد على عشرة آلاف شخص ، وخلت المدينة من الناس ، كما يخلو الجسم من الدم .

وكانت سيارتهم حبيسة في إحدى الحظائر .

قال ارنانديث : « أخرجها فوراً . . حالاً . . . »

وأمام الباب وقف ضابط له شاربان قصيران ينتظر .

- « قيل لي انكم ذاهبون الى مدريد . . ولا بد أن أكون هناك على عجل . . . فهل تستطيعون اصطحابي ؟ » .

وأبرز لهم الأمر الخاص بمهمته ، واستقلوا السيارة ميممين شطر ڤيساجرا

في مبدأ الأمر ، وكـان مانـويل هـو الذي تـولى قيادة السيـارة . . وعلى طـول الطريق كانت البنادق متروكة فوق كـل عتبة ، وفي اللحـظة التي أبطأت فيهـا السيارة لكي تنعطف في أحد الطرق انفتـح باب نصف فتحـة ، وامتدت يـد من الداخل لتمنسك ببندقية ، فأطلق هينريش النار ، فانسحبت اليد .

قـال الضابط : « إن الشعب الأسبـاني لم يرتفـع الى مستوى المهمـة التي ألقيت على عاتقه» .

وللمرة الثالثة اتخذت نظرة الجنرال تلك الصرامة الضـارية التي لاحـظها مانويل ، وأجاب هينريش :

ـ « في مثل هذه الحالة ، تكون الأزمة (دائماً) أزمة قيادة » .

وتذكر مانويل اكسيمينيس ، وجميع رجال الميليشيا الـذين يراهم المـرء في كل شارع من شوارع مدريد ، وهم يبذلون أقصى جهدهم ، يعلو وجوههم الهم ، ويتعلمون المشي كما يتعلم الانسان القراءة .

وحين وصلوا الى باب شقرا نادى مانويل رجالـه . . بيد أن أحـداً لم يرد عليه . . . فنادى من جديد . . ولكن لا أحد ، فصعد الى الطابق الأخير من أول منزل يستطيع أن يشرف منه على الأسطح ، وهناك وراء كل زاوية وضـع فيها رجلاً كانت ثمة بنـدقية ملقـاة . . . حتى البنادق السـريعة الـطلقات . . كانت باب شقرا محمية أيضاً . . . محمية بأسلحة دون رجال .

ومع ذلك كانت جبهة « ملقة » تفتقر الى البنادق ، وكذلك جبهة قـرطبة وجبهة أرغون ، وفي مدريد كان هناك نقص في البنادق .

وفوق جرن غير بعيد كانوا يدرسون القمح .

وأخيراً القى مانـويل بـالغصن ، وهبط السلم مرة أخـرى ، وقد خـانته سـاقاه ، كـانت الأبواب جميعـاً مفتوحـة ، والى جوار النـوافذ كـانت البنـادق الأخيرة المستندة على الستائر تحرس طليطلة .

ومن النوافذ المفتوحة ظهرت بندقية فوق كل سقف وخلف كل مدخنة ، والى جوارها حزمة من الرصاص .

وأبلغ مانويل هينريش ما رآه . . أما أرنانديث ، فكان قد تكهن بالأمر . . .

قال هينريش : « ينبغي أن نلقي بالفرق الشابة هنا . . فلنسارع الى مدريد . ولن يكون من العسير في اللحظة الراهنة ـ اخلاء طليطلة » .

قال ارنانديث : « لقد فات الأوان » .

ـ « فلنحاول » .

وسأله مانويل :

ـ « وأنت . . . ماذا أنت فاعل ؟» .

فأجابه أرنانديث : « وماذا تريدني أن أفعل ؟ » ورفع كتفيه ، وهو يبتسم ابتسامة مريرة كشفت عن أسنانه الطويلة الصفراء « عشرون منا يستطيعون استخدام المدفع الرشاش استخداماً سليماً . . . ».

وأشار الى المقابر في غير مبالاة .

ـ « هناك أو هنا . . . » .

ـ « كلا . . سنصل في الوقت المناسب » .

ورفع أرنانديث كتفيه مرة أخرى .

وردد مانويل في حزم : « سنصل في الوقت المناسب ! » .

ونظر اليه ارنانديث مذهولاً .

وفطن مانويل فجأة الى أنه لم يخاطب ارنانديث بهذه اللهجة قط ، ان المرء لا يترجم الأوامر بصوت محايد ، وقد قام بهذه الترجمة منذ ساعات

فاكتسب لهجة هينريش نفسها ، وتعلم لهجة القيادة ، كما يتعلم المرء لغة ما بالترديد .

واستأنف كلامه قائلاً : « اذا كان لديك عشرون رجلاً فحاول الدفاع عن هذه البوابة على كل حال » .

وقال هينريش : « استبدل الرجال قبل الانصراف » .

واستطرد ارنانديث بنفس عدم الاكتراث اليائس : « سمعاً وطاعة » .

وبعد أن وضعوا الرجال في مراكزهم عادوا الى الحانوت ، وتقاطعت في الشارع أصوات الشتائم التي انهالت عليهم من النوافذ مع طلقات الرصاص التي أطلقها الشيوعيون .

قال مانويل : « هؤلاء يودون لو عاد فيليب الثاني الى العرش . . . ولتبدأ ـ أي ارنانديث ـ بجمع الأسلحة كلها . . . باستثناء تلك التي على الأبواب . . . سأرسل لك عربات نقل مع حرس الهجوم » .

ـ « إن جمعها أسهل من استخدامها » .

وتلاحقت لحظات الاحتضار الأخيرة التي تعانيها المدينة .

قال هينريش : « فليصمدوا وجه النهار . . وسيصمد رجال الديناميت آناء الليل ، وبالفرق الشابة هنا ، وبرجال الفرقة الخامسة سوف نصمد ثمانية أيام . . . وفي ثمانية أيام منذ الآن قد . . . »

الفصل الثامن

تخلص أرنانديث من زيه العسكري ، وارتدى الثياب المدنية مثلما فعل جميع المحاربين الآخرين ، وتردد لحظة : ان الضجة تنبىء بأن الجمهوريين على اليمين ، ولكن ماذا يريد ؟ أن يظفر بالخلاص ؟ كان يستطيع منذ ساعتين أن يرحل بنفس البساطة التي يستقل بها الانسان قطاراً ، أو تراه يريد أن يقاتل حتى اللحظة الأخيرة ؟ إن ما يريده حقاً قبل كل شيء هو ألا يكون وحيداً ، ألا يعود الى الوحدة مرة أخرى ، لقد انفصل عن ذوي قرابته في أول هجوم على ترثيو Tercia فعليه الآن أن يجدهم بأي ثمن .

وركض ملتزماً جدار الحارة (وعلى اليسار كانت ضجة مدافع ترثيو الرشاشة تقترب) فلم يلبث أن بلغ شارعاً ، وكانت رصاصات الجمهوريين تسقط أجزاء من الواجهات العالية الباهتة ، فترتفع على أثرها من الجير سحب صغيرة من الدخان الكثيف ، وازدادت ضجة مدافع العدو الرشاشة اقتراباً ، ولم يكن من شك أن الفرقة قد وصلت لتوها الى الناصية التي اجتازها ارنانديث منذ لحظة ، فقد كانت الرصاصات تنهال الآن من أمامه ، ومن وراء ظهره .

وعلى بعد عشرة أمتار الى الأمام ، كان ثمة مصباح مضيء ، وحين وصل ارنانديث تحته لوح بمسدسه فوق رأسه حتى يتعرف عليه الرجال ، فأصطدمت رصاصة بمقدمة المسدس الموزر ، وقذفت به على الأرض ، فاندفع ارنانديث تحت مدخل أحد الأبواب ، وهنا كانت زوايا الشارع تحميه

من الترثيو وسمك الجدار يحميه من الجمهوريين . ومن كل جانب أخذ مدفع رشاش يطلق نيرانه في عصبية دون تمييز ، ولم يلبث سيل من الرصاص أن أسقط المصباح في جلبة زجاجية شديدة ، وظلت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها دونما هدف تراه اللهم إلا الشعل الزرقاء الصغيرة التي كانت ترتفع عند كل طرف من طرفي الشارع .

وانبطح ارنانديث ، وزحف حتى وصل الى مسدسه تحت شبكة افقية من الرصاصات ، واستطاع أن يبلغ مدخل الباب مرة أخرى .

وظل على هذا الوضع عشر دقائق ، ولم يكد ينهض حتى أمسكت يد بذراعه :

- « أرنانديث ، أرنانديث ... »

- « هيه ،، ! نعم .. »

وأطلق رجل الميليشيا الذي انضم اليه (وكان يرتدي الملابس المدنية أيضاً) ثلاث طلقات بين كل طلقة وأخرى نحو ثانية .. ثم اندفع الأثنان ، وهنا توقف المدفع الرشاش الذي كان يطلقه الجمهوريون .

وفي اللحظة التي وصلا اليه فيها لحق بهما من الخلف رجل آخر من رجال الميليشيا .

- « المغاربة ! »

وقال الرجل الذي كان يستخدم المدفع الرشاش وكان يبدو أنه قائد الجماعة : « إلى حلبة مصارعة الثيران ! » .

واندفع الجميع من الأزقة .

ولم يكن ارنانديث يريد أن يموت وحيداً .

واستدار ضارب المدفع الرشاش وأطلق سيلًا من حوالي خمسين رصاصة ، ثم عاود الاطلاق ، وكان لا يحسن استخدام المدفع ، غير أن

المغاربة كانوا قد توقفوا ، ولكنهم استأنفوا سيرهم مرة أخرى .

وتناثرت بضع رصاصات متفرقة هنا وهناك ، وفجأة حملت الريح من الاتجاه المضاد لمسير الجمهوريين موسيقى من آلات نحاسية ، ومن طبول ضخمة . . الموسيقى التي تعزف في السيرك وفي المعارض وفي الاحتفالات العسكرية . وتساءل أرنانديث : أين تلك الجياد الخشبية التي ما زالت تدور ؟ وتعرف أخيراً على النشيد الفاشي : إنها موسيقى ترثيو تعزف في ميدان زو كودوفر .

وتوقف ضارب المدفع الرشاش لحظة ، ثم استأنف الاطلاق من جديد . . . وانقضت عشر ثوان ، خمس عشرة ، وصاح الرجل الواقف الى جواره : « أهرب بجلدك أيها الأحمق » . وأخذ يركل بكل قوته ضارب المدفع الرشاش في ردفيه صائحاً : « إنج بجلدك ! » وأحدثت الركلات أثراً أقوى من الرصاص ومن المغاربة الزاحفين ، فحمل الرجل مدفعه ولاذ بالفرار .

وأخيراً وصلوا الى الحلبة وهناك كان قد اجتمع نحو ثلاثين من رجال الميليشيا وكانت حلبة مصارعة الثيران تبدو من الداخل كأنها قلعة . . قلعة من الورق المقوى ، بهذا حدث أرنانديث نفسه ، ونظر اليها من الخارج . . كان المغاربة قد بدأوا في حراسة الأبواب ، وقال أحد رجال المدفعية ، وكان هو أيضاً يرتدي ثيابه المدنية : « سنكون على خير حال عند أول طلقة مدفع » .

وقال أحد رجال الميليشيا : « لقد وضع الفاشيون المدنيون شريطاً أبيض على أذرعهم فعلاً » .

- « انهم يرتلون تسبيحة الحمد لله في الكاتدرائية ، ولقد ظهر القسيس بينهم ، بعد أن اختفى هنا طيلة الوقت » .

وتذكر ارنانديث تنفيذ حكم الاعدام بالجملة .

وكان ينظر الى الخارج دائماً . وعلى اليسار ، لم تكن المدينة قد حوصرت بعد .

وصاح أحد الرجال : « الخيَّالة المغربية ! » .

ـ « أنت مجنون ! » .

والواقع انه لم يكن أكثر من ذلك .

قال أرنانديث : « البقاء هنا حمق ، فسوف يتكاثرون شيئاً فشيئاً ، وستهلكون بلا مبرر ، وعلى الشمال ما زال الريف مفتوحاً أمامكم . . . اتركوا الأبواب فهي محمية ، وسأكتسح نهاية أحد الشوارع بالمدفع الرشاش . وحين ذاك اقفزوا من الطابق الأول ، واحرصوا على ألا تحطموا رؤوسكم ، واضربوا المغاربة الذين لم يصابوا ، والذين يحاولون اعتراض طريقكم ، وهم قلة على كل حال ، ثم انعطفواالى اليسار ، فانكم تستطيعون أن تفعلوا أشياء أفضل من الهلاك هنا ، فاذا انضمت اليهم تعزيزات جديدة فسأحاول ايقافهم حتى تتمكنوا من الفرار » .

ووضع المدفع الرشاش في حالة استعداد ، ثم اطلق سيلين طويلين من الرصاص مكتسحاً الشارع من طرف الى الطرف الآخر . . . وتساقط المغاربة أو ولوا الأدبار على حين وثب الرجال المتربصون في حلبة مصارعة الثيران ، وصدوا الفلول الباقية من المغاربة دون عناء ، ووصل بعض الفاشيين من اليمين فتولاهم المدفع الرشاش صفاً صفاً ، وأرغمهم على التوقف في فجوات الأبواب ، على حين اختفى الجمهوريون الأواخر في ضجة شديدة وهم يتخبطون بعضهم في أعقاب بعض ، ولم يعد ارنانديث يفكر في شيء ، بل ضم مدفعه الرشاش الى منكبه في سعادة لا حد لها .

وخلت حلبة المصارعة من الرجال فوثب أخيراً ، بيد أنه تلقى ضربة سوط غريبة فوق عينيه أحس بعدها أن الدم قد أعمى بصره . . ثم تلتها ضربة أخرى فوق العنق . . ضربة ضخمة قوية ، هذه المرة . . . لعلها من مؤخرة بندقية ، فمد ذراعيه الى الأمام ، وتهاوى على ظهره . . .

الفصل التاسع

صاح رجل بأعلى صوته في فناء سجن طليطلة . وكـان ذلك شيئـاً نادر الحدوث ، ذلك ان الثوريين يلتزمون الصمت لأنهم ثوريون ، وأن الآخـرين يظنون انهم ثـوريون لأنهم محـوطون بـالثوريـين ، ولأنهم اكتشفوا بمـواجهتهم للموت أن الحياة ـ أية حياة ـ هي ما يتمسكون بـه ، فلهذا كـان الصمت هو حكمـة السجناء الـوحيدة ، والحشـرات التي يهددهـا الخطر تحـاول أن تكون شبيهة بالأغصان التي تتشبث بها .

وكانت هناك فئة لا تشعر بأية رغبة في اخراج صوتها .

وصاح الصوت : « حفنة من القوادين الأوغاد ! إنني محصل في التـرام » وبـأعـلى صـوت ممكن : « محصـل ! محصـل ! أيهـا الأنــذال ! » ولم يستـطع أرنـانديث أن يـراه من خلال قضبـان زنزانتـه ، ولكنه انتـظر : وفعـلاً ظهـر الرجل في مجال رؤ يته ، وكان يدق بكل قوته على سترة من الصوف يمسكهـا بيده اليسرى ، وكأنه يريد أن ينفض عنها الغبار ، وكان الفاشيون في كثير من المدن يأمرون باعدام العمال الـذين تلمع ستـراتهم عند الكتف فهـذه علامـة على أنهم يحملون بنادق ، والـواقع أن أولئـك الذين يحملون المعـاول والسيور الجلديـة تلتمع ستـراتهم عند مـوضع الكتف ، فتتـرك علامـة مماثلة تمـاماً لمن يحملون البنادق .

ـ « أنا لا أعبأ بسياستكم . . . يا أبنا الفاسقات ! » .

ثم عـاد الى الصياح قـائـلاً : « أنـظروا إلى الكتف عـلى الأقـل . . . إن البندقية تترك كدمة زرقاء يا إلهي ! فهل لديَّ هذه الكدمة الزرقاء ؟ لقد قلت لكم : إنني محصل ترام ! » .

وأقبل عليه حارسان ، فقال ارنانـديث في نفسه : الأرجـح أنهما يسوقـانه الى زنزانة لا الى الحرية ، فلا بد من إقرار النظام .

وكان السجناء يطوفون بـالفناء ، يجـرر كل منهم مصيـره المسموم ، ومن المدينة كانت تتعالى صيحات باعة الصحف .

هناك السجناء الجدد كما جرت بذلـك العادة كـل يوم . . . ونـظر اليهم ارنـانديث . . . كـما اعتـاد كـل يـوم . . . وكـما يحـدث كـل يـوم ، فـأداروا رؤ وسهم حتى لا تلتقي نـظراتهم بنـظراتـه . . . وبـدا ارنـانـديث يعـرف ان المحكوم عليهم بالاعدام ينقلون العدوى .

هذا صوت مزلاج الزنزانة . . وقد أصبح الآن أهم صوت . .

وانتـظر ارنانـديث تنفيذ حكم الاعـدام فيه ، حسبـه ما قـد عانـاه . ان الرجال الذين أراد أن يعيش معهم قد قدر عليهم الموت جميعاً ، أما الأخرون فلم يعد يود الحياة معهم ، ولم يكن نظام السجن نظاماً شـرساً من حيث هـو نظام ، وكان المشرفون على الادارة والحراس من المحترفين الـذين أحضروا من أشبيليه ، أما الحياة في السجن فشيء آخر ، وكانوا يجلبون اليه احياناً عشرين أو ثـلاثين سجينـاً دفعة واحـدة ، وفي هذه الحـالة كـان المرء يسمـع سيلاً من طلقات الرصاص ، تتبعه طلقتان أو ثلاث لـلاجهاز عـلى الجرحى ، وأحيـاناً كـان صـوت المـزلاج يسمـع ليـلاً يتلوه صـوت رجــل ، ونفس الكلمـة : « ماذا ؟ » ثم جرس القسيس ولا شيء عدا ذلك ، بيد أن الملل كان يـرغمه على التفكير ، ولا يفكر المحكوم عليهم بالاعدام إلا في الموت .

وقاد أحد الحراس أرنانديث الى مكتب البوليس الخاص ، ومكث معه اذ لم يكن الضابط به . هذه نافذة أخرى مفتوحة على الفناء ، عـلى نفس الحلقة

من السجناء .

وكان أولئك الذين لم يصدر عليهم الحكم بعد في الفناء ؛ أما المحكوم عليهم بالاعدام فكانوا في الزنزانات ، وحاول أرنانديث أن يلمح عبر الفناء أولئك الذين تواجه قضبانهم تلك النافذة ، فكانوا أبعد من أن يراهم ، ولم يستطع أن يتبين من أصابعهم المتشبثة بالقضبان سوى الأجزاء التي وصل اليها الضوء .

أمّا وراء القضبان فلم يكن هناك سوى الظلام ، ومع ذلك لم يكن حريصاً كل الحرص على أن يرى ؛ كل ما يريده هو أن يتبادل النظرات مع الحياة ، لا مع الموت !

ودخل رئيس المكتب ، وهو ضابط في الخمسين من عمره ذو عنق طويل ، ورأس صغير ، وشارب شبيه بشارب كويبودي لانو ، وكان يمسك في يده محفظة أرنانديث .

- « هل هذه محفظتك ؟ » .

- « أجل » .

وأخرج منها رجل البوليس حزمة من الأوراق المالية .

- « وهذه أوراقك ؟ » .

- « لا أعرف عنها شيئاً . . . والواقع أن محفظتي كانت تحتوي على بعض الأوراق المالية ؟ » .

- « كم ؟ » .

- « لا أعلم » .

ورفع الرجل عينيه الى السماء ، وكأنه يشهدها على قلة نظام الشيوعيين .

ولكنه التزم الصمت .

قال أرنانديث ، رافعاً كتفه اليمنى :

ـ « من سبعمائة الى ثمانمائة بيزيتا » .

ـ « هل تستطيع أن تتعرف على هذه الورقة ؟ » .

وكان رجل البوليس الذي يشبه رأسه رأس الدبوس يراقب ارنانديث معتقداً أن وجهه قد يشي بما يعتمل في نفسه ، وفحص ارنانديث الذي بلغ به الإرهاق حد اللامبالاة ـ الورقة المالية وابتسم في مرارة .

وكان ما يحير البوليس السياسي ورقة مالية رسم عليها بالقلم الرصاص وسط « شخبطات » مضطربة ولا معنى لها بكل تأكيد ـ رقم ٨ وكأنه علامة على شيء ما .

وكان مورينو هو صاحب هذا الرسم ، ولم يكن قد سافر الى فرنسا وإنما رحل الى جبهة نهر تاجة ، وكان يردد : « ان الرجال يتحدثون في فناء السجن عن كل شيء ـ يا عزيزي ـ اللهم إلا عن السياسة . . . ولو أن أحداً منهم قال : لقد دافعت عما اعتقدت أنه حق ، ولكني خسرت ، وسأدفع الثمن ، لو أنه قال ذلك لانفض عنه الجميع . . . ان الانسان يموت وحده تماماً . . . يا ارنانديث . . تذكر ذلك » .

هؤلاء الذين يسيرون وراء هذه النافذة . . . هل يفكرون في السياسة أو في فوهات البنادق المصوبة اليهم . . . أو في لا شيء ؟

وقد رد ارنانديث على مورينو حين ذاك بقوله : « أنا لا أعلق مثل هذه الأهمية على الموت . . . أما على العذاب فإني أعلق أهمية كبيرة » .

وقال مورينو : « لقد سألت في سجني أولئك الذين عذبوا ، فيم كانوا يفكرون في اثناء التعذيب ؟ فأجابوني جميعاً بأنهم كانوا يفكرون فيما سيأتي بعد ذلك . . . حتى التعذيب نفسه لا يساوي شيئاً الى جانب يقين الموت » . والشيء الرئيسي في الموت هو أنه يجعل كل ما سبقه لا علاج له . . . لا

علاج له الى الأبد ، التعذيب والوحشية اذا تبعهما الموت . . . هذا هو الشيء الفظيع حقاً . . . » . وشرع مورينو يرسم في الجزءالأبيض من الورقة المالية .
« كل احساس أياً كانت فظاعته شبيه بذلك . . . ولكن حين ينتهي . . . »

وأعاد رجل البوليس سؤاله : « هل تستطيع التعرف على هذه الورقة ؟ » بيد أن ابتسامة أرناندیث ضايقته .

- « أجل . هذا أمر مفروغ منه » .

وكان ارناندیث قد وضعها على المنضدة في شيء من الشرود ، اذ كانت الطلبات تقدم مجاناً في مقصف الميليشيا .

- « وما دلالة هذه العلامات ؟ » .

ولم يجب ارناندیث .

- « سألتك عن معنى هذه العلامات ؟ » .

يبدو أن هؤلاء الرجال يأخذون الأمور مأخذ الجد ، ونظر ارناندیث الى ذلك الرأس الصغير ، والى ذلك العنق . . عندما يموت هذا الرجل سيكون عنقه أطول . . وسيموت كما يموت الآخرون ، وربما كانت ميتته أصعب من الموت بالرصاص ، فيا له من أحمق مسكين ! » .

وأمام النافذة ، كان السجناء يمرون محولين عنه أنظارهم

قال أرناندیث أخيراً دون أن تفارق شفتيه تلك الابتسامة المريرة : « انه واحد من رجالنا ، هرب من أحد سجونكم ، وكان قد حكم عليه بالاعدام منذ أكثر من شهر ، وكان يشرح لي أن كل شيء في الحياة يمكن تعويضه . . . وفي أثناء حديثه رسم هذين الخطين : الخط الأول يمثل الشقاء - اذا شئت - والآخر يمثل تعويضه ، بيد أن مأساة الموت لم تكمن في أنه يحول الحياة الى مصير ، وأنه ابتداء من الموت لا يمكن تعويض أي شيء بعد . . . وهذا ما يضفي على لحظة الموت أهميتها الخطيرة حتى بالنسبة

لشخص ملحد » .

وأضاف أرنانديث في لهجة أشد تمهلاً : « ولكنه مخطىء على كل حال » . وأحس كأنه يلقي محاضرة .

ولم يرد عليه ضابط البوليس في الحال ، أتراه فهم ؟ إن كان قد فهم فهذا معناه أنه محظوظ ، ان البلهاء يفهمون دائماً شيئاً ما . . ما أسخف الأمور التي يضيع فيها الأحياء وقتهم ! لو أراد مزيداً من التفسيرات فسوف تتعقد الأمور .

وعلى الرغم من شجاعة ارنانديث ـ لم يكن يحب أن ينطق بينه وبين نفسه بكلمة : « التعذيب » .

وأستغرق ضابط البوليس في التفكير ، ثم قال أخيراً :

ـ « مسألة شخصية » .

وما برح السجناء يمرون أمام النافذة .

واستطرد ضابط البوليس قائلاً : « تفكير عجيب بالنسبة لضابط . . كان من الأفضل أن يذهب الى قسيس » .

ـ « لم يكن في الخدمة حين ذاك » .

وكف ارنانديث عن الابتسام .

ـ « والخطوط القصيرة ؟ » .

ـ « الخطوط القصيرة لا تعني شيئاً ، كل ما في الأمر أن موضوع المناقشة جعل الشخص الذي يحدثني عصبياً » .

ولم يكن ارنانديث يتكلم بلهجة عدوانية ، وإنما كان يتحدث في شرود ، رنة جرس . . ودخل أحد الحراس ، وقال الضابط :

ـ « تستطيع الانصراف » .

ما زال ارنانديث يفكر في مورينو ، وعلى نفس المائدة في طليطلة في اثناء الربيع (أبعد من العصر الذي ظهرت فيه مسرحية « السيد ») سمع رامون جوميث من « سرنا » وهو يقول : « عرفت ان الانسان قد انحدر من القرد بالنظر الى الطريقة التي يقشر بها الفول السوداني ويمضغه . . . » أين ولى زمان المرح ؟ وأدى أرنانديث التحية ، وتقدم خطوة نحو الباب للخروج .

فصاح رجل البوليس حانقاً : « قف » .

« لقد صدرت اوامر توصي بمعاملتك في شيء من الرفق الخاص ، ولكن . . . » .

وكان ارنانديث المستغرق في ذكرياته قد ثاب الى نفسه عندما سمع العبارة العسكرية « تستطيع الانصراف » . فأدى التحية كما كان يؤديها طيلة شهرين في طليطلة ، أي بقبضة مغلقة ، فهل ينوي الضابط مناقشة هذه الحركة الآن ؟

فقال : « الرفق في زنزانة المحكوم عليه بالاعدام . . ثم ، لماذا صدرت هذه الأوامر الخاصة ؟ » .

فنظر اليه الضابط مبهوتاً ، أو لعله كان ساخطاً :

ـ « ولماذا تظن أنها صدرت ؟ أمن أجل سواد عينيك ؟ » .

ثم طرأت عليه فكرة ، فأشار بسبابته اشارة تدل على النفي ، وكأنه يريد أن يقول : « كلا . . لا جدوى من اتخاذ احتياطات معي ، وابتسم ثم قال : « اني على علم . . . » .

فسأله ارنانديث في هدوء : « بماذا ؟ » .

لا يمكن الانسان أن ينقلب مجنوناً بسبب الاشمئزاز ، غير أن ارنانديث

أحس فجأة بلحيته القذرة التي لم يقربها منذ أربعة أيام تحوطه بالدفء وكف عن الابتسام ، فبدا وجهه أقل طولاً مما كان ، وتقبضت يده المستندة على المائدة .

قال ناظراً الى ضابط البوليس ومسنداً قبضته الى المائدة : « أرجو ألا تعرض هذه الفرصة مرة أخرى » ، وكانت كتفه ترتجف .

- « لا أعتقد ان الفرصة يمكن ان تتاح لك مرة أخرى » .

فلم يزد ارنانديث على أن أجاب : « هذا أفضل . . . » .

- « الناس يحتفظون بالأوراق المالية حتى ينفقوها . . . »

ودخل ضابط آخر ، فناوله رجل البوليس الورقة المالية واقتاد الحارس ارنانديث الى زنزانته .

الفصل العاشر

سـار « ارنانـديث » مرة أخـرى في شـوارع طليـطلة ، وكـان السجنـاء مقيدين كل اثنين في قيد .

ومـرت سيارة وفتاتان صغيرتان تسيـران معاً ، وامـرأة عجوز تحمـل جرة ، ثم مرت سيارة أخرى تحمل ضباطاً فاشيين ، وحدث أرنانديث نفسه قـائلاً : « الحقيقـة انني مقضي عليَّ بـالاعدام من أجـل « تمرد عسكـري » . وعبـرت امرأة ثانية تحمل لفافة من البقالة ، وثالثة تحمل دلواً ، يتبعهـا رجل لا يحمـل شيئاً .

انهم احياء .

بيد ان الموت سيأتي عليهم جميعاً .

كان قد شاهد إحـدى صديقـاته تمـوت بمرض السـرطان الخبيث ، وقـد تحول جسدهـا الى لون شعـرها الكستنـائي ، وكانت هـذه الصديقـة طبيبة . ورأى في طليطلة رجلاً من الميليشيا تسحقه دبابة ، كـما عاين آلام الاحتضـار التي يعانيها المريض بالتسمم البولي . . .

الكل يموتـون . . . باستثنـاء هؤلاء المغاربـة ، الذين يسـرقون المحكـوم عليهم بالاعدام ، فالقتلة بمعزل عن الحياة والموت !

ومـا أن وضعوا أقـدامهم على الجسـر حتى قال زميـل ارنانـديث بصـوت خافت : « شفرة جيليت . . . اقترب مني » .

واقترب منه ارنانديث . وعبرت عائلة بأكملها (أجل . . . ما زالت هناك عائلات) ، ونظر اليه صبي صغير ثم قال : « انهم عجائز ! » وقال ارنانديث في نفسه : « انه يغالي . . هل هو الموت الذي يمنحني تلك القدرة على السخرية ؟ »ومرت امرأة ترتدي ثياب الحداد ، وتمتطي حماراً يحسن بها ألا تنظر اليهم على هذا النحو اذا لم تكن تريد أن تبين أنها معهم ، ولم يكن ارنانديث يشعر من جسمه الطويل إلا بضغط الحبل على معصميه ، وأخذت الشفرة تقطع الحبل .

ـ « لقد فعلتها . . . » .

وتخلص ارنانديث من الحبل في رفق . . أجل ، لقد انقطع الحبل حقاً . ونظر الى رفيقه . . كانت له لحية كثة صغيرة .

وقال هذا الرفيق : « ما زال رجالنا خلف قمة الجبل . . عند أول تقاطع واجتازوا الجسر . وعند أول دعامة ، قفز الرجل . . .

أما أرنانديث فلم يقفز .

كان مستنزف القوى ، وكذلك كانت الحياة . . الهرب معناه أن يجري . . وهل فيه بقية للجري ؟ ماذا في الجانب الآخر من الجسر ؟ أحراج ؟ والمرء لا يستطيع أن يتبين شيئاً . وتذكر رسائل موسكاردو . وقفز بعض المغاربة أيضاً ، وأطلقوا النار ، ولكنهم أقل من أن يجرأوا على مغادرة الطابور . ولن يعرف ارنانديث أبداً : هل رفيقه قد نجح في الفرار . .؟ لعله ما زال حياً ، فلقد عاد المغاربة دون أن يضحكوا .

وواصل القطيع سيره .

وهنا أخذت الأرض تصعد هوناً ما ، وأمام حفرة مستطيلة لم يكن ارنانديث يرى مدى عمقها وقف عشرة من رجال الفلانج بأسلحتهم وقفة الطابور ، ومعهم ضابط والى اليمين عدد من الأسرى إذا أُضيف اليهم

الأسرى الجدد بلغوا خمسين سجيناً ، وكانت ثيابهم المدنيـة هي البقعة القـاتمة الوحيدة في ذلك الصباح المشرق ، اذ أن ثياب المغاربة العسكرية الصفـراء لا تفترق عن لون طليطلة .

هذه اذن هي اللحظة التي سيطرت عليه طـويلاً . . اللحـظة التي يعرف فيها الانسان أنه سيموت دون أن يستطيع عن نفسه دفاعاً .

لم يكن الأسـرى في ظاهـر الأمر ـ اكـثر حرجـاً امام المـوت من المغاربـة والفلانج الذين سيقومـون بإعـدامهم ، وكان محصـل الترام واقفـاً هناك مـع الآخرين ، لا يفترق عنهم الآن في شيء .

وكان الجميع مبهـوتين قليـلاً ، لا لسبب آخر سـوى ما يشعـرون به من إرهاق شديد ، أما فرقة تنفيذ الأعدام فكانت تبدو عليها امارات الاشتغال مع أن كل ما عليها هو أن تنتظر اشارة اطلاق النار من البنادق المحشوة .

ـ « انتباه ! » .

قيلت هذه العبارة بأسرع مما تقال عـادة ، وما أن صـدر هذا الأمـر حتى شد الرجال العشرة قـاماتهم تمثيـلاً لمهزلـة طاعـة الأوامر ، عـلى حين شـردت نظرات الرجال الخمسين المحيطين بأرنانديث في الفضاء عبر كل مهزلة .

وأقبل ثلاثة من الفاشيين لاقتياد ثلاثة من الأسرى ، وبعد أن وضعـوهم أمام الحفرة قفلوا على أعقابهم عائدين .

ـ « استعدوا » .

وكان الأسير الواقف على الشمال حليق الشعر على هيئة دائرة .

وأجسـام الأسرى الثـلاثة أطـول من المعتاد فهي تشـرف من عـلٍ عـلى الناظرين اليها ، وتلقى على أفق جبال تاجة الشهيرة . ما أتفه التاريخ بالقياس الى الجسد الحي . . ! أعني الجسد الذي ما زال حياً . . .

ووثبوا وثبة خطيرة الى الوراء .. فأطلقت الكتيبة نيرانها .. بيد انهم كانوا قد سقطوا في الحفرة . كيف يأملون الهرب ؟ وضحك الأسرى الآخرون في عصبية .

وما كان لهم أن يهربوا ، كل ما في الأمر أن الأسرى شاهدوا الوثبة أولاً ، والحقيقة أن الكتيبة هي التي أطلقت النار قبل تلك الوثبة .. مجرد خداع أعصاب ... ووضعوا ثلاثة آخرين أمام الحفرة ، ونظر اليه ، ثم خطا خطوة مبتعداً عن الحفرة بدافع من غريزته ، وحين التفت دون أن يرفع عينه لاحظ أنه تقدم صوب أقدام الكتيبة التي تصوب اليه بنادقها . فما كان منه إلا أن توقف ، وفي اللحظة التي هبط فيها الأسير الواقف على اليمين بشيء ما تساقط الثلاثة معاً واضعين أيديهم على بطونهم ، ثم ترنحوا منكفئين ، فلقد أطلقت الكتيبة نيرانها هذه المرة على مستوى أدنى .

ولبث بقية الأسرى دون حراك .. لا صدى .. لا صرخة ، ومن المدينة تناهى نهيق حمار موحش ، وصوت بائعة القلل ، ولم تلبث هذه الأصوات جميعاً أن تبددت تحت أشعة الشمس .

وانحنى على حذر أحد أولئك الذين يقتادون الأسرى أمام كتيبة التنفيذ ، وقد أمسك بمسدسه مصوباً إياه إلى الأمام ، واختلجت السماء بالنور .. وتذكر ارنانديث نظافة النعوش ، ومع أن أوروبا لم تعد تحب شيئاً فإنها ما زالت تحب موتاها، وتتبع الرجل المحني على حافة الحفرة شيئاً يتحرك بفوهة مسدسه ، ثم أطلق النار ، وأياً كان الأمر فإن تصور المرء أن تكون تلك الطلقة المجهزة قد أطلقت على رأس لا يحس ، ليس بأشنع من تصورها وقد أطلقت على رأس يحتضر ، وفي هذه الساعة ، وعلى نصف الأرض الأسبانية ثمة شبان يشتركون في هذه المهزلة البشعة ، ويطلقون النار في هذا الصباح المشرق نفسه ، وثمة فلاحون يتساقطون أو يقفزون في الحفر ، ولم يكن أرنانديث قد شاهد قط انساناً يثب الى الوراء اللهم إلا في ساحة السيرك .

ووقف ثلاثة آخرون في نفس الموضع ، ولن يلبثوا أن يقفزوا بدورهم الى الوراء .

لو انني لم أبعث برسائل موسكاردو ، ولو انني لم أحاول التصرف في نبل ، أفكان هؤلاء الرجال الثلاثة يقفون هذا الموقف ؟ وكان اثنان منهم مرتبكين ، وقد تقدما الى الأمام قليلاً ، وأخذا يتلفتان يمنة ويسرة ، وكان أحدهما لا يدري هل يعطي الكتيبة وجهه أو ظهره ؟ وحدث أرنانديث نفسه قائلاً في هستيريا : إن المرء لا يدري أبداً أي موقف يتخذ حين يرحل القطار . . . ماذا لو انني تصرفت على نحو آخر ، أكان ذلك يغير من الأمر شيئاً ؟ إن هناك دائماً أشخاصاً يتصرفون على نحو مغاير ! . . .

وتقدم منظمو الموكب الجنائزي نحو الثلاثة المرتبكين ، وأمسكوهم من مناكبهم دون وحشية ، ووضعوهم في الوضع السليم ، وكان يبدو أن الأسرى الثلاثة يحاولون مساعدتهم في هذه المهمة ، ويجتهدون في فهم ما يراد منهم وتنفيذه . . . « وكأنهم يصطفون للسير في جنازة » . وإن تكن هذه الجنازة جنازتهم في واقع الأمر .

« ثمانية عشر ، تسعة عشر ، عشرون . . . » واصطف الأسرى في صفوف ثلاثة ، وكان الشخص الذي يعد أولئك الذين يجب أن يعدموا قبله لا يستطيع العد عداً صحيحاً . وهم ارنانديث بالالتفات ليخبره بالرقم الصحيح . بيد ان هذا الرقم لم يكن تسعة عشر ، ولم يكن عشرين : بل كان سبعة عشر . والتزم ارنانديث الصمت ، وكان أسير آخر قد قال شيئاً ما . . عن الموت بالطبع، وأجاب صوت آخر :

ـ « آه . كفى . . . كفى . . دعونا في سلام : هناك ما هو أسوأ . . . » ألا ليت ذلك لا يكون حلماً ، حتى لا يتكرر كل شيء مرة أخرى ! . » .

ألن ينتهوا أبداً من تنظيم أولئك الأسرى أمام فوهات البنادق الأفقية ،

وكأنهم يريدون التقاط صورة في حفل زواج ؟

طليطلة تتألق في النسيم المضيء المرتجف فوق سفوح جبال تاجة ، وارنانديث بسبيله الى فهم ما يصنع التاريخ ، وهذه مرة أخرى في تلك البلاد ذات النسوة المتشحات بثياب الحداد ـ يضاف فيها جيل جديد من الأرامل . . وما معنى نبل الخلق أو الكرم في فعلة كهذه ؟ ومن الذي يدفع الثمن ؟

ونظر ارنانديث في شغف الى طين الأرض ، أيتها الأرض الطيبة الجامدة ، لا يحس بالقلق والاشمئزاز سوى الأحياء .

أشنع ما في الأسرى شجاعتهم ، انهم مطيعون ، ولكنهم ليسوا سلبيين . ما أسخف صورة المجزرة هنا ! ذلك ان الرجال لا يذبحون كما تذبح النعاج ، بل ان قتلهم عناء ومشقة ، وتذكر ارنانديث براداس ، وتذكر سخاء النفس . ها هم أولاء الأسرى الثلاثة قد اصطفوا أخيراً في مواجهة البنادق ، والصورة الآن مهيأة . . . السخاء هو أن يكون المرء منتصراً .

وأطلق الرصاص ، وسقط اثنان في الحفرة ، على حين انكفأ واحد الى الأمام ، واقترب أحد منظمي الموت ، هل سيدفع الجثة بقدمه ؟ كلا ، لقد انحنى ، وسحبها من الذراع والساق ، الجثة ثقيلة ، لأن الأرض صاعدة وهذا الميت متعب حتى النهاية . الى الحفرة . ... ولكن ألن تنتهي هذه المهزلة أبداً .

وأصبحت المسألة مجرد عادة : الواقفون على اليمين هم القاتلون ، والواقفون على اليسار هم المقتولون . ووقفت أطياف ثلاثة جديدة هناك حيث وقف الآخرون ، واتخذ ذلك المنظر الأصفر المؤلف من مصانعُ مغلقة ، وقصور متهدمة طابع الأبدية الذي تتخذه المقابر ، والى أبد الآبدين ، سيقف ثلاثة رجال ، ليحل مكانهم ثلاثة آخرون دون انقطاع في انتظار الموت .

وصاح أحد الفاشيين : « لقد أردتم الأرض . . . وهأنتم أولاء تظفرون بها ! » .

وكان أحد الثلاثة هو محصل الترام ، والشمس تتألق فوق النسيج اللامع الذي يغطي كتفه اليمنى فوق المعطف الذي قاده الى الاعدام ، لقد كف الآن عن الاحتجاج ، ولم يبق أمامه إلا الانتظار . . . واستسلم كالآخرين لمن يضعونه في الموضع المطلوب دون أن يتفوه بحرف وكان لسان حاله يقول : « أنا لا أعبأ بسياستكم يا ابناء العاهرات » !

ومع حركة البنادق التي ارتفعت رفع قبضة يده مؤدياً تحية الجبهة الشعبية ، وكان رجلاً ضئيلاً هزيلاً مثل حبات الزيتون الأسود .

ونظر ارنانديث الى تلك اليد التي لن تلبث أصابعها بعد لحظة أن تتشبث بالأرض .

وترددت الكتيبة ، لا لأنها تأثرت ولكن لأنها تنتظر رد هذا الأسير الى النظام . . نظام المنهزمين ، انتظاراً للدخول في نظام الموتى ، وتقدم منه المنظمون الثلاثة ، فنظر اليهم المحصل ، وكان غائصاً في براءته كما يغوص الوتد في الأرض . نظر اليهم في كراهية ثقيلة مطلقة تنتمي الى عالم آخر .

وخطر لارنانديث . . لو استطاع هذا الرجل الفرار . . ! ولكنه لن يستطيع ، فقد أمر الضابط باطلاق النار !

وخطر لارنانديث . . لو استطاع هذا الرجل الفرار . . ! ولكنهم رافعين قبضاتهم .

وصاح الضباط : « انزلوا ايديكم الى جوانبكم » .

وهز الأسرى الثلاثة اكتافهم ، وما زالت قبضاتهم مرفوعة في الهواء وانحنى الضابط ليربط رباط حذائه ، وانتظر الرجال الثلاثة ، ثم اعتدل الضابط ، وهز كتفيه بدوره وأمر باطلاق النار .

وصعد ثلاثة آخرون من بينهم ارنانديث ، وقد شاعت في الجو رائحة الصلب الساخن والتربة المحروثة .

الجزء الثاني

نهر المانثانارس

(نهر وادي الرمل)

الوجود والفعل

الفصل الأول :

تدفقت على محطة أرانخويث الجماهير المذعورة الهاربة من طليطلة ، ورجال الميليشيا المجردون من السلاح القادمون من نهر تاجة ، والفلول الباقية من كتائب الفلاحين في اكستريمادورا . . ومثلما تتجمع أوراق الشجر في دوامات سرعان ما تذروها الرياح تبددت الجماعات التي تدفقت كالتيار في حديقة أشجار الكستناء الحافلة بالورود الحمراء القاتمة كالعقيق ، أو أخذت تجوس ـ كما يجوس المجانين في حديقتهم ـ في الطرقات التي تحف بها أشجار الدلب الضخمة .

وكانت فلول كتائب الميليشيا ذات الأسماء التاريخية مثل : « الذين لا يقهرون » و« النسور الحمراء » و« نسور الحرية » ـ يروحون ويغدون فوق بساط من الزهور المتساقطة الذي لا يقل كثافة عن بساط الأوراق الجافة وقد تدلت أذرعهم وأخذوا يسحبون بنادقهم من فوهاتها كما تسحب الكلاب ، وهم يتوقفون بين حين وآخر للإنصات الى صوت المدافع التي اقتربت من الجانب الآخر للنهر . . ومن خلال الطلقات الصاعدة من جوف الأرض ، والتي تكتمها كثافة زهور الكستناء الذابلة ـ ترامى صوت جرس قديم .

وتساءل مانويل :« كنيسة ، في هذه اللحظة ؟ » . . فأجابه لوبيز : « انه أشبه بجرس بستاني » .

ـ « انه صادر من ناحية المحطة » .

ولم تلبث ان صاحبت هذا الجرس أصوات أخرى صادرة من أجراس

كبيرة وصغيرة ، من أجراس الدراجات ، ومن أبواق السيارات ، بل من الأواني المنزلية ، من أعماق الحديقة تدفق حطام الحلم الثوري : من سيوف ، وأغطية مخططة ، وستائر ، وبنادق صيد ـ بل وأحدث القبعات المكسيكية كما تتجمع القبائل حول دقات الطبول .

قال مانويل : « ومع ذلك يستطيع المرء ان يقول:ان نصفهم شجعان على أقل تقدير . . . » .

فقال لوبيز : « المهم . . . أيها السلحفاة ، هو أنهم لم يحطموا تمثالاً نصفياً واحداً » .

وكانت التماثيل النصفية الشهيرة المصنوعة من الجبس مصطفة على طول الحديقة ، سليمة لم تمس تحت أشجار الدلب الشاعرية ، وقد سقطت عليها أضواء وردية منعكسة عن قوالب الطوب الأحمر . غير أن مانويل لم يكن ينظر اليها ، وتدحرج موكب الكرنفال صوب المحطة تحت أقواس القرميد التي تسبح في الضوء الوردي المنتشر في تلك المناظر الملكية ، وكأنه حظيرة طيور دوارة جلبها الأمراء من اميركا لحدائقهم في ارانجويز .

وما أن اتجه مانويل ولوبيز بدورهما صوب الجرس حتى اتضحت لهما كلمة واحدة هي : « القاطرة » وحدث مانويل نفسه بأنه ينبغي عليهم ألا يذهبوا الى مدريد بأي ثمن ! ولم يجد أية مشقة في أن يتخيل ما يمكن أن يحدثه وصول عشرة آلاف رجل قد هبطت معنوياتهم ، وأصبحوا متأهبين لتصديق أشنع الشائعات عقب سقوط طليطلة في الوقت الذي أخذت فيه مدريد تجهز دفاعها تجهيز اليائس .

وكانوا قد اقتربوا الآن من المحطة . . . ومن كل جانب ، ترددت كلمة دريد ـ مدريد ـ دريد ـ دريد كأنها صريف سرب من الصراصير الحانقة .

قال لوبيز : « سيقولون ان المغاربة قوم لا يقهرون ما داموا قد ولوا

أمامهم الأدبار !ولا بـد أن يكون المغـاربة أفضـل تسليحاً مـا دامُوا قـد لاذوا بالفرار . . بالطبع ! » .

ـ « لقـد لاذوا بالفـرار لأنهم لم يجدوا من يقـودهم ! . . . والـواقـع انهم كانوا من قبل يقاتلون مثلنا قتالاً طيباً » .

وتذكر مانويل باركا وراموس ورفاقه في القطار المصفح وزملاءه في تاجة ، كـما تذكـر أيضاً نقـابياً عجـوزاً كان يحمـل العلم في مظاهـرة منذ عـدة اعوام مضت ، وكانت قوات ضخمة من البوليس قد أوقفت المظاهرة ولكنهـا سمحت لهـا بمواصلة المسير عـلى شرط أن تـطوي أعلامهـا ، وصـاح المسؤولـون عن المظاهرة : « اطووا الأعلام ! » . وكان صوت مانويل قوياً غاية القوة ، وحين ردد الصيحـة نظر اليـه العجوز دون ان يقـول شيئاً : وكـأن وجهـه يقـول : « نعم ، إن لم يكن من ذلك بد ، ولكن كلما ابطأنا كان ذلك أفضل . . . فما زالت أمامك يا بني أمور كثيرة تحتاج الى تعلمها » .

لم ينس مانويل هذه الحـادثة قط ، ولم يكن نفس الأشخـاص دائماً عـلى خطأ . وكانت الرابطة التي تربط مانويل بـالبروليتـاريا منسـوجة من ذكـريات وولاءات لا تستطيع أية حماقة أن تفصمها . . حتى ولـو كانت خـطيرة كهـذه الحماقة . . . قال :

ـ « ليس من الصعب أن يقف المرء الى جانب أصـدقائـه حين يصيبـون وإنما أن يقف الى جانبهم حين يخطئون » . . .

ـ « تستطيع أن تحاول دائماً ! » .

وكـان ثمة شخص ملتـح يشبـه النجـاشي اذا شـوهـد في مـرآة تـطيـل الملامح ، قـد صعد الى سقف سيـارة ليموزين أمـام باب المحـطة . . أما في داخـل المحطة وفي دهـاليزهـا وفي صالـة الانتظار فقـد تزاحم النـاس تزاحمـاً شديـداً ، وكان من المستحيـل أن تجد عـلى الأرصفة مكـاناً لـطفل ، وفـوق هؤلاء جميعاً أطلت أشجار الميدان السامقة .

وصاح الرجل الملتحي : « من يستطيع قيادة قاطرة ؟ . . . هنا القطار و هنا القاطرة . . . هنا كل شيء ! » .

صمت مفاجىء . . . الجميع في انتظار المنقذ .

- « استطيع أن اجعل القاطرة تشرع في المسير » .

- « مادا ؟ » .

- « تشرع في المسير . . . »

وواصل الشخص الذي قال ذلك مدفوعاً ومحمولاً وسط صيحات لحماس . . . وصل الى سقف سيارة .

-« اجعلها تسير . . . أنا استطيع تسييرها » .

وكان المتحدث شخصاً وديعاً رث الثياب يضع نظارات ، أصلع الرأس قليلاً .

- « إني أحذركم . . . وبشيء من الحذر أستطيع قيادتها » .

وهبط حماس الجماهير ، واقترب مانويل ولوبيز من السيارة خطوة خطوة .

وصاح صوت : « هل تستطيع أن تهدىء من سرعتها ؟ » .

- « هيه . . . أظن ذلك » .

- « لكي يستطيع الأولاد الوثوب اليها في اثناء سيرها » .

ووصل مانويل الى سقف السيارة ، ثم صاح :

- « والجرحى . . . هل يقفزون هم أيضاً ؟ » .

وحاول الكثيرون التسلق فوق اكتاف رفاقهم ، ماذا يريد ؟ . . أن نزحف على مدريد سيراً على الأقدام ، أو ماذا ؟ هذا ضابط آخر . . .

- « ايها الرفاق . . . انصتوا إليَّ . . . إنني . . »

ولم يستمع اليه أحد ، بل غرقت كلماته في سيل من الصيحات اندفع من كل جانب ، فرفع ذراعيه الاثنتين . وهنا أمكنه الحصول على ثوانٍ ثلاث من السكون ، صاح فيهم :

- « إنني مهندس . . . ولهذا أقول لكم : انكم لن تستطيعوا التحكم في هذه القاطرة » .

وتهامست الجموع : « انه القائد القديم للقوات المصفحة » .

- « فلتتول أنت قيادتها ! » .

- « لا أعرف القيادة ، ولكنني أعرف الآلة حين لا يكون من المستطاع قيادتها . . وهؤلاء الذين يجازفون بالرحيل مسؤولون عن موت الفين من الرفاق . . وماذا عن الجرحى ؟»

ولحسن الحظ ، لم تكن هيئة السائق المتطوع توحي بالثقة . .

فصاحت أصوات في الجموع : « وما العمل اذن ؟ » .

- « اقترح شيئاً ! » .

- « انطق ! » .

- « نذهب سيراً على الأقدام ؟ » .

- « وماذا لو قطعت علينا الطريق ؟ » .

- « أصحيح أن نافالكارنيرو قد سقطت ؟ » .

- « وهل . . . »

وصرخ مانويل : « فلنبق هنا ! » .

والتفت الجموع حول نفسها في سخط عابس مرهق ، وخرجت من الحشد مئات الأيدي ، تتحرك في انفعال كأوراق الشجر التي يتقاذفها الريح ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى كتلة الأجسام المختلطة .

ـ « مضى يومان منذ أن . . . » .

ـ « المغاربة في طريقهم الينا !» .

وكان مانويل يعلم أنه لا وجود لامدادات .

ـ « ومن الذي سيطعمنا ؟ » .

ـ « أنا » .

ـ « ومن الذي سيؤوينا ؟ » .

ـ « أنا » .

انه اشبه الآن بمن يصد الأمواج ، ولكنه لم يكن على يقين من أن الأمواج لن تكون أقوى . . .

صاح فيهم : « ان قتال المغاربة أيسر من الوصول الى مدريد بقطار جامح » .

وخرجت الأيدي من الحشد مرة أخرى ، وكانت مغلقة هذه المرة ، انها قبضات ، ولكنها ليست للتحية .

قال لوبيز هامساً وكان قد صعد بدوره الى سقف السيارة : « سنهلك رمياً برصاص البنادق خلال ربع ساعة » .

ـ « لا أعبأبذلك، كل ما يعنيني هو ألا يضعوا أقدامهم في مدريد » .

وتذكر هينريش حين قال : « كل موقف حاضر يتضمن على الأقل عنصراً ايجابياً لا بد من العثور عليه ، واستغلاله » .

وشرع في الصياح من جديد :

ـ « لقد أصدر الحزب الشيوعي أوامره بالتزام النظام المطلق تجاه السلطات العسكرية ، فليرفع الشيوعيون منكم أيديهم ! » .

ولم يسارع الشيوعيون الى الكشف عن أنفسهم ، ولاحظ مانويل ان الميكانيكي الضئيل الأصلع الذي يقف الى جواره يضع على ثوبه نجمة الحزب .

سأله مانويل : « أين بندقيتك : ان الشيوعي لا يتخلى عن بندقيته » .

فنظر اليه الآخر ، وقال بلهجة لا يشوبها التهكم :

ـ « ولكنه يفعل ذلك كما ترى ذلك بعينيك » .

ـ « وبهذه الفعلة يخرج نفسه من الحزب ، أين شارتك ؟ » .

ـ « ها هي ذي يا عزيزي ، ولكن لا تصرخ على هذا النحو . . ماذا تريد أن تصنع بها ؟» .

وسقطت على سطح السيارة سبعة أو ثمانية نجوم قذف بها الجمهور دون أن تحدث سوى صوت ضعيف مكتوم .

قال لوبيز : « لن تمضي خمس دقائق حتى ينهال علينا الرصاص » .

ـ « الروح المعنوية هابطة أشد الهبوط » .

وبدأ مانويل في الصياح من جديد بملء صوته ، ولكن في تؤدة ليتيقن أنه مسموع .

ـ « لقد حملنا السلاح ضد الفاشية ، ونحن نعلم أننا قد نموت ، ولو اننا قتلنا في سوموسييرا لكان ذلك أمراً طبيعياً لا شذوذ فيه ، ولكن ، لماذا تغيرت الحال ؟ انه الارتباك » .

« لقد قال الحزب وقالت الحكومة : النظام العسكري أولا ، ونحن هنا قائدان ، وعلينا تقع المسؤولية » .

« وهكذا ينتهي الارتباك ، وستأكلون هذا المساء ، ولن تناموا في العراء ، لديكم الأسلحة والمؤن . . . لقد كنا منتصرين في سوموسييرا وسننتصر هنا أيضاً . . . قاتلوا بنفس الطريقة . . . هذا كل ما في الأمر ! . . » .

« ومن اليسير الدفاع عن النهر ، لأن الدبابات لا تستطيع عبوره » . وصاحت عشرات الأصوات :

ـ « الطائرات ؟ ماذا عن الطائرات ؟ » .

ـ « سنحفر الخنادق لنختفي فيها صباح غد . . . وهناك في الداخل مخابىء ارضية . . وسنستخدم السكاكين . . .

« إن الأمر لا يحتاج إلا أن نحارب في مدريد أو برشلونة أو في القطب الشمالي . . . ولن نسلم بانتصار فرانكو لكي نقع تحت رحمته عشرين عاماً خوفاً من أن يشي بنا عاهرة أو جار أو قسيس . . تذكروا ما حدث لأستوريا . . .

« ستكون طياراتنا الجديدة على أهبة الاستعداد بعد أيام . . .

« البلاد كلها تقف الى جانبنا . . . البلاد هي نحن . .

« وعلينا أن نصمد . . . أن نصمد هنا لا في أي مكان آخر . . .

« ولا ينبغي أن نقود جيشاً من المتشردين ، ويجب أن نبقى مع جرحانا » .

ـ « كفى » . . .

وصاح صوت كأنما ينبعث من أوراق الأشجار الجافة : « انهم يخدعونكم مرة أخرى » .

ـ « من ؟ اكشف عن نفسك أولاً ! »

ولم يتحرك ذلك الذي صرخ ، وكان مانويل يعرف ان الالتزام الشخصي له وزنه عند الأسبان .

ـ « لا وجود لأحد غيرنا . . نحن الآثنين ـ اللذين نقف أمامكم ـ لقد حاربنا منذ اليوم الأول ، وسنحمل المسؤولية على عاتقنا .

« وإني أقول لكم : إنكم ستنامون ، وستأكلون ، وانتم تعلمون أن من يحدثكم صديق لكم . . ولقد كنا معاً في ١٨ من يوليو . . وان روحكم المعنوية هابطة ،وليست لديكم الأسلحة الكافية ، وقد عضكم الجوع بنابه . . ومع ذلك بينكم من كانوا يهاجمون المدافع بالسيارات وثكنات الجبل بالمنجنيق ، والفاشيين في تريانا بالسكاكين وفي قرطبة بالمقلاع ، أنبئوني إذن يا أولاد : أكنتم تفعلون هذا كله لكي تولوا الأدبار الآن ؟ أقول لكم قولة رجل لرجل : إنني أثق فيكم على الرغم من صياحكم .

« واذا لم تحصلوا غداً على ما أعدكم به فأطلقوا النار . . وحتى ذلك الحين ، افعلوا ما آمركم به » .

ـ « عنوانك ! » .

ـ « أرانجويز ليست واسعة . . . وليس لديَّ أي حرس » .

ـ « فليقل . . . » .

ـ « كفى ! انني أتعهد بتنظيمكم ، وأنتم تتعهدون بالدفاع عن الجمهورية . . من يوافق على ذلك ؟ »

وتحت دوامات الأوراق الجافة التي تصاعدت حتى أعالي الأشجار تمايلت الجموع كأنها تلتمس لها طريقاً ، واهتزت الرؤوس المطرقة يمنة ويسرة ، وهي تسحب معها الأكتاف ، وكأنها ترقص رقصة وحشية تحت الأيدي المرفوعة في الهواء بأصابعها المتباعدة ، واكتشف لوبيز ان سلطان أي خطيب

لا يقاس إلا بما ينتج عنه من أثر ، وعندما قال مانويـل ـ « إنني أثق فيكم » ـ أحس الجميع أنه صادق فيما يقول ، وبدأوا يختـارون أفضل مـا في نفوسهم ، وشعر الجميع انه عازم عـلى مساعـدتهم ، وكان الكثيـرون منهم يعلمون انـه منظم ممتاز .

ـ « فليتقـدم الشيوعيـون الى السيارة عـلى اليمين ، فليست لكم حقـوق اكثر مما للآخرين ، وإنما عليكم واجبات اكثر . . مفهوم .

« أما المتطوعون فليتقدموا الى اليسار » .

وصاح صوت وسط الجلبة : « فلنبدأ تواً في حفر الخنادق » .

ـ « ستذهب الى الخنادق عندما يأمرك المسؤولون بالذهاب » .

والآن كان كل منهم يريد أن يصنع شيئاً ، وتدافعوا بالمناكب للانتظام في الصفوف كما كانوا يتدافعون مسرعين نحو القطار .

ـ « على المسؤولين عن الميليشيا أو عن الحزب أن يخلوا قـاعدة الانتـظار وأن يحتلوهـا ، سـأصـدر اليكم التعليمـات للحصـول عـلى الأسـرة وعـلى الطعام . . . أما الرفاق الآخرون فعليهم أن يمكثوا حيث هم » .

ـ « وسيحصل كل منهم على حشية أو مرتبة » .

ووثب من السيارة يتبعه لوبيز .

وسـأل هـذا الأخـير : « سيعـودون الى التـذمـر مـرة أخـرى بعـد خمس دقائق . . . أليس كذلك ؟ » .

ـ « نعم . . بـل ينبغي ان ينهمكوا في شيء مـا حتى يحين مـوعد نـومهم وسيكون كل شيء على ما يرام ، وعليك أن تبقى هنا » .

ـ « وماذا يمكن أن أصنع بحق الجحيم ؟ » .

ولم يكن لوبيز واهماً فيما يتعلق بقدرته على الزعامة . . .

- « دعهم يحصون أنفسهم ، وهذا شيء ضروري ، ما دمت أريد أن أخمدهم فليجمع كل مسؤول رجال وحدته أو منظمته ، وليعطك بعد ذلك عددهم ، ثم بعد تجميعهم ، فتتاح لي بذلك فسحة من الوقت مدتها ساعة ، إذ يوجد على الأقل خمسمائة رجل » .

- « حسن . . . فلنشرع في العمل » .

ولم يكن لوبيز ذا كفاية . . .

* * *

القى مانويل بنفسه على مقعد كان يجلس عليه الأسقف في حجرة رئيس أحد الأديرة ، وقد أخذ منه الارهاق كل مأخذ ، وجعل ينظر نظرة لا تخلو من الذهول الى التماثيل النصفية المصنوعة من الجبس المرصوصة في الحديقة وهي تلمع لمعاناً خافتاً في ظلام الليل ، وكأنها في حديقة فارسية ، وكان لوبيز قد اقترح نقل هذه التماثيل الى مدريد ، وأن توضع مكانها عقب الانتصار حيوانات « ذات دلالة » ، غير أن مانويل لم ينصت اليه . . وما أن ترك لوبيز حتى هرول الى لجنة الجبهة الشعبية . . وهناك وجد بعض الزملاء البارعين الذين يعرفون المدينة حق المعرفة ، وكانوا قد اختاروا هذا الدير مركزاً له ، وجمعوا ستمائة حشية وسريراً أو مرتبة . . وتبرعت فتيات ملجأ الأيتام بنصف فراشهن ، على أن تنام كل اثنتين منهن في فراش واحد بدلاً من واحدة وحمل كل ما يمكن حمله من الأديرة أو الثكنات أو مراكز الحراسة وكان على الباقين أن يكتفوا بالنوم على القش أو على البطاطين .

وفيما هو منهمك في عمله وصل الى المدينة وقد انتخبه الجنود ليكون حلقة اتصال بينهم وبين القيادة ، وكان الجميع قد آووا الى مضاجعهم بعد أن دقت العاشرة ، وأمضى مانويل ما يقرب من ساعة وربع الساعة في اتصال تليفوني بالحزب الشيوعي وبالفرقة الخامسة وبوزارة الحرب حتى استطاع الحصول على

وعد بتموين الرجال ثلاثة أيام متوالية ، على أن يتمكن من تنظيم التموين بعد ذلك في غضون تلك الأيام الثلاثة ، غير أن سيارات النقل لم تكن لتصل قبل الفجر ، وأياً كان الأمر ، فقد رحلت بعض العربات فعلاً تحمل طعاماً يكفي مائتين من الرجال ، وأصدر مانويل أوامره بأن يتناول الرجال طعامهم في الساعة الحادية عشرة . . .

وكان ينتظر أيضاً جنوداً مدربين من الفرقة الخامسة بحيث يمكن ان يقوموا بتدريب غيرهم ، أو أن يؤلفوا نواة فرقة جديدة .

وطرق الباب . . . انه الوفد عائد من جولته .

قال مانويل وقد أحاطت برأسه هالة من العذارى والقلوب المقدسة :

ـ « ماذا ؟ . . هل هناك متاعب أخرى ؟ »

ـ « لا شيء من ذلك ، وإنما الأمر على العكس . . انظر مثلاً ، أنت ورفيقك لستما من العسكريين ، ومع ذلك فقد توليتما القيادة . هذا واضح ، ونحن من جانبنا . . نحب ذلك ، لقد قلت كلاما سديداً : انهم لم يفعلوا كل ما فعلوه لكي ينتهوا مثل تلك النهاية ، وما وعدت به وفيت به حتى الآن ، وكنا نعلم أن هذا ليس بالأمر اليسير ، ومن ثم فقد أمعنا في الفكر ، نحن رجال الوفد ، والرفاق . . أفاهم أنت ؟ فوجدنا على سبيل المثال انك لم تكن مخطئاً فيما يتعلق بمسألة القطار » .

وكان المتحدث بلسان الوفد نجاراً له شاربان متدليان قد وخطهما الشيب ، وهناك في مؤخرة المتنزه كانت البلابل الشهيرة تغني بصوتها الرخيم .

« واليك ما انتهى اليه تفكيرنا : قلنا : لو اننا وضعنا حراساً لحماية المحطة ما تكررت حكاية اليوم . . وعندنا ما يكفي من الرجال ، ومن ثم جئنا لنقترح عليك مسألة الحراسة هذه » .

ومن وراء المتحدث وقف ثلاثة من زملائه يرتدون الزي العسكري منتصبي القامة ـ ووراءه خلفية الصومعة البيضاء : واحد الى الأمام وثلاثة وراءه ، وهذا هو التشكيل الذي تتخذه الوفود العمالية عادة . وكان شعور أولئك الرجال بأنهم يمثلون أمام واحد منهم حيوات ومواطن ضعف ومسؤوليات شعوراً واضحاً أشد الوضوح حتى ليحسب المرء انهم يجسمون الثورة في أبسط جوانبها وأثقلها وزناً . . . وكأن الثورة بالنسبة لذلك المتحدث هي الحق في أن يتكلم على هذا النحو . . . واحتضنه مانويل على الطريقة الأسبانية دون أن يقول شيئاً .

ولأول مرة أحس انه يقف وجها لوجه ازاء أخوة تتخذ شكل الفعل . . . قال : «والآن ، فلنلتهم طعامنا ! » .

ونزل الجميع معاً ، وكان المنظر كما توقع مانويل : ففي العنابر ، وفي القاعات ذات الأقواس ، وتحت التماثيل الزرقاء والمذهبة للقديسين الذين ظلوا في أماكنهم (علقت رايات حمراء على حراب القديسين المحاربين) ـ نام الرجال المكدودون نوم الجنود الذين أرهقتهم المعركة ، وسأل مانويل دون أن يرفع صوته كثيراً : « من يريد أن يأكل ؟ » . . . وكانت الاجابة غطيط جماعة من المتعبين : لن يطلب الطعام إذن سوى مائة من الرجال ، وعلى هذا ، فإن عربات المؤونة القادمة من مدريد تكفي . . ورن كعبا حذائه على بلاط الكنيسة ، فأحس بالخجل ، وبرغبة قوية في الضحك .

وعندما انتهى الرجال من تناول وجبتهم عاد مانويل الى لجنة الجبهة الشعبية ، وكان عليه أن ينظم هذه الليلة تسليح الرجال ، وأن يجد صابوناً ، وأن ينتهي عند الفجر من تكوين التشكيلات الجديدة . . . « من المضحك ان يكون الصابون ضرورياً للحرب » . . . ولم يكن يرى الأشجار في ظلمة الليل ، ولكنه كان يحس بأوراقها الوافرة عالية فوق رأسه ، وقد أخذت رياح الليل تنتزعها من أغصانها . . .

ومن أحواض الورد فاح عطر خفيف حجبته رائحة نبات البقس وأشجار الدلب المرة ، وكأنما حملت هذه الرائحة الأخيرة أصوات المدافع المكتومة من الضفة الأخرى للنهر ، ولم تكن سيارات المؤن قد وصلت بعد . . .

وكان أعضاء اللجنة ساهرين هم أيضاً .

وعندما عاد مانويل استوقفوه عند باب الدير . . .

فسألهم بعد ان كشف عن شخصيته :

- « بحق الجحيم ماذا تصنعون ؟ » .

- « نحن حراس البوابة » .

كم من هجمات شنها الفاشيون بنجاح بسبب فقدان الحراسة ! ونظر مانويل في الضوء الخافت المنبعث من الدير - الى فوهات البنادق فوق معاطف مبهمة : هؤلاء أول حرس تلقائي في الحرب الأسبانية .

الفصل الثاني

ليلة السادس من نوفمبر :

اصلحت ثلاث قاذفات للقنابل . . وكانت طائرة مانيان (التي أصبحت تسمى الآن جوريس (Juarès) قد وصلت فوق جزر البليار الليلية . وأخذت تحلق وحدها منذ ساعة فوق البحر ، وكان اتينييس هو الذي يتولى قيادتها ، وحول انوار ميناء « بالما » التي لم تطفأ جيداً أخذت قذائف المدافع المضادة للطائرات تنفجر من كل صوب ضد الطائرة غير المرئية ، كانت المدينة تدافع عن نفسها كأنها أعمى يصرخ مستنجداً ، وكان « مانيان » يبحث في الميناء عن طرادة من طرادات الوطنيين ، وعن السفن الناقلات للأسلحة .

وأخذت الأنوار الكاشفة تمزق حجب الليل أمامه وخلفه في خطوط متقاطعة . وقال في نفسه وهو متوتر الأعصاب : انهم كمن يقتل ذبابة بعيدان رفيعة . . . وكانت الطائرة تسبح في ظلام دامس اللهم باستثناء مكان القيادة .

هل تراهم يحاربون العدو أو يحاربون البرد ؟ كانت درجة الحرارة قد هبطت عشر درجات تحت الصفر ، وكان ضاربو المدافع الرشاشة يبغضون اطلاق نيرانهم وهم لابسون للقفازات ، غير أن صلب المدافع الرشاشة كان يلسع الأيدي من البرد ، والقت القنابل أضواء برتقالية على النافورات الليلية التي انبثقت حين سقوطها ، وأياً كان الأمر فإنهم لن يعرفوا احتمال اصابة

السفن إلا من وزارة الحرب .

وكان كل منهم يراقب من حوله انفجار القنابل المضادة للطائرات ، وقد تجمد وجهه ، واندس جسده في عفريتة الطيران المبطنة بالفراء وحيداً في أعماق الظلمة التي جثمت على البحر .

وأضيئت الطائرة فجأة : « أطفئوا الأنوار بحق السماء . . . » هكذا صاح مانيان ، ولكنه لم يلبث أن شاهد على وجه أتينييس وعلى خوذته ظلال نوافذ الطائرة ، ومعنى ذلك أنها أضيئت من الخارج .

وعادت الأنوار الكاشفة ، فأمسكت بالطائرة مرة أخرى ، ورأى مانيان رأس « بول » الطيب . وظهر « جارديه » الذي تقاطعت عليه البندقية الصغيرة ، لقد أغاروا على السفن ، وتجنبوا القنابل المضادة للطائرات في ظلام العاصفة تمزقه بين حين وآخر بروق القنابل الزرقاء ، وشملت أخوة السلاح الطائرة كلها حين شملها ذلك الضوء الذي يتهددها ، ولأول مرة منذ أن بدأت رحلتهم أبصر كل منهم الآخر .

انحنوا جميعاً صوب ذلك النور الذي جمع بينهم ، والذي يقصدهم في آن واحد ، وكانوا يعلمون جميعاً أن ثمة مدفعاً تحت ذلك الوكر .

وهناك على الأرض كانت الأنوار تنطفىء ، وطائرات المطاردة تتأهب للصعود بلا شك ، والظلمة تمتد حتى الأفق ، ووسط هذا الظلام كله هبطت الطائرة في حلقات لولبية ، وهي تهز رجالها السبعة الذين سقط عليهم ذلك النور الباهر هزاً عنيفاً ، دون أن تنجح في التخلص من الأضواء الكاشفة .

ووثب « مانيان » الى جانب أتينييس الذي كان يشد كمه مغمضاً عينيه ليتحاشى الضوء الذي يغشي الأبصار . . . لن تمضي ثوان ثلاث حتى تطلق المدافع المضادة للطائرات نيرانها .

وهناك داخل الطائرة وضع كل منهم يده اليسرى على محبس مظلته . . .

ودار أتينييس بالطائرة ، مصراً على أسنانه ، وقد تشنجت أصابع قدميه

على أجهزة التحكم متمنياً بكل خلية من جسمه أن يكون في طائـرة مطاردة ، وانعطفت قاذفة القنابـل كما تنعـطف سيارة النقـل ، وما فتىء النـور ملتصقاً بها .

وعلى بعد ثلاثين متراً انفجرت القنبلة الأولى ، فارتجت الطائرة . . . ولن تلبث المدافع المضـادة أن تصحح خـطأها ، وانتـزع « مانيـان » السماعـة من مساكة رأس أتينييس . .

وصـاح الطيـار : « عاصفـة ! » وهـو يصـور بيـده الحـركـة التي سيقـوم بها . . .

وكـانت هذه هي المنـاورة التي يستخدمهـا الطيـارون للتخلص من ريـح العاصفة عندما تفشل أجهزة التحكم ، وتتلخص هذه المناورة في الانقضـاض بثقل الطائرة كله .

واحتج « مانيان » بشاربه احتجاجـاً عنيفاً ، وسط ضجـة المحرك والنـور الأبيض ، وأشار الى ان الأنوار الكاشفة ستتعقب انقضاض الطائـرة ، وأشار بيده أيضاً الى ان الطائرة يمكن أن تنزلق انزلاقاً جانبياً تتبعه دورة .

وهبط اتينييس هبـوطاً يبـدو كالسقـوط ، وسط ضوضـاء أحدثهـا صليل الأجزاء المعدنيـة وحوامـل القذائف التي تـدحرجت داخـل الطائـرة وهوى في ظلمـة الليل ، ثم دار دورة ملتـوية عـلى هيئة حـرف S ومن تحته ومن فـوقـه كانت الأضواء الكـاشفة تمـزق الظلام وتـطعنه كـأنها أعمى يتحسس طريقـه بحسام !

واستـطاعت الطائـرة أن تتحرر من أسـر الضوء الكـاشف ، وهامت من جديد في الليل الذي بسط عليها حمايته ، وكما يستغرق الانسان في النـوم عاد طاقم الطائرة كل الى مكانه ، وأخذوا ينعمون بالراحة التي تعقب كل معركة في القمـة المثلجة التي شملت بحـراً لا أضواء فيـه ، غـير أن كـلا منهم كـان يتمثل الوجوه الأخوية التي تراءت لحظة قصيرة .

وبعد أن توقفت الطائرة برهة قصيرة في بلنسية بين غابات البرتقال ترك « مانيان » جوريس عند مدينة « البسيط » على أن تواصل رحلتها الى قلعة هنارس (عبد السلام) وهو المطار الأخير الذي تبقى للجمهوريين في اتجاه مدريد ، ومكث جزء من الطاقم في البسيط لاختيار الطائرات التي تم اصلاحها على حين نزل الجزء الآخر الى ساحة القتال في القلعة .

وكانت الكتائب العالمية تتشكل في البسيط ، وفي هذه المدينة الصغيرة الوردية المشوبة بلون أشبه بلون القشدة ، وفي ذلك الصباح البارد الذي يؤذن بمقدم الشتاء ـ كان آلاف الرجال يشيعون الحركة ـ كأنهم في مهرجان ـ في سوق زاخرة بمختلف أنواع السلع : من سكاكين وأوان وملابس داخلية وأحذية وأمشاط وشارات وحمالات ، وأمام كل حانوت يبيع أحذية أو قبعات وقف صف طويل من الجنود ، وكان بائع صيني جائل يعرض سلعته على حارس أعطاه ظهره ، والتفت الحارس فانسل البائع ، فقد كان الأثنان صينيين .

وعندما وصل « مانيان » الى مركز الكتائب كان المندوب الذي يبحث عنه ـ في معسكر التدريب ، ولن يعود منه قبل ساعة ، ولم يكن مانيان قد تناول غذاءه فدخل أول مشرب صادفه .

وهناك وسط الجلبة ، طفق سكير يصيح ، فعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذوها كان ينضم الى تلك الكتائب رجال من كل المستويات . وعندما كانوا يرفضون ، ويتم ترحيلهم في قطار الظهيرة كانوا يبذلون كل ما في وسعهم لمضايقة المسؤولين طيلة الصباح حتى يحين موعد رحيلهم ، وذات مرة تقدم للالتحاق بالكتائب صعاليك ليون جميعاً ، ولكنهم أوقفوا عند الحدود ، وأعيدوا الى المحطة التي جاؤوا منها ، فالكتائب تتألف من محاربين لا من كومبارس .

وصاح السكير : « لقد سئمت . . سئمت ! أنا الذي اجتزت المحيط الأطلنطي بطائرة تحمل أمير موناكو ، أنا المحارب القديم في الفرقة الدولية .

يا لكم من أوغاد ، عصابة من الأنذال ، أنتم الذين تزعمون أنكم ثوريون ! » .

وكان قد ألقى كوباً على الأرض ، وجعل يدوس على شظاياه .

ونهض شخص اشتراكي ، بيد أن سكيراً آخر منعه بيده . . .

ـ « دعه وشأنه ، إنه زميلي . . سترى انه من اليسير إسكاته ، وهو على هذه الحالة » .

وذهب الرجل وراء رفيقه الذي حطم الكوب ، وأمره قائلاً :

ـ « إلى الصف . . . انتباه ! » . . .

وقام السكير بالحركات المطلوبة منه فوراً .

ـ « الى اليمين . الى اليمين . الى الأمام . . . سر » .
واتجه السكير صوب الباب ، وخرج منه .

وقال الرجل وهو يعود الى زجاجة الكونياك :

ـ « ليس ثمة ما هو أسهل من ذلك » .

وبحث « مانيان » عن وجوه يعرفها ، فلم يجد أحداً ، وصعد الى الطابق الأول ، وهناك وجد ثلاثة من الطيارين المتطوعين يلعبون بالسلاميات على الأرض « لعبة العاشق » تحت صورة صاحب المشرب .

وكان عدد كبير من الطيارين المتطوعين قد عاد الى فرنسا ، أما هؤلاء فكانوا يديرون ظهورهم لمانيان عاكفين على لعبتهم في جو ذلك الصباح البارد ، وكانت النافذة مفتوحة ، ومع دحرجة سلاميات أسبانيا الكبيرة اقتحمت الحجرة طرقات واضحة أشبه بطرقات سنابك الخيل ، ولكنها منتظمة كطرقات الحدادين . والواقع انها كانت خطوات الجنود المكتومة . وأبقى المتطوع الذي ألقى بالسلاميات يده مرفوعة في الهواء ، على حين

استمرت السلاميات في الاهتزاز ، وارتجفت المنازل المبنية باللبن تحت دقات الأحذية الثقيلة التي مرت الآن تحت النوافذ ، وحتى اللعب نفسه اهتز تحت وقع الحرب .

وسار « مانيان » الى النافذة ، كان رجال الفرقة العالمية ، الذين لم يتخلصوا بعد من ثيابهم المدنية ـ وان انتعلوا الأحذية العسكرية ـ يذرعون الشارع الضيق بوجوههم العنيدة التي عرفت عن الشيوعيين أو بشعورهم المرسلة كالمثقفين ، وكان منهم البولنديون العجائز ذوو الشوارب الشبيهة بشواربنيتشه ، والشباب الذين يذكرون المرء بالوجوه التي تظهر في الأفلام السوفييتية ، ومنهم الألمان ذوو الرؤوس الحليقة ، والجزائريون والايطاليون الذين يشبهون الأسبان الحائرين بين الفرق العالمية ، والانكليز الذين يسترعون الأنظار أكثر من الآخرين جميعاً ، والفرنسيون الذين يشبهون توريز أو موريس شيفالييه ، وكانوا جميعاً متحمسين ، لا بفضل اجتهاد شبان مدريد وحرصهم على التعلم ، وإنما بتذكرهم للجيش الذي انتموا اليه ، أو للحرب التي اشتركوا فيها بعضهم ضد بعض ، وحين اقتربوا من الثكنات شرعوا في الانشاد . ولأول مرة في التاريخ أنشد رجال ينتمون الى أمم الأرض كافة نشيداً واحداً هو نشيد « العالمية » ، وقد اندمجوا في تشكيل عسكري واحد .

ودار مانيان على عقبه ، وعاد المتطوعون الى لعبتهم ، فما كانوا يسمحون لأحد بتعطيلهم عن اللعب .

وراوده الأمل الآن في انه سيكون قادراً على تكوين فرقة طيران أجنبية وكان قد أمضى خمسة عشر يوماً في برشلونة لتنظيم ورشة التصليح ، وليس من شك أن غيابه قد ضاعف من فوضى رجال المطار ، ولكن أياً كان الأمر فإن ست قاذفات قنابل ستتمكن من الطيران قبل مضي أسبوع ، وعاد المندوب الذي كان عليه أن يقابله بصحبة الرجال الذين مروا تحت النافذة ، وانصرف « مانيان » متجهاً صوب مركز قيادة الكتائب ، وقد عقد ما بين حاجبيه مستغرقاً في فكرته التي استولت على رأسه .

الفصل الثالث

- « كــلا . ولكن - وأرجـو المعــذرة - هــل سيستغــرق ذلــك وقتــاً طويلاً ؟ » .

بهذه العبارة صاح لكلير ، وهو يرتدي عفريتة الطيار ، وقد أضفت عليه خوذة الطيران هيبة رومانية ، وأخـذ يلوح بيديـه كطاحـونة الهـواء وسط أفراد طـاقمه في مـطار « القلعة » . وعـلى بعد ثـلاثـين متـراً هنـاك حيث لا يصـل صوته - كان أحد أصدقاء « سمبرانو » وهو قائد كتيبة يدعى كارنيـرو - يراقب بنظارة مقربة سماء مدريد ، وكان الطقس رديئاً .

- « لماذا لا نتقدم ؟ انهم لن يزيدوا عن كـونهم ألمانـاً في نظري حتى ولـو عنَّ لهم أن يتنكروا في زي الملائكة ! » .

وصعـد كـارنيـرو الى طـائـرتـه ، وجعلهـا تنتـظم في الصف استعــداداً للطيران . وكان « الكاربوراتير » في طائرته معطلاً ، ولهذا عهـدت اليه قيـادة الطيارة « جوريز » بطاقم اسباني ، وتبعه لكلير ، ووراء قاذفة قنابل اسبانية ، وكانت طائرات المطاردة الجمهـورية - وهي مجهـزة تجهيزاً ضعيفـاً - تحوم فـوق القلعة فعلاً .

وهذه الطائـرات وصلت من اميركـا دون ان تكون مزودة بمـدافع رشـاشة جديدة .

وهكذا استمرت قوات الحكومة تقاتل بطائرات لويس الأسبانية من طـراز

سنة ١٩١٣ .

وكان لكلير منذ أن تحطمت طيارته « الأوريون » ، وكلف قيادة الطيارة « بليكان رقم ١ » المصنوعة من أجزاء طيارتين أخريين ـ كان قد تخلى عن قبعته الرمادية ، ووضع على رأسه خوذة جلدية أضفت عليه طابعاً رسمياً جاداً .

وسأل ضارب المدفع الألماني في « بليكان رقم ١ » : « وأين الترموس ؟ » ولم يكن قد رآه الى جانب مقعد لكلير .

ـ « اليوم . . أرجو معذرتك، فسأقوم بعملية قيصرية ، المسألة أخطر مما تتصور . . . » .

ولم تمض بضع دقائق حتى كانت الطائرات الثلاث تتبعها طائرات المطاردة ـ تحلق فوق مدريد ، وكان الأعداء يحتلون المطارات التي كانت تستخدمها طائرات البليكان اللهم إلا مطار « باراخاس » ، وعلى جميع الطرقات حركة لا تنقطع ، وأمام خيتافي تحول حقل من الحقول الى حديقة لسيارات النقل ، وكان هذا كله يفتقر الى الحماية إلى درجة يبدو معها من المستحيل أن تكون أرضاً للعدو .

وكان لكلير يراقب من مركزه في أقصى اليمين من التشكيل الطائرتين الأخريين اللتين كانتا تختفيان دون انقطاع في السحب الواطئة جداً مراقبة دقيقة ، وفوقهما كانت تحلق طائرات المطاردة لحمايتهما . وفي لحظة كانت السحب تقترب من الأرض الى درجة يحسن معها أن ترتفع الطائرات عنها ، وبين طبقتين رماديتين ، كانت ظلال الطائرات التي اتخذت تشكيل القتال تملأ الفضاء الشاحب بأجنحة الحرب السوداء ، وخرج التشكيل من السحب فوق الحديقة التي امتلأت بسيارات النقل .

وعلى جانبي الطريق لم تكن الطرق شيئاً آخر سوى سيارات فرانكو التي

التصقت الواحدة منها بجوار الأخرى، وكان الطابور الميكانيكي القادم من نهر تاجة يصل الى أبواب مدريد .

وهبطت طائرات المطاردة الفاشية من السحب العليا ، وكانت سبع طائرات من طراز فيات ، لا التباس في التعرف عليها نظراً لحرف W الذي يصل بين أجنحتها ، وهنا انطلقت طائرات المطاردة الحكومية التي توجد على ارتفاع اعلى منها ـ بكل سرعتها ، واتجهت لملاقاتها .

وبدأت استحكامات العدو في اطلاق نيرانها .

وكانت المدافع الألمانية المضادة للطائرات قد وصلت الى مدريد بالجملة ، وأخذت قنابل المدافع السريعة الطلقات تنفجر الواحدة على بعد خمسين متراً من الأخرى ، وتذكر لكلير أن أجنحة طائرته تمتد على ستة وعشرين متراً ، ولم يكن قد رأى حتى في سنة ١٩١٨ مثل هذه الاستحكامات . ولم يكن الرماة الألمان يصوبون على قاذفات القنابل ، ولكنهم كانوا يصوبون على بعد عدة مئات من الأمتار الى الأمام، وفي الارتفاع المضبوط، حتى لقد بدت الطائرة كأنها تلقي بنفسها في منطقة الخطر . فيما وراء ذلك بمسافة بعيدة شرعت طائرات المطاردة في القتال ، وانقض لكلير ، فانخفضت منطقة انفجار القنابل المضادة .

قال قاذف القنابل : « إن المدافع مجهزة بأجهزة أوتوماتيكية للتصويب » وكان لكلير لا يكاد يستطيع متابعة المعركة الدائرة بين طائرات المطاردة التي كانت خطوط سيرها المتشابكة توحي بأنها على وشك السقوط ، وبأنها تقوم بحركات بهلوانية في آن واحد .

وكان ضاربو المدافع الرشاشة يراقبون سير المعركة ، أما قاذف القنابل فكان يراقب الأرض ، ولم يحول لكلير عينيه عن طائرة كارنيرو التي كانت تصعد وتهبط ، وتنحرف ، ولكنها تلتقي دائماً بالقنابل المضادة التي اقتربت منها فجأة ، ولما كان لكلير مرتبطاً بطائرة قائد المجموعة في ذلك الاضطراب

العام كما يرتبط الأعمى بمرشده ، وقد استولى عليه الاحساس بأنه وإياه شيء واحد ـ فقد حمل على الاستحكامات في اصرار الدبابة .

وكانت الاستحكامات على بعد مائة متر .

وتقاربت القنابل والطائرات بعضها بعض دفعة واحدة ، وقفزت طائرة لكلير الى أعلى عشرة أمتار ، على حين انكسرت الطائرة « جوريز » من منتصفها فنثرت ركابها الثمانية في السماء الرصاصية كأنهم حفنة من البذور ، وأحس لكلير ان الذراع التي كان يتكىء عليها قد بترت ، وأمام الرجال المتساقطين الذين بدوا كأنهم نقاط سوداء حول مظلة مفتوحة واحدة ـ شاهد وجهين مذعورين هما وجها قاذف القنابل وضارب المدفع الرشاش الأمامي ، فدار دورة حادة ، ثم أطلق طائرته بأقصى سرعتها متجهاً صوب القلعة .

* * *

« لم أر شيئاً كهذا في حياتي حتى أثناء الحرب » . أخذ لكلير يردد هذه العبارة منذ أن قطع البنزين استعداداً للهبوط ، وأحاط به في المطار رجال الطاقم دون أن يجيبوا عليه .

واتجه لكلير بثغر ارتسمت عليه المأساة : وبنظرة شخص عاد لتوه من الجحيم ـ اتجه بخطوة متزنة صوب مركز القيادة .

وهناك كان ينتظره فارجاس جالساً على مقعد وثير ، وقد مد ساقيه الطويلتين ، والتفت بوجهه الضيق صوب السحب الواطئة التي ملأت النافذة . وكان يرتدي في هذه اللحظة بزته الرسمية .

وشرع لكلير يروي بلهجة بطولية أنباء غارته ، وحين بلغ في روايته الى سقوط طيارة كارنيرو ، سأله فارجاس :

ـ « ماذا كانت تعليماتك ؟ » .

- « نسف طابور خيتافي »[1] .

- « وهل كانت سيارات النقل أمام حديقة السيارات فعلاً ، وكانت مرصوصة في صف واحد ؟ »

- « أجل . ولكن لم يكن من الممكن اجتياز الاستحكامات . . والدليل على ذلك ، سقوط كارنيرو! » .

وعندما لم يكن لكلير يجرؤ على الكلام بلغته الخاصة كانت لهجته تتحول الى لهجة ادارية ، وتفقد كل ما فيها من بساطة .

وأعاد فارجاس قوله : وهل كانت الاستحكامات في ارتفاع الحديقة ؟».

- « أجل » .

- « ولكن هل كانت سيارات الى الأمام . . متجهة نحوك ؟ » .

- « . . . أجل . . »

- « أخبرني : لماذا عدت بقنابلك ؟ » .

وأدرك لكلير لتوه أنه قد لاذ بالفرار :

- « كانت هناك طائرات الأعداء المطاردة » .

وكان الاثنان يعلمان أن طائرات المطاردة قد انهزمت على بعد كيلومترين من هذا المكان ، وحتى لو أن لكلير قد هوجم لكان من الواجب عليه أن يلقي قنابله موازية للاستحكامات ، وعلى طائرات المطاردة أن تقوم بالقتال . وكان مانيان قد قام بكثير من غاراته على خطوط الأعداء في معمعان القتال .

وسأله فارجاس : « لقد عدت بقنابلك ، أليس كذلك ؟ » .

---

(١) خيتافي ضاحية من ضواحي مدريد (المترجم) .

ـ « لم يكن هناك ما يبرر القاءها جزافاً . . . على رجالنا . . وفضلاً على ذلك . . فقد كان المحرك يدق . . » .

بيد ان احساس فارجاس بأن لكلير لم يكن جباناً بأية حال قد زاد من مرارته لدى سماعه وهو يجيبه إجابة طفل قفز من سور المدرسة ! .

وأمر باستدعاء رئيس ضاربي المدافع الرشاشة وقاذف القنابل والميكانيكي الذين كانوا ينتظرون في الخارج ، وسألهم فارجاس : « كيف كان المحرك ؟ » .

فالتفت ضارب المدفع الرشاش لكلير ولكلير صوب الميكانيكي الذي أجاب بقوله : « لم يكن على ما يرام تماماً » . . .

ـ « ماذا ؟ » .

ـ « لم يكن . . . » .

ونهض فارجاس ، قائلاً : « حسن ، أشكركم . . . » .

وقال لكلير : « لم يكن في استطاعتنا القاء القنابل . » .

فردد فارجاس قوله : « أشكركم » .

الفصل الرابع

تـولى اسكالي قيـادة المطار نـظراً لغياب مـانيـان في « البسيط » وارتـدى الـزي العسكري لأول مـرة وفقاً لتعليمـات وزارة الحرب ، ذلـك ان الاثنين اللذين همـا أحق منه بتـولي هذه القيـادة كان أحـدهمـا في المستشفى ، وكـان الآخر وهو كارليش في مدريـد لتنظيم وحـدات ضاربي المـدافع الـرشاشـة في أقرب وقت ممكن ، وكان اختفاء كل وسيلة للقهر في فرقة الطيران العالميـة كما هي الحـال في نصف الجيش الأسبـاني ـ يجعـل سلطة القيـادة مقصـورة عـلى السلطة الشخصية التي يتمتع بهـا من يتولى تلك القيـادة ، وفي هذا المـطار لم يكن الرجال يطيعون سوى شخصين هما : مانيان ، ورئيس الطيـارين ، وهو شاب يكاد يكون حدثاً يتخذه الجميع صديقاً ، وكان قد أسقط أربع طائرات فاشية ، ولكنه كان مشغولاً منذ أول أمس بمكافحة الحمى التي أصابته وذراعه المبتورة .

وكان اسكالي يمـزح قائـلاً : إن احد رجـال « البليكان » قـد ختم على بطن رابلاتي الـوردية شعـار الفرقـة حتى لا يضل الكلب حـين استدعي للرد على التليفون .

وكـان سمبرانـو هو المتحـدث ، قال لـه : « سأبعث اليـك بـواحـد من طيـاريك » . ولم يكن من شـك ان الطيـار قد رحـل منذ مـدة طويلة . اذ لم تنقض بضع دقائق حتى وصل لكلير في سيارة نقل ملفوفاً كالـديك الـرومي ، يحوطه أربعـة من رجال الميليشيـا مثبتين السـونكي في بنادقهم ، وكـان رئيس

التاكسي جيش رانجل وجميع المنبوذين ، كنت أعرف ذلك قبل فرانكو . . فأنا شيوعي قبل الحرب » .

قال داراس في رفق : « قبل الانقسام . هيا بنا - يا عزيزي ، فالكل يعلم انك لا تمت الى الحزب بصلة ، وهذا لا يمنع أنك شخص طيب ، ولكن لا صلة لك بالحزب » .

وكان الجرح الذي أصاب قدمه قد التأم ، وقام أمس بغارة شبيهة بتلك التي فشل فيها لكلير .

وحملق فيهما لكلير : اسكالي بنظارتيه المستديرتين ، وسرواله الطويل الذي تنفخه الساقان ، ومظهره الشبيه برجل اميركي مضحك يشترك في فيلم عن الطيران ، وداراس بوجهه المسطح الأحمر ، وشعره الأشيب وابتسامته الهادئة ، وصدره الذي يشبه صدر المصارع ، والتزم الصمت كل من ضارب المدفع الرشاش والميكانيكي .

- « المسألة الآن هي مسألة الحزب ؟ هل طلبت مني بطاقة العضوية عندما نسفت مصنع الغاز في طلبيرة ؟ إنني فريد . . . شيوعي فريد ، هذا كل ما في الأمر . . كل ما أريده هو أن تتركوني في سلام . . وأنا عدو للتماسيح الذين يريدون أن يعضوا أضلعي . . هل فهمت ؟ طلبيرة . انها أنت ،قل لي : انك أنت ؟ » .

قال اسكالي وهو يتأبط ذراعه : « كلنا نعرف انه انت . لا تزعج نفسك . هيا الى النوم » .

وكان اسكالي يعتقد مثلما يعتقد مانيان نفسه أن هروب هذا الأخير لم يكن عن جبن ، وإنما كان مجرد حادثة ، وكان تشبثه في هذه اللحظة بذكرى طلبيرة ، يمس شغاف قلبه ، بيد أن هناك دائماً شيئاً بشعاً في الغضب ، وشيئاً أبشع منه في شدة السكر ، وأضفت هذه الحالة على وجه لكلير الهزلي ارتخاء في منخريه ، وانتفاخاً في الشفتين ، فظهر الحيوان فيه .

ضاربي المدافع الرشاشة في الطيارة « بليكان رقم ١ » والميكانيكي يرافقانه ، وهما أقل منه سكراً ، ولم يلبث رجال الميليشيا ان انصرفوا .

وكان لكلير قد عقد عزمه بعد أن ترك « فارجاس » أن يسكر حتى الموت ، واصطحب معه زميليه ، وأمر إحدى سيارات المطار بالمسير دون تصريح ، واستقلها متجهاً الى براخاس حيث يعلم انه يمكنه الحصول على ما يشاء من الخمر ، وهناك احتسى ست كؤوس من البرنو دون أن يتفوه بكلمة ، ثم انفكت عقدة لسانه . والنتيجة : سيارة النقل .

وأفاق من سكرته على مهل ، وتساءل « اسكالي » وقد حمل كلبه تحت ابطه . ماذا سيفعلَ لو استبد الهياج بلكلير؟ فليس من شك ان هذا القرد الضخم بيديه الطويلتين وشعر رأسه المنتصب كالمهرج - ليس من شك أنه يتمتع بقوة هائلة ، وعقد اسكالي عزمه على ألا يستنجد برجال الميليشيا إلا بعد أن تتجاوز الأمور كل حد ، وكان رجال الطيران ينظرون الى لكلير من بُعْد يتقاسمهم العداء وحب التهريج ، وعاد اتينييس الى الظهور متلفعاً بالصمت بعد أن غاب عنهم ، وأدرك اسكالي انه قد عاد ليقدم له يد المساعدة اذا اقتضى الأمر ، وأخيراً انزل الكلب الى الأرض .

وبينما كانوا يحلون وثاق لكلير شرع هذا في خطبة عصماء :

- « أجل ! انني رجل فظ شديد المراس ، وهذه هي الصفة البارزة في الجنس ، الجنس الذي يصنع الثورات ، هل تفهمني ؟ ولكن أرجو أن تلتمس لي عذراً اذا قلت : انني لا أتعامل مع صغار الطيارين من أمثالك ومن أشباه الموظفين المتقاعدين . . . مجرد أشخاص بسطاء . . ! أما أنا فشيوعي قديم ، ولست ألعوبة ، أو سجقاً منفوخاً ، وعليك أنت أن تفسر لي المسألة أو تراها الغدة الصماء هي التي تؤثر عليك ؟

انني أعرف الى أي صنف ينتمي أنصار فرانكو منذ أن زاحمنا في

ردد اسكالي : « هيا الى النوم » .

فنظر اليه لكلير نظرة منحرفة ، وقد تغضن جفناه ، وتحت قناع السكير ظهر مكر الفلاح البدائي .

ـ « انت تعتقد انني ثمل . . . أليس كذلك ؟ » .

وكان ينظر اليه دائماً من طرف عينه .

« أنت على حق . . هيا بنا الى الفراش » .

فناوله اسكالي ذراعه ، وفي منتصف السلم التفت اليه لكلير قائلاً : « وأنا أحتقرهم جميعاً . . هؤلاء الأوغاد » .

وعندما وصل الى الطابق الأول احتضن اسكالي وهو يقول : « لست جباناً . . أتسمعني . . أنا لست جباناً . . . » .

وطفق يبكي ، وهو يردد :

« المسألة لم تنته بعد . . . لم تنته بعد . . . » .

* * *

جاء « نادال » لاجراء تحقيق صحافي عن رجال طائرات « البليكان » لحساب صحيفة بورجوازية ، تحت ضمان السفارة الأسبانية في باريس. . ووضع بعض هؤلاء أنفسهم تحت تصرفه في شيء من التعالي ، ومن التلذذ الخفي ، وكان طاقم الطائرة « مارا » المؤلف من داراس واتينييس وجارديه . . الخ ، يحررون بياناً . أما جيم آلڤير الذي كان يجلس آنذاك في قاعة الطعام مع اسكالي واضعاً نظارة سوداء مكان الضمادة فقد قرر أنه لا جدوى من أية محادثة ، ومن ثم فقد جلس بجوار نافذة مغلقة يستمع الى الاذاعة . وكان « هاوس » قد أملى ثلاثة أعمدة .

« ونادال » فتى ربعة القوام مجعد الشعر ، ذو عينين بنفسجيتين تقريباً ، ومن الممكن ان يكون معشوقاً للنساء ، لو لم يكن كل شيء فيه شديد الاستدارة . وجهه وانفه ، بل ان حركاته الانسيابية ، تكاد تتفق مع شعره المموج ، وكانوا قد أفضوا اليه بأن لكلير هو أطرف شخصيات رجال الفرقة ، غير أن لكلير كان يبغض الصحافيين بغضاً شديداً ، ولو أن أحداً منهم خاطبه لشج رأسه على حد تعبيره . . . وفضلاً على ذلك فقد كان نائماً في تلك اللحظة .

وعاد اتينييس يحمل بيان طاقم الطائرة مارا ، وكان كالآتي :

« نحن لم نسع الى هذا المكان بحثاً عن المغامرة . وسواء أكنا ثوريين لا ننتمي الى أي أحزاب أم اشتراكيين أم شيوعيين فقد عقدنا العزم على الذود عن أسبانيا ، وأن نقاتل حيثما وجدنا الظروف الملائمة . . فلتحيا حرية الشعب الأسباني ! » .

ولم يكن هذا مما يهتم له نادال : ذلك أن صحيفته كانت توزع على قراء آخرين . . على اكثر من مليون عامل ، فما ينتظره منه رئيس التحرير انما هو شيء من الليبرالية ، ومن الثناء على هؤلاء الطيارين الظرفاء « وخاصة الفرنسيين منهم » ، ومن الوصف المفخم للمتطوعين ، كما كان ينتظر منه شيئاً من التعاطف مع الآخرين ، ومرثية تستدر الدمع على الشهداء وعلى أصحاب الجروح الخطيرة (للأسف . . . لم يكن جيم . . . أخيراً وبعد كل شيء إلا اسبانياً) ـ ولا شيء عن الشيوعية ، وأقل القليل عن المعتقدات السياسية .

وعليه أن يبحث ـ لحسابه الخاص ـ عن بعض الحكايات ، ولتكن جنسية بوجه خاص ، فربما كانت عودة الصحافي ليقص على زملائه هذه الحكايات ، هي اكثر الجوانب رومانسية في التحقيق الصحافي .

وكان مشغولاً في الوقت الحاضر بالكذابين ، ولكنه لم يكن ممن يصدقون

ذلك الكذب ، بيد أنهم كانوا ينسجون حكايات طريفة ، وكان يقول لنفسه : إن هناك روائياً داخل كل أحمق ، وليس عليه إلا أن يختار ، وبدأ بشخص يقول : « رجالي » (وإن لم يكن ذلك بصوت مرتفع جداً) ، وعندما أخذ نادال يدون ملاحظاته تذكر عبارة كبلنج : « فلننتقل الآن الى الجانب الآخر ، ولنستمع أيضاً الى السخافات » . وهذا ما فعله .

وجاء الآن دور الهاربين من الجيش الفرنسي أو الجيش الانكليزي ، وكان أكثرهم قد تزوجوا اسبانيات ، واستطاع أن يحصل منهم على صور زوجاتهم وهو يقول لهم : « إن لصحيفتي جمهوراً نسائياً كبيراً » . ثم جاءدور المأجورين الذين اسقطوا رسمياً اكثر من ثلاث طائرات فاشية ، وكان هؤلاء يتحدثون عن المتطوعين بقولهم : « السياسيون » وعن أنفسهم بقولهم : « المحاربون ولكنهم لم يكونوا مضللين ، وأطلعوه في شيء من الحذر على مذكراتهم الخاصة بالطيران

واهتم بعد ذلك ببعض الرجال ذوي السمعة السيئة ، وبعض المشاغين ، وكان قد ترك المتطوعين على أساس أنهم أقل الناس طرافة ، كما انهم لم يكونوا يكذبون بما فيه من الكفاية .

وما أن هم بتدوين بعض ملاحظاته من مذكرات أحد الطيارين ، وبعد ان انتقل نصف علبة من الحلوى - كان قد تهور وأظهرها - الى جيب بول - حتى خيم نوع من سكون ، وشاع ضرب من الانتباه الشديد جعله يرفع رأسه :

كاد لكلير يهبط درجات السلم ،وقد لوى وجهه وحنى ظهره ، وظهرت خصلات شعره الأسود من تحت القبعة الرمادية ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة قلقة ، وبدت ذراعاه أطول من المعتاد ، فنادى عليه ضارب المدفع الرشاش في الطائرة « بليكان رقم ١ » وهو يشير الى نادال : « هذا كاتب جاء ليكتب عنا . . تعال ، اشرب كأساً مع زميلك » . وجلس لكلير .

ـ « إذن فأنت كاتب أيضاً . . أيها الغندور ؟ ماذا تكتب ؟ » .

ـ « اكتب قصصاً قصيرة ، وأنت ؟ » .

ـ « روايات طويلة . . وكنت شاعراً أيضاً . . . وأنا الشاعر الوحيد الذي باع بضاعته كلها من أجل الطيران . . أن قطاع الطرق اذا وقع في أيديهم سائح يسلبونه كل ما يملك . . أما أنا فلم أكن أفعل ذلك قط وإنما كنت أرغمهم على شراء كتابي لأنه ثمرة عمل . . ولم أكن آخذ منهم أكثر من خمسة عشر فرنكاً . . وبذلك نفذت الطبعة . . وكان عنوان الكتاب هو « ايكاروس الطائر » . وقد سميته ايكاروس لأنه يجمع بين الشعر والطيران . . . أفهمت؟ » .

ـ « وهل تكتب الآن ؟ » .

ـ « كلا . . لقد هجرت الكتابة . . ولكنني استطيع أن أخط نماذج بالمدفع الرشاش » .

ـ « وما نوع المدفع الرشاش الذي تستخدمه ؟ » .

وأقبل اتينييس وداراس الى جوار اسكالي للاستماع الى المذياع الذي يملكه جيم ، بعد أن وقعا بيانهما .

وكان جيم يقضي نصف حياته ، منذ أن فقد بصره ، في الاستماع الى المذياع ، وترك داراس الجهاز ، ذلك أن سؤال نادال الأخير لم يقع من نفسه موقعاً حسناً .

ولكن كلا . . فليدع المهزلة تستمر دون أن يتدخل ، ولم يكن لكلير قائداً لطائرة من طائرات المطاردة ، ولم يستخدم مدفعاً رشاشاً منذ أن انضم الى هذه الفرقة ، أما نادال الذي واصل المناقشة وهو يمضغ غليونه متخذاً هيئة الخبير المحنك فكان يجهل أن طائرات الحكومة الأسبانية من طراز « لويس » لم تكن مزودة بالمدافع الرشاشة ذات الحزام ، وإنما مزودة بمدافع

من طراز آخر ، ولهذا لم يفقه حرفاً واحداً مما كان يرويه لكلير .

وسأله : « هل تطيب لك الحياة هنا ؟ » .

ـ « أجل . . هذه هي الحياة الحق . . . ماذا كان يمكن أن أصنع في باريس: قيادة سيارة ركاب ، أو بالأحرى عربة أطفال ؟ لم أصل الى هذه الدرجه بعد . . لأنك اذا كنت من اليساريين ، فلن تتاح لك أية فرصة . . . فهل التقط فتات المهن الباقية ؟ كلا . . أما هنا . . فالرجل هو الرجل . . وهكذا ـ وأرجو المعذرة ـ كنت في طلبيرة ، وتستطيع أن تتحرى عني من أي إنسان ، لقد جعلت مصنع الغاز كالعجة المشتعلة ، وهذا أيضاً ما فعلته بفرانكو . . أنا لكلير قد أوقفت فرانكو ـ لا تؤاخذني هل فهمتني ـ وهؤلاء الفتيان ـ من حولك ـ أنظر اليهم، هل تعتقد أن سحنهم توحي بأنني جئت لأقودهم سعياً وراء ميدالية البطولة ؟ »

وحول الفرن الضخم القائم في مؤخرة الصالة تحت الملصقات الثورية ، أخذت أسرة الطباخ تروح وتغدو كعادتها ، على حين كان بعض رجال البليكان يطالبونهم بطلبات اضافية من الطعام .

وكان اتينييس ينصت اليهما أيضاً . . دون أن يحول انتباهه عن المذياع ، وجعل يراقب في فضول ما يدور بين الرجلين ، على حين أخذ لكلير يكور فتات الخبز بين أصابعه ، ويكاد من يقذف بها في وجه نادال ، كما لم يكن صوته ينم عن الود بالقدر الذي عبرت عنه أقواله .

ـ « لقد طفت طلبيرة بطائرة من طراز « أوريون » . . هل تعرف معنى ذلك ؟ ان هذه البلاد هي بلاد مصارعة الثيران ، أما نحن فقد كنا نملك قطيعاً من العجول ، وبالعجول استطعنا أن نسدد ضربتنا . . هل فهمتني ؟ » .

وارتطمت كرة من الخبز بأنف نادال ، وتابع اتينييس اللعبة ، وهو أشد تلهفاً ، وتظاهر نادال بالضحك ، وهو عازم على أن يثأر لنفسه في التحقيق

الصحافي الذي سيكتبه .

وسأل : « ما نوع الأسلحة التي تستخدمونها في طلبيرة ؟ » .

ـ « نستخدم البلح . . ونضع مدفعاً رشاشاً عند إحدى النوافذ ، ونقوم بتوسيع فتحات المراحيض لنسقط قنابلنا من خلالها » .

وقال جارديه بلهجة المتخصص الفني :

ـ « ومدافع للطائرات نضعها على حوامل خشبية بثلاث أرجل » .

وأجاب نادال بلهجة يشوبها ضرب من الازدراء المتألم :

ـ « كانت أسلحتنا لا تزيد على ذلك في فيلا كوبليه . وهذا شيء واضح ـ من العار أن تطلب من الرجال دخول المعركة بمثل هذه الطائرات ولما لم يكن للمدفع الرشاش الذي تحدث عنه جارديه أي وجود فقد ضحك رجال طائرات البليكان في رفق .

وصاح اتينيس : « أنتبهوا ! » .

وكان مذيع المحطة المتمردة التي يستمع اليها (وربما كانت اذاعة منقولة من راديو اشبيلية !) ـ قد ذكر كلمة طيران ، فرفع جيم من صوت المذياع :

ـ « ولقد أغرنا على صفوف الشيوعيين بنجاح ساحق ، واستطعنا أن نرغم رجال الميليشيا على التراجع من كارابا نشل الى مدريد . . .

« والقينا قنابلنا على المدينة من الساعة الثالثة حتى الساعة الخامسة ، دون أن تظهر الطائرات الشيوعية . . .

« وقد أسقطنا اليوم ست طيارات حكومية وراء صفوفنا . . .

« كما سبق أن أعلنت أمام هذا الميكروفون أن طائرة مانيان الهارب المعروف وعميل ستالين سينتهي أمره في القريب العاجل .

« وقد هبطت هذه الطائرة داخل صفوفنا ، ولقي جميع ركابها حتفهم في هذا السقوط ، وأمكن التعرف على جثة مانيان المنكود في خيتافي فليكن في ذلك عبرة للآخرين . . طاب مساؤكم » .

وتبادل رجال « البليكان » النظرات . . .

وصاح اسكالي : « لا تنزعجوا ، فانهم يهرفون » .

وبدأ نادال في القاء أسئلته ، ولكنه فطن سريعاً الى أنه لا ينبغي له أن يلح كثيراً ، فلقد كان رجال البليكان المتطيرون وحتى أشدهم مراساً - يظهرون روحاً عدائية حين يمس هذا الموضوع ، وكانوا جميعاً يعتقدون ان المذيع يقصد الطيارة « جوريس » ، والطاقم الذي يقوده كارنيرو ، ذلك أن مانيان هبط في « البسيط » وما من شيء ينفي انه قد قاتل ذلك العصر فوق جبهة مدريد . . .

وزمجر لكلير قائلاً : «ماذا تعرف عن هذا الموضوع ، أيها الغبي ؟ » .

كان اسكالي يعرف الكثير ، وقد أحس منذ العصر أن الأمور تزداد سوءاً ، ولهذا استدعى مانيان بالتليفون ، ليطلب منه أن يحضر الى « القلعة » هذه الليلة بالذات . . .

بيد ان مانيان كان اكثر احاطة بالموضوع من اسكالي ، فقد اتصل به سمبرانو مباشرة إتصالاً تليفونياً ، وأفضى اليه بمعلومات أكثر تفصيلاً . وكان لكلير قد صب سيلاً من الشتائم على الطيارين الأسبان ، وإن كان يعلم حق العلم ان الطيارين الأسبان يصنعون كل يوم بطائراتهم الهزيلة ما كان يفخر بأنه قد صنعه ذات مرة بمدينة طلبيرة ، على الرغم من كل ما يمكن أن تخفيه بلنسية من كمائن . ولم يلبث بعد ذلك أن أخذ يدلل للميكانيكيين الأسبان الذين أحاطوا به على أن الحرب أصبحت صفقة خاسرة ، وأن الطائرات التي أصلحت ستسقط الى آخر ما يمكن أن يوحي به الشعور بالخزي . ولم يكن اسكالي يجهل - من جهة أخرى - أن لكلير قد خرج منذ عودته ، وأخذ

يتحدث الى رجال البليكان واحداً أثر الآخر بهذا الحديث نفسه ، وأسوأ ما في الأمر هو أنه كان ذا تأثير عليهم ، إذ اجتذبتهم شخصيته البطولية وسخاؤه الحقيقي (وكان في هذا السخاء مدفوعاً برغبته الشديدة في أن يكون محبوباً) ، فما كان منهم إلا أن استجابوا اليه .

ودهش اسكالي في بداية الأمر من تلك الاستجابة .

فعلى الرغم من قدرته في الحكم على الرجال الذين يعرف طبيعتهم أعني الرجال المثقفين ـ فقد أساء فهم شخصية لكلير ، وكان جارديه فد استرعى نظره إلى ان رجال الطيران الذين يتغيرون في كل مرة يذهب فيها جريح منهم الى المستشفى ـ قد تشكلت الآن عقلياتهم وفقاً لعلاقات معينة ، وعندما أدار لكلير ظهره لزملائه لم يكونوا قد فهموا مما قال شيئاً كثيراً ، فقد كانت السحب التي تحوطهم شديدة الكثافة ، فجعلوا يتخبطون الآن في مأساة أكبر من أن تحيط بها أفهامهم ، ولم يكن لكلير قد غفر لنفسه فراره من المعركة ، ومن ثم فقد كان يحاول أن يجر كل من كان معه للمشاركة في العار الذي لحقه ، وأن يجعلهم يشعرون بنفس الاشمئزاز الذي يشعر به مصحوباً بضرب من الخلاص الكئيب حين يحتسي الأبسنت .

صاح اسكالي : « لقد اتصل بنا مانيان تليفونياً في الساعة السابعة » . غير ان الجميع كانوا يتساءلون : أيقول الحقيقة ، أم يريد أن يبث الأطمئنان في نفوسهم .

وساد صمت طويل قطعه نادال أخيراً بقوله :

ـ « لماذا حضرت الى هنا ؟ أمن أجل الثورة ؟ » .

وكان يوجه سؤاله هذا الى لكلير ، وقد أمسك في يده بالقلم الرصاص .

نظر اليه لكلير من طرف عينيه نظرة مشاكسة هذه المرة .

ـ « وفيم يعنيك هذا ؟ الجميع يعرفون انني طيار يساري ، ولكنني اذا كنت هنا فما ذلك إلا لأنني رجل صعب المراس ، كما أنني طيار بالفطرة ، أما الأعمال الباقية فقد خلقت لغيري من المدللين والمائعين والضعفاء والصحافيين ، ولكل مزاجه الخاص . . . بلا مؤاخذة . . . هل فهمتني ؟ » .

كان لكلير أشد نحافة من أي وقت مضى ، وقد اتسع منخره وتشعث شعره ، وقبضت يداه الشبيهتان بيدي القرد على زجاجة من النبيذ الأحمر ، ودفع صدره الى الخلف وتغضنت جبهته . واحتضن المائدة كلها التي شاع فيها القلق . وقرب جارديه مقعده من چيم ، ثم جعل يعبث بشعره الكث الى الأمام والى الخلف باسماً .

قال له اتينييس : « سواء أكان ذلك عن ضعف أم عن جبن فانه اذا لم يعد مانيان الى هؤلاء اتزانهم فسوف يفسدون الفرقة كلها . ماذا يحدث ؟ هل صعدت الخمرة الى رؤوسهم ؟ » .

ـ « على كل حال لقد بدأت أتضايق من لكلير ، وأنا لا أحب أن أحارب مع أصحاب النزوات ، أنظر اليه الآن ، وهو يمثل دور البطل : ان منظره يبعث على الضحك » . .

ـ « انه يعزو الى نادال الآن ، تلك المهزلة التي يقوم بتمثيلها . . انظر اليه . . انه يمقته في هذه اللحظة » .

ـ « ولكنه يعترف بفضله أيضاً ـ لأنه أتاح له هذه الفرصة لاظهار بطولته ! » .

ـ « ولكن بصورة أقل . . . أنظر الى سحنته . . . » .

وأدرك نادال أن الأمور يمكن أن تسوء ، فطلب كأساً لكل واحد من الموجودين . ثم تسلل خارجاً بمذكراته متضائلاً ماكراً ، وقد برز غليونه

العدواني من ابتسامته الخبيثة .

واستطرد لكلير قائلاً « لست ثملاً . . . وأما فيما يتعلق بالثورة . . . » .

وكان من الواضح أنه يريد أن يقول : إنني لا أعبأ بها . . ولكنه لم يجرؤ على هذا القول لا خوفاً من رفاقه الذين لم يكن يحجم عن استفزازهم ، وإنما لأن مدريد كانت تمتد هناك وراء النافذتين اللتين خلعت مصاريعهما .

وكان المذياع الى جوار إحدى هاتين النافذتين ، والتفت أتينييس فشاهد ميدان « قلعة هنارس » (قلعة عبد السلام) يغط في النوم بتماثيله وبمناضده الصغيرة المختفية وراء الأعمدة ، والتي تباع عليها القواقع (ولم يكن من شك أن بعض رجال البليكان يعاقرون الخمر في هذه الساعة حول تلك المناضد) وكانت المدينة الصغيرة بشوارعها ذات الأعمدة ، وحدائقها الهادئة ، وكنائسها ذات الأبراج المدببة ، وقصورها ذات النقوش الفخمة ، وجدرانها وشرفاتها التي تدعو العشاق الى العزف على الغيتار . . هذه المدينة القشتالية القديمة التي تشبه منظراً في ملهاة اسبانية والتي هشمتها قنابل الطائرات ـ لم تكن تنام إلا بعين واحدة . . ساهرة ترقب أصوات الحرب التي تهددها بالخطر .

قال اسكالي مخاطباً جارديه : « عندما يصل مانيان أخبره اننا نستطيع برجال الطائرة « مارا » وبك وببعض الرجال الآخرين ـ أن نشكل دائماً طاقماً نغير به على العدو . . . . »

وسأله جيم في نفس اللحظة : « أذاهب أنت الى مدريد الليلة ؟ » .

ـ « أجل . . بدعوة خاصة من غارسيا » .

ـ « أرجو أن تمر على أبي وأن تصحبه الى هنا » .

وكان اسكالي يعلم أن والد جيم رجل عجوز ، ولم يقدم جيم تبريراً لطلبه . . والواقع انه لم يتخذ من جرحه قط ذريعة للمطالبة بمزيد من

الحقوق .

ـ « لك ذلك سأذهب » .

قـال لكلير متحرشـاً : « أخبرني إذن يـا اسكالي : متى سيتحسن ذلـك الطعام الذي تقدمونه ؟ » .

وسـألـه جـارديـه من الـطرف الآخـر : « وهـل زوال الانتفـاخ يفتـح الشهية ؟ » .

ونظر لكلير الى جارديه الذي كشفت ابتسامته المعادية عن أسنانه الصغيرة الشبيهة بأسنان القط ، ولكنه لم يتفوه بشيء .

وسأل قاذف القنابل في الطائرة بليكـان رقم ١ : « وماذا عن العقـود ؟ » فأجاب اسكالي : « انها لم ترد بعد من القيادة » .

ـ « انا لست ممن يجأرون بـالشكوى . . . ولكن ، مـع ذلك ، كـان من الممكن أن أُقتل اليوم . . مجرد افتراض . . . فماذا كان سيحدث للعقود التي أبرمتها ؟ » .

وكـان قـاذف القنـابـل محتجـاً وضحيـة في آن معـاً ، وكـانت لـه عينـان صغيرتان محملقتان ، ويدان مؤثـرتان ، وعـلى كتفيه حيكتِ ـ غـداة زواجه ببرشلونة ـ نجومه بوصفه ملازماً فوق سترة من الجلد الأزرق الفاتح .

وقرر جارديه بينه وبين نفسه : « انه يشبه في ضوء النهار ابريقاً للشاي في شريط للرسوم المتحركة » .

وكـان من رأي اسكالي انـه لا ينبغي أخذ هؤلاء الفتيـان جميعـاً مـأخـذ الجد ، وكان هذا الرأي ينجح عادة . . .

بيد أن اليوم . . .

ـ « كانوا سيدفعون معـاشاً لـزوجتك بـلا شك . . . ومن ثم ، دعنـا في

سلام » .

ـ « ولكن على فرض أن فرانكو وصل الى مدريد قبل أن يفعلوا شيئاً ؟ »

فأجاب جارديه وهو يسوي شعره الكث : « في هذه الحالة أرجو أن يعدموك رمياً بالرصاص ، ولن يكون ثمة داعٍ لنقود أو عقود » .

ومهما يكن من أمر فإن الأخطار التي يتعرض لها المتطوعون المرتزقة كانت تقرب بينهم اكثر مما تعمل « العقود » على تباعدهم ، غير أن صبر المتطوعين كان قد نفذ هذا المساء .

وسأل ميكانيكي الطيارة بليكان رقم ١ : « ولماذا لا يبعثون لنا بطائرات مطاردة كافية ؟ » .

وقال هاوس : « كما انهم لا يعنون بالجرحى العناية الواجبة » .

ولو أن ملك انكلترا جاء لزيارته في مدريد ما كان ذلك كافياً في نظره .

قال كبير ضاربي المدفع الرشاش الذي يعمل مع لكلير : « ليس هذا جواً يعمل فيه الانسان ، اذ لا طائرات مطاردة كافية ، والطائرات نفسها غير كافية . والمعدات لا تجدي نفعاً ، والمدافع الرشاشة في حالة يرثى لها » .

والواقع ان الأسبانيين كانوا يطلقون مدافعهم الرشاشة العتيقة من طراز بريجيه على المدافع المضادة للطائرات دون شكوى .

وعاد أتينييس صوب مائدة لكلير ، وأنصت عرضاً الى حديث يدور بين رجلين من رجال البليكان :

ـ « ولكن هذا لا يمنع أن أحداً لم يره منذ الصباح » .

ـ « . . يا لهم من رجال ! كأن أحداً قد نثرهم من كفه في الفضاء . . » .

ـ « لم أر شيئاً كهذا طيلة الحرب » .

ـ « وأسوأ ما في الأمر الطيارة « جوريس » التي شطرت نصفين » .

ـ « يبدو أن أولئك الأوغاد قد تعقبوا كارنيرو بمدافعهم الرشاشة » .

ـ « أكان كارنيرو هو ذلك الهابط بالمظلة ؟ » .

ـ « انها مظلة مانيان ، وتحتها تعلق كارنيرو » .

ـ « . . . كان من الممكن أن يذهب المرء ـ في البداية ، أما ضد ذلك السد من المدافع الذي يحدد المسافة أوتوماتيكياً فماذا يمكن أن تصنع بحق الجحيم ؟ أنا لا أسمي ذلك قتالاً عادلاً ! » .

ـ « أسوأ ما في الأمر تلك الطائرة التي انشطرت نصفين . . » .

ـ « إن ما ينقصنا هو التنظيم قبل كل شيء ، وكان ينبغي أن نجتمع كلنا لنناقش في المساء ما نحن فاعلوه غداً . . » .

ـ « لقد تقيأتهم الطائرة يا عزيزي . . أولئك الرجال . . وأنا . . » .

ـ « ليس من شك أن رأس مانيان قد تورم . . هذا شيء مفروغ منه . . ولكن اذا كان يريد الانتحار فليس معنى ذلك أن يحذو الجميع حذوه » .

وحدث أتينييس نفسه قائلاً : « العار يفسد النفوس » ولأن ارتباطه بالأفكار ارتباط عضوي فإن كل هذه المسائل كانت تبدو متسمة بالتفاهة وبالكآبة العميقة في آن واحد ، وعلى حين يفكر هؤلاء في مائة من المأجورين التعسين للجمهورية ، كان أتينييس يفكر في آلاف الأيطاليين والألمان ، وفي صفوف المغاربة الطويلة . أربعون ألفاً من المغاربة يومياً ، ومن خلفهم المجالس العسكرية ! إلى أي مدى إذن يمكن أن يثق الانسان في البشر ؟. ولكن أينبغي لكي يثق المرء بالرجال الذين يمكن أن يقدموا حياتهم ثمناً لهذه الثقة أن يختار أولئك « الخبراء » الذين يتعفنون ، بل الذين أصبحوا أمواتاً فعلاً ؟ وفي هذه الأثناء تتكون في مكان ما ـ من « البسيط » أو مدريد ـ الفرق

العالمية الأولى .

وطغى صوت « جارديه » على الضجة المكتومة وقال وهو جالس على المائدة ، وقد تهدلت خصلات شعره الأمامية :

ـ « لحظة من فضلكم ! لقد تقيأتم جميعاً على الأولاد المدللين الذين حضروا الى هنا ، وقد رشقوا غليوناً في ركن من أفواههم ، ولم يذهبوا مرة واحدة الى الصفوف ، ثم انهم يعودون الى باريس ليتلمسوا العيوب في تصرف مانيان دون أن يتحدثوا عما نصنعه نحن ، ودون أن يتعرفوا على المصاعب التي نلقاها ، ولكني أراكم هذا المساء على اتفاق معهم ، فهل كل شيء سيء هنا ؟ أنبئوني إذن أيها الأولاد الصغار ؟ أتراكم كنتم تفتحون أفواهكم لو كنتم تحاربون في صفوف فرانكو ، بل ربما لم تفتحوها الى الأبد ؟ » .

قال الميكانيكي : « ولهذا السبب فأنا هنا ولست مع فرانكو » .

وهنا وثب بول بجسده الضخم ، وشعره المجعد وقد استحال وجهه قرمزياً ، ورفع سبابته ، في حركة تشنجية :

ـ « كلا . . يا مسيو ليفي ! انني لا أخدع بهذه السهولة ! أنت تحاول حرماننا من علاواتنا ! وأنت يا برتراند رجل طيب ، ولكن حين استمع اليك وأنت تحكم على عمل مانيان أشعر بالغثيان . . » .

ـ « أليس من حقي أن أحكم أذن ؟ ألسنا كفاة لهذا الشرف ؟ » .

ـ « أنت لا تحكم ، وإنما تنفث سماً . . . وأنت تنفث سمومك ، لأنك لا تجد ما ينفخ في غرورك ! ولاحظ انني لا أقول شيئاً لهذا السبب ، فلن أكون ممن يقذف زميلاً بحجر من أجل حادث عابر ! فالحوادث يمكن أن تقع لأي إنسان ، وبالاختصار يعلم الجميع انك قد أديت واجبك ، ولكني أقول : انك في هذه اللحظة تريد أن يفسد كل شيء ، لأنك لست راضياً

عن نفسـك ، انني لن أنخدع كـلا يا سيـدي . . لن انخـدع ! وأنت تشكـو إذن . . . اذكـر لي اسماً واحـداً يمكن أن يحـل مكـان مـانيـان ؟ اسـماً واحـداً فحسب ؟ فلنفترض لحظة أن ما يقوله ذلك الوغد الآخر في المذياع صحيح ؟ وأنه لن يعود . . . فماذا إذن ؟

« علاوة لي : عشرة في المائة لحسن السير والسلوك .

« الأخلاق : انكم تتصرفون كالحمقى الأغبياء » .

واقترب لكلير من اسكالي واضعاً قبضتيه على ظهر المقعـد المجاور ، وفي عينيه نظرة مشتعلة بالحقد ، وقال وسط الصمت الشامل :

ـ « اما عن الثورة فقد قلت لكم : إن لكل عمله الخاص به ، وأمـا عن التنظيم فأني استميحكم عذراً ! لقد أحضرونا هنا للقتال ، وتركونـا بزجـاجة من الماء كل يومين ، وكـل ثمان وأربعـين ساعـة دون شفرة للحـلاقة . وقـد استمر ذلك وقتاً كافياً ! هل تفهمونني ؟ » .

ولم يجب اسكالي ، وإن لاح الاشمئزاز في عينيه وراء نظارته .

وصاح صوت من أقصى القاعة جعلهم يتلفتون جميعاً :

ـ « دون سخافة ؟ » .

ولم يكن جيم منذ أن عاد من طائرته للمرة الأخيرة يتحدث إلا الى بعض رفاقه على انفراد حين يجلس الى واحد منهم الى مـائدة في ركن من الأركـان ، وكان يبدو عليه حين قـال تلك العبارة كـأنه وجـد صوتـه الذي كـان يغني في الماضي . . . ذلك الصوت الذي صمت طيلة تلك الفتـرة كأن شيئـاً فيه قـد أصيب بالعمى هو الآخر ، وكانـوا يعلمون جميعـاً انهم في كل مـرة يرتفعـون بطائراتهم يتهـددهم خطر الاصـابة بمثـل ما أصيب بـه ، لقد كـان زميلهم ، ولكن كان في الوقت نفســه ـ الصورة التي تهـدد مصيرهم ، وتقـدم جيم وقد برز أنفه الضخم من نظارته السـوداء ، لامساً بيـده أسفل المنضـدة ، حتى لا

يـراه أحد وهـو يتحسس طريقـه ، وانتقـل من طبق فـارغ الى آخـر فـارغ ، فـأفسح لـه زملاؤه الـطريق وكـأنهم يخشـون ملمسـه . . قـال بصـوت أقـل ارتفاعاً :

ـ « هل يحلق أولئك الذين يعسكرون في الخنادق أذقانهم ؟ »

وزمجر لكلير من بين أسنانه : « أنت . . أنت فـارس الفرقـة العالميـة . . ولكن . . أرجوك ألا تتدخل ! ».

كان أسكالي يقف الى جانب الحائط عـلى بعد أربعـة أو خمسة أمتـار على اليسار ، وهو يشد سروال حلته العسكرية (وكان أطول من مقاسه كثيراً) ـ دون أن يحـول عينيه عن لكلير ، واقتـرب هذا الأخـير منه ، تـاركـاً « جيم » يستمر في تقدمه ، ملتصقاً بالمائدة .

واستأنف لكلير حديثه قائلاً : « لقد سئمت من المدافع الرشاشـة التي لا تصلح إلا للعرض في المتاحف . . . سئمت غاية السـأم . . . هناك شعـر كثيف عـلى صدري ، وأستـطيع أن أقـوم بدور الثـورة ، ولكنني لا أريـد أن أكـون حمامة . . . هل فهمتني جيداً ؟ » .

وهز اسكالي كتفيـه ، بعد أن وصـل الى الحد الـذي لا ينفع معـه تثبيط الهمة .

وهز لكلير كتفيه أيضاً محاكياً اسكالي ، وقد أخذ السخط منه كل مأخذ ، فأصر على أسنانه .

ـ « انني أمقتك ، أتسمعني ؟ أمقتك » .

ونظر اليه أخيراً ، بوجه احتقن بالغضب ، وقال اسكالي مرتبكاً :

ـ « وأنا أيضاً » .

ولم يكن اسكالي ممن يحسنون التصايح أو اصدار الأوامر . ولأنه كان من

المثقفين الطيبين. لم يكن يريد أن يفسر الأمور فحسب ، بل أن يقنع من يحدثهم بوجهة نظره ، وكان يشمئز من استخدام العنف ، وحين أحس لكلير بغريزته بهذا الاشمئزاز حسبه ناشئاً عن الخوف .

- « كلا ، أنا الذي أمقتك . . . لا أنت ! أتفهمني ؟ »

وتذكر « بول » اليوم الأول الذي انتظروا فيه معاً الطائرة الأولى المحملة بالجرحى .

- « سلام ! »

بهذه العبارة صاح مانيان الذي وقف عند عتبة الباب ملوحاً بقبضته في الهواء كالمنديل ، وقد عبثت الريح بشاربيه .

وتقدم وسط الوجوه المعادية التي أحست بالخلاص من هذا الموقف الحرج أو التي تظاهرت بعدم الاكتراث ، ثم وقف أمام لكلير .

- « اذن فأنت تحتفظ بالترموس ؟ » .

- « ليس ذلك حقاً ! لا شيء معي !» .

وصاح لكلير في استياء وامتعاض ، وقد أسعده أن يتهم بالسكر اتهاماً غير عادل ، في الوقت الذي يحتاج فيه الى أن يكون الاتهام بالهرب غير عادل أيضاً . قال مانيان :

- « لا شيء ؟ أنت مخطىء » .

وكان يفضل الطيار الثمل على الطيار المكتئب

وتردد لكلير كمن يبحث عن طريقه وقد استبدت به الحيرة .

وهتف مانيان : « على طاقم الطائرة بليكان أن يعود فوراً الى البسيط . السيارة تنتظر أمام الباب » .

قال لكلير مستعيداً ذلك الحقد الذي ارتسم على سحنته من قبل : « سيارة نقل ! ولماذا هذه السيارة ؟ لماذا لا تكون عربة يد ! أريد سيارة مناسبة » .

واحتج قاذف القنابل قائلاً « ليس لدينا الوقت الذي يكفي اعداد متاعنا ! » أي متاع ؟ كان الجميع يعلمون أن الطاقم قد وصل على طائرته دون أن يحمل فرشاة أسنان . . . وهز مانيان كتفيه ، ثم نظر الى لكلير والى رجاله الذين تفرقوا الآن في الحجرة . وناجى مانيان نفسه قائلاً : لو أنهم قتلوا هذا الصباح ما تذكرنا إلا أفضل ما فيهم من جوانب . . . وحتى لو قتلوا غداً . . وكانت ذكرى مارسيلينو أقوى من حضور لكلير ، ونظر اليهم جميعاً متطوعين ومرتزقة . وكأن كل ما يقولونه ويفعلونه ويسرونه عن أنفسهم ما هو إلا حماقة عابرة ، حلم سوف يستيقظون منه إن عاجلاً أو آجلاً ، حين يضعون الخوذات على جباههم ، وحين تتصلب قاماتهم تحت رداء الطيران .

واقترب لكلير من مانيان كما اقترب قبل ذلك من اسكالي ، وقد ارتسم على وجهه تعبير طاغٍ بالحقد ، وإن لم يتغير وجهه كثيراً ، كل ما في الأمر انحدار طفيف في جبينه المتغضن .

ـ « إنني أمقتك . يا مانيان » .

وكانت يداه اللتان يغطيهما الشعر ترتجفان عند طرفي ذراعيه اللتين تشبهان ذراعي قرد . وبرز حاجبا مانيان وشاربه على حين ثبت جفناه ثباتاً غريباً .

ـ « سترحل غداً الى فرنسا بعد أن تتقاضى كل ما نص عليه العقد ، ولن تضع قدميك في اسبانيا مرة خرى . هذا كل ما في الأمر » .

ـ « سأعود اليها عندما أريد !. وبدون عقد ! أنت أيها . . . لقد كنت في الفرقة يوماً . . هيه . . ! فلا تحسبني خرقة لمسح الصحون ! » .

والى جانب مانيان وقف الآن اسكالي وأتينييس وجارديه ، وأمام المائدة

وقف جيم بنظارته السوداء .

وصاح لكلير مرة أخرى وقد ازدادت يداه ارتعاشاً :

ـ « أريد سيارة ركاب . أتفهمني ؟ »

وسار مانيان صوب الباب مسرعاً منحنياً وفي غير اكتراث ، ومن مؤخرة القاعة تناهى صليل الشوك في يد الطاهي ، وتعلقت انظار الجميع بحركة مانيان الذي فتح الباب ، ثم ألقى ببضع كلمات ، وكأنه يخاطب الريح التي اجتاحت ميدان « القلعة » الواسع .

ودخل ستة من حراس الهجوم المدججين بالسلاح .

وصاح مانيان : « فليتقدم رجال الطائرة ! » .

ولما كان لكلير مصراً على أن يبدو أهم رجاله فقد سار في المقدمة

* * *

وظل الصمت معلقاً على الرؤوس ، وإن امتلأ الآن بضجة سيارة النقل وجلبة المحرك التي أخذت تخفت حتى اختلطت بعصف الريح ، وما برح مانيان واقفاً عند عتبة الباب ، وعندما عاد ارتفعت ضوضاء الأكواب والأطباق والسعال وأصوات التعجب والدهشة ، كما يحدث في المسرح ، عندما يزول التوتر السائد في القاعة عقب انتهاء فصل من الفصول ، وجلس مانيان الى المائدة، وقطع هذه الاستراحة ،بأن دق بسكين على كوب لكي يسترعي اليه انتباه الحاضرين . قال بلهجة المحادثة العادية :

ـ « أيها الرفاق ، على بعد خمسة عشر كيلومتراً من هذا الباب الذي تنظرون اليه يقف المغاربة . . . على بعد كيلومترين من مدريد . . . كيلومترين فحسب . وعندما يكون الفاشيون في كارابنشل فإن هؤلاء الذين يتصرفون مثل أولئك الذين رحلوا منذ لحظة ـ يتخذون موقفاً معادياً للثورة ،

وسيكونون جميعاً في فرنسا غداً .

« وابتداء من اليوم سندمج جميعاً في قوة الطيران الأسبانية ، وعلى كل منكم أن يكون حاصلاً على حلة رسمية يوم الأثنين ، وقد ألغيت جميع العقود ، وعُيِّن داراس رئيساً للميكانيكيين ، وجارديه لضاربي المدافع الرشاشة وأتينييس قوميساراً سياسياً . . . أما من لا يوافق على هذا فعليه أن يرحل صباح غد .

« لقد سويت مسألة « البليكان » تسوية نهائية ، وينبغي ألا نتذكر سوى ما قاموا به من أعمال مجيدة . . فلنشرب نخب رجال « البليكان » .

وكانت لهجته تجعل من هذا النخب وداعاً ، وتستبعد كل وهم بالتراجع . قال بعد أن عادت الأكواب الى المائدة : « فليجتمع المسؤولون في مكتبي » .

وشرح لهم مانيان كيف يدبر إعادة تنظيم الفرقة .

وسأله داراس : « كيف يمكن ان نحصل على العدد الكافي من الرجال ؟ » .

« من الفرقة العالمية ، وقد ذهبت الى « البسيط » لهذا الغرض . . ونحن على اتفاق في هذه المسألة ، فلديهم بعض الرجال الذين خدموا في السلاح الجوي كما أن لديهم عدداً لا بأس به من عمال مصانع الطائرات . وسيبعثون الينا ـ ابتداء من غد ـ كل مالديهم من رجال يمتون الى الطيران بصلة قريبة أو بعيدة . . . وسنختبر هؤلاء الرجال جميعاً كل في اختصاصه ، ويبدو اننا سنحصل على أكثر مما نحتاج اليه ، أما فيما يتعلق بالنظام فإن ثلاثين في المائة على الأقل ممن سيرسلون الينا شيوعيون ، وبينكم ها هنا اثنان من المسؤولين الشيوعيين ، وعليكما أن ترتبا الأمور فيما بينكما » .

وتذكر مانيان أنريك .

قال أتينييس : « وماذا عن طائرات المطاردة ؟ » .

ـ « أعتقد اننا سنحصل على عدد منها » .

ـ « عدد كافٍ ؟ » .

ـ « عدد كافٍ » .

ولم يكـن يأمل الحصول على طائرات روسية .

وسأل داراس : « هل تفكر في الانضمام الى الحزب ؟ » .

ـ « كلا . . . فأنا لا أتفق مع الحزب الشيوعي » .

قال جارديه : ألا تستطيع ـ أي داراس ـ أن تكف عن الدعاية للحـزب مدة خمس دقائق !» .

وكان من العسير اقناع جارديه في بداية الأمر : « عنـدما يـرتبك ضـاربو المدفع الـرشاش أقـدم لهم يد المعـونة ، وتسـير الأمور عـلى هذا النحـو لأنهم يثقون فيَّ . أما أن أقودهم فهذا شيء لا يروق لي » .

وهنا سأله داراس : « واذا لم يكن المشرفون على النظام هم أولئك الذين يثق فيهم رفـاقهم فمن يكونـون إذن ؟ » . وعندئـذٍ لم يجد جـارديـه بـداً من التسليم .

وقال أتينييس مستفسراً : « هل جئت عن طريق مدريد ؟ » .

ـ « كـلا . . . ولكنهم اتصلوا بالتليفـون منذ لحـظة : القتـال دائـر عـلى أبواب المدينة » .

الفصل الخامس

كانت وزارة الحرب خاوية على عروشها ، بعد أن أنتقلت الحكومة من مدريد الى بلنسية ، ولم يكن هناك سوى قائد فرنسي جاء يعرض خدماته ، فطلبوا منه الانتظار ، فجلس على مقعد وثير مذهب ينتظر ، وكانت الساعة الحادية عشرة ، ولم تكن تضيء درجات السلم الرخامية البيضاء المغطاة بسجاجيد تملؤها رسوم الزهور والأغصان سوى شموع على درجات السلم ، لا يثبتها في مكانها إلا قطرات الشحم المنسكبة ، وما أن تنطفىء هذه الشموع وسط مستنقعاتها الصغيرة حتى تخيم الظلمة على تلك الدرجات الفخمة .

وكانت المصابيح الكهربية الوحيدة المضاءة هي المصابيح التي في مكاتب ضباط « مياجا » ، وفي مكاتب المخابرات العسكرية .

جلس اسكالي ، وفتح جارسيا ملفاً لا عنوان له ، ويبدو أن الفاشيين قد وقفوا عند كارابانشل لا يستطيعون اجتيازها .

ـ « انت تعرف مدريد جيداً يا اسكالي . . أليس كذلك ؟ » .

ـ « معرفة لا بأس بها » .

ـ « وتعرف ميدان التقدم ؟ » .

ـ « أجل » .

ـ « شارع القمر ، وميدان البوابة في طليطلة ، وشارع فيونكارال ، وميدان كالاو ؟ طبعاً » .

ـ « لقد سكنت في ميدان كالاو » .

ـ « وشارع فونكيو ، وشارع بوردادوريس ، وشارع شقوبيه ؟ » .

ـ « لا أعرف الشارع الثاني » .

ـ « حسن ، أرجو أن تجيب بعد أن تتروى في الأمر : هل يستطيع طيار ماهر مهارة غير عادية أن يصيب تلك النقاط الخمس (وأعاد هنا الأسماء التي ذكرها آنفاً) التي تحدثنا عنها ؟ » .

ـ « ماذا تعني بقولك يصيبها ؟ أتعني أن يضرب المنازل المجاورة لها ؟ » .

ـ « أعني أن يضرب الميادين بالقرب من المنازل ، ولكن دون أن يصيب الأسطح ولو مرة واحدة ، الشوارع فحسب . . . الشوارع التي تقف فيها صفوف من الناس . . محطة الترام التي في ميدان كالاو مثلاً » .

ـ « إن اصابة الترام مصادفة واضحة » .

ـ « فليكن ، والأماكن الباقية ؟ » .

وأمعن اسكالي في الفكر وراء نظارته ، على حين أخذت أصابعه تتخلل شعره . .

ـ « وكم عدد القنابل ؟ » .

ـ « اثنتا عشرة قنبلة » .

ـ « ستكون مصادفة عجيبة ، ولكن ماذا عن القنابل الأخرى ؟ » .

ـ « لا قنابل أخرى ، وإنما ينبغي أن تلقي القنابل الأثنتا عشرة على الهدف : على النسوة الواقفات أمام البقالين والأطفال الذين يلعبون في ميدان

بوابة طليطلة ! » .

ـ « إنني اجتهد في الاجابة وان يكن تفكيري قد ذهب لأول وهلة ـ إن شئت الصراحة ـ الى عدم تصديق كلمة واحدة من كل هذا . . . حتى ولو كانت الطائرة تحلق على مستوى منخفض جداً » .

ـ « الطائرة التي أتحدث عنها كانت تحلق على ارتفاع بعيد بكل تأكيد ، اذ لم يكن أزيزها مسموعاً » .

وكلما ازداد الاستجواب استغلاقاً اشتد قلق اسكالي ، ذلك انه كان يعرف شغف جارسيا بتحري الدقة .

ـ « اسمع . . ليس هذا كله سوى مزحة . . . » .

ـ « انت تفترض وجود طيار ماهر مهارة فذة ؟ طيار من الطيارين المنتظمين الذين ضربوا أرقاماً قياسية في اصابة الهدف مثلاً ؟ » .

ـ « فليكن ما تشاء ، هذا شيء خارج الموضوع ، هل رأى الطائرة أحد ؟ » .

ـ « يزعمون الآن انهم شاهدوها . ولكنهم لم يدعوا ذلك في اليوم الأول . . كما انهم لم يسمعوها . . » .

ـ « انها ليست الطائرة ، الفاشيون يملكون مدفعاً أبعد مدى مما تعرف عن المدافع . وحكاية مدفع « برتا » تبدأ من جديد » .

ـ « واذا كانت طائرة فكيف تعلل دقتها في اصابة الهدف ؟ » .

ـ « لا أستطيع التعليل بأية حال . واذا كنت حريصاً على المعرفة فأصدر أوامرك ، واصعد معي غداً ، فإني سأحلق بك فوق شارع القمر على الارتفاع الذي تريده ، وسترى أن نظريتك لا أساس لها ، أو ليرى كل إنسان طائراتنا كما يرى المرء سيارة أوشكت أن تسحقه ، واذا هبت الريح ،

فلن يستطيع الطيار أن يتابع طريقه فوق الشارع » .

ـ « حتى لو كان الطيار هو رامون فرانكو ؟ » .

ـ « حتى لو كان لندبرج ! » .

ـ « حسن . ثمة شيء آخر . . هذه خريطة مدريد . هل ترى نقاط الهبوط المحوطة بدوائر حمراء ؟ أعتقد أن هذه العلامات لا تعوقك . . هل توحي اليك هذه الخريطة بفكرة ما ؟ » .

ـ « انها تؤكد ما قلته لك : ان الشوارع لا تتجه في اتجاه واحد . ومن ثم فإن الريح ستتعامد في لحظة ما على خط سير قاذف القنابل . . وإصابة شارع من ارتفاع معين ، ومن أول ضربة ، في مثل هذه الظروف شيء . . . » .

ولمس اسكالي جبهته ليعبر عن استحالة مثل هذا الأمر .

وقال جارسيا في نفسه : كيف يمكن ـ يا عزيزي اسكالي ـ أن تسقط قنابل مدفع بعيد المدى وفقاً لزاوية حادة ، فتصيب شوارع تتجه اتجاهات متباينة دون أن تصيب جداراً واحداً ؟

قال مخاطباً اسكالي : « نقطة أخيرة ـ هل يمكن أن يحلق ذلك الطيار الماهر الذي افترضنا وجوده ـ فوق مدريد مدة معينة تحت ارتفاع عشرين متراً ؟ وأضيف : إن حالة الجو كانت سيئة » .

ـ « كلا ! » .

ـ « الطيارون الأسبان يتفقون معك تماماً . . . » .

وحين ذكر جارسيا اسم « رامون فرانكو » خطر لاسكالي انه يشير الى غارة ٣٠ من اكتوبر .

* * *

لبث جارسيا وحيداً . . وكان قد استجوب أيضاً ضباط المدفعية . . فاستبعدوا أن تكون القنابل التي اشار اليها صادرة عن مدفع نظراً لزاوية السقوط ، وفضلاً عن ذلك فإن الشظايا لم تكن من قذائف مدفع ، وإنما قنابل طائرة . وأخذ جارسيا يفحص في قلق الصور الفوتوغرافية التي التقطت لأمكنة سقوط القنابل ، وعليها تعليقات ادارات الجيش المختلفة ، وكان جارسيا قد طلب من الخبراء الاجابة عن أسئلته دون أن يقدم تبريراً لهذه الأسئلة ، وكان أحد الأجوبة كالتالي : « هذه القذيفة ألقيت من ارتفاع لا يزيد عن عشرين متراً » .

وكانت المشكلة محلولة في نظر جارسيا ، لم تكن هناك طائرة ، ولم يكن هناك مدفع ، بل كان هناك طابور خامس ـ اثنتا عشرة قنبلة في وقت واحد . وكان عليه أن يكافح ـ بنجاح ـ ضد السيارات الفاشية التي تجوس في الظلام خلال شوارع مدريد مسلحة بالمدافع الرشاشة : وضد أولئك الذين كانوا يطلقون الرصاص عند الفجر على رجال الميليشيا من خصاص النوافذ ، وضد كل مايمكن أن تمثله الحرب الأهلية ، بيد أن هذا كله شيء يتوقعه الانسان من الحرب ، إنها رجل ضرير يطلق النار على شخص مجهول . أما في هذه المرة فإن كل رجل من رجال الطابور الخامس قد رأى بعيني رأسه صف النساء الذي يقف أمام البقالة ، والشيوخ والأطفال الذين في الميدان ، ولم تكن مذبحة النسوة هي التي تزعجه ؛ فمن المحتمل أن تكون تلك التي القت القنابل امرأة ، والشفقة بالنساء من عواطف الرجل ، ولكن الأطفال ؟ . . . وكان جارسيا قد شاهد الصور الفوتوغرافية ، كما شاهدها غيره .

وكان أحد زملائه قد حدثه ـ بعد عودته من روسيا ـ عن التخريب ، قال له : « ان الحقد على الآلة شعور جديد ،ولكن حين نضع في العمل كل حماس أمة وأملها نخلق في الوقت نفسه عند أعدائها الداخليين الحقد على هذا العمل . . . » والفاشيون في مدريد يحقدون الآن على الشعب الذي لم يؤمنوا

بوجوده منذ عام مضى الى درجة انهم قد يرونه ماثلاً في حركات الأطفال الذين يلعبون في أحد الميادين !

ولم يكن من شك أن القتلة الأثني عشر ينتظرون في هذه الساعة اعلان انتصارهم ؛ فلقد انشد الأسرى - في السجن النموذجي - بعد الظهر نشيد الفاشية .

ولكن كان عليه أن يلتزم الصمت ؛ إذ يعلم انه لا ينبغي اثارة الحيوان الكامن في أعماق الأنسان ، وانه اذا كان التعذيب يظهر في اثناء الحرب في كثير من الأحيان فذلك لأنه على ما يبدو الجواب الوحيد على الخيانة والقسوة. ولو انه تكلم لكان معنى ذلك أن يدفع ذلك الحشد المتحمس الذي تصل اليه هتافاته البعيدة مع هبات الرياح الى اتخاذ أول خطوة نحو الوحشية . وربما استمرت مدريد المنتشية بالمتاريس في الايمان بمغامرات رامون فرانكو ؛ ذلك ان الانتقام من الأعمال الوحشية يجعل الجماهير في حالة من الجنون شبيهة بحالة الفرد الذي يسعى الى الأخذ بالثأر .

كما جرت العادة ستتصرف المخابرات العسكرية وادارة الامن وحدهما . . وتذكر جارسيا الشارع الكبير Grad Via - كما كان في الماضي - رائقاً في صباح ابريل ، بواجهاته ، ومقاهيه ، ونسائه اللواتي لا يقتلهن أحد ، وعيدان السكر التي تذوب مثلما يذوب الثلج في أكواب الماء ، الى جانب فناجين الشوكولاته المحلاة بالقرفة ، وها هو ذا يجلس الآن في ذلك القصر المهجور وجهاً لوجه أمام عالم لا سبيل الى التنفس فيه .

وقال لنفسه : « وعلى أي نحو انتهت الحرب كيف يمكن أن يقوم السلام بعد هذا الحقد المرير ؟ وماذا ستصنع هذه الحرب مني ؟ » .

وتذكر أن الناس لا يكفون عن وضع المشاكل الأخلاقية ؛ فأنغض رأسه ، وتناول غليونه ، ونهض متثاقلاً ميمماً شطر ملحق ادارة الأمن .

الفصل السادس

كان طيف نحيل مقوس الظهر يصعد وحيداً وسط درجات السلم الرحبة . انه جرنيكو Guernico جاء بحثاً عن معونة الجهات الرسمية لادارة الاسعاف التي يجاهد في اعادة تنظيمها ، ذلك أن ما قام به من تنظيم في عهد طليطلة قد أصبح الآن عديم النفع منذ أن أقتربت الحرب من مدريد . وعلى الطابق الأرضي من الوزارة الذي يكاد يكون مظلماً تناثرت بعض الأسلحة التاريخية ، وبدأ الكاتب الكاثوليكي الطويل الأشقر شقرة شاحبة كلوحات فيلا سكيز ـ كأنما خرج لتوه من إحدى تلك الدروع التاريخية ، وسيعود اليها عند مطلع النهار . ولم يكن جارسيا قد رآه منذ ثلاثة أسابيع ، وكان يقول عنه : انه الوحيد بين اصدقائه الذي اتخذ الذكاء عنده مظهر الاحسان ، وعلى الرغم من كل ما يفصل بينهما فقد كان جرنيكو هو الشخص الوحيد الذي أحبه جارسيا حباً صادقاً .

واتجه الاثنان معاً صوب الميدان الكبير Plaza Mayor .

وعلى الجدران وأبواب الحوانيت المسدلة ، انزلقت الظلال محنية إلى الأمام ، ومتوازية كالنوتية الذين يسحبون سفينة شراعية ، وفوقهم انسابت في تثاقل سحب هائلة حمراء قادمة من الضواحي . . وقال جارسيا : « انه أشبه بخروج اليهود كما تصوره التوراة » .

ولكن ، كلا . . . ما من أحد من هؤلاء المارة يحمل شيئاً ، وكلهم يسيرون مسرعين في اتجاه واحد .

قال : « هذه المدينة تعيش على أعصابها » .

وكان ثمة رجل ضرير يعزف نشيد العالمية ، وقد وضع أمامه الوعاء الذي يجمع فيه النقود ، وكان الفاشيون ـ وهم أقوى مائة ألف مرة ـ ينتظرون معركة الغد في منازلهم المطفأة الأنوار .

قال جرنيكو : « لا صوت هناك » .

لم يكن هناك غير وقع الأقدام ، والشارع ينبض كما ينبض الوريد ، والمغاربة على بوابات الشرق والجنوب ، بيد أن الريح كانت تهب من المدينة . ما من طلقة بندقية ، أو حتى طلقة مدفع ، بل ان حفيف الجموع كان يسري تحت السكون كما تسري الديدان في جوف الأرض ، والى هذا الحفيف أضيف صوت الأكورديون .

وسار الاثنان صوب بوابة الشمس Puerta del Sol في اتجاه سحب الدخان الحمراء الزاحفة فوق رؤوسهم ، وفي اتجاه ذلك النهر الخفي الذي يدفع الناس نحو الميدان دونما هدف ، وكأنما أقيمت هناك متاريس « كارابانشيل » .

ـ « لو استطعنا أن نصدهم هنا . . . » .

وأمسكت امرأة بذراع جرنيكو وقالت له بالفرنسية :

ـ « أتعتقد انه لا مناص من الرحيل ؟ » .

قال جرنيكو مخاطباً جارسيا دون أن يرد على المرأة :

ـ« إنها رفيقة المانية » .

وأردفت المرأة : « انه يقول : إنه ينبغي عليَّ أن أرحل ويقول : انه لا يستطيع أن يحارب جيداً اذا بقيت الى جانبه » .

قال جارسيا : « انه على حق بكل تأكيد » .

ـ « أما أنا فلا أستطيع أن أعيش اذا علمت أنه سيقاتل هنا . . واذا لم أعرف ما يجري . . . » .

وعزف أكورديون آخر نشيد « العالمية » مصاحباً الكلمات في لحن مكتوم ، على حين أكمل ضرير آخر يضع أمامه الآنية التي يجمع فيها الصدقات الموسيقى في الموضع الذي انقطع عنه الأول .

قال جارسيا لنفسه : « النساء جميعاً سواء . . . ولو انها رحلت فسوف تتحمل الفراق في كثير من الانفعال . . ولكنها ستتحمله على كل حال ، واذا بقيت فسوف يقتل » .

ولم يتبين وجهها في الظلام ، والواقع انها كانت أقصر منه ، وكانت ظلال المارة تخفي وجهها .

وسألها جرنيكو متردداً : « ولماذا تريدين البقاء ؟ » .

ـ « لأنني لا أعبأ بالموت . . والمشكلة هي انه ينبغي أن أتغذى جيداً ، ولكن لم يعد ذلك من الممكن هنا . . إنني حامل . . . » .

ولم يسمع جارسيا إجابة جرنيكو . وانضمت المرأة الى تيار آخر من الظلال . . .

قال جرنيكو : « ماذا نستطيع أن نفعل ؟ . . . »

ومر عليهما عدد من رجال الميليشيا يرتدون العفريتة . وعبر الشارع المشقوق ، وكانت ثمة ظلال تقيم متراساً .

وسأل جارسيا : « متى ترحل ؟ » .

ـ « لن أرحل » .

كان جرنيكو من أوائل الأشخاص الذين سيعدمهم الفاشيون رمياً بالرصاص حين يدخلون مدريد ، وعلى الرغم من أن جارسيا لم يكن ينظر

الى صديقه ، فإنه كان يراه سائرا الى جواره بشاربه الأشقر القصير ، وشعره الأشعث ، وذراعيه الطويلتين النحيلتين ؛ وأشفق جارسيا على هذا الجسد الضعيف إشفاقه على الأطفال ؛ اذ كان يستبعد كل فكرة عن القتال ؛ إن جرنيكو لن يقاتل ، وإنما سيُقتل !

ولم يتحدث آحدهما عن هيئة الأسعاف في مدريد ؛ اذ كان كل منهما مقتنعاً بأنها لن تقوم لها قائمة .

ـ « ما دام الانسان قادراً على مساعدة الثورة فلا بد له أن يساعدها . ولكن تعريض الانسان نفسه للقتل شيء لا يفيد يا صديقي العزيز ، وليست الجمهورية مشكلة جغرافية تحل بالاستيلاء على مدينة » .

ـ « لقد كنت عند بوابة الشمس يوم « الجبل » ، حين أطلقوا النار على الجماهير من جميع النوافذ . . أما هؤلاء الذين كانوا يسيرون في الشارع فقد انبطحوا على وجوههم ، وامتلأ الميدان كله بأناس منبطحين يطلق عليهم الآخرون الرصاص ، وفي اليوم التالي ذهبت الى الوزارة ، فوجدت أمام الباب صفاً طويلاً من النساء اللواتي جئن للتبرع بدمائهن من أجل الجرحى . . لقد « أبصرت » الشعب الأسباني مرتين ، وهذه الحرب هي حربه ، أياً كانت النتيجة ، وسأبقى معه حيثما كان ، هنا مائة ألف من العمال لا يملكون سيارة تحملهم الى بلنسية . . . ! » .

ولم يكن جارسيا يستطيع أن يقول شيئاً يعادل ـ في تأثيره على جرنيكو عندما اتخذ قراره ـ حياة زوجته وأطفاله ، ولم يكن جارسيا كذلك يستطيع أن يتصور ـ في غير عناء ـ اذا قدر لهما ألا يلتقيا مرة ثانية ـ أن يكون حديثهما الأخير أشبه بالمعركة الكلامية .

وأشار جرنيكو بيده الطويلة المرهفة اشارة الى الأمام وقال :

ـ « من يدري ، ربما رحلت في اللحظة الأخيرة » .

بيد أن جارسيا كان مقتنعاً بأنه يكذب .

وارتفعت من الشارع ضجة مختلطة ، وكأنها تسبق جماعة الناس الذين اجتازوا النور ، قال جارسيا : « ها هم أولاء عمال الحفر » ، وكانوا يصعدون متجهين صوب الأراضي الأخيرة قبل كارابانشل لحفر الخنادق وبث الألغام ، وأمام جارسيا وجرنيكو كانت جماعة أخرى من الظلال أضفى عليها الضباب قتامة تقيم متراساً آخر .

قال جرنيكو : « انهم يستقرون جيداً » .

ـ « ويستطيعون التراجع عن طريق وادي الحجارة غير أن شقتك ومركز الرابطة مصيدتان للفئران » .

وأعاد جرنيكو تلك الاشارة التي تدل على ضرب من القدرية المبهمة . وهذا ضرير آخر يعزف نشيد العالمية . . لم يعد العميان يعزفون الآن سوى هذا النشيد ، وفي كل شارع كانت ظلال مختلفة ، تقيم نفس المتاريس .

واستأنف جرنيكو حديثه قائلاً : « ربما كانت الواجبات الملقاة على عاتقنا نحن الكتّاب المسيحيين ـ أكثر من واجبات غيرنا » .

ومر أمام كنيسة القلعة ، وأشار جرنيكو اليها بيده اشارة غامضة ، وأدرك جارسيا من نبرة صوته انه يبتسم في مرارة .

ـ « بعد أن ألقى قسيس فاشي موعظته في قطالونية الفرنسية وكان موضوعها :

« لا تضع على أعناقنا ـ يا رب ـ نفس النير الذي وضعته على الكفار » .

أبصرت الأب سارازولا يقترب من القسيس ، وبعد أن انصرف القسيس قال لي سارازولا : « إن معرفة المسيح تترك أثراً ما على الانسان ، وهذا أول رجل بين أولئك الذين شاهدتهم هنا يخجل من هذه المعرفة . . . » .

ومرت سيارة نقل محملة بأكداس مختلطة من رجال الميليشيا الذين يجلسون القرفصاء .

واستطرد جرنيكو بصوت أكثر همساً :

ـ « عندما أرى ما يفعلون ، أنا الذي أشعر بالخجل . . . » .

وكان جارسيا على وشك أن يجيب حين أوقفه رجل قصير من رجال الميليشيا يشبه رأسه رأس العرسة ، وقال له :

ـ « سيكونون هنا غداً ! » .

وسأل جرنيكو بصوت خافت : « من يكون هذا ؟ » .

قال ابن آوى : « لا سبيل الى التعامل مع هذه الحكومة . . . لقد حملت اليهم منذ أكثر من عشرة أيام جميع المعلومات الخاصة بانتاج ميكروب الحمى المالطية على نطاق واسع . . خمسة عشر عاماً من الأبحاث . ولم أطلب منهم سحتوتاً واحداً . كل ذلك من أجل مكافحة الفاشية ! ولكنهم لم يصنعوا شيئاً ، وهذا الاهمال بعينه هو ما لقيته قنبلتي . . وسيأتي الآخرون هنا غداً » .

قال جارسيا : « كفى ! » .

بيد ان كاموتشيني كان قد اختفى في الزحام الليلي كأنه « عفريت النسوان » وصاحب الأكورديون الذي يعزف نشيد العالمية ، ظهوره واختفاءه .

وسأل جرنيكو : « أهناك كثير من هذا الصنف ؟ » .

ـ « في البداية . . أجل . كان المتطوعون الأوائل مجانين الى حد ما أو أبطالاً الى حد ما ، أو الاثنين معاً في بعض الأحيان » .

كان جو الأمسيات التاريخية يشيع في القلعة ، كما يشيع في الطرقات

الضيقة ، وخرست المدافع وإن تعالت أصوات الأكورديونات من كل مكان . . وفجأة إنهال وابل من رصاص مدفع رشاش في نهاية أحد الشوارع ، كان رجل من رجال الميليشيا يطلق النار على أطياف .

والعمل في بناء المتاريس قائم على قدم وساق ، ومع أن جارسيا لم يكن يؤمن إيماناً عظيماً بجدوى المتاريس فإن هذه كانت تبدو استحكامات لا بأس بها ، ومن خلال الضباب كانت الأطياف لا تنقطع عن الحركة . وثمة طيف ساكن يتخلى لحظة عن سكونه ، ثم يعود اليه مرة أخرى . انه المشرف على التنظيم ، وفي هذا الضباب غير الواقعي الذي أخذ يتكاثف لحظة بعد أخرى ، كان الرجال والنساء ينقلون مواد البناء ، وكان العمال من جميع نقابات البناء يقومون بتنظيم العمل الذي يشرف عليه رؤساء فنيون ، وهؤلاء قام على تدريبهم خبراء الفرقة الخامسة في غضون يومين ، وفي هذا الموكب المسرحي الصامت الذي لفظت فيه مدريد العتيقة آخر أنفاسها ارتفعت لأول مرة من وراء مآسي الحياة الفردية ، والحماقات والأحلام ، والأطياف التي تجوس خلال الشوارع بآمالها وهمومها . . ارتفعت وسط ضباب المدينة المحاصرة ارادة خليقة بمدريد الجديدة .

وذابت أنوار الشارع الكبير ، فاستحالت الى سدم مبهمة خافتة تحت الأشكال السابقة على التاريخ التي تشكلت بها ظلال ناطحات السحاب ، وتذكر جارسيا العبارة التي قالها صديقه : ربما كانت الواجبات الملقاة على عاتقنا ـ نحن الكتّاب المسيحيين ـ اكثر من الواجبات الملقاة على سوانا . . . »

وسأل مشيراً بغليونه الى كنيسة أخرى : « ماذا تنتظر الآن بحق الشيطان من هؤلاء الناس ؟ » .

وسارا تحت عمود من أعمدة النور الكهربي . وابتسم جرنيكو تلك الابتسامة الكئيبة التي تجعله أشبه بطفل عليل :

ـ « لا تنسَ انني أؤمن بالأبدية . . » .

وأمسك بذراع جارسيا .

« وإني انتظر مما يحدث هنا الآن ـ بما في ذلك المحاريب التي أحرقت في قطالونيا ـ أن يصنع لكنيستي ـ أي جارسيا ـ أكثر مما صنعته لها أسبانيا الكاثوليكية في السنوات المائة الأخيرة ! وقد راقبت القساوسة طيلة عشرين عاماً وهم يؤدون شعائرهم المقدسة ، هنا وفي الأندلس ، بيد انني في هذه الأعوام العشرين لم ألمح قط اسبانيا الكاثوليكية الحقيقية : شاهدت طقوساً . . أما في قلوب الناس وعلى صفحة الطبيعة فلم أجد سوى صحراء قاحلة . . . ! »

وكانت أبواب الوزارة مفتوحة كلها ، ناحية بوابة « الشمس » ؛ إذ خصصت إحدى قاعاتها قبل الثورة مباشرة لتضم معرضاً للنحت . وهناك كانت التماثيل من كل نوع : التماثيل الجماعية ، والعارية ، وتماثيل الحيوانات تنتظر المغاربة في القاعة الخاوية التي تبددت فيها ضجة بعيدة تحدثها آلة كاتبة ؛ فالوزارة لم تكن قد أخليت تماماً .

بيد أن الظلال نفسها كانت تعمل دون كلل ، وفي اصرار الضباب في اقامة المتاريس في الشوارع المتفرعة عن الميدان .

ـ « أصحيح أن كاباليرو قد طلب مشورتك فيما يتعلق بإعادة فتح أبواب الكنيسة ؟ » .

ـ « أجل . » .

ـ « وبم أجبت ؟ » .

ـ « بالنفي طبعاً » .

« بأنه لا ينبغي إعادة فتحها ؟ » .

« بكل تأكيد ، وهذا يدهشك ، ولكنه لا يدهش الكاثوليك : إنني إذا أعدمت غداً فسوف تعتريني نفس المخاوف التي تعتري كل إنسان عن

نفسه ، أما في هذا الموضوع فلا تساورني أية مخاوف ، لست بروتستانتياً ، أو زنديقاً ، ولكنني أسباني كاثوليكي . ولو انك كنت من رجال اللاهوت لقلت لك : إنني أهيب بروح الكنيسة ضد جسد الكنيسة ، ولكن دعنا من هذا ؛ فالايمان ليس معناه انتفاء الحب ، والأمل لا يتطلب عالماً يسعى الى تبرير نفسه بأن يجعل الناس يقومون من جديد بعبادة ذلك الصليب القائم في أشبيلية الذي يسمونه مسيح الأغنياء ـ بوصفه تعويذة (وكنيستنا ليست زنديقة ، ولكنها سمعانية) ؛ كما أنه لا يقتضي وضع معنى العالم في امبراطورية أسبانية ، أو في نظام للحكم لا نسمع فيه شيئاً لأن أولئك الذين يتألمون يتوارون لسكب دموعهم ؛ فإنك تجد النظام أيضاً في السجون . . وما من أمل يراود أفضل رجال الفاشية لا يقوم على الغرور ؛ فليكن ولكن ما دخل المسيح في هذا الموضوع ؟ » .

وتعثر جارسيا بكلب في طريقه ، فكاد ينكفىء على وجهه ، ومدريد مملوءة بالكلاب الفخمة التي تركها أصحابها الهاربون ، وهكذا سيطر الكلاب والعميان على المدينة التي يتنازعها الجمهوريون والمغاربة .

ـ « وما شأن قساوسة نافارا « بالاحسان » ، وهم يسمحو ن باعدام الناس في سبيل مجد السيدة العذراء ؟ القساوسة البشكونيون هم الذين يدافعون عن الاحسان ؛ لأنهم لم يهابوا القبل أمام الفاشيين ، بل باركوا في أقبية ايرون Irun الفوضويين الذين أحرقوا كنائسهم ، لست قلقاً يا جارسيا ، ولكنني استند في عدائي للكنيسة الأسبانية على ايماني كله . . . وأنا ضدها باسم فضائل لاهوتية ثلاث هي : الإيمان والأمل والإحسان . . . » .

ـ « وأين تجد الكنيسة التي ترضي إيمانك ؟ » .

وأدخل جرنيكو يده في شعره المتهدل على جبينه ، وكان الحشد الذي خيم عليه الصمت ينساب بين البواكي والأعمدة التي تعوق السائر في الميدان الكبير ، وكانت الأعمال الأرضية التي توقفت قد تركت أكداساً من الزلط

والحجارة ، وتواثبت الظلال فوقها كأنها تشترك في باليه ليلي حزين تحت أبراج صارمة شبيهة بأبراج الأسكوريال ، وبدت مدريد مغطاة كلها بالمتاريس بحيث لم يعد يخلو منها مكان . قال جرنيكو :

ـ « أنظر : في هذه المنازل الفقيرة أو في هذه المستشفيات ، هذه اللحظة بالذات ـ فستجد فيها قساوسة لا يرتدون مسوحهم ، بل يلبسون صديريات شبيهة بما يلبسه جرسونات المقاهي الباريسية ، وهم يتلقون الاعترافات ، ويمنحون بركاتهم للمحتضرين ، بل لعلهم يقومون بالتعميد . لقد سبق أن قلت لك : انني لم أسمع في اسبانيا قول المسيح منذ عشرين عاماً . . . اما هؤلاء فالناس « يسمعونهم » . . . هؤلاء نسمعهم ، ولكننا لم نسمع أبداً أولئك الذين سيخرجون غداً بطيلسانهم الذي لبث طويلاً في مخبئه ليباركوا فرانكو ! كم من قساوسة يمارسون عملهم في هذه اللحظة ؟ خمسون وربما مائة . لقد سار نابليون تحت هذه البواكي ، ومنذ ذلك العصر الذي دافعت فيه الكنيسة عن « قطيعها » لا أعتقد في الواقع أن كلام المسيح قد عاش هنا ليلة واحدة . . . ولكنه حي في هذه اللحظة » .

وتعثرت قدمه بحجر من الأحجار الملقاة في الميدان المحفور ، فتهدل شعره الى الأمام ، واستطرد قائلاً :

ـ « إن كلمته حية بيننا ، وليس في العالم أماكن كثيرة يستطيع المرء أن يقول فيها : إن كلمته كانت حاضرة هنا ؛ ولكن لن يلبث الناس أن يعرفوا أن هذه الكلمة قد سميت هذه الليالي هنا في مدريد . أن شيئاً يحدث في هذه البلاد بالنسبة لكنيستي ، شيئاً لعله أن يكون هو مولد الكنيسة ، ولقد رأيت أمس الشعائر الدينية وهي تؤدى لرجل بلجيكي من رجال الميليشيا في سان كارلوس . هل تعرفها ؟ » .

ـ « رأيت هناك جرحى في الفترة التي وقعت فيها معركة القطار المصفح . . . »

وتذكر جارسيا القاعات الواسعة ذات الرائحة العفنة والنوافذ المنخفضة التي تقتحمها النباتات . . . ما أبعد هذا كله ! . . .

ـ « كانت قاعة مملوءة بالجرحى المصابين في أذرعهم . . . وعندما قال القسيس ردت عليه الأصوات :

أربعة أصوات أو خمسة أصوات ، انطلقت وراء ظهري . . . » .

ـ « هل تذكر ما كان يردده مانويل ؟»

وكان لفيف من اصدقاء جارسيا ، ومنهم مانويل وجرنيكو ـ قد قضوا منذ خمسة اشهر مضت ليلة وداع حتى مطلع الشمس ، ورافقوه الى التلال المشرفة على مدريد ، وبينما كانت التماثيل الجبرية المصطبغة باللون البنفسجي تبرز من ظلمة الليل وغابة الأسكوريال المعتمة في آن واحد ـ شرع مانويل يغني أغاني الأشتوريش التي تعلمها ، ثم قال : « وسأغني من أجل جرنيكو نشيداً دينياً » .

وختم الجميع ذلك النشيد في كورس واحد باللاتينية ، فقد تعلموا جميعاً على أيدي القساوسة ، وكما بدت تلك العبارات اللاتينية المنسية مصطبغة بشيء من السخرية الرقيقة ـ فكذلك بدت العبارة اللاتينية التي قيلت في حفرة الموت لأولئك الجرحى الثوريين بأذرعهم التي في الجبس المثنية في وضع من يستعد لعزف الكمان . . .

وأردف جرنيكو : « وهنا قال لي القسيس : « عندما وصلت كشف الجميع عن أغطيتهم ، لأنني أحمل لهم العزاء في لحظاتهم الأخيرة . . . » ولكن كلا ! لقد فعلوا ذلك لأنه من المحتمل أن يكون ذلك القسيس الداخل عدواً لهم » .

وتعثر في صخرة أخرى ، كان الميدان كله مغطى بالحجارة ، كأنما أغارت عليه طيارات العدو ، واتخذ صوته لهجة أخرى :

ـ « اعلم جيداً أن قساوستنا الكاثوليك الجادين يعتقدون انه ينبغي النظر الى هذه المسائل كلها من وجهة نظر جديدة ، ان ابن الله قد نزل الى الأرض ليقول كلاماً لا معنى له ، ويبدو ان العذاب قد أفقده صوابه قليلاً ما ، منذ أن وضع على الصليب ، أليس كذلك ؟ . . .

الله وحده يعلم المحن التي سيمتحن بها رجال الكهنوت ، ولكنني أعتقد أنه ينبغي أن تصبح الكهنوتية أمراً عسيراً مرة أخرى . . . » .

ثم أردف بعد هنيهة :

« مثل حياة كل مسيحي . . . »

ونظر جارسيا الى ظليهما المتوترين اللذين زحفا فوق ستائر الحوانيت الكثيرة ، وخطرت على باله قنابل ٣٠ أكتوبر الأثنتا عشرة .

واستأنف جرنيكو حديثه هامساً : « إن اصعب شيء هو مسألة الزوجة والأطفال . . . »

ثم قال بصوت أشد خفوتاً :

« ومع ذلك فأمامي فرصة . . فإنهم ليسوا هنا . . . »

ونظر جارسيا الى وجه صديقه ، ولكنه لم يستطع أن يتبينه ، ولم ترتفع قط أية جلبة قتال ، ومع ذلك كان الجيش الفاشي يطوق المدينة كالهلال ، أو كوجود شخص في ظلام حجرة موصدة . وتذكر جارسيا حديثه الأخير مع « كاباليرو » ، وكانت عبارة « الأبن الأكبر » قد وردت في الحديث ، ولم يكن جارسيا يجهل أن ابن « كاباليرو » أسير الفاشيين في شقوبية وأنه سيعدم رمياً بالرصاص . حدث ذلك في شهر سبتمبر ، وكان كل منهما يجلس على جانب من جانبي المائدة ، وكاباليرو يرتدي ميدعة العمل ، وجارسيا الزي العسكري ، ودخلت جرادة من النافذة المفتوحة على نهاية الصيف ، وسقطت بينهما مقلوبة على المائدة ، وحاولت أن تتحرك فأخذ جارسيا ينظر الى ساقيها المرتجفتين على حين التزم الاثنان الصمت .

الفصل السابع

تحركت ظلال وئيدة الخطى في الضباب الجاثم امام واجهات المحال وكلما اصطدمت بالحجارة أحدثت ضوضاء ، وفي الشارع الكبير كان الندل يخدمون في ذهول كئيب ثلاثة من الزبان هم آخر زبائن الجمهورية ، وفي صالة الفندق كان جنود الفرقة الخامسة يسحبون ـ واحداً إثر الآخر ـ من حقائب كبيرة قبضاتهم مملوءة بالرصاص ، ثم لا يلبثون أن ينضموا في جماعات على الرصيف ، وكانوا في الواقع مدججين بالسلاح ، وفي تطوان وكواتروكامينوس (الطرق الأربعة) كانت النسوة يحملن كل ما يمكنهن جمعه من البنزين الى الطابق الأعلى من المنازل . ولم يكن التسليم أو الفرار في تلك الأحياء العمالية ـ من المسائل التي يمكن ان ترد على الأذهان ، وكان رجال الفرقة الخامسة ينزلون على كارابانشل ، وعلى الحديقة الغربية وعلى المدينة الجامعية بسيارات النقل ، أو على الأقدام . ولأول مرة أحس اسكالي انه أمام طاقات منسقة تتألف من خمسمائة ألف رجل . ولم يكن من الممكن أن يحمل والد جيم معه سوى حقيبة واحدة ، فلم يكن ثمة متسع في السيارة .

وانفتح الباب على عجوز عملاق ضخم الجثة ، له لحية مدببة كالرمح ، مدفونة بين منكبيه العريضتين المنحنيتين ، ولكن ما أن وقف الشيخ تحت المصباح الكهربي الذي يضيء الدهليز ، حتى لاحظ اسكالي أن الشعر يغير من شكل هذا الرجل الذي يشبه شخصية من شخصيات « الجريكو » ، كما يغير رسام من عصر الباروك لوحة ينسخها من لوحات ذلك المصور

الأسباني : فهناك فوق العينين الحادتين الـواسعتين جـداً ـ وإن أطفأتهـا قليلاً كثافة الجفنين وكثرة غضونها ـ كان الشعر الذي في مؤخـرة الرأس يتـطاير في خصـلات هوجـاء ، وينتهي حاجبـاه المتحركـان الحادان بشـولتين مثلما تنتهي اللحية .

وسأل مبتسماً : « أنت جيوفاني أسكالي ، أليس كذلك ؟» .

فقـال اسكالي مـدهوشـاً من سماع اسمـه الأول : « لقد حـدثك ابنـك عني ! »

ـ « أجل . . ولكنني قرأت لك . . قرأت لك . . . » .

وكـان اسكالي يعلم أن والـد جيم كان استـاذاً لتاريـخ الفن ، ودخـلا حجرة مغطاة بالكـتب ، باستثناء تجويفين عاليـين على جـانبي الأريكة . وفي احدهما قامت تماثيل اسبانية مكسيكية بعضها بدائي وبعضها الآخر من عصـر الباروك . وفي التجويف الآخر تمثال جميل لموراليس . .

ومن خلال النظارات التي كـان يمسكها بيـده ، نظر آلفـير الى اسكالي في انتبـاه فاحص ، يـوجهه عـادة الى الأشياء الفـريدة ، وكـان آلفـير أطـول من اسكالي بحوالي رأس .

وسأله اسكالي : « تبدو عليك الدهشة ؟ » .

ـ « إن رؤ ية شخص يفكر في مثل هذا الزي . . . يدهشني دائماً » .

وكان اسكـالي يرتدي زيه الرسمي بسرواله الطويل جـداً ، ونظارتـه . وعلى منضدة منخفضة قائمة بجوار مقاعد وثيرة من الجلد ، كانت زجاجة من الخمر وكأس مترعة وكتب مفتـوحة ، وغـادر آلفير الحجـرة بخطوات متثـاقلة غاية التثاقل ، وكأن كتفيه أقوى كثيرا مما تحتمله الساقان ، ثم عاد يحمل كأساً أخرى . . .

قال اسكالي : « كلا . . . شكراً . . . »

وعلى الرغم من المصاريع المغلقة فقد تناهت اليهما جلبة أقدام مسرعة ، وأنغام أكورديون بعيد .

ـ « انت مخطىء في رفضك ؛ لأن نبيذ اكسبريس ممتاز حقاً ، وهو لا يقل جودة عن النبيذ الفرنسي ، أتريد شيئاً آخر ؟ » .

ـ « إن سيارتي تنتظر عند باب المنزل تحت تصرفك ، ويمكنك أن تبرح مدريد فوراً » .

وكان آلفير قد غاص في أقرب المقاعد اليه ، كالنسر القوي الهرم الذي نتف ريشه ، وله منقار معقوف ، غير منفر كمنقار ابنه .

ورفع عينيه الى اسكالي ، قائلاً : « ولماذا ؟ » .

ـ « لقد أوصاني جيم أن أمر عليك لأصحبك عند عودتي من الوزارة ، وأنا عائد الآن الى قلعة هنارس » .

وكانت ابتسامة آلفير أطعن في السن من جسمه :

ـ « عندما يسافر شخص في مثل سني فإنه يصطحب معه مكتبته » .

ـ « لعلك تعلم ان المغاربة سيكونون هنا غداً ، أليس كذلك ؟ » .

ـ « طبعاً . . ولكن ماذا تريدني أن أصنع بحق الشيطان . . . إننا نتعارف في ظروف عجيبة ، وأنا أشكر لك المساعدة التي تعرضها عليَّ ، وأرجوك أن تحمل شكري الى جيم على ما طلبه منك . . . ولكن لماذا أرحل عن مدريد ؟ » .

ـ « الفاشيون يعلمون ان ابنك يحارب ضدهم ، ألا تدرك أنك تتعرض للاعدام رمياً بالرصاص ؟ » .

وابتسم آلفير بجفنيه السميكين ، ووجنتيه المتهدلتين ، وأشار الى زجاجة الخمر بالنظارة التي يمسكها بيده :

ـ « لقد اشتريت النبيذ » .

كـان له نفس أنف جيم المعقـوف النحيـل ونفس الـوجـه ذي النتـوءات الكثيـرة ونفس المحجرين في تلك اللحـظة التي رسم فيها الـظل عـلى جبينـه نظارتين واسعتين سوداوين .

وأردف قـائـلاً : « تـريـد أن تقـول : إن الخـطر ينبغي أن يفصلني عن . . . »

وأشار الى الجدران المغطاة بالكتب .

ـ « ولمـاذا ؟ لمـاذا ؟ هـذا شيء عجيب : لقـد عشت أربعـين عـامـاً في الفن ، ومن أجل الفن . . . وهأنتذا ـ الفنان ـ تتعجب لاستمـراري في . . . أصغ اليَّ جيداً يـا سيد اسكـالي : لقد أشـرفت طيلة أعوام عـلى ادارة صالـة عرض للوحات . . . وقـدمت هنا فن البـاروك المكسيكي ، والمصور جـورج دي لاتور ، والفرنسيين المحدثـين وتماثيـل لوبيـز وفن البدائيـين . وقد تصـل زبونة الى المعـرض ، وتنظر الى لـوحة من لـوحات الجـريكو أو بيكـاسو ، أو بـدائي من أراغـونيـا وتسـألني : « كم ثمنهـا ؟ » وفي العـادة تكـون سيـدة ارستقراطية بكل عنجهيتها الأسبانية وبجواهرها وبخلها . فـأسألهـا : « معذرة يا سيدتي ، ولكن لماذا تريـدين شراء هـذه اللوحة ؟ » . وكـانت الاجابـة دائماً على هذا النحو : « لست أدري ! » إذن عودي الى منزلك وأمعني في الفكر ، وعندما تعرفين السبب عودي مرة أخرى » .

وكان جارسيا هو الشخص الوحيد الذي يتمتع بعادة التنظيم العقـلي من بـين جميـع الأشخـاص الـذين التقى بهم اسكـالي أو عـاشـرهم منـذ نشـوب الحرب .

وأحس اسكـالي بنشوء عـلاقة ذهنيـة بينـه وبـين ذلـك الشيـخ ، وكـان احسـاسه ذاك أشـد حدة عـلى الأخص نتيجـة لليـوم المضني الـذي قضـاه ،

ونتيجة لشعوره بأنه قائد ضعيف ، كان العالم الذي وجد فيه قيمته يجتذبه اليه .

وسأل : « هل كنَّ يعدن ؟ » .

- « كن يحاولن معرفة سبب شرائهن لتلك اللوحة على الفور ، « أنا أُريد هذه اللوحة لأنها تعجبني ، أو لأنني أراها جيدة ، أو لأن إحدى صديقاتي تمتلك واحدة » . وكان الناس يعلمون ان عندي أجمل لوحات الجريكو » .

- « ومتى تقبل البيع ؟ » .

ورفع آلفير الى شعره المجعد إصبعاً مملوءة بالعقد .

- عندما يجبن : « لأنني في حاجة اليها » فاذا كانت الواحدة منهن غنية بعتها لها بثمن باهظ ، أما اذا كانت فقيرة ، فقد يحدث أن أبيعها دون ربح» .

ودوت طلقتان عن قرب ، أعقبتهما تواً جلبة أقدام متفرقة هنا وهناك .

قال آلفير دون مبالاة : « بهذه المصاريع الداخلية لا يرى أحد نورنا من الخارج على الاطلاق » .

- « كنت أبيع وفقاً للحقيقة التي او من بها يا سيد اسكالي ! وهل يستطيع إنسان أن يبلغ بحقيقته الى ابعد من ذلك ؟ والليلة أعيش معها ، المغاربة قادمون ؟ فالأمر سيان عندي . . . » .

- « أنت تستسلم للموت عن عدم اكتراث ؟ » .

- « لا عن عدم اكتراث . . » .

ونهض آلفير قليلاً دون أن تتخلى يداه عن مسند المقعد ، ونظر في حركة مسرحية الى حد ما ، وكأنه يريد أن يؤكد ما يقول :

- « وإنما عن احتقار . . . » ثم أردف قائلاً :

« ومع ذلك ، ومع ذلك ، هل ترى هذا الكتاب ، إنه رواية دون كيشوت ، وكنت أريد أن أقرأه في هذه اللحظة ، ولكني لم أستطع . . . » .

ـ « لقد رأيت في كنائس الجنوب حيث كانوا يقاتلون ، رأيت بقعاً كبيرة من الدماء في مواجهة اللوحات ، وهكذا فقدت اللوحات تأثيرها . . » .

فقال آلفير : « ينبغي أن نحصل على لوحات أخرى . . . هذا كل ما في الأمر » .

وأخذ يلف طرف لحيته على سبابته ، وكانت لهجته لهجة تاجر يقوم بتغيير اللوحات في شقة أحد الزبائن .

قال اسكالي : « حسن ، ومعنى هذا تقدير الأعمال الفنية تقديراً عظيماً » .

ـ « الفن ، لا أعمال فنية ، فليست الأعمال الفنية جملة هي التي تخاطب أنقى الجوانب في نفوسنا ، بل هذا العمل الفني أو ذاك على وجه التحديد . . . »

وفطن اسكالي الى ما كان يحرجه منذ بداية هذا الحديث : ان القوة التي يتسم بها وجه هذا الرجل تتركز في عينيه ، وفي كل مرة كانت غريزته الحمقاء تقوده بمساعدة الشبه بين الأب والأبن ـ الى أن يتوقع رؤية عينين كفيفتين في كل مرة يرفع الرجل العجوز نظارته عن عينيه .

قال الشيخ : « لا صوت الليلة للروائيين ورجال الأخلاق ، فإن الأشخاص الذين يتعاملون مع الحياة لا قيمة لهم أمام الموت ، والحكمة أشد تعرضاً للإصابة من الجمال ، ذلك لأن الحكمة فن مشوب ، أما الشعر والموسيقى فيثبتان للحياة والموت على السواء ، وما عليك إلا أن تعيد قراءة نومانس Numance هل تذكرها ؟ الحرب تتقدم صوب المدينة المحاصرة تصحبها تلك الضجة المكتومة . . . »

ونهض ، ثم أخذ يبحث عن أعمال سرفانتيس الكاملة ، ولكنه لم يجدها :

- « كل شيء مقلوب رأساً على عقب بسبب الحرب ! » .

وسحب كتاباً اخر من .مكتبته ، وشرع يقرأ بصوت مرتفع ثلاثة أبيات من قصيدة الشاعر كيفيدو Quevedo :

« بم تتظاهر هذه المرأة التي هرعت مذعورة لانقاذ روحها . . . تلك الروح التي تشابكت فيها مشاعر دنية لا قيمة لها ؟ » .

وكشفت السبابة التي تتابع ايقاع الشعر عن الأستاذ ، وانحنت كتفاه على ظهر المقعد كنسر عجوز لاذ بتلك الحجرة المغلقة ، وبذلك المقعد ، وبالشعر ، وجعل يطالع في تؤدة مع احساس بالايقاع ازداد تأثيره نتيجة لخلو صوته من كل لون ، ولشيوع الشيخوخة فيه شيوعها في ابتسامته ، وكانت الضجة المكتومة للأقدام الهاربة في الشارع ، والانفجارات البعيدة ، وضوضاء الليل والنهار التي ما برحت عالقة بذهن اسكالي . . كانت هذه الضوضاء كلها تطوف حول هذا الصوت الذي يتمثل فيه الموت كالحيوانات الحائرة .

« ومن المحتمل جداً أن يقتلني العرب ، كما يمكن أن يقتلني أيضاً رجالكم ، فيما بعد ، هذا شيء لا أهمية له ، أمن العسير - يا سيد اسكالي - أن ينتظر الانسان الموت (الذي ربما لا يأتي !) وهو يحتسي الخمر في هدوء ويطالع أشعاراً رائعة ؟ ثمة احساس عميق نحو الموت لم يعبر عنه أحد منذ عصر النهضة . . . » ثم قال هذه العبارة وكأنه يضعها بين قوسين : « ومع ذلك كنت أخشى الموت في شبابي . . » .

- « أي إحساس ؟ » .

- « حب الاستطلاع . . »

ووضع ديوان كيفيدو فوق أحد الرفوف ، ولم يعد اسكالي يود الرحيل . وسأله الشيخ : « ألا تشعر بشيء من حب الاستطلاع للموت ؟ إن كل رأي قاطع عن الموت سخيف أشد السخف . . . »

وقال اسكالي واضعاً يده في شعره المجعد : « طالما فكرت في الموت ، ولكن منذ أن اشتركت في القتال ، لم أفكر فيه قط ، لقد فقد في نظري كل . . كل حقيقة ميتافيزيقية ، إن شئت . وحين سقطت طائرتي ذات مرة ، وبين اللحظة التي سبقت ارتطام مقدمة الطائرة بالأرض ، واللحظة التي جُرحت فيها ـ وكان جرحاً طفيفاً ـ لم أفكر في شيء على الاطلاق ، بل كنت متأهباً كالحيوان المطارد تأهباً تشنجياً . كيف أقفز ؟ وأين ؟ وأعتقد الآن أن المسألة تكون دائماً على هذا النحو ، مجرد مبارزة : يربح فيها الموت أو يخسر ، ولا يعدو الباقي أن يكون سوى مجرد علاقات بين أفكار . ليس الموت شيئاً خطيراً ، أما الألم ، فإنه لكذلك . والفن لا حيلة له أمام الألم ، ولا تستطيع أية لوحة ـ لسوء الحظ ـ أن تصمد أمام بقع الدماء » .

ـ « لا تكن على هذه الثقة ، لا تكن على هذه الثقة ! عندما حاصر الفرنسيون سرقسطة صنع الجنود خيامهم من قماش لوحات كبار الفنانين . وبعد إحدى المعارك ركع الفرسان البولنديون على الأرض يرتلون صلواتهم ، بين الجرحى أمام عذراوات « موريللو » التي استخدمت لاغلاق أبواب الخيام المثلثة . هنا كان الدين ، وكان الفن أيضاً ، ذلك لأنهم لم يكونوا يؤدون صلاتهم أمام عذارى من الشعب . آه ، يا سيد اسكالي ، لقد اكتسبت عادة عظيمة في تذوق الفن ، ولكنك لم تكتسب هذه العادة في احتمال الألم . . . وسترى فيما بعد ـ فما زلت شاباً ـ ان الألم يصبح أقل تأثيراً حين تتيقن أننا لن نستطيع تغييره . . !»

وبدأ مدفع رشاش في اطلاق نيرانه على دفعات متقطعة ، وحيداً حانقاً في السكون الحافل ، بضروب من الصرير .

وسأله آلفير وقد استولى عليه الشرود : « هل سمعت ؟ بيد أن الشطر الذي يستخدمه من نفسه ذلك الذي يطلق النيران الآن ليس هو أهم جوانبه . من يستطيع القول بأن المكسب الذي يجلبه اليكم التحرر الاقتصادي سيكون أعظم من الخسائر التي يلحقها بكم المجتمع الجديد الذي تهدده الأخطار من كل جانب . . ذلك المجتمع الذي يرغمه القلق على اتخاذ وسائل القهر والعنف ، وربما الوشاية ! العبودية الاقتصادية ثقيلة الوطأة ولكن اذا كان تحطيمها يرغم السلطات على فرض العبودية السياسية أو العسكرية أو الدينية أو البوليسية ـ فماذا يعنيني إذن ؟ »

وهنا مس آلفير في اسكالي وتراً من التجارب التي يجهلها ، وتراً اتخذ طابعاً مأساوياً في نفس الايطالي القصير المجعد الشعر ، ولم يكن المستقبل هو الذي يهدد الثورة في نظر اسكالي ، بل الحاضر ، فمنذ اليوم الذي فاجأه فيه كارليتش كان يرى العنصر الفسيولوجي للحرب ينمو لدى كثير من صفوة رفاقه ، مما ألقى الفزع في نفسه . ولم يكن المشهد الذي خرج منه تواً باعثاً على اطمئنانه ، بل تركه حائراً لا يستطيع أن يحدد موقع قدميه .

ـ « وواصل الشيخ حديثه قائلاً : « أُريد أن أتبين ما أفكر فيه يا سيد اسكالي » .

ـ « لا بأس بما تقول به ، ولكنه يجعل الحياة محصورة في نطاق ضيق » .

فقال آلفير في نبرات حالمة : « أجل . . . غير ان الحياة التي لا يحصرها شيء هي حياة المجانين . أُريد أن تقوم علاقة بيني وبين شخص ما من أجل طبيعته ، لا من أجل أفكاره ، أُريد الوفاء في الصداقة ، ولا أُريد الصداقة المعلقة على موقف سياسي ، وأُريد أن يكون الانسان مسؤولاً أمام نفسه ، وأنت تعلم طبعاً ان هذا هو الأصعب أياً كان مايقولونه ـ يا سيد اسكالي ، لا أمام قضية ، حتى ولو كانت قضية المضطهدين » .

واشعل سيجاراً : « في اميركا الجنوبية . . » (ونفث نفثة دخان) وفي

الصباح ، (نفثه أخرى من الدخان) تتصايح القردة في الغابة تصايحاً شديدا ، وتقول الأسطورة : إن الله قد وعدها بأن يحولها أناس في الفجر ، وتنتظر كل فجر . فاذا خاب ظنها بكت بكاءً تردده الغابة كلها !

« ثمة أمل رهيب عميق في الانسان ، والانسان الذي قضى عليه القضاء الجائر ، الانسان الذي التقى بكثير من الدناءة أو الجحود أو الجبن - لا بد أن يضع أمله في نظام جديد . . والثورة تؤدي فيها تؤديه من أدوار الدور الذي كانت تؤديه آنفاً الحياة الأبدية ، وهذا يفسر لنا كثيراً من خصائصها . ولو أن كل شخص أشتغل لحساب نفسه ثلث الجهود التي يبذلها اليوم لتغيير شكل الحكومة - لأصبحت الحياة في أسبانيا أمراً ممكناً » .

- « ولكن ، على الانسان أن يفعل ذلك وحده ، وهذه هي المسألة » .

- « الانسان لا يضع في الفعل إلا جزءاً محدوداً من نفسه ، وكلما ادعى الفعل انه « شمولي » كان هذا الجزء الملتزم أضأل . وأنت تعلم - يا سيد اسكالي - انه من الصعب أن يكون المرء إنساناً . . أصعب مما يظن رجال السياسة . . »

ونهض آلفير قائلاً :

-« ولكن . . المهم ، كيف تستطيع وأنت مفسر ماساكيو وبيرو دلافرانشسكا ، أن تحتمل هذا الكون ؟ » .

وتساءل اسكالي : هل يواجه فكر آلفير ويواجه أمله ؟ وقال أخيراً : « حسن . . هل عشت مرة بين كثير من الجهلاء ؟» .

واستغرق آلفير بدوره في التفكير :

- « لا أظن ، ولكنني أستطيع أن أتخيل ذلك جيداً » .

- « هل تعرف بعض المواعظ الشهيرة في العصر الوسيط . . . » .

فطأطأ آلفير راسه :

« لقد استمع إلى تلك المواعظ رجال أشد جهلاً ممن يقاتلون معي ، فهل تعتقد أنها فُهمت ؟ » .

ولف آلفير طرف لحيته على اصبعه ، ونظر الى اسكالي وكأنه يقول : «أدرك ما ترمي اليه ! » ولكنه لم يقل سوى هذه الكلمة : « طبعاً »

ـ « لقد تحدثت تواً عن الأمل ، والرجال الذين يتحدون بالأمل والعمل معاً يصلون إلى آفاق لا يبلغونها وحدهم ، كالرجال الذين يتحدون بالحب . وهذه الفرقة في مجموعها أنبل من كل فرد فيها على حدة » .

كان اسكالي يجلس ممسكاً نظارته بين أصابعه ، ولم يكن آلفير منه سوى وجهه الذي أصبح جميلاً ، لأنه يعبر عما خلق للتعبير عنه ، أعني عن الأفكار ، وفي هذه اللحظة كانت هناك وحدة عجيبة تجمع بين الشفتين الغليظتين والعينين الضيقتين نوعاً ما .

ـ « تتعبني اشياء كثيرة في الحياة التي احياها ، بيد أن جوهر الانسان ـ إن صح هذا التعبير ـ « يوجد » في نظري ـ في تلك الأشياء . « ستكسب خبزك بعرق جبينك » . وهذا القول ينطبق علينا وبخاصة عندما يكون عرق الجبين بارداً كالثلج . . . » .

ـ « آه . . . كلكم مفتونون بما هو جوهري في الانسان . . . »

ثم أردف آلفير بوقار مفاجىء : « إن عصر ما هو جوهري يبدأ من جديد ، وينبغي أن يقوم العقل على أسس جديدة . . . » .

ـ « أتعتقد أن جيم قد أخطأ حين اشترك في القتال ؟ » .

وهز آلفير كتفيه المنحنيتين ، وتدلت وجنتاه الى أسفل قليلاً

ـ « فليصبح العالم كله فاشياً ، على أن يسترد ابني بصره . . . »

وفي الخارج ، غيرت سيارة من سرعتها محدثة صريراً .

ـ « هل تعتقد أن بصره سيعود اليه مرة أخرى ؟ » .

ـ « يؤكد الأطباء أن ذلك ممكن » .

ـ « أكدوا لك أنت أيضاً ! أنت أيضاً ولكنهم يعلمون انك صديقه . . وأنت بهذا الزي العسكري . . انهم يكذبون على أي ضابط في هذه الأيام ! خشية أن تظنوا أنهم فاشيون ، اذا صارحوكم بالحقيقة . . أولئك الحمقى » .

ـ « ولماذا ينبغي أن يكون ما يقولونه كاذباً ؟ » .

ـ « وهل تعتقد انه من السهل الايمان بالحقيقة عندما تكون معلقة على كلمة رجل واحد ، وحين تتوقف عليها كل سعادتنا . . » .

والتزم الصمت برهة قصيرة ، ثم استأنف حديثه بلهجة أشد ارتفاعاً ، وفي غير مبالاة ربما ليذود القلق عن نفسه :

ـ « الأمل الوحيد الذي تحاول به اسبانيا الجديدة المحافظة على ما تحارب أنت ، وجيم وكثيرون غيركما ـ من أجله ـ هو نفس الشيء الذي ظللنا أعواماً طويلة نعلمه للناس بأقصى ما فينا من جهد . . . »

وأصغى الى شيء في الخارج ، ثم اتجه صوب النافذة .

وسأله اسكالي : « ما هذا الشيء ؟ »

وعاد الشيخ . ثم قال بصوت تشوبه الحسرة :

ـ « ماهية الانسان . ما يجعل الانسان إنساناً . . . »

وأرهف سمعه مرة أخرى ، ثم أطفأ النور ، وفتح النافذة قليلاً ، فدخل منها نشيد العالمية ، عالياً فوق وقع الأقدام . وفي الظلام ازداد صوته خفوتاً ، وكأنه ينبعث من جسد أشد نحولاً ، وحزناً ، وشيخوخة :

- « لئن دخل المغاربة في هذه اللحظة لكان آخر ما أسمعه هذه الأغنية المفعمة بالأمل التي ينشدها ضرير . . »

كان يتكلم دون إنفعال ، ولعله كان يبتسم ابتسامة غامضة ، وسمع اسكالي صوت أغلاق مصاريع النافذة ، وفي لحظة كانت الحجرة تسبح في ظلام دامس ، وأخيراً وجد الفير الزر الكهربي ، فأنار الحجرة مرة أخرى . وقال :

- « انهم يحتاجون الى عالمنا ليلحقوا به الهزيمة ، وهم يحتاجون اليه أيضاً حين يستخفهم الفرح . . »

ونظر الى اسكالي الذي جلس تواً على الأريكة .

- « لم يصنع الآلهة الموسيقى - يا سيد اسكالي - وإنما الموسيقى هي التي صنعت الألهة . . ! » .

- « ولكن ، ربما كان ما يدور في الخارج هو الذي صنع الموسيقى ».
وردد آلفير : « عصر ما هو جوهري يعود من جديد . . . »

وصب كأساً من النبيذ ، ثم تجرعها دفعة واحدة ، دون أن يرتسم على وجهه أي تعبير ، وكان مجال نور المصباح الكهربي لا يكاد يضيء سوى جبهة اسكالي ونظارته وشعره المجعد :

- « لقد جلست في المكان الذي يجلس فيه جيم عندما يأتي . . . وأنت تضع نظارات . . أيضاً . وعندما يخلع نظارته ، لا أستطيع النظر اليه . . . »

ولأول مرة سرت رنة الألم في صوته الرتيب ، وقال لنفسه بالفرنسية :
« ماذا أفادك يا بريام أن بلغت من الكبر عتياً ؟ . . . »

ورفع جبينه المتغضن تحت شعره الأشعث ، ونظر الى اسكالي نظرة تشي بالفزع والطفولة في آن واحد :

ـ « ليس هناك ما هو أبشع من تشويه « جسد » نحبه . . . . »

قال اسكالي هامساً : « إنني صديقه ، وقد تعودت رؤ ية الجرحى » .

قال آلفير في أناة : « ثمة شيء يبـدو وكأنـه حدث عمـداً . . . فهناك في مواجهة عينيه تماماً ، وعلى هذه الرفوف من المكتبة ـ جميـع الكتب التي تتناول فن التصوير. والآلاف المؤلفة من الصور التي شاهدها . . ومع ذلك فإنني إذا أدرت الجرامفون ، واذا دخلت الموسيقي هذا المكان ـ أستطيـع أن أنظر اليـه أحياناً حتى بعد أن يخلع نظارته . . . » .

الفصل الثامن

ووجد مانـويل أيضـاً وزارة الحرب مستسلمـة للشموع المحتضـرة ، كما وجد تلك القاعات الرحبة الكئيبة التي حاول فيها آخـر ملوك اسبانيـا محاكـاة شارل الخامس محاكاة هـزيلة . . تلك القاعـات التي عهدهـا مانـويل غـاصة بـرجال الميليشيـا المضطجعـين عـلى الأرائـك وقـد وضعـوا مسـدسـاتهم تحت أنوفهم ، على حين كان رئيس الوزراء ينصت في ركن من الأركان الى مـذياع صغير ، ثم رآها بعد ذلك خاضعة لنظام صارم ، متجهم نـوعاً مـا ، فرضـه كاباليرو . . وعلى نفس هذا النظام ألفاها هذه المرة أيضاً ، غير أنها كـانت مفتـوحة النـوافذ عـلى المدينـة المتوتـرة الأعصاب ، وعنـدما أدار زر المصبـاح الكهربي طالعته المقاعد بوجوه علتها الدهشة ، اللهم إلا مكتب وزيـر الحرب حيث كانت المصابيح الكهربائية مضـاءة كلها ، وفي هـذا المكتب كان القـائد الفـرنسي يجلس وحيداً ينتظر ، ولم تعد الشمـوع تلقي عـلى درجـات السلم ذلك النور المسرحي الذي شاهده جارسيا وجرنيكو ، وإنما القت نوراً كنائسياً يضرب الى الحمرة قبل أن يأتي عليها الظلام الأخير .

وهـا هنا وهنـاك وسط دهليز داخـلي تعلوه البـواكي ، كـانت الفـوانيس الصغيرة ـ وهي نفس الفوانيس التي تشـير ليلاً الى الشـوارع المسدودة أو التي تـوضع عـلى عـربـات اليـد ـ تضيء درجـات السلم الفخم التي تتـلاشى في الظلام شيئاً فشيئاً .

ودنـا مانـويل من حجـرة الجنرال « ميـاجا » بـأعلى البنـاء تحت البـرج ،

وكانت الممرات معتمة دائماً ، أما في هذا الطابق فكانت الأنوار تظهر تحت الأبواب . ودخل مانويل ، لم يكن الجنرال موجوداً وإنما كان نصف هيئة اركان حرب « دفاع الخونتا » (مجلس الثورة) جالسين ، أو سائرين داخل تلك الحجرة الشبيهة بحجرات الفنادق المتواضعة ، وميز مانويل من بينهم رئيس فرقة الديناميت ورئيس فرقة الألغام ، وبعض ضباط هيئة أركان حرب « مياجا » وعدداً من ضباط الفرقة الخامسة . . . هؤلاء لم يكن منهم جندي واحد قبل ستة أشهر من هذا التاريخ ، كانوا يضمون مصمماً للأزياء ، ومقاولاً ، وبحاراً ، ورئيساً لمؤسسات صناعية ، واثنين من اعضاء اللجان المركزية للحزب وعاملاً في المعادن ، ومؤلفاً موسيقياً ، ومهندساً ، وعامل كاراج . . وكان أنريك وراموس بينهم أيضاً ، وتذكر مانويل رجل الميليشيا الأعمى الذي شلت ساقاه نتيجة لاصابتها ، والذي جاء يبحث عن أزانا

فسأله الرئيس : ماذا تريد ؟ » .

ـ « لا شيء ، وإنما أردت أن أحييكم ، أو أشجعكم » . ولم يلبث أن عاد على عكازيه .

لم يكن هذا مجلس دفاع ، وإن كان كل اجتماع يعد ـ هذه الليلة ـ مجلساً ، ذلك أن مصير هؤلاء الرجال الذين ألف القتال بينهم كان مماثلاً لمصير مانويل ، ولمصير اسبانيا . .

وسأل أنريك : « ما عدد الرجال الذين تخصهم بندقية واحدة في هذه اللحظة ؟

فأجاب أحد الضباط : « بندقية واحدة لكل أربعة من الرجال » . وكان هذا الرجل هو مصمم الأزياء سابقاً ، وصديق مانويل والمشرف على تعبئة المدنيين ـ وكان الحزب الشيوعي قد طلب أمس اعلان تعبئة رجال النقابات .

قال أنريك : « لا بد من تنظيم عملية جمع البنادق ، وعلينا أن نحملها

الى الصفوف الخلفية اذا سقط زملاؤنا في الصفوف الأمامية . نظموا هذه العملية الليلة مهتدين بالنموذج الذي يتبعه حاملو النقالات » .

وانصرف مصمم الأزياء .

- « هل من المستحيل تماماً استرجاع بعض الأسلحة الى مدريد ؟»

وهنا أجاب شخص آخر :

- « لا وجود للبنادق الا في إدارة الأمن ، أما الحراس ورجال الدوريات والخفر فلا يملكون سوى مسدساتهم . . ما من أحد في مدريد يحمل سلاحاً هذه الليلة » .

- « لو أننا فقدنا مدريد يمكن أن نفقد الوزارات أيضاً . . والمسؤولين والوزراء إذا بقي منهم أحد !»

وسأل رئيس أركان حرب مياجا : « وأين الاستحكامات ؟ »

فأجاب راموس : « عشرون ألف رجل يعملون فيها على قدم وساق ، فقد قمنا بتعبئة رجال نقابة البناء على بكرة أبيهم ، وحولهم كثير من المتطوعين، وعلى رأسهم جماعة أومتراس أحد رجال الفرقة الخامسة ، وعلى المغاربة أن يجتازوا استحكامات طولها كيلومتر ، اذا أرادوا اقتحام المدينة في هذه اللحظة ، وسيحيط بمدريد كلها بعد غد حزام من المتاريس ، بغض النظر عن الاستحكامات الأخرى » .

وقال أحد الضباط : « المتاريس التي تقيمها النسوة سيئة . . صغيرة جداً » .

فأجاب راموس : « لم يعد لها الآن وجود ، ولم تبق إلا المتاريس التي شيدت بالشروط التي شرحتها ، أو تلك التي أشرف على تشييدها رجال الفرقة الخامسة ، والتي ثبتت صلاحيتها . . غير أن متاريس النساء لم تكن صغيرة جداً ، بل كانت على العكس من ذلك ضخمة كل الضخامة ، اذ لم

يكن من الممكن إيقافهن بعد أن شرعن في العمل !»

قال صوت آخر : « إن ما تصنعه النسوة فيها يختص بمخزون البترول في كل منزل لن يجدي كثيراً » .

- « ربما لا يجدي كثيراً ، غير ان الأثر الأخلاقي الذي يتركه عظيم » .

- « أخبرني : لماذا لم نستطع أن نفعل ذلك كله ، في وقت مبكر ؟ » .

- « إن نصف رجالنا ، بل تسعة أعشارهم ، لا يتصورون ان يكون الدفاع عن مدريد إلا داخل مدريد نفسها ، وقد قال لي رجل التقيت به في الشارع هذا الصباح : « لو انهم وصلوا الى مدريد فسنلقنهم درساً ! » فسألته :

- « أتعرف أين كارابانشل ؟ فأجابني : « إن مدريد هي مدريد وكارابانشل ، ليست مدريد » .

وسأل مانويل : « أتراهم يزحفون الآن على كارابانشل ؟ » .

- « أجل ، وقد صدتهم الفرقة الخامسة ، وهم يتقدمون الآن من الجنوب ، ولن يلبثوا أن يهاجموا جناحك أنت أيضاً »

وكان على مانويل أن يسافر الليلة الى « وادي الرمل » ، فقد أصبح الآن برتبة كولونيل ، وكان شعره مقصوصاً ، وعيناه الخضراوان أشد صفاءمن وجهه الذي اشتدت قتامته .

- « يقولون : إن رجال دوروتي قد وصلوا ؟ » .

- « لقد قطعت خطوط السكك الحديدية ، وأرسلنا سيارات النقل الى تارانكون . . . وهي الآن في طريقها الى هناك » .

- « أما زالوا ينتظرون الطيارات التي اشتريناها من الاتحاد السوفييتي ؟ »

ولم يجب أحد . كانوا يعلمون جميعاً أن العمل جارٍ في تجميع تلك

الطيارات ، ولكن ، كم سينقضي من الوقت قبل أن يتم . . . »

وسأل مانويل : « ومن سينقضون عليه في الجنوب ؟ » .

ـ « هذا يتوقف على الوقت الذي ينقضون فيه ، ولقد استدعينا في الوقت الحاضر الفرقة العالمية من فييكاس » .

ودخل الحجرة عدد من الضباط الواحد تلو الآخر .

وانطفأت الشموع الأخيرة على درجات السلم الواسعة .

وكان القائد الفرنسي قد رحل وعلى الطرف الأقصى من الردهات الشاسعة ألقت مصابيح الزينة التي كانت تعلق في الماضي على البوابات ـ نوراً خافتاً شبيهاً بنور المصابيح الساهرة على توابيت الموتى .

كان القصر المقفر كمقاهي مدريد ـ يجهز مثلها مقاومته السرية .

الفصل التاسع

المتنزه الغربي :

ارتفع في الجو تغريد عصفور ظل معلقاً كالسؤال ، وأجابه عصفور آخر ، ثم واصل العصفور الأول تغريده واضعاً سؤالاً آخر أشد قلقاً ، فاحتج الآخر حانقاً ، وهنا شقت الضباب ضحكات عالية .

قال صوت : « أنت على حق . . لن يستطيعوا العبور ، فهناك المسامير ! » .

كان العصفوران هما سيري وكوجان من الفرقة العالمية الأولى ، وكان كوجان بلغارياً لا يعرف الفرنسية ، ولهذا كانا يصفران .

ـ « اسكت ! » .

وانفجرت اثنتا عشرة قنبلة .

وكان الألمان والبولنديون والفلمنكيون وبعض الفرنسيين ينتظرون وينصتون الى الانفجارات ، وفجأة استداروا جميعاً : الرصاص ينطلق عليهم من الخلف .

صاح الضباط : « الرصاص المتفجر . . . لا تنزعجوا » .

ما اوضح صوت الرصاص الذى يخترق الضباب ! بل تكاد الأذن تلتقط الأزيز الناشىء عن مسار الرصاص . وكانت هذه الفرقة قد سميت منذ بداية التدريب باسم ادجار ـ آندريه ، اذ علم الألمان في أولى ليالي تدريبهم أن ادجار آندريه الذي سجنه هتلر أُعدم بالبلطة .

وكان الألمان جميعاً يعيشون منذ عشرة اشهر حياة المهاجرين البائسة ، وقد تخلت عنهم ثقتهم في أنفسهم ، ولم يعد أمامهم إلا الانتظار ، وما برحوا ينتظرون منذ أعوام ثلاثة ، واليوم اتيحت لهم الفرصة أخيراً ليثبتوا انهم ليسوا من مرتزقة الثورة . .

وكان البولنديون يترقبون الأوامر بوجوه ارتسم عليها الانتباه الشديد ، أما الفرنسيون فكانوا يتبادلون الحديث .

واقترب المدفع ، وأخذ كثير من الجنود يلمسون زملاءهم المجاورين لهم في شرود ، يلمسون كتفاً أو ساقاً وكأن الدفاع الوحيد للانسان ضد الموت هو حضور اخوانه من البشر حوله .

والتصق « سيري » و « كوجان » الواحد بالآخر ، كانا أصغر من أن يخوضا غمار الحرب ، ولكنهما كانا أكبر من سن الخدمة العسكرية ، وهكذا أرسلا الى الجبهة بعد أسبوعين من التدريب ، وكان سيري فتى ربعة القوام ذا وجه كبير مثلث الشكل ، داكن اللون ، وحركاته أشبه بحركات الممثل الهزلي ، أما كوجان فكان مجعد الشعر وله خصلة أمامية عمودية دائماً .

أمضيا الليلة تحت غطاء واحد : ذلك أن الجنود كانوا ينامون كل زوج تحت غطاء واحد بسبب برد نوفمبر ، وقال كوجان في نفسه : انني لم أصادف في حياتي شخصاً بهذه السرعة ! وفي كل مرة تسقط قنبلة على مقربة منهما ، كان سيري يسارع بلغته العصفورية ـ الى التعبير عن حكمه مؤيداً أو محتجاً .

وسقطت قنبلة من طراز ١٥٥ دون أن تنفجر ، واختفت في الوحل ، في جوف الأرض . . . فحرك سيري جناحيه في احتجاج عنيف ، وصاح :

ـ « المغاربة ! »

كلا . . انه مجرد محارب متوتر الأعصاب . وانجاب الضباب رويداً رويداً ، بيد انهم لم يروا أحداً : لا شيء سوى الانفجارات ، والغابة المقفرة .

ـ « انبطحوا على وجوهكم » !

وانبطحوا جميعاً ، فانغمست أنوفهم في رائحة الأعشاب التي عادت بهم الى ذكريات الطفولة ، وتدحرج الجرحى الأوائل الذين أُصيبوا في وجوههم ، وقد غطوها بأصابع اصطبغت بلون الدم ، ونهض الجنود برغم انهمار الرصاص لتحية زملائهم الجرحى بقبضات مرفوعة ، بيد أن الجرحى لم يشاهدوا شيئاً إلا واحداً منهم ـ أراد أن يجيب عن التحية فرفع قبضة دامية كشفت عن وجه تجسدت فيه الحرب نفسها ، وتهاوت الأغصان من كل جانب كما تهاوى الرجال ، وقال سيري :

ـ « حبذا الأمر لو استطاع المرء أن يدخل في جوف تلك البقرة التي تسمى الأرض ! » .

وصاح بهم صوت : « انهضوا ! » .

وشرعوا يتقدمون بأجسام منحنية عبر الغابة ، وسمعوا أصواتاً وهم يتقدمون أيضاً ، ولكنهم لم يتبينوا شيئاً اللهم إلا الأشجار المنعزلة التي كانت تشبه في الضباب نافورات التراب التي تنبثق عند انفجار القنابل .

ولم تعد ثمة محاكاة لصفير العصفور ، فمنذ أن شرعا في المسير ، ومنذ أن أقبلوا على المعركة بأقدامهم لم يفكروا في شيء اللهم إلا في اللحظة التي يظهر فيها المغاربة ، ومع ذلك كان أجهل من فيهم يعتقدون أنهم يصنعون التاريخ ، في ذلك الصباح الذي يغشاه الضباب . وتلقى الجندي الفلمنكي الصاعد على يمين « سيري » (وكان كوجان على يسار سيري) رصاصة في ساقه فانحنى ليمسك ركبته ، فأصابته رصاصتان أخريان في صدره وسقط على الأرض ، كان المغاربة يطلقون رصاصهم الآن في اتجاهات متقاطعة ، وحدث سيري نفسه قائلاً : « لم أعتقد قط أن في العالم هذه الكمية الضخمة من الرصاص ، والمصوبة نحوي على الأخص ! » ولكنه كان مسروراً لقدرته على ضبط أعصابه ، كان الخوف في نفسه ، ولكنه لم يكن يعوقه عن السير أو

عن الاتيان بأية حركة ، كل شيء إذن على ما يرام .

« سنريهم معنى أن يكون المرء فرنسياً ! » ففي هذه اللحظة كان كل جندي من جنود الفرقة العالمية يريد أن يثبت الصفات العسكرية التي تمتاز بها أمته ، وصاح أحد الضباط ، ولكنه لم ينطق بسوى مقطعين ، ثم هوى على الأرض، بعد أن أسكتته رصاصة اخترقت فمه ، وبدأ الغضب يستولي على سيري : فها هم أولاء يصرعون زملاءه ، ومن خلال ضجة القنابل لاحظ الصمت المفاجىء الذي خيم على الجميع ، وان تسكعت عبارة واحدة أخذت ترددها أصوات عديدة : « لقد أصابوني ! . . . » .

وتقدم رجال الفرقة العالمية خلال الضباب . أتراهم سيبصرون المغاربة أم لا ؟

وكان هينريش يشرف على سير المعركة من مركز القيادة الصاخب وسط عديد من التليفونات ، ووصل أحد المدنيين وكان شعره رمادياً مرتباً ، وله شارب . وسأله البير : « ماذا تريد ؟ » وكان ألبير هو مساعد الجنرال ، وهو يهودي مجري متين البنيان مجعد الشعر وطالب سابق وغاسل سابق للصحون !

ـ « أنا قائد سابق في الجيش الفرنسي ، وأنتمي إلى اللجنة العالميةالمعادية للفاشية منذ إنشائها ، وقد قضيت نهاري فوق مقعد بوزارة الحرب ، وأستطيع أن أكون أكثر نفعاً ، ولهذا بعثوا بي أخيراً إلى هنا ، وأنا في خدمتكم » .

وقدم أوراقه إلى ألبير : سجله العسكري ، وبطاقة عضويته في اللجنة ، فقال ألبير للجنرال : « أوراقه سليمة يا سيدي الجنرال . . . » .

وقال الجنرال : « لقد فقدت جماعة بولندية قائدها الثاني تواً » .

ـ « حسن جداً » .

والتفت القائد صوب البير :

- « وأين الحلل العسكرية ؟»

فأجابه هينريش : « لن تجد متسعاً من الوقت » .

- « فليكن . . أين الرجال ؟ » .

- « سيدلونك على الطريق وأحذرك أن هذا المنصب خطير » .

- « لقد خضت الحرب يا سيدي الجنرال » .

- « حسن . . عظيم » .

- « لقد ولدت محظوظاً ، وأنا أهزأ بالرصاص ! » .

- « عظيم » .

وبين جذوع الأشجار المنتصبة في ذلك المتنزه الغربي الذي لم يخلق للقتال ، وفيها وراء الأجساد الراقدة التي لم تعد تكترث بشيء لأنها ميتة - لمح « سيري » أخيراً العمائم الأولى وكأنها حمامات سمينة تتحرك خلسة . . .

- « أغرسوا السونكي في الأرض ! » .

ولم يكن قد رأى المغاربة من قبل ، ولكنه وجد نفسه ذات ليلة في اثناء عمله كوكيل اتصال منذ عدة أيام مضت - في الصف الأول على بعد مائة متر من خنادقهم ، وفي هذا المكان قضى ساعة كاملة ، وكانت ليلة من ليالي نوفمبر حالكة الظلام ، ملفعة بالضباب ، فلم يبصر شيئاً ، ولكنه سمع بوضوح - طيلة المدة التي استغرقتها مهمته - دقات طبولهم التي كانت ترتفع وتنخفض مع ارتفاع نيرانهم وانخفاضها ، وها هو ذا ينتظرهم الآن كما ينتظر قبيلة افريقية ، وكان من الشائع عن المغاربة انهم يسكرون قبل قيامهم بأي هجوم ، وها هم أولاء زملاؤه يحيطون به واقفين أو راقدين أو امواتاً مصوبين بنادقهم أو مطلقين رصاصها ، زملاؤه من ايفري ، أو عمال جرينل ، أو كورنيف ، أو بيلانكور ، أو المهاجرون البولنديون والفلمنكيون ، والمنفيون

الألمان ، والمقاتلون من كومـيون بـودابست ، أو عمال السفن من انفـرس ، والعناصر الممثلة لنصف البروليتاريا في أوروبا ، ودنت العمـائم خلف جذوع الأشجار وكأنهم يلعبون لعبة (الاستغماية) الاختفاء في سباق محموم .

وكانوا يتقدمون منذ أن استولوا على مليلة .

واخترقت الضباب نصال طويلة حادة من الصلب ، هي نصال السونكي أو السيوف دون أن تلمع .

والجنـود المغاربـة من أفضـل جنـود العـالم من حيث استخـدام السـلاح الأبيض .

ـ « ثبتوا الحراب في بنادقكم ! » .

كانت هذه أول معركة تخوضها الفرقة العالمية .

وسحب رجال الفرقة السونكي ، لم يكن سيري قد اشترك في القتال من قبل ، ولم تكن الفكرة التي تراوده الآن انه سيقتل أو انه سينتصر ، وإنما كـان يقول في نفسه : هؤلاء الهمج لا يقدرون ما يفعلون ! » هل ستكـون المسألـة كـاللعب بالسـونكي في أثناء التـدريب في الكتيبـة ، أو سينفـذ السـونكي الى داخل الجسم وفي الحال ؟

وفي الفتـرة التي تنقضي ما بـين انفجار قنبلتـين هتف صـوت بعيـد وراء الأشجار : « . . . الجمهورية . . . تب . . . »

ولم تكتمـل العبـارة ، وشخصت الأبصـار الى المغـاربـة اللذين أخـذوا يقتـربون ، وصـاح صوت أقـرب كثيراً ، صـوت ويعرف الجميـع تقـريبـاً مـا سيقوله . . .

لم تكن كلمـاته ذات أهميـة في حـد ذاتهـا ، وإنمـا المهم هـو أنها تـرتجف حمـاساً ، وإنها أنهضت هؤلاء الـرجال المنحنيـين ، صاح الصوت لأول مـرة بالفرنسة وسط الضباب :

« في سبيل الثورة ، والحرية والجماعة الثالثة . . . الى الأمام » .

* * *

كان هينريش يضع سماعة على كل أذن من أذنيه وقد امتلأ قذاله الحليق بالغضون كما تمتلىء الجبهة ، وتقدمت جماعة وراء الأخرى للهجوم بالسونكي .

ووضع ألبير جهاز استقباله :

ـ « أنا لا أفهم شيئاً يا سيدي الجنرال ، فالكابتن مرسيري يقول : إن الغنائم كثيرة . . والمركز في أيدينا ، وقد استولينا على طنين من الصابون على أقل تقدير ! » .

وكان مرسيري يقود كتيبة اسبانية ترابط على يمين الفرقة العالمية .

ـ « أي صابون ؟ ماذا يعني هذا الأحمق ؟ »

وأمسك البير بجهاز الاستقبال مرة أخرى .

ـ « ماذا ؟ أي مصنع ؟ أي مصنع ؟ يا إلهي ! » .

قال مخاطباً هينريش : « انه يشرح لي فوائد الصابون » .

وكان الجنرال ينظر الى خريطة .

وأبدل هينريش السماعتين ثم قال :

« حسن ، لقد أخطأ في تقدير الجانب الذي يهاجمه ، واستولى على مصنع للصابون كان لنا ، أطلب من الجنرال الأسباني أن يعزل هذا الأحمق فوراً » .

وكان السونكي الذي يستخدمونه أطول مما يظنون .

ولم يتذكر « سيري » من ربع الساعة الأخير سوى خليط من الأدغال

والأشجار السامقة تنفجر كلها ، وضوضاء من القنابل تطغي على صوت الرصاصات المتفجرة ، والمغاربة الذين اقتربوا فاغرين أفواههم دون أن يسمع أحد لهم صياحاً .

وأقبلت كتيبة المانية لانقاذ كتيبة سيري التي انسحبت الى الوراء لاعادة تشكيل صفوفها ، وكانت الغابة مفروشة بالمغاربة كأنهم الأوراق التي تتخلف عن ليلة عيد ! وحين شنت الكتيبة هجومها لم ير منهم أي أحد ، وسرت شائعة بأن كتيبة بولندية اجتازت نهر المانثنارس .

وسأل هينريش : « وماذا جرى للقائد الذي أُرسل الى البولنديين ؟ »

ـ « عندما رأى الأحوال هناك قال : ان هذا المركز لا سبيل الى الدفاع عنه . وينبغي لكم أن تتخلوا عنه ، وعلى من يصل الى صفوفنا أن يقولوا : انهم قد رحلوا بناء على أوامري ، ومن الأفضل أن تخرجوا من النوافذ الخلفية ، لن تكون القنابل التي تصيبكم أقل ، ولكن الرصاص سيكون أقل .. هيا ! .. افعلوا ما آمركم به. وقولوا : انني صنعت ما ينبغي أن يصنع .

« وارتدى سترة الكابتن البولندي المقتول ، وهبط درجات السلم ثم أطلق رصاصة من المدفع الرشاش على رأسه ، وهوى أمام الباب » .

ـ « كم عدد الناجين ؟ » .

ـ « ثلاثة » .

* * *

فقد سيري كل اتصال بكوجان ، ولم يكن جاراه يفهمان الفرنسية (باستثناء الأوامر) ، كما أنهما لا يعرفان الصفير ، وكان سيري يعلم أنه ليس وراء كتيبتهم سوى حلاقين مسلحين ، وقد سميت كتيبتهم الاحتياطية باسم « كتيبة فيجارو » . وعندما خفتت الضوضاء الجهنمية سمع طلقات

الـرصـاص منبعثـة من طـابـور دورّوتي الـذي كـان يتقـدم ، ومن « كتيبـة الصلب » ، التي كـانت تتقـدم بـدورهـا ، ومن الأشتـراكيـين الـذين كـانـوا يتقـدمون ايضـاً . وكلما تقدمـوا اتسعت الصفوف . ووراء ذلـك الاضطراب الدامي الذي ساد المتنزه امتد صف مهاجم على طول المدينة ، وتلقى الأسبان الـذين رابطوا بـين المنازل وصـدوا ثـلاث هجمـات هـذا الصبـاح ـ الأوامـر بالهجوم بدورهم ، فاستـردوا المنازل التي استـولى عليها المغـاربة مستخـدمين القنـابل اليـدوية ، وأوقفـوا الدبـابات بـالدينـاميت ، ووجد المغـاربة الـذين دحرتهم حراب الفرقة العالمية ـ وجدوا امامهم الفوضويين في الشوارع ، وهم يـدفعون أمـامهم مدافـع الجمهوريـين الى الصفـوف الأولى ، ووراءهم كـان رجال النقابات ينتظرون أسلحة القتلى الأوائل .

كـان الفاشيـون يتقـدمـون منـذ ان تـركـوا مـراكش ، ولكنهم بـدأوا في الانسحاب منذ أن هاجموا المتنزه الغربي .

وحـين تحطمت صفـوف المغاربـة ، انسحبت الـوحـدات العشـريـة التي تتألف منها الفرقة العالمية الى الخلف ، وهنـاك أعادت تشكيـل وحداتهـا ، ثم هاجمت من جديد ، وتراجع المغاربة تراجعاً سريعـاً ، واشتركت في الهجـوم وحدات الفوضويين تحت قيادة دورّوتي وطوابير الأحزاب القطالونية كما اشترك الأشتراكيون ، والبورجوازيون الذين يؤلفون « كتيبة الصلب » .

صاح البير الذي يمسك بجهاز الاستقبال :

ـ « آلوا ! » .

ـ « العدو يشن هجوماً مضاداً من جديد ، يا سيدي الجنرال » .

ـ « بالدبابات ؟ » .

فرد ألبير : « كلا . . . لم تظهر دبابات جديدة ؟ » .

ـ « طائرات ؟ » .

فأجاب البير : « الطائرات المألوفة » .

ولم يضع السماعة ، بل نظر الى قدمه التي جعلت ترتجف ، وكان جهاز الاستقبال يرتجف أيضاً :

- « سيدي الجنرال ! ها هي ذي .. لقد انقضوا ثانية حتى المانثنارس .. سيجتازون المانثنارس مرة أخرى يا سيدي الجنرال ! »

ومرت السرايا أمام سرية « سيري » واحدة اثر الأخرى وهي تهرول للهجوم ، وكان سيري ورفاقه يحتلون أرضاً تناثر فيها الرجال ذوو الوجوه المكدودة ، ومضت سرايا الأمم المختلفة واحدة تلو الأخرى في الضباب الذي بدأ الآن وكأنه من صنع دخان الانفجارات ، وقد انحنى رجالها ببنادقهم الممتدة الى الأمام : منظر من مناظر الأفلام وإن لم يكن مختلفاً عنها مع ذلك كل الاختلاف ، إن كل واحد من هؤلاء الرجال فرد من أهله .. وهم يعودون ، وقد أخفى بعضهم وجهه بقبضتيه ، أو أمسك بطنه بيديه ، أو ربما لا يعودون على الاطلاق ... ولكنهم قبلوا ذلك ، كما قبله هو أيضاً . ووراءهم ترامت مدريد ، وأنبعث ضجيج بنادقهم الكئيب .

وحملتهم موجة هجوم جديد أمام نهر ضيق .

وهتفت الأصوات : « المانثنارس » .

وارتاع عصفور ، فأطلق صفيره ، وهناك ، في مكان ما من الضباب كان كوجان ينزف دماً فوق أوراق الشجر المنداة بعد أن نفذت طعنة سونكي في فخذه ، وهناك أجاب نيابة عن الجرحى .. وعن القتلى ! .

دماء اليساريين

الفصل الأول

ازداد الصمت العميق عمقاً على عمقه ، وأحس جرنيكو أن السماء مملوءة هذه المرة . لم يكن الصوت أزيز طائرة ، ولكنه كان ذبذبة شاملة ، تزداد عمقاً رويداً رويداً ، وكأنها نغمة موسيقية متصلة صادرة من القرار ، وكان ضجيج الطائرات التي سمعها حتى الآن يتناوب صعوداً وهبوطاً ، أما هذه المرة فقد كانت المحركات من الكثرة بحيث اختلط ازيزها في صوت آلي مطرد لا سبيل الى تحديد مكانه .

وكانت المدينة تخلو تقريباً من الأنوار الكاشفة ، وعلى هذا كيف تستطيع طائرات المطاردة الحكومية ، أو بالأحرى ما تبقى منها أن تعثر على الفاشيين في هذا الظلام الحالك ؟ ودغدغت تلك الذبذبة العميقة الغليظة أعصاب جرنيكو ، وتمشت في شعره ، ثم أصبحت شيئاً لا يطاق ، لأن القنابل لا تسقط .

وأخيراً انطلق من الأرض انفجار مكتوم كأنه صوت لغم بعيد ، ثم أعقبت ذلك ثلاثة انفجارات عنيفة أشد ما يكون العنف ، الواحد وراء الآخر ، وتلا ذلك انفجار مكتوم آخر ، ثم لا شيء ، انفجار آخر وفوق رأس جرنيكو انفتحت نوافذ شقة كبيرة كلها دفعة واحدة .

ولم يشعل مصباحه الكهربي خوفاً من أن يظن رجال الميليشيا انها اشارة ضوئية ، وما أسرعهم في اللجوء الى هذا الظن ، واستمرت ضجة المحركات

دون أن تسقط أية قنابل ، وفي هذا الظلام الشامل لم تكن المدينة تستطيع رؤ ية الفاشيين ، كما لم يكن الفاشيون يستطيعون رؤ ية المدينة .

وحاول جرنيكو أن يعدو ، بيد أن الأحجار المكدسة في الطريق جعلته يتعثر بلا انقطاع ، كما أن الظلمة الكثيفة جعلت متابعة الرصيف أمراً مستحيلاً ، ومرقت سيارة مسرعة صبغت مصابيحها باللون الأزرق وتعالت خمسة انفجارات جديدة وبعض طلقات البنادق ووابل غامض من مدفع رشاش . وكان يبدو دائماً ان الانفجارات منبثقةمن الأرض ،وانها تنفجر على بعد عشرة امتار في الهواء ، ولكن ما من ضوء يصاحب الانفجارات.، وكانت النوافذ تنفتح مدفوعة بعامل مجهول ، وتحطم زجاج النوافذ من جراء انفجار أقرب ، وسقط من علو شاهق على الأسفلت ، وأدرك جرنيكو على صوت الضوضاء أنه لا يستطيع أن يرى إلا الطابق الأول ، وتناهى الى سمعه صليل جرس كأنه صدى كوب ينكسر ، واقترب الصليل ومضى أمامه ، ثم تبدد في الظلام . . هذه أولى عرباته للاسعاف ، ووصل أخيراً الى المركز الصحي ، وكان الشارع الذي خيم عليه الظلام يموج بالناس والحركة .

انهم الأطباء والممرضات والمشرفون على النظام والجراحون وقد اقبلوا في نفس موعده لتسلم عملهم الى جانب زملائهم في الخدمة .

وها هو يحصل أخيراً على عربات للاسعاف ، وكان أحد الأطباء مسؤولاً عن القسم الطبي من العمل ، على حين كان جرنيكو مسؤولاً عن تنظيم وحدات الاغاثة .

قال الطبيب : « لا بأس بذلك الآن . ولكن استمروا على هذا المنوال ، فلن يكون الحال على ما يرام . نحن مرغمون على ارسال عربات الاسعاف بالدور ، والقنابل تسقط على سان ـ جيرونيمو . وعلى سان كارلوس ، وهلم جرا . . . » .

ملجأ للعجائز ومستشفى ، وتخيل جرنيكو الجرحى وهم يهرولون خلال

العنابر المظلمة في مستشفى سان ـ كارلوس .

وسأل في هدوء : « هل تستخدم سيارات الاسعافات بطارياتها الكهربية ؟ » .

ـ « إنها تشتغل ، ليس من شك أن الفاشيين يستخدمون قنابل حارقة » .

ورفع الطبيب مصاريع النوافذ الداخلية .

ـ « أنظر » .

كانت أضواء حمراء خافتة تمضي في إتجاهات شتى متباينة وراء المنازل المظلمة وقال جرنيكو في نفسه : « لقد بدأ حريق مدريد » .

وسأل مرة أخرى متذرعاً بالصبر : « هل البطاريات التي في عربات الإسعاف في حالة جيدة ؟ » .

ـ « لا أظن ، ولكني أقول لك : إننا لسنا في حاجة اليها » .

كان جرنيكو يشرف على التنظيم في هدوء أثار دهشة الجراحين .

ولم يكن في مسلكه أثر ملهاة الحياة أو مأساتها ، ولم يلبث أن كلف أحد مساعديه حمل البطاريات في كل عربة اسعاف ، ذلك أن النور كان في مثل هذه الظلمة الشاملة ـ هو الشرط الأول لاغاثة الجرحى .

انفجار جديد ، وبينما كانت إحدى الممرضات تغلق مصاريع النوافذ تناهى الى الأسماع صليل أجراس عربتين للاسعاف يشق ظلمة الليل .

انفجار آخر ، وكان يبدو أن القنابل ـ وهي قنابل خفيفة بلا شك لا تلقى من طائرة ، وإنما تقذف في وحشية كما تقذف القنابل اليدوية . كان جرنيكو جالساً يقرأ الاخطارات التليفونية التي حملت اليه مكتوبة على بطاقات .

قال : « انهم يحاصرون القصر » .

وقال الطبيب : « ألف جريح . . والبقية تأتي . . . »

وكان المستشفى والسفارة السوفياتية متجاورين .

قال جرنيكو : « شارع سان ـ أغسطين » .

« شارع دي ليون . . ميدان دي كورتيز » .

وقال الطبيب : « انهم لا يضربون الجرحى الآن ، وإنما يضربون الأحياء » . وفتح أحد المساعدين النافذة التي رفع الطبيب مصاريعها نصف فتحة ، وطغى الطنين المنتظم المنبعث من الطائرات الفاشية على أصوات الأوامر ، ورنين التليفون ووقع الخطوات ، وصليل عربات الأسعاف .

وأطار تيار من الهواء بضع وريقات ، وعادت في هذه اللحظة ممرضة كانت قد استقلت عربة الاسعاف المخصصة لملجأ العجائز .

ـ « آه ! هذا شيء جميل يا عزيزي جرنيكو ! فالمستشفى يحتاج على الأقل إلى عربتين اضافيتين من عربات الاسعاف ! » .

وصاح الطبيب وهو يطارد أوراقه التي أطارها الريح كما يطارد الفراشات .

ـ « أغلقي الباب ، يا مرسيديس ! » .

ـ « يا لها من عصابة من الأنذال » .

قالت الممرضة ، وكأنها تتحدث عن طنين المحركات التي أغلقت دونه النافذة . « فهناك ساد اضطراب مخيف ، العجائز المساكين يطأ بعضهم بعضاً على درجات السلم ، لقد استولى عليهم الفزع طبعاً !» .

وسأل جرنيكو : « كم عدد الجرحى ؟ » .

ـ « عربات الاسعاف تكفي نقل الجرحى . والمشكلة هي إجلاء الباقين عن الملجأ » .

- « عربات الاسعاف جعلت للجرحى ، ولدينا ما يكفي منها . . ولكن هل لجأ العجائز مؤقتاً الى السراديب ؟ » .

- « على ما أظن ! » .

- « وهل السراديب متينة ؟ » .

قالت مرسيديس بصوت خافت بعد أن ثابت فجأة الى الهدوء :

- « أوه ! إنها أشبه بالقبور » .

- « حسن » .

وعهد الى أحد مساعديه بإخطار « الخونتا » (مجلس الثورة) .

- « هل تعلم يا جرنيكو أن بعضهم قد أصابته لوثة . . . »

وسأل الطبيب : « هل هي قنابل حارقة ؟ » .

- « الأشخاص الذين يدعون انهم يعرفون شيئاً يسمونها قنابل جيرية (كلسيوم) وهي خضراء بلون الأبسنت (نوع من الخمر) ، وهي فظيعة ، إذ لا سبيل الى اطفائها ، والشيوخ الذين يتحسسون طريقهم كالعميان ، وقد مدوا أيديهم الى الأمام ، أو أخذوا يظلعون على عكازات . . » .

- « أين سقطت القنبلة ؟ » .

- « في دهليز بين عنابر النوم » .

أترى لم تغلق النافذة باحكام ؟ فما زال أزيز الطائرات العنيد يجوس خلال القاعة تقاطعه زوبعة من رصاص مدفع رشاش جمهوري كمحاولة لرفع الروح المعنوية طبعاً ، ومن تحت أنبعث هزيم كأنه صادر من الأرض ومن الجدران أخذ يرتفع وينخفض مع دقات طبول خفيفة : هجوم جديد للفرقة العالمية على المغاربة على طول ضفة المنثنارس .

وسأل جرنيكو : « أين تدور رحى القتال ؟ » .

فأجابته مرسيديس : « في كل مكان » .

وقال الطبيب : « في كازادل كامبو (دار الريف) ، وفي المدينة الجامعية » .

وتواثبت أقلام الحبر على المناضد من جراء انفجار قريب ، وسقطت احجار القرميد على سطوح بعيدة ، وتلاحقت أقدام في الطريق تبحث عن ملاذ تحتمي به ، وسادت برهة قصيرة من الصمت ، لم تلبث أن قطعتها صرخة غير مألوفة رددها الليل ، أعقبها سكون جديد .

قال جرنيكو في التليفون مرة أخرى : « قنبلة حارقة على سفارة فرنسا . . قنابل دول عدم التدخل » .

- « هل راكبو الموتوسيكلات في أماكنهم ؟ » .

- « قنبلتان على مقربة من ميدان كورتيز » .

- « ينبغي ارسال ستة من السعاة الراكبي الدراجات الى كاترو - كامينوس » .

وهمس مساعد في أذنه ، فأردف قائلاً :

- « أرسلوا عربة اسعاف اضافية الى سان - كارلوس ، فهناك عدد من الجرحى ، وأرجوكم أن تخبروا راموس أن يقوم بالتفتيش على هذا كله » .

وكانت مهمة راموس منذ أن بدأ الحصار - هي أن يحمل معونة الحزب الشيوعي الى اكثر المواقع تعرضاً للخطر ، ومع أنه كان نافعاً غاية النفع للقسم الطبي الذي يفتقر الى مواد التخدير والى لوحات الأشعة فإنه كان أقل من ذلك نفعاً لهيئة الإسعاف ، غير أن المعونة التي تقدم للجرحى في مدريد أصبحت من الآن فصاعداً وظيفة من الوظائف الرئيسية التي تقوم بها الخونتا (مجلس الثورة) .

الفصل الثاني

كان راموس يسير بأقصى سرعة تتيحها له مصابيح سيارته الزرقاء ، وتوقفت السيارة عند أول حريق كبير ، وفي تلك الليلة التي امتلأت بالصرخات المكتومة ، والخطوات المهرولة ، والانفجارات ، والاستغاثات ، وانهيارات المنازل التي تطغي على صخب المعركة المتصل - في تلك الليلة تهاوى أحد الأديرة بين الحطام ، فاندلعت فيه النيران كأنها الوحوش الكاسرة ، تحت جَيَشان من سحب الدخان الحمراء الداكنة ، ولم يبق بالمبنى أحد ، وكان رجال الميليشيا ، وحرس الهجوم ، وشرطة النجدة - يرقبون عن كثب وقد فتنهم مشهد النيران المتأججة ، واللهيب الذي لا يخمد له أوار ، وهناك أقعى قط رمادي اللون ، مشرئباً برأسه .

ترى ، هل انتهت الغارة ؟

وومض بريق خافت على اليسار ، ورنت أحذية ثقيلة في السكون الحافل بالاستغاثات البعيدة ، وأعقبت هذا البريق كتلة من اللهب أشبه بالخرشوفة لم تلبث أن خمدت ، ثم استقر على صفحة السماء وعلى المنازل - وميض عظيم . ومع أن الطائرات - كانت قد رحلت (كانت المطارات قريبة ، وليالي نوفمبر طويلة) ، فإن النار واصلت اشتعالها تحت السطوح متسللة من طابق الى آخر ، فاشتعلت على اليسار حرائق أربع جديدة ، ولم تكن نيرانها نيران الكالسيوم الخضراء المشوبة بالزرقة ، وإنما اندلاعات بنية اللون . وعندما مر راموس كانت ألسنة اللهب القصيرة التي حلت محل

النيـران المتأججـة ـ تنخر في المنـازل كأنها أسـراب من الحشرات أمـام خروج صامت : حشايا وسيقان الكـراسي تبرز من عربات اليـد ، تتبعها عن كثب نسوة عجائز ، ووصلت سيارات الأسعاف ، فأدت مهمتها في كفاءة ، وكـان راموس يشرف على عشر منها .

وفي سان ـ كارلوس كانت المنـازل تؤلف ستاراً ، والـظلمة تـامة في كـل الشوارع التي تجاور الميدان ، واصطدم راموس بنقالـة ، فصرخ حـاملوها في وجهه .

ودارت فـوق رؤ وس الجرحى الممـددين عـلى الأرض ـ الـواحـد بجـوار الآخـر ـ دوامـة من الشـــرر كحفنـة من نثــار الـورق الملون الـــذي يلقى في المهرجانات ، فأنارت سيقانهم بنور خافت ، ولم يكـد راموس يخـطو خطوات ثلاثاً ، حتى تعثر بنقالة أخرى ، وفي هذه المرة كان الجريـح هو الـذي صرخ في وجهه ، وعلى ناصية من الشارع وفوق قطعة من السـطح ، كانت أطيـاف رجال المطافىء تصوب خراطيمها الصغيرة الهـزيلة على أتـون اللهب ، وأخيراً بلغ راموس الميدان .

وتـلاحقت سحب الدخـان المتكاثفـة ، وارتفع الـوهـج فبـانت الأشيـاء جميعـاً : ضمادات الجـرحى المرصـوصين والقـطط ، ومـلأ طنـين المحـركـات العميق من جديد السماء السوداء ، وكأنه يصاحب ألسنة اللهب المتصاعدة .

كـان راموس يتلهف عـلى السلام من أجـل هؤلاء الجرحى الـذين تقوم بإجلائهم سيارات الأسعاف واحـدة أثر أخـرى الى درجة انـه أقنع نفسـه بأن ذلك الصوت هو صوت سيارات النجدة القادمة ، بيد أن الحريق خمـد برهـة عقب ضجة أحدثتها عروق الخشب المتهاوية وسط سكون مليء بـالشرر ، ولم يعـد ثمة شـك في ان الطنـين هو طنـين الطائـرات التي تحلق فوق المـدينـة . وسقطت حزمتان تتألفان من أربع قنابل تلتها ثمانية إنفجارات ، ثم ضوضاء ساحقة وكأن المدينة بأسرها قد استيقظت مرتاعة .

والى جانب راموس وقف فلاح من رجال الميليشيا ، انفكت ضمادته ، فجعل ينظر الى دمه وهو يسيل على طول ذراعه العارية ، وينسكب قطرة قطرة على الاسفلت ، وفي وهج النيران المعتم كان الجلد أحمر ، والأسفلت الأسود أحمر ، والدم البني الفاتح كالنبيذ تحول في أثناء سقوطه الى أصفر متوهج كطرف السيجارة التي يدخنها راموس ، وأمر راموس بنقل هذا الرجل فوراً ، أما الجرحى الآخرون الذين وضعت أذرعهم في الجبس فقد انسابوا كأنهم يرقصون في باليه جنائزي والسواد يغشاهم في مبدأ الأمر كالأشباح ، ثم تحولت مناماتهم الفاتحة الى اللون الأحمر شيئاً فشيئاً كلما اجتازوا الميدان في وهج الحريق المعتم ، وكان هؤلاء الجرحى جميعاً من الجنود ، لم يكن يلوح عليهم الاضطراب والفزع ، بل كان يسودهم نظام صارم ، نسيجة الارهاق والعجز والسخط والعزم الأكيد ، وسقطت قنبلتان أخريان ، فتلوى صف الجرحى الراقدين كما تتلوى الموجة .

كان كشك التليفون على بعد مائة متر ، في شارع لم يكن يضيئه وهج الحريق ، وتعثر راموس بجسم على الأرض ، فأنار بطاريته ، وصاح الرجل فاغراً فاه ، ولمس أحد رجال الأسعاف يده :

- « إنه ميت » .

فقال راموس : « كلا . . . انه يصرخ . . . »

كان كل منهما لا يكاد يسمع الآخر إلا في عناء شديد ، وسط ضجة القنابل والطائرات والمدافع البعيدة، وصفارات الانذار المتبددة ، بيد ان الرجل كان قد مات فاغراً فاه كأنه يصرخ ، ولعله صرخ فعلاً ، واصطدم راموس بنقالات أخرى وصرخات ، وفجأة سطع وهج شديد انتزع أولئك الناس المنحنين جميعاً من فحمة الظلام .

وطلبت بالتليفون سيارات اسعاف وسيارات نقل ، فقد كان من الممكن إجلاء عدد كبير من الجرحى بسيارات النقل ، (وسأل نفسه : إلى أين ؟ لقد

اشتعلت الحرائق في المستشفيات واحداً وراء الآخر) . ولقد بعث به جرنيكو الى كواترو ـ كامينوس وهو حي من أفقر الأحياء ، استهدفته الغارات وخاصة منذ بداية الحصار ، (يقولون : ان فرانكو قد أكد أنه لن يمس حي شلمنقة الأنيق) ، واستقل راموس سيارته مرة أخرى .

وفي وهج الحرائق ، وعلى الضوء الشاحب المنبعث من مصابيح الشارع الكهربية الزرقاء ومن الكشافات ، وفي الظلام التام ، استأنف الناس في صمت خروجهم الذي يشبه خروج اليهود من مصر ، وكان عدد من فلاحي منطقة « تاجة » قد لجأوا الى أقاربهم ، واصطحبت كل أسرة حمارها . وبين الأغطية ، والمنبهات وأقفاص العصافير ، والقطط المحمولة على الأذرع كان الجميع يتجهون صوب الأحياء التي هي أغنى دون أن يعرفوا لذلك سبباً ، ودون فزع ، وكأنهم ألفوا عادة الحزن المتصل ، وكانت القنابل تتساقط بالجملة ،وكأن أولئك الذين يلقونها يعلمون الناس أن يظلوا فقراء ؛ لأن هذا هو ماينبغي أن يكون .

كانت مصابيح سيارة راموس الزرقاء لا تكاد تضيء له الطريق ، وأمام المنازل المبقورة مر راموس على ما يقرب من عشرين جثة مسجاة بطريقة متوازية متشابهة جميعاً بين الأنقاض .

وأوقف السيارة ، وأطلق صفيراً منادياً على سيارة إسعاف ، ها هو ذا ازيز الطائرات الذي لا يهدأ قد مزج دماء الفوضويين والشيوعيين والاشتراكيين والجمهوريين ، وكانوا يعتقدون أنهم أعداء ، مزج بينهم في أخوة الموت الأخيرة . . . ! وعوت صفارات الإنذارفي دجى الليل واقتربت وتقاطعت ، ثم تبددت في الظلام الرطب كأنها سفن تشرع في الابحار ، وتوقفت احداها ، فارتفعت صرختها المتصلة وسط هذا الخليط المتقاطع من العواء كأنها صرخة كلب يائس . ومن خلال رائحة الطوب الساخن والخشب المحترق وتحت دوامات الشرر التي اجتاحت الشارع كدوريات مجنونة ـ تعقب انفجار القنابل الخانق اجراس عربات الأسعاف ، فغطاها بطبقة من الصلب

المتطاير ، خرجت منها تلك الأجراس التي لا تعرف الكلل ، كأنها تخرج من أنفاق لتشق طريقها وسط سرب من صفارات الانذار الهائجة ، وكانت الديكة تصيح منذ بداية الغارة ، غير أن الانفجار الوحشي الذي أعقب سقوط طوربيد جوي حولها الى كائنات مخبولة ، فأخذت تتصايح كلها معاً صياحاً ساخطاً متشنجاً كأنه نشيد وحشي للفقر والتعس .

وفي الشعاع النحيل المنبعث من بطارية راموس كأنه في حركته القلقة شعيرات الاستشعار التي تتحسس بها حشرة طريقها ، وأمام الجثث المرصوصة على طول الجدار ظهر رجل ممدد على مصطبة ، وكان يئن لجرح أصابه في أحد جنبيه ، وارتفع صليل جرس الاسعاف من مسافة غير بعيدة ، وهنا أطلق راموس صفيره مرة أخرى وقال : « ها هي ذي قادمة » ، فلم يحر الجريح جواباً ، بل استمر في انينه ، وألقت عليه البطارية ضوءها من أعلى ، فعكست على صفحة وجهه ظلال الأعشاب النامية بين أحجار المصطبة ، ونظر راموس في اشفاق الى تلك الظلال الدقيقة غير المكترثة ، والمرسومة في دقة اتسم بها فن التصوير الياباني ـ على الوجنتين المرتعشتين ، على حين كانت صيحات الديكة الملتاثة ما برحت تتردد في أذنيه .

وعلى ركن من ثغره سقطت أول قطرة من قطرات المطر .

الفصل الثالث

تصاعد وهج الحرائق الأولى الكبرى التي اجتاحت مدريد وراء الخنادق الألمانية التابعة للفرقة العالمية ، ولم يكن المتطوعون يستطيعون رؤية الطائرات ، غير أن السكون الليلي الذي لم يكن سكون الريف بل سكون الحرب الغريب ، كان يهتز كما يهتز قطار يتحول عن قضبانه إلى قضبان أخرى ، وكان الألمان جميعاً قد اجتمعوا معاً سواء منهم المنفيون لأنهم ماركسيون أو المنفيون لأنهم رومانسيون يظنون أنفسهم ثوريين ، وكذلك المنفيون لأنهم يهود ، كما كان هناك أيضاً أولئك الذين لم يكونوا ثوريين ، بل أصبحوا كذلك فيما بعد ، وكانوا يصدون هجمتين في اليوم الواحد منذ أن صدوا هجوم المتنزه الغربي ، اذ كان الفاشيون يحاولون عبثاً اختراق خطوط الدفاع عن المدينة الجامعية .

نظر المتطوعون الى الوهج الأحمر العظيم الذي تصاعد حتى بلغ السحب المثقلة بماء المطر ، وكان وميض الحريق الذي يشبه الاعلانات الكهربية هائلاً في ليالي الضباب ، فبدت المدينة كلها شعلة من النيران ولم يكن أحد من هؤلاء المتطوعين قد شاهد مدريد بعد .

وظل رفيق جريح يستغيث أكثر من ساعة كاملة .

والمغاربة على بعد كيلومتر واحد ، فليس من الممكن اذن أنهم يجهلون مكان الجريح ، والأرجح انهم ينتظرون أن يسعى اليه رفاقه . ومنذ برهة قتل متطوع جازف بالخروج من الخندق ، وكان المتطوعون على استعداد

لقبول لعبة الصيد هذه ، بيد أن الشيء الذي كانوا يخشونه هو ألا يستطيعوا الاهتداء الى خنادقهم مرة أخرى في ذلك الليل الحالك الذي لا يضيء الحريق سوى سمائه .

وأخيراً تمكن ثلاثة من الألمان من الحصول على تصريح بالبحث عن ذلك الجريح المستغيث وسط فحمة الضباب ، فاجتازوا الحاجز ـ واحداً اثر الآخر ـ ولم يلبث الضباب أن ابتلعهم في جوفه وكان السكون المخيم على الخندق مرهف الحس لأقل نأمة برغم دوي الانفجارات .

كان الجريح يصيح على بعد أربعمائة متر على أقل تقدير . . المسافة طويلة إذن ، وهم يعلمون جميعاً أن الانسان لا يستطيع أن يزحف بسرعة ، ولهذا لا بد من حمله ، ولكن على شرط ألا ينهضوا ، وعلى شرط ألا يقبل الفجر سريعاً .

السكون والقتال ، وكان الجمهوريون يحاولون لم شمل صفوفهم وراء خطوط الفاشيين ، أما المغاربة فكانوا يحاولون اختراق المدينة الجامعية ،ومن مكان ما في ظلام الليل كانت مدافع الأعداء الرشاشة تطلق نيرانها من المستشفى ومدريد تحترق ، والألمان الثلاثة يزحفون على بطونهم .

الجريح يصيح كل دقيقتين أو ثلاث ، اذا أطلق صاروخ فلن يعود المتطوعون أبداً ، فليس من شك أنهم الآن على بعد خمسمائة متر من الخندق ، والآخرون يشمون رائحة الوحل الماسخة التي تكاد تكون شبيهة برائحة الخنادق ، وكأنها قد التصقت بهم ، ولكن ما أطول الفترة التي استغرقها الجريح قبل أن يطلق استغاثته من جديد ! فاذا لم يخطئوا في احساسهم بالاتجاه فلا بد أنهم يتجهون الآن نحوه .

وانتظر الثلاثة منبطحين على بطونهم ، انتظروا النداء في الضباب الذي تتخلله ومضات الحرائق . . . لقد سكت الصوت ،وكف الجريح عن النداء .

ونهض كـل منهم مستنـداً عـلى مـرفقـه ، وقـد امتقعت منهم الـوجـوه ، ومدريد مـا زالت تحترق ، وخنـادق الألمان مـا برحت صـامدة ، وعـلى دقات المدافع الحزينة ما فتيء المغاربة يحاولون اختراق المدينة الجامعية تحت ستار من ضباب الليل .

الفصل الرابع

وقف « شاد » عند أول منزل خرجت أحشاؤه ، وكان المطر قد انقطع وإن يكن الأحساس بقربه ما برح عالقاً بالنفس ، وتشابكت أيدي نساء يلبسن أوشحة سوداء ، فتألفت منهن سلسلة وراء رجال ميليشيا النجدة الذين أخذوا يسحبون من الانقاض بوقاً لجرامفون ولفافة وعلبة صغيرة .

وفي الطابق الثالث من المنزل الذي تهدم أحد جدرانه فبدا كديكور في مسرحية ، تدلى سرير حال بينه وبين السقوط اشتباك إحدى قوائمه بالسقف المتهدم . وافرغت هذه الحجرة محتوياتها من لوحات ولعب وأواني المطبخ عند قدمي « شاد » . وكان الدور الأرضي برغم خروج أحشائه سليماً هادئاً كالحياة ، على حين حملت عربة اسعاف سكانه المحتضرين ، وفي الطابق الأول فوق سرير لطخته الدماء انطلق جرس منبه ما لبث أن تلاشى في وحشة الصباح الكابي .

وأخذ رجال النجدة يتناقلون ما عثروا عليه من يد الى يد حتى ناول رجل الميليشيا الأخير أول امرأة وقفت بجواره لفافة ، بيد أن المرأة لم تمسك باللفافة من الوسط بملء يدها ، كما مدت اليها ، وإنما احتضنتها بين ذراعيها ، وكان الرأس متدلياً الى الوراء ، ذلك أن الطفل كان ميتاً ، ونظرت المرأة الى السلسلة التي كونتها النسوة ، وبحثت بعينيها عن شيء ما ، ثم طفقت تنتحب . . . لعلها أبصرت أمه ،ومضى «شاد»في طريقه ، وكانت رائحة النار الممتزجة بضباب الصباح الرطب تملأ المدينة ، رائحة مرحة تنبعث عن

الأخشاب المحترقة في غابات الخريف .

وكان المنزل التالي يخلو من الضحايا ، وإنما وقف سكانه وهم من صغار الموظفين ينظرون صامتين الى النار التي تلتهم منزلهم المتصدع ! وكان « شاد » يبحث في هذا المكان عن شيء يسترعي الأنظار أو شيء مأساوي ، بيد أنه كان في هذه اللحظة يمقت مهنته ، فما يسترعي الأنظار سخيف في العادة ولا شيء أكثر مأساوية مما يحدث كل يوم ومن آلاف الحيوات الانسانية التي يشبه بعضها بعضاً ، ومن هذه الوجوه التي يكسوها الألم ، ويرتسم عليها الأرق .

سأله الشخص الذي كان ينظر الى جواره : « أغريب أنت يا سيدي ؟» ؛ كان وجه المتحدث دقيق الملامح وإن كان طاعناً في السن ، والغضون الرأسية فيه تكشف عن أنه رجل مثقف ، وأشار الى المنزل دون أن ينبس بحرف .

وقال شاد وهو يشد رباط عنقه الصغير : « أنا أفزع من الحرب » .

ـ « لقد نالك منها الكثير » ، ثم بصوت أشد خفوتاً : « الحرب ، اذا جاز لنا أن نقول . . . » .

« يا سيدي ، إن مصنع المصابيح الكهربية الذي بصوب طريق القلعة يحترق ، وكذلك تحترق سان ـ كارلوس ، وسان جيرونيمو . . وجميع المنازل المحيطة بسفارة فرنسا ، وكثير من المنازل المحيطة بميدان كورتيز وحول القصر . . . ودار الكتب » .

كان يتحدث الى « شاد » دون أن ينظر اليه ، وإنما كان يرفع عينيه الى السماء : « أنا أيضاً أفزع من الحرب . . . ولكنها أقل بشاعة من الاغتيال » .

قال شاد في عناد : « كل شيء أفضل من الحرب » .

ـ « حتى اعطاء السلطان لأولئك الذين يستخدمونه الآن على هذا النحو ؟ » أنا أيضاً لا أستطيع أن أوافق على الحرب ، وكيف يمكن أن أقبل هذه الحرب ؟ ولكن ما العمل ؟ . . . وكان ينظر الى السماء دائماً .

وسأله شاد : « هل استطيع مساعدتك ؟ »

فابتسم الرجل وأشار الى المنزل المحترق الذي تصاعدت منه نيران شاحبة في الصباح الرمادي ، تحت دخان كئيب .

- « في هذا المنزل أوراقي كلها يا سيدي . . . إنني عالم في البيولوجيا » .

وانفجرت قنبلة ضخمة في الميدان على بعد مائة متر أمامها . فتهشم ما بقي من زجاج النوافذ . . ووسط الزجاج المتهشم طفق حمار مربوط لم يحاول الهرب ينهق بصوت بائس تحت مياه المطر التي بدأت في الانهمار . . .

وعندما عاد شاد الى ملجأ العجائز كان كثير منهم قد صعدوا من السراديب ، وكان الحريق قد أخمد ، بيد أن آثار الغارة الماثلة حول أولئك الأشخاص الضعفاء الذين لا يملكون حولاً ولا قوة بحركاتهم الطفولية كانت خالية بصورة لا حد لها من كل معنى .

وسأل شاد شيخاً منهم : « كيف حدث ذلك ؟»

« آه يا سيدي . . إن الركض لم يعد مناسباً لسننا . . الركض ونحن على هذا الضعف ، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يستندون على عكازات » . .

وأمسك شاد من كمه :

- « أين نذهب يا سيدي ؟ لقد كنت حلاقاً . لفئة معينة من الزبائن فحسب ، وكان أولئك الزبائن يعتمدون عليَّ في المناسبات المختلفة : قص الشعر وحلاقة الذقن وخلافه » .

وكان شاد يسمعه في مشقة ، اذ كانت سيارات النقل تمر بهم الواحدة وراء الأخرى ، وهي تهز الجدران والأنقاض معاً .

- « لقد وضعتنا الجبهة هنا يا سيدي ، وكنا على ما يرام . . ولم نكد نستقر حتى بدأ كل شيء من جديد . . . ولكن . . سينتهي كل شيء . . . سينتهي كل شيء طبعاً . . . كل ما في الأمر أنني أنا أيضاً . . . »

كان الشيوخ المقيمون في الطابق الأول - وهم الذين يتمتعون بصحة

جيدة ـ يساعدون في أعمال يجهل شاد طبيعتها ، وكان عددهم اثني عشر كهلاً يتصفون بوقار الشيخوخة الاسبانية ويعملون مرهفي الآذان متطلعين الى السماء كأنما قضي عليهم بالصمت .

وفي الطابق الثاني بين صليل أجراس عربات الاسعاف التي أخذت تذرع المدينة من أدناها الى اقصاها ، وبين ضجة سيارات النقل التي لا تنقطع ، كان بعض رجال الميليشيا يحاولون جر الشيوخ الذين قبعوا تحت الأسرة محتمين بها من الغارة ـ يحاولون جرهم قسراً بعد أن أصابتهم شبه لوثة جعلتهم يتشبثون بأرجل الأسرة الحديدية لا يريدون التخلي عنها ، وفجأة انطلقت صفارات الانذارات في شوارع المدينة ، وكأنها صدى عربات الاسعاف المنذر ، وهنا تخلى الكهول عن الأسرة وهرولوا نحو باب السلم الذي يؤدي الى القبو واضعين أغطيتهم على ظهورهم إلا واحداً منهم حمل سريره كدرع السلحفاة .

ولم تكد تمضي عشر ثوان حتى بعثر الانفجار الأول شظايا الزجاج المهشم المتبقية من الليل على الموائد وتحت النوافذ ، وبدأت ساعات المدينة ـ واحدة أثر الأخرى ـ تدق الساعة التاسعة ، وكأن المدينة بأسرها تجيب بناقوس غير مكترث طغى صوته على هزيم المدافع المنطلقة من المدينة الجامعية .

صاح أحد رجال الميليشيا : « ها نحن أولاء نراهم ! »

وتسلل شاد تحت باب المستشفى ، وأطل منه بغليونه الطويل أولاً ثم بأنفه ، ومن وراء البقية الباقية من سطح المنازل ظهرت طائرات اليونكرز الضخمة الشبيهة في ضخامتها بطيارات النقل الألمانية التي كثيراً ما ركبها في اوروبا ، وقد استطالت مقدمتها الى الأمام ، سوداء منخفضة تحت السحب المثقلة بالمطر ، واجتازت الشارع على مهل ، ثم اختفت وراء السطح المقابل ، تتبعها طائرات المطاردة ، وتولى القدر توجيه القنابل الحارقة ، فانفجرت عن يمين وعن شمال كحبات المسبحة .

وطارت الحمائم عن أبراجها ، وفوق تحويمها الرخو عادت الطائرات الى تحليقها الصارم كالقدر ، وكان هذا الموت الذي يهبط على الناس « مصادفة » يفزع شاد ، ألا يملك رجال الحكومة ما يكفي من طائرات المطاردة لإبعاد طائرة واحدة عن الجبهة ؟ وأمام الباب لم تنقطع سيارات النقل عن المرور ، وقد تقاطر الماء من سقوفها ، اذ كانت السماء تمطر على مقربة من ذلك المكان .

قال صوت صادر من ورائه : « هناك قبو » .

ولكن شاد لم يبرح الباب مع علمه بأنه لا يحميه على الاطلاق .

وسارت أطياف بمحاذاة الجدران ، ثم تتوقف لحظات تحت كل باب لتعاود السير من جديد . ومع أن شاد ذهب مرات عدة الى الجبهة ، فإنه لم يشعر قط بالشعور الذي أحس به هنا . كانت الحرب هي الحرب ، أما هذه فليست حرباً ، وكل ما يريده أن ينتهي حقاً هو تلك المذابح للمدنيين لا الطوربيدات ، واستمرت القنابل في سقوطها على أماكن لا سبيل الى التنبؤ بها . وتذكر « شاد » مقابلاته ومذكراته والأغطية المنصوبة في المنازل المبقورة ، ولوحة تحطم زجاجها فوق خط قصير من الدم ،وحلة من حلل الرحلات معلقة فوق حقيبة ـ وكأن هذا كله استعدادات للرحيل الى العالم الآخر . وتذكر حماراً لم يعثروا منه إلا على السنابك ، وآثار الدماء الطويلة التي سالت من جرحى القصر ، فلطخت الأرصفة والجدران والنقالات الخالية إلا من بقعة من الدم مكان كل جرح ما أكثر الدماء التي سيغسلها المطر ! وتقاطعت القذائف الآن مع القنابل ، وانتظر شاد ضجة أحجار القرميد المتساقطة عقب كل انفجار . وعلى الرغم من سقوط المطر فاحت رائحة الحرائق في الشوارع ولم تنقطع سيارات النقل عن المرور .

سأل شاد وهو يشد جناحي رباط عنقه القصير : « ما هذا ؟ » .

ـ « تعزيزات لوادي الرمل . . « وهم » يحاولون اختراقها من عل . . » .

الفصل الخامس

تقدمت فرقة مانويل تحت ستار عريض من المطر المائل من جبال وادي الرمل الى منظر من مناظر سنة ١٩١٧ . بقعة تتناثر فيها أبراج الكنائس المحطمة ، وكانت الأطياف تنتزع نفسها من الوحل في مشقة ، وتهبط الى الوادي رويداً رويداً . واتجهت أخاديد طويلة شقتها محاريث الفلاحين صوب سهل منخفض، ، لا يلبث أن يصاعد من جديد متجهاً الى أفق تغشاه ظلمة المساء في وضح النهار ، وهناك عند ملتقى الوادي بالأفق يبدو وكأن العالم يبلغ نهايته ، إلا أن وراء هذا الخطر امتدت سهول شقوبية الى ما لا نهاية ، كما يمتد البحر وراء جرف من الصخور .ووراء هذاكله عالم خفي من النوم والمطر يزمجر بكل ما يملك من مدافع وخلفه مدريد . . وما زال الرجال يتقدمون دائماً وهم يغوصون أعمق فأعمق في الوحل الذي ازداد سمكه أكثر فأكثر . . . ومن حين الى آخر كان ينبعث صوت مختلف وسط الانفجارات ، وهو صوت قنبلة لم تنفجر ، وإنما تغوص في الوحل .

وكان مركز قيادة مانويل قريباً جداً من خطوط القتال ، وقد الحقت ألوية أخرى بلوائه ، فأصبح بذلك قائداً لفرقة ، وكان جناحاه الأيمن والأوسط على ما يرام ، أما الأيسر فكان يتأرجح قليلاً بين القوة والضعف . وفي المعركة الأخيرة أصيب ستون في المائة من ضباط فرقته ومندوبيها السياسيين ، وقد قال منذ ساعة لضباطه : « تحسنون إليَّ صنعاً لو أنكم بقيتم في أماكنكم ولم تذهبوا لإنشاد النشيد العالمي على رأس جنودكم » . ونجح الهجوم المضاد الى

حد بعيد . بيد أن الجناح الأيسر كان مهزوزاً .

ولم يكن الجناح الأيسر مؤلفاً من رجال أرانخويث ، أو من رجال الفرقة الخامسة التي عززتهم ، أو من المتطوعين الجدد الذين التفوا حولهم ، فقد كان هؤلاء يقاتلون على اليمين وفي الوسط ، وإنما كان يتألف من سرايا قادمة من منطقة بلنسية ، وهي السرايا التي يقال عنها أنها فوضوية ، وإن لم ينتم رجالها قط قبل الثورة الى أية نقابات . . . ومنذ أول أمس لم يعد يشرف على الجناح الأيسر أي جاويش اذ ماتوا جميعاً أو نُقلوا الى المستشفى .

وأمام هذا اليسار تقدمت دبابات مانويل ، وفي ذلك الثبات الآلي الذي تتميز به الدبابات والذي يجعلها تبدو وكأنها تقوم بمناورات كبيرة حتى أثناء القتال اتجهت صوب حاجز من المدفعية يعادل سمكه سمك صفوف المشاة التي تتبعها ، ولم تكن قنابل المدافع هي التي تخشاها بقدر ما تخشى الأرض المملوءة بالألغام التي تسير عليها . واختفت إحدى تلك الدبابات كأنما ذابت في المطر ، والواقع انها سقطت في حفرة أُعدت للدبابات ، ورقدت أخرى في رخاوة على نافورة من الأرض الموحلة المملوءة بالحصى ، على حين تقدمت الدبابات الباقية وسط انبثاقات من الأرض المزروعة التي تتساقط تحت القذائف في منحنى رخو موحش كئيب كخطوط المطر المائلة التي لا تنقطع .

ظل مانويل يشاهد طيلة شهور متعاقبة دبابات تتقدم على هذا النحو ، كل ما في الأمر انها كانت دبابات الأعداء . وذات يوم صنعت فرقة ارانخويث دبابة من الخشب ، وكأنها تعويذة سحرية لاغراء الدبابات الحقيقية بالوصول . . . أما اليوم فكانت دباباته تمتد على مرمى البصر متقدمة على اليمين متأخرة على اليسار يتبعها المشاة .

قصفت مدافع الجمهوريين الثقيلة صفوف الأعداء التي كانت ترد عليهم ، دون أن تتمكن من صد الهجوم المضاد ، وفي اللون الرمادي الذي اصطبغت به الطبيعة كانت نقط إنسانية صغيرة ذات لون رمادي أشد قتامة

تتبع الدبـابات : انهم رجـال الدينـاميت (المفرقعـات) ، على حـين احتلت جماعات المدفعية الرشاشة أرضها ـ أرضها البائسة الرطبة التي انتزعتهـا خطوة خطوة من الأوحال .

لماذا بعثوا الى اقصى اليسار بدبابات للتعـزيز ؟ الجنـاح الأيسر يتعـثر في تقدمه ، كان صف الدبابات من أقصى اليمين الى آخر عربة في اقصى اليسار قد اتخذ الآن شكل هلال . ترى أتنسحب الدبابات التي عـلى يسار مـانويـل من المعركة ؟ وكانت الدبـابات التي يـراها ـ لا تتقـدم نحو الفـاشيين ، وإنمـا تتقدم نحوه هو .

انها لم تكن تعزيزات ، بل دبابات العدو .

لو تخاذل الجناح الأيسر لضاعت الفرقة كلها ولأصبحت هـذه الثغرة هي التي يمكن أن ينفذ منها العـدو الى مدريـد ، أما اذا صمـد فلن تتمكن دبابـة واحدة للعدو من العودة الى صفوف الفاشيين .

كانت قواته الاحتياطية على أهبة الأستعداد الى جوار سيارات النقـل وفي إمكانه أن يقذف بها كلها الى المعركة ، ذلك أن قوات احتياطية أخرى سـوف تصل بسيارات النقل من مدريد .

ووقفت أمـامه سيـارة الاتصـال بـالجنـاح اليسـاري ، وكـان من الممكن التعـرف على هـذه السيارة من غـطائها الصـوفي الغليظ وفي مؤخـرتهـا جلس القائد واضعاً رأسه في ذراعه المثنية التي على الغطاء ، وكـان يبدو أنـه يغط في النوم .

سأل مانويل وهو يضرب حذاءه بغصن شجرة صنـوبر كـان يمسك بـه : « ماذا هناك ؟ » .

كان القومندان قد أمر بأن يقاد الى مركز القيادة ، ولم يكن ما يصدر عنـه شخيراً ، وإنما كان حشرجة .

وسأل مانويل السائق : « ماذا دهاه ؟»

ولم يكن قد أبصر الجرح ، فأجابه السائق :

- « جرح في العنق » .

كان من النادر أن يصاب ضابط من الخلف في أثناء الهجوم . . لم يكن من شك أنه قد استدار بجسمه .

قال مانويل أخيراً : « ضعه هنا ، وأسرع باحضار جارتنر » .

كان مانويل قد اتصل تليفونياً طالباً إرسال القوميسير السياسي .

واختفت السيارة بعد أن أحدثت ضجة مباغتة .

وتناول مانويل نظارته المقربة : ثمة رجال على أقصى يساره يركضون صوب الدبابات الفاشية التي بدت وكأنها لا تطلق نيرانها ، اذ لم يسقط أحد ، بيد أن مانويل جعل يدير قرص النظارة المتحرك ، فمس المنظر ثم عاد فحدده وراء المطر - فشاهدهم رافعين أذرعهم الى اعلى . . انهم يذهبون الى العدو . .

ولم تشاهدهم السرية التي تتبعهم ، لأنها كانت تنفصل عنهم بمرتفع من الأرض .

ووراء تلك البقع الصغيرة التي تجري تحت اذرعها المرفوعة كأنها حشرات تحت قرون الاستشعار كانت الأرض تميل الى الانحدار . . حتى مدريد . وتذكر مانويل انهم قد عثروا في المعسكرات على كتابات للفلانجيين منذ أن وصل المتطوعون الجدد .

وكانت السرايا الأخرى التي في المؤخرة تطلق نيرانها ماضية الى المذبحة ، لاعتقادها أن الصفوف الأولى تتقدم . ألا يستطيع قائدها أن يتعرف على الدبابات الايطالية ؟

وحملوا القائد ملفوفاً في بطانية (كان مركز الاسعاف وراء مركز قيادة مانويل) وكان قد قتل هو أيضاً برصاصة في أسفل الظهر .

هذا الضابط واحد من خيرة ضباط الفرقة ، وقد كان الرئيس القديم لوفد ارانخويث ، وهو يرقد الآن منكمشاً في البطانية وقد بللت مياه المطر شاربيه .

هناك إذن فلانجيون اندسوا وسط الجنود الجدد وهم يطلقون النار على الضباط من الخلف .

وكان الجناح الأيمن يتقدم دائماً .

قال السائق : « لقد قتل القوميسير السياسي لتوه واحداً منهم » .

وطلب مانويل من أحد الضباط أن يحل محله ، وهرع الى الجناح الأيسر ، بكل ما لديه من قوات احتياطية .

* * *

واحتراماً لتعليمات مانويل : «بألا يذهبوا لغناء نشيد العالمية على رأس جنودهم » ـ أقام جارتنر قوميسير الفرقة السياسي مركز عمله في غابة من غابات الصنوبر عند مدخل الوادي الأول ، وهو الوادي الذي تزحف عليه الآن دبابات الأعداء .

وأقبل عليه أحد الجنود راكضاً ، انه « رامون » الجندي القديم ، وكان مانويل قد وضع في الجناح الأيسر خمسين رجلاً من رجال ارانخويث وسط الجنود الجدد .

ـ « هناك يا عزيزي القوميسير ستة أقذار بين الجدد يريدون قتل الكولونيل . انهم ستة ، وهم يريدون أن ينضموا الى الجانب الآخر ، لقد اعتقدوا أنني متفق معهم فقالوا : « فلننتظر الآخرين » ثم قالوا : « لقد تخلصنا من الكابتن ومن القومندان ، والآن علينا أن نهتم بصاحب القميص

الأبيض ، وكانوا يعنون القائد . . . أولئك الأوغاد » .

ـ « أعرف . . » .

ـ « وكانوا يريدون الانضمام الى الجانب الآخر ، أما أولئك الذين عليهم أن يقتلوا الكولونيل فربما كانوا آخرين غيرهم . وعندما قال ذلك قلت انتظروا . انتظروا فإن لديَّ زملاء يريدون هم أيضاً الإنضمام الى الأعداء ، فقالوا : إتفقنا ، وهكذا جئت إليك » .

ـ « وكيف تستطيع أن توقع بهم ؟ الصف كله يتقدم الآن » .

ـ « أما هم ، فلا يتحركون لأنهم ينتظرون وصول دبابات العدو . . . هناك مؤامرة مدبرة . . ثم هناك أولاد يصيحون مطالبين بالفرار ، لأنه ليس من الممكن الصمود في وجه الدبابات . . . وهم يصيحون صياحاً غريباً . الأمر ليس طبيعياً ، ولهذا أرسلني الرفاق » .

ـ « وقوميسير اللواء ؟ » .

ـ « قتل » .

وكان جارتنر قد اصطحب معه عشرة من جنود أرانخويث ، قال :

ـ « أيها الرفاق ، ثمة خونة اندسوا في الصفوف ، وقد قتلوا الكابتن ، ويريدون ان يقتلوا الكولونيل ، وأن ينضموا الى الفاشيين » .

واستبدل بحلته حلة واحد من الجنود ابقاه هناك ، وكان وجهه الحليق المدبب يبدو حين يخلو من كل تعبير كوجه الأبله ، وخاصة حين يجتهد جارتنر في أن يجعله يبدو كذلك ، وينتهي به الأمر الى أن يتخذ شكل الأبله تماماً حين خلع قبعته العسكرية ووضع « الكبي » فوق شعره الذي تقاطر منه ماء المطر بعد هنيهة ، وعندما حل محله قوميسير لواء آخر ، انطلق مع رجاله .

وكانت الطرقات جميعاً تتقاطع في بطن هذا الوادي ، سواء المتجهة الى مركز قيادة مانويل ، أم مركز نقل الجرحى ، أم المتجهة صوب الطريق الذي

قام فيه رامون بارشاد جارتنر .

وخلف غابة صغيرة من غابات الصنوبر تنسكب منها قطرات المطر ، كان جنديان من المشاة يهبطان نحوه صائحين :

ـ « هيا يا أولاد ، لقد أعطوا الأشارة » .

وهنا قال رامون للقوميسير : « ها هم أولاء » .

ـ « من الستة ؟ » .

ـ « كلا ، انهم من الهاربين ، وكلهم مرغمون على المرور من هنا » .

صاح جارتنر : « إلى أين تمضون ؟ هل جننتم ؟» .

لم يكن الستة الجدد قد رأوه من قبل ، فهم لا يعرفون إلا قوميسير لوائهم ، فليس من شك أنهم قد التقوا به ، بيد أنهم لم يفكروا فيه الآن ، بل لم يفكروا في شيء على الاطلاق .

ـ « أقول لك أنه لا سبيل الى الصمود أمامهم . . أمام الدبابات . . . ولن تمضي نصف ساعة حتى يقطعوا علينا الطريق . . . فلا نجد مخرجاً » .

ـ « إن مدريد وراءنا » .

فقال الأخر ، وكان فتى وسيماً استولى عليه الذعر : « لا يعنيني شيء من ذلك ولو أن الرؤ ساء كانوا يقومون بواجبهم ما وقعنا في هذه الورطة » .

ـ « هيا بنا . . فلننقذ ما يمكن إنقاذه » .

ـ « ما زال الجناح الأوسط صامداً » .

كانت هذه الأقوال أشبه في المطر بالنباح منها بالحوار ، وكان جارتنر يقف أمام جندي له فم غاية في الصغر في وجه غاية في الضخامة ونكس الجندي بندقيته :

ـ « أخبرني . . أنت يا صاحب الوجه الضخم ، أتريد شريطاً ؟ إن كنت حريصاً على أن تسحقك الدبابات فلا تتأخر ، أما اذا كنت تريد أن تسحق زملاءك فأنا قادم اليك » .

ولكمه رامون بقبضته في ضلوعه ، فدار دورة كاملة في الوحل ، وبعد أن جرد هو وزميله من السلاح سيق الى المؤخرة في حراسة أربعة من رجال جارتنر ، على حين ذهب جارتنر الى الأمام ركضاً هذه المرة ، وكانت معاطف رجاله الصفراء تبدو رمادية .

كان الرجال الستة الذين تحدث عنهم رامون يجلسون القرفصاء في حفرة مغطاة بالوحل لا يزيد عرضها على خمسة امتار ، في انتظار رامون ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لخوض المعركة . قال لهم رامون وكأنما يقدم لهم جارتنر والآخرين : « ها هم أولاء الأولاد » .

وسأل القوميسير : « هل نشرع في المسير ؟ » .

فقال الشخص الذي يبدو عليه أنه يقود الرجال الستة : « انتظر . فما زال الآخرون في مكانهم الأعلى » .

فسأله جارتنر متظاهراً بالفزع : « من ؟ » .

ـ « أنت شديد الفضول » .

ـ « لا يعنيني الأمر في شيء ، كل ما يهمني أن يكونوا أشخاصاً موثوقاً فيهم ، لأن لديَّ أسلحة ، ولكني لا أستطيع أن أعطيها كل من هب ودب ، ما عدد الأسلحة التي تريدها ؟ » .

ـ « إن عددنا ستة » .

ـ « يستطيع الرفاق وأنا أن نحصل على عشر بنادق سريعة الطلقات فوراً » .

ـ « كلا . . . نحن ستة . لا أكثر » .

ـ « إنها مدافع خطيرة عيار ٧,٦٥ بخزان كبير » .

وربت الآخر على بندقيته ، وهو يهز كتفيه .

قال أحد الرجال الستة : « لسنا في حاجة اليها ، ولكنها مفيدة جداً ، في رأيي ، المدافع العشرة جميعاً » .

ووافق الرجل الأول وكأنه يتلقى أمراً عليه أن يطيعه ، وكانت يدا المتحدث الأخير رقيقتين فقال القوميسير لنفسه : هذا من الفلانج » .

استطرد جارتنر مخاطباً أول من تحدث منهم : « أتفهم ؟ إنها شيء مختلف عن البنادق التي تستعملونها ، ليس المدفع من عيار ٧,٦٥ مسدساً تمسكه السيدات ، وتستطيع أنت أن تملأ خزانته على هذا النحو . . . هو الآن مشحون بخمسين رصاصة . . ولما كنتم ستة ، فإن كلا منكم تخصه ثماني رصاصات في الحلق . . ارفعوا أيديكم » .

ولم يكد المتحدث الأول يمد يده بمقدار بوصة نحو بندقيته حتى هوى في الحفرة ، بعد أن عاجلته رصاصة في رأسه . . وانبثقت دماؤه في الماء ، سوداء تحت سماء واطئة على حين كانت دبابات العدو تتقدم باستمرار .

واقتاد زملاء جارتنر الآخرين أمامهم تحت تهديد السلاح ، وقبل أن يبلغوا المزرعة التقوا بمانويل وسياراته ، فوثب جارتنر الى سيارة مانويل وأخبره بما حدث . . وكان جارتنر قد أرسل الى الجناح الأيسر الجماعة المضادة للدبابات من قواته الاحتياطية .

كان من المنتظر أن تصل الدبابات الفاشية الى تلك الجماعة خلال دقائق معدودات ، فإذا صمد الجناح الأوسط استطاع الاحتياطي أن يحل محل الجناح الأيمن في التقدم ، وبهذا يسير كل شيء على ما يرام .

وكان الجناح الأوسط هو الذي يتألف من رجال أرانخويث ، ومن جميع أولئك الذين انضموا اليه كرجال الميليشيا القدماء من مدريد ومن طليطلة .

نهر تاجة ، ومن سييرا نفسها وعمال من المدن وعمال من زراعيين وصغار الملاك وعمال المعادن والحلاقين ، وعمال النسيج ، والخبازون . وكانوا يحاربون الآن في بقعة تتناثر فيها جدران صغيرة من الصخور الجافة المتوازية كالمنحنيات التي تملأ خرائط أركان الحرب ، ومن ذلك المكان لم يكن من الممكن ألا يروا أنه اذا تقدمت دبابات العدو كيلومترين آخرين (وهذا يستغرق خمس أو عشر دقائق) فإن أحداً منهم لن يعود الى أهله حياً . وأصدر مانويل أوامره بالصمود ، فصمدوا متشبثين بصخورهم ، ملتصقين بثنايا الأرض مختفين وراء أشجار تقل عنهم حجماً ، ومن أمامهم وخلفهم مدافع الهاون ، والمدافع الرشاشة تطلق عليهم نيرانها في مسارات متقاطعة ، وقذائف المدفعية الثقيلة تسعى اليهم في جوف المطر . وقام مانويل بالتفتيش على الجناح الأوسط أولاً ، فرأى رجاله يتساقطون واحداً وراء الآخر ، وهم يدفنون فور سقوطهم تحت الأرض المتطايرة بفعل القذائف الجديدة ، ومن خلال الغضب العنيف الذي تفجرت به الأرض على مساحة تمتد عدة كيلومترات وكأنها تزأر في وجه السحب ، وتقذف بحممها من الحصى والدماء والصخر لتختلط بأمطار الشتاء ، لمح مانويل موجة من الأعداء تتقدم بالسونكي التي لم تكن تلمع في هذا المنظر الذي يذيب فيه المطر كل ما يلقى اليه من الأرض ، ومع ذلك فقد أحس مانويل بالسونكي ، وأنه قد هوجم بها هو نفسه . وكان ثمة شيء غامض يحدث في أعماق هذا الطوفان من المطر ، وحول تلك الجدران الصغيرة السخيفة التي لا تحصى . وانحسرت موجة الأعداء (ولم تكن تتألف من المغاربة هذه المرة) وكأنها لم تنهزم على أيدي رجال الميليشيا القدماء ، وإنما هزمها المطر الأبدي الذي مزج كثيراً من قتلاهم بالأرض ، ورد موجات الهجوم التي شنها الأعداء صوب الخنادق المحتجبة بعد أن أذابها وبددها عبر ستار من الغيث تتخلله انفجارات لا تقل كثرة عن قطرات المطر .

ولجأت المدفعية الفاشية أربع مرات الى السلاح الأبيض ، وذابت أربع

مرات في الستار العظيم الذي أسدلته مياه المطر .

وكان الصف متماسكاً ، بيد أن دبابات الجناح الأيمن الفاشي استطاعت أن تصل الى جماعة مانويل المضادة للدبابات بعد أن اخترقت جناحه الأيسر .

* * *

وكان « بيب » هو الذي يقود هذه الجماعة فقد تولى الآن الرئاسة جميع رجال الديناميت الذين عاشوا بعد معركة أغسطس ، وأظهروا أية موهبة في القيادة . أخذ بيب يزمجر متحسراً على أن زميله « جونزاليث » ليس معه الآن ليرى بعينيه التجربة الصغيرة التي سيقدم عليها . غير أن « جونزاليث » كان يقاتل في المدينة الجامعية ، وفي الوقت نفسه كان « بيب » يقول مبتهجاً : « سيرون هذه الضربة ، وسيعلمون منها الكثير » وكانت الدبابات الفاشية تتبعها المدفعية على مسافة غير قريبة - تتقدم بأقصى سرعتها صوب الوادي الأول الذي جعلهم في حمى من مدفعية الجمهوريين ، وهناك في كل وادٍ من وديان سييرا يمتد طريق أو مسلك ولهذا أوصلت سيارات النقل بيب ورجاله في الوقت المناسب .

وعلى جانبي الطريق بقعة مكشوفة من الأرض ، وهنا وهناك تناثرت أجمات من اشجار الصنوبر بدت سوداء في مياه المطر ، ولم يلبث رجال « بيب » أن أتخذوا مواقعهم راقدين على الأشواك التي تسيل منها المياه ، ومنبطحين وسط رائحة عيش الغراب .

واقتحمت الدبابة الأولى الوادي على يمين الطريق . . . كانت دبابة المانية تتميز بشدة السرعة والمرونة في الحركة ، وأحس رجال الديناميت جميعاً أن كل ما يصنعونه يصيبه الصدأ تحت هذا الوابل الذي لا ينقطع من المطر ، وهناك ولت الأدبار قطعان من الكلاب المذعورة كانت تلوذ بمنطقة سييرا .

وظهرت الدبابات الأخرى في وضوح ،ولم يكن «بيب» المنبطح على بطنه يستطيع أن يرى الأرض الممتدة بين الأدغال ، فبدت الدبابات وكأنها تقفز ،

وقد لوت أعنة عجلاتها كما يلوي المرء عنان الجواد ، وأخذت تطلق نيرانها ، وانبعث عن جنازيرها ما يشبه صليل الأجراس غير مصحوب بضجة الآلات التي يحملها المطر ، بل بالضوضاء الصادرة عن المدافع الرشاشة والدبابات .

وانتظر .

وبابتسامة معادية كشفت عن أسنانه شرع في اطلاق النار .

وحتى الآلة يمكن أن يرتسم عليها الذهول ، فما كادت الدبابات تسمع صوت المدافع الرشاشة حتى أندفعت مذعورة ، وتوقفت أربع منها : ثلاث من الصف الأول ، وواحدة من الصف الثاني ، توقفت معاً وكأنها في حيرة من أمرها ، ورفعت هاماتها محتدة وكأنها في خطر غامض ماثل عبر كابوس المطر ، واستدارت اثنتان ، ووقعت واحدة . وظلت الرابعة منتصبة في الهواء مستقيمة تحت شجرة صنوبر شامخة .

ولأول مرة واجهت المدافع الرشاشة المضادة للدبابات ، ولم تشهد الموجة الثانية شيئاً مما حدث ، فالدبابة تكاد تكون عمياء ، فوصلت تلك الموجة بأقصى سرعتها ، ومن فوق الصف الأول من المدافع الرشاشة المنبطحة شرع الصف في اطلاق النار على الدبابات التي أخذت تترنح ـ باستثناء أربع دبابات كانت قد اجتازت بيب ، وأخترقت الصف الثاني .

بيد أن مانويل كان مستعداً لهذا الأحتمال ، وأصدر الاوامر الى رجاله بما ينبغي أن يصنعوه في هذه الحالة ، وهكذا أدارت مدفعية الصف الثاني مدفعين رشاشين على حين استمر الآخرون ورجال الصف الأول في اطلاق النار على مجموعة الدبابات التي ولت الأدبار في خطوط متعرجة عبر أشجار الصنوبر السوداء تحت طوفان المطر المنهمر .

واستدار « بيب » بدوره ، فهذه الدبابات الأربع يمكن أن تكون أخطر من الدبابات الأخرى جميعاً ، لو كان سائقوها من ذوي العزم ، فقد تفترض الفرقة التي تشن عليها تلك الدبابات هجومها أن هناك دبابات أخرى تتبعها .

وكانت ثلاث منها قد اصطدمت كل منها بشجرة من أشجار الصنوبر ، اذ سارت على غير هدى ، بعد أن قتل سائقوها .

واستمرت الدبابة الأخيرة في التقدم تحت وابل من نيران المدفعين الرشاشين ، ولكنها لم تلبث أن ترنحت فوق الطريق الخالي ، وسارت على جنازيرها في ضجة اختلطت بضوضاء المدافع الرشاشة المضادة للدبابات بسرعة سبعين كيلومتر في الساعة ، دون أن تطلق نيرانها ، وقد بدت ضئيلة تافهة بين السفوح المتصاعدة ، ضائعة فوق الأسفلت الموحش وحشة غريبة ، وقد دهنه المطر فعكس السماء الشاحبة . وبلغت أخيراً انحناءة في الطريق ، ثم اصطدمت بصخرة ، فتسمرت في مكانها كلعبة طفل !

واتجهت الدبابات التي لم يصبها شيء في نفس الإتجاه الذي سارت فيه دبابات الجمهوريين ، واقتحمت صفوف مدفعيتها المذعورة التي حل بها الاضطراب ..وأمام أشجار الصنوبر ووسطها وحول الدبابة المنتصبة كشبح من أشباح الحرب اتخذت الدبابات جميع الأوضاع ، فاكتسى بعضها بالأغصان الصغيرة ، وبالأشواك ، وبثمار الصنوبر التي قطعتها الرصاصات ، وقد نال منها المطر والصدأ وكأنها هجرت منذ شهور ، وكان مانويل قد وصل لتوه فاستطاع أن يرى عبر عجلات الدبابات الأخيرة ـ الجناح الفاشي الأيمن وقد تشتت خلف مقبرة الفيلة هذه ، وشرعت مدفعية الجمهوريين الثقيلة تقصف خطوطه المنسحبة .

واتجه مانويل على الفور الى الجناح الأوسط .

تحول تقهقر جناح العدو الأيمن أمام دبابات الى فوضى تامة ، وأخذ رجال « بيب » الذين لا يستخدمون المدافع الرشاشة يصحبهم رجال الديناميت وقوات مانويل الاحتياطية ـ يتعقبون آثار الدبابات المتقهقرة ، وكأنها دباباتهم . وفي هذه الفوضى التي أصابت الجناح الأيمن وقع الجناح الفاشي الأوسط ، أما جناح مانويل الأوسط الذي دعمه جزء من القوات

القادمة من مدريد في السيارات فقد خرج أخيراً من الجدران الصخرية التي كان يختفي وراءها ، واندفع منطلقاً . . إلى الأمام ، على حين بقي الجزء الآخر ضمن القوات الاحتياطية .

وكان هؤلاء الرجال هم الذين انبطحوا في أماكنهم يوم معركة تكنات الجبل حين أطلق عليهم القناصة النار من جميع النوافذ ، وهم أيضاً الذين كانوا يملكون مدفعاً رشاشاً على جبهة طولها كيلومتر ، والذين كانوا يعيرون غيرهم مدفعهم اذا تعرضوا لهجوم ، وهم أنفسهم الذين صعدوا للهجوم على القصر ببنادق الصيد ، وهربوا من وجه الطائرات ، وبكوا في المستشفى ، لأن رفاقهم قد تخلوا عنهم ! ان منهم أولئك الذين هربوا أمام الدبابات ، ومنهم الذين استقبلوها بالديناميت ، انهم جميع أولئك الذين يعرفون أن علية السيدات يحكمن على « الشعب الطيب » بمقدار ما يظهره من خنوع ، وهم أيضاً الحشد الذي لا ينتهي ممن سوف يعدمون في المستقبل رمياً بالرصاص ، لا تراهم الأبصار ، مثل ذلك المدفع الذي يطلق نيرانه على صفوفهم من طرف الى آخر في هزيم كهزيم الطبل .

لن يستولي الفاشيون على وادي الرمل هذا اليوم .

وطفق مانويل ينظر الى الصفوف المتشابكة التي تتألف من سرية من ارانخويث ورجال بيب ، وقد وضع غصن الصنوبر تحت أنفه ، وكأنه يشهد زحف انتصاره الأول فوق الأوحال اللزجة مخترقاً ستاراً من الأمطار الرتيبة التي لا نهاية لها .

وما أن حانت الساعة الثانية ، حتى تم الاستيلاء على جميع المواقع الفاشية ، ولكن كان لا بد من الثبات عند هذه المواقع ، ولا محل للتقدم الى شقوبية : ذلك أن الفاشيين المحتمين في الخنادق كانوا يتربصون بهم فيها وراء ذلك ، وكان جيش الوسط لا يمتلك قوات احتياطية أخرى غير تلك القوات المحاربة في الجبهة .

الفصل السادس

كانت موائد مقهى « لاجرانخا » المرصوصة على طول الشارع خالية من الـزبـائن وإن يكن داخـل المقهى مليئـاً بهم ، وكـانت الأمـطار القـادمـة من « سييـرا » قـد انقـطعت فـوق مـدريـد ، وثمـــة صـوت جـــد يد ينبعث من الانفجـارات ، صوت أشـد خفوتـاً من قنابـل الطيـارات ، وكأنـه صادر عن ارتفاع عشرة أو عشرين متراً من الأرض .

وتسـاءل مورينـو وقد بـدا أجمل منـه في أي وقت مضى : « هل وصلت مدافعنا المضادة للطائرات ؟» .

ولم يجبه أحد ، وكان كل من يشرب في ذلك المقهى يعرف الآخرين بـأية صورة . وأخذت الأكـواب ترتعش عـلى وقع الهـزيم المتصل للمـدفع الـذي يصب قذائفه من المدينة الجامعية ، ولم يكن المقهى مضـاءً ، وإنما انتشـر فيه الضوء الأصيل الخافت الشبيه بضوء الكهوف ، فمـلأ القاعـة من أدناهـا الى أقصاها .

وأدار أحد الضباط أكرة الباب فانعكست منها أضواء على ذلك النهار من نوفمبر كأنها مرآة اجتذاب العصافير ، ودخل قـائلاً : « لقـد اشتعلت النيران في كل مكان . . وهي الآن في طريقها الينا » .

فقال صوت آخر : « سنطفئها » .

ـ « مـا أيسـر القـول ، وأصعب الفعـل ! لقـد وصلت الى شـارع سـان

مارجوس ، وشارع مارتن دي لوس هيخوس . . » .

ـ « وشارع أوركيخو . . » .

ـ « وملجأ سان جيرونيمو ، ومستشفى سان كارلوس ، والمنازل المحيطة بالقصر . . . »

ودخل ضباط آخرون ، ونفذت من الباب المفتوح رائحة صخور محترقة .

ـ « ومستشفى الصليب الأحمر . . » .

ـ « وسوق سان ميجويل . . » .

ـ « وتمكنوا من إخماد جزء منها . . وانتهت تماماً من سان كارلوس وسان جيرونيمو » .

ـ « وما هذا الصوت الذي نسمعه ؟ هل هو صوت المدافع المضادة للطائرات ؟ »

وقال رفيق مورينو وهو شاب غزير الشعر ، مبعثره : « أيها الساقي . . . كأساً من الأبسنت » .

ـ « لا أعرف . . ولكني لا أعتقد ذلك » .

وقال الضابط الذي كان آخر الداخلين : « إنها قنابل من طراز شرابنيل . . تنهمر على ميدان اسبانيا انهماراً . . ولكنهم لم يتمكنوا من اجتياز وادي الرمل » .

وجلس الى جوار مورينو الذي كان يرتدي حلته العسكرية هو أيضاً ـ ويبدو شاباً في ذلك اليوم ، بعد أن حلق ذقنه ، وقص شعره .

وتساءل مورينو : « وكيف أخذ الناس في الشوارع هذا الأمر ؟ » .

ـ « لقد شرعوا في النزول الى المخابىء . . غير أن بعضهم تسمر في مكانه

وخاصة النساء . . . ومنهم من هوى على الأرض ، أو أخذ في الصراخ ، وهناك أولئك الذين هبوا يجرون على غير هدى . . وجميع النساء اللواتي يسحبن أطفالاً أخذن في الجري . . . وهناك الفضوليون . . . »

فقال مورينو : « أحسست طيلة الصباح ، كأن زلزالاً قد وقع » .

وكان يريد أن يقول : إن الجماهير لم تكن تخشى الفاشيين ، وإنما كانت تخشى الكارثة ، ومعنى ذلك أن فكرة الاستسلام لم تطرأ على أذهانهم ، لأن الاستسلام لا يكون لزلزال .

ومرت عربة اسعاف ، يسبقها صليل جرسها .

وفي ضجة الانفجارات ، تواثبت الأكواب كالأرانب التي يلعب بها الأطفال ، ثم تساقطت في كل اتجاه فوق الأطباق ، وعلى الخمور المنسكبة ، وشظايا الزجاج المثلثة المتطايرة من واجهات المحال المحطمة فبدت كأنها صناديق كبيرة : فقد انفجرت قنبلة في الشارع امام المقهى ، وتدحرجت صينية أحد السقاة ، ثم سقطت محدثة في ذلك السكون رنيناً كرنين الصناجات المكتومة ، واندفع نصف الزبائن صوب الدرجات المؤدية الى القبو يصاحبهم رنين الملاعق الصغيرة المتساقطة ، على حين بقي نصف الزبائن الآخر متردداً ، ولكن كلا . . لم يحدث انفجار آخر . . .

وخرجت السجائر من عشرات الجيوب كالمعتاد ، واشتعلت عشرات الأعواد من الثقاب دفعة واحدة وسط حلقات الدخان التي أخذت تدور حول نفسها . وما أن انحسر الدخان بين الثغرتين الكبيرتين اللتين كانتا مرآتين منذ لحظة وأصبحتا الآن شبيهتين بأسنان المنشار ، حتى ظهر رجل ميت مستند على قضيب من قضبان الباب بين الواحه الزجاجية المهشمة .

قال الرجل الجالس الى جوار مورينو : « انهم يسددون قذائفهم علينا » .

- « انت تزعجنا » .

- « أنتم جميعاً مجانـين ، ولا تقـدرون مـا يحـدث لكم ! انتم تقتلون انفسكم بلا مبرر ! قلت لكم : إنهم يقصدوننا ! » .

فقال مورينو : « لا يهمني الأمر في قليل أو كثير » .

- « استمع يا عزيزي ، عفـواً ! لقد قمت بنصيبي من القتـال . . . هذا شيء مسلم به ، ولا مانع عندي من أن أفعـل ما تشـاؤ ون . . أما أن أقتـل نفسي بقنابل الطائرات دون مبرر فلا ، لقد كدحت طيلة حيـاتي حتى الآن ، وها هي أحلامي جميعاً ماثلة أمامي » .

- « إذن ، ماذا تفعل هنا بحق السماء ؟ انك لم تكلف نفسك عناء الهبوط الى القبو » .

- « لم أبرح مكاني ، مع أنني أرى ذلك حقاً » .

- « قال أحد الفلاسفة : أنظر الى ماأفعله ، ولا تسمع ما أقول » .

وهنـاك تحت قصف القنـابـل التي تسـاقـطت من كـل جـانب كـانت انعكـاسات نهار الشتـاء العالقـة بشظايـا الزجـاج المتبقية عـلى المـائـدة وعـلى الأرض ، ترتعش رعشة غير محسوسة في البرك الصغيـرة المرتجفـة التي كونتهـا المانثانللا والفرموث ، والأبسنت . . وصعد السقاة من القبو .

- « يقولون : إن أونامونو قد مات في شلمنقة » .

وعاد رجل مدني من غرفة التليفون :

- « لقد سقطت قنبلة على مترو بـوابة الشمس ، فـأحدثت فجـوة عمقها عشرة أمتار » .

فقال صوتان : « هيا بنا لنرى » .

- « أكان هناك من احتمى بالمترو ؟ » .

ـ « لا أدري » .

ـ « يقول الاسعاف : أن هناك اكثر من مائتين من القتلى ، وخمسمائة من الجرحى حتى الظهر » .

ـ « هذه مجرد بداية ! » .

ـ « . . . يقولون : ان معركة دارت في وادي الرمل . . . »

وجلس الرجل الذي تحدث في التليفون أمام حطام الخمور . . واستطرد رفيق مورينو ذو الشعر الغزير : « لقد سئمت هذا كله . . وأعود فأكرر أنهم يقصدوننا ، ماذا نفعل هنا ، وسط المدينة ! هذه حماقة ! » .

ـ « عليك بالرحيل » .

ـ « أجل إلى الصين ، الى بحار الجنوب . . . إلى أي مكان » .

وصاح صوت من الخارج طغى عليه في الحال رنين جديد لأجراس الاسعاف : « سوق كارمن يحترق ! » .

ـ « وماذا تصنع في بحار الجنوب : عقوداً من الصدف ، أو لعلك تقوم بتنظيم القبائل ! » .

ـ « سأصيد الأسماك الحمراء ! أي شيء ! ما دمت لن أسمع شيئاً عن هذا ! » .

ـ « إن فكرة انفصالك عن هذه الجماعة الموجودة الآن تضايقك الى درجة انك لم تبرح الى القبو . . وهذه الأقوال التي ترددها يأيها البائس قد رددتها أنا أيضاً على سمع ارنانديث ، صديقي العزيز ! » .

ونظر الى رفيقه بغتة في شيء من الخوف ، ان ارنانديث قد تحول الآن فأصبح هو نفسه مورينو ، وارنانديث قد مات ، بيد أن هذا التطير لم يلبث أن تبدد كما تبدد الدخان أمامهم .

ـ « كنت اعتزم الهرب الى فرنسا ، ثم ترددت ، واستولت عليَّ صداقاتي . . . استولت عليَّ الحياة . . ولم أعد أؤمن ـ أمام القنابل ـ بالتأملات ، أو بالحقائق العميقة ، أو بأي شيء . . . بل أؤمن بالخوف . . . الخوف الحقيقي ، لا ذلك الخوف الذي يجعل المرء يتكلم ، بل الذي يجعل المرء يجري . ولو انك هربت ما كان لديَّ ما أقوله لك ، ولكن ما دمت قد بقيت فهذا يحل المسألة ، ومن المستحسن أن تصمت .

« ولقد شاهدت في السجن كل ما يمكن أن يشاهده المرء ، وسمعت الرجال وهم يرمون أحجار النرد على حياتهم ، وانتظرت يوم الأحد ، لأن أحداًلا يعدم يوم الأحد . ورأيت رجالاً يلعبون أمام جدار تناثرت عليه أمخاخ المساجين وشعورهم ، وسمعت أكثر من خمسين شخصاً من المحكوم عليهم بالاعدام يلعبون « البخت » في زنزاناتهم ، وأنا أعرف ما أقول عندما أتحدث عن ذلك .

« كل ما في الأمر ـ يا عزيزي ـ هو أن هناك شيئاً آخر ، لقد خضت غمار الحرب في مراكش ، وكان الأمر هناك أشبه بنوع من المبارزة الشريفة . . . أما هنا ، في الصفوف فالأمر يجري على نحو آخر تماماً ، فما أن تنقضي الأيام العشرة الأولى حتى تتحول الى شخص يجول في أثناء النوم ، وترى رجالاً كثيرين يتساقطون ، والمدفعية والدبابات ، والطائرات أشياء آلية جداً ، وكل شيء يتجه الى مصير واحد ، ويصبح المرء على يقين من أنه لن يحيد عن هذا المصير . . لا من هذه الورطة التي أنت فيها الآن ، أعني الحرب فحسب ، فأنت أشبه بمن تجرع سماً سيأتي مفعوله بعد بضع ساعات ، أو كشخص نذر نفسه راهباً . حياتك قد أصبحت وراء ظهرك ، وهكذا تتغير الحياة ، وتجد نفسك فجأة وسط حقيقة أخرى والآخرين مجرد مجانين ! » .

ـ « وأنت دائماً في حقيقة ما ! » .

- « أجل . . . والأمر على هذا النحو ، أنت تتقدم صوب قنطرة ما ، فلا تعـود مشغولاً بشيء حتى ولا بنفسـك ، وتتساقط مئـات القـذائف ، ويتقـدم مئات الرجال . . كل مـا في الأمر انـك اشبه بمن يقـدم على الانتحـار ، وفي الــوقت نفســه تملك أفضــل مـا في الجميــع . . انت تمتلك أفضـل مـا في نفوسهم . . شيئاً أشبه ببهجة الجماهير في الكـرنفال . . ولست أدري : هـل كنت مفهـومـاً أو لا ؟ لي رفيق يسمي هـذا الشيء اللحـظة التي يشـرع فيهـا الموتى في الغناء . . . وأنا أعرف ـ منذ شهر ـ ان الموتى يستطيعون الغناء » .

- « هذا شيء قليل جداً بالنسبة لي » .

- « ثمة شيء لم يخطر على بالي قط أنـا الضابط المـاركسي القديم ، وهـو أن هناك أخوة لا توجد إلا في الجانب الآخر من الموت » .

- « ثمـة أشخاص يعتقـدون انهم قد نـالـوا مـا يكفيهم حـين يحـاربـون الطائرات بالبنادق ، وآخرون يعتقدون انهم قد نالوا ما يكفيهم حين يحاربون الدبابات بالبنادق . . اما أنا فحسبي ما أجده الآن » .

- « كنت في بداية الأمر متوتراً مثلك ، أما الآن . . . » .

- « ستكون أهدأ أعصاباً عندما تموت . . » .

- « أجل . . كل ما في الأمر ، أنني لا أعبأ الآن بشيء » .

وأسفرت ابتسامة مورينو عن أسنانه البديعة ، وتهاوت جميـع الزجـاجات الموضوعة فوق البار للزينة يصحبها رنين الأكـواب الفارغـة ، وبدت المنـاضد كـأنمـا تجمـدت بفعـل الانفجـار ، وسقط اعـلان عن الفـرمـوت فـوق ظهـر مورينو ، فقـطعت ابتسامتـه كانمـا أغلقت شفتيه يـد إنسان ، وتـراجعت من جديد الأنوف التي خرجت من القبر .

واندفع من الخارج صوب الباب مدني مجروح ذو لحية ، وارتمى عليه بكل جسده ، فدار الباب دورة عنيفة ، صدمت الميت في صدره ، وأحـدثت رنيناً

ناعما في الصمت الذي أعقب الانفجار ،وضرب الجريح بقبضتيه على اللوح الزجاجي نصف المكسور ، ثم تشبث به وأخيراً تداعى .

ومن كل جانب ارتفعت من جديد أصوات الانفجارات .

الفصل السابع

كانت القنابل الثقيلة تتساقط في المنطقة التي بين المركز الرئيسي للتليفونات (السنترال) والقلعة ، وسقطت إحدى هذه القنابل دون أن تنفجر ، فحملها رجلان من رجال الميليشيا ، أحدهما من الأمام ، والآخر من الخلف ، وبدأت سماء نهاية الأصيل الكابية تجثم على مدريد المملوءة بالشر وألسنة اللهب ، حيث اختلطت رائحة الانفجارات والتراب برائحة أخرى أشد من ذلك إثارة ، تلك الرائحة التي عرفها لوبيز في طليطلة ، والتي يعتقد أنها رائحة اللحم المحترق .

وكان مجلس صيانة الآثار الفنية الذي عين فيه لوبيز ينتظر هذا الصباح لوحتين لاالجريكو وثلاث لوحات صغيرة لجويا ، وجدت في قصر هجره صاحبه ، بيد أن هذه اللوحات لم تصل بعد ، وكان لوبيز يريد أن يبعث بها قبل رحيله .

كان لوبيز قليل الكفاية في الحرب ، ولكنه أثبت أنه لامع في حماية أعمال الفن ، فبفضله لم تمس لوحة من لوحات « الجريكو » بسوء في اثناء الهرج والمرج اللذين سادا طليطلة ، كما أنه انتزع عشرات اللوحات التي رسمها أعظم أساتذة الفن من غبار اللامبالاةالذيتراكم في مخازن الأديرة .

وعلى مسافة بعيدة الى حد ما انفجرت قنبلة صغيرة امام إحدى الكنائس ، وسرعان ما عادت الحمائم التي طارت منذ لحظة يدفعها الفضول الى معاينة الفجوات الجديدة في زخرف الكنيسة ، ومن النوافذ التي انفتحت

الآن على اللانهاية في منزل ظهرت احشاؤه بدا برج السنترال العالي بشعاره المبني على طراز الباروك شاحباً في نهار نوفمبر المائل الى الزوال .

وكانت معجزة حقاً أن ناطحة السحاب الصغيرة هذه التي تشرف على مدريد لم تذهب شذر مذر ، ولم يتخدش فيها سوى ركن واحد . . أما فيما يتعلق بالألواح الزجاجية . . ووراء البرج تصاعد دخان قنبلة ، وقال لوبيز في نفسه : يا إلهي ، سينتهي الأمر بسقوط واحدة منها على لوحاتي التي رسمها الجريكو ! . . .

وثمة حشد من الناس يدور حول نفسه في الشوارع دون جدوى مدركاً انه يلوذ بالفرار دون أن يعرف الى أين يتجه ؟ وحشد آخر يسير أفراده في غير مبالاة رافعين أنوفهم بدافع من الفضول أو النشوة . وسقطت قنبلة أخرى في الأحياء المجاورة ، فركض الأطفال الذين كانوا يسيرون الى جوار النسوة أو الشيوخ ، وقد استولى عليهم الذعر ، أما الأطفال الآخرون الذين لم يكن يصحبهم أقارب من أي نوع فكانوا « يناقشون الطلقة » :

« يا لهم من بلهاء ، هؤلاء الفاشيين ، انهم لا يعرفون كيف يصوبون نيرانهم ، انهم يستهدفون جنود دار الريف (كاسادل كمبو) . ولكن انظروا أين تقع قنابلهم ! » .

وذات يوم كان ثلاثة من الأطفال يلعبون لعبة الحرب في فناء دار حضانة « ميدان التقدم » ، وقد رفعوا ذقونهم في الهواء مثل أولئك الذين يسيرون الآن أمام لوبيز ، وقال أحدهم : « قنبلة ! إنبطحوا أرضاً » ورقد الثلاثة الذين كانوا جميعاً يمثلون دور النظاميين ، وكانت قنبلة حقيقية ، أما الأطفال الآخرون الذين لم يكونوا يلعبون لعبة الحرب فقد ظلوا واقفين ، ومن ثم فقد قتلوا أو جرحوا . . . .

وسقطت قنبلة على اليسار ، فركضت الكلاب في صف واحد منحرف ، ووصل قطيع آخر في اتجاه عكسي من شارع مجاور ، وكان دوران الكلاب المهجورة على نفسها بلا أمل يؤذن بما سيصيب الناس ، وراقبها لوبيز بعين

النحات الصديق حيوانات غير أن حيوانات أخرى كانت في انتظاره .

كان القصر الذي يتجه اليه لوبيز مزيناً في سخاء بالحيوانات المحنطة ، شأنه في ذلك شأن جميع القصور التي استولت عليها الحكومة مثل قصر « ألبا » . . . والمعروف أن كثيراً من الأرستقراطيين الأسبان يفضلون الصيد على اللوحات ، واذا كانوا يحتفظون بلوحات جويا فإنهم يضعون الى جوارها ـ عن عمد ـ حيوانات الصيد المحنطة ، وكانت قوائم الحصر والأسر الكبيرة التي ولت الأدبار (لم تكن الحكومة تستولي إلا على القصور التي هرب أصحابها) ـ تحتوي في أغلب الأحيان على عشرات من لوحات كبار الفنانين (إذ لم تكن قد حملت إلى الخارج في الأسبوع السابق على الثورة) ، كما كانت تضم أيضاً عدداً غير متوقع من انياب الفيلة ، وقرون الخراتيت ، والدببة المحنطة ، والحيوانات الأخرى .

وعندما دخل لوبيز الى حدائق القصر حيته قنبلة انفجرت على بعد مائة متر ، وتقدم للقائه أحد رجال الميليشيا .

صاح فيه لوبيز وهو يخبط على كتفه : « ماذا حدث يأيتها السلحفاة . . . للوحات آلجريكو ؟ يا إلهي ! » .

ـ « ماذا ؟ اللوحات ؟ لم تكن لدينا وسيلة لنقلها : فلقد أصبحت ضخمة بما فيه الكفاية منذ أن حُزمت في عناية كما يُحزم البيض غير أن سيارته قد مرت . . . » .

ـ « متى ؟ » .

ـ « منذ نصف ساعة تقريباً ، ولكنه لم يشأ أن يحمل تلك الحيوانات » .

وكانت الدببة المحنطة تبدو ـ وقد تناثرت تحت الأشجار واتخذت أوضاعاً « طبيعية » حول انياب الفيلة المرصوصة بعناية تحت الرواق ـ كانت تبدو كأنها تتحرك ، فالقنابل تهز الأرض هزاً خفيفاً ، والدببة المهجورة التي رفعت أيديها في الهواء لاحت كأنها تبارك مساء الحرب أو لعلها تلعنه .

قال لوبيز في رزانة : « إنها ليست هشة على كل حال » .

وكان يرفض القاء تبعة هذه المتاحف على إدارته ، على حين أن قسما اخر من مجلس صيانة الآثار الفنية هو المسؤ ول عن تخزينها .

ـ « اسمع ـ أيها الرفيق : اذا كانت القنابل ضارة باللوحات فلا بد انها ضارة أيضاً بأنياب الفيلة . . . ومهما يكن من أمر فما شأني أنا بهذا كله ؟ ولا شك أن السماء ستمطر مرةأخرى ! » .

وانفجرت قنبلة في مكان قريب ، فوثبت الحيوانات المحنطة كلها أو انكفأت على وجهها ، وشرع عصفور من عصافير الكناريا كان في قفص من ذهب صنعته شركة جزر الهند الغربية شرع يغني في حماس .

ـ « سأتصل تليفونياً لكي يبعثوا بمن يحمل دببك تلك » .

وأشعل لوبيزسيجارة ، ثم انصرف حاملاً القفص في يده ، وكان يهزه الى الأمام وإلى الخلف ، وكلما انفجرت قنبلة انطلق عصفور الكناريا في الغناء بقوة أعظم ، ثم لا يلبث أن يلتزم الصمت ، وهناك كانت إحدى العمارات تحترق من أعلاها إلى أسفلها ، كأنها في مشهد من مشاهد السينما ، وخلف وجهتها ذات الزخارف المحوطة بالأطر والتي لم تسقط بعد ، وبنوافذها المفتوحة المحطمة جميعاً ـ كانت ألسنة اللهب تملأ الطوابق كلها ولا تريد أن تخرج ، كأن النار قد سكنت فيها ، وعلى مسافة أبعد عند ناصية شارعين انتظرت سيارة ركاب ، وتوقف لوبيز ، وهو يلهث للمرة الأولى منذ خروجه . وطفق يتحرك كالمجنون ، وقد قذف بالقفص الذي يضم عصفور الكناريا كما يقذف حجراً وصاح : « انزلوا ! » ، وتواثب بعض من رآه من الأوتوبيس ، كأنهم مئات من المجانين الآخرين في مئات من الشوارع الأخرى ، وانبطح لوبيز أرضاً . ولم يلبث الأوتوبيس أن انفجر .

وعندما نهض لوبيز مرة أخرى كانت الدماء تسيل على الجدران . ووسط الموتى الذين جردهم الانفجار من ثيابهم قام رجل عارٍ ، ولكنه لم يكن جريحاً ، وأخذ في الصياح ، وتلاحقت القنابل مسرعة في اتجاه المركز الرئيسي للتليفونات دائماً .

الفصل الثامن

كان شاد في « السنترال » فهذه هي الساعة التي يبعث فيها بمقاله .

وكانت القذائف تتساقط على الحي كله ، بيد أن كل من يقف في السنترال كان يظن أنه المقصود بالذات .

وفي الخامسة والنصف أُصيب السنترال ، وكانت القذائف التي تحاصره الآن قذيفة بعد أخرى ، ذلك انهم بعد أن تمكنوا من إصابته فقدوه ، ثم عادوا يبحثون عنه ثانية . وأحس العمال والموظفون والسعاة والصحافيون ورجال الميليشيا انهم في جبهة القتال ، وكانت القنابل تتلاحق على فترات متقاربة غاية القرب مثلما تتلاحق أصداء الرعود ، وربما كانت الطائرات مشتركة في هذه المعمعة من جديد ، وهبط المساء وانخفضت السحب . بيد أن أزيزاً للمحركات لم يكن مسموعاً وسط هذا الضجيج كله .

وأقبل رجل من الميليشيا باحثاً عن شاد ، فقد دعا القائد جارسيا الصحافيين للاجتماع به في احد مكاتب السنترال ، وكان المراسلون المهمون حاضرين جميعاً ينتظرون ، وتساءل شاد : « ولماذا الآن ؟ » . وكان من عادات جارسيا حين يريد التعامل مع الصحافيين أن يجمعهم في أشد الأماكن تعرضاً للخطر .

وفي مكتب من مكاتب ادارة السنترال القديمة ـ كل ما فيه من الجلد والخشب والنيكل ـ كان جارسيا يجمع كل يوم نسخاً من المقالات المرسلة من

مـدريد مـوضوعـة في ملفين كتب عـلى أحدهمـا : « سياسـة » وعلى الأخـر : « وقـائـع » ، وفي اثنـاء انتـظاره للمـراسلين ، أخـذ يقلب صفحــات الملف الأخير ، وقد أضجره انتماؤه الى بني الانسان ، وكانت المقالات جميعاً حـافلة بألوان العنف .

وقرأ مقالاً مرسلاً الى صحيفة « باري سوار » جاء فيه :

« قبـل ذهابي الى السنتـرال شاهـدت منظراً يتسم بجمـال وحشي : فقد وجد الناس هذه الليلة على مقربة من بوابة الشمس طفلاً باكياً في الثالثـة من عمره ، ضالاً وسط الظلمات ، وكانت إحدى النسـوة اللاجئـات الى مخبأ في « الشـارع الكبير » ، تجهـل ما حـل بابنهـا ، وكان هـو أيضـاً في الثـالثـة من عمره ، أشقر الشعر كالـطفل الـذي عثر عليـه الناس عنـد بوابـة الشمس ، وحملوا اليها النبأ ، فهرعت الى المنزل الـذي احتفظوا فيـه بالـطفل في « كـالي مـونتيرا » Calle Montera . وكـان الطفـل جالسـاً في حـانـوت نصف معتم أسدلت ستائـره ـ يمص قطعـة من الشوكـولاتة ، وتقـدمت الأم نحوه ، وقـد مدت ذراعيها ، غير أن عينيها اتسعتا في ثبـات رهيب كعيون المجـانين . . . لم يكن الطفل طفلها .

« وتسمـرت في مكانها لحـظات طوالاً ، عـلى حين أخـذ الطفـل الضـال يبتسم لها ، فلم يسعها إلا أن تهرول نحوه ، وتحضنه ، وتحمله وهي تفكر في الطفل الذي لم يجده أحد » .

وقال جارسيا في نفسه : « لن يجيزوا ذلك » .

وكـان المساء الضـارب الى الحمرة يمـلأ النـوافـذ التي تحـطمت ألـواحهـا الزجاجية . . وواصل قراءته :

إلى رويـتر : « كانت هنـاك امرأة تحمـل طفلة صغيرة لا تكـاد تصل الى الثانية من عمرها ، وقد فقدت فكها الأسفل ، ولكنها كانت لا تزال على قيد الحياة ، وكانت عيناها مفتوحتين كأنما تتساءل في دهشة عمن فعل بها ذلـك ،

واجتازت امرأة أخرى الطريق ،وكان الطفل الذي تحمله بين ذراعيها بلا رأس . . . ! »

وكان جارسيا يعرف الحركة الرهيبة التي تحمي بها الأم ما تبقى من وليدها ، لأنه شاهدها بعيني رأسه ، وما أكثر هذه الحركات اليوم !

وقد انفجرت ثلاث قنابل انفجاراً مكتوماً على مسافة بعيدة ، وكأنها دقات المسرح الثلاث ، وانفتح الباب ، ودخل المراسلون ، وعلى مائدة منخفضة كانت الزهور الصناعية التي في اناء دون أن تتحطم بعد أن تنتفض عند كل انفجار . ولما كانت الألواح الزجاجية قد تهشمت ، فإن رائحة المدينة المحترقة كانت تدخل مع الدخان من النافذتين .

قال جارسيا : « عندما يخلو خط تليفوني فإن من يطلبه سيستدعى الى هنا فوراً ،وأنتم لا تجهلون انني لا أدعوكم الى الاجتماع إلا لكي أعرض عليكم بعض الوثائق ، وقبل أن أطلعكم على الوثيقة التي جمعتكم من أجلها اسمحوا لي أن استرعي نظركم الى هذه الواقعة : منذ أن بدأت الحرب ، حطمنا ـ وفقاً للبلاغات الرسمية ـ طائرات الأعداء في تسعة مطارات ، ومن الأيسر الاغارة على اشبيلية من الاغارة على مطار أشبيلية ، فاذا حدث أن أخطأت بعض قنابلنا الهدف العسكري ، وأصابت بعض المدنيين فإننا على الأقل لم نضرب بقنابلنا قط أية مدينة اسبانية بطريقة منهجية .

« واليكم الآن الوثيقة ، وسأقرأها عليكم ، وعلى كل منكم أن يفحص الأصل بنفسه ، هذا الأصل الذي سنتخذ اجراءاتنا بعرضه في لندن وباريس ، بكل تأكيد . والوثيقة ببساطة عبارة عن منشور دوري قصير موجه الى الضباط العظام من المتمردين ، وهذه النسخة وجدت في ٢٨ يوليو بحوزة الضابط مانويل كاراتش الذي أسر في جبهة « وادي الحجارة » وشرع جارسيا في قراءة الوثيقة :

« شرط من الشروط الجوهرية للنصر هو تحطيم معنويات قوات

الأعداء ، والعدو لا يتوافر له العدد الكافي من الجنود أو العدد الكافي من الأسلحة لمقاومتنا ، ومع ذلك فمن الضروري اتباع التعليمات الآتية بدقة :

« لاحتلال مؤخرة مدينة ـ لا بد من بث رعب في قلوب السكان يدفعهم الى التسليم .

« ومن ثم لا بد من اتباع هذه القاعدة ، وهي أن تكون الوسائل المستخدمة جميعاً مهولة ومؤثرة .

« ولا بد من اعتبار كل موقع على خط انسحاب العدو وكل موقع وراء جبهة العدو ـ بصفة عامة ـ منطقة هجوم . وسواء أكانت هذه المواقع تضم قوات للعدو أم لا تضم ، فهذا يؤثر في المسألة . والذعر الذي يسود بين السكان المدنيين الذين عند صفوف العدو المنسحبة يسهم إسهاماً عظيماً في الحط من الروح المعنوية للجنود .

« وتثبت التجارب التي أُجريت خلال الحرب العالمية الكبرى أن الخسائر غير المقصودة في الاسعاف ونقل الجرحى الأعداء تؤثر تأثيراً بالغاً في تحطيم معنويات الجنود .

« وعلى رؤساء الوحدات ـ عقب دخول مدريد ـ أن ينصبوا على أسطح العمارات ، التي تشرف على المناطق المشتبه فيها وعلى المبانى العامة وأبراج الكنائس ـ أوكاراًللمدافع الرشاشة حتى يتسنى لهم السيطرة على الشوارع المجاورة جميعاً .

« وفي حالة ابداء أية مقاومة من جانب السكان ينبغي اطلاق النار على المعارضين دون تردد ، وبالنظر الى العدد الضخم من النساء اللواتي يحاربن الى جانب العدو لا معنى لوضع جنس هاتيك المحاربات موضع الاعتبار ، وكلما كان موقفنا صارماً كان سحق كل مقاومة يبديها السكان سريعاً ، وكان نصرنا لاصلاح اسبانيا وشيكاً » .

وقال جارسيا : « وأضيف الى ذلك أن هذه التعليمات منطقية من « وجهة النظر الفاشية » . ورأيي الشخصي هو أن الارهاب جزء من الوسائل المستخدمة استخداماً منهجياً فنياً بوساطة الثوار منذ اليوم الأول ، وأنتم تشاهدون الآن الدراما التي تعد بطليوس ـ نسخة مكررة منها ـ. ولكن فلندع جانباً الآراء الشخصية » .

ثم أضاف في اثناء خروج الصحافيين :

ـ « وستتلقون أيضاً الحديث الذي دار مع فرانكو في السادس عشر من أغسطس والذي يبدأ على النحو التالي : « لن أضرب مدريد بالقنابل أبداً ، ففيها أبرياء » .

وكانت القنابل ما زالت تتساقط ، ولكن على بعد كيلومتر واحد ، ولم يعد في « السنترال » من يعبأ بها .

ودخل أحد رجال السكرتاريا ، فسأله جارسيا :

ـ « هل اتصل الكولونيل مانيان تليفونياً ؟ » .

ـ « كلا . . يا سيدي القائد . . . ورجال الفرقة العالمية يحاربون في خيتافي » .

ـ « ألم يصل الملازم اسكالي بعد ؟ » .

ـ « لقد اتصلوا تليفونياً من القلعة وقالوا : إنه سيأتي حوالي الساعة العاشرة . . . وجئت لأخبرك بأن نيبورج هنا . . . ياسيدي القائد » .

كان « نيبورج » ـ وهو رئيس إحدى بعثات الصليب الأحمر ـ قد اتى من شملنقة ، وكان جارسيا قد التقى به في مؤتمرين عقدا بجنيف ، ولم يكن القائد يجهل ان نيبورج لم يشهد سوى القليل في شملنقة ، ولكنه على الأقل قد التقى فترة طويلة بميجويل دي أونامونو .

وكان فرانكو قد أقال أعظم كاتب اسباني من منصب مدير الجـامعة . ولم يكن جارسيا يجهل مدى تهديد الفاشية ـ من الآن فصاعداً ـ لهذا الرجل الذي كان من أبرز المدافعين عنها .

الفصل التاسع

قال الطبيب : « ظل راقداً ستة أسابيع في حجرة صغيرة ، وكان يقرأ ، وبعد إبعاده عن الجامعة قال : « لن أخرج من هذا المكان إلا ميتاً أو محكوماً عليَّ بالاعدام ونام في سريره ، وما زال راقداً عليه ، وبعد يومين من عزله ، سلمت الجامعة الى طائفة القلب المقدس . . . . » .

ونظر « نيبورج » في اثناء عبوره في المرآة الوحيدة القائمة في الحجرة ـ نظر الى وجهه النحيف الحليق الذي يطمح في أن يكون متألقاً ، ولكنه بدا كأنه حطام شبابه الغابر . وفي مستهل المناقشة ، أخرج جارسيا من حافظته خطاباً ، وقال :

ـ « عندما علمت انك ستحضر الى هنا فتشت في مراسلاتنا الماضية ، فوجدت هذه الرسالة التي كتبها منذ عشر سنوات ، حينما كان في المنفى . . وجاء في ثناياها : « لا وجود لعدالة سوى الحقيقة ، والحقيقة أكثر اقتداراً من العقل ، كما يقول سوفوكليس ، وكذلك الحياة أكثر اقتداراً من اللذة والألم ، ومن ثم كانت الحقيقة والحياة هما شعاري ، لا العقل أو اللذة . وأحرى بنا أن نحيا في الحقيقة حتى لو تألمنا ـ من أن نتعقل في اللذة أو من أن نسعد في العقل . . . » .

ووضع جارسيا الرسالة أمامه على المكتب اللامع الذي يعكس السماء الحمراء ، وقال الطبيب :

ـ« هـذا هو مضمـون المحاضـرة التي تسببت في فصله ، إذ قـال : « من الممكن ان تكون للسياسة مقتضياتها التي لن نتعرض لها هنا . . إذ ينبغي أن تكون الجامعة في خدمة الحقيقة . ولن يكـون ميجويـل دي أونامـونو مـوجوداً حيث يوجد الكذب . أما فيما يتعلق بالفظائع الحمراء التي لا يكفون عن الحـديث عنها الينا فـاعلموا أن أحط المحـاربات ـ حتى ولـو كانت من المـومسات كـما يقـولون ـ حـين تحارب بـالبندقيـة في يدهـا ، وتتعرض للمـوت في سبيـل مـا اختـارت المحاربـة من أجله ـ أشرف أمـام العقـل من النسـوة اللواتي رأيتهن يخـرجن من مـأدبتنـا أول أمس بـأذرعهن العـاريـة ، وهن يـرفلن في الثيـاب الغالية ، وبين الزهور لمشاهدة اعدام الماركسيين . . . »

وكان « نيبورج » مشهوراً بموهبته في المحاكاة .

واستطرد قائلاً بعد أن استعاد صوتـه الطبيعي : « وبـوصفي طبيباً دعني أخبرك يا عزيزي : ان رعبه من الموت يحمل في طياته شيئاً مـرضياً ، ولم يكن من شـك أن إرغـامـه بـالـذات عـلى الاجـابـة عن أسئلة الجنـرال مؤسس « التـرثيو »[1] Tercia قـد أثار أعصـابه ، وحـين شرع في الـدفـاع عن وحـدة اسبانيا الثقافية بدأت المقاطعات . . . » .

ـ « أي مقاطعات ؟ » .

ـ « الموت لأونامونو . . . الموت للمثقفين ! » .

ـ « ومن الصائحون ؟ » .

ـ « شباب الجامعة الحمقى ، وهنا نهض الجنرال ميلان آستـريه ، وهتف قائلاً : « الموت للعقل . . . فليحيا الموت ! » .

ـ « ماذا كان يقصد بذلك في رأيك ؟ » .

---

(١) الترثيو فيلق خاص هو جزء من التنظيم العسكري الأسباني (المترجم) .

ـ « انه يعني بكل تأكيد أن سحقاً لكم ، أما ما عناه بكلمة : « فليحيا الموت » . فربما كان تلميحاً الى احتجاجات أونامونو على الاعدام رمياً بالرصاص ! » .

ـ « لهذه الصيحة معنى عميق في أسبانيا ، فلقد أطلقها الفوضويون أيضاً ذات يوم » .

وسقطت قنبلة فوق الشارع الكبير ، وطفق نيبورج يذرع مكتب جارسيا ، مغتبطاً بشجاعته ، وقد عكست صلعته السماء المشتعلة انعكاساً غامضاً ، وعلى جانبي رأسه تهدلت خصلات من شعره الأسود المجعد ، وكان الدكتور نيبورج يزهو منذ عشرين عاماً ـ على الرغم من شهرته كطبيب ـ بأن منظره أشبه بقسيس من قساوسة القرن التاسع عشر ، وقد احتفظ من هذا المنظر بشيء ما .

وواصل الطبيب حديثه قائلاً : « وهنا أجاب أونامونو بعبارته الشهيرة : « إن اسبانيا بغير بسكاي وبغير قطالونيا تصبح بلداً شبيهاً بك يا سيدي الجنرال ، عوراء كتعاء ! » هذه العبارة التي لا يمكن أن تعتبر مجرد دعابة بعد أن جاءت عقب رده على « مولا » ، ذلك الرد الذي يعرفه العالم أجمع : « الانتصار ليس معناه الاقناع » « وفي المساء . ذهب الى الكازينو ، وهناك أهانه الناس ، فعاد الى حجرته ، وقال : انه لن يبرحها أبداً » .

ومع أن جارسيا كان يصغي في اهتمام فإن عينيه كانتا مثبتتين على رسالة أونامونو القديمة التي على مكتبه ، وقرأ بصوت مرتفع :

ـ « هل يتخلى رجال الحملة الصليبية وحملة الانتقام عن فكرتهم في تمدين قبائل الريف وهذا معناه تجريدهم من المدنية ؟ ومتى نتخلص من مفهوم « الجلاد » عن الشرف ؟ » .

« ومن هناك ، أو من اسبانيا ـ لا أريد أن أعرف شيئاً ـ كما أنني أقل رغبة في معرفة أي شيء من أولئك الذين يصيحون باسم « اسبانيا العظمى »

حتى يصم الصياح آذانهم عن سماع أي شيء ! وإنما ألوذ باسبانيا الأخرى ، بوطني اسبانيا الصغرى . وما أود أن يكون لديَّ العزم على ألا أطالعه أبداً هو الصحف الأسبانية ، فهي شيء مخيف ، وفيها لن تسمع صوت وتر ينقطع من أوتار القلب ، كل ما تسمعه هو صرير الحبال التي تتحرك بها الدمى ، وطواحين الهواء التي نخطىء فنحسبها عمالقة ! » .

وتصاعدت جلبة صاخبة من الشارع الكبير ، وكان وهج الحريق يرتعش فوق الجدران ، كما ترتعش انعكاسات الجداول المشمسة في الصيف على سقوف الحجرات .

وردد جارسيا وهو يدق بغليونه على ظفر إبهامه : « ولن تسمع فيها حتى صوت وتر ينقطع من أوتار القلب . . . ! » .

ـ « أود أن أعرف ما يفكر فيه ، وأستطيع أن أتصوره الآن بسمته النبيل ، وعينيه الدهشتين المفكرتين كعيني البومة البيضاء ، وهو يشتم ميلان آستريه . . . ولكن ليس هذا سوى الجانب القصصي من الموضوع ، ثمة شيء آخر » .

ـ « في حديثنا الخاص الذي دار بيننا بعد ذلك تكلمنا كثيراً ، أو بالأجرى ، تكلم هو كثيراً ، إذ لم أكن أفعل شيئاً سوى الأصغاء . . . انه يمقت « آزانا » وهو يرى في الجمهورية ، والجمهورية وحدها ، السبيل الى الاتحاد الفيدرالي لأسبانيا ، وهو يعارض الفيدرالية المطلقة ، ولكنه يعارض أيضاً المركزية المفروضة بالقوة . . . ويرى أن هذه المركزية نفسها تتحقق الآن في الفاشية » .

وملأت حجرة المكتب التي تحطمت ألواحها الزجاجية رائحة غريبة :

مزيج من ماء الكولونيا ومن الحريق ، فقد اشتعلت النيران في مصنع للعطور .

- « لقد أراد أن يصافح الفاشية دون أن يفطن الى أن للفاشية أيضاً أقداماً ، يا صديقي العزيز . . . واحتفاظه بدعوته الى الوحدة الفيدرالية يفسر كثيراً من متناقضاته . . » .

- « انه يؤمن بانتصار فرانكو ، وحين استقبل الصحافيين قال لهم[1]: « اكتبوا عني : انه مهما حدث فلن أقف أبداً الى جانب المنتصر . . . » .

- « وهذا ما لم يكتبوه . . وماذا قال لك عن أبنائه ؟ » .

- « لم يقل شيئاً . . ولماذا تسألني ؟ » .

وتأمل جارسيا الماء الأحمر ، كأنه يحلم :

- « إن أولاده جميعاً هنا . . واثنان منهم يحارب أحدهما الآخر . ولا أظن أنه لا يفكر فيهما ، كما أن الفرصة لا تتاح له كثيراً للالتقاء بشخص يعرف أنباء العسكريين . . » .

- « خرج مرة واحدة ، عقب الحديث ، ويقال انه استدعي - رداً على ما أدلى به عن النساء - إلى حجرة ذات نوافذ مفتوحة ، تطل على تنفيذ حكم الاعدام . . . » .

- « سمعت هذه القصة ، ولكنني لم أصدقها تماماً ، فهل لديك معلومات دقيقة عنها ؟ » .

- « لم ينبئني بشيء عنها ، وهذا طبيعي ، كما أنني لم أذكر له شيئاً عنها يا عزيزي »[1] .

« وقد اشتد قلقه كثيراً في الأيام الأخيرة نتيجة لالتجاء هذه البلاد بصفة مستمرة الى العنف والى اللامعقول » .

وحرك جارسيا غليونه حركةغامضة ، وكأنه يريد أن يقول : انه يأخذ مثل هذا النوع من التعريفات في شيء من التحفظ .

ـ « ولكنني أرى يا عزيزي جارسيا أن كل ما نقوله خارج عن الموضوع ، ذلك أن اعتراض أونامونو إعتراض أخلاقي ، ومحادثتنا عن هذا الموضوع كانت غير مباشرة ، ولكنها متصلة » .

ـ « من الجلي أن الاعدام رمياً بالرصاص ليس مشكلة من مشكلات المركزية » .

ـ « وعندما تركته في ذلك الفراش ، وقد استولت عليه المرارة والحزن ، تحوطه كتبه ـ احسست أنني أترك وراء ظهري القرن التاسع عشر . . . »

وأشار جارسيا بطرف غليونه ـ وهو يصحبه الى الخارج ـ الى السطور الأخيرة من الرسالة التي أمسك بها في يده .

« عندما احول عيون الروح نحو أعوامي الاثني عشر المعذبة الأخيرة ، منذ أن انتزعت نفسي من ذلك الحلم الظليل الذي كان يراودني في مكتبي الصغير بشملنقة ـ وكم من أحلام تراءت إلي في تلك الحجرة ـ يبدو لي ذلك حلماً عن حلم ! وتسألني : هل كنت أقرأ ؟ كلا ، لم أعد أقرأ كثيراً ، اللهم إلا عن البحر الذي تتوطد به صداقتي الحميمة يوماً بعد يوم . . . »

وقال جارسيا : « هذا ما كتبه منذ عشرة أعوام ! »

الفصل العاشر

استدعي شاد الى قاعة التليفونات حين اصبح الاتصال بباريس ممكناً ، وفي هذه اللحظة بالذات سقطت قنبلة على مقربة من السنترال ، ثم سقطت قنبلتان أخريان أشد قرباً ، وارتمى الموجودون جميعاً على الجدار المقابل للنافذة ، وعلى الرغم من الأنوار الكهربية فقد كـان من الممكن أن يشعر المرء بالـوهج الأحمر العميق المنبعث من الخارج ، وبدأ المنظر وكأن الحريق نفسه هو الـذي يطلق نيرانه على السنترال الذي خلت طوابقه الثلاثة عشر من أي ظل إنساني، وأخيـراً جازف صحـافي عجوز لـه شارب بـالابتعـاد عن الحـائط ، ولم يلبث الآخرون جميعاً أن نظروا ـ الواحد أثر الآخر ـ إلى الجدار ، وكأنهم يبحثون عن آثارهم التي تركوها عليه .

وسقطت قنابل جديدة ، لم تكن أقرب من الأولى كثيراً ، بيد أن أحداً لم يبرح المكان الذي انتقل اليـه . ويقال : انـه في الاجتماعـات تسود فتـرة من الصمت كل عشرين دقيقة ، أما هنا فقد مرت فترة من اللامبالاة .

وهكذا استطاع شاد أن يبدأ في الاملاء ، وفي أثناء تتابع ملاحظاتـه التي دونها في الصباح ـ كانت انفجارات القذائف تتقـارب ، وكانت أسنـة أقلام الرصاص تتواثب على الدفاتر معا عند كـل انفجار ، وكلما انقـطع اطلاق النار اشتد القلق ، فهـل كانت المـدافع تصلح هـاك من تصويبهـا ؟ لم يسع

الجميع إلا الانتظار ، ومضى شاد في الاملاء ، ونقلت باريس ما يمليه الى نيويورك .

« هذا الصباح شاهد القنابل تحاصر مستشفى يضم مايزيدعلى ألف جريح ، الدماء التي تتركها الحيوانات الجريحة وراءها بعد اصطيادها تسمى آثاراً . وعلى الحائط ، كانت هناك شبكة من الآثار . . . »

وسقطت القنبلة على مسافة تقل عن عشرين متراً ، وفي هذه المرة اندفع الناس اندفاعاً شديداً نحو البدروم ، ولم يبق في القاعة التي أوشكت أن تكون خالية سوى عمال التليفونات والمراسلين الذين يتصلون بصحفهم ، وكان العمال يستمعون الى المكالمات ، بيد أن نظراتهم كانت تبدو وكأنها تترقب وصول القنابل . . . واستمر الصحافيون الذين يملون رسالاتهم في الاملاء ، فلو انقطع الاتصال ما وجدوا إتصالاً آخر يمكنهم من اللحاق بطبعة الصباح ، وكان شاد يملي ما شاهده في القصر .

« وصلت هذا العصر بعد أن حدث انفجار امام محل للجزارة ببضع دقائق ، وفي المكان الذي وقفت فيه النسوة صفاً كانت هناك بقع على حين أخذت دماء الجزار المقتول تسيل من مائدة عرض اللحوم ، بين العجول المبقورة والخراف المعلقة في خطاطيف الحديد ، لتسكب على الأرض حيث تجرفها المياه المنسابة من ماسورة محطمة . . .

« وينبغي أن تفهموا جيداً ان هذا كله من أجل لا شيء !

« من أجل لا شيء !

« وليس الارهاب هو الذي يهز سكان مدريد بل الرعب ، وقد قال لي رجل عجوز في اثناء سقوط القنابل : كنت أحتقر دائماً كل سياسة ، ولكن كيف اسمح باعطاء السلطة لأولئك الذين يستغلونها على هذا النحو برغم انها ليست في أيديهم بعد ؟

« ولقد وقفت ساعة كاملة في طابور أمام مخبز ، وكان في هذا الطابور حفنة من الرجال ومائة امرأة ، وكان كل منا يعتقد ان الوقوف ساعة كاملة في نفس المكان ، أخطر من المشي . وعلى بعد خمسة امتار من المخبز ، وعلى الجانب الآخر من الشارع الضيق - كانوا يرصون الجثث التي تخلفت عن منزل حطمته القنابل في التوابيت ، تماماً كما يفعلون الآن في كل منزل مزقته القنابل في مدريد ، وحين لا يعود المرء يسمع صوت المدافع أو الطائرات فإنه يسمع ضربات المطارق ترن في السكون ، والى جواري كان ثمة رجل يقول لأمرأة : « لقد طار ذراعها يا خوانينا ، فهل تعتقدين أن خطيبها سيتزوجها وهي على هذه الحال ؟ » كان كل منهم يتحدث عن شؤونه ، ولم تمض لحظة حتى صاحت امرأة : « من البؤس أن نأكل مثلما نأكل ! » فأجابتها امرأة أخرى في وقار وبأسلوب إستعارته النسوة جميعاً الى حد ما من الباسيوناريا Pasionaria :

« أنت تأكلين طعاماً رديئاً ، ونحن نأكل طعاماً رديئاً ، ولكننا لم نكن قبل ذلك نأكل طعاماً حسناً ، وأطفالنا يأكلون الآن كما لم يكونوا يأكلون منذ مائتي عام ! » وأبدى الجميع الموافقة على هذا الكلام .

« وهؤلاء الذين بقرت بطونهم وطاحت رؤوسهم - قد استشهدوا عبثاً . بيد أن كل قنبلة تجعل سكان مدريد أرسخ إيماناً .

« وتستطيع المخابىء أن تحمي خمسين ألفاً من الأشخاص ، غير أن سكان مدريد يبلغون مليوناً ، وليس في الأحياء التي تقصدها الغارات أي هدف حربي ، ومع ذلك فالغارات متصلة .

« وفي اللحظة التي اكتب فيها هذه السطور تنفجر القنابل - دقيقة بعد أخرى - على الأحياء الفقيرة ، وفي هذه الساعة المعتمة من المساء يبلغ وهج الحرائق في هذه اللحظة من القوة بحيث ينحسر النهار عن ليل أشبه بلون النبيذ ، ويرفع القدر ستارة من الدخان عن التجربة الختامية لمسرحية الحرب القادمة ، ولهذا أقول لكم يا رفاقي الأميركان : « فلتسقط أوروبا !

« وعلينا أن نعرف ما نريد ، فحين يتحدث شيوعي في مؤتمر دولي يضع قبضته على المائدة ، وحين يتحدث فاشي في مؤتمر دولي فإنه يضع قدميه على المائدة ، وحين يتحدث ديموقراطي في مؤتمر دولي سواء أكان هذا الديموقراطي اميركياً أم انكليزياً أم فرنسياً ـ فإنه يهرش في قفاه ، ويضع أسئلة !

« وقد قدم الفاشيون يد المعونة للفاشيين ، وساعد الشيوعيون الشيوعيين ، بل انهم ساعدوا الديموقراطية الأسبانية ، بيد ان الديموقراطيات لا يساعد بعضها بعضاً .

« ونحن ـ الديموقراطيين ـ نؤمن بكل شيء ، اللهم إلا بأنفسنا ، ولوأن دولة فاشية أو شيوعية استخدمت قوة الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا متجمعة لاستولى علينا الرعب ، ولكن ما دامت القوة « قوتنا » فإننا لا نؤمن بها .

« فلنعرف ما نريد ، أو يحسن بنا أن نقول للفاشيين : اخرجوا من هنا ، وإلا فسوف نلتقي بكم ! وعلينا أن نقول هذه العبارة نفسها بعد غد للشيوعيين اذا اقتضى الأمر .

« أو علينا أن نقول مرة واحدة والى الأبد : فلتسقط أوروبا !

« وأوروبا التي أراها من هذه النافذة لم تعد قادرة على أن تعلمنا القوة التي فقدتها ، أو الايمان الذي تظهره بتزيين صدور المغاربة بالقلوب المقدسة . يا رفاقي في اميركا ، يا من تريدون السلام ، ويا من تبغضون أولئك الذين يمسحون النشرات الإنتخابية بدماء الجزارين المقتولين فوق موائدهم ، حولوا أنظاركم عن تلك الأرض ! حسبنا ما أصابنا من تلك العمة أوروبا التي تلقننا دروسها برأسها الخالي من العقل ، وعواطفها الوحشية ، ووجهها الذي تبدو عليه آثار الغازات السامة ! » .

وما ان انتهى شاد من الاملاء ، حتى صعد الى الطابق الأخير الذي يعد أفضل مكان لملاحظة ما يجري في مدريد ، وهناك وجد اربعة من الصحافيين

وقد زايلهم تقريباً كل توتر :

أولاً ـ لأنهم الآن في الهواء الطلق ، والمعروف ان الأماكن المغلقة تزيد من حدة القلق . وثانياً ـ لأن مصباح السنترال يبدو أقل تعرضاً للإصابة ، لأنه أصغر من البرج الموضوع فيه . وكأن المساء الذي غابت عنه الشمس ، وخلا من الحياة اللهم إلا مما تضفيه النار من حياة ، كان كوكباً ميتاً قد حمل مدينة مدريد ـ كان المساء قد جعل من ختام ذلك اليوم عودة الى عناصر الطبيعة ، واختفى كل ما هو انساني في ضباب شهر نوفمبر الذي تمزقه القذائف ، وتصبغه بالحمرة ألسنة اللهب .

وحطمت شعلة متأججة سقفاً صغيراً ، تعجب شاد كيف أستطاع هذا السقف الصغير أن يخفيها . وبدلاً من أن تتصاعد النيران هبطت على طول المنزل الذي أحرقته ، حتى وصلت الى الشارع ، وفي نهاية الحريق اخترقت الضباب دوامات من الشرر كأنها صواريخ منسقة غاية التنسيق . وأرغم تطاير الشرر الصحافيين على الانحناء ، وعندما عاد الحريق الى الامساك بالمنازل التي احترقت فعلاً اضاءها من الخلف ، فبدت حزينة كالأشباح ، ومكث فترة طويلة يتسكع وراء أنقاضها . وخيم الغسق الكئيب فوق عصر النار ، واحترقت المستشفيات الثلاثة الكبرى ، واحترق فندق سافوا ، واحترقت كنائس ومتاحف ، واحترقت دار الكتب الأهلية ، ووزارة الداخلية ، واحترقت احدى الأسواق ، وشبت النار في درجات سلالمها الخشبية ، وتداعت المنازل في وابل من الشرر ، وتوهج حيان تقطعها خطوط من الجدران العالية السوداء ، فكأنها شواية فوق الجمر . وفي تؤدة مميتة ، ولكن في اصرار النار الغاضبة ـ أخذ هذا كله يتجه عن طريق ميدان أتوشا ، وشارع ليون ، صوب بوابة الشمس التي كانت تحترق هي أيضاً .

وقال شاد في نفسه : « هذا هو اليوم الأول . . . » .

وكانت مجموعات القنابل تنهمر الآن ناحية اليسار ، ومن مؤخرة الشارع

الكبير الذي كان شاد يشـرف عليه ويـراه رؤ ية غـير واضحة ـ ارتفـع صوت صلوات بـدائية كـان يطغى أحيـاناً عـلى صوت جـرس الإسعاف الـذي كان ينحدر من الشارع دون توقف ، وأصغى شاد بكل انتباهـه الى هذا الصـوت الصـادر من أبعد الأزمنـة المتوافق تـوافقاً وحشيـاً مع عـالم النار ! وبـدا كـأن الشــارع كله يجيب عقب جملة تتــردد بــانتــظام ـ محــاكيــاً دقــات طبول جنائزية : دونج ـ تونجون ـ دونج .

وأخيـراً تكهن شاد بمـاهية هـذا الصوت أكـثر من أن يفهمه ، ذلـك انه سمع ذلك الايقاع نفسه منذ شهر مضى : كانت ضجة الطبل الانســاني تردد Non pasaran رداً على جملة لم يكن يسمعها . وكان شاد قد رأى الباسيوناريا Pasionaria الأرملة الـداكنة الصـارمة لكـل شهداء الأشتـوريش ـ على رأس موكب حزين ضار ، تحت رايات حمر تحمل جملتهـا الشهيرة : « من الأفضـل أن أكـون أرملة بطل ، من أن أكـون زوجـة جبـان ! » ، مـوكب يتـألف من عشـرين ألف إمرأة يـرددن تلك العبارة Non pasaran رداً عـلى جملة أخـرى طويلة غير واضحة ، وكان حين ذاك أقل تـأثراً منـه الآن بذلـك الحشد الأقـل عدداً ، والذي لا يراه ، وإن تصاعدت اليه شجاعته البائسة من خلال دخان الحرائق .

الفصل الحادي عشر

خرج مانويل من دار العمدية ممسكاً في يده بغصن الصنوبر ، هناك حيث انعقد المجلس العسكري المنتخب للحكم بالاعدام على القتلة والفارين من الجندية ، وكان الفوضويون الحقيقيون هم أشد الناس صلابة ضد الفارين ، اذ كانوا يؤمنون بأن البروليتاريا كلها مسؤولة ، وحتى ولو كان الجواسيس الفلانج هم الذين تمكنوا من خداع أولئك الفارين ، فإن ذلك لا يعفيهم من العقاب ،ومرت سيارة وَشْت الأمطار مثلث مصابيحها المزدوج .

قال مانويل في نفسه : « إنهم يستطيعون الآن ضرب مدريد بالقنابل على مهل » . ولم يكن المرء يستطيع أن يتبين شيئاً .

وفي اللحظة التي عبر فيها أمام الباب الصغير الذي لم يلاحظه إلا بفضل الضوء المنبعث من الدهليز انقضت عليه أيدٍ ما ،وأمسكته من ساقيه ،وفي الضوء المفعم بماء المطر اشعل جارتنر ومن يتبعه بطارياتهم الكهربية ، فظهر جنديان من جنود الفرقة ، وقد ركعا على الوحل الكثيف محتضنين ساقيه ، غير أنه لم يتبين وجهيهما .

وصاح أحدهما : « لا يمكن أن يعدمونا رمياً بالرصاص ، فنحن متطوعان ! وينبغي أن تقول لهم ذلك ! »

وصمت المدفع ، ولم يكن الرجلان يصيحان بوجه مرفوع ، بل بوجه مطرق نحو الوحل ، وكان حفيف المطر يغلف صيحاتهما . ولم يقل مانويل

شيئاً .

وصاح الرجل الآخر بدوره : « لن يستطيعوا ! لن يستطيعوا ! يا سيدي الكولونيل ! »

وكان الصوت لشاب غض الاهاب ، وما زال مانويل غير مستطيع أن يتبين وجهيهما ، وحول كل قبعة من قبعتيهما اللتين ضغطتا على فخذيه ، وفي ضوء البطاريات المعتم أخذت قطرات صغيرة كأنما تصعد من الأرض تتراقص وسط خطوط المطر المتلاصقة . وعندما لم يجب مانويل طيلة الوقت تراجع أحد الرجلين بوجهه فجأة لينظر اليه .كان جاثياً على ركبتيه وقد دفع بجذعه الى الوراء ليرى من فوقه ، وتدلت ذراعاه الى الوراء ، فبدا كأنه الضحية دائماً ، وكان قد حك وجهه بشدة في حذاء مانويل الملطخ بالوحل ، فاكتسى جبينه ووجنتاه بطبقة منه حول حدقتيه اللتين ظلتا بيضاوين بياض الجثث .

وهم مانويل بأن يقول : « أنا لست المجلس العسكري » . ولكنه خجل من هذا التنصل ، لم يجد ما يقوله ، فأحس أنه لن يستطيع التخلص من المحكوم عليه الثاني إلا إذا دفعه بقدمه ، وبدت له هذه الفكرة غريبة ، فوقف بلا حراك أمام النظرة المجنونة التي ارتسمت على وجه الرجل الآخر الذي كان يلهث الآن ، وعلى وجهه سالت قنوات من المطر المنهمر ، وكأنه يبكي بكل وجهه .

وتذكر مانويل رجال أرانخويث ورجال الفرقة الخامسة في نفس هذا المطر في نهاية الصباح ، وراء جدرانهم الصغيرة ولم يكن قد أتخذ قراره بدعوة المجلس العسكري الى الاجتماع دون ترو ، ومع ذلك كان الآن في حيرة من أمره ، يتنازعه النفاق والغرابة . وإعدام الناس سيء بما فيه من الكفاية دون حاجة الى اضافة المواعظ الأخلاقية .

وصاح الرجل الذي ينظر اليه مرة أخرى : « ينبغي أن تقول لهم ! ينبغي أن تقول لهم ! » .

وقال مانويل في نفسه : « ماذا أقول ؟ » إن دفاع هذين الرجلين يقوم على شيء لا يستطيع التعبير عنه انسان . شيء يرتسم في هذا الوجهالذي ينسكب منه الماء ، وفي هذا الثغر الفاغر شيء جعل مانويل يفهم أنه ازاء الوجه الأبدي للضحية . ولم يكن قد شعر قط بمثل هذا الشعور الحاد بضرورة الاختيار بين الانتصار والشفقة . وانحنى محاولاً إبعاد ذلك الذي تشبث بساقه ، فالتصق بها الرجل في ضراوة ، دون أن يرفع رأسه وكأنه لا يعرف من العالم كله إلا هذه الساق ، التي تحول بينه وبين الموت . وأوشك مانويل أن يسقط ، فضغط بقوة على منكبي الرجل ، شاعراً بأنه في حاجة الى عدد كبير من الرجال لتخليصه منه . وفجأة ترك الرجل ذراعيه تتدليان ، ونظر الى مانويل هو أيضاً من أسفل الى اعلى . كان شاباً ولكن أقل شباباً مما تصوره مانويل ، وكان قد اجتاز الآن مرحلة التسليم ، وكأنه فهم كل شيء لا في هذه المرة فحسب ، بل الى الأبد ، وقال بالمرارة اللامبالية التي يتصف بها أولئك الذين يتحدثون من عالم آخر انتقلوا اليه فعلاً .

ـ « والآن ، لم يعد لك صوت تدلي به من أجلنا ؟ »

وفطن مانويل الى انه لم يتفوه حتى الآن بكلمة واحدة .

وتقدم بضع خطوات تاركاً الرجلين وراءه .

وطغت رائحة المطر العميقة العالقة بالأوراق والغصون فوق الصوف والجلد اللذين تتألف منهما الحلل العسكرية ، ولم يتلفت مانويل خلفه ، ولكنه أحس وراء ظهره بالرجلين الراكعين بلا حراك في الوحل ، يتابعانه برأسيهما .

الفصل الثاني عشر

فجأة حدث توهج أحال نور الكهرباء ـ للحظة واحدة ـ الى شيء أشبه بنور الفجر ، وكان لا بد أن يكون هذا الوهج صادراً من شعلة عالية جداً ، ما دام جارسيا واسكالي قد أحسا به على الرغم من وجود المصابيح الكهربية المضاءة . . وسعى الإثنان صوب احدى النوافذ . . . وكان الجو بارداً الآن ، وثمة غمامة خفيفة تتصاعد ، وتمتزج الضباب بدخان الحرائق التي شبت في مئات المنازل ، ولم تنطلق أية آلة تنبيه ، وإنما كان هناك صوت عربات المطافىء والاسعاف فحسب .

قال اسكالي : « هذه هي الساعة التي تختار فيها الفالكيري بين الأموات » .

ـ « يبدو وكان مدريد تريد أن تقول لاونامونو بلسان هذه النيران : ما نفع فكرك لي ؟ إذا كنت لا تستطيع أن تفكر في مأساتي ؟ فلننزل ولنذهب إلى المكتب الآخر ! » .

ـ « وكان جارسيا يروي لاسكالي المحادثة التي دارت بينه وبين الدكتور نيبورج . والواقع أن اسكالي هو الشخص الوحيد من بين جميع الذين يراهم ليلاً أو نهاراً ـ الذي يستطيع أن يشعر بمثل شعوره نحو تلك القصة كلها .

قال اسكالي : « حين يهاجم الثورة شخص مثقف كان في يوم من الأيام ثورياً فمعنى ذلك دائماً انه ينقد سياسة الثورة على أساس مذهبه الأخلاقي ، إذا صح هذا التعبير ، ولكن ألست تتمنى حقاً ـ يا قائدي ـ ألا يتم هذا النقد ؟ » .

- « وكيف يمكن أن أتمناه ؟ !

« يعتقد المثقفون دائماً ان الحزب معناه جماعة من الناس يلتفون حول فكرة ، والواقع ان الحزب أشبه بشخصية فاعلة منه بفكرة مجردة ! والحزب من الوجهة النفسية عبارة عن تنظيم لمجموعة من المشاعر التي قد تكون متناقضة من أجل عمل مشترك ، وهذه المشاعر تضم الشعور بالفقر والمذلة والرؤيا والأمل ، وحين يتعلق الأمر بالشيوعيين فإنها تضم حب العمل ، والتنظيم ، والانتاج ، الخ . . . واستنتاج نفسية شخص ما من برنامج حزبه لايختلف - يا عزيزي - عن ادعائي باستنتاج شخصية أهالي بيرو من أساطيرهم الدينية » .

وتناول قبعته ومسدسه ، وأدار زر الكهرباء ، فانطفأ النور ، واقتحم الحجرة فجأة وهج النيران الذي لم يكن واضحاً في الخارج ، في اثناء وجود النور الكهربي ، وامتلأت حلوقهم بطعم الخشب المحترق ، واندفع الدخان الى حجرة المكتب في تؤدة لا تقهر ، تتسم بها الحرائق التي أخذت تزحف صوب بوابة الشمس . وبدت السماء التي اتخذت لون عكارة النبيذ كأنما تضغط على الحجرة المطفأة . وفوق مبنى السنترال ، والشارع الكبير تجمعت السحب الحمراء الداكنة والسوداء . . . كثيفة حتى ليكاد المرء يغرف منها بيده ! وعلى الرغم من أن الدخان لم يزدد كثافة عما كان عليه من قبل وإنما أصبح مرئياً فحسب - فإن اسكالي طفق يسعل ويعطس ، ولم يلبث أن عاد الى النافذة . . . كانت أرضية الشوارق تحترق . . كلا . . بل أن الأسفلت اللامع المصطبغ بالحمرة يعكس السنة اللهيب القصيرة ، وشرع قطيع من الكلاب الضالة في النباح نباحاً ساخراً عدوانياً لا معنى له وكأنه قد ساد تلك الوحشة التي تؤذن بنهاية عالم البشر !

وكان المصعد ما زال صالحاً للاستعمال .

وسار الاثنان في الشوارع السوداء تحت السماء الضارية حتى وصلا الى « البرادو » . وهناك ، في الظلمة الدامسة كانت الأصوات المنبعثة من نافذة

السنترال ما زالت تحيط بهما : ان مدريد تضمد جراحها ، فاتجها صوب ضجة أخرى اشبه بصوت آلاف الدقات القصيرة على الاسفلت .

قال اسكالي : « من حسن الحظ أن أونامونو لم يلتق بموته بعد ، فقد هيأ له القدر هنا الجنازة التي كان يحلم بها طيلة حياته . . » .

وكان جارسيا يفكر في حجرة شلمنقة ، فقال :

« ولعله كان يجد ها هنا مأساة أخرى ، ولكنني لست على يقين من أنه كان سيدركها . ان المثقف الكبير هو رجل الفروق الدقيقة ، والظلال المتقاربة ، والكيف ، والحقيقة في ذاتها ، وما في الأشياء من تعقيد ، فهو في جوهره ، وعلى حسب تعريفه ضد المذهب المانوي antimanichéen بيد أن كل وسائل الفعل مانوية ، لأن كل فعل مانوي ، وهذا العنصر المانوي يكون حاداً فيما يمس الجماهير ، بل حتى حين لا يمسها ، وكل ثوري حقيقي مانوي بالسليقة . . بل كل سياسة . . . » .

وأحس أن شيئاً يضغط عليه من كل جانب حتى أعلى فخذيه . من المستحيل أن يكون هناك هذا العدد الكبير من الجرحى . وحاول أن يتبين الأمر بيديه . هل هو قطيع من الكلاب ؟ ولكن يا لها من رائحة ريفية يختلط بها الغبار !

وازداد عليه الضغط شيئاً فشيئاً ، حتى تعذر عليه المضي في طريقه . وكان صوت الحوافر على الأسفلت أصلب وأشد اسراعاً من الصوت الذي يمكن أن تحدثه مخالب الكلاب .

وصاح اسكالي ، وكان قد ابتعد عن جارسيا بحوالي خمسة امتار :

ـ « ما هذا ؟ قطيع من الأغنام ؟ » .

وعلى بعد امتار أجابه ثغاء الخراف ، واستطاع جارسيا أن يصل الى زر بطاريته ، بعد أن كاد يختنق من حرارة الجو ، والقت الحزمة المضيئة نوراً متموجاً على سحابة تكاد تكون أكثف من سحابة الدخان ، وكانت خرافاً

حقاً . ولم تكن البطارية تضيء مسافة بعيدة تكفي لكي يتبين نهاية القطيع الذي يحاصرهما . بيد أن أصوات الثغاء كانت تتجاوب على مسافة مئات من الأمتار . . ولا ظل هناك لأي راعٍ .

وصاح جارسيا محذراً اسكالي : « انحرف الى اليمين ! » .

كانت القطعان التي طردتها المعركة تعود ، مخترقة مدريد ، هابطة صوب بلنسية ، ولم يكن من شك في أن الرعاة الذين يسيرون الآن في جماعات مسلحة ـ وراء ماشيتهم أو في الشوارع الموازية للطريق الرئيسي ، غير أن القطعان غير المرئية التي أصبحت الآن سيدة « البرادو » ، كما ستصبح عند نهاية تاريخ البشرية ـ كانت تتقدم بسرعة بين الحرائق المشتعلة ، يقطع سكونها الكثيف من حين الى آخر ثغاء نحيل .

قال جارسيا : « فلنبحث عن سيارتي الصغيرة ، فهذا أقرب الى العقل » .

وصعد الى منتصف المدينة .

ـ « ماذا كنت تقول يا جارسيا ؟ » .

ـ « ترو في هذا القول يا اسكالي : في كل البلاد ، وفي كل الأحزاب ـ يعشق المثقفون الخلاف : آدلر ضد فرويد ، سوريل ضد ماركس . كل ما في الأمر أن المنشقين في السياسة يعدون خارجين على القانون ، والأنتلجنسيا يعطفون عطفاً شديداً على المطرودين من باب الكرم أو الألمعية ، وينسون ان الصواب في نظر الحزب ليس معناه أن يكون للمرء عقل حكيم ، بل هو أن يكسب شيئاً » .

ـ « إن أولئك الذين يستطيعون نقد السياسة الثورية من الوجهة الانسانية والفنية يجهلون نسيج الثورة ـ اذا صح هذا التعبير . أما هؤلاء الذين عانوا تجربة الثورة ، فإنهم لا يملكون موهبة أونامونو ، أو حتى وسائل

التعبير عنها في أغلب الأحيان » .

ـ « اذا كان في روسيا عدد كبير من صور ستالين ـ كما يقولون ـ فليس ذلك لأن ستالين القابع في ركن من الكرملين قد قرر أن يكون الأمر على هذا النحو . . . وما عليك إلا أن تنظر الى هوس الشعارات ، هنا في مدريد نفسها ، ويعلم الله هل الحكومة تهتم بهذا الأمر ؟ والطريف هو ان نفسر لماذا نجد الصور هناك . كل ما في الأمر ، لكي يتحدث المرء الى العاشق عن الحب لا بد أن يكون المرء عاشقاً هو نفسه ، ولا يكفي أن يكون قد قام ببحث عن الحب ، وقوة المفكر لا تكمن ـ يا عزيزي ـ في موافقته أو في احتجاجه ، وإنما تكمن في تفسيره ، فليشرح لنا المثقف أولاً : لماذا كانت الأشياء على هذا النحو وكيف ؟ وليحتج بعد ذلك اذا اعتقد ان احتجاجه ضروري (ولن يجد في الواقع داعياً لهذا العناء) .

« التحليل قوة عظيمة يا اسكالي ، وأنا لا اعتقد في اخلاقيات لا تستند الى علم النفس » .

ولم تصل الى اسماعهما اية جلبة صادرة عن الحريق ، وتحت تلك البقع الهائلة ، ذات اللون الأحمر القاني والداكن الشبيه بلون الحديد المحمي بعد ابترادِه ، تقطعها سحب ثقيلة من الدخان ، والأشرعة الممزقة التي تغطي صفحة السماء كأن مدريد كلها قد اشتعلت ناراً ـ كان الصمت تسكنه أحياناً ضجة مكتومة مسرفة تحت تلك السماء الكئيبة : إنها صوت آلاف الحوافر التي مضت في الصعود من « البرادو » .

قال اسكالي : « ومع ذلك فلا بد قبل مضي وقت طويل من تعليم الناس مرة أخرى أن يعيشوا » . . .

وكان يفكر في « آلفير » . . .

« ان يكون المرء إنساناً ـ في نظري ـ ليس معناه أن يكون شيوعياً

صالحاً ، وأن يكون المرء إنساناً ـ في نظر المسيحي ـ هو أن يكون مسيحياً صالحاً . . . وأنا لا أثق في مثل هذا المقياس » .

ـ « المسألة أبعد عن أن تكون تافهة يا صديقي ، لأنها مسألة المدنية . فلقد ظل الرجل الحكيم ـ ولتسمح لي بأن أستعمل كلمة حكيم ـ ظل فترة كافية هو النمط الأعلى في أوروبا ، سواء أكان ذلك صراحة أم ضمناً ، وكان المفكرون هم سدنة عالم يؤلف فيه الساسة طبقة النبلاء ، النظيفة أو القذرة على حد سواء ، ولم تكن مكانة السدنة موضع جدال ، وكانوا هم لا الآخرون (ميجويل ، لا الفونس الثالث عشر ، بل ميجويل ، لا الأسقف) ـ مسؤولين عن تعليم الناس كيف يعيشون ؟ . وها هم أولاء الزعماء السياسيون الجدد يطالبون بحكومة الروح : ميجويل ضد فرانكو ، وكان بالأمس ضدنا ، توماس مان ضد هتلر ، وجيد ضد ستالين ، وفيريرو ضد موسوليني ، انه صراع على مقاليد السلطة » .

وانحرف الشارع ، ومن فوق فندق « سافوا » غير المرئي ، انعكس فوقهم وهج هائل .

قال اسكالي رافعاً سبابته في الظلام : « أو الأحرى بورجيزي أكثر من فيريرو . ويبدو لي ان هذا كله يدور ـ اذا شئت ـ حول الفكرة الشهيرة اللامعقولة ،فكرة الكل الشامل ، هذه الفكرة التي تحيل المثقفين الى مجانين ، و« المدنية الشمولية » في القرن العشرين كلمة خالية من المعنى ، وهذا مثل ما نقول : إن الجيش مدنية شمولية ، والحقيقة ان الشخص الوحيد الذي « يبحث » عن كل شامل حقيقي هو المثقف بالذات » .

ـ « وربما كان هو وحده الذي يحتاج اليها ، يا صديقي العزيز . ولقد كانت نهاية القرن التاسع عشر سلبية كلها ، ويبدو أن أوروبا الجديدة تقوم على الفعل ، وهذا يستتبع بعض الاختلافات » .

ـ « ومن وجهة النظر هذه ، يكون الزعيم السياسي في رأي المثقف

دجالاً بالضرورة ، ما دام يزعم انه يحل مشكلات الحياةدون أن يضعها » .

كانا يسيران الآن في ظل منزل ، والبقعة الصغيرة الحمراء التي هي غليون جارسيا المشتعل ترسم خطاً منحنياً ، وكأنه يريد أن يقول : ان هذا يفضي بنا بعيداً عن الموضوع ، وقد أحس اسكالي منذ أن وصل ان جارسيا يعاني قلقاً غير مألوف عند القائد الصلب ذي الأذنين المدببتين .

ـ « أخبرني اذن ـ يا سيدي القائد ـ ما أفضل ما يستطيع ان يفعله المرء بحياته ، في نظرك ؟ » .

واقترب جرس الاسعاف بأقصى سرعة كأنه صفارة الأنذار ، ثم عبر عليها ، وتلاشى ، واستغرق جارسيا في التفكير :

ـ « أن أحيل الى الوعي أوسع تجربة ممكنة ، يا صديقي » .

وكان يمر في هذه اللحظة ، أمام دار للسينما تحتل ناصية شارعين ، وكان طوربيدإحدى الطائرات قد شقها نصفين ، وأسقط من أعلى الى اسفل الجدار القائم ناحية الشارع الأضيق ، وكانت فرقة من فرق الانقاذ تفتش في الأنقاض بالبطاريات الكهربية بحثاً عن شيء ما ربما كان الضحايا ، وكان جرس السينما الذي يدعو النظارة الى اتخاذ اماكنهم يرن في ذلك المساء الشتوي وكأنه يدعو الناس الى تأمل هذا البحث عن الموتى بنفس الرنين الذي كان يدعوهم به من قبل الى عالم الاحلام ، وراء واجهة تكاد تكون سليمة لم تمس .

وكان جارسيا يفكر في أرنانديث ، وفي مواجهة حريق مدريد الهائل أحس في قلق ـ وكأنه شاهد جماعة من المجانين ـ بمدى تشابه مآسي الناس ، وبأنها تدور في حلقة جهنمية ضيقة .

ـ « الثورة مسؤولة عن حل مشاكلها ، لا عن مشاكلنا . . أما مشاكلنا فيتوقف حلها علينا ، ولو أن عدداً أقل من الكتّاب الروس قدهرب وراء جيوش المهاجرين ، لما كانت العلاقة بين الكتّاب والمسؤولين السوفييت هي

نفسها ، وقد عاش ميجويل حياته بأفضل ما يستطيع ، هذا شيء مفهوم ، وعلى أنبل صورة ممكنة في اسبانيا الملكية التي يمقتها ،وعاش بأفضل ما يستطيع في مجتمع أقل سوءاً . . . وربما وجد صعوبة في ذلك . والواقع ان أية دولة أو أي بناء اجتماعي لا يخلق النبل الذي يميز الشخصية ، أو أية صفة روحية ، كل ما يمكن أن نقدر عليه هو أن ننتظر الظروف الملائمة . . . وهذا كثير . . . » .

ـ « أنت تعلم جيداً انهم يزعمون . . . » .

ـ « إن مايزعمه حزب في هذا المجال لا يثبت إلا ذكاء القائمين على الدعاية فيه أو غباءهم ، وما يهمني هو ما يفعله هذا الحزب ، وماذا تصنع أنت هنا ؟ »

وتوقف اسكالي متعجباً من انه لا يستطيع أن يحدد الاجابة ، فرفع انفه مثلما اعتاد أن يفعل دائماً حين يستغرق في التفكير .

ـ « أما فيما يتعلق بي فلست أرتدي هذه الحلة الرسمية لأنني أنتظر أن تخرج من الجبهة الشعبية أنبل الحكومات ، وإنما أرتديها لأنني أريد أن تتغير ظروف الحياة التي يحياها الفلاحون الأسبان » .

وتذكر اسكالي مناقشة الفير ، واستطرد قائلاً :

ـ « ولكن ما العمل اذا كنت حين تحررهم اقتصادياً تفرض عليهم دولة تستعبدهم سياسياً ؟ » .

ـ « في هذه الحالة ما دام الانسان لا يمكن ان يكون على يقين من نقاء مثله العليا في المستقبل ـ فأولى به أن يترك للفاشيين مقاليد الأمور !

« وفي اللحظة التي نتفق فيها على النقطة الحاسمة ، وهي أن نقاوم الواقع ، فإن هذه المقاومة تصبح فعلاً ، تلتزمه ككل فعل وكل اختيار ، وهذه المقاومة تنطوي في ذاتها على كل حتمياتها ، وفي بعض الحالات يكون

هذا الاختبار مأساوياً ، ويكاد يكون كذلك دائماً بـالنسبة للمثقف ، وللفنـان بوجه خاص . وماذا بعد ؟ ألا ينبغي أن نقاوم ؟

« والثورة بالنسبة للرجل المفكر ـ مأساوية ، بيد أن الحياة نفسها بالنسبـة لمثل هذا الـرجل مـأساويـة أيضاً ، واذا كـان يعتمد عـلى الثورة للقضـاء على المأساة فهـو مخطىء ، هـذا كل مـا في الأمر ، وقـد استمعت الى رجل لعلك تعرفه هو الكابتن ارنـانديث ـ يضـع أسئلتك كلهـا تقريبـاً ، وفي سبيل هـذه الأسئلة لقي مصرعه . لا وجود لخمسين طريقة للقتـال ، وإنما تـوجد طـريقة واحدة ، هي القتال من أجـل الانتصار ، ولا يشتـرك الانسان في ثـورة ، أو يخوض حرباً لمجرد إرضاء ذاته ! .

« ولست أدري الكاتب الذي قال : « إن نفسي مزدحمة بالجثث كالجبانـة القـديمة»، ونحن جميعـاً مزدحمـون بالجثث منـذ أربعة أشهـر ، أي اسكـالي ، كلنا ، على طول الطريق الذي يمتد من الأخـلاق الى السياسـة ، وهناك بـين كل رجل يفعـل وظروف فعله يقـوم ضرب من المـلاكمة ، أي الفعـل الذي ينبغي عليه أن يقوم به لكي ينتصر ، لا الفعل الذي ينبغي أن يقـوم به لكي يفقد ما نريد انقاذه . . . هذه مشكلة من مشاكل الواقع والموهبة ان صح هذا التعبير ، وليست موضوعاً للجدل » .

وردد عبارة « ملاكمة » وكأنه يوجهها لغليونه .

وتذكر اسكالي الصراع الذي قام بين طائرة مارسيلينو والنار التي امسكت بها .

واستأنف جارسيا حديثه قائلاً : « هناك حروب عادلـة مثل الحـرب التي نخوضها الآن ، ولكن لا وجـود لجيوش عـادلة . واذا جـاء شخص مثقف ، شخص وظيفتـه التفكير مثـل ميجـويـل وقـال : « إنني أتـرككم لأنكم لستم عادلين » ـ فإنني أرى ان هذا عمل لاأخلاقي يا صديقي العزيز ! فثمة سياسة للعدالة ولكن ، لا وجود لحزب عادل . . » .

ـ « هذا هو الباب المفتوح لكل ضروب التكتلات . . . » .

ـ « كـل الأبواب مفتـوحة لمن يـريدون فتحهـا ، والصفـة التي تتسم بهـا الحياة كالصفـة التي يتسم بها العقـل ، والضمان الـوحيد لكي تتبـع حكومـة شعبية سياسة مستنيرة ليس هو نظرياتنا ، وإنما وجودنا هنا في هـذه اللحظة ، وأخلاق حكومتنا تتوقف على مجهودنا ، وعلى اصرارنا ، ولن يكـون العقل في اسبـانيا ضـرورة غامضـة تلزم عن شيء لا ندريـه ، بل سيكـون مـا نصنـع منه » .

وشب حريق جديد على مقربة منهما .

وقـال جارسيـا متهكماً : « يـا صديقي العـزيز ، إن تحـرير البـروليتاريـا سيكون على أيدي العمال أنفسهم » .

الفصل الثالث عشر

وقف رجال المطافىء فـوق سلالمهم بـلا حراك ، بـين المياه المنـدفعة من خراطيمهم ، وفندق سافوا المشتعل ، كالرماة حين يصوبـون على أهـدافهم ، وفجأة انتفضوا ، واهتزت خراطيمهم كما تغمز شصوص الصيادين . وتـوقف الحريق لحظة ، عقب ضجة أشبه بما يحدثه انفجار لغم : فقد انفجر طـوربيد جوي في المؤخرة .

وقال مرسيري في نفسه : « انهم يشعلون النيران بأسرع مما نخمدها » .

وكان يعتقد انه يستطيع أن يكـون نافعاً لأسبانيا بـوصفه مستشـاراً ، أو ربما بوصفه خبيراً في التحركات العسكرية ، ولكن منـذ أن تم الاستيلاء عـلى مصنع الصابون عاد مرة أخرى قائداً لفرقة المطافىء ، وفي هذا المنصب ، كان أنفع منه في أي عمل آخر ، كما لم يكن محبوباً قط مثلما كان محبـوباً فيـه ، ولم يلتق مـطلقاً بـالعدو في الجبهـة ، مثلما التقى بـه منـذ عشـرين سـاعـة . وكان يقول :

« النار منافقة ، ولكننا نستطيع بأسلوب فني أن . . . أليس كذلك ؟ » . ثم يفتل شاربه ، وكان ينظر من الرصيف المقابل ـ وهو يرتدي حلة المطافىء ـ الى كل مجموعـة من النيران كـأنها جماعـات من العدو تهم بـالهجوم . وأتـون النيران لا يكف عن الاشتعال ، وهـالات الكالسيـوم لا تنطفىء أبـداً ، ومع ذلك كانت تخرج من بعض أوكار الشمال التي خمدت تـماماً سحب كثيفـة من

الدخان الأبيض في خطوط متوازية تدفعها ريح الجبال (سييرا) ، لا يلبث الحريق أن يصبغها باللون الأحمر » .

ولم يبق سوى أربعة خراطيم لمكافحة حرائق ثلاثة ، بيد ان هذه الحرائق الأخيرة كانت على بعد أربعة امتار من المنزل المجاور .

وتوهج الحريق الناشب على اليسار مرة أخرى .

وكان من الممكن ايقاف الحريق الذي في أقصى اليمين ، في اخطر درجاته قبل أن يستفحل الحريق الناشب على اليسار ، وانتفضت الخراطيم مرة أخرى فوق مهادٍ من النيران المتجمدة ، وفجأة انفجر طوربيد ثانٍ ، وكان انفجاره الى الأمام هذه المرة .

وحاول مرسيري تمييز ضروب الضوضاء التي تصل الى سمعه ، وهناك ـ على الرغم من الظلام ـ طائرات فاشية كثيرة تحوم في الجو ، فلقد كانت حرائق مدريد علامات رائعة بالنسبة اليها ، وقد ألقيت قبل ذلك بعشر دقائق أربع قنابل حارقة ، كم سقطت قنابل ثقيلة على أحياء العمال واحياء الوسط وعلى مسافة ابعد كانت المدفعية الخفيفة تطلق نيرانها ، فيختلط صوت الطلقات بجلبة المعركة ، يغطيها احياناً زئير صفارات الانذار ، وصليل أجراس الأسعاف ، والانهيارات الناشئة عن الحريق تتخللها نافورات الشرر . غير أن مرسيري لم يسمع أصوات النفير التي تعلن وصول خراطيم التعزيز .

وانفجرت قنبلة ثالثة ، على طول الخط نفسه ، وحين يكافح مرسيري النيران لن تستطيع خمس عشرة قاذفة قنابل أن تزحزحه عن مكانه قيد شعرة .

واتسع حريق الوسط فجأة ، ولكنه عاد فانكمش على نفسه في الحال ، وناجى مرسيري نفسه قائلاً : « سأحترف المقامرة ، بعد انتهاء الحرب . . . » وكانت حرائق الشمال قد أوقفت عند حدها . حبذا الأمر لو وصل

التعزيز ! . . . وأحس مرسيري ببطولة نـابليونيـة ، فأخـذ يفتل شـاربه وهـو جذلان .

وفجـأة ، ترك رجـل المطافىء الـذي في اقصى اليمين خـرطومـه ، وظل لحـظة معلقاً بـالسلم من قدمـه ، ثم سقط في النار ، وهبط الآخـرون جميعـاً درجة درجة في صفوف متوازية .

وهرع مرسيـري الى أول شخص وضع قـدمه عـلى الأرض ، فقال هـذا الأخير :

ـ «إنهم يطلقون من فوقنا » .

واستدار مرسيري ولم يكن هناك منـزل قريب عـلى ارتفاع كـافٍ لاطلاق النيران من نوافذه ، ولكن من الممكن أن تصـوب عليهم النيران من مسافة بعيدة ، وكان رجـال المطافىء يبـدون كالأشبـاح ، ولا تخلو مدريـد من الفاشيين .

وقال أحد رجال المطافىء : « آه ! لو وقعت يدي على هذا النذل ! »

وقال آخر : « اعتقد انه على الأرجح مدفع رشاش » .

ـ « ماذا ؟ هل جننت ؟ » .

فقال مرسيري : « سنرى . . هيا ، تسلقوا السلالم مرة أخـرى . . فلقد تأججت النيران . . هيا ، من أجل الشعب ، وفي سبيل الحرية ! » .

وأضاف وهو يلتفت قبل أن يلمس السلم : « الحرية الخالدة ! » .

واتخذ مكان رجل المطافىء الذي سقط في الأتون المتأجج .

وتلفت وهو على قمة السلم : لقد توقف اطلاق الرصاص ولكنه لم ير مكاناً يمكن ان يصلح لاطلاق النار ، وليس من العسير أخفاء مدفع رشاش ، بيد أن الضجة قد انذرت الدوريات . وسدد خرطومه ، وكان الحريق الـذي

يكافحه أخطرها جميعاً ، انه عدو أكثر حياة من الانسان ، بل اكثر حيـاة من أي شيء آخـر في العـالم . وازاء هـذا العـدو الـذي يتحـرك بـآلاف الأذرع كالأخطبوط الهائج أحس مرسيري بأنه بطيء بطئاً غير عادي ، وكأنه معدن من المعادن ، ومع ذلك فسوف ينتصر على الحـريق ، ووراءه كانت تنهمـر سيول من الدخان الأحمر والأسود ، وعلى الرغم من ضـوضاء النـار سمع ثـلاثين أو أربعين شخصاً يسعلون في الشارع ، أما هـو فكان ينصهـر في حرارة مضيئـة باهرة وجافة . وانطفأ الحريق ، وما أن تبددت سحابـات دخانـه الأخيرة حتى أبصـر مرسيـري من ثقب قاتم مـدريد دون أنـوار لا تميزهـا سوى حـرائقهـا البعيدة التي أخذت تنفض عبـاءاتها الحمـراء في غضب على ظلمـة الأرض . لقد هجر كـل شيء حتى زوجته لكي يحيـا العالم حيـاة أفضل . وتخيـل نفسه وهو يوقف بحـركة منـه عربـات الأطفال المـزينة البيضـاء مثل كعكـة المناولـة الأولى ،وكـانت كـل قنبلة من القنـابـل التي يسمعهـا ، وكـل حـريق يـراه ـ يستحضر الى ذهنه تلك العـربات الصغيـرة ، وسدد خـرطومـه في عنايـة على الحريق التالي ، وفي هذه اللحظة مرت سيارة بـأقصى سرعتهـا ، وسقط رجل آخر من رجال المطافىء كأنما بفعل زوبعة ثائرة . وفي هذه المرة أدرك مرسيـري سـر الموضـوع : لقد كـانت أحدى طـائرات المـطاردة تطلق عليهم مـدفعهـا الرشاش .

انهما طائرتان لا طائرة واحدة .

ورآهما مرسيري وهما تعودان على ارتفـاع شديـد الانخفاض بصـورة غير عـادية ، عـلى بعد عشـرة امتار فـوق الحريق ، ولم تـطلقا النيـران : ذلك ان الـطيارين الـذين لا يستطيعـون رؤ ية رجـال المطافىء إلا حـين بصيبونهم من الخلف ، وكان مرسيري يحتفظ بمسدسه تحت بزته الرسميـة ، وانه ليعلم انـه عديم الجدوى ، وأنه لا يستطيع الوصول اليه ، ولكنه ا حس بحاجة جنونيـة الى اطـلاق الرصـاص ، وعادت الـطائرتـان من جديـد ، وسقط رجلان من رجـال المطافىء ، أحـدهمـا في النـار والآخـر عـلى الـرصيف ، وأفعمت نفس

مرسيري اشمئزازاً الى درجة انه اصبح هادئاً لأول مرة ، ونظر مرسيري الى الطائرتين تستديران متجحهتين نحوه تحت سماء مدريد المشبوبة . ولطمه الهواء المندفع عنهما قبل أن تعودا الى « الاتجاه الصحيح » : وهبط ثلاث درجات ، واستدار اليهما منتصباً فوق سلمه المستقيم ، وفي اللحظة التي انقضت عليه الطائرة الأولى كالقنبلة صوب خرطومه ؛ ورش جسم الطائرة في اهتياج ، ، وتهاوى على السلم ، وقد اخترقت جسده أربع رصاصات وسواء أكان حياً أم ميتاً فإنه لم يتخل عن الخرطوم الذي انحشر بين قضيبين . ولاذ المتفرجون تحت الأبواب فراراً من المدافع الرشاشة التي أصلتهم وابلاً من الرصاص . وأخيراً أنبسطت يدا مرسيري في بطء وارتطم جسده بالسلم مرتين ، ثم سقط في الشارع المهجور .

الفصل الرابع عشر

كان الضباط ينتظرون مانويل الذي استدعي الى التليفون في قاعة دار قديمة تغطي الخرائط جدرانها من طرف الى آخر .

قال أحد القواد : « لقد انتحر أحد الفلانج » .

فأجاب جارتنر : « بيد أن عضواً آخر قد وشى بالمنظمة كلها » .

ـ « ألا يدهشك ذلك ؟ لكي يعترف المرء بمثل هذا العمل ينبغي أن يكون باعثاً على التقزز ، ولكن ينبغي أن يكون شجاعاً أيضاً . . . » .

ـ « ما زلنا في حاجة الى معرفة الكثير عن الكائن الانساني يا صديقي العزيز ، ولقد رأيت الحالة التي وصلوا اليها ، وحين تصل الروح المعنوية الى أحط درجاتها ، يوجد دائماً شخص على استعداد للخيانة ، على حد تعبير الكولونيل » .

وسأل صوت آخر : « هل شاهدت الدبابات الألمانية ؟» .

وكانوا قد رأوا أطيافها فحسب تحت الأمطار .

ـ « لقد دخلت احداها ، وكانت مفتوحة استطاع احد رجالها الهرب ، أما الثاني فقد مات ، وكان ما زال في مكانه في الداخل ، وقد خرجت بطانة جيوبه ، هذا منظر لا أنساه ، مع المطر . . . »

وكان المطر يسيل على اللوح الزجاجي دون كلل .

ـ « هل جرده زملاؤه من نقوده ؟ » .

ـ « اعتقد انهم قاموا بتفتيشه حتى لا تقع أية وثيقة بين أيـدينا ، ولم يكن لديهم من الوقت ما يكفي اعادة البطانة الى داخل الجيوب » .

ـ « استطيع أن أفهم ذلـك : تجريـده من الـوثـائق . . هـذا معقـول ، فلعلهم في حاجة اليها ، أما إعادة البطانة بعد ذلك ، فهذا . . . » .

ـ « وهل تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم ؟ » .

ـ « ليس بعد ، على ماأظن » .

ـ « ماذا يقولون ، في القاعدة ؟ » .

ـ « الرفاق في منتهى الصلابة ، وخاصة رفـاق طليطلة ، وأولئـك الذين ولوا الأدبار عندما لم تكن لديهم اسلحـة أو رؤساء لا يغفـرون لأولئك الـذين هربوا مع أن لديهم كل شيء » .

ـ « أجـل ، لقد راودني هـذا الاحساس ايضـاً : انهم اشـد صـلابـة من الآخرين » .

ـ « ورجـال اليوم يـذكرونهم بـأولئك الـذين يحرصـون كل الحـرص على نسيانهم . . » .

ـ « أجل ، فقد هدموا شيئاً تجشموا كثيراً من العناء في تشييده ! » .

ـ « لقد حضروا من بعيد مثل الكثيـرين منا . . . ولكن ينبغي ألا ننسى أن قصـة الآخرين ـ أعني أولئـك الأنذال الـذين قتلوا الكابتن ـ لا تخفف من حدة شعور أحد » .

ووصل مانويل وقد تدلت شفتاه ، وتأبط غصناً آخر من الصنوبر .

وعلى الجدار كانت هناك علبة للفراشات معلقة بين الخرائط ، وانفجرت قنبلة على مقربة من الدار ، واتصل اطلاق القنابل من جديد . قنبلة ثـانية ،

وأفلتت فراشة ، فسقطت على قاعدة العلبة ، شاهرة دبوسها في الهواء .

قال مانويل : « ايها الرفاق . . . إن مدريد تحترق . . . »

وتحشرج صوته فلم يسمعه أحد ، وكان قد صرخ كثيراً طيلة النهار ، ولكنه لم يصل بعد الى درجة فقدان الصوت ، وأردف بصوت خفيض مخاطباً جارتنر الذي ردد كلامه بصوت أقوى :

ـ « الفاشيون يهاجمون على طول الخط الجنوبي الغربي . والفرقة العالمية صامدة ، وهم يلقون الآن قنابلهم من الطائرات والمدافع على السواء » .

وسأل صوت : « وهل نجحوا في ذلك الهجوم ؟ » .

ورفع مانويل غصن الصنوبر وكأنه يريد أن يقول : إنه فيما يتعلق بمدريد لم يعد ثمة شك .

واستأنف حديثه قائلاً : « سيتم تنفيذ أحكام الأعدام ، فهم يرسلون الينا عدداً من رجال الحرس المدني » .

وردد جارتنر ما يقوله مانويل ، غير ان مانويل لم يعد يستطيع الآن الكلام على الاطلاق .

وتوالت انفجارات القنابل دون ان يكترث لها احد ، وعند كل انفجار قريب كانت تسقط من العلبة فراشة أو فراشتان .

وكتب مانويل عبارة على هامش إحدى خرائط أركان الحرب المبسوطة على المائدة .

ونظر اليه جارتنر ثم نظر الى رفاقه واحداً إثر واحد ، وفجأة ابتلع ريقه بفمه الصغير المغروس في وجهه المنبسط ، ثم قال أخيراً باللهجة التي نعلن بها الانتصار أو الهزيمة أو السلام :

« يا رفاق ، لقد وصلت الطائرات الروسية » .

الفصل الخامس عشر

كان العدو يـرتد الى شقـوبية ، ولم يكن لـدى انصار الحكـومة مـا يكفي تعقبه سوى عدد قليل جداً من الرجال المسلحين تسليحاً حقيقياً ، كما انهم لم يكونوا يريدون تجـريد مـدريد من قـواتها الـدفاعيـة ، اما اللواء الـذي يقوده مانويل ، والقوات التي أُضيفت اليـه ـ فكان يقضي فتـرة من الراحـة ؛ ولهذا رحل منقسماً الى سرايا للتدريب .

وكان المطر قـد انقطع ، بيـد أن السحب التي تهلل نسيجها في الصبـاح كـانت تمر منخفضـة أشد الانخفـاض فوق المنـازل القشتاليـة التي اصـطبغت أحجارها وقرميدها بلون رمادي واحد ، ووقف مانويل فوق درجات سلم دار الحكومة يراقب وصول رجاله الذين كان عنهم مسؤولاً .

وفي مواجهته قـام قصر هـائل ، تهـدم اكثر من نصفـه مثل اشبـاهه من القصـور في كل قـريـة من تلك القـرى ، ولكنـه مشيـد فـوق صخـور هشـة اختلطت اجزاؤها المتكسـرة بما تـداعى من انقاضـه ؛ وعلى اليمـين تصاعـد شارع اقبلت منه القوات التي كان عليهـا أن تصطف في الميـدان الذي يفصـل بين دار الحكومة واطلال القصر ، ولم يكن مانويل قـد رأى جنوده مـرة أخرى منذ تنفيذ احكام الاعدام في الليلة البارحة .

وصلت السرية الأولى الى مستوى قامته ، وأحذية الجنود الثقيلة تضـرب بلاط الشارع المدبب في ايقاع منتظم ، وفي تشكيل يكـاد يصل في كفـايته الى مستوى تشكيلات الجيش النظامي ، وحين اجتازت درجات السلم التي يقف عليه مانويل أمرهم القائد :

« إلى اليسار ، التفات الى اليسار ! » .

فاستدارت الرؤوس جميعاً دفعة واحدة صوب مانويل ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصدر فيها ذلك الأمر في اللواء ، بل انها المرة الأولى بلا شك التي يصدر فيها على طول جبهة مدريد . وكانت هذه التحية التي يرتبط بها جميع المتطوعين بقائدهم قد اصدرها القواد الثوريون ، وأحس مانويل انها مرتبطة بالأحداث التي وقعت في اثناء الليل .

وعندما وصلت السرية الثانية فعلت مثلما فعلت السرية الأولى ، وكذلك فعلت بقية السرايا ، وأخذ مانويل يراقب هؤلاء الرجال جميعاً وهم يسيرون أمامه في تشكيل القتال . وفي قوة لا تقل عن قوة أعدائهم ، وأحس انه مسؤول عن الدفاع عنهم ضد كل شيء ، وضد انفسهم ما داموا يدافعون عن الشعب الأسباني ، ولكنه لم يستطع أن ينسى الوجوه المتقلبة الملطخة بالوحل ، أو العبارة التي قيلت له : « إذن ، فلم يعد لديك صوت يدافع عنا ! » ومع ذلك لم تكن تلك النظرات التي تلتقي بنظراته في كل منعطف لامبالية ، أو غامضة ، بل كانت مفعمة باخاء مأساوي . . مفعمة بذلك الليل .

وكان القصر شبيهاً بالقصر الذي أصغى عنده مانويل الى اكسيمينيس على جبهة نهر تاجة ، هناك حيث بدأ حديثه بقوله : « لا تحاول أن تغرر أبداً . . . » أما الآن فالأمر يتعلق بأكثر من مجرد التغرير : فلقد كان عليه أن يقتل ، لا أعداءه ، بل يقتل رجالاً متطوعين ، وذلك لأنه كان مسؤولاً عن حياة كل رجل من الرجال الذين مروا الآن أمامه . . وكل مسؤول يدفع بنفس العملة التي هو مسؤول عنها . . وكانت العملة التي عليه ان يتعامل بها من الآن فصاعداً هي أرواح رجاله !

وفي حزن وصلابة أخذا يتزايدان شيئاً فشيئاً ، ومضت نظرات مانويل تتقاطع مع نظرات رجاله بعضها إثر بعض . . . تلك النظرات التي تواطأت معه على توقيع حلف الدم . .

الفصل السادس عشر

وما أن مر اللواء ، حتى وجد مانويل نفسه وحيداً في الميدان الخالي بلا نظرات ، مع بعض الكلاب الضالة ، وطلقات مدفع بعيد ، اما جارتنر فكان مع الفرقة ، ولم يشعر مانويل قط بمثل هذه الوحدة التي شعر بها الآن .

أمامه من الوقت ساعات ثلاث ، ووجّه القصر مرة أخرى صوب اكسيمينيس الذي كان على بعد عشرة أمتار ، يختلس شيئاً من الراحة هو أيضاً ، وطلبه مانويل بالتليفون ، وكانت البطة العجوز موجودة ، فألقى مانويل بتعليماته ، ثم استقل سيارته .

وكانت القرية التي رابطت فيها فرقة اكسيمينيس قائمة في مؤخرة القرية التي أتى منها مانويل ، وما زال الفلاحون المهاجرون يمرون ، فوصل مانويل الى مركز قيادة الكولونيل عبر صفوف من الحمير والعربات ، واكداس من الأغنام من كل جنس ولون .

وخرج الاثنان معاً ، فضاعفت الرطوبة من صمم اكسيمينيس ، وكان العدو يطلق نيرانه على مسافة بعيدة نوعاً ما الى اليمين ،كما كان مدفع مدريد مسموعاً ، ومن خلال فجوات سلسلة الجبال ظهر وادي شقوبية .

قال مانويل : « اعتقد انني عشت أمس أهم يوم في حياتي » .

ـ « ولماذا يا بني ؟ » .

فقص عليه مانويل ما حدث ، ثم سارا صامتين : وكان التغيير الذي طرأ على سمت مانويل ، وشعره المتهدل ، ولهجة السلطة التي يتحدث بها . . كل ذلك قد أثار دهشة اكسيمينيس للوهلة الأولى ، اذ لم يتبق من الشباب الذي عرفه فيما مضى ، سوى غصن الصنوبر المبتل الذي يمسك به مانويل في يده .

شاع بين الناس ان حرائق هائلة قد شبت في الطريق الى الاسكوريال ، وعلى سفوح سلسلة الجبال جثمت سحابات قاتمة أشد القتامة ، وهناك على مسافة أبعد صوب شقوبية ـ كانت ثمة قرية تحترق . وشاهد مانويل بنظارته المقربة الفلاحين والحمير وهم يركضون .

ـ « لقد اهتديت الى ما ينبغي أن أفعله ، وقد فعلته . واستقر عزمي على أن أخدم حزبي ، دون أن تعوقني ردود الفعل النفسية، وأنا لست ممن يتركون أنفسهم نهباً للندم ، فالمسألة تتعلق بشيء آخر . وقد قلت لي ذات يوم : ثمة نبالة أكبر في ان يكون المرء زعيماً من ان يكون مجرد فرد عادي ، اما الموسيقى فلا داعي للحديث ، ضاجعت في الأسبوع الماضي امرأة احببتها عدة سنوات دون طائل ، ومع ذلك فقد احسست انني اريد الابتعاد عنها . . . ولست بنادم على شيء من هذا كله . ولكن اذا هجرتها فذلك من أجل شيء ما ، ولا يستطيع المرء أن يأمر إلا ليخدم ، وإلا . . وأنا مسؤول عن احكام الاعدام تلك ، فقد نفذت لانقاذ الآخرين . لانقاذ « رجالنا » . ولكن اسمع : « ما من درجة ارتقيتها متجهاً صوب كفاية اعظم أو قيادة أفضل إلا زادتني بعداً عن الناس ! وفي كل يوم تقل انسانيتي شيئاً ما ، وليس من شك انك قد واجهت اخيراً نفس هذه . . » .

ـ « لا أستطيع أن أقول لك إلا أشياء لا تقدر على فهمها يا بني ، فأنت تريد أن تتصرف دون ان تفقد شيئاً من الاخاء ، وأظن أن الانسان اصغر من ان يحقق هذه الغاية» .

وكـان يفكر في أن ذلـك الاخاء لا يمكن أن يـوجد إلا عن طـريق السيد المسيح ؛ « ومع ذلك يبدو لي ان الانسان يستطيـع ان يدافـع دائماً عن نفسـه أفضـل مما يبـدو عليـه ، وإن كـل مـا ينأى بـك عن النـاس يـدنيـك من حزبك . . . » .

وكانت هذه الفكرة قد خطرت لمانويل ايضاً مشوبـة بشيء من الخوف في بعض الاحيان .

- « الاقتـراب من الحزب لا قيمـة له إذا انعـزل المرء عن أولئـك الـذين يعمل الحزب من أجلهم ، وأياً كان المجهود الذي يبذله له الحزب فربما لم تحي تلك الرابطة التي تتحدث عنها إلا على المجهود الذي يبذله كل منا .

« لقـد قال لي احـد الرجلين اللذين صدر عليهـما حكم الاعدام: « ألم يعد لديك صوت تدافع به الآن عنا ؟ » .

ولم يصرح بأنه فقد صوته حقاً في تلك اللحظة، ووضع اكسيمينيس ذراعه تحت ذراع مانويل ، كان كل ما يصدر عن الناس الـذين يعيشون في الـوادي يبدو من ذلك العلو الشاهق تافهاً غاية التفاهة اللهم إلا تلك الأستار البـطيئة من النار التي تتصاعد الى السماء حيث تتهادى على مهل السحب التي لا شكل لهـا وكأنمـا لا يعدو البشـر أن يكونـوا في نظر الآلهـة - المادة التي منهـا تشتعـل الحرائق .

- « آه ! ماذا تريد إذن يا بني ؟ أن تحكم بالاعدام بضمير هادىء ؟ » .

ونظر اليه بوجه ينم عن العطف ، ويزخر بألف تجربة متناقضة . بل ربما بألف تجربة مريرة ، وقال :

- « وحتى هذا ستعتاده . . . ! » .

ومثلما يختار المريض مريضاً آخـر ليتحدث اليـه عن الموت طفق مـانويـل يتحدث عن المأساة الأخلاقية الى رجل كانت تلك المأسـاة بالنسبـة اليه شيئـاً

مألوفاً ، وكانت تغريه بهذا الحديث الانسانية التي تتسم بها إجاباته اكثر مما تغريه معانيها . ولم يكن مانويل يضع أساس قراره ـ بوصفه شيوعياً ـ موضع التساؤ ل ، كما لم يكن يتشكك فيما يفعل ، بل ان كل سؤال من هذا النوع ينبغي أن يحل في نظرة،إما عن طريق تعديل أفعاله ، (ولم يكن ثمة ما يبرر تغييره لها) أو برفض التساؤ ل نفسه ، بيد انه من طبيعة الأسئلة التي لا حل لها انها تبلى بكثرة ما يتردد حولها من الكلام .

قال اكسيمينيس : « والصراع الحقيقي يبدأ حين ينبغي لنا أن نحارب جزءاً من أنفسنا . . فالأمر يكون حتى هذه اللحظة ، يسيراً كل اليسر . بيد ان المرء لا يصبح إنساناً إلا اذا واجه هذه الصراعات . ولا بد من مواجهة العالم في ذاته ، سواء أردنا ذلك أم لم نرد . . . » .

ـ « لقد قلت لي يوماً : إن واجب الزعيم الأول هو ان يكون محبوباً دون ان يحاول الاغراء من جانبه . . أن يُحَبَّ المرء دون اغراء . . . حتى ولو كان ذلك الاغراء موجهاً لنفسه . . . » .

ومن خلال فجوة هائلة في الصخور ، ظهرت سفوح سلسلة الجبال الأخرى ، وفوق مدريد التي لا تكاد تبين في ذلك الامتداد الرمادي ـ كانت سحابات ضخمة داكنة من الدخان تعلو في ابطاء. ومانويل يدرك ما تعنيه هذه السحب : فالمدينة تحتجب خلف الحريق ، كما تختفي السفن الحربية وراء الستائر التي تسدلها من دخان القتال . وكانت اعمدة الدخان ترتفع من أفران عدة لا يظهر منها أقل توهج ، فلا تلبث أن تتحلل حين تصل الى منتصف السماء الكابية ، وكأن السحب جميعاً تنشأ عن ذلك الحريق الذي ينشر دخانه في اتجاه مسيرتهم ، وملأت السماء الواقعة الآلام التي تراكمت فوق الخط الأبيض الدقيق الذي يمثل مدريد الرابضة بين الغابات ، وأحس مانويل أنه حتى ذكرى تلك الليلة قد حملها الريح البطيء الثقيل الذي حمل رائحة افران كواترو كامينوس (الطرق الأربع) .

ووصل ضابط من ضباط اكسيمينيس مستقلاً سيارة :

ـ « مركز القيادة العليا يطلب اللفتنانت ـ كولونيل مانويل بالتليفون » .

وعادا مسرعين ، وقد استولى قلق غامض على مانويل ، واتصل بالقيادة العليا . . .

ـ « آلو ! هل طلبتموني ؟ » .

ـ « القائد الأعلى يهنئك على الطريقة التي عالجت بها الموقف أمس » .

ـ « تحت أمرك » .

ـ « انت تعلم ان بعض الفارين من رجال الميليشيا القدامى يتقدمون بطلبات الالتحاق من جديد » .

ـ « وقد قرر القائد الأعلى تكوين فرقةمن هذهالعناصر ، ومعاملة هؤلاء الناس اصعب من معاملة أي عناصر اخرى تحت تصرفنا » .

ـ « . . . . » .

ـ « ويعتقد رئيس أركان الحرب انك تتمتع بالصفات المطلوبة لقيادة هذه الفرقة » .

ـ « آه ! » .

ـ « وحزبك يرى هذا الرأي أيضاً » .

ـ « . . . . . » .

ـ « كما انه رأي الجنرال مياجا أيضاً ، وستتولى قيادة هذه الفرقةفوراً » .

ـ « ولكن ماذا عن اللواء الذي أقوده ؟ لوائي ! . . » .

ـ « سيضم الى فرقة أخرى » .

- « ولكنني أعرف رجاله فرداً فرداً ! من ذا الذي يستطيع . . . » .

- « الجنرال مياجا يعتقد انك صالح لقيادة الفرقة الجديدة . . . »

وعندما ترك التليفون وجد هينريش في انتظاره ، وكان رجال الفرقة العالمية يدبرون هجوماً مضاداً على شقوبية ، وهينريش يريد الصعود صوب وادي الرمل ، وهكذا رحلا معاً .

ونزلت السيارة على سفوح الجبال . وشعر مانويل بأنه يعرف هينريش ، لأنه يعرف طبيعته بوصفه قائداً ، ولكنه كلما مضى في تلخيص ما حدث نهار أول امس ، ومحادثته مع اكسيمينيس - بدا له أن الصلة الانسانية الوحيدة التي يمكن ان تقوم بينه وبين الجنرال هي تلك الرابطة الغريبة التي تنشأ دائماً بين المترجم وما يترجم عنه .

ومال هينريش برأسه الى الأمام ، وكان قذاله الحليق ناعم الملمس ، وامارة من التفكير تضفي على وجهه العجوز الأجرد تعبيراً صبيانياً .

- « نحن على وشك تغيير مصير الحرب . ألا تعتقد ان الانسان لا يستطيع تغيير الأشياء إلا اذا غير نفسه ؟ في اليوم الذي تقبل فيه القيادة في جيش للبروليتاريا تفقد كل حق لك على نفسك » .

- « وماذا عن الكونياك ؟ » .

وكان مانويل قد أبصر هينريش يقوم بتوزيع زجاجات الكونياك على جميع السكارى في فرقته ، وقد الصق محل البطاقة الأصلية بطاقة أخرى تحمل هذه العبارة : « هدية من الجنرال هينريش تشرب خارج العمل ولا تشرب في اثناء العمل » .

- « تستطيع الاحتفاظ بقلبك ، هذا شيء آخر ، أما روحك فيجب عليك أن تفقدها . وهأنتذا قد فقدت شعرك الطويل فعلاً ، وجرس صوتك » .

تكاد ألفاظه تكون مماثلة لألفاظ اكسيمينيس ، اما لهجته فكانت تلك اللهجة الصارمة التي تميز بها هينريش ، وكانت عيناه الزرقاوان الخاليتان من الرموش ثابتتين مثلما كانتا في طليطلة .

ـ «ماذا تعني ـ وأنت ماركسي ـ بفقدان الروح ؟» .

ولم يعد جو الألفة قائماً بينهما كما كان من قبل .

ونظر هينريش الى اشجار الصنوبر التي يلاحق بعضها بعضاً في ذلك النهار الحزين ، ثم قال :

ـ « ثمة خسائر في كل انتصار . . . لا في ميدان القتال وحده .

وضغط بيده على ذراع مانويل ضغطاً شديداً ، وقال بلهجة لم يعرف مانويل هل كانت صادرة عن مرارة التجربة أوعن قوة العزيمة ؟

ـ « والآن، ينبغي عليك ألا تشعر بالشفقة « أبداً » على شخص ضائع ! »

الفصل السابع عشر

مدريد ، في الثاني من ديسمبر :

رقد اثنان من القتلى امام النافذة ، أما الجريح فقد سحب من قـدميه الى الخلف . وكان خمسة من الجنود يحرسون السلم ، وقنابلهم اليدوية على مقربة منهم ، وفي الـطابق الرابـع من منزل وردي الـطلاء رابط ثلاثـون من رجـال الفرقة العالمية .

ومكبـر ضخم للصوت من تلك المكبـرات التي تحملهـا سيـارات النقـل الجمهورية من أجل الدعاية يصيـح في ذلك الأصيـل الشتوي الـذي مال الى المغيب قائلاً :

ـ « ايها الرفاق أيها الرفاق ، احتفظوا بمراكـزكم جميعاً ، ولن يحـل المساء حتى تكون ذخيرة الفـاشيين قـد نفذت ، فقـد تمكن طابـور أوريباري من أن ينسف هذا الصباح اثنين وثلاثين عربة محملة بالذخيرة . . .

« ايها الرفاق ، أيها الرفاق ، حافظوا . . . »

ومكبـر الصوت لا ينتـظر إجابـة ، ولهذا كـان يردد تلك العبـارات دون انقطاع . . ستنفذ ذخيرة الفاشيين ، ولكنهم يملكون ذخيرة في هذه اللحظة ، وقد شنوا هجوماً مضـاداً ، وها هم أولاء يحتلون الـطابق الأول والثاني ، أمـا الطابق الثالث فمحايد ، ورجال الفرقة العالمية يحتلون الرابع .

وصاح صوت بالفرنسية صاعد من المدخنة : « يأيها الأقذار ، سترون : هل لدينا ذخيرة كافية لقتلكم أو لا ؟ » .

وكان الصوت لأحد الجنود « الترثيو » اتخذ من أسفل المدخنة بوقاً لتكبير صوته .

وأجاب مارنجو « يأيها الأوغاد المأجورون بعشرة فرنكات في اليوم الواحد ! » .

وكان قد ألقى بنفسه على اطرافه الأربعة ، فقد كانت الرصاصات تصل الى ارتفاع الرأس ! حتى في آخر الشقة . وكان يؤمن من قبل بكل ما يشاع عن الفرقة من قصص رومانتيكية . . رجال متمردون ، أشداء المراس ، وتحته كانت ترابط الفرقة الاسبانية ، وقد جاءت للدفاع عن شيء لا تعلمه ، منتشية بغرور المحاربين . وفي الشهر الماضي اشترك مارنجو في هجوم بالسونكي على ارض المنتزه الغربي ، فما كان ثمن رجل الترثيو حين ذاك ؟ إن هذه العصابة المتعطشة الى الدماء التي تأتمر بأوامر سادة مجهولين تبعث الرعب في نفسه . ومع أن رجال الفرقة العالمية مأجورون هم أيضاً فإن أبغض شيء الى نفوسهم كان رجال الفرقة الأخرى .

وكانت مدافع الجمهوريين من عيار ١٥٥ تقصف بانتظام ما تبقى من المستشفى .

وكانت الشقة التي يبحث فيها مارنجو وزملاءه عن « زوايا لاطلاق النار » ، وسط الضوضاء البللورية الصادرة عن الزجاج المكسور ـ شقة طبيب اسنان ، وثمة باب فيها مغلق بالمفتاح ، وكان مارنجو ربعة القوام بحيث يبدو بديناً ـ وله حاجبان سوداوان كثيفان فوق أنف صغير في وجه يذكر المرء بصور الأطفال في اعلانات الألبان الصناعية . وحين حطموا الباب ظهرت غرفة العيادة ، وقد تمدد مغربي بلا مبالاة فوق مقعد العمليات صريعاً ، وكان الجمهوريون هم الذين يحتلون أمس الطوابق السفلى من المنزل ، وهذه

النافذة أوسع من النوافذ الأخرى وأقل ارتفاعاً ، ولم يكن رصاص العدو وقد هشم أدوات الطبيب الزجاجية الا على بعد ثلاثة أمتار من الأرض . . . . ومن هنا يمكن المرء أن يرى ، وأن يطلق النار .

ولم يكن مارنجو ضابطاً نظامياً ، بل انه لم يؤد بعد الخدمة العسكرية ، ولكنه لم يكن بلا نفوذ في سريته ، فالجميع يعرفون انه كان سكرتير لمصنع من اكبر مصانع الأسلحة . وكان الأيطاليون قد طلبوا من ذلك المصنع الفين من المدافع الرشاشة مخصصة لفرانكو، غير ان مدير المصنع كان من المهووسين بالأسلحة ، ومن ثم فإنه لم يكن يسمح بشحن المدافع في الصناديق « بحجة انها لم تكن صالحة تماماً » . وفي كل ليلة بعد انتهاء العمل كان جناح من المصنع يظل مضيئاً فوق المدينة والمدير العجوز المتحمس يقوم وحده بتعديل وضع مشبك فوق آلة دقيقة في ورشة مضاءة مصلحاً من الجزء الحاسم الذي يجعل من المدافع الرشاشة مدافع بالمعنى الصحيح للكلمة. وفي الساعة الرابعة صباحاً كان العمال الثوار يأتون لإفساد ذلك الجزء الذي كلف المدير كل ذلك العناء بضربات من سلاح حاد تنفيذاً لتعليمات مارنجو .

وظلت هذه المعركة الصابرة بين الحرص على الاتقان الفني من جهة ، والتضامن بين العمال الثوار من جهة أخرى (لم يكن مدير مارنجو فاشياً ، وإن كان أولاده فاشيين) ظلت سجالاً في مصنع الأسلحة فترة تربو على أربعين ليلة ، ولقد أدرك رجال الفرقة الآن ـ ويحق لهم أن يدركوا ـ أن هذا العمل لم يكن بلا طائل .

واستقر رفاق مارنجو في مكان فوق مستوى رصاص الأعداء .

وكان ذلك المنزل الذي دار فيه القتال منذ عشرة أيام يتداوله الهجوم تارة والحصار تارة أخرى ، ولم يكن مما يمكن النيل منه إلا عن طريق السلم الذي تعاقب على حراسته خمسة من رجال الفرقة العالمية ، يحملون قنابلهم اليدوية ، ولم تكن زاوية الرؤية تسمح بوضع مدفع ثقيل ، ولكن ما دام

رجـال « الترثيـو » في الطوابق السفـلى فإن المنـزل لن ينسَف حتى ولو وضعت تحته الألغام .

وما برحت مدافع الجمهوريين عيار ١٥٥ تطلق نيرانها دائماً ، والشـارع يخلو من المارة ، والسباب متبادلاً بين عشـرة منازل من خـلال المداخن . وفي بعض الأحيـان كـان هـذا الجـانب أو ذاك يشن هجـومـاً يحـاول بـه احتـلال الشـارع ، ولكنـه يبـوء بـالفشـل ، ثم لا يلبث أن يتـراجـع ، أمـا رجـال الاستطلاع الذين لم يعد الموت نفسه قادراً عـلى تخليصهم من الضجر فكـانوا ينتظرون في بلادة وراء النوافذ . ولو حاول صحافي تعس القاء نـظرة على مـا يـدور في ذلك المكـان لاستقـرت اذن عـلى الفـور رصـاصـة من النحـاس في جسده !

ووراء كـل نافـذة بنـدقيـة أو مـدفـع رشـاش ، ومكبـر الصـوت يـطغي بصيحاته المتحشرجة على شتائم المداخن . . . والشارع مهجور الى الأبد .

ولكن على اليمين ، يقوم المستشفى ، وهو أفضل موقع فاشي عـلى طول جبهة مدريد ، فقد كـان ناطحـة السحاب المتينـة ، تحيط به الخضـرة من كل جانب ويشرف عـلى حي الفيللات كله ، وكان زمـلاء مارنجـو الذين احتلوا الطابق الرابع يرون الجمهوريين في كل شارع مجاور ، وقد سـاروا على أربـع في الـوحل ، ولكنهم لم يكـونـوا يلمحـون المستشفى الـذي شعـروا بـوجـوده تخميناً ـ من ارتفاعه الشاهق الذي لا يستطيع أي جسم حي أن يتجاوزه .

وكان المستشفى الذي يـطلق مدافعـه الرشـاشة جميعـاً دون انقطاع يبـدو مهجوراً ، كالمنازل المجاورة له في الشارع . ناطحة سحـاب متجهمة قـاتلة ، كأنها ظلل من برج بابل ، تحلم كالثور وسط القذائف التي تصفعها بما يتطاير من انقاض .

ووجـد أحد رجـال الفرقـة العالميـة نظارة مسـرح بعد ان فتش في جميـع الـدواليب . وانفجرت قنـابل داخـل السلم ، فـذهب مـارنجـو الى الـرحبـة

(البسطة) .

قال أحد رجال الحرس من الفرقة العالمية وسط ضجيج القنابل « ليس هذا شيئاً . » وكان رجل من « الترثيو » قد حاول الصعود مرة أخرى .

وتناول مارنجو النظارات المقربة ، وكان المستشفى يتغير لونه حين يراه المرء عن كثب فيتحول الى اللون الأحمر ، ويحتفظ بشكله المحدد إلا بالنسبة لكتلته فحسب : واضفت عليه نوافذه التي ظهرت الآن للأعين منظر خلية هجهرها النحل . ومع هذا كله كان الناس يزحفون على الأرصفة التي غمرتها الأمطار وعلى قضبان الترام التي علاها الصدأ بعيداً عن تلك القلعة التي أضحت حطاماً .

وزمجر مارنجو مطوحاً بذراعيه البدينتين في الهواء : « يا إلهي ! لقد حدث . . . لقد حدث . . إن رجالنا يهاجمون ! » .

وتلاصق الجميع الوحد بالآخر متزاحمين في الرقعة الضيقة القائمة بين المغربي المقتول فوق مقعد طبيب الأسنان وبين النافذة . وانبثق من الأرض رجال الديناميت ورماة القنابل اليدوية كالبقع السوداء حول المستشفى ، ورفعوا أذرعهم ، ثم غاصوا في الوحل مرة أخرى ، وعادوا الى الظهور هناك حيث كان الديناميت والقنابل اليدوية تبدو منذ خمس دقائق مضت كالمسبحة الحمراء .

وركض مارنجو الى المدخنة، وصاح في وجه « الترثيو » :

« أنظروا قليلاً الى ما يجري في المستشفى ، أيها الحمقى ! » .

ثم عاد ركضاً الى مكانه . وكان رجال الديناميت قريبين غاية القرب ومن الخلية المحطمة انقضت على صفوف الفاشيين اسراب من الحشرات تتبعها مدافعها الرشاشة .

ولم ترد المدخنة . ووضع رجل تشيكي بندقيته الى كتفه ، ثم مال أكثر

من الآخـرين وأخذ يـطلق النار ويـطلق ، ويـطلق . ومن المنـازل الأخـرى القائمة على الرصيف المقابل حيث حوصر رجال الفرقة العالمية اطلقوا نيرانهم أيضـاً ، وحين تمكنـوا من هدم الجـدار هـرب رجـال « الـترثيـو » من المنـزل الوردي ، فلقد وضعت تحته الألغام ، ولن يلبث أن ينفجر .

تقدم النجاشي صوب اللغم المضاد ، وكـان قد فقـد إيمانـه بالثـورة منذ شهـر مضى . لقد انتهت الـرؤ يـا ، ولم يبق غـير الصـراع ضـد الفـاشيـة ، واحترامه للمدافعين عن مدريد . والحكـومة تضم اعضـاء من الفوضـويين ، ومن هؤلاء في برشلونة من يدافع باستماتة عن المذهب ومراكز السلطة ، أمـا دوروتي فقد مات ، غير ان النجاشي قد عاش ردحاً طويلاً على النضـال ضد البورجوازية ، وها هو ذا الآن يحيا بلا عناء من نضاله ضـد الفاشيـة والواقـع ان عواطفه كانت سلبية دائماً ، ومع ذلك لم يعد أسلوبه ذاك مجدياً ، وكان قد استمع الى رجاله وهم يذيعون نداءهم مطالبين بالنظام ، وأحس بالحسد نحو الشيوعيين الشبان الذين تحدثوا بعدهم ، والذين لم تنقلب حيـاتهم رأساً عـلى عقب في ستة أشهر . انه يحارب هنا مع جونثالث ذلك العملاق البدين الذي هاجم معه بيب الـدبابات الايطالية أمام طليطلة . وكان جونثالث من الاتحاد القـومي للعمال ، بيـد ان هذا كله لم يكن يعني النجـاشي في شيء . ينبغي أولاً سحق الفاشيين ، ولتأت المناقشة بعد ذلك وكان يقول : « إن الشيوعيين يعملون جيداً ، أتفهمون ؟ واستطيع أن أعمل معهم ، أما أن أحبهم فـلا ، وقد بذلت أقصى ما في وسعي لكي أحبهم ولكن دون جدوى . . . »

وكـان جونثـالث عامـلاً في مناجم الآشتـوريش ، والنجاشي عـاملاً من عمال النقل في برشلونة .

وكـان النجاشي قـد انضم منـذ معـركـة قـاذفـات اللهب التي دارت في « القصـر » الى جنود الألغـام ، الى ذلـك القتـال تحت الأرض الـذي يحبـه ، والـذي يعرف كـل من يخوضـه ان الموت كـان عليه مقضيـاً ، والـذي يحتفظ بطابع فردي رومانسي . وعنـدما لا يستـطيع النجـاشي التخلص من مشاكله

يلجأ دائماً الى العنف أو الى التضحية أو الى الأثنين معاً ، وهذا أفضل .

وتقدم بجسمه النحيل ، يتبعه جونثالث صوب لغم مضاد ينتهي عند مسافة أبعد قليلاً من المنزل الوردي . واشتد رنين الأرض شيئاً فشيئاً ، وهذا يعني أن لغم الأعداء بات قريباً جداً (ولكنه لم يسمع طرقاً) ، أوربما؟ . . .

وأستعد لالقاء قنبلة يدوية .

وغاصت ضربة الفأس الأخيرة في الفراغ ، وتدحرج الرجل المُجِدْ ، يحمله حماسه داخل فجوة عظيمة تحت الأرض ، وتحسس النجاشي المكان ببطاريته الكهربية كما يتحسس الأعمى بيده ، فأبصر أمامه جراراً ضخمة في ارتفاع قامة الرجل . . انه قبو . وأطفأ النجاشي مصباحه ، ثم قفز ، اذ رأى في مواجهته بطارية أخرى تتحسس الطريق مثله ، ولم يكن الذي يمسك بها قد أبصر مصباح النجاشي ، فأطفأ مصباحه أولاً ، انه فاشي ، فهل يطلق عليه النار ؟ ولم يكن النجاشي يرى الرجل ، والمنزل الوردي فوقهما تقريباً . وجونثالث ما زال يعمل في اللغم ، والقى النجاشي قنبلته اليدوية .

وعندما تبدد الدخان الذي أخذ يدور حول نفسه في ضوء مصباح جونثالث كان اثنان من الفاشيين قد غاصا حتى عنقيهما في بحيرة لزجة من الزيت أو النبيذ تطفو على سطحهما شظايا من تلك الجرار الضخمة ، ثم أخذت هذه البحيرة تعلو وتعلو في ضوء البطارية الثابت حتى وصلت الى مناكبهما ، الى ثغريهما ، وأخيراً إلى عيونهما .

وانتهى الهجوم المضاد الذي شنه الجمهوريون : وفك الحصار عن مارنجو وزملائه ، وعاد جونثالث ورجاله الى مركز الفرقة ، وكان لا بد من أن يجتازوا جزءاً من مدريد للوصول اليه .

واعتادت المدينة الغارات ، فما أن يسمع المارة صوت قنبلة حتى يختفوا وراء باب ، ثم يعاودوا السير ، وهنا وهناك كانت أعمدة الدخان التي تتلوى بتأثير ريح هينة تضفي على المأساة هدوءاً قريباً من الهدوء الذي تضفيه

المداخن على القرى ساعة العشاء . وسقط صريع بعرض الشارع ، وقد تأبط حقيبة من حقائب المحامين ، لم يجرؤ أحد على لمسها . . وكانت المقاهي مفتوحة ، ومن مداخل المترو تخرج افواج من الناس كأنما تخرج من بيت مشبوه ، وأفواج أخرى تحمل حشايا ومناشف وعربات أطفال ، وعربات أخرى تكدست فوقها آنية المطبخ ، وموائد ولوحات وأطفالاً يحتضنون ثيراناً من الورق المقوى . وثمة فلاح يحاول أن يدفع حماراً عنيداً ، وكان الفاشيون يغيرون يومياً ، منذ ٢١ ديسمبر ، وحول اطراف شلمنقة كانت تدور مفاوضات عجيبة لاستغلال الموقف . . . وأحياناً كانت الانقاض تتحرك ، وتظهر يد ، وقد تشنجت أصابعها تشنجاً غريباً ، بيد ان الأطفال كانوا يلعبون بطائرة المطاردة على مقربة من المناطق المضروبة ، وسط وجوه الفارين التي استبد بها الذعر ، وكانت النسوة يعدن الى مدريد ملفوفات في الملاءات والحشايا كنساء الحكايات العربية . وقال سائق ترام انضم الى الجنود العائدين الى ثكناتهم ، قال لجونثالث :

ـ « أما انها حياة فهي حياة ، **أتفهمني ؟** ولكن اذا أخذتها على انها مهنة فهي ليست مهنة ، فأنت تبدأ وتقوم بدورتك ، وتصل الى نهاية المطاف مع نصف الزبائن ، على حين يكون النصف الآخر قد لقى مصرعه في اثناء الطريق ، ولهذا أقول : إنها ليست مهنة . . . » .

وتوقف سائق الترام ، وتوقف جونثالث ، وتوقف مارنجو ، وتوقف المارة جميعاً ، أو هرولوا تحت الأبواب ، فقد وصلت فوق سماء مدريد خمس طائرات من طراز يونكرز تحميها أربع عشرة طائرة من طراز هاينكل .

وصاح صوت : « لا تخافوا ، فسوف تعتادون ذلك » .

وقبل أن يشاهد جونثالث ومارنجو شيئاً على سماء المساء الرمادية ـ خرجت حشود هائلة من المخابىء والأقبية ، والأبواب والمنازل ، ومحطات المترو ، وقد وضعوا السجائر في أفواههم ، وأمسكوا أدوات أو أوراقاً في أيديهم ، وارتدوا ثياب العمل أو السترات أو المنامات ، أوالملاءات .

قال أحد المدنيين : « إنها طائراتنا » .

فسأله جونثالث : « وكيف عرفت ؟ » .

ـ « لأن أصواتها أوضح من أصوات الأخرى ! »

ومن الجانب الآخر من مدريد ، وصلت لأول مرة ست وثلاثون طائرة من طائرات المطاردة يملكها الجمهوريون .

وكانت هذه هي الطائرات التي باعها الاتحاد السوفياتي بعد أن تخلى عن سياسة عدم التدخل ، والتي وجدت أخيراً من يقودها ، وبعضها قد حارب فعلاً فوق جبهة خيتافي ، وكانت طائرات الفرقة العالمية قد القت منشورات فوق مدريد لتعلن اعادة تنظيم سلاح الطيران الجمهوري . . غير ان تلك التشكيلات الأربعة التي يتألف كل تشكيل فيها من تسع طائرات تسير على هيئة شبه منحرف ويقودها سمبرانو ـ أقبلت لأول مرة لحماية مدريد .

وأنحرفت الطائرة التي تسير في المقدمة ، يمنة ، ثم انحرفت يسرة وترددت . وانقضت الطائرات الجمهورية بكل سرعتها على قاذفات القنابل المعادية . وتشبثت أيدي الرجال بأكتاف نسائهم أو بأفخاذهن ، ومن الشوارع جميعاً ، ومن أسطح المنازل ومن مداخل المترو ـ رفع الناس الذين ظلوا ينتظرون القنابل ساعة بعد ساعة طيلة ثمانية عشر يوماً ـ رفعوا عيونهم ينظرون ! وأخيراً دارت طائرات الأعداء نصف دورة متجهة صوب خيتافي ، وتعالى هدير يتألف من خمسمائة ألف صوت ، هدير وحشي لا إنساني ، يشيع فيه الخلاص تعالى الى عنان السماء الرمادية التي توغلت فيها طائرات مدريد .

وكان هينريش يراقب من النافذة التي تطل على الليل المقبل حشداً من الجنود الذين انعزلوا عن وحداتهم ، وهم يسعون للانضمام الى تلك الوحدات من جديد ، وانبسطت أمامه الخريطة التي يدون فيها الملاحظات

المنقولة اليه بوساطة البير ـ كما هي العادة ، عن طريق التليفون . وكانت الجوانب جميعاً تؤكد أن الفاشيين لا يملكون أية ذخيرة ، بعد أن قطع عنهم الكولونيل أوريباري قطار الذخيرة .

ـ « لقد أمكن صد الهجوم الذي شنه الأعداء على بوزويلو ـ أرافاكا ، يا سيدي الجنرال » وبينّ هينريش المواقع الجديدة على الخريطة ، وبدت غضون عنقه الأبيض كأنها تبتسم .

وأبلغه ضابط آخر من هيئة اركان الحرب :

ـ « لقد صد الهجوم على « لاس روزاس » .

ودق جرس التليفون مرة أخرى ، فأجاب البير :

ـ « حسن ، وشكراً . . . »

وكان قد ابلغ انهم تمكنوا من صد الهجوم على مونكلوا Moncloa وشعر الجميع بأنه لا بد من الاحتفال .

وقال هينريش : « ستوزع كؤوس من النبيذ على الجميع عند النجاح المقبل ! » .

وقامت وزارة الحرب بابلاغ البير تليفونياً بالمراكز الجديدة وفقاً لنظام تتابعها ، وكانت الفرق تتصل به من جهاز تليفون آخر .

قال البير : « أريد الكونياك يا سيدي ! فنحن نتقدم صوب باب الحديد ، والطريق الى كوروني مفتوح » .

ـ « استرددنا فيللا فردي ! » .

ـ « نحن نزحف على كيمادا وجاراليتو ، يا سيدي الجنرال ! » .

لجزء الثالث

الأمل

الفصل الأول

٨ من فبراير :

التقى مانيان بڤارجاس مرة أخرى في وزارة الطيران ببلنسية مثلما التقى به من قبل في مدريد مساء معركة مدلان . وكان الوزراء قد تغيروا ، وارتدى المحاربون حلة رسمية ، وأوشك فرانكو أن يستولي على مدريد ، وبدأ الجيش الشعبي في التكوين ، بيد ان الحرب كانت دائماً هي الحرب ، واذا كان كثير من الآخرين قد لقوا حتفهم ، وكثيرون لاقوا مصيرهم فإن ڤارجاس ومانيان لم يتغيرا كثيراً ، وذهب ڤارجاس لاحضار الويسكي والسجائر ، كما كان يفعل في مدريد ، كذلك ارتسم على وجهيهما ارهاق آخر الليل ، كما كانت حالهما في مدريد .

قال فارجاس : « لقد ضاعت ملقة يا مانيان »

ولم يكن في ذلك ما يبعث على دهشة مانيان ، فقد كان يعتقد ان الجمهوريين لن يستطيعوا انقاذ الجبهات التي انقطع اتصالها بقوات الوسط من براثن القوات الايطالية والألمانية ، وكان جارسيا قد قال له منذ ثمانية أيام مضت : « إنني انتظر كل شيء من الوسط ، ولا أنتظر شيئاً من الجبهات الصغيرة ، وملقة طليطلة ثانية . » .

ـ « إن هجرة السكان غير عادية ، يا مانيان . . . فهناك اكثر من مائة الف نسمة لاذوا بالفرار . . هذا شيء فظيع . . . ! » .

وفي منتصف قاعة الاستقبال في ذلك القصر القديم الذي كان يملكه تاجر غني أطل فوقهم نسر محنط يحمل الثريا الكهربائية .

« والطائرات الايطالية تتعقبهم ، وسيارات النقل . . . ولو اننا استطعنا ايقاف السيارات فسيصل اللاجئون إلى آلميريا . . . »

وبعينين كئيبتين وشارب حزين ـ أتى مانيان بحركة من يريد أن يقول : متى نرحل ؟

ـ « ينبغي أن تكون أفضل طائراتنا في مدريد يا مانيان ، وأنا أعلم أن . . . »

وكان الفاشيون قد شنوا هجوماً شديداً على شرنبة (خاراما) .

« ونحتاج الى قاذفتين للقنابل من أجل طريق ملقة . ولا نكاد نملك هنا طائرات مطاردة . . .

ولكن هناك أيضاً مهمة في ترويل . . . ولا يعرف ترويل أحد من رجال الفرقة العالمية مثلك . . . وأتمنى ألا . . . »

وأكمل حديثه بالأسبانية :

« تختار أعظم المخاطر بل أكثر البعثات فائدة . أنت الى ترويل ، وسمبرانو الى ملقة . . انه هنا » .

وأضاف قائلاً : وأنت تعلم انه ليست في ترويل أيضاً طائرات مطاردة . . . » .

وكانت فرقة الطيران العالمية قد قاتلت فوق جبهة شرق البحر الأبيض المتوسط منذ شهرين ، وهي الجبهة التي تمتد من جزر البليار والأندلس وترويل . وانتهى عهد طيارات البليكان ، واستطاعت تلك الفرقة بصعودها مرتين الى الجو يومياً ، وبعدد لا بأس به من رجالها في المستشفى ، وبمساندتها

للفرقة العالمية طوال معركة ترويل ـ استطاعت أن تقاتل ، وأن تقوم باصلاحات، وأن تلتقط صوراً للغارات اثناء القتال ، كان الطيارون يسكنون قصراً مهجوراً وسط اشجار البرتقال على مقربة من مطار سري ، وقد تمكنوا في اثناء المعركة من نسف المحطة ومركز القيادة في ترويل تحت وابل من قنابل المدافع . المضادة للطيارات ولهذا علقوا صورة مكبرة للانفجار على حائط مطعمهم ، وكان مانيان وطياروه يعرفون تلك الجبهة معرفة أفضل من الخرائط .

وسأل مانيان : « في الفجر ؟ » .

وذهبا الى حجرة الخرائط .

كان جيم واسكالي وجارديه وبول وأتينييس وكارليتش ، وسعيدي ، وهو عامل ميكانيكي قادم من الفرقة العالمية ـ يحتسون المانثانللا في المدينة .

ومن خلفهم على الجانب الآخر من واجهة المقهى اقيمت سوق خيرية صغيرة ، كانت تنبعث منها موسيقى تصل الى القاعة ، ويجري فيها سحب اليانصيب وبيع الحلوى ، والتصويب على الأهداف ، وكان هذا اليوم هو عيد الأطفال ، وأجتذبت لعبة التصويب على الأهداف رماة المدافع الرشاشة ، فلم يتوانوا عن تحطيم الغلايين والخنازير المصنوعة من الجبس ، وهناك وجدوا كارليتش وسط حلقة من المعجبين ، ولم يكن جارديه وسعيدي قد حضرا من أجل الاطلاق على الاهداف بقدر ما حضرا من أجل الأطفال ، فأنفقا ما يملكان من نقود في شراء الحلوى وتوزيعها عليهم ، وكان جارديه يعشق الأطفال مثلما كان يعشق شاد الحيوانات تعويضاً عما لقيه في حياته من مرارة ، أما سعيدي فكان يحبهم لما تنطوي عليه نفسه من طفولة ، من شفقة اسلامية .

قال بول : « انهم لطاف . . . هؤلاء الأميركان ! » .

وكـان المتطوعـون الاميـركيـون الأوائـل في سـلاح الـطيـران قـد وصلوا لتوهم .

فقال جارديه : « أما أنا فإن ما يعجبني هو أنهم لا يعتقدون انهم ينقذون الديموقراطية في كل مرة يديرون فيها محرك طائرة » .

وقال اتينييس : « ولهذا بعثوا جنودهم المرتزقة للتسكع » .

وكان اتينييس يبغض المرتزقة بفطرته .

واستطرد بول قائلاً : « أمـا بالنسبـة للقائـد الجديـد فهو مجـرد أحمق على الطراز الوطني » .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيهـا القائـد الاسباني الـذي يديـر المطار مع مانيان ـ رئيساً لا يحتمل .

قال اتينييس : « دعونا من هذا ، فنحن لا نؤمن بـأن الكمال لا يـوجد إلا عنـدنا . والمسـألة مسـألة وقت ، وسيعـود سمبـرانـو ، ويكفي أن نؤدي عملنا ، وعلى أية حال ـ فإن الكابتن الاسباني لفرقة البريجيه رجل مدهش » .

ـ « ومقـاتلة الطائـرات الحديثـة ـ أسبوعـاً بعد أسبـوع ونحن عـلى هـذه الحالة ـ تتطلب صبراً عظيماً ! » .

قال اسكالي : « ثمة شيء عجيب : فما من بلد يتمتـع بموهبـة الأسلوب مثل هذا البلد ، فـأنت تأخـذ فلاحـاً أو صحافيـاً أو مثقفاً وتعـطيه وظيفـة ، فيؤديها على وجه حسن أو سيء ، ولكنه يؤديها دائماً تقريباً بـأسلوب فيه عبـرة لأوروبـا ، وهذا القـائد لا يتمتـع باسلوب ، وحـين يفقد الـرجـل الأسبـاني الأسلوب فهذا معناه انه فقد كل شيء فعلاً » .

قال كارليتش : « شاهدت الليلة في قصر الحمراء شيئـاً شبيهاً بمـا تقول : راقصة تكاد تكون عارية ظهرت عـلى المسرح ، يـوشك الجمهـور أن يلمسها باصبعه ، وهرول نحوها سكير من رجـال الميليشيا ، فضمهـا ملء ذراعيـه ،

وهنا تعالت ضحكات الجمهور ، فالتفت اليهم رجل الميليشيا مغمض العينين ومغلق اليد كأنما قد سلب المرأة جمالها حين احتضنها ، واحتفظ بها في يده ، والتفت صوب الجمهور ، ثم القى عليه في احتقار بما قبض عليه من جمال ! شيء مدهش ، ولكنه لا يمكن أن يحدث إلا هنا »

كان يتحدث بلغة فرنسية أشد ركاكة مما كانت عليه من قبل ، ولما كان رئيساً لوحدة من الجنود غير النظاميين بدأ كأنه يخرج من حمام حل فيه الكافور محل ماء الكولونيا ، وأزاح قبعته بوصفه قائداً ، فتعرف اسكالي على « شوشته » السوداء الكثة .

قال بول : « إن ما أحبه هنا هو انني اتعلم شيئاً . هذا حق ! أما فيما يتعلق بالقائد فانه مأفون بكل تأكيد » .

قال كارليتش في شراسة : « لا ينبغي الحديث عن قائد على هذا النحو » .

وكان قد أطلق شاربه ، واتخذ وجهه طابعاً أقل طفولية ، وأشد قسوة، فأحس اسكالي ان الضابط القديم الذي كان يحارب مع رانجل قد عاد الى الظهور .

وهز بول منكبيه ، ورفع سبابته :

ـ « قلت انه أحمق على الطراز الوطني » .

وقال اتينييس في نفسه : إن الموقف ينذر بالشر .

فسأل سعيدي : « كيف جئت الى هنا ؟ » .

ـ « عندما علمت أن المغاربة يقاتلون لحساب فرانكو قلت للقسم الأشتراكي الذي أنتمي اليه : يجب أن نفعل شيئاً ، وإلا فماذا سيظن رفاقنا العمال بالعرب ، يا سمعان ؟» .

قال جيم : «انني ألمح أنواراً » . وكان يعبث بسلك من الحديد ، ومن هذه الأسلاك كان يصنع طائرات تسير آلياً ، ثم لا يلبث الطيارون أن ينتزعوها منه .

وما برح منذ شهر يرى أنواراً كل يوم ، وفي البداية كان أصدقاؤه يبحثون عنها ، ولكن كانوا يؤوبون دائماً بالحزن نفسه ولا يجدون أنواراً ، وكان اسكالي وجيم يجلسان متجاورين في مواجهة الأخرين .

قال كارليتش : « ومن ثم فقد استولينا على ألبارسان ،وكان فيها واحد من كبار المسؤولين الفاشيين ، ولكنه كان شاباً صغيراً ، ربما لا تزيد سنه على عشرين عاماً .

« وكان مختبئاً ، وحين دخلناها لم تكن هناك سوى امرأتين عجوزتين . أما الصبي فربما وشى بخمسين من رجالنا . . . وبآخرين لم يكونوا معنا . . وقد أُعدموا جميعاً .

قال اسكالي : « لا شيء ألعن من أولئك الفتيان المراهقين » .

ـ « وقالت لنا إحدى هاتين المرأتين : « كلا ، كلا ، لا يوجد أحد اللهم إلا ابن أختي الآخر . . . » وكانت هاتان السيدتان خالتيه ، ولكن حدث بعد ذلك أن خرج صبي يرتدي جورباً ، وقبعة . . . » .

وأتى كارليتش بحركة دائرية حول رأسه ليصور بها قبعة بحار .

« . . . وحلة بحرية ، وسروالاً قصيراً . فقالت المرأتان : هأنتم أولاء هأنتم أولاء ترون جيداً ! . . . وكان هو الوغد الذي نبحث عنه ، بيد أنهما ألبستاه ثياب صبي صغير حتى نظن أنه . . . »

قال جيم « الأنوار تدور » ، وكان قد خلع نظارته السوداء .

فضحك كارليتش تلك الضحكة التي كانت تثير اسكالي في شهر اغسطس .

- « وقد أعدمناه » .

وكـان الجميع يعلمـون ان كارليتش قـد ذهب مرتـين للبحث عن رفاقـه الجرحى تحت وابل من نيران الأعداء ، وانه لا بد ملاقٍ مصرعه إن عاجـلاً أو آجلاً . فالخدمة عنده عاطفة مسيطرة ، ينتظر أن يجدها أيضاً عند من يخدمون تحت امرته ، وفي أول مرة اكتشف فيها أن المغـاربة يعـذبون جـرحاه ، ذهب ليزهق بنفسه أرواح ضبـاطهم ، ومهما يكن من أمـر فإن شخصيتـه في جملتها كانت تقلق اسكالي وأتينييس ، أما الآخرون فكـانوا يعتقـدون أنه مجنـون الى حد ما ، وفي هذا كله كان سعيدي يرتاب ارتياباً شديداً .

وتذكر اسكالي لحظةوصول كارليتش ،كان ينتعل حين ذاك حذاء فخماً عـالي الرقبة ، وما أن التقى بأول ماسح للأحذية حتى جلس أمامـه لتلميعه ، غـير ان تلميع حذاء ركوب من الأحذيـة القوقـازية الجميلة لا يمكن ان يكـون هو نفسـه تلميع حـذاء عادي ، وهكـذا جلس ثلاثـون من الخبراء العسكـريـين ينتظرون كارليتش نصف ساعة ، وقد أخذ هذا ينقر عـلى المائـدة حانقـاً حتى ينتهي ماسح الأحذية من لمساته الأخيرة في تلميع فردة الحذاء الأخرى .

قال چيم : « لقد توقفت الأنوار » .

كان هذا الأمل المتجدد بلا انقطاع يشيع حوله في كل مرة جواً من الحرج الرهيب ، ويزداد هذا الحرج بمقـدار شعوره بـالخجل من أنـه أعمى ، وبأنـه يرغم نفسه على المرح ، وذات يوم وعدهم بتقديم مجموعـة من المحار اعتقـد انه يستطيع الحصول عليهـا بحيلة ما ، وكـان في ذلك مخـطئاً ، ووجـد أوائل القادمين (وكـان هو واسكـالي من أواخرهم) ورقـة تنتظرهـم في المقهى وقـد كتبت عليها هذه العبارة : « بعد تفكير طويـل قررنـا عدم الحضـور : توقيـع « المحار » .

وسأل أتينييس كارليتش : « هذه الحياة : أتراها تعجبك ؟ » .

- « عنـدما تـوفي والدي (كـان لي ثلاثـة أشقاء). كنت حينئـذٍ ملتحقـاً

بـالجيش ، وقال والـدي : « فلينعم الثلاثـة بـالسعـادة أمـا الآخـر فعليـه أن ينتصر » .

وروى اسكـالي مـرة أخــرى مـا اثــاره في نفسـه القلق طيلة الشهــرين المـاضيين ، وكـان ما يقلقـه هـو مـا يسميـه المتخصصـون في دراسـة الحـرب « بـالمحـاربـين » . والـواقـع ان اسكـالي كـان يحب المقـاتلين ، ويـرتـاب فى العسكـريـين ، ويبغض « المحـاربـين » بـالسليقـة . وكـارليتش بسيط غـايـة البســاطـة ، ولكن مــاذا عن الآخـرين ؟ وعنــد فـرانكــو آلاف من أولئـك المحاربين .

استطرد المدفعي قائلاً : « أرجو أن أنضم الى سلاح الدبابات » .

رجال الدبابات والطيارون ، وضاربوا المـدافع الـرشاشـة : هل سيعـود المرتزقة الألمان الى الظهور في أوروبا مرة أخرى ؟

ـ « ماذا يخيفك من الحرب يا كارليتش ؟ » .

وكان يريد أن يقول : مـاذا أثار رعبـك أو شفقتك ؟ ولكنـه احجم عن مثل هذا التدقيق في اختيار الألفاظ .

ـ « الخوف ؟ كل شيء ، في بداية الأمر » .

ـ « ثم ، بعد ذلك ؟ » .

ـ « لست أدري » .

وسأل جيم : « هل ترون الأنوار ؟ » .

واستـطرد كارليتش قـائـلاً : « انـتـظر . . . هنـاك شيء آخـر يخيفني . . الرجال المشنوقون . . وأنت ؟ » .

ـ « لم أشاهد أحداً منهم قط » .

ـ « من حسن حـظك . . . فهـذا شيء مخيف . . عنـدمـا يحـدث شيء

كهذا ، وتسيل الدماء - يكـون كل شيء طبيعيـاً . . اما المشنـوقون فليسـوا طبيعيين . . عندمـا لا يكون هنـاك دم لا يكون الأمـر طبيعياً . . . وحينـما لا تكون الأمور طبيعية يكون الخوف» .

ظل اسكالي يستمـع الى ما يقـال عن « مفهوم الانسـان » زهاء عشـرين عاماً ، وكان هذا الموضوع يؤرقه . . ما أجمـل التفكير في مفهـوم الانسان اذا وضع ازاء الانسان المشتبك في الصراع بين الحياة والموت ! والواقع ان اسكالي لم يعد يعرف ما يريد على وجه التحديـد ! هناك الشجـاعة والسخـاء ، ولكن هناك الجانب الفسيـولوجي أيضـاً ، هناك الثـوريون ، ولكن هنـاك الجماهـير أيضاً ، وهناك السيـاسة ، ولكن هنـاك الأخلاق أيضـاً ، وكان الفـير يقول : « أريد أن أعرف عم أتحدث ؟ » .

قال جيم : « ها هي ذي الأنوار تتحرك مرة أخرى » .

ونهض اسكـالي فاغـر الفم واضعاً قبضتيـه على المـائدة ملقيـاً بـالـطائـرة المصنوعة من الأسلاك الحديدية على بعد ثـلاثة امتـار منه ، وأمسـك جارديـه بجيم من منكبيـه ، وأخذ الأثنـان ينظران عبـر واجهة المقهى الـزجـاجيـة الى الكرات الكهربية الضخمة التي فوق الجياد الخشبية التي شرعت مرة أخرى في الدوران .

* * *

جعـل جيم وزمـلاؤه يـطلقـون صفيـراً كعصـافـير الحقـول وكـأنما جن جنونهم ، وكان مانيان معهم في سيـارة أخرى ، وهم في طريقهم الى المطار ، لكي يـطيروا منـه الى ملقة ، وكـان سرب من أسـراب العدو يضـرب المينـاء بالقنابل على بعد ستة كيلومترات وثمة رذاذ يغطي بلنسية ، وينسـاب في رفق على ثمار البرتقال ، وكانت النقابات قد قررت تنظيم موكب لم يسبق له مثيل بمنـاسبة عيـد الأطفال ، وطلبت وفـود الأطفال - حـين أخـذ رأيهـا - اشتـراك

شخصيات الصور المتحركة في الموكب ، فأقامت النقابات نماذج ضخمة من شخصيات ميكي ماوس ، والقط فيلكس ، والبطة دونالد (تتقدمها شخصية دون كيشوت وسانشوبانثا) . ووفد الى مدريد من جميع الأقاليم آلاف من الأطفال للاحتفال بالعيد الذي خصص ايراده لصالح الأطفال اللاجئين ، وكان الكثيرون منهم بلا مأوى ، وفي الشارع الخارجي وقفت العربات مهجورة بعد ان انتهى الاستعراض ، وقد ظهرت على ضوء مصابيح السيارات وعلى مسافة طولها كيلومتران الحيوانات الناطقة في عالم الجن الحديث ، ذلك العالم الذي يبعث فيه كل من يقتلهم الناس . . . وتحت التماثيل المصنوعة من الورق المقوى ، بين سيقان القطط والفئران - قبع الأطفال الذين لا يعرفون لهم مأوى ، وواصل سرب العدو ضرب الميناء بالقنابل ، وعلى ايقاع الانفجارات وتحت حراسة دون كيشوت الليلية - كانت الحيوانات التي ترتعش بتأثير المطر ، تهز رؤوسها فوق الأطفال النائمين .

* * *

كان ايتينييس هو قاذف القنابل في طائرة سمبرانو ، وقد اختلط طاقما الطائرتين ، وفي طائرة سمبرانو كان يعمل پول بوصفه ميكانيكياً ، وكذلك كان يعمل فيها اتينييس ، كما اصطحب سمبرانو معه طياره الثاني ، وهو من اقليم الباس ويدعى رييس Reyes ، وقد وجدوا في آخر مطار من جهة الجنوب قنابل لا بد من تغييرها ، واضطراباً خليقاً بطليطلة ، فهناك قبل الوصول الى ملقة بقليل كانت هجرة مائة وخمسين الفاً من الناس تمتد على طول الطريق المحاذي للبحر ، ومن الخلف الطرادات الفاشية المتجهة صوب الميريا في صباح بديع وهي تسحب خلفها ذيلاً طويلاً من الدخان الكثيف ، وأخيراً يأتي أول طابور من الطوابير الايطالية - الأسبانية المدرعة ، فاذا نظرت اليه من الطائرة خيل إليك انه سوف يلحق بالمهاجرين بعد ساعات قلائل ، وتبادل أتينييس وسمبرانو النظرات ، وهبطا الى أقصى ما يمكن الهبوط اليه ،

فلم يلمحا أثراً للطابور .

وكيما يعود سمبرانو بأسرع ما يمكن أطلق جهاز السرعة ويمم شطر البحر .

* * *

وحين التفت اتينييس كان الميكانيكي يحك راحتيه الملطختين بزيت مقابض الأجهزة القاذفة للقنابل ، ونظر اتينييس امامه مرة أخرى الى السماء المملوءة بالسحب الكثيفة الواضحة المعالم ، وهناك رأى ثماني عشرة طائرة مطاردة من طائرات العدو ، وقد تخلفت ، وانقسمت مجموعتين ، ومن المحتمل أن تكون وراءها طائرات أخرى .

واخترقت الرصاصات البرج الأمامي .

ولم يلبث سمبرانو أن تلقى ضربة وحشية على ذراعه اليمنى التي بدأ الأحساس يفارقها تماماً ، فالتفت صوب الطيار الثاني قائلاً : « أمسك المقبض ! » ولم يكن رييس ممسكاً بالمقبض ، بل كان ممسكاً ببطنه بكلتا يديه ، ولولا الحزام الذي يمنعه لسقط فوق اتينيس الذي عاد الى الخلف ، وتمدد على مقعده في الطائرة ، وقد غاصت قدمه في الدم . ولم يكن من شك أن طائرات العدو المطاردة التي تسير وراء طائراتهم سوف تطلق عليهم نيرانها منفوق ، ولم تكن هناك أية حماية ممكنة ، اذ يتحتم أمام هذا العدد من العدو أن تقوم طائرات المطاردة الخمس التابعة للجمهوريين بحماية قاذفة القنابل الأخرى التي في مركز أفضل للقتال .

وكانت الثقوب التي في جسم الطائرة ثقوباً أحدثتها قذائف صغيرة، فقد كان الأيطاليون يملكون مدافع رشاشة تطلق قذائف لا رصاصاً ، فهل أصيب المدفعي الخلفي أو لم يصب ؟ وفي اللحظة التي التفت فيها سمبرانو ـ وقعت عيناه على المحرك الأيمن ، فألفاه مشتعلاً ، فما كان منه إلا أن أسقطه ، ولم

يعد أحد من رجال مدفعيته يطلق النيـران ،وأخذت الـطائرة تهبط لحـظة بعد أخرى ، وأنحنى أتينييس فوق رييس الذي انزلق من مقعده ، وجعل يـطلب في الحاح شيئاً لشربه ، وقال سمبرانـو لنفسه : « الجـرح في البطن » . وانهال سيل جديد من رصاص الأعداء فوق الطائرة ، بيد انه لم يلمس سوى الجناح الأيمن ، وكان سمبرانو يقود الـطائرة بقـدميه وذراعـه اليسرى ، وعـلى وجنته سـالت الدمـاء في رفق . ولم يكن من شك أنـه قد أُصيب في رأسـه أيضـاً ، ولكنه ، لم يكن يتألم ، وما فتئت الطائـرة تزداد انخفـاضاً ، ووراءهـا ملقة ، وتحتها البحر ، وهناك عبر شريط من الرمال يبلغ عرضـه عشرة امتـار امتدت سلسلة من الصخور .

ولم يكن ثمـة مجال للتفكـير في الهبوط بـالمظلات ، لأن طـائـرات العـدو المطاردة تتعقبهم ، كما ان طائراتهم انخفضت انخفاضاً شديداً ، وكذلك كان من المستحيل عليهم أن يرتفعوا ، لأن جهاز الارتفاع الذي مزقته بكل تأكيـد القذائف المتفجرة لم يكن يستجيب لهم ، وكان الماء قريباً منهم الآن الى درجة ان مدفعي البرج الأسفل عاد الى برجه ، ورقـد داخل جسم الـطائرة ، وقـد دميت سـاقـاه هـو أيضـاً . وأغمض «رييس» عينيـه وشـرع يهـذي بلغـة الباسك ، ولم يعد الجرحى ينظرون الى طائرات الأعداء المطاردة التي انطلقت منها بضع رصاصات أخيرة متفرقة ، وإنما كانوا ينظرون الى البحر ، كثيـرون منهم لا يعـرفون السبـاحة ، ولا يستـطيع المرء أن يسبح ورصـاصة متفجـرة مـدفونـة في قدمـه أو ذراعه أو بـطنه ، وكـانوا عـلى بعـد كيلومـتر واحـد من الشاطىء ، وعلى ارتفـاع ثلاثـين متراً فـوق سطح البحـر ، والماء تحتهم عـلى عمق أربعـة امتار أو خمسـة أمتـار . وعـادت طـائـرات العـدو المـطاردة ، ثم أطلقت جميـع مدافعهـا الرشـاشة مـرة أخرى . فـرسمت الرصـاصات حـول الطائرة خطوطاً حمراء تشبه نسيج العنكبوت . وكانت أمواج الصباح الصافيـة الساجية تعكس الشمس ـ تحت سمبرانو ـ في سعادة لامباليـة : إن أفضل مـا يستـطيـع أن يفعله هـو أن يغمض عينيـه ، وأن يتـرك الـطائـرة تهبط متمهلة

حتى . . وفجأة التقت عيناه بوجه بول القلق الملطخ بالدم الذي لم يفارقه المرح قط في ظاهر الأمر ، وأحاطت خطوط الرصاصات الحمراء بالطائرة المملوءة بالدماء ، حيث انحنى اتينييس الآن على ريس الذي انزلق عن مقعده ، وبدا كأنه يحتضر ، وكانت الدماء تسيل أيضاً من وجه بول ، وهو الشخص الوحيد الذي يراه سمبرانو وجهاً لوجه ، بيد أن رغبة عارمة للحياة كانت تلوح على الوجنتين الناعمتين لذلك الرجل الباسم ، بحيث دفعت الطيار الى أن يبذل مجهوداً أخيراً لاستخدام ذراعه اليمنى . . . بيد أن زراعه كانت قد اختفت ، فحاول بكل قوة قدميه وذراعه اليسرى الارتفاع بالطائرة .

وكان بول قد أخرج العجلات ، ولكنه أعادها الآن إلى مكانها ، وانزلق جسم الطائرة على الماء كالزورق البخاري ، وهدأت سرعة الطائرة لحظة ، ثم غاصت في زبد الأمواج الهادئة ، وأخيراً انكفأت على وجهها . وكافحوا جميعاً المياه التي اندفعت داخل الطائرة كأنها قطط غارقة بيد أن الماء لم يصل الى ارتفاع جسم الطائرة الذي اصبح الآن مقلوباً ، وهرول بول نحو الباب محاولاً أن يفتحه من أعلى الى أسفل ، كما اعتاد ، ولكنه لم ينجح في المحاولة ، وأدرك أنه ينبغي أن يبحث عن المقبض من أعلى ، ما دامت الطائرة قد انقلبت ، بيد ان الباب كان قد تسمر بفعل رصاصة متفجرة ، وأخذ سمبرانو بعد أن أتخذ وضعاً معقولاً في الطيارة المنقلبة يبحث عن ذراعه في الماء كما يدور كلب حول ذيله ، وأحدث الجرح بقعاً حمراء في الماء الذي استحال وردياً داخل جسم الطائرة ، غير أن الذراع كانت في مكانها ، واستطاع المدفعي الأمامي أن يشق طريقه الى أحد ألواح برجه الذي انفتح عند اصطدام الطائرة بالماء . . وتمكن هو وسمبرانو واتينييس وبول من الخروج ، فوجدوا انفسهم أخيراً في مواجهة صف المهاجرين اللانهائي ، جذوعهم في الهواء الطلق ، وسيقانهم في الماء .

وصاح اتينييس مستنداً على الميكانيكي ، غير أن الأمواج أغرقت صوته ،

ولعل الفلاحين الهاربين قد شاهدوا حركاته ، وكان اتينييس يعلم أن كل شخص في حشد ما يظن ان النداء موجه الى الآخرين . . . وسار فلاح على الشاطىء فزحف اتينييس على أربع حتى بلغ الرمال ، وصاح حين أعتقد أن صوته سيكون مسموعاً : « تعال لنجدتهم » فأجاب الآخر : « لا أعرف السباحة » ، فقال اتينييس وهو يزحف دائماً : « الماء ضحل » ولم يتزحزح الفلاح عن مكانه . وحين رأى اتينييس خارج الماء وعلى مقربة منه ، قال أخيراً : « إن عندي أطفالاً » . ومضى لطيته ، وربما كان صادقاً فيما يقول ، وما المساعدة التي يمكن أن ينتظرها المرء من رجل يتوقف عن هذا الهروب المتعجل لينتظر الفاشيين صابراً ؟ ولعله يرتاب في الأمر : فإن وجه اتينييس القوي الأشقر يطابق ما يمكن أن يتصوره فلاح من ملقة عن وجوه الطيارين الألمان . وفي الشرق على مقربة من ذرى الجبال ـ اختفت طائرات الجمهوريين . وغمغم أتينييس : « فلنأمل أن يبعثوا الينا بسيارة » .

وسحب بول وسمبرانو الجرحى من الطائرة ، ونقلوهم الى الشاطىء .

وخرجت جماعة من رجال الميليشيا من زحمة الحشد ، كانوا واقفين على كثيب من الرمال ، فبدوا أعلى من الحشد ، وكانوا لا يتحركون ، فبدوا متوافقين مع الصخور ومع السحب الثقيلة اكثر من توافقهم مع الكائنات الحية ، وكأن ما لا يهرب لا يمكن ان يكو ن كائناً حياً ، وشخصت انظارهم على تلك الطائرة التي التهمتها النيران ، والتي انبعثت منها خارج الماء ألسنة قصار من اللهب حجبت لون الخطوط المرسومة على أجنحتها ، وهم يشرفون على ذلك الحشد من المناكب البارزة الى الأمام والأيدي المرفوعة في الهواء ، كأنهم حراس في أسطورة ، وبين سيقانهم المتباعدة لكي تقاوم ريح البحر كانت الرؤ وس تتدحرج كأوراق الشجر الميتة ، وأخيراً انحدروا صوب اتينييس الذي صاح فيهم : « ساعدوا الجرحى ! » ، وتقدموا حتى وصلوا الى الطائرة خطوة خطوة ، يعوقهم الماء ووقف الرجل الأخير مع اتينييس ، ثم وضع ذراع الطيار فوق كتفه .

قال اتينييس : « هل تعرف أين التليفون ؟ » .

ـ « أجل » .

كان رجال الميليشيا ينمون حرس القرية ، وقد خرجوا دون مدافع أو بنادق سريعة الطلقات ، يحاولون الدفاع عن قريتهم المبنية من الحصى ضد طوابير الايطاليين المدرعة . وعلى الطريق ، رافقهم مائة وخمسون ألفاً لا سلاح معهم ، من المهاجرين البالغ عددهم مائتي الف من سكان ملقة تعاطفاً وفراراً حتى الموت من « محرر اسبانيا » .

وتوقفوا عند منتصف السفح ، وقال اتينييس في نفسه : « من الوقاحة أن يقال : ان جروح الرصاص لا تؤذي ! ومياه البحر لا تخفف شيئاً من الألم » وفوق الكثيب كانت الجذوع المنحنية تتقدم دائماً صوب الغرب ، بعضها يسير متئداً ، وبعضها الآخر ـ يهرول ركضاً وأمام بعض الأفواه ، كانت ثمة قبضة تمسك شيئاً غير واضح المعالم ، كأنها تعزف جميعاً في نفير صامت . والواقع انهم كانوا يأكلون نوعاً من الحشائش القصيرة الغليظة ، ربما كانت نوعاً من « الكرفس » . قال رجل الميليشيا : « هناك حقل » . وهبطت امرأة عجوز صائحة ، واقتربت من اتينييس وناولته زجاجة : « يا اطفالي المساكين ، يا أطفالي المساكين ! » ونظرت الى الآخرين الراقدين عند اقدام الكثيب ، واستعادت الزجاجة قبل أن يمسك بها اتينييس ، وهبطت بأسرع ما تستطيع دون ان تكف عن الصياح بنفس العبارة .

وشرع اتينييس في صعود الكثيب مستنداً على رجل الميليشيا ، ومرت بعض النسوة راكضات . . . ثم توقفن ، وبدأن في الصياح وهن ينظرن الى الطيارين الجرحى ، والى الطائرة التي خمدت نيرانها ، ثم واصلن سيرهن .

وقال اتينييس في نفسه بمرارة حين وصل الى الطريق : « شارع الأحد » . وتحت جلبة الفرار المنتظمة مع ايقاع امواج البحر ارتفعت ضوضاء أخرى يعرفها اتينييس جيداً : طائرة مطاردة من طائرات الأعداء ، وتشتت

الحشد ، فقد سبق له أن تعرض لقنابل الطائرات ومدافعها الرشاشة .

كانت الطائرة تتجه في خط مستقيم صوب قاذفة القنابل التي أخذت نيرانها الأخيرة تنطفىء في البحر ، وكان رجال الميليشيا ينقلون الجرحى ، وسيصلون الى الطريق قبل وصول الطائرة المعادية ، لا بد من الصياح لكي ينبطح الناس ارضاً ، غير أن أحداً لم يسمع شيئاً ، وأرقد رجال الميليشيا الجرحى الى جدار صغير ، وفقاً لتعليمات سمبرانو . وهبطت الطائرة الى مستوى منخفض كل الانخفاض ، ودارت حول قاذفة القنابل التي رفعت عجلاتها في الهواء ،وكستهاألسنة اللهب الآخذة في الانطفاء كأنها دجاجة تشوى ، ولم يكن من شك أنها تلتقط لها صورة ثم لم تلبث أن ابتعدت ، وحدث اتينييس نفسه قائلاً : « لا تنسوا سياراتكم التي كانت عجلاتها في الهواء أيضاً » .

ومرت عربة ، فأوقفها اتينييس ، وترك كتف رجل الميليشيا ، وتخلى فلاح شاب عن مكانه ليجلس عليه اتينييس بجوار امرأة عجوز ، ومضت العربة في سبيلها ، وكانت تحمل خمسة من الفلاحين . ولم يوجه اليه احد سؤالاً ، كما أن اتينييس لم يفه بكلمة : كان العالم كله في هذه اللحظة ينساب في اتجاه واحد .

وسار رجل الميليشيا الى جوار العربة ، وكان الطريق يبتعد عن البحر بعد كيلومتر واحد ، وفي الحقول أضرمت النيران ، تلك النيران التي انبعث منها نفس ذلك القلق المنبعث من أولئك الناس المنكمشين أو الراقدين في سكونهم أو في فرارهم . وواصلت تلك الكتلة السلبية من المهاجرين هجرتها اليائسة عبر الحقول متجهة صوب ألميريا ، وتشابكت العربات تشابكاً لا سبيل الى حله ، فلم تجد العربة التي تحمل اتينييس مناصاً عن الوقوف .

وسأل اتينييس : اما زالت بعيدة ؟ » .

فأجابه رجل الميليشيا : « ثلاثة كيلومترات » .

ومر عليهم فلاح يمتطي حماراً ، وكانت الحمير تخرج عن الطريق دون انقطاع ، وتتسلل في كل مكان ، وتسير بسرعة أكبر .

ـ « اعرني حمارك ، سأعيده اليك عند مكتب بريد القرية . . . من أجل الطيارين الجرحى » .

ونزل الفلاح دون أن ينطق حرفاً ، واتخذ مكان اتينييس في العربة . ومر على الحمار فتى وفتاة طالبان بلا شك ، تبدو عليهما الأناقة ، ولا يحملان متاعاً ، وكان كل منهما يمسك بيد الآخر ، ولاحظ اتينييس انه لم يشاهد حتى الآن إلا حشداً من المساكين ، ومن العمال أحياناً ، ولكنه يكاد يكون من الفلاحين دائماً . . وعلى ظهور أفراده أغطية مكسيكية دائماً . . بيد انه لم يلحظ انهم تبادلوا الحديث فيما بينهم ، وإنما رآهم يطلقون صيحات ، ثم يخيم الصمت عليهم من جديد .

وامتد الطريق داخل نفق ، فبحث اتينييس عن بطاريته الكهربية ، وحاول انتزاعها من جيبه المبلل ، ولكن دون جدوى ، واشتعلت أضواء صغيرة لا حصر لها ، مصابيح من كل الانواع ، أعواد ثقاب ، مشاعل ، جذوات ، ولكنها لا تلبث ان تنطفىء جميعاً ، صفراء حمراء ، أو قد تبقى محوطة بهالة على جانبي الحشد والحيوانات والعربات . وهناك ، في حمى من الطائرات ، استقر مخيم كبير من المهاجرين في الحياة القائمة تحت الأرض بين فجوتين زرقاوين بعيدتين تنبعثان من ضوء النهار ، وأخذ شعب من الظلال يتحرك حول المشاعل أو مصابيح العاصفة الثابتة ، وقد تظهر جذوعهم ورؤ وسهم لحظة كالأطياف ، وتظل سيقانهم غارقة في الظلام ، وكانت ضجة العربات تهدر تحت الصخرة كأنها نهر يجري تحت الأرض ، في سكون بلغ من قوته أنه فرض نفسه على الحيوانات .

وارتفعت حرارة اتينييس داخل النفق ، وربما كان هذا الارتفاع ناشئاً

عن الجموع المحتشدة ، أو عن الحمى التي سرت في دمائه . لا بد من الوصول الى التليفون ، لا بد ـ بكل تأكيد ـ من الوصول الى التليفون ، ولكن ألم يمت اتينييس على الطريق ؟ ألا يمكن أن تكون العربة والحمار مجرد أحلام تتخلل احتضاراً فيه شيء من عذوبة ؟ ومن الماء الذي غمره ، تسلل الى ذلك العالم المسدود داخل أعماق الأرض . غير أن دليلاً أقوى من كل أدلة الأحياء اليقينية انساب من ذلك الدم الذي انسال منه في جسم الطائرة ، وصحبه حتى هذا النفق الخانق ، وأخذ كل ما كانت تعنيه الحياة يتحلل مثلما تتحلل الذكريات في حذر عميق موحش ، وتحولت النقاط المضيئة الى اسماك تحيا حياتها داخل تلك الظلمة الحارة ، وانزلق القوميسير السياسي ساكناً دون ثقل فيها وراء الموت ، عبر نهر من النوم واسع عظيم .

وفجأة سطع نور النهار الذي كان آخذاً في الاقتراب عند منعطف في الطريق ، فتنبه جسده كله ، وكأن ذلك النور كان مثلجاً ، واستولت عليه الدهشة حين الفى كل شيء في مكانه : فكرة التليفون المسيطرة عليه ، قدمه التي تنبض بالألم ، حماره بين ساقيه . ولما كان قد نفذ بجلده من الطيارة ، ومن المعركة ـ فقد أحس انه عائد من عالم الأشباح ليواجه سر الحياة مرة أخرى . ومن جديد فوق زحمة الشعب الهارب امتدت ارض اسبانيا الحمراء حتى البحر الأبيض المتوسط ، وقد اعتلت صخورها عنزات سوداء .

وتدافعت الجموع التي هزتها الأحداث من كل جانب ـ حول أول قرية صادفتها تاركة آلاف الأدوات حول الجدران الأولى ، كما يترك البحر عند انحساره الحصى والحطام . وأحاطت الحيطان بأناس يرتدون خليطاً عجيباً من الثياب برزت منها الأسلحة هنا وهناك ، فبدوا كأنهم قطيع من الماشية في حظيرة ، وهنا فقد المهاجرون قوتهم التي لا تقل عن قوة السيل العارم ، ولم يعد ثمة غير حشد من الناس .

واستطاع اتينييس الذي ظل ممتطياً ظهر حماره أن يصل الى مكتب التليفون ، بفضل رجل الميليشيا ، غير أن الأسلاك كانت مقطوعة !

سأل بول رجال الميليشيا اين يستطيع أن يجد سيارات النقل ، وذلك بعد أن أرقد الجرحى صفاً الى جوار الحائط ، فأجابوه : « في المزارع ، ولكن ، لا يوجد بنزين ! » وجرى الى اول مزرعة ، وشاهد سيارة ، ولكنه وجد خزان البنزين خالياً . فعاد مرة اخرى ركضاً ، حاملاً دلواً ، واستطاع أن يضع فيها جزءاً من البنزين الذي تبقى في خزان الطيارة ، السليم ، ورجع الى المزرعة ، وهو يحمل الدلو في وضع متزن ، مما أرغمة على السير وئيداً خارج تيار المهاجرين الذي لا ينقطع منتظراً بين لحظة وأخرى وصول السيارات التي تسير في اعقاب تلك التي نسفها في الصباح ، وحاول تسيير السيارة ، غير أن محرك السيارة كان مكسوراً .

وجرى صوب المزرعة الثانية ، وكان سمبرانو يعتقد ان أتينييس لن يتمكن من التصرف دون عناء وسط هذا الاضطراب ، ولهذا فقد كان يريد العثور على سيارة بدلاً من انتظار سيارة مرسلة ، وفي تلك المزرعة التي تشبه داراً ريفية خالية من الأثاث ، ويبدو خزفها المغربي وفريسكاتها الرومانسية المزيفة المحلاة بالببغاوات كأنها تنتظر اشتعال الحريق - كانت ضجة الجماهير الهاربة المنبعثة من جوف الأرض تهدد بوصول العدو لحظة بعد أخرى . وفي هذه المرة عاد اليه سمبرانو مسنداً بيده اليمنى ذراعه اليسرى التي ضمدها له أحد رجال المدفعية الاسبان . . وما أن عثروا على سيارة حتى رفع سمبرانو غطاءها ، ولكنه وجد موصل البنزين محطماً ! وهكذا ، كانت السيارات قد خربت تخريباً منظماً حتى لا يستطيع الفاشيون استخدامها ، وانتصب سمبرانو الذي انحنى على السيارة فاغراً فاه مغمضاً عينيه نصف اغماضة ، كأنه فولتير في حالة نعاس ، وبخطوة شبيهة بخطوة ملاكم ثمل اتجه صوب المزرعة التالية ، دون أن يغلق فاه .

* * *

وسمع صوتاً ينادي باسمه ، وسط حقل من الحقول : انه المدفعي

الاسباني ، بجسمه المستدير الشبيه بتفاحة ناضجة ، ومنا برحت الدمـاء تسيل منه دون انقطاع ، يعدو نحوه ، وهو يقفز ، ويتواثب . وكان اتينييس قد عاد بسيارة ، إذ أخطرت طائرات المطاردة التابعة للجمهوريين المستشفى ، فوضع سمبرانو وبول الجرحى فـوق ارضية السيـارة ، وعلى الأريكـة الخلفية ، عـلى حين بقي المدفعي معهم .

وحضر مع السيارة طبيب هو رئيس القسم الكندي لنقل الدم .

مـا من طيار من الـطيارين لم يتحـدث عن وصول الفـاشيين منـذ سقوط الطائرة ، وليس من شـك ان أحداً منهم لم يكف ـ كـما فعل اتينييس ـ عن أن يتمثل لذهنه الطابور المدرع الـذي أغارت عليـه الطائـرات عند خـروجه من ملقة .

وبدت السيارة ، المشحونـة في المقدمة خاليـة في المؤخرة ، وكـان رجال الميليشيا يوقفـونها كلما قطعت كيلومـتر لاركاب بعض النسـوة ، فاذا شـاهدن الجـرحى وهن على سلم السيـارة امتنعن عن الركـوب . وقد اعتقـد الجمهور لأول وهلة أن اللجـان لاذت بالفـرار هي أيضاً ، وحـين شـاهـدوا الجـرحى مكدسين في كل سيارة تبـدو خاليـة ، تعودوا ان ينـظروا الى السيارة في مـودة حـزينـة ، وكـان رييس في حشـرجـة المـوت ، فقـال الـطبيب لأتينييس : « سنحاول أن ننقل اليه كميات من الدم ، ولكن أملي ضعيف » .

وعـلى حافـة الطريق رقـد كثير من النـاس حتى أصبح من المتعـذر تمييـز الجـرحى من النائمـين ، وكـان عـدد النسـوة ينـام بعـرض الـطريق ، ونـزل الطبيب ، وتحدث اليهن ، فنهضن بدافع من الفضول ، وتركن السيارة تمر في صمت ، ثم عدن الى الرقاد انتظاراً للسيارة القادمة .

وأخذ شيخ عجوز حولته الشيخوخـة الى غضون وأعصـاب ، شيخوخـة مفتولة يبدو أنها لا توجد لا لدى الفلاحين ـ أخـذ يصيح مستنجـداً وقد حمـل فوق ذراعه اليسرى المطوية طفلاً لا يزيد عمره على بضعة أشهر ، وعلى طول الطريق تناثرت أحزان أخـرى عظيمـة ، ولكن ربما كـان الأنسان اضعف مـا

يكون حين يرى الطفولة المعذبة منه حين يرى أي شيء آخر : فلقد أوقف الطبيب السيارة على الرغم من احتضار رييس ، وكان من المستحيل ان يركب الفلاح في الداخل ، ومن ثم فقد استقر على جناح السيارة ، وما زال حاملاً الطفل على ذراعه اليسرى ، ولكنه لم يجد شيئاً يتشبث به ، وكان بول قد استقر على الجناح الآخر ، وهو يمسك بيده اليسرى مقبض الباب ، ومن ثم فقد مد يده اليسرى ، فأمسك بها الفلاح ، ولم يجد السائق بداً من أن يقود السيارة وهو نصف قائم ، اذ اشتبكت اليدان أمام زجاج السيارة الأمامي .

ولم يستطع الطبيب وأتينييس ان يحولا عيونهما عنهما ، وكان الطبيب يشعر دائماً ازاء مشاهد الحب في المسرح والسينما بأنه يختلس النظر ، وهنا أيضاً ، كان مشهد هذا العامل الغريب العائد الى القتال ممسكاً بقبضة الفلاح الأندلسي العجوز ، امام شعب يلوذ بالفرار . . . كان هذا المشهد يحيره ، فحاول جاهداً أن يتحاشى النظر اليهما . ومع ذلك فقد ظل أعمق أجزاء نفسه مرتبطاً بهاتين اليدين - وهذا الجزء من نفسه هو بعينه الذي جعله يتوقف منذ لحظة ، وهو بعينه الذي يتعرف على الأمومة والطفولة والموت في اشد مظاهرها تفاهة .

وصاح أحد رجال الميليشيا : « قف ! » ولم يخفف السائق من سرعته فصوب رجل الميليشيا بندقيته نحوها ، وهنا صاح السائق : « طيارون جرحى » ، فوثب رجل الميليشيا فوق سلم السيارة صائحاً : « قف بحق السماء ! » .

- « قلت لك : انهم طيارون جرحى ، أيها الغبي ! ألا ترى جيداً ؟ » وتبادلا جملتين أخريين لم يفهمهما الجرحى ، وأطلق رجل الميليشيا النار ، فانكفأ السائق على عجلة السيارة ، وكادت السيارة تصطدم بشجرة ، فداس رجل الميليشيا على الفرامل ، وقفز ، ثم مضى في طريقه .

ووثب داخل السيارة رجل من رجال الميليشيا الفوضويين ، يضع على رأسه قبعة عسكرية حمراء وسوداء ، ويحمل سيفاً الى جانبه ، قال : « لماذا

أوقفكم ذلك المأفون ؟ » فأجابه أتينييس : « لا أدري ! » .

ووثب الفوضوي الى الأرض ، وجرى وراء رجل الميليشيا الآخر ، ولم يلبث الأثنان أن اختفيا وراء الأشجار الخضراء القائمة في ضوء الشمس ، وظلت السيارة في مكانها لا تريم ، فلم يكن بين الجرحى من يستطيع قيادتها ، وعاد الفوضوي الى الظهور ، وكأنه خرج من وراء الكواليس ، وقد أمسك بيده سيفاً أحمر ، وعاد حتى بلغ السيارة ، فوضع السائق المقتول على حافة الطريق ، ثم جلس مكانه ، وقاد السيارة دون أن يوجه سؤالاً ، والتفت بعد عشر دقائق ، وهو يلوح بسيفه الملطخ بالدماء : « وغد ، عدو الشعب ، لن يعود الى ما فعل » .

وهز سمبرانو منكبيه ضجراً من الموت ، فاستاء الفوضوي ، وأشاح برأسه .

قاد السيارة متعمداً ألا ينظر الى جيرانه ، ولم يكن يقود في عناية فحسب ، بل كان يحاول أن يتجنب المطبات أيضاً .

وقال بول بالفرنسية ، وكان وجهه خارج السيارة على مقربة من القبعة العسكرية الحمراء ـ السوداء : « أنت تتحدث عن رجل من رجال الميليشيا المحليين ، وحين ينتهي من تجهمه ، سيقص علينا القصة ! » .

ونظر اتينييس الى وجه الفوضوي المغلق المعادي الماثل خلف يدين متشبثتين بزجاج السيارة .

وأخيراً وصلوا الى المستشفى .

كان المستشفى خالياً ، وان امتلأ بالأجهزة والضمادات وبجميع الآثار الدالة على مرور الألم في ذلك المكان ، وعلى الأسرة غير المرتبة الملطخة بالدماء في كثير من الأحيان ، والتي كان خلوها الممتزج في قسوة بآثار ما زالت طرية للأشخاص الذين ناموا عليها ، كانت تبدو وكأنما لم ينم عليها اشخاص أحياء أو أموات بوجوههم الخاصة ، وإنما نامت عليها الجراح نفسها : فثمة

دماء مكان الذراع ، أو الرأس ، أو الساق ، وكان لنور الكهرباء وطأة ثقيلة ثابتة أضفت على القاعة كلها طابعاً غير واقعي ، ولسيطرة اللون الأبيض الواحد طابع الحلم لولا بقع الدماء ، وبعض الأجسام التي فرضت في وحشية حضور الحياة ، وكانت ثلاث حالات لا يمكن نقلها تنتظر الفاشيين ، وقد وضع كل شخص من أصحاب هذه الحالات مسدسه الى جواره .

لم يكن هؤلاء ينتظرون شيئاً سوى الموت على أيديهم أو على أيدي اعدائهم ، اللهم إلا اذا حضرت الطائرات الصحية في الوقت المناسب ، ونظروا في صمت الى دخول بول بشعره المجعد ، وسمبرانو بشفته البارزة ، والى الآخرين بوجوه علاها الألم ، وامتلأت القاعة بذلك الاخاء الذي يجمع بين المنكوبين .

الفصل الثاني

وادي الحجارة

تمكن أربعون ألفاً من الايطاليين الذين تضمهم الوحدات المدرعة بدباباتهم وطياراتهم من اختراق جبهة الجمهوريين عند فيلافيشيوزا ، وكان عليهم أن ينحدروا من وديان أنجيريا وتاخونيا ، وان يسلكوا طريق وادي الحجارة ، وقلعة عبد السلام (هنارس) للانضمام الى جيش فرانكو الجنوبي الذي أوقف عند أرجاندا ، وبذلك يقطعون كل اتصال بمدريد .

ولم يجد الايطاليون ـ الذين ازدهاهم انتصارهم في ملقة ـ سوى خمسة آلاف من الرجال أمامهم . بيد أن رجال الميليشيا هزموا في ملقة مثلما هزموا في طليطلة ، ولم يكن قتالهم هنا أفضل منه في مدريد . وفي اليوم الحادي عشر تمكن الاسبان والبولنديون والألمان والفرنسيون البلجيكيون وأتباع غاريبالدي في الفرقة الأولى ـ ثمانية ضد واحد ـ من صد الغارة الايطالية على جانبي طريق سرقسطة وطريق بريويجا .

وما ان تسللت اضواء الفجر الشاحبة من السحب المثقلة بالثلوج ، حتى شرعت القذائف الأحراج والغابات المفتوحة التي اعتمد عليها الألمان في كتيبة ادجار ـ آندريه والمتطوعون الجدد الذين أرسلوا على عجل ، وانخلعت اشجار الزيتون من قذيفة واحدة ، فتطايرت جميعاً ، حتى بلغت عنان السماء هناك حيث كانت الثلوج معلقة في السحب ، ثم تهاوت كالصواريخ النارية تتقدمها فروعها ، في جلبة اشبه بتكسر الأوراق .

ووصلت موجة الهجوم الايطالية الأولى . وهنا قال قوميسير سياسي : « يا رفاق ، إن مصير الجمهورية سيتحدد خلال الدقائق العشر القادمة ، ورابط رجال المدفعية الرشاشة الثقيلة الى جوار مدافعهم ساحبين مزاليجها قبل موتهم مباشرة ، واستطاع الجمهوريون أن يشيدوا خطاً للدفاع تحت وابل النيران ، وأن يدعموا جناحيهم .

وفي بعض الأحيان كانت قذائف الفاشيين تمتنع عن الانفجار .

ونهض قوميسير السرية الجديدة ، قائلاً :

ـ « تحية للعمال الذين أعدموا في ميلانو بتهمة تخريب القذائف ! » .

ووقف الجميع وإن تردد عمال مصانع الأسلحة ، وكانوا يعلمون بأن القذائف لا تنفجر دائماً .

ووصلت الدبابات الفاشية .

غير ان رجال الفرقة العالمية ورجال الديناميت كانوا قد اعتادوا مواجهة الدبابات في معركة نهر شرنبة Jarama وحين وصلت الدبابات الى العراء انكمش الألمان تحت الأشجار ، لا يبرحونها. وكانت الدبابات مزودة بمدافع رشاشة ، ولكنهم كانوا أيضاً مزودين بمثلها ، وأمام الأشجار المتلاصقة أخذت الدبابات تجوس جيئة وذهاباً دون جدوى ، مثل كلاب ضخمة ، ومن حين الى آخر كانت شجرة بلوط صغيرة تطير حتى تصل الى السحب المثقلة بالثلوج .

ومن الغابة المنسحقة حصدت المدافع الرشاشة الفلمنكية صفوف الفاشيين المهاجمة ، وصاح رئيس رجال المدفعية : « ما دمنا نملك ذخيرة لتلك الآلات فسيكون كل شيء على ما يرام »، صاح بهذه الجملة وسط هدير المدافع الراعدة ، وأزيز طلقات البنادق ، وانهمارات المدافع الرشاشة ، وانفجارات الرصاصات المتفجرة ، وصفير قذائف الدبابات الحاد ، وطنين الطائرات التي لم تستطع الخروج من السحب المنخفضة أشد الانخفاض.

وفي المساء هاجم الايطاليون بقاذفات اللهب ، ولكنها لم تنجح فيما فشلت فيه الدبابات .

وعادت فرقة الصاعقة الايطالية الى الهجوم في اليوم الثاني عشر ، والتقت بكتائب الفرقة الخامسة ، وهي كتائب مانويل والفرسيين والألمان . وفي ختام النهار احتشد الايطاليون فوق رقعة ضيقة من الأرض ، وقد تقطعت خطوط مواصلاتهم ، ولم تعد ذخيرتهم الثقيلة وتموينهم يصلان الى الجبهة ، وبدأ الجليد في السقوط ، وظل الطريق يتهدده الخطر ، بيد أن الجيش الايطالي لم يكن أقل من ذلك تعرضاً للأخطار .

وفي اليوم الثالث عشر انقطع انهمار الجليد ، ومات بعض المتحاربين من الصقيع .

ووصلت في اثناء الليل تعزيزات من الكتائب الاسبانية قادمة من مدريد ، وكذلك وصلت تعزيزات من الفرقة العالمية ومن رجال اكسيمينيس الحاملي الغدارات . وأصبح الجمهوريون يقاتلون بجندي منهم ضد اثنين من جنود الأعداء ، ووقف الآن رجال الفرقة العالمية في خط النار مجهزين ، وإن لم يكونوا مسلحين تسليحاً جيداً ، وفي الجانب الآخر من الطريق ، وفي خط موازٍ لهؤلاء صعد رجال مانويل وفرقة ليستر بأحذيتهم المصنوعة من المطاط . ولم يشعر سيري ومارنجو (وقد انضما الآن الى الكتيبة الفرنسية ـ البلجيكية) لم يشعرا قط منذ ثلاثة اشهر من المعارك المشتركة انهما أقرب الى الاسبان منهما في ذلك المساء القارص من أمسيات مارس ، حين صعد جيش الشعب في خطوة منتظمة بأحذيته المطاطية صوب ذلك الأفق الذي رجته القنابل رجاً . وأحياناً كان مدفع ثقيل ينبح نباحاً أسرع ، فتجيبه مدافع أخرى ، كما كانت تفعل الكلاب في حقول وادي الحجارة ، وكلما تعالت ضجة المدافع ، اشتد تلاصق الرجال بعضهم الى بعض .

في اليوم الرابع عشر هاجمت قوات الفرقة الخامسة ومانويل مدينة تريجوك ، واستولت عليها ، أما جناح الأعداء الآخر فكان يحميه قصر

« ايبارا » ، ووراء كل نافذة بندقية سريعة الطلقات ، وما فتئت القوات الفرنسية - البلجيكية والقوات الجاريبالدية تهاجمه منذ الساعة الثانية بعد الظهر .

وكان ستون في المائة من القوات الجاريبالدية تزيد سنهم على خمسة وأربعين عاماً .

لم يكونوا يرون الآن شيئاً من القصر المنخفض المسطح ، وهم قابعون تحت أشجار الغابة - سوى ألسنة قصار من اللهب تتخلل الليل الهابط ، والجليد الذي عاد الى الإنهمار ، وخفت حدة النيران ، فتناهت الى اسماعهم مرة أخرى طلقات متفرقات، وصوت هائل اذا قيس بالصوت الآدمي كان أشبه بالمدفع بالقياس الى البندقية - شرع يزمجر باللغة الايطالية قائلاً :

- « يا رفاق ، يا عمال وفلاحي ايطاليا . . لماذا تحاربون ضدنا ؟ وحين تكفون عن الاستماع الى مكبر الصوت هذا - ستكون الضجة التي تطغي عليه هي ضجة الموت . فهل تموتون لكي تمنعوا عمال اسبانيا وفلاحيها من أن يحيوا حياة حرة ؟ إنهم يخدعونكم . . . ونحن . . . » .

وطغى انطلاق المدافع والقنابل اليدوية على صوت مكبر الصوت الجمهوري ، وكان ذلك المكبر للصوت رباعي الأركان أشبه بصفيحة بترول ملقاة على جنبها ، وأضخم من السيارة التي تحمله - يكاد يكون وحيداً خلف ستار الغابة مهجوراً ، ولكنه حي ما دام يتكلم . . . وهذا الزئير المنطلق من مسافة كيلومترين ، وكأنه يعلن نهاية العالم ، في لهجة بطيئة حتى ليصعب الى المرء تمييز عباراته - كان يصرخ في البداية عبر الليل المنسدل والأشجار ذات الأغصان التي قطعتها الرصاصات والجليد الذي لا ينتهي :

« يا رفاق ، سيقول لكم أسراكم عندنا : إن « الهمجيين الحمر » قد استقبلوهم بأذرع مفتوحة ما زالت دماؤها تسيل من الجروح التي أحدثتموها بهم . . . » .

وتقدمت دورية فاشية عبر الجليد والغابة التي سيطر عليها مكبر الصوت .

وصاح صوت بالايطالية في أثناء برهة من الصمت : « ألقوا أسلحتكم » .

وصاح الضابط : كفوا عن اطلاق النار ، يا أيها الحمقى المعتوهون . . اننا نحن ! » .

- « ألقوا أسلحتكم ! » .

- « ولكنني قلت من نكون ! »

- « نعلم ذلك ، لكن ألقوا أسلحتكم » .

- « ألقوا أنتم أسلحتكم ! » .

- « بعد أن نعد ثلاثة سنطلق النار » .

وبدأت الدورية تدرك ان الايطاليين الذين يجيبون عليها ليسوا من رجالها .

- « واحد . . . استسلموا ! » .

- « لن يحدث ذلك أبداً » .

- « اثنان . . . استسلموا ! » .

وألقت الدورية سلاحها .

* * *

هاجم الجاريبالديون « القصر » من جانب ، والفرنسيون - البلجيكيون من الجانب الآخر ، وارتفع صارخ فوق الغابة ، فأضاء أغصاناً سوداء وسط دوامات من الجليد . وقفزت شجرة ذات أغصان منخفضة متشابكة وفي أثناء سقوطها بعيداً في ضجة أحدثتها شاهد سيري خمسة من زملائه

يـركضون . . . لم يلبث أن سقط منهم أربعـة ، وأختفى رأس زميله الأيمن ، والرصاصات تحفر الأرض في كل مكان ، وثمـة شخص يشير الى شيء مـا ، فإذا أعاد يـده الى مكانها عـادت ملطخة . وقبـل أن يدرك سيـري أن اختفاء الشجرة معناه أنـه اصبح تحت رحمـة النيران المنـطلقة من إحـدى نوافـد قصر « ايبـارا » ـ جـرى بـأقصى سـرعتـه ، وقـد تقلصت عضـلات ظهـره ليمنـع الرصاص من النفاذ فيه ، عندما عاد اليه تفكيره السليم فجأة انبطح على بطنـه أمام ملازم ، ولم يلبث هذا الملازم أن نهض ، ثم سقط من فـوره مرة أخـرى وهو يطلق آهة مدهوشة : « أوه ! أوه . . . ! » وتساءل سيري هامساً : « ماذا دهاه ؟ آه جريح هو ؟ » فأجابه صوت : «ميت » وكان سيري قد اقترب هو ورفاقه من حائط القصر ، غير أن الفجوة الكبيرة التي احدثها انتزاع الشجـرة ركّـز على هـذا المكان الـرصاص المنـطلق من عشرين نـافـذة زينتهـا البنـادق السريعة الطلقات ، وتراجع الجنـود زاحفين الى الـوراء وبطونهم ملتصقـة الى الأرض وكأنما اصيبوا جميعاً في بطونهم ، وكان الخنفس الجريح ، وقـد ارتسم الذعر على وجهه ، ولكنه لم يتخل عنـه ، وكان سيـري يسمع دقـات ساعتـه الضعيفة خلال ضجة المدافع والبنادق ، والرشاشات والرصاص المتفجر ، اذ كان يسند رأسـه فوق ذراعـه اليسرى . ومـا دام يسمع هـذه الدقـات فمعنى ذلـك أنه لم يقتـل . وكان يشعـر شعوراً غـامضاً بـأنه ارتكب ذنبـاً يـريـد أن يخفيـه ، احسـاسـاً شبيهـاً بخـوفـه من خفـراء الحقـول ، حـين كـان يسـرق الكمثـري . وأخيراً وصـل الى مكان غـير مكشوف ، في نفس الـوقت الـذي وصل فيه الشخص الذي يسحب الجريح .

وكان مارنجو على بعد عشرة امتار من الحائط الذي يحمي القصر ، ومن هناك يمكن المرء أن يلقي بالقنابـل اليدويـة ، وكانت طلقـات الأعداء تتـوالى فـوق قمـة الجـدار . . . في الليـل والجليـد صـادرة من الأرض ، خلف كـل نافذة ، فتحـدث لها قـرقعة كقـرقعة الحـريق . وطفق مارنجـو البدين يـطلق ويطلق على الومضات الحمراء وعلى الانفجارات ، واحس بالراحة ومال عليه شخص من الخلف : « انـه القائـد . « لا تصخب هكذا ، فـإنك بهـذا تدل

على مكانك » . وكان أحد رجال الفرقة العالمية معلقاً من يديه الاثنتين الى حائط القصر مقتولاً بلا شك ! وتقدم مارنجو دون أن يكف عن اطلاق النار : وعلى يمينه زحف زملاؤه أيضاً وسط ضجة القذائف والمدافع الرشاشة ، والقنابل اليدوية والزمجرات التي لا معنى لها . وارتفع صاروخ آخر بين الأشجار فكشف ضوءه عن انفجارات القنابل اليدوية المتشنجة وعن الأغصان وعن ذراع مبتورة ذات أصابع متباعدة . وكانت بندقية مارنجو مشتعلة من شدة اطلاق النار فوضعها فوق الجليد وشرع يقذف بقنابله اليدوية التي ناولها إياها جريح من رجال الفرقة العالمية . وفتح آخر فاه وأغلقه بالتناوب كسمكة تختنق ، وأطلق ثلاثة آخرون بنادقهم . . لم يتبق سوى مترين ، وكان الآن قريباً أشد القرب من الجدار بقنابله اليدوية وبين شفتيه سيجارة كان يتوهم أنه يدخنها .

وصاح صوت آمر من خلال الجليد : « ماذا يصنعون على اليسار ؟ أطلقوا النار بأسرع من ذلك ! » .

فأجاب صوت آخر : « إنهم أموات . . . »

وحاول أشجع الفاشيين الدفاع عن الجدار ، غير أن أفضل رماتهم أحسوا بأنهم لا يحسنون اطلاق النار وذلك لأن الجاريبالديين والفرنسيين والبلجيكيين ألقوا بأنفسهم على الحائط في حالة من الهياج وكأنما جن جنونهم بفعل القتال والجليد فلم يكونوا يسقطون إلا بعد لحظات من أصابتهم . ومن القصر والغابة انطلقت فجأة صيحات قلقة ، وسادت فترة من الصمت عندما شاهد الفاشيون والأفاقون الذين جمعوا من كل أركان صقلية ، على ضوء الصاروخ ـ شاهدوا الجاريبالديين المخضرمين ذوي الشوارب الشهباء وهم يحملون عليهم عبر الجليد الأزرق ، ثم استؤنفت الضجة . وسواء بلغ المهاجمون الجدار أو أن ذلك الصمت الغريب الذي يسيطر أحياناً على المقاهي والاجتماعات في الحرب أيضاً فقد بدا ان احتدام الانفجارات قد تعالى فجأة مع دوامات من الجليد حملتها رياح غاضبة صوب السماء السوداء وكأنما كان مكبر الصوت ينتظر هذا السكون ، اذ سمعه الفاشيون والجاريبالديون

والفرنسيون والبلجيكيون وهو يقول :

ـ « استمعوا . . أيها الرفاق أليس هـذا حقاً ؟ أليس هـذا حقاً ؟ . هـذا انجلو يتحدث اليكم ، أولاً : انهم يملكو ن دبابات وقد شاهـدتها ومـدافع ! وجنرالات . . . وهؤلاء الجنرالات قد استجوبونا !

« انهم لا يـطلقون النيـران عليكم ، إنني أنا انجلو ! إنني لم أُعـدم ! بل على العكس لقد خدعونا وسوف يقتلوننا جميعاً ! . . تعالوا يا أولاد تعالوا » .

وأخذ سيري « ينصت بعـد أن عاد الى الجـدار وأنصت الجاريبـالديـون أيضـاً ، أما مـارنجو والفـرنسيون والبلجيكيـون فكانـوا يخمنـون مـا يقـال ، وأجابت بنادق الفاشيين الرشاشة جميعاً من القصر ، وهدأت حدة الريـح على حين تساقط الجليد غير المكترث مرة أخرى في تثاقل .

وقف سيري عند ركن الجدار ، وهناك بعيـداً كا نت تقـوم بعض المنازل الصغيـرة تحت الأشجار ، منـازل اليمين يحتلهـا الجمهوريـون ومنازل اليسـار يحتلها الفاشيون . وسمع « سيري » أصوات أسـرى البارحـة الذين يحـاربون الآن مع الجاريبالديـين ـ وقد تنـاهت اليه ضعيفـة ، كأنها أصـوات الجرحى ـ عقب مكبر الصوت ، سمعهم يصيحون عبر الجليد .

« كارلو ، كارلو ، لا تكن معتوهاً ، لا تبق في الداخل انني أنا جويدو لا تخش شيئاً سأدبر كل شيء » .

ـ « يا عصبة من الأوغاد ، يا عصبة من الخونة ! » .
وصدر أمر أعقبه سيل من رصاص البنادق السريعة الطلقات .
ـ « برونو . . . . انهم الزملاء فلا تطلق النار ! » .

وتعالت الضجة ، ثم هبطت مع الزوابع الشديدة ، كأن الريح التي تثير ندف الثلج تثير أيضاً حمية القتـال ، وقذف مـارنجو بآخر قنـابله اليدويـة ، وتنـاول بندقيتـه مرة أخـرى ، ولكنها انتـزعت في الحال من يـديـه ، في نفس الـوقت طار فيـه زملاؤه الثـلاثـة داخـل اللهب ، وأذرعهم مثنيـة نحـوهم ،

فجرى صوب الحائط ، والتصق به ، ثم التقط بندقية زميله المعلق الى الصخور من يديه الأثنتين .

وانقطع سقوط الجليد .

وساد من جديد صمت مفاجىء ، وكأن عناصر الطبيعة أقوى من الحرب ، وكأن السلام الهابط من سماء الشتاء التي لم تعد شظايا الجليد قادرة على اخفائها قد فرض على القتال . ومن ثغرة عظيمة لاح القمر ، ولأول مرة بدا الجليد ناصع البياض ، بعد أن كان أزرق اللون في ضوء الصواريخ . وشن البولنديون هجوماً بالسلاح الأبيض ، وراء رجال الفرقة العالمية ، فوق أرض مغلقة تحوطها جدران صغيرة على هيئة طوابق ، ولم يكونوا يهاجمون بكتلتهم ، بل بجماعات صغيرة متفرقة ، تحميهم الجدران المنخفضة المدفونة الى نصفها في الجليد ، وكان الفرنسيون والبلجيكيون والجاريبالديون يتبينونهم في مشقة ، ولكن ، حين توقف الزحف بالحراب ، وصلت الى أسماعهم في وضوح طلقات الرصاص وهي تقترب ، وكان أولئك الرجال غير المرئيين تقريباً الذين تتقدم طلقات بنادقهم في اصرار وسط انطلاق القذائف والانفجارات ، مثلما يتقدم هجوم تحت الأرض ، عبر ستار عمودي هائل من شذرات الجليد الناعم في ضوء القمر . . كان أولئك الرجال يصعدون السلم الجليدي العريض الممتد فوق سفح التل ، وكأنهم كتائب مستسرة بعثتها الآلهة . . . كما جاء في الأساطير . . .

وعلى مبعدة ، سمع « سيري » عواء غير مفهوم منبعثاً من مكبر اسباني للصوت كان يتحدث فيه الأب باركا ، الزميل القديم لكل من مانويل وجارسيا .

وفجأة تساءل سيري ومارنجو ، والفرنسيون ـ البلجيكيون ، والجاريبالديون الذين يحاربون الى جانبهم ـ تساءلوا : هل مسهم طائف من الجنون ؟ فمن القصر هبطت أغنية يعرفونها حق المعرفة . وكان رجال الفرقة العالمية يهاجمون من جهات ثلاث ، وكان من الممكن أن تنفذ سرايا أخرى الى

القصر في الوقت الذي توقفت فيه هذه الفرقة عند الحائط .

بيد أن الجميع كانوا يتذكرون « نشيد العالمية » الذي انشده الفاشيون في معركة شـرنبة (خـاراما) ثم انقضـوا عليهم بعد ذلـك في خنادقهم ، ولهـذا صـاحوا : « ألقـوا أسلحتكم أولاً ! » فلم يرد عليهم أحـد ، واستمر قصف المدافع وإن خفت حدة اطلاق النار ، وعاد الجليد الى الانهمار في زوابع اشد عنفاً ، ومع ذلك فهناك في مؤخـرة هذا الجليـد خمدت ألسنـة اللهب الحمراء الصغيرة في نوافذ القصر ، واستمر النشيد : بالايطاليـة كان أم بـالفرنسيـة ؟ من المحـال تمييز الكلمـات . . . وتوقف اطـلاق النـار عليهم ، وهتف مكبـر الصوت بالاسبانية من خلال الأشجار المجردة من فروعهـا : « أوقفوا النـار ، فقد تم الاستيلاء على قصر « ايبارا » .

واعتقد الجميع انهم سيهاجمون صباح اليوم التالي .

الفصل الثالث :

مساء اليوم التالي ، جبهة الساحل الشرقي

كان تليفون المطار في كشك ، وكان مانيان يضع السماعة فوق أذنه ، ويراقب طائرة « البطة » وهي تهبط في غبار الشمس الغاربة .

ـ « هنا ادارة العمليات الحربية . . . هل لديكم طياران مستعدان ؟ » .

ـ « أجل . . . »

وكانت الطائرات التي تستخدم كل يوم في الغارة على ترويل ، والتي اصلحت بقطع رديئة قد اصبحت أقل صلاحية مما كانت عليه في طلبيرة ، وكان طاقم التشغيل مشغولاً دائماً بالكاربوراتيرات .

ـ « القومندان جارسيا يبعث اليكم بفلاح من شمالي « ألباراسان » استطاع أن يجتاز خطوط الفاشيين في الليلة الماضية ، ويبدو أن هناك مطاراً مليئاً بالطائرات على مقربة من قريته ولا مخابىء تحت الأرض » .

ـ « أنا لاأؤمن بمخابئهم الكامنة تحت الأرض ، كما لا أؤمن بمخابئنا . وقد كتبت ذلك امس في تقريري ، لقد أغرنا على مطار طريق سرقسطة بلا طائل ، لأن الطائرات في مطارات سرية ، لا لأنها تحت الأرض » .

ـ « سنرسل اليك الفلاح ، فابحث الموضوع ، واتصل بنا » .

ـ « آلو ! » .

ـ « آلو ؟ »

ـ « وما الضمانات التي يقدمها الفلاح ؟ » .

ـ « القومندان ، ونقابته على ما أظنَ » .

ووصل الفلاح بعد نصف ساعة يقوده صف ضابط من ادارة العمليات . وأمسكه مانيان من ذراعه ، وشرع يمشي معه على طول المطار ، وكانت الطائرات تختم اختباراتها في أضواء النهار الأخير .

وعلى امتداد التلال أرخى المساء هدوءه على مساحات واسعة من الفضاء ، وعلى البحر ، وعلى المطارات . أين رأى مانيان هذا الوجه من قبل ؟ في كل مكان ، انه وجه الأقزام الأسبان . غير ان الرجل كان متين البنيان ، وأطول منه .

ـ « لقد اجتزت الخطوط لتحذيرنا . شكراً على ما تجشمت من عناء » .
فابتسم الفلاح ابتسامة الأحدب اللطيفة .

ـ « اين الطائرات ؟ » .

ـ « في الغابات » ورفع الفلاح سبابته ثم قال : « في الغابات » . ونظر من خلال أشجار الزيتون الى الممرات الخالية التي أخفيت فيها طائرات الفرقة العالمية ، ثم أستطرد قائلاً : « إنها ممرات شبيهة بهذه . . . نفس الشيء ، وإن تكن أشد توغلاً . . . لأنها غابة حقيقية » .

ـ « وما شكل المطار ؟ » .

ـ « ذلك المكان الذي يطيرون منه ؟ » .

ـ « أجل . . . »

وتلفت الفلاح حواليه .

ـ « إنه لا يشبه هذا » .

وأخرج مانيان مفكرته ، ورسم الفلاح المطار .

ـ « أضيق هو جداً ؟ » .

ـ « انه ليس واسعاً . . . بيد ان الجنود يعملون فيه عملاً شاقاً . . انهم يريدون توسيعه » .

ـ « وأين يتجه ؟ » .

فأغمض الفلاح عينيه ، وجعل يدير رأسه يمنة ويسرة :

ـ « في مواجهة ريح الشرق » .

ـ « إيه . . ثم . . حسن ، وعلى هذا تكون الغابة على الجانب الغربي من المطار ؟ وهل أنت متيقن ؟ » .

ـ « كل التيقن » .

ونظر مانيان الى جهاز تحديد اتجاه الريح القائم فوق اشجار الزيتون : كانت الريح في هذه اللحظة آتية من الغرب ، وعلى هذا ، فلا بد أن تنطلق الطائرات اذا كان المطار صغيراً ـ عكس اتجاه الريح ، فاذا كانت الريح تتجه نفس اتجاهها في ترويل فينبغي لتلك الطائرات ان تصعد في حالة الهجوم ، والريح خلفها .

ـ « هل تذكر اتجاه الريح أمس؟ » .

ـ « شمالية غربية ، واعتقد الناس أن السماء ستمطر » .

اذن فمما لا شك فيه أن الطائرات بقيت هناك دائماً ، واذا لم تتغير الريح سارت الأمور على ما يرام .

ـ « كم عدد الطائرات ؟ » .

وكان للفلاح شوشة تسقط فوق جبهته اشبه بمنقار الببغاء ، ورفع سبابته مرة أخرى قائلاً :

ـ « انا . . أتفهم ما أعني ؟ ـ أنا أحصيت ست طائرات صغيرة . .

ولكن هناك زملاء استطاعوا احصاءها أيضاً . . غير انهم ليسوا جميعاً على اتفاق . . . ويقولون : إن الطائرات الضخمة هي كذلك على الأقل . . . على الأقل . . . وربما كانت أكثر . . » .

واستغرق مانيان في التفكير . ثم أخرج خريطته ، بيد أن الفلاح لم يكن يعرف القراءة ، كما توقع .

ـ « ليست هذه مهنتي ، ولكن اصحبني في طائرتك ، فأني ساريك . . فوراً » .

وأدرك مانيان لماذا دافع جارسيا عن الفلاح .

ـ « هل ركبت طائرة من قبل ؟ » .

ـ « كلا » .

ـ « ألا تشعر بالقلق ؟ » .

ولكنه لم يفهم هذه العبارة الأخيرة جيداً .

ـ « أعني ، هل تشعر بالخوف ؟ » .

فأمعن في الفكر ، ثم قال :

ـ « كلا » .

ـ « هل ستتعرف على المطار ؟ » .

ـ « لقد عشت في القرية ثمانية وعشرين عاماً ، واشتغلت في المدينة ، أنت تدلني على طريق سرقسطة ، وأنا أدلك على المطار . . . بكل هدوء » .

وأرسل مانيان الفلاح الى القصر ، وأتصل تليفونياً بإدارة العمليات . . .

ـ « يبدو أن هناك اثنتي عشرة طيارة للعدو . . . تقريباً . . ومن الجلي أن أفضل وسيلة هي الاغارة في الفجر ، ولكن ليس تحت تصرفي صباح غد سوى قاذفتين للقنابل ، وليس لديَّ طائرات مطاردة ، لأنها جميعاً فوق وادي

الحجارة . . وأنا أعرف المنطقة جيداً ، بيد أن المهمة خطيرة تمام الخطورة ، لأن الجو هناك في تلك اللحظة لا يكون صافياً إلا في النادر . . وعلى ذلك ، فمن رأيي أن أتصل تليفونياً بمحطة الأرصاد الجوية في ساريون في الساعة الخامسة صباحاً ، فاذا لم يكن الجو رديئاً كل الرداءة فلا مانع من الذهاب » .

- « الكولونيل فارجاس يترك لك اتخاذ القرار ، فاذا قررت الرحيل وضع تحت تصرفك طائرة الكابتن موروس . ولا تنس انه قد توجد طائرات مطاردة للحماية في ساريون » .

- « شكراً لك . . . آه ! شيء آخر : الرحيل ليلاً أمر لا غبار عليه ، ولكن ليس بالمطار أنوار أرضية . . فهل لديك مصابيح للإرشاد ؟ » .

- « كلا » .

- « امتيقن أنت ؟ » .

- « انهم يطلبون مني ذلك طيلة النهار » .

- « وماذا عن وزارة الحرب ؟ » .

- « نفس الشيء » .

- « فلتكن مصابيح سيارات اذن ؟ » .

- « كلها مستخدمة » .

- « حسن ، سأحاول أن أتدبر أمري » .

واتصل تليفونياً بوزارة الحرب ، فتلقى نفس الرد .

لا بد اذن من الرحيل من مطار صغير يخلو من الأنوار ، ومن الممكن أن تسير الأمور لو وضعت سيارات على جوانب ثلاثة . . لم يبق اذن إلا العثور على السيارات .

واستقل مانيان سيارته، وانطلق عبر الليل المنسدل ، الى اللجنة التي في أول قرية .

كانت الأشياء التي تم الاستيلاء عليها مكدسة على الأرض : من آلات للخياطة ، ولوحات وشماعات ، وسرر وسروج ، كانت مقابض الأدوات بينها تلتقط أضواء المصابيح التي فوق منضدة في نهاية القاعة . . . وكانت هذه الأشياء تضفي على الطابق الأرضي فوضى منظمة توحي بصالة المزاد ، وكان الفلاحون يمرون واحداً اثر الآخر أمام تلك المنضدة ، وأقبل أحد المسؤولين صوب مانيان .

قال هذا الأخير وهو يصافحه : « احتاج الى سيارات » .

ورفع المندوب الفلاح ذراعيه الى السماء دون أن يتفوه بشيء ، وكان مانيان يعرف جيداً مندوبي القرى هؤلاء : من النادر أن يكونوا شباناً ، وعلى سيماهم علامات الجد ، والصرامة (نصف وقتهم ضائع في الدفاع عن اللجنة ضد الانتهازيين) . ولكنهم اكفاء دائماً .

قال مانيان : « إن المسألة هي أننا أنشأنا مطاراً جديداً ، ولكنه لم يزود بالأنوار الأرضية بعد ، أعني انه لم يجهز بالأنوار اللازمة لارشاد الطائرات في رحيلها وعودتها في اثناء الليل . ولا توجد غير وسيلة واحدة هي احاطة المطار بمصابيح السيارات . ووزارة الحرب لا تمتلك سيارات ، أما أنت فتمتلك بعضها ، ولهذا لا بد أن تعيرني الليلة عدداً منها » .

ـ « انني احتاج الى اثنتي عشرة سيارة ، وليس عندي سوى خمس ، ثلاث منها سيارات نقل صغيرة ، فكيف تريدني أن أعيرك إياها ؟ واحدة منها . . . »

ـ « كلا . . لا أريد واحدة اذا كانت طائراتنا في ترويل فإنها تستطيع صد الفاشيين . . وإلا فإن الفاشيين هم الذين سيذهبون ليسحقوا رجال الميليشيا . هل فهمت ؟ لهذا لا بد من سيارات ، سواء أكانت سيارات نقل صغيرة أم لم تكن . انها مسألة حياة أو موت بالنسبة لرفاقنا الذين يمتطون متن

الهواء . . . اسمع ، فيم تستخدم سياراتك ؟ » .

ـ « في اشياء أقل من ذلك أهمية ، كل ما في الأمر هو انه ليس من حقي إعارة السيارات دون سائقين ، والسائقون قد عملوا اليوم خمس عشرة ساعة . ، و . . . » .

ـ « اذا أرادا النوم في السيارات . . . واذا أردتني أن اتحدث الى سائقيك فسأتحدث اليهم ، وأنا على ثقة من انهم سيوافقون . . . وسيقبلون اذا شرحت لهم بنفسك أهمية المسألة » .

ـ « في أي ساعة تريد السيارات ؟ » .

ـ « الساعة الرابعة صباحاً » .

وذهب المندوب لمناقشة الموضوع مع اثنين آخرين كانا يقفان وراء المنضدة التي وضعت عليها مصابيح الغاز ، ولم يلبث أن عاد .

ـ « سنفعل ما نستطيع ، وإني أعدك بثلاث سيارات . . . وبأكثر من ذلك العدد إن أمكن » .

وانتقل مانيان من قرية مظلمة الى قرية أخرى مظلمة ، ومن القاعات التي تكدست فيها مختلف الأشياء الى القاعات البيضاء الفسيحة التي القى على جدرانها المندوبون والفلاحون الواقفون في قمصانهم السوداء مجموعات من الظلال ، وعبر الميادين الملونة كأنها ديكورات مسرحية ، والتي أخذت تخلو من الناس شيئاً فشيئاً ، هناك حيث ألقت أضواء المقاهي ، وأضواء مصابيح الغاز الأخيرة بقعاً فوسفورية كبيرة على القباب البنفسجية للكنائس المعطّلة .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف صباحاً حين عاد الى أول قرية بدأ بها ، وفي الضوء الخافت الذي يضيء واجهة منزل اللجنة كان ثمة رجال ينقلون زكائب بعضهم وراء الآخر ، مثل أولئك الذين يشحنون السفن بالفحم ، وكانوا يجتازون الشارع ليدخلوا دار العمدية ، فلم يجد سائق مانيان مناصاً من الوقوف ، ومر أحدهم على مقربة من غطاء السيارة منحنياً

تحت نصف عجل مسلوخ . . .

وسأل مانيان فلاحاً يجلس أمام الباب : « من هؤلاء ؟ » .

- « المتطوعون » .

- « المتطوعون من أجل ماذا ؟ » .

- « من أجل الطعام ، فقد طلبوا متطوعين للنقل ، فرحلت سيارتنا الى المطار ، لمساعدة مدريد » .

وعندما عاد مانيان الى المطار كانت السيارة قد وصلت ، وفي الساعة الرابعة والنصف ، كانت هناك اثنتا عشرة سيارة وست سيارات نقل صغيرة بسائقيها ، وحمل كثيرون مصابيح العاصفة دون قصد .

- « أليس هنا عمل آخر نستطيع أن نقوم به ؟ » .

وكان أحد المتطوعين يسب ويلعن ، دون أن يعرف لذلك سبباً .

وحدد مانيان لكل سيارة مكانها ، وأصدر تعليماته بعدم انارة المصابيح إلا حين الاستماع الى محركات الطائرات . ثم عاد الى القصر .

وكان فارجاس في انتظاره .

- « مانيان . . . إن جارسيا يقول : إن هناك اكثر من خمس عشرة طائرة في ذلك المكان » .

- « هذا أفضل » .

- « كلا ، لأن معنى ذلك أنها ستطير الى مدريد ، وأنت تعلم أن هجوماً على وادي الحجارة قد بدأ منذ أول أمس ، واستطاع الأعداء اختراق جبهة فيلافيشيوزا ، ولكننا أوقفناهم عند بريويجا . وهم يريدون الانقضاض على أرجاندا » .

- « من هم ؟ » .

ـ « خمس فرق ايطالية مدرعة : دبابات ، وطائرات ، وكل شيء ! »

وكانت القيادة الألمانية قد حاولت في الشهر الماضي ـ من اليوم السادس الى اليوم العشرين منه ـ الاستيلاء على أرجاندا من الجنوب في معركة من أعنف معارك الحرب » .

قال فارجاس : « سأرحل عند الفجر » .

فأجاب مانيان وهو يلمس مقبض مسدسه الخشبي : « إلى اللقاء» .

* * *

الساعة الخامسة صباحاً ، والجو بارد ، تلك البرودة التي تسبق الفجر . ومانيان يريد قدحاً من القهوة ، وأمام القصر الذي بدا في الظلام أزرق اللون ـ أضاءت سيارته أحد الكروم هناك حيث كانت ظلال رجاله المتأهبين تثب وسط الأشجار ، لجمع ثمار البرتقال البيضاء بياض الثلج اللامعة بقطرات الندى . وفي أقصى المطار كانت السيارة تنتظر في الظلمة .

في اثناء انتظار صدور النداء ـ أخذ مانيان يشرح المهمة لقائدي الطائرات الذين سيتولون نقلها الى رجالهم حين تصعد الطائرات الى الجو . وتيقن أن رجال المدفعية الرشاشة يرتدون قفازاتهم . . . ووراء السيارة التي اضاءت البرتقال والتي ينبغي أن تتيقن قيام الاتصال بين الطائرات حتى آخر لحظة ـ كان رجال الطائرات الملفوفون في ثياب الطيران كأنهم نمور صغيرة يجتازون المطار الزاخر بروائح الليل الأخيرة .

كانت الطائرات تنتظر بأجنحتها التي لا تكاد تظهر تحت صفحة السماء . وكان الرجال يجرون أقدامهم صامتين ، وقد باغتتهم تلك الأنوار غير المتوقعة ، وهم أقرب الى الكآبة منهم الى الانتعاش تحت تأثير تلك الريح التي لطمت وجوههم بالماء المثلج الذي نضحوا به تلك الوجوه . ففي برد تلك الرحلات الليلية كان كل منهم يعلم أنه ذاهب لملاقاة مصيره .

وبدأ الميكانيكيون عملهم على ضوء بطاريات الجيب ، ودارت محركات الطائرة الأولى استعداداً للرحيل . وفي أقصى المطار ، اضيء مصباحان في ليلٍ لا يبالي شيئاً .

ها هي ذي محركات طائرتين أخريين : واستمع سائقو السيارات الى المحركات . وكان مانيان يستطيع أن يتبين في مشقة التلال البعيدة ، وأزيز قاذفة قنابل تحلق عالياً فوق رأسه ، ثم ظهر جناح طائرة أخرى فوق حلقة المحرك الزرقاء . وأضيء مصباحان آخران ، وحددت السيارات الثلاث معالم الطرف الأقصى من المطار . ووراء هذا كله امتدت غابات من أشجار اليوسفي ، وفي هذا الاتجاه نفسه كانت تقوم مدينة ترويل . وهناك ، كان رجال الفرقة العالمية وطوابير الفوضويين ينتظرون الهجوم متلفعين بمعاطفهم التي تشبه معاطف المكسيكيين على مقربة من الجبانة ، أو في الجبال ذات السيول المتجمدة .

وأضرمت نيران وقودها البرتقال الجاف ، وكان لهيبها الأحمر الثائر ضعيفاً بين أنوار المصابيح ، بيد أن رائحتها المريرة التي حملتها الريح كانت تعبر المطار في سحب من الدخان من حين الى حين . وأُضيئت المصابيح الأخرى ، واحداً وراء الآخر . وتذكر مانيان الفلاح الذي حمل نصف العجل المسلوخ فوق ظهره ، والمتطوعين الذين يشحنون المخزن كأنه باخرة . كانت المصابيح مضاءة الآن على الجوانب الثلاثة في وقت واحد ، تصل بينها نيران البرتقال ، وتدور حولها المعاطف ، وتوقفت محركات الطائرة لحظة ، فتناهى الى الأسماع الشخير المتناثر لثماني عشرة سيارة من القرية . وفي تلك الكتلة الهائلة من الظلماء التي لم تستطع أن تنفذ الى قلبها أشعة النور ـ بدت الطائرات المختبئة التي زمجرت محركاتها كلها فجأة في آن واحد ـ كأنها ندبت هذه الليلة لحماية وادي الحجارة ، على أيدي الفلاحين الأسبان جميعاً .

وكان مانيان آخر الراحلين . وحامت طائرات ترويل الثلاث فوق المطار ، وقد أخذت كل منها تبحث عن انوار الأخرى لكي تنتظم في

التشكيـل ، وتحتها ضـاعت رقعة المـطار التي بدت صغيـرة الآن ـ في رحابـة الريف الليلية ، ولاحت لعيني مانيان كـأنها تتجمع كلهـا صوب تلك النيـران البائسة ، ودارت قاذفات القنابل الثلاث . وأضاء مانيان بطاريته ليلقي نـظرة على التخطيط الذي رسمه الفلاح على الخـريطة . واقتحم البـرد الطائـرة من فتحة في البرج ، فقال في نفسه لا بد أن أرتدي قفـازي بعد خمس دقـائق ولا سبيل الى استخدام قلم الرصاص » .

وانتظمت الطائـرات الثلاث في تشكيـل الطيـران ، وسدد مـانيان اتجـاه الطائرة صوب ترويل . وكانت الريح تحمل رائحة نيران البرتقال من المطار ، وجوف الطائرة يسبح في الظلام ، حين أشـرقت الشمس على سحنـة المدفعي المرحة القرمزية .

ـ « مرحى . . أيها الرئيس ! » .

ولم يستـطع مانيـان أن ينتزع نـظرته عن هـذا الثغر الـواسع الضاحـك المفتـوح ، وعن تلك الأسنـان المكسـورة التي بـدت ورديـة في ضـوء الشمس المشـرقة . .وتبـدد ظلام الـطائرة قليـلاً ، أما الأرض فـما زالت تحيـا في عتمـة الليـل . وتقدمت الـطائرات صـوب أول حـاجـز من الجبـال قـام وسط نهار متردد . وعلى الأرض بدأت تتشكل رسوم غامضة لخرائط بدائية .

« اذا لم تكن طـائـراتهم في الجـو فهـذا معنـاه اننـا وصلنـا في الـوقت المناسب » .

وبـدأ مانيـان في تمييز أسـطح بعض المزارع . . لقـد أشـرق النهـار عـلى الأرض . .

* * *

كـان مانيـان قد حـارب كثيراً فـوق جبهة تـرويل هـذه التي تمتد صـوب الجنوب كأنها شبه جزيرة الملايو ، ولهذا فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ويحلق

فوقها بشعوره فحسب ، وما أن كف المدفعيون والميكانيكيون ـ المتوترون دائماً قبل كل معركة ـ عن النظر ناحية ترويل حتى طفقوا يختلسون النظر نحو الفلاح ، فالتقت نظراتهم بتلك الشوشة التي تشبه عرف الببغاء في رأس انخفض في عناد بين خوذات الطيران ، أو بذلك الوجه الذي ارتسمت عليه علامات القلق ـ برهة من الزمان ـ فاخذ يعض شفتيه بأسنانه !

ولم تكن مدفعية الأعداء تطلق نيرانها : والطائرات تحميها السحب . وعلى الأرض طلع النهار طلوعاً تاماً . ولاحظ مانيان على يمينه طائرة « البطة المنطلقة » التي يقودها جارديه ، وعلى يساره قاذفة للوراء قليلاً ، وترتبطان بالطيارة « مارا » كأنهما ذراعان في جسم ، محتفظان بالتشكيل في تلك الرحابة الهادئة المنبسطة بين الشمس وعباب من السحب . وفي كل مرة يمر سرب من الطيور تحت الطائرة كان الفلاح يرفع سبابته . وهنا وهناك كانت تمر قنن جبال ترويل السوداء ، وعلى اليمين تلك الكتلة الضخمة التي يسميها الطيارون جبل الجليد في بياضها اللامع تحت شمس الشتاء ، فوق بياض السحب الأشد نصاعة . واعتاد مانيان الآن ذلك الهدوء الشبيه بهدوء بداية العالم والمخيم فوق اطماع الناس وعنادهم . بيد أن السحب لم تقهر هذه المرة ، ولم يكن هذا الخضم اللامبالي من السحب أقوى من تلك الطائرات التي تحلق جناحاً الى جناح ، صوب عدو واحد ، تربط بينها صداقة واحدة ، وخطر محتجب في كل مكان تحت تلك السماء الساجية ، كما لم يكن أقوى من أولئك الرجال الذين ارتضوا الموت في سبيل شيء آخر غيرهم ، توحد بينهم حركة البوصلة في مصير أخوي بعينه ، ولم يكن من شك أن ترويل في متناول النظر تحت السحب ، غير أن مانيان لم يكن يريد النزول حتى لا تكون حركته إيذاناً ببدء الهجوم . وصاح في أذن الفلاح : « سنجتاز تلك الغابة فوراً » ، وأحس أن هذا الرجل يسائل نفسه : كيف يقودهم وهو لا يرى شيئاً ؟

وكان حاجز البرانس الساطع البعيد يتتابع على هيئة بقع مستطيلة كأنها بحيرات داكنة في الجليد ، تتجه نحوهم ، ولم يكن أمامهم مرة أخرى سوى الانتظار .

واستدارت الطائرات ، بذلك الصبر المتوعد الذي تتسم به أجهزة الحرب . والآن ظهرت لهم خطوط الأعداء .

وأخيراً بدت بقعة رمادية كأنها تنزلق على السحب ، وعبرتها بعض الأسطح التي لم تلبث أن انزلقت هي أيضاً من حافة البقعة الى حافتها الأخرى كأنها أسماك حمراء ساكنة ، ثم عروق استحالت الى ممرات ، ولكن دون أن يكون لها بعد ثالث . وهذه أسطح أخرى ، ودائرة ضخمة شاحبة اللون ، إنها حلبات مصارعة الثيران ! وأعقب ذلك في الحال مجموعة من الأسطح صفراء وحمراء في الضوء الرمادي كأنها قشرة هائلة تكسو ظهر سمكة ، وتملأ الفجوة الممتدة بين السحب ، وأمسك مانيان بالفلاح من كتفه .

- « ترويل ! » .

ولم يفهم الآخر شيئاً .

وصاح مانيان في أذنه : « ترويل ! »

وتضخمت المدينة في الثغرة الرمادية وحيدة بين السحب التي تموج حتى الأفق ، بين ريفها ونهرها وقضبانها التي أخذت تتحدد شيئاً فشيئاً .

- « هل هذه ترويل ؟ هل هذه ترويل ؟ » .

ونظر الفلاح الى تلك الخريطة المختلة المتآكلة الممتدة تحته ، وهو يحرك خصلة شعره المنتصبة .

وكان طريق سرقسطة الشاحب في ذلك الصباح المبكر يخرج من ذلك المهاد القاتم من الحقول شمال الجبانة التي شن عليها الجيش الجمهوري هجومه ، ولما كان مانيان واثقاً من موقعه فقد اخترق السحب في الحال .

وفي خط مستقيم ، تبعته الطائرات على طريق سرقسطة دون أن تراه . وكانت قرية الفلاح على بعد اربعين كيلومتراً منحرفة الى اليمين قليلاً . أما

المطار الآخر الذي أغارت عليه الطائرات ليلة البارحة دون طائل فكان على بعد عشرين متراً . ومن المرجح أنهم يحلقون الآن فوقه . وكان مانيان يحسب المسافة بالثواني . فاذا لم يعثروا بسرعة على المطار الثاني ، وأعطي الانذار - ركبت فوق ظهورهم طائرات العدو المطاردة من سرقسطة ، وكالاموشا ، والمطارات السرية ، ومن هذا المطار أيضاً اذا وجدت فيه طيارات ، لتقطع عليهم خط الرجعة . السحب هي الحماية الوحيدة . . الطيارة تقطع ٣١ كيلومتراً في طريقها الى ترويل . . ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ . . . وانقضت الطائرة .

وما أن أحاط الضباب الأبيض بالطائرة حتى بدا القتال كأنه بدأ . . . . وألقى مانيان نظرة على جهاز تحديد الارتفاع ، لم تعد ثمة تلال في هذا الجزء من الجبهة ، ولكن : هل كانت هناك طائرات مطاردة في الانتظار تحت ذلك الكثيب من السحب ؟ وكان أنف الفلاح ملتصقاً بزجاج النافذة ، وبدأ خط الطريق في الظهور كأنه مرسوم فوق الضباب ، وتلته منازل القرية الحمراء كأنها بقع حمر من الدم جفت فوق رداء السحب . ولم تظهر بعد أية طائرات مطاردة أو أية مدفعية ، ولكن امتدت عدة حقول مستطيلة شرق القرية ، تحف بها جميعاً من نفس الجانب غابات صغيرة .

لم يعد ثمة وقت للدوران . . . والرؤوس جميعاً مشرئبة الى الأمام ، وحلقت الطائرة فوق الكنيسة ، وكان الطريق الذي سلكته موازياً للشارع الرئيسي ، وأمسك مانيان كتفي الفلاح مرة أخرى ، وأشار الى الأسطح التي أخذت تتتابع تحتهم بأقصى سرعة كأنها قطيع من الأعنام . ونظر الى الفلاح متوتراً بكل قوته ، وقد فغر فاه ، وسالت دموعه في خطوط متعرجة فوق وجنتيه ، دمعة دمعة ، ولكنه لم يتعرف على شيء .

وصاح مانيان : « الكنيسة ! الشارع ! طريق سرقسطة ! » .

وتعرف الفلاح عليها حينما أشار مانيان اليها ، ولكنه لم يتمكن من تحديد اتجاهه ، وكان ذقنه يهتز متشنجاً تحت خديه الشابتين اللذين سالت عليهما الدموع .

ولم تبق غير وسيلة واحدة :إتخاذ زاوية للنظر تكون مألوفة لديه . واقتربت الأرض اقتراباً شديداً من الطائرة ، وهي تتأرجح يمنة ويسرة كأنما فقدت كل توازن ، وتنطلق في نفس الوقت اسراب الطيور من كل جانب : وانخفض مانيان الى مسافة ثلاثين متراً فوق الأرض .

واقتفت أثره طائرة « البطة » ، والطائرة الأسبانية .

وكانت الأرض مستوية ، ولم يكن مانيان يخشى من الدفع الأرضي ، أما فيما يتعلق بالمدفعية الخفيفة فلو أن هناك مدفعية مضادة للطائرات تحمي المطار فإنها لن تستطيع أن تطلق نيرانها على مثل هذه المسافة المنخفضة . وكان ينبغي عليه اصدار الأوامر لاطلاق المدافع الرشاشة ، ولكنه خشي أن يستولي الذعر على الفلاح . وفي اقترابهم من الأرض وصلوا الى الغابات بزاوية للرؤية قريبة من زاوية سيارات السباق . وتحتهم ، كانت قطعان الماشية تولي الأدبار في حالة شديدة من الهياج . ولو أمكن المرء أن يموت من النظر والبحث لمات هذا الفلاح من فوره ، وأمسكه مانيان من منتصف ثوبه ، وأشار بأصبعه الى شيء ما .

ـ « ماذا ؟ ماذا ؟ » .

وخلع مانيان خوذته .

ـ « ها هي ذي ! » .

ـ « ماذا ؟ يا إلهي ! »

ودفعه الفلاح بكل قوته الى اليسار ، وكان مانيان هو الطائرة . وأشار الى اعلان اسود وأصفر عن الفرموت قائم على شمالهم ، وهو يغرس أصبعه المثنية على مادة الميكا التي تكسو النافذة .

وصاح مانيان : « أيها . . . ؟»

وعلى مسافة ستمائة متر الى الأمام ـ كانت هناك أربع بقع من الغابات

ومـا برح الفـلاح يدفعـه ناحيـة اليسار . هـل يقصـد الغـابـة التي في أقصى اليسار؟ » .

ـ « أتعني هذه ؟ » .

وأيـد الفلاح هـذا القـول بـرأسـه ومنكبيـه جميعـاً دون أن يحـرك ذراعـه الممدودة دائماً ، وفي هذه اللحظة نفسهـا انبثقت عند حـافة الغـابة حلقـة من الضوء السـاطـع فوق مهـاد الأوراق الداكن نـاشئة عن دوران محـرك طائـرة ، وظهرت لأعينهم طائرة من طائرات العدو المطاردة تهم بالصعود من الغابة .

والتفت قاذف القنابل ، فقد شاهدها هو أيضـاً . . . ولكن ، فات أوان القاء القنابل ، كما انه كان على ارتفاع منخفض ، ولم يكن مدفعي المقدمة قد أبصر شيئاً ، ولهذا لم يطلق النار .

وصاح مانيان مخاطباً مدفعي المؤخرة في نفس الوقت الذي لمح فيه قاذفـة قنابل جاثمة في مكان مكشوف :

ـ « أطلق النار على الغابة ! » .

واستخدم المدفعي الدواسات ليدير برجه ، وأطلق النار ، غير أن زاويـة الأشجار كانت قد حجبت طائرة المطاردة .

وأدرك جارديه ان هذه المناورة المرتجلة لا يمكن أن تنجح إلا اذا صـاحبها انتباه شديـد ، وكان قـد تولى منـذ دقائق المـدفع الـرشاش الـذي في مقدمـة « البطة » ، ولم يحول نظره عن الطائرة « مارا » . فما أن أبصر مؤخرة الطائـرة تطلق النار حتى استـطاع أن يميز المحـرك الساطـع فوق مهـاد الغابـة الأخضر الداكن ، فغمغم قائلاً : « لحظة ! » وشرع في اطلاق النار .

وأظهرت رصاصاته المتلاحقة طائرة الفيات « لاسكالي » التي تولاها مدفع المؤخـرة في « البطة » . وكـان قد تخـلى عن القاء القنـابل الى اطـلاق المدفـع الرشاش ، منذ أن الحت عليه مشاكله ، فما كانت السلبية تلائمه الآن ، أمـا في البـرج الخلفي . فإن « ميـرو » لم يستطع اطـلاق النـار لأن ذيـل الـطائـرة

يعـوقه ، غـير أن طائـرة « موروس » تمكنت من اطـلاق مدافعهـا الـرشـاشـة الثلاثة .

***

استدار مانيان صاعداً بطائـرته ، فـرأى في خوذتـه محرك طـائرة المـطاردة يتوقف . وكانت جماعة من النـاس تدفـع قاذفـة القنابـل تحت الأشجار ، ولم يكن من شك أن الفاشيين يتصلون في هذه اللحظة تليفونيـاً من الغابة نفسهـا بالمطارات الأخرى ، وصعدت الـطائرة « مـارا » في خط لولبي حتى لا تسقط بتـأثير قنـابلها نفسهـا حين تقـذف بها ، كـما ينبغي توسيـع الدورة حتى يتـاح الوقت الكافي لقاذف القنابل للتصويب ، وحتى يتمكن « داراس » من التيقن انه يعبر فوق الغابة . وقال مـانيان في نفسـه : « تكفيه مـرة واحدة » . فلقـد كانت الغابة هدفـاً واضحاً كـل الوضـوح ، ولو ان خـزان البنزين مـوجود ، وهذا محتمل جداً ، لتم اذن نسف كل شيء ، واقـترب من قاذف القنـابل ، متحسراً على اتينييس .

« ألقِ القنابل كلها دفعة واحدة ! »

تأرجحت الطائرة مرتين لتشير الى الهـدف المقصود ، وتـوقفت عن الصعود عـلى بعد أربعمـائـة مـتر ، وعـادت الى الغـابـة ، في خط مستقيم بـأقصى سرعتها ، وهي تطلق مدافعها الرشاشة ، وتمكن قـاذفو القنـابل من احكـام تصـويبهم على بعـد ٤٠٠ متر واجتهـد الفـلاح المنكمش عـلى نفسـه بجـوار الميكانيكي ألا يعوق أحداً ، على حين نظر الميكانيكي وقد وضع يديه الاثنتين على المقابض ـ الى يد قاذف القنابل المـرفوعـة ، وهو يـراقب دخول الغـابة في مجال تصويبه .

وهبطت الأيدي جميعاً .

وكـان لا بد من ان تستـدير الـطائرة في زاويـة قائمـة لكي يرى مـانيـان النتيجة : وتبعته الطائرتان الأخريان ، وكأن الدائرة المنحرفة التي تـألفت منها مستمرة ، ومن الغابـة ارتفع دخـان أسود كثيف يعـرفه الجميـع جـيداً ، انه البنزين . كان يصعد في دوامات صغيرة متلاحقة ، وكأنما اشتعلت خزانـات

مدفونة في باطن الثرى تحت تلك الغابة الهادئة الصغيرة التي لا تفترق عن غيرها من الغابات في مطلع ذلك النهار الكابي ، وخرج عشرة رجال من تحت الأشجار راكضين ، ولم تمض بضع ثوان حتى خرج مائة لا يختلفون في اضطرابهم وذعرهم عن قطعان الماشية التي ولت الأدبار منذ لحظة ، وبدأ الدخان الذي ساقته الريح صوب الحقول ـ ينتشر مع المنحنى الفخم الذي اتخذته حرائق البنزين ، ولم يكن من شك الآن في أن طائرات العدو المطاردة قد سيطرت على الجو ، وكان قاذف القنابل يلتقط صوراً ، وعينه على ضابط الرؤ ية في الآلة الصغيرة ، كما كانت على جهاز التصويب الخاص بالطائرة . اما الميكانيكي فكان يجفف يديه اللتين تركتا مقابض اجهزة اطلاق القنابل ، على حين جعل الفلاح الذي اصطبغ انفه بلون قرمزي نتيجة لالتصاقه بالنافذة ـ جعل يضرب رباط حذائه بجدار الطائرة تعبيراً عن شعوره بالفرح والبرد معاً ، وعادت الطائرة الى الدخول في السحب ، متجهة صوب بلنسية .

وما أن اجتاز مانيان السحب مرة أخرى ، وأشرف ببصره على مسافة بعيدة حتى ادرك أن الأمور لا تسير على ما يرام .

وانحلت السحب ، وهناك فيها وراء ترويل اسفرت فجوة بين السماء والأرض عن رقعة عمقها خمسون كيلومتراً .

وكان لا بد من القيام بدورة واسعة عن طريق الخطوط الفاشية ، اذا ارادوا العودة دون الخروج من السحب ـ وكان من الممكن أن تتفكك السحب هنا أيضاً بسرعة فائقة .

يبقى أمل واحد ، وهو أن تصل طائرات ساريون المطاردة قبل وصول طائرات العدو .

وكان مانيان قد استخفه الفرح بالنجاح وأشتدت رغبته في ألا يموت هذا اليوم ، ولهذا أخذ يحصي الدقائق ، فاذا لم تلحق بهم الطائرات قبل أن يصل الى عشرين . . .

ووصل الى سماء خالية من السحب . . .

وخرجت طائرات العدو من السحاب واحدة وراء الأخرى : واحدة ، اثنتان، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . . . وكانت طائرات المطاردة الجمهورية ذات مقعد واحد ، وأجنحة منخفضة بحيث لا يمكن ان يخلط المرء بينها وبين الطائرات من طراز هاينكل ، وانزل مانيان نظارته المكبرة ، وثبتها ، وضم الطائرات الثلاث في مجال رؤيته ، وقال في نفسه : « لو أن لدينا مدافع رشاشة مناسبة لاستطعنا الانتصار عليهم » . ولكن لم يكن لديه إلا مدافع رشاشة عتيقة من طراز لويس غير المزدوج « ٨٠٠ طلقة في الدقيقة مضروبة في ثلاثة مدافع رشاشة = ٢٤٠٠ طلقة . فاذا اصيبت كل طائرة من طراز هاينكل بـ ١٨٠٠ مضروبة في أربعة كان الناتج ٧٢٠٠ طلقة » . وكان يحفظ ذلك عن ظهر قلب ، غير أن ترديد هذه الحقيقة كان يثلج صدره تماماً .

ووصل الفاشيون الى المجموعة المؤلفة من قاذفات القنابل الثلاث ، وكانوا يتجهون الى اليسار ، عازمين على مهاجمة قاذفة واحدة في أول الأمر ، ولم تكن هناك طائرة مطاردة جمهورية واحدة في الجو .

وكانت أسراب السمان تمر تحت الطائرات في طريقها الى مكان هجرتها السنوية . طائرة اليسار هي التي يقودها جارديه .

وألقى بوجول ـ الطيار الأول ـ قطعاً من اللبان الى سعيدي ليقوم بتوزيعها كعلامة على الاحتفال . وكان بوجول من المحافظين على تقاليد لكلير الطيبة : وهو بلحيته التي ازال ناحية واحدة منها (وفاء بنذر عاطفي قطعه على نفسه) وقبعته التي تشبه قبعة البستاني المحلاة بريشات قرمزية اعاد وضعها على رأسه بعد الانتهاء من الغارة ، وبأعوامه الأربعة والعشرين ، وبأنفه الذي يشبه النفير ، وبوشاحه الخاص بالاتحاد الفوضوي الأيبيري (وإن لم يكن عضواً فيه) . . . كان بهذا كله يشبه الصورة التي يتخيلها الفاشيون عن قطاع الطرق الحمر (الشيوعيين) . . أما الآخرون فكانوا

عـاديين ، هـذا اذا غضضنـا الـطرف عن بعض الجـوارب التي طـويت تحت خوذاتهم ، وعن بندقية جارديه الصغيرة . وكان هذا الأخير الذي يحـافظ على النظام الضروري للكفاية العسكرية في سلطة صارمة ، وإن تكن مقنعة ـ كان يـرحب بكل مـا يسترعي الانـظار ، مثل بنـدقيته الخشبيـة الصغيرة ، وكـان مانيان عـلى استعداد هـو أيضاً للتسـاهل تسـاهلاً خـاصاً عن الحمـاقات التي تصيب الفعل بالشلل ، ولا سيما اذا احس انها مرتبطة برموز سحرية .

وفطن جارديـه ـ هو أيضاً ـ الى المناورة الألمـانية ، ورأى أن مـانيان قـد جعل الطائرتين تهبطان تحت « البطة » لكي يربط بين نيران المدافـع الرشـاشة كلها في حالـة الهجوم عـلى تلك الطائـرة الأخيرة . وألقى نـظرة فاحصـة على مدافع طائرته ، ثم تولى بنفسه مدفع المقدمة ، وتذكر مرة أخـرى أن المدافـع من طـراز لويس تثـير تقززه ، فـأدار برجـه صـوب طـائـرات الهـاينكـل التي تضخمت فوق منطقة التصويب .

ووصلت عدة رصاصات .

وصاح جارديه : « لا تفعل ذلك ! فهناك غيرها ! » .

وتقدم بوجول في خط متعرج كحـرف S . وكانت هـذه أول مرة يهـاجم فيها من الأمام ، ويشاهد طائرة مطاردة للعدو تنقض عليه بأقصى سـرعتها . فأحس بالمرارة التي يشعر بهـا كل طيـار يقود طـائرة ثقيلة بـطيئة حـين تهاجمـه طائرات سريعة . وكان رجال طائرات البليكان ، يعلمون أن أفضل مقاتليهم يستطيعون ارغام طائرات العدو على الهبوط دون عناء ، وكما يحـدث قبل كـل معركة أحسوا جميعاً بالفراغ الممتد تحتهم .

وبينما كان « اسكالي » يضع مـدفعه الـرشاش مـوضع الاستعـداد لاحظ فجـأة على شمـاله قنبلة من قنـابلهم الضخمة ، لم تكن قـد اطلقت في اثنـاء الغارة .

ـ « ها هم أولاء ! » .

وكان مانيان قد حدد مسافاته جيداً : لم تتمكن طائرات الهاينكل من محاصرة البطة ، وهناك طائرتان فوقها ، وطائرتان تحتها ، وثلاث طائرات الى جوارها ، وتضخمت الطائرات حتى أصبح من الممكن رؤية خوذات الطيارين .

واهتزت « البطة » بكل ما فيها ، حين أطلقت مدافعها الرشاشة نيرانها في وقت معاً ، ومضت ثوان عشر امتلأت بضجة كأنها الجحيم ، امتزجت فيها جلبة الأخشاب المتفجرة بفعل رصاص الأعداء بشبكة من الرصاص المتلاحق .

وشاهد جارديه طائرة من طائرات الهاينكل ـ التي تطير تحته ـ تهبط عمودياً ، وقد أصابها اسكالي ، أو المدافع الرشاشة في قاذفات القنابل الأخرى ، وأحس مرة أخرى بالفراغ ، وغادر ميرو البرج الخلفي فاغراً فاه ، ومن ذراعه المتدلية سالت دماؤه على ارض الطائرة كأنما تسيل من دلو ماء ، وصعد اسكالي من برجه وتمدد على ظهره ، وبدت إحدى فردتي حذائه كأنها انفجرت .

وصاح جارديه : « أربط نفسك ! » وقذف لفافة من صيدلية الطائرة صوب ميرو ، ثم قفز عائداً الى برجه ، وتولى سعيدي مدفعه الرشاش ، على حين تولى قاذف القنابل مدفع ميرو ، وكان يبدو ان الطيارين لم يصابوا .

وعادت طائرات الهاينكل على اعقابها .

لم تعد هناك طائرات تحتهم هذه المرة ، أما الطائرات التي حاولت الهجوم بالصعود اليهم فكانت تحت رحمة نيران مدفع المؤخرة ، والمدافع الستة في طائرة « مارا » وطائرة « موروس » التي كونت آثارهما المتقاطعة تحت « البطة » شبكة من الدخان .

ومرت فوقهم الطائرة التي هبطت ، والتي كانت مرافقة للطائرة الهاينكل . وشق بوجول الفضاء بأقصى سرعة ، وقد أصبحت تعرجاته التي

يصنعها على هيئة حرف S أكثر إتساعاً .

نفس الرصاصات المتلاحقة ، ونفس الضجة ، ونفس قرقعة الأخشاب المتكسرة ، وترك سعيدي البرج الخلفي دون أن ينبس بكلمة ، واتكأ على مرفقه فوق اسكالي ، بجوار المكان الذي تمدد فيه ميرو ، وقال جارديه في نفسه : « لو أن عندهم من الجرأة ما يسمح لهم بإقتفاء أثرنا بدلاً من المرور علينا . . . ؟»

وكان النهار يتألق في الظلال عبر الثغرات التي يحدثها رصاص الأعداء ـ كأنه شعل صغيرة ، وتوقف المحرك الأيسر عن الدوران ، وأحاطت الطائرة « مارا » وطائرة الأسباني « بالبطة » ، وانحنى بوجول داخل الطائرة برأسه الدامي الذي لم يزل يحتفظ فوقه بقبعة البستاني ذات الريش .

ـ « انهم يولون الأدبار ! » .

والواقع ان طائرات الهاينكل كانت تنسحب . وتناول جارديه نظارته المقربة . لقد وصلت طائرات المطاردة الجمهورية من الجنوب .

ووثب من برجه ، وفتح صندوق الاسعاف الذي لم يلمسه أحد ، وقام بتضميد ميرو (كان قد أصيب بثلاث رصاصات في ذراعه اليسرى ، وبواحدة في كتفه ، نفذت الى جسمه جميعاً في وقت واحد) ، وبتضميد اسكالي (أصيب برصاصة متفجرة في قدمه) وكان سعيدي قد أصيب برصاصة في فخذه اليمنى ، ولكنه لم يكن يتألم إلا قليلاً .

وذهب جارديه الى مقعد القيادة ، كانت الطائرة تطير بزاوية منحرفة مقدارها ثلاثون درجة ، ولا يحملها سوى محرك واحد . وأشار لانجلوا ـ الطيار الثاني ـ الى عداد المسافة بسبابته : ١٤٠٠ بدلاً من ١٨٠٠ ، لم يبق أمام الطائرة إلا الاعتماد على ارتفاعها . وكانوا قد وصلوا الآن فوق جبل الجليد . وعلى الأرض ، كان ثمة دخان هادىء مستقيم استقامة تامة يتصاعد من أحد المنازل .

وأحس بوجول الذي كان يدمي ـ وان كان جرحه طفيفاً ـ ان المقبض داخل جسده ، كما يحس الآخرون بجراحهم . . . وانتقل العدد من ١٢٠٠ الى ١١٠٠ .

الطائرة تهبط متراً في الثانية .

وتحتهم تناثرت نتوءات جبل الجليد . الهبوط هنا معناه التهشم فوق الصخور ، كما يتحطم « دبور » ثمل على جدار ، وفيما وراء ذلك انبسطت مساحات مترامية من الجليد المتموج ، ولكن ماذا تحت هذا كله ؟

وعبروا سحابة ، وكانت ارضية الطائرة ملطخة ، بآثار النعال الدامية وسط هذا البياض الشامل ، وحاول بوجول الخروج من السحب بالصعود . والواقع أنهم خرجوا منها هابطين : فأصبحوا على بعد ستين متراً من الجبل ، وكانت الأرض ترتمي نحوهم ، ولكن ، ماذا ستصنع بهم تلك المنحنيات الرخوة من الجليد . وشعروا برغبة ملحة في الخروج من هذا المأزق ولا سيما بعد أن نجحوا في غاراتهم ، وافلتوا من النيران .

وصاح جارديه : « القنبلة ! » .

ذلك انها اذا لم تسقط هذه المرة فستنسف كل شيء ، وأنزل سعيدي المقبضين معاً لاسقاطها حتى أوشكا أن ينكسرا ، وسقطت القنبلة فكأنما قذفت بالأرض على الطائرة ، وتلقى الجميع الجليد في بطونهم .

* * *

قفز بوجول من مقعده الى السماء المكشوفة فجأة . هل أُصيب بالصمم ؟ كلا ، وإنما هذا هو السكون الذي تلفع به الجبل بعد ضجة السقوط ، اذ سمع نعيب غراب ، وصوتين يصرخان ، وكانت الدماء الدافئة تسيل برفق فوق وجهه ، فتحفر أمام حذائه ثقوباً حمراء في الجليد ، ولم يكن لديه سوى يديه يزيح بهما تلك الدماء التي غشيت عينيه ، واستطاع من خلالهما أن يبصر

ركاماً معدنياً أسود مليئاً بالاستغاثات ، انه ذلك الخليط المتشابك من حطام الطائرات .

* * *

استطاع مانيان وموروس أن يعودا ، واتصلت ادارة العمليات تليفونياً بالمطار لتبلغه أن الجرحى قد نقلوا الى مستشفى « مورا » الصغيرة ، وكان لا بد من اعادة فحص الطائرات ، على ألا تطير إلا في اليوم التالي ، وأصدر مانيان بعض التعليمات ، ثم رحل في الحال لتتبعه فيها بعد عربة اسعاف .

وقال ضابط الخدمة في التليفون : « قتيل واحد ، ومصابان بجراح خطيرة . أما الآخرون جميعاً فإصاباتهم طفيفة » .

وكان يجهل اسماء الجرحى والقتيل ، ولم يكن قد تلقى بعد نتيجة الغارة .

وسارت عربة مانيان بين غابات البرتقال الواسعه ، وكانت أشجارها تمتد عدة كيلومترات ، تحف بها هنا وهناك أشجار السر وتطل عليها « ساجنتو » بقلاعها التي اضحت أطلالاً ، والاستحكامات المسيحية فوق الاستحكامات الرومانية ، والرومانية فوق اليونانية : إنها سنة الحرب . . . وفوقها جميعاً كان الجليد الذي يكسو جبال ترويل يرتعش تحت سماء صافية .

وحلت اشجار البلوط محل اشجار البرتقال . . وبدأت سلسلة الجبال . واتصل مانيان تليفونياً مرة أخرى بادارة العمليات : كانت هناك ست عشرة طيارة فوق المطار الذي أرشد عنه الفلاح ، وقد احترقت جميعاً .

كان مستشفى « مورا » قائماً داخل مدرسة ، ولم يظهر حتى الآن أي طيارين ، وهناك مستشفى آخر داخل دار العمدية ولكن لم يظهر فيه الطيارون أيضاً ، وأشارت لجنة الجبهة الشعبية على مانيان بالاتصال تليفونياً بلينارس ، وكانت لينارس قد طلبت طبيباً من أطباء « مورا » للجرحى ، فاتجه مانيان

صوب مكتب البريد بصحبة مندوب من اللجنة ، وسارا تحت الشرفات الخشبية خلال شوارع ذات منازل زرقاء ووردية وخضراء بلون الفستق ، واجتازا جسوراً تعلوها بواك ، تبدو متضائلة الى جوار أطلال القصور ذات الطابع الرومانتيكي .

وكان ناظر مكتب البريد مناضلاً اشتراكياً عجوزاً ، وقد جلس ابنه الطفل على مكتب البرقيات .

- « إنه يريد أن يكون طياراً ، هو أيضاً » .

وكانت هناك آثار رصاص على الحائط .

قال الناظر : « كان سلفي عضواً في الاتحاد القومي للعمال ، وفي يوم الثورة لم ينقطع عن ارسال البرقيات الى مدريد ، ولم يكن الفاشيون يعرفونه ، ومع ذلك فقد قتلوه ، وهذه هي الرصاصات . . . » .

وأخيراً أجابت ليناريس : « كلا ، لم يكن الطيارون هناك ، وانما سقطوا على مقربة من قرية صغيرة تدعى فالدليناريس ، في مكان أعلى فوق الجليد .

بأي قرية ينبغي عليه أن يتصل الآن ؟ « أعلى فوق الجليد ! » ومع ذلك أحس مانيان من لهجة الاجابات بأن أسبانيا حاضرة حوله أكثر من أي وقت مضى ، وكأنما كان ينتظره في كل مستشفى وكل لجنة وكل مكتب تليفون - فلاح ودود يرحب به ، وأخيراً دق جرس التليفون ، ورفع ناظر المكتب يده أخيراً : فالدليناريس ترد ، وأخذ ينصت ثم استدار قائلاً :

- « إن واحداً من الطيارين يستطيع السير ، وقد ذهب للبحث عنه » .

ولم يعد الطفل قادراً على التحرك .

وناول ناظر المكتب مانيان سماعة التليفون القديمة ، فانبعث منها صوت مكتوم .

- « آلو ! من المتحدث ؟ » .

- « مانيان . أنت بوجول ، أليس كذلك ؟ » .

- « بلى » .

- « من القتيل ؟ » .

- « سعيدي » .

- « والجرحى ؟ » .

- « جارديه ، فحسب ، وهم يخشون على عينيه ، وأُصيب تاييفير في ساقه اليسرى بكسور في ثلاثة مواضع ، واخترقت أربع رصاصات ذراع ميرو ، ونفذت رصاصة متفجرة في قدم اسكالي ، اما لانجلوا وأنا ، فلم نصب بشيء يذكر » .

- « من منكم يستطيع المشي ؟ » .

- « للنزول ؟ » .

- « أجل » .

- « لا أحد » .

- « أو حتى على البغال » .

- « لا نجلوا وأنا ، وقد يستطيع اسكالي ، اذا استند على أحد ، ولكنني لست واثقاً » .

- « وكيف تولوا العناية بكم ؟ » .

- « كلما أسرعوا في انزالنا كان ذلك أفضل ، وعلى كل حال فإنهم يفعلون كل ما في وسعهم » .

- « هل توجد نقالات ؟ » .

- « كلا . . . ليس هنا . . انتظر : الطبيب الذي هنا يقول شيئاً » .

وسمع صوت الطبيب .

قال مانيان : « آلو ! هل يمكن نقل جميع الجرحى ؟ » .

- « أجل . . . اذا كانت لديكم نقالات » .

وسأل مانيان ناظر المكتب . لم يكن يعلم شيئاً . فربما كانت هناك نقالات في المستشفى ، ولكن من المؤكد أن عددها لا يمكن أن يكون ست نقالات . وتناول مانيان السماعة مرة أخرى .

- « ألا تستطيعون صنع محفات من الأغصان والأشرطة والحشايا ؟ » .

- « أنا . . بلى . . » .

- « سأحمل ما استطيع حمله من النقالات ، وتستطيعون من الآن البدء في اعداد المحفات ، والشروع في النزول ، وأنا أنتظر هنا عربة اسعاف ، وستصعد الى اقصى مكان يمكن أن تصعد اليه » .

- « وماذا عن القتيل ؟ » .

- « انزلوا الجميع . . آلو ! . آلو ! تستطيع أن تقول للطيارين : اننا قد حطمنا ست عشرة طائرة من طائرات العدو . لا تنس ذلك » .

وعاودوا المسير خلال الشوارع ذات المنازل الملونة ، واجتازوا ميداناً تتناثر فيه نافورات ، كما اجتازوا الجسور المقوسة كظهر الحمار ، والصخور المدببة التي ما برحت تتألق برذاذ المطر المتساقط في الصباح ، تحت سماء واطئة دائماً ، ولم يكن هناك سوى محفتين ربطتا فوق ظهر السيارة .

- « أليس ارتفاعها الآن أعلى من باب القرية ؟ » .

وأخيراً بدأ مانيان رحلته الى لينارس .

لقد دخل - من الآن فصاعداً - في اسبانيا الأبدية . وحين اجتازت السيارة القرية الأولى ذات مخازن الغلال المفتوحة على الدرابزين ، وصلت

أمام مضيق أضفت عليه السماء الرمادية لوناً كابياً ، وانعكست عليه ظلال قرنين متباعدين لثور من ثيران الحلبة ، وانبعثت عداوة بدائية من الأرض التي تركت عليها تلك القرى الكردية بصماتها كأنها حروق ، عداوة اشتدت حدة كلما تحول نظر مانيان عن ساعته التي أخذ ينظر اليها كل خمس دقائق الى الصخور فيتذكر قسوتها على الجرحى وما من مكان يستطيع أن يتوقف عنده ، لا شيء سوى حقول وصخور وأشجار ، وفي كل مرة كانت السيارة تهبط سفحاً تتراءى لخاطره الطائرة وهي تقترب من تلك الأرض الخالية من كل امل .

ولينارس قرية يحوطها جدار ، وكان هناك صبية صعدوا الى الاطلال ، على جانبي البوابة . وعند الفندق الذي تكدست عربات صغيرة بعجلاتها المرفوعة في الهواء ، عند طابقه الأرضي ، وقف الحمالون ينتظرون ، ووجد في قاعة اللجنة طبيباً كان قد حضر من الوادي ، وخمسة عشر شاباً ، أخذوا يحملقون في فضول الى ذلك العملاق الغريب ذي الشاربين المتدليين الذي يرتدي زي الطيران الأسباني .

قال مانيان : « لسنا في حاجة الى هذا العدد من الحمالين » .

فقال مندوب اللجنة : « لقد أصروا على الحضور » .

ـ « فليكن . . . اين عربة الاسعاف ؟ » .

واتصل المندوب تليفونياً بمورا ، لم تكن عربة الاسعاف قد وصلت بعد ، وكان الحمالون يجلسون في فناء الفندق ، وقد أحاطت بهم عرباتهم على هيئة نصف دائرة ، وأخذوا يأكلون من اناء واحد على هيئة ناقوس ضخم مقلوب ، يفور منه زيت الزيتون ، ويحجب السواد الحروف المنقوشة عليه ، وفوق الباب كتب رقم ١٦١٤ .

وأخيراً ، رحلت القافلة .

ـ « كم تستغرق من الوقت للوصول الى أعلى ؟ » .

ـ « أربع ساعات . . . ولكنك سوف تلتقي بهم قبل ذلك » .

* * *

كان مانيان يتقدمهم بمائتي متر ، وقد ظهر ظله الأسود ـ بقبعته العسكرية ومعطفه الجلدي ـ واضح المعالم على سفح الجبل . ولم يكن ثمة وحل تقريباً ، والحجارة هي وحدها التي تعترض طريقه ، وسار خلفه الطبيب ممتطياً ظهر البغل ، ومن ورائه الحمالون يرتدون الصديري والقبعة الباسكية (هذا هو الزي المحلي الذي يلبس في أيام الأعياد أو حين يصل المرء الى الشيخوخة) ، وأبعد منهم كانت البغال والنقالات .

ولن تلبث الثيران والحقول أن تختفي ، فلا تبقى سوى الحجارة . حجارة اسبانيا الصفراء الحمراء التي تضفي عليها السماء البيضاء لوناً باهتاً رصاصياً . في تلك الظلال العمودية الضخمة ، وهذه الحجارة تتناثر على سفح الجبل ابتداء من الجليد الذي يقطعه الأفق حتى أعماق الوادي ، وكان الحصى يتدحرج تحت أقدامهم من حافة الطريق الى بطن الجبل ، فيرن من صخرة الى صخرة ، ثم يضيع صداه في سكون المضايق حيث يتلاشى هدير سيل يبتعد شيئاً فشيئاً .

وقطعوا الوادي في اكثر من ساعة ، فظهرت لينارس في فجوة منه ، وحين فصلهم عنه نتوء في الجبل لم يعد مانيان يسمع هدير الماء ، وكان الطريق الجبلي يمر وراء صخرة عمودية تشرف عليه . من حين الى حين ، وهناك حيث غير الطريق اتجاهه نهائياً انتصبت شجرة تفاح ظهر ظلها على خلفية السماء وسط حقل صغير غاية الصغر . ولم يكن أحد قد جمع ثمارها ، فتساقطت حول الشجرة ، لتؤلف حلقة كثيفة ، كانت تندمج في العشب رويداً رويداً ، وكانت شجرة التفاح هذه هي وحدها التي تدب فيها الحياة وسط الصخور ، حياة النبات المتجددة بغير حد ، وسط تلك اللامبالاة الجيولوجية .

وكلما صعد مانيان جعله التعب يشعر بعضلات منكبيه وفخذيه . ولم يلبث الجهد أن شمل جسده كله قليلاً قليلاً ، حتى فرض نفسه على كل فكرة تدور في رأسه . . وتصور في هذه اللحظة النقالات وهي توشك ان تنزل تلك الممرات الوعرة نفسها حاملة أذرعاً محطمة ، وسيقاناً مكسورة ، وتقلبت عيناه بين ما يشاهده في ذلك الممر وبين تلك القمم الجليدية المشتبكة في صفحة السماء البيضاء ، وكان كل جهد جديد يبذله يجعل فكرته الأخوية عن مفهومه للزعامة تزداد رسوخاً في نفسه .

وتبعه فلاحو لينارس الذين لم يروا جريحاً واحداً من هؤلاء الجرحى ، تبعوه دون أن ينطق بكلمة في تبجيل صارم هادىء ، أما هو فكان يفكر في سيارات القرى الأخرى .

وظل يصعد طيلة ساعتين على الأقل حتى انتهى الطريق الذي دار حول نتوء في الجبل . وكان الممر يتابع الآن مضيقاً جديداً عبر الجليد ، متجهاً صوب الشطر الأعلى والأقل وعورة من الجبل . ذلك الشطر الذي شاهدته الطائرات الى جانب الشطر الآخر حين طارت قاصدة ترويل . وكانت السيول قد تجمدت ابتداء من هذا المكان . وعند ناصية الطريق وقف مقاتل شرقي أسود اللون على خلفية السماء ـ وقف ينتظر كشجرة التفاح التي مروا بها منذ قليل ـ وقد انكمشت قامته كالتماثيل المنصوبة فوق قاعدة مرتفعة . وكان الحصان بغلاً ، والمقاتل الشرقي هو بوجول في خوذة الطيار ، والتفت هاتفاً في السكون العميق كأنه المنظر الجانبي لوجه محفور : « هذا مانيان ! » .

ساقان طويلتان متصلبتان متدليتان على جانبي جحش صغير وخصلات من الشعر المنتصب تبرز من ضمادة : انه الطيار الثاني لانجلوا .

وفي اللحظة التي صافح فيها مانيان يد بوجول لاحظ ان معطفه الجلدي قد غطته طبقة سميكة من الدم المتجلط تحت الحزام حتى أصبح شبيهاً بجلد التمساح . تُرى أي جرح استطاع أن يدمي الجلد على هذا النحو ؟ وعلى

الصدر كانت خطوط الدماء تتقاطع على هيئة شبكة ، وكانت سميكة الى درجة يستطيع معها المرء أن يشم رائحة الدم .

قال بوجول : « انه معطف جارديه الجلدي » .

ولم يستطع مانيان النهوض ، إذ لم يكن ثمة ركاب ، فأشرأب بعنقه بحثاً عن جارديه ، بيد أن النقالات كانت لا تزال في الجانب الآخر من الصخرة .

وظلت نظرة مانيان مسددة على الجلد على حين شرع بوجول في سرد القصة

* * *

كان لانجلوا مصاباً بجرح طفيف في الرأس ، فاستطاع أن يجر نفسه ظالعاً على ساق واحدة ، لأن الساق الأخرى كانت مرضوضة . أما اسكالي وسعيدي فكانا يرقدان في ذلك الصندوق الطويل المحطم الذي كان يعد فيما سبق جسم الطائرة . وقبع ميرو تحت قبة برج الطائرة المقلوب ، وقد خرجت أطرافه من صحن البرج الذي كان جزؤه الأعلى يضغط على كتفه المتهشمة كأنه في لوحة محفورة تصور وسائل التعذيب القديمة . وبين الحطام استلقى قاذف القنابل أما جميع الذين كانوا يستطيعون الصياح بعد أن أستولى عليهم الخوف من خطر النار فقد صاحوا في السكون العميق الذي شمل الجبل .

وتمكن بوجول ولانجلوا من انتزاع اسكالي وسعيدي من داخل الطائرة ، ثم شرع لانجلوا في اخراج قاذف القنابل ، على حين حاول بوجول رفع البرج الذي سحق « ميرو » ، وأخيراً استطاع أن يقلبه في جلبة جديدة اختلطت فيها أصوات الحديد والميكا ، وجعلت الجرحى الراقدين فوق الجليد ينتفضون ، ولم تلبث أن تلاشت .

وكان جارديه قد شاهد كوخاً ، فسعى اليه ، مسنداً فكه المكسورة على قبضة مسدسه (لم يكن يجرؤ على اسناده على يده ، وكانت دماؤه تسيل) ،

وحين ابصره فلاح من بعيد ولى الأدبار ، ولم يكن في الكوخ الذي يبعد بمسافة لا تزيد على الكيلومتر ـ غير حصان فحسب ، نظر اليه متردداً ، ثم أخذ في الصهيل ، فقال جارديه في نفسه : « لا بد أن تكون سحنتي مشوهة تشويهاً غريباً . ومع ذلك فإن وجود مثل هذا الجواد الدافىء يثبت اننا في الجبهة الشعبية . . . » وكان الكوخ دافئاً وسط وحشة الجليد ، فراودته رغبة شديدة في ان يستلقي وينام . ولم يحضر أحد ، فتناول جارديه بيد واحدة جاروفاً كان ملقى في ركن ، لكي يخرج سعيدي حين يعود الى الطائرة ، ولكي يعينه على المسير . ولم يعد يرى شيئاً في وضوح اللهم إلا مواقع قدميه : وانتفخ جفناه العلويان ، وعاد على أعقابه مهتدياً بقطرات الدم على الجليد ، وبآثار أقدامه الطويلة المتشابكة في كل مرة سقط فيها .

وتذكر في أثناء سيره أن ثلث « البطة » مصنوع من قطع طائرة دفع ثمنها عمال أجانب وأحضرها الى سييرا كوميون باريس .

وفي اللحظة التي وصل فيها الى الطائرة اقترب طفل من بوجول ، فقال الطيار في نفسه : « لو اننا الآن لدى الفاشيين لهلكنا كالفئران . » أين المسدسات ؟ فالمرء لا يستطيع الانتحار بمدفع رشاش .

وسأل بوجول : « من هنا . . . الشيوعيون ، أم أتباع فرانكو ؟ » .

ونظر اليه الطفل ، بهيئته الماكرة ، وبأذنيه المتباعدتين ، وبسنبلة فوق قمة رأسه ـ دون أن يجيب . وفطن بوجول الى أن منظره لا بد أن يكون شيئاً لامعقولاً . فقد ظلت القبعة ذات الريش الأحمر على رأسه . وكان قد وضعها دون أن يدري . وكان ذقنه حليقاً من جانب واحد ، والدم ينزف منه ويسيل على حلته البيضاء .

ـ « من هؤلاء ؟ أخبرني ؟ » .

وكان قد دنا من الطفل الذي أخذ يتراجع . التهديد لا ينفع كما انه لا يملك قطعاً من اللادن .

ـ « جمهوريون أم فاشيون ؟ » .

وتناهى الى سمعه هدير سيل بعيد ، ونعيب غربان متلاحق .

وأجاب الطفل وهو ينظر الى الطائرة : « هنا ، من جميع الأنواع : جمهوريون وفاشيون ! » .

وصاح جارديه : « والنقابة ؟ » .

ففهم بوجول .

ـ « أي النقابات أكبر : الاتحاد العام للعمال ، أم الاتحاد القومي للعمال ، أم الكاثوليك ؟ » .

وتقدم جارديه صوب ميرو ، على يمين الطفل الذي لم يكن يرى سوى ظهره ، والبندقية الخشبية الصغيرة المعلقة عليه .

قال الطفل باسماً : « الاتحاد العام للعمال » .

واستدار جارديه . . كان وجهه يتكىء دائماً على قبضة مسدسه ، وقد شق من إحدى أذنيه الى الأخرى ، وتدلت أرنبة أنفه ، والدماء التي ما برحت تسيل بعد أن نزفت في البداية كتلاً كبيرة ـ تجمدت فوق سترة الطيار الجلدية التي ارتداها جارديه فوق عفريتته . وزمجر الطفل ، ثم لاذ بالفرار واثباً وثبة منحرفة كالقط .

وساعد جارديه ميرو على جمع أطرافه المتباعدة الى جسمه ، وعلى النهوض فوق ركبتيه ، وحين انحنى أحس بوجهه يحترق . فحاول أن يساعد ميرو مع الاحتفاظ برأسه مرفوعاً الى أعلى .

قال بوجول : « نحن فوق أرضنا ! » .

فقال جارديه : « لقد تشوهت تشويهاً تاماً هذه المرة ، أرأيت كيف هرب ذلك الطفل ؟ » .

ـ « أنت معتوه ! » .

ـ « في حاجة الى عملية تربنة » .

ـ « ثمة اشخاص قادمون » .

والواقع ان عدداً من القرويين كانوا يتقدمون نحوهم ، يصحبهم ذلك الفلاح الذي ولى الأدبار حين أبصر جارديه ، ولكنه تجاسر الآن على العودة ، حين لم يعد وحده . وكانت القرية قد خرجت على بكرة أبيها عندما انفجرت القنبلة ، واقترب أكثر أهلها جرأة .

صاح بوجول « الجبهة الشعبية ! » ورمى قبعته في الركام الحديدي .

وشرع القرويون في الجري ، وكانوا قد افترضوا بلا شك أن الطيارين الذين سقطوا من رجالهم ، اذ حضروا مجردين من السلاح تقريباً ، ولعل واحداً منهم استطاع أن يتبين الخطوط الحمراء فوق الأجنحة قبل سقوط الطائرة ولمح جارديه المرآة العاكسة معلقة في مكانها بين ركام الدعائم والأسلاك أمام مقعد بوجول : « لو أنني نظرت الى نفسي لانتحرت » .

وحين اقترب الفلاحون بحيث يستطيعون رؤ ية ذلك الخليط من الصلب المحطم ومن قطع الأجنحة ومن الآلات المهشمة والمحرك الملتوي كأنه ذراع والأجساد الممددة فوق الجليد ـ تسمروا في أماكنهم ، وسعى جارديه اليهم ، وكان القرويون والنساء المتشحات بشيلان سود ينتظرون صامتين محتشدين كأنهم ينتظرون كارثة . « انتبهوا ! » بهذه العبارة صاح أول فلاح رأى فك جارديه المحطم مستنداً على قبضة المسدس . ورسمت النسوة علامة الصليب ، بعد أن تذكرن تقاليدهن الماضية امام منظر الدم ، ورفع أحد القرويين قبضته ناظراً الى جارديه وبوجول الذي أخذ يقترب بدوره بأقل مما ينظر الى الأجسام الراقدة . ورفع الجميع قبضاتهم الواحد تلو الآخر ـ صامتين ـ في اتجاه الطائرة المحطمة والأجسام التي ظن الفلاحون انها ميتة .

وغمغم جارديه : « لا داعي لهذا كله » ، ثم أردف بالأسبانية :

« ساعدونا » .

وعادوا الى الجرحى ، وما أن أدرك الفلاحون ان هناك قتيلاً واحداً فحسب بين الأجسام الممددة حتى شاع بينهم اضطراب عاطفي مرتبك .

ـ « لحظة ! » .

وشرع جارديه في اقرار شيء من النظام ، وكان بوجول يتحرك كثيراً ، بيد أن أحداً لم يظهر له الطاعة ، فقد كان جارديه هو الرئيس ، لا لأنه كان كذلك حقاً ، ولكن لأنه كان مصاباً في وجهه ، ولهذا قال في نفسه : « لو أن الموت حضر بنفسه ، لأذعن له الجميع ! » لا بد من ارسال قروي لاحضار طبيب . والطبيب بعيد جداً . ولكن لا بد من احضاره ولم يكن نقل اسكالي وميرو وقاذف القنابل يبدو هيناً ، بيد ان سكان الجبال تعودوا رؤية السيقان المكسورة ، ويستطيع المشي كل من بوجول ولانجلوا ، كما يستطيع هو أيضاً ارغام نفسه على السير .

وبدأوا في النزول الى القرية الصغيرة رجالاً يبدون اقزاماً فوق الجليد . ألقى جارديه نظرة أخيرة على المرآة العاكسة قبل أن يفقد وعيه ، وكانت المرآة قد تحطمت في اثناء السقوط ، محال أن توجد مرآة بين حطام طائرة .

وظهرت النقالة الأولى أمام مانيان ، وكان أربعة من القرويين يحملونها ـ عمود على كتف كل واحد منهم ، يتبعهم أربعة من الرفاق ، وعلى النقالة ، كان قاذف القنابل .

لم يكن يبدو عليه أن ساقه مكسورة ، بل بدا عليه أنه مريض بذات الرئة منذ سنوات : وجه غائر بقسوة ، يضفي على العينين كل ما فيهما من حدة ، ويحيل هذا الرأس ذا الشاربين القصيرين الذي تميز المحارب الربعة إلى قناع رومانتيكي .

ولم يكن وجه ميرو الذي تبعه أقل من ذلك تحولاً ، بيد أن هذا التحول كان مختلفاً ، فهنا كان الألم يبحث عن ملامح الطفولة .

قال حين صافحه مانيان : « كان الجليد يتساقط في أثناء سقوطنا ، وهذا شيء مزعج » وابتسم ، ثم أغمض عينيه .

واستمر مانيان في التقدم ، يتبعه حمالو ليناريس ، ولم يكن من شك أن النقالة التالية تحمل جارديه ، فهذه ضمادة تغطي الوجه كله تقريباً ، ولا يظهر منها سوى جفنين منتفخين على وشك الانفجار ، ولونهما بنفسجي باهت ، وقد ضما بعضهما الى بعض بالرباط الواحد الى الآخر بين خوذة الطيران والضمادة المنبسطة التي تمسك بها ، بحيث بدا الأنف تحتها مختفياً ، وحين رأى الحمالان اللذان يسيران في المقدمة أن مانيان يريد أن يتحدث ، وضعا النقالة على رجليها الأماميتين ، وهكذا ظل جسم مانيان مائلاً عدة لحظات ، وكأنه عرض لمشهد من معركة .

ولم يكن من الممكن الاتيان بأية حركة ، وكانت يدا جارديه تحت الغطاء . واعتقد مانيان انه لمح خطاً بين جفني العين اليسرى .

ـ « هل ترى ؟ » .

ـ « ليس كثيراً . . ولكنني أراك أنت . . . أخيراً ! » .

وأحس مانيان برغبة في احتضانه ، وهزه .

ـ « أهناك ما نستطيع أن نفعله من أجلك ؟ » .

ـ « قل للسيدة العجوز ان ترحمني من حسائها ! وأخبرني متى نصل الى المستشفى ؟ » .

ـ « الى عربة الاسعاف أسفل الجبل ، في ساعة ونصف الساعة ، وسنصل الى المستشفى هذا المساء » .

وساروا بالنقالة مرة أخرى ، يتبعها نصف سكان ڤلديليناريس . واقتربت سيلة عجوز غطت شعرها بمنديل أسود تحمل كوباً ـ حين مرت نقالة اسكالي امام مانيان ـ وقدمت الحساء للجريح وكانت تحمل سلة ، وفي داخل هذه

السلة زجاجة ترموس ، وكوب ياباني ، ولعل هذا كله ما تملكه من ترف . وتخيل مانيان حافة الكوب ، وهي تدخل تحت ضمادة جارديه المرفوعة .

فقال لها : « يحسن بك ألا تعطي من هذا الحساء الجريح المصاب في وجهه » .

فأجابته في وقار : « لقد كانت الدجاجة الوحيدة في القرية » .

- « حتى لو كان الأمر كذلك » .

- « إن ابني في الجبهة هو أيضاً . . . وأنا . . . » .

وراقب مانيان النقالات والقرويين وهم يمرون به حتى أولئك الذين يحملون النعش ، وكانوا قد صنعوه في وقت أسرع من الوقت الذي صنعوا فيه النقالات ، وهذه هي العادة . . . وفوق غطاء التابوت ، ربط الفلاحون مدفعاً رشاشاً من مدافع الطيارة المحطمة .

وكان الحمالون يتبادلون الأوضاع كل خمس دقائق ، ولكن دون أن يضعوا النقالات على الأرض . وأذهل مانيان ذلك التقابل الحاد بين منظر النسوة الذي يدل على الفقر المدقع ، وبين زجاجات الترموس التي تحملها كثيرات منهن في سلالهن ، واقتربت منه إحداهن ، وسألته مشيرة الى ميرو .

- « كم يبلغ من العمر ؟ » .

- « سبعة وعشرين عاماً » .

وكانت تتبع النقالة منذ بضع دقائق ، وهي تشعر برغبة غامضة في ان تكون نافعة ، وكانت حركاتها تتسم بالحنان الرقيق الواضح ، وبطريقة في اسناد كتفي الجريح في كل مرة يرغم فيها الحمالون على التيقن من مواضع أقدامهم في المنحدرات الوعرة . وفي هذه الحركات تعرف مانيان على غريزة الأمومة الأبدية .

واشتد انحدار الوادي شيئاً فشيئاً ، وكان الجليد يتصاعد في أحد جوانبه

حتى يبلغ السماء التي لا سبيل الى تمييز لونها ، أو تحديد زمنها ؛ وفي الجانب الآخر انزلقت سحابات متجهمة فوق ذرى الجبال .

لم يتبادل الرجال كلمة واحدة ، واقتربت احدى النسوة من مانيان مرة أخرى .

- « من ، هؤلاء الأغراب ؟ » .

- « أحدهم بلجيكي ، والثاني ايطاليا ، والباقون فرنسيون » .

- « هل هذه هي الفرقة العالمية ؟ » .

- « كلا . . . ولكن الأمر سيان » .

- « وهذا الذي . . . »

وأشارت الى وجهه اشارة غامضة .

فقال مانيان : « انه فرنسي » .

- « والرجل الميت . . . فرنسي أيضاً ؟ » .

- « كلا . . . إنه عربي . . . »

- « عربي ؟ من كان يظن ذلك ! إذن ، فهو عربي ؟ . . »

وهرعت لنشر الخبر .

وعاد مانيان الذي كان يسير في نهاية الموكب تقريباً الى النقالة التي تحمل اسكالي ، وكان اسكالي هو الوحيد الذي يستطيع الاتكاء على مرفقه ، وامامه انحدر الممر في خطوط متعرجة تكاد تكون متساوية حتى لانجلوا الذي توقف أمام جدول صغير متجمد ، أما بوجول فقد عاد الى المؤخرة . وعند الجانب الآخر من الماء كان الطريق ينعطف بزاوية قائمة ، وكانت تفصل بين النقالات مسافة قدرها نحو مائتين من الأمتار . أما لانجلوا ذلك المرشد المسرف ذو الشعر الكث - فكان يبعد بحوالي كيلومتر ، وكأنه في الضباب

الذي بدأ يتصاعد ـ كيف يركب حماراً . ولم يكن وراء اسكالي ومانيان سوى النعش ، واجتازت النقالات الجدول ، واحدة اثر الأخرى : وانبسطت ظلال الموكب عمودية على جدار الصخور الهائلة .

قال اسكالي : « انظر . . . كنت فيها مضى . . . »

ـ « انظر الى هذا . . يا لها من لوحة ! » .

ولم يستأنف اسكالي القصة التي كان يريد أن يرويها ؛ ولم يكن من شك انه سوف يثير اعصاب مانيان ، كما تثير اعصاب اسكالي المقارنة بين لوحة ما وبين ما يشاهدونه الآن .

كان احد الأسبانيين يغازل شقيقته في اثناء حكم الجمهورية الأولى ، ولم تظهر له هذه امتعاضاً أو اعجاباً ، فصحبها ذات يوم الى منزله الريفي بناحية مرسيه ، وكان هذا المنزل حماقة من حماقات أواخر القرن الثامن عشر : أعمدة بلون القشدة على خلفية من جدران برتقالية ، وديكورات من المرمر على هيئة ازهار السوسن ، واعشاب الحديقة ترسم صوراً للنخيل تحت الورود الحمراء ، وكان أحد ملاكه القدماء قد شيد مسرحاً صغيراً لخيال الظل يتسع لثلاثين مقعداً فحسب ، فاذا دخل المدعوون وجدوا الفانوس السحري مضيئاً ، والظلال الصينية تتراقص فوق الشاشة الصغيرة ، ونجح الرجل الأسباني ، اذ باتت عشيقته ذلك المساء ، وكان اسكالي يشعر بالغيرة من ذلك الجو الزاخر بالأحلام .

وفي اثناء نزوله صوب الجدول تذكر الألواح الأربعة القرمزية المذهبة التي لم يرها قط . . . منزل حافل بالأغصان والنباتات ، مليء بالتماثيل النصفية المصنوعة من الجبس وسط أوراق اشجار البرتقال . واجتازت نقالته الجدول ، وانعطفت . فظهرت الثيران في مواجهته مرة أخرى . هذه اسبانيا التي عاش فيها مرحلة صباه ، وحبه ، ووهمه ، وشقائه ! اسبانيا هي هذا المدفع الرشاش المحطم على نعش رجل عربي ، وهي هذه العصافير المقرورة التي تصيح فوق تلك الأخاديد ! .

استدارت البغال الأولى واختفت من جديد ، عائدة الى وجهتها الأولى .
ومن المنحدر الجديد هبط الطريق مباشرة صوب لينارس ، وتعرف مانيان على شجرة التفاح .

على أية غاية يسيل مثل هذا المطر ، من الجانب الآخر للصخرة ؟ ولكن مانيان بغله ليجري خبباً ، فتجاوز الجميع ، وبلغ المنعطف . . . لا وجود للمطر ، وإنما كان ذلك هدير السيول التي فصلتها الصخور عنه مثلما تحجب منظراً ، فما كان يستطيع أن يسمعه من السفح الآخر ، وكان الصوت يصاعد من لينارس ، وكأن عربات الاسعاف والحياة التي يعودون اليها من جديد تبعث من أعماق الوادي هذا الهدير الممتد للريح يعبث بأوراق الشجر . ولم يكن المساء قد أسدل استاره بعد ، بيد أن النور بدأ يفقد سطوته ، وأخذ مانيان ـ وكأنه تمثال خيالي فوق بغل بلا سرج ـ يراقب شجرة التفاح القائمة وسط ثمارها الميتة . ومر رأس لانجلوا ذو الخصلات الدامية أمام الأغصان . وفي هذا السكون الذي امتلأ فجأة بخرير المياه الحية ـ بدت هذه الحلقة المتعفنة المملوءة بالبذور وكأنها ـ عبر حياة البشر وموتهم ـ ايقاع حياة الأرض وموتها . وجالت نظرة مانيان من جذعها الى الأخاديد التي لا عمر لها ، ومرت النقالات الواحدة اثر الأخرى ، وكما امتدت الأغصان فوق رأس لانجلوا كذلك امتدت فوق جوانب النقالات ، وفوق ابتسامة « تاييفير » الشبيهة بابتسامة الجثث ، ووجه ميرو الطفلي وضمادة جارديه العريضة ، وشفتي اسكالي المشقوقتين ، فوق كل جسم تنزف منه الدماء وتحمله الأيدي في رفق أخوي . ومر النعش يدفعه الرشاش الملتوي كالغصن . . . وواصل مانيان سيره .

ولم يدرك مانيان كيف يتوافق عمق الأخاديد التي غاصوا فيها الآن كأنما يغوصون في جوف الأرض نفسها مع أبدية الأشجار ، وتذكر المحاجر التي كانوا يتركون المساجين فيها ليعاجلهم الموت . . . بيد أن الساق المحطمة الأجزاء التي لا تكاد العضلات تربط بينها ، والذراع المتدلية ، والوجه

المشوه ، والمدفع الرشاش الذي فوق النعش ـ هذه كلها مخاطر إرادية ، وهذاالموكب الحزين البدائي من النقالات كل هذا يتسم بطابع مسيطر مثل تلك الصخور الهابطة من السماء الثقيلة ، ومثل أبدية التفاحات المتناثرة على الأرض : ومن جديد صاحت الطيور الجارحة القريبة من السماء غاية القرب . ترى ما عدد الأعوام الباقية له على الأرض ؟ عشرون عاماً » .

ـ « لماذا انضم الطيار العربي الى المعركة ؟ » .

وتقدمت نحوه إحدى النسوة مع اثنتين أخريين .

وفي السماء ، حومت الطيور بأجنحة ثابتة كأجنحة الطائرات .

ـ « أصحيح انهم يركبون أنوفاً جديدة الآن ؟ » .

وكلما اقترب الأخدود من لينارس اتسع الطريق ، وكان القرويون يسيرون حول النقالات ، على حين كانت النسوة المتشحات بالسواد ـ المناديل فوق رؤوسهن ، والسلال في أذرعهن ـ يتنقلن دائماً بين الجرحى يمنة ويسرة ، أما الرجال فكانوا يتبعون النقالات دون أن يتجاوزوها بصدور مستقيمة بارزة الى الأمام كأولئك الذين يحملون عبئاً فوق أكتافهم . وعند كل تغيير كان الحمالون الجدد يتخلون عن مشيتهم المتصلبة حين يتناولون النقالات في حركة تتسم بالرفق والرعاية ، ويواصلون السير بمصاحبة أصوات العمل اليومي ، وكأنهم يريدون اخفاء ما أظهرته حركتهم من عاطفة . وكانوا يتقدمون بخطوة منتظمة متئدة عند كل منحدر ، لا تسيطر عليهم سوى الرغبة في التفادي من الأحجار التي تعترض طريق الممر ، ولا يفكرون إلا في المحافظة على النقالات دون اهتزاز ، وكأن هذا الايقاع المتوافق مع الألم في هذا الطريق الطويل يملأ هذا الأخدود السحيق الذي أخذت تصرخ فوقه الطيور الأخيرة ، كأنها دقات طبول حزينة في موكب جنائزي ، ومع ذلك لم يكن الموت هو الذي يتمشى مع الجبال في هذه اللحظة ، وإنما إرادة البشر .

وبدأوا يتبينون لينارس عند نهاية الأخدود ، وتقاربت النقالات بعضها من بعض ، ولحق النعش بنقالة اسكالي ؛ وكان المدفع الرشاش مربوطاً حيث

كـان من المألـوف أن توضـع أكاليـل الـزهـور ؛ وكـان المـوكب كله بـالنسبـة للجنـازات كأنـه هذا المـدفع الـرشاش الملتـوي بالنسبـة لأكاليـل الـزهـور ، وهنـاك ، بالقـرب من طريق سـرقسطة وحـول الطائـرات الفاشيـة ، كـانت أشجار الغابة السوداء مـا زالت تحترق في ضـوء النهار الـذي بدأ يخبـو . هذه الطائرات لن تذهب أبداً الى وادي الحجارة ، وبدت هذه المسيرة كلها المؤلفة من فلاحين يرتدون السواد ، ونسوة يخفين شعورهن تحت مناديل لا عمر لها ـ بدت وكأنها تسير في موكب للنصر أكثر من أن تكون تابعة للجرحى .

كـان المنحدر هينـاً الآن ؛ وبارحت النقـالات الطريق ، وانتشـرت عبـر الأعشاب ، وتناثر رجال الجبال على هيئـة مروحـة ، وأقبل الأطفـال راكضين من لينارس ، وحين وصلوا الى مسافة تبعـد مائـة متر عن النقـالات تباعـدوا وافسحـوا لها الـطريق ، ثم ساروا وراءهـا . وكان الـطريق المليء بـالحصى المتـراكم على الجـانبين ، الـذي هو أشـد وعورة من مسـالك الجبـال ـ يصعد بمحاذاة الأسوار حتى يصل الى البوابة .

واجتمعت لينارس كلها خلف المتـاريس ، وضوء النهـار يخبو ، غـير ان المسـاء لم يكن قد حـل بعد ، وعـلى الرغم من ان السـماء لم تمطر فقـد كانت الحصبـاء تتألق ، والحمـالون يتقـدمـون في عنـايـة ، وفي المنـازل التي كـانت طوابقها تعلو على مستوى الأسوار أضيئت بعض الأنوار الخافتة .

وكـان قاذف القنـابل يتقـدم الموكب دائـماً ، والفلاحـات الواقفـات فوق الأسوار ينظرن في وقـار ، ولكن دون دهشة ، وكـان وجه الجـريح هـو وحده الخارج عن الغطاء ، وليس فيـه أي أثر لـلإصابـة ، وبالمثـل ، كان اسكـالي وميرو ، أما لانجلوا ، فقد أثار دهشتهم ، بمنظره الذي يشبه دون كيشوت ، وبالضمادة الملطخة بالدماء التي لف بها رأسه ، وإبهام قدمه نحو السماء (كان قد خلع حذاءه لأن قدمه مرضوضة) . أمن الممكن أن تنتهي على هذا النحو حرب الطيران التي هي أكثر الحروب رومانتيكية ؟ وثقلت وطـأة الجو حـين مر بوجول ؛ فقد كان ضوء النهار المتبقي كافياً لكي تبصر تلك العيون المتنبهة

بقع الدماء الكبيرة على الجلد ، وحين وصل جارديه امام هذا الحشد الصامت فعلاً ران صمت جديد حتى تناهى الى الأسماع فجأة خرير الجداول البعيدة .

كان الجرحى الآخرونجميعاً يستطيعون النظر ، وحين شاهدوا الحشد أرغموا أنفسهم على الابتسام ، لم يشذ عنهم في ذلك قاذف القنابل ، ولم ينظر اليهم جارديه . . كان حياً فحسب ، ومن ورائه ، كانت الجموع تستطيع أن تتبين النعش العريض عبر الأسوار . كانت الملاءة تغطي وجهه حتى الذقن ، والضمادة عريضة تحت خوذته حتى ليصعب على المرء أن يتخيل تحتها أنفاً ، وعلى هذه الهيئة كان الجريح صورة مجسدة لما تخيله الفلاحون عن الحرب ، منذ قرون ، ومع ذلك فإن أحداً لم يجبره على خوض القتال ، وانتابهم التردد لحظة ، لا يعرفون فيها كيف يتصرفون ، وإن انعقد منهم العزم على أن يفعلوا شيئاً ، وأخيراً رفعوا قبضاتهم ، كما فعل أهالي فالديلينارس .

وتساقط رذاذ من المطر على حين تقدمت النقالات الأخيرة ، والقرويون سكان الجبال والبغال الأخيرة ، وسط منظر الصخور الممتد ، هناك حيث تجمعت السحب المطيرة ، ومئات من القرويين الذين وقفوا بلا حراك رافعين قبضاتهم ، وانسابت دموع النسوة في هدوء ، وبدا الموكب كأنه يهرب من سكون الجبال الغريب بما صاحبه من ضجيج الحوافر ، وصرخات جوارح الطير الأبدية والزفرات المكتومة .



ورحلت عربة الاسعاف .

ومن النافذة التي تسمح بالاتصال بالسائق أبصر اسكالي مربعات من المنظر الليلي ، ومن هنا وهناك كان يظهر جزء من أسوار ساجونتة ، ومن أشجار السرو الصلبة السوداء في ضوء القمر الزاخر بالضباب . . . الضباب الذي يحمي غارات الليل ، والمنازل البيضاء الخيالية . . . منازل السلام ،

وثمار البرتقال التي تشع بالأضواء في البساتين السوداء .. بساتين شكسبير ... وأشجار السرو الايطالية ... « في ليل مثل هذا يا جيسكا ... » السعادة « موجودة » أيضاً .. في العالم ، وكان قاذف القنابل يتأوه فوق نقالته عند كل اهتزازة .

ولم يكن ميرو » يفكر في شيء ، فالحمى شديدة ، كان يسبح بصعوبة في مياه حارة !

أما قاذف القنابل فكان يفكر في ساقه .

وجارديه يفكر في وجهه ؛ لأنه يحب النساء .

وكان مانيان يستمع في التليفون الى فارجاس :

ـ « انها المعركة الفاصلة يا مانيان ... اصطحب معك كل ما تستطيع .. بأفضل ما تستطيع .... »

ـ « لقد تحطمت تقريباً في الطيارة « مارا » اجهزة التحكم في الاتجاه .... »

ـ « افعل ما تستطيع .... » .

الفصل الرابع

وادي الحجارة ، في ١٨ مارس

شن الايطاليون هجوماً مضاداً في بريويجا Brihuga فاذا استطاعوا اختراق هذه المدينة طوقوا مؤخرة القوات الجمهورية جميعاً ، وهذا معناه تهديد وادي الحجارة مرة أخرى ، وقطع الاتصال بين جيش الوسط وبين مدريد بحيث توشك المدينة أن تكون بلا دفاع ، ولا تجد كتائب ديميتروف وتالمان وجاريبالدي ، وآندريه مارتي ، والسادس من فبراير خطاً تنسحب اليه ، ولا تعود ثمة قيمة من الاستيلاء على ترجويك ، وايبارا ، وضياع كامپيسينو في غابتها .

وصمدت كتيبتا تالمان وادجار- آندريه مرة أخرى .

وكانت كتيبة ديميتروف (وتضم جنوداً من كرواتيا وبلغاريا ورومانيا وصربيا والبلقان ، ومن الطلبة اليوغوسلافيين في باريس) - تشعر حين تواجه الفاشيين انها تواجه قتلة أهلها ، وقد أمضى افرادها أربعاً وعشرين ساعة يسبون الدبابات الايطالية محتمين بالغابة ، كما فعلوا في جبهة « شرنبة » واستولوا على رقعة من الأرض طولها كيلومتر ولكنهم أرغموا على التخلي عنها ساخطين للمحافظة على استقامة الصفوف ، وناموا متلاصقين كالذباب لمكافحة البرد ، وهاجموا تحت وابل من قنابل « الشرابيل » . وكان أحد

رؤساء الجماعة ، وهو من أهالي ماونتنجرو[1] يجري نحو المؤخرة صائحاً : « اهتموا بمراكزكم ، ولا تهتموا بي ، يأيها الأوغاد ! » وكان يسند ذراعه اليسرى المكسورة على ذراعه اليمنى حين نسفت رصاصة متفجرة رأسه في دوامة من الجليد .

وتساقط الجليد من جديد ، وعلى طول الجبهة أحس الرجال الزاحفون ، برؤوسهم المختفية بين مناكبهم ، وعضلات بطونهم المتقلصة انتظاراً للإصابات ، أحسوا بالرصاصات المتفجرة تعصف بهم كما تعصف دوامات الجليد .

ولم تكن تتردد في كتيبة تالمان سوى عبارتين فحسب : « أين الطعام ! » ، « يا عزيزي ، لا حرب بلا ضحايا ! » .

وكان المندوب السامي لجماعة المدفعية الرشاشة يصيح بعد أن أُصيب في بطنه ، وانتابه ضرب من الهذيان : « أرسلوا دباباتنا ! أُرسلوا دباباتنا ! » .

وكانت الكتيبة قد شنت هجومها الحادي عشر منذ بداية المعركة ، وما زالت الأشجار تحتفظ بجذوعها ، وإن تجردت من أغصانها تماماً .

صاح سيري بين الفرنسيين ـ البلجيكيين : « هذه ليست الحرب ! إنها صفعة لا تنتهي أبداً ! » .

وجعل يحاكي غناء العصفور تلك المحاكاة التي لا علاج له منها ، وبدأت البنادق تحرق الأكف .

ولم يبق عند رجال بيب الذين يعملون تحت قيادة مانويل سوى سبعمائة وخمسين رصاصة لمدفع رشاش يطلق ستمائة رصاصة في الدقيقة . وتم توزيع نصفها على الرماة المهرة ، وأمام البنادق التي لم تعد صالحة للاستعمال أخذ

(١) منطقة جبلية في شبه جزيرة البلقان ، شمالي البانيا . كانت امارة مستقلة ثم تحولت الى مملكة مونتنجرو سنة ١٩١٠ ، ثم اتحدت بيوغوسلافيا سنة ١٩١٩ ، وهي الآن إحدى ولايات يوغوسلافيا الاتحادية ، وعاصمتها تيتوغراد . (المترجم) .

الجنود الجدد يبكون من فرط الحنق ، وصاح رئيس الجماعة : « احضروا المدفع الرشاش هنا ! » وحين تبدد دخان القذيفة الأولى ، كان قد لقي مصرعه في نفس المكان الذي اشار من فوره اليه باصبعه . بيد أن الذخيرة وصلت مع بعض البنادق الاضافية .

وأخيراً انحدرت صرخة من الغابات والسهول المؤدية الى بريويجا التقطتها الآذان برغم قصف المدافع الذي بدأ من جديد ، وتصاعدت من غابات الزيتون ومن الجدران الصغيرة التي التصق بها الجمهوريون كالحشرات ، ومن المزارع والحقول المخرَّبة ، ولاح الأفق كأنه يمتد بتأثير الانفجارات الغاضبة الصادرة عن المدفعيات الفاشية جميعاً : فلقد وصلت الدبابات الجمهورية .

وكانت تهاجم على طول الجبهة اكثر من خمسين دبابة في الصف الواحد ، ومن طرف الى الطرف الآخر من الأفق الذي كان الجليد يحجبه ويكشف عنه على التناوب . وشرع أولئك الذين اختلسوا عشرين دقيقة ناموا فيها نوماً قلقاً تحت أشجار الزيتون المتجمدة من البرد ، وأولئك الذين ناموا بعد أن هدهم التعب ، فاستيقظوا متصلبين . . شرع أولئك وهؤلاء يركضون وراء الدبابات الأخيرة التي كانت تحجب عنهم عواصف الجليد على فترات متقطعة .

وفي الفرقة الخامسة كان رئيس الجماعة الأولى هو أول القتلى ، ولم تمض بضع دقائق حتى انفجرت احدى الدبابات الجمهورية مشتعلة بالنيران ، فأضاءت الحقل الذي كساه الجليد ضوءاً أزرق كئيباً ، وكذلك أضاءت ندف الجليد المعلقة فوقه . وأخذ الرجال الذين حاصرتهم سيول متقاطعة من المدافع الرشاشة ، فانبطحوا على بطونهم وراء جذوع الأشجار ، وأخذوا يحفرون الجليد بخزانات رصاصهم وبخوذاتهم ولو (انهم حفروا بالسونكي لكان عليهم أن ينهضوا) ؛ وقبعوا في الحفر ، ثم قاموا فجأة لالقاء قنابلهم اليدوية برهة وجيزة ، ثم عادوا الى الانبطاح من جديد تحت المدافع الرشاشة

التي اجتاحت الميدان ، وسقط أربعة من المتطوعين الستة الذين أرادوا إعادة الجرحى . ولم يكن رجال الفرقة العالمية المجاورون يسمعون سوى الرصاصات المتفجرة من ورائهم ، وأحياناً كانوا يسمعون صوتاً يصيح : « إذن هل انتم على ما يرام ؟ » فيجيبه آخرون : « لا بأس . وأنت ؟ » وتحت هذه الأصوات كانت تنطلق صيحات كأنها كورس يائس على امتداد الميدان كله : « النجدة ! النجدة ! » .

ومع ذلك فقد أطبق عليهم النوم في الساعة الثالثة من فرط الاعياء ، ووزعت عليهم القهوة مرة أخرى ؛ وكان الجنود يجزعون من برد الليل ، وأخذوا يتذكرون تحت قبعاتهم الصوفية خنادق مدريد ، فهناك كانوا يطلقون النار أحياناً في أثناء الأكل ، وكان الأشخاص المرحون منهم يدربون الفئران ، والمتزوجون منهم يتأملون في صمت صور أطفالهم في انتظار انطلاق القذائف ، وتذكروا أيضاً جبهة شرنبة ، حيث كانوا يشنون هجوماً وراء الدبابات الفاشية عندما نفذت الذخيرة منها ، وأقبل عليهم أشخاص يصيحون ويطلبون ما يبرد فوهات المدافع الرشاشة .

وكان پيب يقول : « لا دبابات بلا رصاص ، ولا رصاص بلا دبابات » موجهاً كلامه الى رجاله الزاحفين راضياً عن هذه العبارة ، وعلى يمينه كان رجال الفرقة الخامسة يتقدمون أيضاً وسط سيل كثيف من الرصاص ، خلف قذائف المدفعية ، التي يقودها ضابط اسباني قيادة بارعة ، وكان المدنيون من فرق الاسعاف يهاجمون الدبابات ، وقد أمسكوا بأيديهم قنابل يدوية ، وتجردوا من السلاح ، وذلك حتى يتمكنوا من نقل جرحاهم .

وتعالت بضعة أصوات بالنشيد العالمي ، ولم تلبث أن طغت عليها صيحة عظيمة حانقة من جانب الأسبانيين ، وزمجرة قصيرة بعشر لغات من جانب رجال الفرقة العالمية : « الى الأمام ! » .

* * *

قال أحد ضباط سلاح الطيران : « الفاشيون لا يساندهم طيرانهم » .

وكانت السحب على بعد مائتين من الأمتار ، والجليد قد استأنف سقوطه .

أجاب سمبرانو : « إن مطاراتهم على الجانب الآخر من سلسلة الجبال . . ومن غير المحتمل أن يحاولوا اجتيازها » .

كان يربط ذراعه بوشاح ، ولم يكن يستطيع قيادة الطائرة ، وكانت القوات الايطالية محصورة بين الجمهوريين وسلسلة الجبال .

ولم يقل فارجاس شيئاً .

وقال أحد الضباط : « من الطبيعي أننا لو خرجنا فإننا نجازف بسحق طيراننا على بكرة أبيه : ويكفي أن يتحول هذا الجو الى عاصفة . . . وما من سلطة عسكرية يمكن أن تأخذ على مسؤوليتها مثل هذه الكارثة . . . » .

واستدعى فارجاس ضابط النوبة .

قال سمبرانو : « تستطيع طائراتهم في ترويل أن تدور حول سلسلة الجبال ، حتى في مثل هذا الطقس . . »

فأجاب فارجاس : « لا أعتقد أن شيئاً تبقى من تلك الطائرات . . . » واتصل ضابط النوبة بالتليفون قائلاً : « آلوا القلعة ؟ إبعثوا فوراً بكل ما تحت تصرفكم من طائرات الى مطار ١٧ في وادي الحجارة . آلو . . . مطار ٢١ ؟ ابعثوا بكل ما تحت تصرفكم من طائرات الى مطار ١٧ في وادي الحجارة . . . آلو . ساربون . . ابعثوا بكل ما تحت تصرفكم الى مطار ١٨ في وادي الحجارة » .

قال فارجاس : « لو اننا خسرنا هذ المعركة فسنخسر كل شيء . ومهما يكن من أمر فإن الشعب الأسباني لا يثق فينا إلا من أجل طيراننا ، أما بالنسبة للفاشيين فالمسألة أشد من ذلك تعقيداً . . . هيا بنا » .

ولأول مرة منذ عدة شهور ، وضع خوذة الطيران على رأسه .

* * *

شن الجنود الجدد هجوماً ، وقد تألفت هذه الكتيبة التي لم يلحق جنودها بعد بالسرايا الوطنية من المتطوعين القادمين حديثاً من بلاد بعيدة : من اليونانيين ، واليهود ، والسوريين الذين يعيشون في اميركا الشمالية ، والكوبيين والكنديين والايرلنديين والأميركيين الجنوبيين ، والمكسيكيين ، وبعض الصينيين وقد شرعوا في اطلاق النار جزافاً : ذلك أن الرجال الذين لا يحتاجون الى احداث ضجة في أول معركة لهم نادرون ، وظنوا أنهم جرحوا في أول صدام ؛ إذ أكدوا لهم أن الجروح الأولى لا تؤلم ، واكد البعض حين انطلقت الرصاصات الأولى ان « هذه ليست إلا ضوضاء العصافير الأسبانية » . وكانت خوذاتهم التي يصدمون حافتها الأمامية أو غطاء العنق في كل مرة يطلقون فيها الرصاص تعوقهم عن الحركة ، وما يحيط بالموتى من جو غير واقعي يزعجهم ، وانتظروا صامتين أمام الجرحى الأوائل الأمر بالهجوم ، وقد ارتسمت على جميع الوجوه نفس الابتسامة المتكلفة ، ثم تناهت الى اسماعهم ضوضاء مكتومة تشير الى كتيبة أدجار ـ آندريه المرابطة على يمينهم قد خرجت إلى العراء ، فاندفوا وراء الدبابات بقنابلهم اليدوية .

وعلى أقصى اليسار شن العدو هجوماً خاطفاً بالمدافع الرشاشة ترك كتائب مانويل في حالة من الذهول لم يخرجوا منها إلا بعد ان هاجمت الخيالة المغربية خنادقهم بالبنادق السريعة الطلقات ، وكان التأثير مباشراً ، فقد ولى الأدبار أولئك الذين واجهوا البنادق السريعة الطلقات لأول مرة ، غير أن مانويل حاصر جنوده برجال الديناميت الذين دربهم « پيب » . وكان هؤلاء يعلمون أن الفرسان لا يستطيعون التصويب في اثناء الحركة ، ومن ثم ، فقد كانوا محميين ، فواجهوا الحملة الأولى بالقنابل اليدوية ، وخندقوا على الفور وراء حاجز سميك من الجياد المقتولة ، يعاونهم الجنود الذين فهموا ، فأخذوا الآن يطلقون النار من بنادقهم على الفرسان الذين كانوا بسبيلهم الى التجمع ، وشرعوا يزحفون تحت الجياد بحثاً عن البنادق السريعة الطلقات . . . ولم يبق في المؤخرة سوى المجندين الفلاحين الذين كانوا على استعداد لمقاتلة الرجال ، ولكنهم لا يجرأون على قتل مثل هذه الخيول

الجميلة ، وتحدث اليهم جارتنر ، واقفاً خلف دبابة ، حريصاً على ألا يأتي من الاشارات ما يجاوز حدود برجها .

وعلى طول الجبهة اصطبغت أيدي الممرضين باللون الأحمر .

وظهرت أول طائرة جمهورية ، وكأنما انزلقت من بين جليد الأرض الناصع البياض ، وجليد السحب المشوب ، ولم تلبث بعد ذلك أن ظهرت الطائرات القديمة واحدة تلو الأخرى في مظهر شاذ ، كجنود جرحى ، تلك الطائرات التي لم يرها أحد منذ شهر أغسطس ، تتبعها طائرات سيدات الطبقة الراقية ، وطائرات النقل ، والبريد ، وطائرات الاتصال ، وطيارة لكلير « الأوريون » ، وطائرات التدريب ، واستقبلتها القوات الأسبانية بابتسامة قلقة ، هي أقصى ما يمكن أن تسمح به مشاعرهم الآن . وحين حمل وفد « الرؤ يا » هذا حملته على المدافع الرشاشة الايطالية ـ مارقاً وسط الجليد ـ تلقت جميع كتائب الجيش الشعبي المنتظرة الأمر بالزحف . وعلى الرغم من السحب الواطئة والجليد المنذر تقدمت الطائرات في بداية الأمر ثلاثاً ، ثم سرباً وراء سرب مصطدمة بالسحب كأنها طيور تصطدم بالسقف ؛ لتعود الى الهبوط مغطية الأفق المرئي الذي لم يكن سوى أفق المعركة بهدير جعل الجليد ينبض فوق الأرض وعلى الأموات ناشرة الوحشة فوق السهول المائلة ، القاتمة قتامة لا تقل عن قتامة الغابات . . .

. . . تقدمت ثمانون طائرة جمهورية في تشكيل القتال كأنها تقوم بغزو . .

* * *

وعلى الأرض ، تقدم الجمهوريون متلفعين بمعاطفهم ، وقد غطوا رؤ وسهم بالقلنسوات المدببة كالمغاربة ، ومن خلال فلول السحب المهلهلة الهاربة أمام الطائرات ظهر ـ للحظة واحدة فحسب ـ طريق مرتعش تحول الى طابور ايطالي مدرع ؛ ولما كانت الريح تهب من جانب الخطوط الجمهورية لم يكن مانيان يستطيع في طائرته « الأوريون » أن يرى أهل الطابور يهرب أمام

القلنسوات وأمام الدبابات المتضائلة فوق الحقول الواسعة وأمام الطائرات أو أن الريح تجرفها كما تجرف السحب التي لا نهاية لها ، وكما تجرف العالم بأسره ؟

ومع ذلك فإنه لم يشعر قط من قبل بأنه مندمج في القتال على هذا النحو ؛ وكأن السحب والطوابير تعبير عن ارادة خفية ، وكأن المدافع والفاشية ، والعاصفة متواطئة في الهجوم معاً ، وكأنه منفصل عن النصر بهذا العالم الأغبر .

وارتمت سحابة هائلة ، متشابكة الى درجة ان الطيارين حسبوا انفسهم عمياناً ـ ارتمت على الطائرات السياحية التي حف الجليد بأجنحتها ، وأخذت تنتفض في تلك المسيرة الهوجاء لدوامات الجليد التي غمرتها وحجبت عنها السماء والأرض ، وحاصرتها عن يمين وعن شمال ، فبدت وكأنها لا تتحرك من مكانها في كفاحها بكل قوتها ضد الريح ، وما أن خرج مانيان الى بقعة رمادية تكاد تكون سوداء حتى رأى أن « الأوريون » تستدير بزاوية ١٨٠° . وتعطلت البوصلة ، وكانت الأجهزة التي تشير الى خط السير الأفقي قد تحطمت ، وعلى الرغم من البرودة ازاح داراس خوذته ، وانحنى على جهاز تحديد الارتفاع ـ وكان قد تحطم هو أيضاً ـ فكشف عن شعره الأبيض ككل ما يحيط بالطائرة . من يدري لعله يهبط الى الأرض بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة ، ولعلهم على ارتفاع ٤٠٠ متر عن سطح الأرض . . .

كلا : لقد خرجوا من ناحية قمم السحب .

وبين السحب المهلهلة التي تفككت فوق الأرض وبين عباب اخر من السحب المنبسطة الشاحبة ـ تقدمت جميع الطائرات الحربية الجمهورية صفاً واحداً .

وحاول داراس أن يهز الأجنحة لكي يسقط الجليد .

ـ « حذار من القنابل ، بحق السماء ! » .

ولكنه انقض مرة أخرى ، دون أن يأخذ حذره كثيراً .

وقال مانيان في نفسه : « حبذا القتال في الجليد ! » إن طائراته متناثرة مع رياح اسبانيا كلها ، ورفاقه متناثرون في المقابر جميعاً ، وإن لم يكن ذلك بغير طائل ، ولم يبق ما يحيا من أجله الآن سوى طائرته الأوريون هذه التي تلطمها عاصفة الجليد في عنف شديد ، وتلك الطائرات المتهافتة التي تهتز كما تهتز أوراق الشجر أمام الأسطول الجوي الجمهوري الذي أعيد تشكيله ، ولم تكن تلك الصفوف الواضحة المحددة من القلنسوات تحت خضم السحب تغطي المراكز التي اتخذها الايطاليون بالأمس فحسب ، وإنما تغطي عصراً متطوراً بأكمله ، وتعرف مانيان على ما يبصره اليوم ممتداً تحته ، وطائرته الأوريون تهزه كأنه في مصعد أصابته لوثة : إنها نهاية حرب العصابات ، ومولد الجيش المنظم .

وبرزت « كامبيسينو » من الغابة ، وهبطت الوحدات الجاريبالدية والفرنسية ـ البلجيكية وراء كتيبة دوميروفسكي ، على حين كانت وحدات القربينات تصعد على طول جبهة « تاخونيا » . ومن طرف آخر من الجبهة ، كان المدفعيون يغيرون مواسير مدافعهم الرشاشة ، وقد انتصبوا بعد أن لسعهم المعدن المشتعل ، فحصدهم الرصاص على الفور ، ومن طرف إلى آخر من الجبهة كانت الدبابات تتقدم ، والجنود خلفها يذرعون الجبهة كالملوك ليجمعوا في أغطيتهم حصاداً لا ينتهي من الجرحى . وكانت هناك دبابة جمهورية يخرج نصف جنازيرها فوق فراغ أخدود ، وتبرز صفحتها الجانبية على خلفية السماء الواطئة ، وأخذ كارليتش الذي أصبح أخيراً رئيس جماعة من سلاح الدبابات ـ يتقدم مطلقاً رصاصه دون توقف على جماعات العدو المضادة للدبابات . . . مجرد ظلال لرجال لا عيون لهم انحنت ظهورهم ، وأمسكوا بالقنابل اليدوية في أيديهم .

وعند ترويل شاهد مانيان في اثناء تحليقه فوقها آثار الممتلكات الواسعة ، بثيرانها اللامبالية أو العنيدة ـ متناثرة فوق الجبال التي دارت عليها رحى الحرب ؛ ولكنه شاهد هنا آثاراً أقل وضوحاً ، تختلط ـ عبر الجليد ـ بجدران صغيرة من الأحجار كان رجال الفرقة العالمية وفرق مدريد يهاجمون

تحتها ، وذكرته أيضاً بالجدران الحجرية المنخفضة الجديدة التي شاهدوها في ترويل وفي الجنوب متكتلة قصيرة ، يتهددها الخطر بين الآثار القديمة الهائلة ، وتذكر الأراضي البور التي لم يكن للعمال الزراعيين ـ المصابين بتضخم الغدد من بؤسهم ـ الحق في فلاحتها . . . وكان هؤلاء الفلاحون الحانقون الذين يقاتلون تحت امرته يقاتلون لتشييد هذه الجدران الصغيرة ، التي تعد أول شرط من شروط اثبات كرامتهم ، وشعر مانيان في جميع أحلامه التي تخبط فيها منذ شهور بشيء بسيط أساسي كالميلاد أو الفرح أو الألم أو الموت ، شيء لا تستطيع عبارات المدن المنمقة التعبير عنها ، انه ذلك الصراع القديم بين من يفلح الأرض وبين من يملكها بالوراثة .

وحين عادت « الأوريون » للمرة الخامسة مع أسطولها العتيق ، مرت الطائرات الجمهورية تحت السحب ، وهاجمت صفوف القلنسوات من الأمام ، ولم يظهر الطيران الفاشي تقريباً ، وعلى الأرض كانت الدبابات الجمهورية تهاجم كأنها تقوم باستعراض في الميدان الأحمر ، ثم تعود لتهاجم من جديد . ولم تكن أديرة بريويجا وكنائسها تطل برأسها من ضباب المساء إلا في صعوبة على ضوء القنابل . وكانت الانفجارات ترسم الآن حدوة الحصان التي يؤلفها الجيش الجمهوري في حصاره للمدينة ، وفي كل طرف من طرفي هذه الحدوة كانت تشتعل بطاريات المدفعية اللاهثة كأنها أكوام من الحطب أضرمت فيها النيران لمواجهة الجليد الذي أخذ يتساقط من جديد ، فاذا التحم هذان الطرفان كان معنى ذلك الانسحاب الايطالي على طول جبهة وادي الحجارة .

وفي مقدمة الفراغ الذي يفصل بينهما امتدت على الأرض ألواح اعطاء الاشارات ، بيد أن الضباب كان قد غمر الآن كل شيء فأصبح من المحال تمييز أية حلة عسكرية . لو أن الليل أنقذ الايطاليين فسوف يشنون هجوماً مضاداً على تريجويك . وترنحت « الأوريون » (كانت قد افرغت حمولتها من القنابل . وكفت عن الاشتراك في القتال ؛ ولكنها لبثت هناك ، تتأرجح

وتكافح ذلـك الليل الـزاحف فوق مصـير اسبانيـا ، كما زحف في اثنـاء عودة مـارسيلينو . وكـان خط الطيـران الحربي الكثيف يحـوم فوق ميـدان المعـركـة بحوالي مائتين من الأمتار على الأقل ، ولم يكن الـطيارون يـرون شيئاً ؛ ومـع ذلك لم يكونـوا يريـدون الرحيـل ، وكان الضبـاب يواصـل صعوده دائـماً من وادي « تاخونيا » .

وتحت الطائرات كان المتطوعون يواصلون مجهـودهم الضاري ، المجهـود الذي سيدعم انشاء الجيش الجمهوري أو يوهن منه ، وحامت الطائرات التي لعلها كسبت المعركة ، بدلاً من أن ترحل لا رغبة في الهجوم على العدو ، بل انتظاراً للنصر ، متناسية مطاراتهاالتـي تفتقر الى الأنوار الأرضية مفتونة بالليـل المنسدل .

وحلق مانيان على الفضاء الممتد بين طرفي الحدوة ، فوق طريق من طرق « هوركا » ، كان متسعاً عنـد ذلك المـوضع ، تحفـه سيارات نقـل مهجورة . وانقض بطائرته انقضاضاً شبيهاً بما فعله مع الفلاح فوق مـطار ترويـل ؛ بينما كان الجنود الجمهوريون يمطرون أجنحته بوابل من رصاصهم ، وقد اخـطأوا فحسبوه عدواً ـ تعرف على علامات الاشارة التي وضعها الفوضوي « ميرا » و « كامبيسينو » ، وجنود الغدارات .

الفصل الخامس

كانت الالتحامات الأخيرة للمعركة تهدر من بعيد ؛ وطاف مانويل بالقرية - بعد ان استقرت خطوطه - للاستيلاء على سيارات النقل يتبعه كلبه ، وكان قد تبنى كلباً بديعاً من فصيلة الذئاب (وولف) فاشياً سابقاً جرح أربع مرات ؛ فكلما أحس انه منعزل عن الناس تضاعف حبه للحيوانات من ثيران وجياد حربية وكلاب ذئبية وديكة مقاتلة ؛ وكان الايطاليون قد تركوا وراءهم كثيراً من السيارات ، وفي انتظار التوزيع الرسمي حاول قائد كل وحدة أن يضم اليه أكبر عدد ممكن منها (مؤكداً في خبث انه لو انتظر وصول كامبيسينو فلن تتبقى سيارة واحدة) . وكانت تلك السيارات تأوي مؤقتاً الى أي مكان يتسع لها سواء أكان كنيسة أو دار للعمدية ، أم مخزناً للمحصولات ، وفي القرية التي كان يحتلها رجال القربينات رابطت في كنيسة ، بيد انهم حذروا مانويل من أن أكسيمينيس قد ذهب الى القرية منتوياً نفس ما ينتويه مانويل .

كانت الكنيسة عالية مشيدة من الأحجار الحمراء وقد هشمت الرصاصات نخيلها المدهون بالجير ، وانكسرت اشعة النهار التي نفذت من خلال الكاتدرائية فوق ركام من المقاعد يصلح وقوداً للمدافىء ، وفوق السيارات المرصوصة بنظام وسط صحن الكنيسة ، وسار أحد رجال الميليشيا الذين يحرسون الكنيسة في أعقاب مانويل وجارتنر .

وتساءل هذا الأخير : « هل رأيت الكولونيل ؟ » .

- « أنه هناك ، وراء السيارات » .

فزمجر جارتنر : « واأسفاه ! لقد سبقنا في الاستيلاء عليها » .

وتوقفت نظرة مانويل التي لم تكن قد اعتادت الظلمة بعد - عند خليط ذهبي اللون يرتعض في الظلال فوق الدهليز كأنه حريق ثابت : ملائكة يضعون أقدامهم على الهواء ، ويملأون الجدار كله حول أنابيب للنفخ لأرغونات عجيبة الشكل ، وأبصر مانويل سلماً لولبياً ، فصعده في شيء من القلق واللهفة .

وتبعه رجل الميليشيا على حين مكث مانويل في مكانه ، وكأنه يريد حراسة السيارات ، والكلب خلفه .

وسأل مانويل رجل الميليشيا : « كيف ظلت هذه الكنيسة سليمة لم تُمَسْ ؟ » .

- « بفضل لجنة الفن الثورية ، لقد حضر الرفاق وقالوا للجنة المحلية : « للأرغن والكورس أهمية عظيمة » . وكانوا على حق ؛ لأن العمل كثيراً ؛ ومن ثم فقد اتخذوا اجراءاتهم » .

- « والايطاليون ؟ » .
- « لم يحاربوا كثيراً في هذا المكان » .

وكان أحد الفوضويين قد رسم حديثاً فوق قبر سرفانتس بشعلة كان يريد أن يحرق بها الكنيسة - سهماً كبيراً في اتجاه الصليب الذي لم يمس ، وكتب هذه العبارة : « لقد أنقذك سرفانتس » .

وسأل مانويل : « وهل توافق على ذلك ؟ » .

- « لقد صنع الانسان تلك التماثيل ، وهو يعشق ما يصنع . ولقد كنت دائماً ضد كل تدمير ، أما القساوسة ، فلا أوافق عليهم بكل تأكيد . . . ولا أشعر بشيء ضد كل الكنائس ، وفكرتي أنه ينبغي تحويلها الى مسارح ؛ فهذه الكنائس فخمة ، كما ان المرء يسمع فيها جيداً . . . »

وتذكر مانويل رجال الميليشيا الذين استجوبهم بالاشتراك مع اكسيمينيس عند جبهة نهر تاجة ، وفحص صحن الكنيسة جيداً حتى انتهى به الأمر الى اكتشاف الشعر المقصوص الذي كان يلمع في الظل الى جوار أحد الأعمدة كأنه زغب فرخ صغير .

وكان مانويل يعلم ان اكسيمينيس يستمع الى الموسيقى ، فنظر في عطف الى الهالة البيضاء التي تحيط برأس « البطة العجوز » ، وابتسم كأنه يدبر مكيدة مازحة ، وجلس أمام الأرغن .

وشرع في العزف ، وكانت أول مقطوعة خطرت على ذاكرته هي مقطوعة « رحمتك اللهم » لبالسترينا . وانتشر النشيد المقدس في صحن الكنيسة الخالي صارماً وقوراً كالأنسجة القوطية متنافراً مع الحرب متناغماً مع الموت ؛ وعلى الرغم من المقاعد المحطمة ، والسيارات والحرب ـ استولى صوت العالم الآخر على الكنيسة ، وأحس مانويل بالقلق ، لا بسبب النشيد ، ولكن بسبب ماضيه ، ونظر رجل الميليشيا مذهولاً الى ذلك الكولونيل الذي أخذ يعزف نشيداً كنسياً .

قال حين فرغ مانويل من العزف : « تلك الحيلة تنجح دائماً » .

ونزل مانويل مرة أخرى ، وجعل يلاطف كلبه الذي لم ينبح طيلة تلك الفترة . وكان يلاطفه في كثير من الأحيان ، ولم يكن يمسك بيده اليمنى شيئاً هذه المرة . وانتظره جارتنر عند مدخل السلم ، وعلى مقربة من السيارات كانت بقع سوداء تغطي بلاط الكنيسة ، وكان مانويل قد كف عن التساؤ ل عن طبيعة السائل الذي أحدث هذه البقع .

قال في شيء من الارتباك : « هذا النشيد الديني رائع ، وقد كنت أعزفه وأنا أفكر في شيء سواه ، انتهت علاقتي بالموسيقى ، ولعلك رأيت حزمة كبيرة من أفضل مؤلفات شوبان ملقاة فوق البيانو في الأسبوع الماضي ، وقد تصفحتها ، وكأنني أقلب في صفحات من عالم آخر . . . » .

ـ « ربما كان ذلك متأخراً جداً . . . أو مبكراً جداً . . . » .

ـ « ربما . . . ولكنني لا أظن ذلك ، وإنما أعتقد أن حياة أخرى قد بدأت بالنسبة لي حين خضت القتال تماماً كما بدأت حياة جديدة حين ضاجعت امرأة للمرة الأولى . . الحرب تعيد الانسان الى الطهارة . . . » .

ـ « ثمة اشياء كثيرة يمكن ان تقال في هذا الموضوع » .

ووجدا الكولونيل أخيراً ، وكان يفحص محركات السيارات ، فقال لهما :

ـ « إذن ؛ فقد كنت أنت يا بني الذي عزفت لي نشيد الملائكة ذاك ؟ شكراً لك . . . لقد تعمدت هذا العزف ، أليس كذلك ؟ » .

ـ « لقد أسعدني ما فعلت من أجلك » .

ونظر اليه اكسيمينيس :

ـ « ستكون جنرالاً قبل أن تبلغ الخامسة والثلاثين يا مانويل . . . » .

فقال مانويل بابتسامته الجادة التي تنخفض بها شفتاه : « إنني اسباني انتمي الى القرن السادس عشر » .

ـ « ولكن أخبرني : انك لست موسيقياً محترفاً ، فأين بحق الشيطان تعلمت العزف على الأرغن ؟ » .

ـ « كان ذلك نتيجة لنوع من الابتزاز : فالقسيس الذي كان مكلفاً بتعليمي اللاتينية لم يكن يفعل ذلك إلا في ساعة واحدة من الساعتين المخصصتين للدرس ، أما الساعة الثانية فكان يتركها لمتعتي الخاصة . وفي بداية الأمر كنت أنزل عن هذا الحق ليمارس هو متعته الخاصة ، فكان يضع ابرة من العاج ـ وهي ترف عظيم في تلك الأيام ـ فوق اسطوانات يديرها على جرامفون قديم من طراز عتيق ـ ليستمع الى ڤردي ، وقد حفظت أوبرا « الأفريقية » عن ظهر قلب ، ثم أصررت بعد ذلك على تلقي دروس في التكتيك (في التكتيك ، يا سيدي الكولونيل !) ، فأفهمني أن ذلك لا

يدخل ضمن معارفه أو شخصيته ، ولكنه حمل علبة من علب الأحذية مملوءة بجنود من الورق المقوى . . . » .

ومرت عليهم نقالات تحمل جنوداً من لحم ودم ، احياء وأمواتاً تلفهم الأغطية .

- « وظهرت بعد ذلك اسطوانات بالسترينا ، وعلى أمل خبيث في التخلص من دروس التكتيك وضعها تحت ابرة العاج فوق الجرامفون العتيق ، ونجح نجاحاً عظيماً . فقد هجرت التكتيك ، وطلبت الأرغن وكنت حين ذاك عازفاً ماهراً على البيانو » .

قال البطة العجوز ساخراً : « ومع ذلك ، لا وجود لغير قساوسة سيئين يا بني ! » .

وحول مانويل دفة الحديث في براعة الى سياراته ، ولكن ما أن بدأ الحديث حتى قاطعه اكسيمينيس قائلاً :

- « لا جدوى من أية حيل استراتيجية ؛ فهذه السيارات مقدسة حتى تصل الأوامر » .

- « بكل تأكيد . . فقد وجدناها في كنيسة . . غير أن رجالك الحاملي القربينات قد وجدوا سيارات صغيرة » .

وقهقه اكسيمينيس ، وهو يغمض إحدى عينيه كما كان يفعل من قبل .

- « لا جدوى من الحيلة معي ، ستكون جنرالاً في سن الثلاثين ، ولكنك لن تحصل على سيارتي ، وفضلاً عن ذلك فإنها لا تكفيني . . . هيا نبحث عن سيارات أخرى معاً » .

- « قلت لاحدى نساء الميليشيات في سييرا : ان لها شعراً جميلاً ، وطلبت منها أن تعطيني شعرة ، فرفضت ، وأنت في بخلك لا تقل عنها » .

- « خذ مفتاحاً انكليزياً . . . ودعنا من هذا الموضوع » .

وشرعا في المسير ، وقبل أن يصلا الى بريويجا ، وجد كل منهما ثلاث سيارات ، وجلس السائقون الذين اصطحبهم جارتنر ، واكسيمينيس الى عجلات القيادة ، وتبعوهما .

قال مانويل : « ان هذا العرس الأندلسي الصغير يعجبني » .

وصاح فيهم جندي من جنود المراسلة : « نحن عند الكيلو ٨٨ ! » .

وكان النصر يشيع في الجو .

وفي ميدان بريويجا امام مركز القيادة (كان على جميع الضباط المسؤولين أن يمروا على هذاالمركز في الصباح) ـ أصغى مانيان الى ثرثار عجوز يرتدي رباط عنق عجيباً ، ولم يحلق لحيته منذ أيام ، وتدل كل الشواهد على أنه خرج من الكهف حديثاً :

ـ « حين قرروا طردنا رتبوا المكان جيداً ، لكنهم تركوا الأسلاك التي كنا نعلق عليها سراويلنا . . . ولم يستطع المرشدون الجدد أن يبرروا وجود هذه الأسلاك إلا واحداً منهم . . . زميل قديم ، فنان . . . هو ذلك الذي . . .

وأتى بيده حركة من يمشط شعراً طويلاً :

« كان يصور بألوان الماء ، ويقرض شعراً . . . ويضع كل شيء ، هو باختصار فنان ؛ ومن ثم كان يقول للسياح الذين يزورون قصر طليطلة : « سيداتي سادتي ، كان « السيد كامبيادو » يقوم بأعمال كثيرة ، بالطبع ، وحين ينتهي من أعماله جميعاً من أوامر ومكاتبات ، وحملات ـ كان يأتي الى هذه القاعة . . . بمفرده تماماً . فماذا كان يفعل لكي ينعم بالراحة ؟ كان يتعلق بهذا السلك . و « هوب » ! يأخذ في التأرجح » .

قال جارسيا مخاطباً مانويل واكسيمينيس : « لقد كان هذا الرفيق دليلاً في قصر وادي الحجارة ، ومن قبل ذلك في طليطلة » .

كان رجلاً عجوزاً ، له سوالف طويلة اشبه بمخالب الأرنب ، ووجهه

وحركاته أشبه بوجه الممثل المحترف وحركاته . . . أو بأولئك الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا في عالم وهمي !

« وكنت أنا أيضاً ، مولعاً بهذا كله ، بالأشياء الأصيلة ، قبل أن أفقد زوجتي الأولى . . . وقد طفت بالعالم ، وكنت في صحبة سيرك وما من مرة أسمع فيها عن شيء جديد ، حتى أهرع لرؤيته . . . بيد أن هذه القصة . . هنا . . . » .

وأشار بإبهامه في اتجاه وادي الحجارة ، حيث كانت الريح تحمل تحت السحب الواطئة رائحة المنازل المحترقة ، وحيث يتجه الأسرى الايطاليون .

« هذه هي القصة كلها . . . وهؤلاء الكاردينالات ، وحتى الفنانون من أمثال الجريكو ، والسياح ، وغيرهم ، وجميع تلك الآلات . . . حين نراهم طيلة خمسة وعشرين عاماً . . . . والحرب حين نراها ستة أشهر . . . »

وكان يشير دائماً صوب الجنوب الغربي ، الى وادي الحجارة ومدريد وطليطلة ، وكأنه يهش ذباباً في غير مبالاة .

وجاء ضابط ليتحدث الى مانويل ، فصاح هذا الأخير وهو يربت ربتة شديدة على ظهر الكلب :

- « لقد وصلنا الى الكيلو التسعين . . وتخلى العدو عن عتاده جميعاً ! »

واستطرد الدليل قائلاً : « أتريد أن تسمعني يا سيدي ؟ » .

وهز كتفيه ، ثم قال وكأنه يلخص تجربة حياته كلها :

- « أحجار . . . مجرد أحجار قديمة . . هذا هو كل شيء ، ولكنك لو انحدرت الى الجنوب لوجدت أشياء تستحق العناء ، أشياء من عهد الرومان قبل ميلاد المسيح بأكثر من ثلاثين عاماً ! إنني أقول « قبل » ، وهذا يعني شيئاً كثيراً . . . وساجونته ، مشهد عظيم . أو انك تريد التحدث إليَّ عن الأحياء الجديدة في برشلونة ، ولكن ماذا عن الآثار القديمة : انها كالحرب :

مجرد أحجار . . . » .

ومر بعض المغاربةمن الأسرى الايطاليين .

قال جارسيا مخاطباً مانيان :

-« كلما حاربت ازددت توغلاً داخل اسبانيا . . اما انا فكلما انهمكت في العمل ابتعدت عنها ، لقد انفقت الصباح في استجواب الأسرى المغاربة .

« كان المغاربة الذين هنا قلائل ، ولكنهم كانوا هنا على كل حال . . . انهم في كل مكان هل تتذكر يا مانيان ما قاله لهم فارجاس : لا يوجد غير اثني عشر ألفاً من المغاربة ؟ حسن ، الواقع ان ها هنا عدداً كبيراً من المغاربة القادمين من الممتلكات الفرنسية ، وما زال الفرنسيون والانكليز يسيطرون على النظم الادارية في شمالي افريقيا ، أما الايطاليون فيسيطرون على الهيئات الدينية ،والنتيجة الأولى لهذا أننا نأخذ هنا في بريويجا أسرى مغاربة وأسرى ايطاليون ، وهناك اضطرابات في مراكش الفرنسية وليبيا ، واضطرابات في فلسطين ومصر ، ووعد من فرانكو باعادة جامع قرطبة الى المسلمين . . . »

كان جارسيا مولعاً بالكلام ، والآخرون يودون أن يمضي في كلامه ، فهم لا يطالعون سوى الصحف الخاضعة لرقابة الحزب ، كان جارسيا عليماً ببواطن الأمور ، غير أن مانويل وا كسيمينيس لم ينسيا سياراتهما .

وعند باب المنزل الذي التجأ اليه في اثناء الاحتلال الايطالي - نادت الدليل امرأة .

قال هذا لجارسيا : « والآن ، نحن ننتظر « آزانا » لمعالجة الموقف . . . فماذا سيفعل ؟ هذا هو المجهول الأعظم . . . » .

وتخلى فجأة عن تلك اللهجة الغامضة التي اصطنعها ليقول في غير مبالاة شديدة ، رافعاً سبابته صوب السماء المنخفضة :

- « لا شيء . . . انه لن يفعل . . . ولا يستطيع أحد أن يفعل

شيئا . . . وفرانكو ، مجرد غوريللا بالطبع . . ولكن بغض النظر عنه سيان عندي آزانا أو كاباليرو ، أو انتم ما دمت قد خرجت الآن من كهفي فسأخدم زبائن ، وأعمل دليلاً للحمقى ، وسأموت في وادي الحجارة ، وأنا أخدم الزبائن ، وأعمل دليلاً للحمقى . . . »

ونادته المرأة مرة أخرى ، فانصرف .

قال مانيان : « لقد نجح » .

فأجاب جارسيا : « في أشد الحروب الأهلية حماساً نجد دائماً عدداً كبيراً من الأشخاص غير المكترثين بشيء . . .

« وهأنتذا ترى يا مانيان ، انه بعد ثمانية اشهر من الحرب ، ما زال هناك شيء غامض في نظري ، هذا الشيء هو اللحظة التي يقرر فيها شخص ما أن يحمل بندقية » .

قال مانويل : « إن لدى صديقنا باركا افكاراً جادة عن هذا الموضوع » .

(ونبح الكلب ـ الذئب مؤيداً) ـ « عن الأسباب التي تدفع الى القتال . . . أجل ، ولكن ما يهمني هو تلك اللحظة ، لحظة انطلاق الزناد ، ويقولون : إن الصراع والرؤ يا والأمل مجرد طعم تستخدمه الحرب لاصطياد الرجال . . وكذلك يبدأ مرض الزهري بالحب ، والقتال جزء من المهزلة التي يلعبها كل انسان على نفسه ، وهو يجعل الانسان يندمج في الحرب ، كما تجعلنا مهازلنا جميعاً نندمج في الحياة . . . والآن . . . تبدأ الحرب » .

كان هذا هو ما خطر لمانيان في طيارته « الأوريون » وما خطر لكثيرين غيره بلا شك ، وذكرته هذه المحادثة بما دار بينه وبين جارسيا وفارجاس مساء معركة مدلان Medellin ، واحس للمرة الثانية أن فرقة الطيران العالمية قد ماتت .

قال جارسيا : « لن تلبث اليابان أن تثبت وجودها في الحياة الدولية . . . ان امبراطورية لا تقل عن الأمبراطورية البريطانية تُشَيَّد هناك . . . » .

وقال مانيان : « فكروا فيما كانت عليه أوروبا عندما كنا في العشرين من عمرنا ، وما آلت اليه اليوم . . . »

واستأنف مانويل وجارتنر واكسيمينيس بحثهم عن السيارات ، وتأبط جارسيا ذراع مانيان ، وسأله :

ـ « ماذا عن اسكالي ؟ » .

ـ « اصابته رصاصة متفجرة في قدمه في اثناء معركة ترويل . . سيفقد قدمه . . . » .

ـ « وأين كان يتجه بميوله السياسية ؟ » .

ـ « الواقع انه كان يزداد ميلاً الى النزعة الفوضوية ، والى مذهب سوريل ، حتى كاد يكون معادياً للشيوعية . . » .

ـ « انه لا يعادي الشيوعية ، ولكنه يعادي الحزب » .

ـ « أخبرني اذن يا سيدي القائد : ما رأيك في الشيوعيين ؟ » .

وقال جارسيا في نفسه : « مرة أخرى ! » .

فأجاب : قال صديقي جرنيكو : « انهم يتحلون بفضائل الفعل ، ولا شيء سواها ، ولفعل هو الشيء المهم في هذه اللحظة » .

وانخفض صوته ، كما ينخفض دائماً حين يلخص تجربة مريرة :

ـ « كنت هذا الصباح عند الأسرى الايطاليين ، وكان بينهم أسير ، تخطى سن الشباب ، أخذ ينتحب كالطفل ، فسألته ماذا به ، ولكنه ظل يبكي ويبكي ويبكي . . . وأخيراً قال : « إن لي سبعة اطفال . . . ثم ماذا ؟ » وفهمت بعد لأي انه مقتنع بأننا سوف نعدم الأسرى رمياً بالرصاص . فشرحت له اننا لن نفعل شيئاً من ذلك ، وأخيراً عزم على تصديقي . وعلى حين بغتة وثب فوق الدكة غاضباً ، وألقى خطبة أشبه بالعواء تتألف من عشر جمل : « لقد خدعونا في ايطاليا » ، الخ ، ثم نبح

قائلاً : « الموت لموسوليني !» وكان رد الفعل ضعيفاً ، فصرخ من جديد ، ورد عليه الأسرى من حوله : « الى الموت ، » بصوت لا يكاد يسمع ، وكأنهم كورس بأفواه مغلقة ، وعيونهم شاخصة ـ في ذعر ـ الى الباب . ومع ذلك ، فإنهم لدينا . . .

« لم يكن الخوف من البوليس ـ يا مانيان ـ هو الذي يستولي عليهم ، كما لم يكن الخوف من موسوليني نفسه . . انه الخوف من الحزب الفاشي . . . مع انهم عندنا . . وكان الفلانج المخلصون يموتون ـ في بداية الحرب ـ وهم يهتفون : « فلتحيا اسبانيا ! ولكنهم كانوا يهتفون فيما بعد : « فليحيا الفلانج ! » . . فهل انت على يقين من أن طياريك الشيوعيين الذين كانوا يهتفون في البداية في اثناء موتهم بقولهم : « فلتحيا البروليتاريا ! أو فلتحيا الشيوعية ! لن يهتفوا اليوم وهم في نفس الظروف قائلين : « فليحيا الحزب ! . . . ؟ » .

ـ « لن تتاح لهم الفرصة للهتاف ، فهم جميعاً تقريباً في المستشفى أو في باطن الثرى . . . وربما كانت المسألة كلها فردية . سيهتف أتينييس قائلاً بلا شك :

ـ « يحيا الحزب ! » ، وسيهتف غيره بشيء آخر . . . »

ـ « إن كلمة « حزب » مضللة على كل حال ، ومن العسير كل العسر أن ندرج تحت بطاقة واحدة مجموعات من الناس اتحدوا بطبيعة الصوت الذي أدلوا به ، وأحزاباً تمتد جذورها الضخمة الى ما في الانسان من عناصر عميقة لا معقولة . . . إن عصر الأحزاب يبدأ يا صديقي العزيز » .

وقال مانيان في نفسه : « ومع كل هذا فقد اكد لي جارسيا أن الاتحاد السوفييتي لن يستطيع التدخل وهو شائق الحديث ، ولكنه ليس نبوءة لا تحتمل الخطأ ، وضغط القائد على ذراعه الذي لم يتركه :

ـ « ينبغي ألا نغالي في انتصارنا ، وهذه المعركة ليست معركة المارن ،

ولكنها مع هذا كله انتصار . . . وقد كان ضدنا هنا من العاطلين أكثر من أصحاب القمصان السود ، ولهذا لجأت ـ كما تعلم ـ الى الدعاية بمكبرات الأصوات . . ولكننا كنا نحارب مع ذلك وحدات فاشية . ونستطيع أن ننظر الى هذا البلد نظرة احترام ـ يا صديقي العزيز ، فهي معركة « فالمي[1] » بالنسبة الينا ولأول مرة يلتقي هنا الحزبان الحقيقيان » .

وخرج من مركز القيادة ضباط يخبطون بعضهم على مناكب بعض ، وصاحوا في الطريق : « وصلنا الى الكيلو الثاني والتسعين ! » .

وسأل مانيان جارسيا : « هل اجتزت ايبارا ؟ » .

ـ « أجل ، ولكن في اثناء القتال » .

ـ « في كل ركن منها أحواض لزراعة الأرز ، ويبدو أنه أرز باللبن ، ظل الجاريبالديون يطلبونه منذ مدة طويلة (فهم يبغضون الزيت الاسباني) ، وأخيراً استطاعوا أن يصنعوه لهم . بيد أن الأرز في الأحواض قد غطاه الجليد ، وكذلك القتلى الأوائل ، وقد أخرجوهم من تحت الجليد لدفنهم ، وكانت وجوه هؤلاء الموتى جميعاً وجوهاً سعيدة تعلوها ابتسامة هانئة على الشفاه . . . ابتسامة الشراهة . . » .

ـ « قال جارسيا : « ما اعجب هذه الحياة ! . . . »

وكان مانيان يفكر في القرويين ، ولم تكن له ألفة جارسيا بالأفكار ، غير أن ممارسة الطيران أضفت على تفكيره نزعة نسبية لها طابع جسدي صرف كانت تعوضه عن العمق ، وكان القرويون يسيطرون تماماً على فكره : ذلك الفلاح الذي أرسله جارسيا ، أولئك الذين طلب منهم سيارات في القرى ، والذين رافقوه في النزول من الجبال ، والذين رآهم يحاربون بالأمس تحت قيادته .

---

(١) « فالمي » هي المعركة الشهيرة التي انتصر فيها جيش الثورة الفرنسية على اعدائه البروسيين والنمساويين والمهاجرين الفرنسيين عقب الثورة الفرنسية . (المترجم) .

ولم يسأل سوى هذا السؤال : « وماذا عن القرويين ؟ » .

- « قبل أن أحضر الى هنا تناولت قهوة بالينسون في وادي الحجارة (بدون سكر دائماً) وكان صاحب المقهى يصغي الى ابنته وهي تطالع له الصحيفة ، فقد كانت تعرف القراءة . أما أن يصنع فرانكو ما نصنع في الأماكن التي انتصر فيها ، أو عليه أن يخوض حرب عصابات لا نهاية لها . والمسيح لم ينتصر إلا على قسطنطين . ونابليون سحق في ووترلو ، ولكن كان من المستحيل الغاء الميثاق الفرنسي . . . ومن أشد الأمور ازعاجاً لي هو كيف يتبنى كل جانب في الحرب صفات عدوه ، أراد ذلك أم لم يرد . . . » .

كان الدليل يقف خلف جارسيا الذي لم يفطن الى عودته . ورفع سبابته ، وضيق عينيه ، وأضفى الاستمرار شيئاً من التهذيب على وجهه كله ، على الرغم من انفه الذي يشبه أنف السكير .

- « العدو الرئيسي للإنسان - أيها السادة - هو الغابة . انها أقوى منا ، أقوى من الجمهورية ، أقوى من الثورة ، أقوى من الحرب . . . ولو ان الانسان توقف عن القتال ، لغطت اذن الغابة أوروبا في أقل من ستين عاماً . ستكون الغابة هنا في الشارع ، وفي المنازل المفتوحة ، وستخرج الأغصان من النوافذ ، وستختلط آلات البيانو بالجذور . . . إيه . . . إيه . . . يا سادة . . هذه . . . » .

وكان بعض الجنود الذين دخلوا الى المنازل المحطمة يعزفون على البيانو بإصبع واحدة .

وصاح صوت من إحدى النوافذ : « الكيلو الثالث والتسعون ! » .

وعبر الميدان أسرى جدد .

قال الدليل : « عصبة الأنذال . لماذا لا يمكثون في بلادهم ؟ » .

وخفض عينيه ، فالتقت نظرته بحذائه الجديد .

ـ « غير ان حذائي منهم ! ومهما يكن من أمر فقد تركوا شيئاً مادياً وراءهم ! وفيهم أيضاً أناس طيبون . . انشدوا لنا شيئاً ! »

صاح بهذه العبارة الأخيرة ملوحاً بذراعيه الى أولئك الذين كانوا يمرون على مقربة منه . وأجاب أحد الأسرى بجملة لم يفهمها الدليل .

« ماذا يقول ؟ »

فترجم له جارسيا : « التعساء لا يعرفون الغناء ! »

وأردف الدليل بالاسبانية : « نحن . . . أيها الأحمق ! »

وابتعد الأسرى ؛ فتابعهم بنظراته :

ـ « لا أهمية لذلك يا صديقي المسكين . . لا أهمية لذلك ! »

ومن بعيد ، انبعث صوت اكورديون من كتيبة جاريبالدي .

« أجل . . لا أهمية لذلك ! . . كنت في وادي الحجارة حارساً لحديقة . . وكانت السحالي تأتي . . . وعندما كنت في جزر الهند مع السيرك ، تعلمت لحناً هندوكياً . . وكنت أصفر هذا اللحن ، فتجري السحالي على وجهي . . . ويكفي أن تغمض عينيك . وأن تحفظ اللحن ، ولكن ماذا ؟ انها الحرب . . . الحرب ، والأسرى والأموات . . . وعندما ينتهي كل شيء سأستلقي كعادتي على الدكة اصفر ، فتسعى السحالي على وجهي . . . »

قال مانيان وهو يشد شاربه : « أحب أن أرى هذا فيما بعد » .

ونظر اليه الدليل ، ثم رفع سبابته من جديد :

ـ « لن يفهم ذلك أحد ، يا سيدي ، لا أحد » .

ثم اشار بسبابته الى الباب الذي نودي عليه منه :

ـ « حتى ولا زوجتي الثانية » .

وصاح رسول آخر : « الكيلو الرابع والتسعون ! » .

الفصل السادس

ما أن وصل أمر الاستيلاء على السيارات الايطالية من مركز القيادة العامة حتى ترك مانويل اكسيمينيس عائداً على قدميه الى ثكنات فرقته ، والى جواره كلبه الرزين ، على حين ذهب جارتنر لاعادة السيارات التي تم الاستيلاء عليها من قبل .

وكان الجنود يتسكعون في بريويجا دونما هدف بأيدٍ خاوية ، والشارع الكبير بمنازله الوردية الصفراء ، وكنائسه المتجهمة وأديرته الضخمة مليء بالأنقاض ، وبالمنازل التي خرجت احشاؤها ، وأفرغت أثاثها في الطريق . . . كان هذا الشارع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحرب الى درجة انها عندما توقفت تحول الى شيء يخلو من الواقعية والمعنى ، كالمعابد والمقابر التي كانت في يوم من الأيام لأجناس أخرى من البشر ، أو كهؤلاء الجنود الذين يجولون فيه بلا بنادق كالعاطلين .

وثمة شوارع أخرى ـ بدت على العكس من ذلك سليمة لم تمس ، وقد روى جارسيا لمانويل أن واجهات المنازل جميعاً في مدينة جيبور بجزر الهند مرسومة بصور مضللة ، وأن كل منزل من اللبن يحمل أمامه ديكوره الوردي كالقناع . ولم تكن بريويجا ، في عديد من شوارعها ـ مدينة مصنوعة من اللبن ، بل مدينة أموات . . . الموت يقبع وراء واجهاتها التي تتألف من نوم القيلولة ، وبنوافذها نصف المفتوحة تحت السماء الموحشة .

ولم يكن مانويل يسمع سوى خرير الينابيع ، فقد بدأ ذوبان الجليد ،

والمياه تسيل تحت الحواف الحجرية ، أو في القنوات العادية ثم لا تلبث أن تنتشر في الجداول فوق الحصباء المدببة التي اشتهرت بها اسبانيا القديمة ، أو تنحدر في هدير كهدير السيول الصغيرة المنحدرة من الجبل بين اللوحات الملقاة في الشارع وقطع الأثاث وأوعية المطبخ والأنقاض . ولم يبق حيوان واحد ، غير أن رجال الميليشيا الذين كانوا ينتقلون في تلك الوحشة التي يملؤها خرير الماء ـ من شارع الى آخر في سكون ـ كانوا يتسللون كالقطط ـ وكلما اقترب مانويل من منتصف المدينة اختلطت ضجة أخرى بخرير الماء ، ضجة بللورية مثل ذلك الخرير وتتمشى معه كأنها نغمة مصاحبة : هي ألحان تعزف على البيانو . . . ففي منزل قريب تداعت واجهته في الشارع ، وانفتحت حجراته على السماء المكشوفة ، كان أحد رجال الميليشيا يعزف بأصبع واحد لحناً رومانسياً على البيانو . . وأصغى مانويل في عناية ، فاستطاع أن يميز فوق خرير الماء ثلاث آلات للبيانو ، وكان كل منها تعزف عليه أصبع واحدة . لم يكن اللحن نشيد « العالمية » ، وإنما كانت كل أصبع تعزف « رومانس » بطيئة كأنها لا تعزف إلا اللحن اللامتناهي الجاثم على السفوح التي تناثرت عليها السيارات المحطمة . . . السفوح المتصاعدة من بريويجا صوب السماء الشاحبة .

وكان مانويل قد انبأ جارتنر بأنه قد هجر الموسيقى ، غير انه ادرك أن أقصى ما تمناه في هذه اللحظة التي يقف فيها وحيداً في هذا الشارع من المدينة المنكسرة ، هو ان يستمع الى شيء من الموسيقى . . . بيد أنه لم يكن يود العزف ، كما كان يريد أن يبقى وحيداً . . . وكان هناك اثنان من الجرامفونات في قاعة الطعام بفرقته ، ولم يكن قد احتفظ بالأسطوانات التي حملها معه في بداية الحرب ، غير ان عدداً كبيراً منها كان في غطاء الجرامفون الكبيرة . وكان جارتنر المانياً .

وجد بعض سمفونيات بيتهوفن ، وصوناتا الوداع ، ولم يكن مولعاً ببيتهوفن ، ولكن لا أهمية لذلك الآن ، حمل الجرامفون الصغير الى حجرته ، وأدار عليه الأسطوانات .

ولما كانت الموسيقى تعطل إرادته فقد تخلى عن طاقته كلها للماضي ، وتذكر الحركة التي ناول البا بها مسدسه . من يدري ؟ لعله قد وجد الحياة التي خلق لها ، على حد تعبير اكسيمينيس . . لقد ولد للحرب ، ولد لمسؤولية الموت . وكما يستيقظ الجائل في اثناء النوم فجأة ، فيجد نفسه فوق حافة سطح ـ قذفت هذه النغمات الهابطة في نفسه بوعي عن توازنه الرهيب ، التوازن ، الذي لا يسقط منه المرء إلا في الدم . وتذكر المتسول الأعمى الذي التقى به في مدريد ليلة معركة كارابانشل . وكان حين ذاك مع رئيس قوات الأمن في سيارة هذا الأخير ، وأضاءت مصابيح السيارة فجأة الراحتين اللتين مدهما الأعمى أمامه ، وضخمت حجمهما تضخيماً هائلاً بسبب انحدار الشارع الكبير تلويهما الأحجار وتقطعهما الأرصفة وتسحقهما سيارات الحرب القليلة التي ما زالت تذرع الشوارع . . . راحتان طويلتان كأنهما راحتا ال قدر ! . . .

وتصايحت اصوات متناثرة في المدينة بلهجة واحدة : « الكيلو الخامس والتسعون الكيلو الخامس والتسعون ! » .

وأحس بالحياة من حوله حافلة بالبشائر ، وكأنما تنتظره في سكون وراء تلك السحب الواطئة التي لم تعد المدافع تهزها ـ مصائر عمياء ، وأصغى الكلب ممدداً بكل جسمه كأنه صورة بارزة منحوتة على جدار . . سيأتي السلام يوماً ، وسيصبح مانويل شخصاً آخر ، شخصاً يجهل نفسه ، مثلما كان محارباً اليوم مجهولاً بالنسبة لذلك الشخص الذي اشترى سيارة صغيرة ليذهب بها الى سلسلة الجبال للانزلاق على الجليد .

والأمر على هذا النحو ـ دون شك ـ بالنسبة لكل رجل من هؤلاء الرجال الذين يعبرون الشارع ، والذين يعزفون باصبع واحدة ألحانهم الرومانسية العنيدة على البيانو ، تحت السماء المكشوفة ، والذين حاربوا بالأمس متلفعين بقلنسواتهم المدببة . وكان مانويل يعرف ذاته ـ في الماضي ـ حين يعكف على تأمل نفسه ، أما اليوم فإنه يعرفها حين تنتزعه المصادفة من الفعل لتقذف

بماضيه في وجهه ، وستبلغ اسبانيا الوعي بنفسها أخيراً ـ مثله ومثل كل واحد من هؤلاء الرجال ـ حين تجف دماؤ ها ـ فتكون أشبه بمن يسائل نفسه فجأة ساعة الموت ، واذا كنا لا نكتشف الحرب سوى مرة واحدة ، فإننا نكتشف الحياة مرات عدة .

وتحدثت تلك الحركات الموسيقية المتعاقبة الممتزجة بماضيه ، كما كان من الممكن ان تتحدث المدينة التي صدت المغاربة ، وهذه السماء ، وتلك الحقول الأبدية ، ولأول مرة انصت مانويل الى صوت أشد رهبة من دماء البشر ، وأبعث على القلق من وجودهم على الأرض : إنه امكانية مصيرهم اللامتناهية ، وأحس في نفسه بذلك الحضور الممتزج بخرير الجداول وخطوات الأسرى . . . حضور دائم عميق مثل نبض قلبه ! . .

« انتهت » .



الأمل

آندريه مالرو

تتطرق هذه الرواية إلى أجزاء من الحرب الأهلية الإسبانية، وقد استمد مالرو جزءاً كبيراً من مادة هذه الرواية من خلال انخراطه الشخصي في الثورة التي قادها الجمهوريون الإسبان ضد الجنرال فرانكو. وقد أثارت هذه الرواية إعجاب اليمين واليسار على حدٍ سواء. إذ جمعت في طرحها بين البطولة والإنسانية والجمالية الفنية، حيث تناول من خلالها مسألة الثورة ووحدة الأمة، ولتتناول متافيزيقيا الحياة والموت والتضحية والبطولة والفداء، وملخصاً جوهر وظيفة المثقف في النطاق السياسي. هذا المثقف الذي يمكن التعويل عليه في المساهمة، ولو بقدر ضئيل، في تصحيح الوضع الإنساني، ولاسيما في عالمنا الثالث ومنه فضاؤنا العربي. إذ يكون قادراً على إنتاج الأسئلة الضرورية، وفي الوقت المناسب. هذه الأسئلة ربما تكون نوعاً ما حائلاً دون تكرار حدوث "الحوادث" في أفق مستقبلنا.



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف - ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ - ٠٠٩٦١٣٧٢٨٤٧١

توزيع دار الفارابي

